تفسير النسفي

(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

تأليف

أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

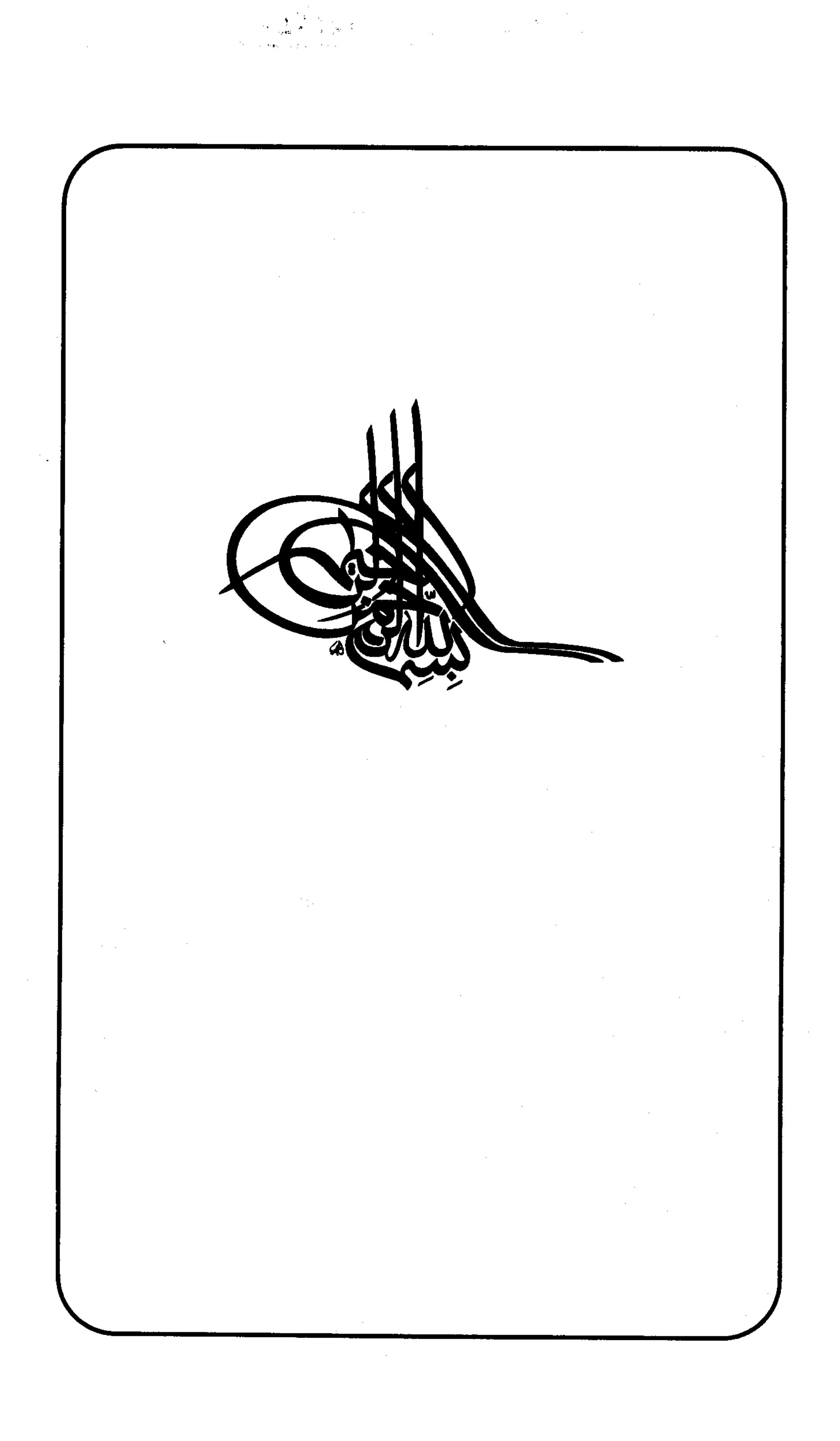
«ت ٧١٠ هـ»

حقَّقه وخرّج أحاديثه
يوسف علي بديوي

راجعه وقدّم له
محيي الدين ديب مستو

الجزء الثالث

دار الكلم الطيب
بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم


تفسير النسفي
(مدارك التنزيل وحقائق التأويل)

الطَّبعَة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكلم الطيب للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - شارع مسلم البارودي - هاتف ٢١٢٩٨٨٦ ص.ب ٣٠٥٥٢
بيروت. ص.ب : ١١٣/٦٣١٨



بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ
هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

١، ٢ ـ ﴿الٓمٓ﴾ ـ على أنها اسم السورة ـ مبتدأ، وخبره: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾. وإن جعلتها تعديداً للحروف ارتفع ﴿تنزيل﴾ بأنه خبر مبتدأ محذوف. أو: هو مبتدأ خبره: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. أو: يرتفع بالابتداء، وخبره: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ و ﴿لا ريب فيه﴾ اعتراض لا محلّ له. والضمير فيه راجع إلى مضمون الجملة، كأنّه قيل: لا ريب في ذلك، أي: في كونه منزلاً من رب العالمين؛ لأنه معجز للبشر ومِثْله أبعد شيء من الريب. ثمّ أضرب عن ذلك إلى قوله:

٣ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ـ أي: اختلقه محمد ﷺ. لأنّ ﴿أم﴾ هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل، والهمزة. معناه: بل أيقولون افتراه، إنكاراً لقولهم، وتعجيباً منه؛ لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحقُّ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ ولم يفتره محمّد ﷺ كما قالوا تعنّتاً وجهلاً ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أي: العرب ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ «ما» للنفي. والجملة صفة لـ ﴿قوماً﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ على

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾

الترجّي من رسول الله ﷺ كما كان ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤] على الترجّي من موسى وهارون.

٤ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استولى عليه بإحداثه ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً، أي: ناصراً ينصركم، ولا شفيعاً يشفع لكم ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون بمواعظ الله.

٥ ـ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أمر الدنيا ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى أن تقوم الساعة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلك الأمر كله، أي: يصير إليه ليحكم فيه ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو: يوم القيامة ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيّام الدنيا. ولا تمسّك للمشبّهة بقوله ﴿إليه﴾ في إثبات الجهة؛ لأنّ معناه: إلى حيث يرضاه، أو: أمره، كما لا تشبّث لهم بقوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ [الصافات: ٩٩] ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦] ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

٦ ـ ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: الموصوف بما مرّ عالم ما غاب عن الخلق وما شاهدوه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب أمره وتدبيره ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ البالغ لطفه وتيسيره. وقيل: لا وقف عليه، لأنّ:

٧ ـ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ صفته ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: حسّنه، لأنّ كلّ شيء مرتب على ما اقتضته الحكمة ﴿خَلَقَهُۥ﴾ كوفيّ، ونافع، وسهل، على الوصف، أي: كلّ شيء خلقه فقد أحسن. ﴿خلقَه﴾ غيرهم على البدل، أي: أحسن خلق كل شيء ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ آدم ﴿مِن طِينٍ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

٨ ـ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ ذريته ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ من نطفة ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ أي: منيّ. وهو بدل من ﴿سلالة﴾ ﴿مَّهِينٍ﴾ ضعيف، حقير.

٩ ـ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ قوّمه، كقوله: ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. ﴿وَنَفَخَ﴾ أدخل ﴿فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ الإضافة للاختصاص، كأنّه قال: ونفخ فيه من الشيء الذي اختصّ هو به، وبعلمه ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتسمعوا، وتبصروا، وتعقلوا ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون قليلاً.

١٠ ـ ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ القائل: أبيّ بن خلف. ولرضاهم بقوله: أسند إليهم ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صرنا تراباً، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض لا نتميّز منه، كما يضلّ الماء في اللبن. أو: غبنا في الأرض بالدفن فيها. وقرأ عليّ: ﴿ضلِلنا﴾ بكسر اللام، يقال: ضلّ يَضِلّ، وضلّ يَضَلّ. وانتصب الظرف في ﴿أئذا ضللنا﴾ بما يدلّ عليه ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو نُبْعَثُ ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون. لمّا ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ، وهو أنّهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة، لا بالبعث وحده.

١١ ـ ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: ﴿يتوفّاكم ملك الموت الذي وكلّ﴾ بقبض أرواحكم ﴿ثمّ﴾ ترجعون ﴿إلى ربّكم﴾ بعد ذلك مبعوثين للحساب، والجزاء. وهذا معنى لقاء الله. والتوفّي: استيفاء النفس وهي الروح، أي: يقبض أرواحكم أجمعين. من قولك: توفّيت حقّي من فلان: إذا أخذتَه وافياً كَمَلاً من غير نقصان. وعن مجاهد: حُوِّيت لملك الموت الأرض، وجعلت له مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء. وقيل: ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه، ثمّ يأمر أعوانه بقبضها، والله تعالى هو الآمر بذلك كلّه، وهو الخالُق لأفعال المخلوقات. فهذا وجهُ الجمع بين هذه

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾

الآية، وبين قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

١٢ ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو: لكلّ أحد. و«لو» امتناعية. والجواب محذوف، أي: لرأيت أمراً عظيماً ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وهم الذين قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]. و«لو» و«إذ» للمضيّ. وإنّما جاز ذلك لأنّ المترقّب من الله بمنزلة الموجود. ولا يقدر لـ ﴿ترى﴾ ما يتناوله؛ كأنّه قيل: ﴿ولو﴾ تكون منك الرؤية. و﴿إذ﴾ ظرف له ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ من الذّل، والحياء، والندم ﴿عند ربهم﴾ ﴿عِندَ﴾ حساب ﴿رَبِّهِمْ﴾. ويوقف عليه لحقّ الحذف، إذا التقدير: يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ صدق وعدك، ووعيدك ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق رسلك. أو كنّا عمياً وصمّاً، فأبصرنا وسمعنا ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي: الإيمان، والطاعة ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ بالبعث، والحساب الآن.

١٣ ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ﴾ في الدنيا ﴿هُدَىٰهَا﴾ أي: لو شئنا أعطينا كلّ نفس ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا، لكن لم نعطهم ذلك اللطف، لما علمنا منهم اختيار الكفر، وإيثاره. وهو حجّة على المعتزلة، فإنّ عندهم: شاء الله أن يعطي كلّ نفس ما به اهتدت، وقد أعطاها، لكنّها لم تهتد، وهم أوّلوا الآية بمشيئة الجبر، وهو تأويلٌ فاسد؛ لما عرف في تبصّرة الأدلّة ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ولكن وجب القول مني لما علمت أنه يكون منهم ما يستوجبون به جهنّم، وهو ما علم منهم أنّهم يختارون الردّ والتكذيب. وفي تخصيص الجنّ والإنس إشارة إلى أنّه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنّم.

١٤ ـ ﴿فَذُوقُوا۟﴾ العذاب ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ﴾ بما تركتم عمل لقاء ﴿يَوْمِكُمْ

﴿هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾

﴿هَٰذَآ﴾ وهو: الإيمان به ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ وتركناكم في العذاب كالمنسّي ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أي: العذاب الدائم، الذي لا انقطاع له ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ من الكفر، والمعاصي.

١٥ ـ ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ أي: وعظوا بها ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ سجدوا لله تواضعاً، وخشوعاً، وشكراً على ما رزقهم من الإسلام ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ ونزّهوا الله عمّا لا يليق به، وأثنوا عليه حامدين له ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩﴾ عن الإيمان، والسجود له.

١٦ ـ ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ ترتفع، وتتنحّى ﴿جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ عن الفرش ومواضع النوم. قال سهل: وهب لقوم هبة، وهو أن أذن لهم في مناجاته، وجعلهم من أهل وسيلته، ثمّ مدحهم عليه، فقال: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ ﴿يَدۡعُونَ﴾ داعين ﴿رَبَّهُمۡ﴾ عابدين له ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ مفعول له، أي: لأجل خوفهم من سخطه، وطمعهم في رحمته، وهم المتهجّدون. عن النبيّ ﷺ في تفسيرها: «قيام العبد من الليل»[١]. وعن ابن عطاء: أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة، وطلبت بساط القربة. يعني: صلاة الليل. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أناس من أصحاب النبيّ ﷺ يصلّون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة، فنزلت فيهم[٢]. وقيل: هم الذين يصلّون صلاة العَتَمة لا ينامون عنها ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله تعالى.

١٧ ـ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم﴾ «ما» بمعنى الذي ﴿أُخۡفِي﴾ على حكاية النفس: حمزة ويعقوب ﴿مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ أي: لا يعلم أحد ما أعدّ لهؤلاء من

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣٢، ٢٤٢).
(٢) رواه ابن مردويه. (حاشية الكشاف ٣ / ٥١٢).

جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ
عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ
دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ
أَعْرَضَ

الكرامة ﴿جَزَآءَۢ﴾ مصدر، أي: جوزوا ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ عن الحسن ـ رحمه الله ـ: أخفى القوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. وفيه: دليلٌ على أنّ المرادَ: الصلاة في جوف الليل؛ ليكون الجزاءُ وفاقاً.

١٨ ـ ثمَّ بيّن أنّ من كان في نور الطاعة والإيمان لا يستوي مع مَن هو في ظلمة الكفر والعصيان بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾، أي: كافراً، وهما محمولان على لفظ ﴿مَنْ﴾، وقوله: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ على المعنى، بدليل قوله:

١٩ ـ ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ هي نوعٌ من الجنان تأوي إليها أرواح الشهداء. وقيل: هي عن يمين العرش ﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ عطاء بأعمالهم. والنزل: عطاء النازل، ثمّ صار عامّاً.

٢٠ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: ملجؤهم، ومنزلهم ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: يقول لهم خزنة النار ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ وهذا دليلٌ على أنّ المرادَ بالفاسق: الكافر، إذ التكذيب يقابل الإيمان.

٢١ ـ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: عذاب الدنيا من الأسر، وما محنوا به من السنة سبع سنين ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة، نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة. وعن الداراني: العذاب الأدنى: الخِذْلان، والعذاب الأكبر: الخلود في النيران. وقيل: العذاب الأدنى: عذاب القبر ـ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعلّ المعذّبين بالعذاب الأدنى ﴿يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون عن الكفر.

٢٢ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ﴾ وعظ ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ

عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ

﴿عَنْهَآ﴾ أي: فتولىّ عنها، ولم يتدبّر فيها. و﴿ثمّ﴾ للاستبعاد، أي: أنّ الإعراض عن مثل هذه الآيات في وضوحها، وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثمّ لم تنتهزها؟! استبعاداً لتركه الانتهاز ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ ولم يقل: منه؛ لأنّه إذا جعله أظلم كلّ ظالم، ثمّ توعّد المجرمين عامّة بالانتقام منهم؛ فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام. ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

٢٣ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة. ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾ شكّ ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ من لقاء موسى الكتاب، أو: من لقائك موسى ليلة المعراج، أو: يوم القيامة، أو: لقاء موسى ربّه في الآخرة. كذا عن النبيّ ﷺ ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وجعلنا الكتاب المنزل على موسى هدىً لقومه.

٢٤ ـ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ بهمزتين: كوفيّ، وشاميّ ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس، ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله، وشرائعه ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إيّاهم بذلك حين صبروا على الحق وطاعة الله. أو: عن المعاصي ﴿لِمَا صَبَرُوا۟﴾[1]: حمزة وعليّ، أي: لصبرهم عن الدنيا. وفيه دليلٌ على أنّ الصبرَ ثمرتُه إمامة الناس ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التوراة ﴿يُوقِنُونَ﴾ يعلمون علماً لا يخالجه شكّ.

٢٥ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بين الأنبياء وأممهم، أو: بين المؤمنين والمشركين ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيظهر المحقّ من المبطل.

٢٦ ـ ﴿أَوَلَمْ﴾ الواو للعطف على معطوف عليه منويّ من جنس المعطوف، أي: ﴿أ﴾ لم يدع ﴿يَهْدِ﴾ يبيّن، والفاعل: الله؛ بدليل قراءة زيد عن يعقوب

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة (لِمَا صبروا). وهي قراءة من ذكرهم.

لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾

﴿نَهْدِ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ لأهل مكّة ﴿كَمْ﴾ لا يجوز أن يكون فاعل ﴿يهد﴾؛ لأنّ ﴿كم﴾ للاستفهام فلا يعمل فيه ما قبله. ومحلّه نصب بقوله: ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ كعاد، وثمود، وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: أهل مكة يمرّون في متاجرهم على ديارهم، وبلادهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ المواعظ فيتعظون.

٢٧ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ﴾ نجري المطر، والأنهار ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أي: الأرض التي جرز نباتها، أي: قطع، إما لعدم الماء، أو: لأنه رُعي. ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ: جرز، بدليل قوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ من عَصْفه ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من حبّه ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ بأعينهم، فيستدلّوا على إحياء الموتى.

٢٨ ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ النصر، أو: الفصل بالحكومة من قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]. وكان المسلمون يقولون: إنّ الله سيفتح لنا على المشركين. أو: يفتح بيننا وبينهم. فإذا سمع المشركون قالوا: ﴿متى هذا الفتح﴾ أي: في أيّ وقت يكون ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنه كائن.

٢٩ ـ ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ أي: يوم القيامة ـ وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم، ويوم نصرهم عليهم، أو: يوم بدر، أو: يوم فتح مكّة ـ ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾. وهذا الكلام لا ينطبق جواباً على سؤالهم ظاهراً. ولكن لمّا كان غرضهم في السُّؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم، فقيل لهم: لا تستعجلوا به، ولا تستهزئوا، فكأنّي بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان واستنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا. ومن

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾

فسّره بيوم الفتح، أو: بيوم بدر، فهو يريد المقتولين منهم، فإنّهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند الغرق.

٣٠ ـ ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ﴾ النصرة عليهم، وهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ الغلبة عليكم، وهلاككم. وكان عليه الصلاة والسلام لا ينام حتّى يقرأ: ﴿ألم تنزيل﴾ السجدة و﴿تبارك الذي بيده الملك﴾. وقال: «من قرأ: ﴿ألم تنزيل﴾ في بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام»[1] وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: سورة ﴿ألم تنزيل﴾ هي المانعة، تمنع من عذاب القبر.

* * *

(١) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشاف ٣ / ٥١٧).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۚ

قال أبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ لزرّ: كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قال: ثلاثاً وسبعين، قال: فوالذي يحلف به أبيّ، إن كانت لتعدل سورة البقرة، أو: أطول. ولقد قرأنا منها آية الرجم «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» نكالاً من الله والله عزيز حكيم. أراد أبيّ: أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن. وأما ما يُحكى أنّ تلك الزيادة كانت في صحيفةٍ في بيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ فأكلتها الداجن، فمن تأليفات الملاحدة، والروافض.

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وبالهمزة: نافع، أي: يا أيها المخبر عنّا، المأمون على أسرارنا، المبلّغ خطابنا إلى أحبابنا. وإنّما لم يقل: يا محمد، كما قال: ﴿يا آدم﴾ ﴿يا موسى﴾ تشريفاً له، وتنويهاً بفضله. وتصريحه باسمه في قوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] ونحوه لتعليم الناس بأنّه رسول الله ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أثبت على تقوى الله، ودُمْ عليه، وازددْ منه، فهو بابٌ لا يدرك مداه ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ولا تساعدهم على شيء، واحترسْ منهم، فإنّهم أعداء الله

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ

والمؤمنين. ورُوي: أنّ أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلميّ، قدموا المدينة بعد قتال أحد، فنزلوا على عبد الله بن أبيّ، وأعطاهم النبيّ[1] الأمان على أن يكلّموه. فقالوا له: ارفضْ ذكر آلهتنا، وقل: إنّها تشفع وتنفع. ووازرهم المنافقون على ذلك، فهمّ المسلمون بقتلهم؛ فنزلت. أي: ﴿اتّق الله﴾ في نقض العهد ﴿ولا تطع الكافرين﴾ من أهل مكّة ﴿والمنافقين﴾ من أهل المدينة فيما طلبوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخبث أعمالهم ﴿حَكِيمًا﴾ في تأخير الأمر بقتالهم.

٢ ـ ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ في الثبات على التقوى، وترك طاعة الكافرين والمنافقين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي يُوحي إليك ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لم يزل عالماً بأعمالهم، وأعمالكم. وقيل: إنما جمع لأنّ المراد بقوله: ﴿اتّبع﴾ هو وبالياء: أبو عمرو، أي: بما يعمل الكافرون والمنافقون من كيدهم لكم، ومكرهم بكم.

٣ ـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وأسند أمرك إليه، وكِلْه إلى تدبيره ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حافظاً، موكولاً إليه كلّ أمر. وقال الزجاج: لفظه وإن كان لفظ الخبر، والمعنى: اكتفِ بالله وكيلاً.

٤ ـ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي: ما جمع الله قلبين في جوف، ولا زوجةً وأمومة في امرأة، ولا بنوّة ودِعْوَةً في رجل. والمعنى: أنّه تعالى كما لم يجعل لإنسان قلبين ـ لأنه لا يخلو إمّا أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب، فأحدهما فضلة غير محتاج إليه، وإمّا أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك،

(١) مستدرك من المطبوع.

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾

فذلك يؤدّي إلى اتّصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً، عالماً ظانّاً، موقناً شاكّاً، في حالة واحدة ـ لم يحكم أيضاً أن تكون المرأةُ الواحدة أمّاً لرجل وزوجاً له؛ لأنّ الأمّ مخدومة والمرأة خادمة، وبينهما منافاة، وأن يكون الرجلُ الواحد دَعيّاً لرجل وابناً له؛ لأن النبوّة أصالة في النسب، والدِعْوَةُ إلصاق عارض بالتسمية لاغير، لئلا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل.

وهذا مثل ضربه الله تعالى في زيد بن حارثة، وهو رجلٌ من كلب سُبِي صغيراً، فاشتراه حكيم بن حزام لعمّته خديجة، فلمّا تزوجها رسولُ الله ﷺ وهبته له، فطلبه أبوه وعمّه فَخُيِّر فاختار رسولَ الله ﷺ فأعتقه، وتبنّاه. وكانوا يقولون: زيد بن محمد، فلمّا تزوّج النبيُّ ﷺ زينب ـ وكانت تحت زيد ـ قال المنافقون: تزوّج محمدٌ امرأةَ ابنه، وهو ينهى عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: كان المنافقون يقولون: لمحمّد قلبان قلب معكم وقلب مع أصحابه. وقيل: كان أبو معمر أحفظ العرب، فقيل له: ذو القلبين، فأكذب الله قولهم، وضربه مثلاً في الظهار والتبنّي. والتنكير في ﴿رجل﴾ وإدخال ﴿من﴾ الاستغراقية على ﴿قلبين﴾ وذكر الجوف للتأكيد. ﴿اللائي﴾ بياء بعد الهمزة حيث كان، كوفيّ، وشاميّ. ﴿اللاءِ﴾ نافع، ويعقوب، وسهل. وهي جمع التي ﴿تُظَاهِرون﴾ عاصم، من: ظاهر؛ إذا قال لامرأته: أنت عليّ كظهر أمّي ﴿تَظَاهَرون﴾ عليّ، وحمزة، وخلف ﴿تَظّاهَرون﴾ شاميّ من اظّاهر بمعنى تظاهر. غيرهم ﴿تَظّهّرون﴾ من: اظّهّر بمعنى: تظهّر. وعدّي بـ«مِنْ» لتضمّنه معنى البعد؛ لأنّه كان طلاقاً للجاهلية ونظيره: آلى من امرأته لمّا ضمّن معنى التباعد منها عدّي بـ«مِنْ». وإلاّ، فـ«آلى» في أصله ـ الذي هو معنى حلف وأقسم ـ ليس هذا بحكمه. والدعيّ: فعيل بمعنى مفعول، وهو الذي يُدْعى ولداً. وجمع على أفعلاء شاذّاً ـ لأنّ بابه ما كان منه بمعنى فاعل كتقيّ وأتقياء، وشقيّ وأشقياء، ولا يكون ذلك في نحو: رميّ وسميّ ـ للتشبيه اللفظيّ ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي: أنّ قولكم للزوجة: هي أمّ، وللدعيّ: هو ابن قول تقولونه بألسنتكم، لا حقيقة له، إذ الابن يكون بالولادة، وكذا الأمّ ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: ما هو حقّ ظاهره وباطنه ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي:

ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ

سبيل الحقّ. ثمّ قال ما هو الحقّ وهدى إلى ما هو سبيل الحق وهو قوله:

٥ ـ ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾. وبيّن أنّ دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين في القسط والعدل. وقيل: كان الرجل في الجاهليّة إذا أعجبه جَلَدَ الرجل ضمّه إلى نفسه، وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه، وكان ينسب إليه فيقال: فلان بن فلان. ثمّ انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث وصل الجُمَلَ الطلبيّة، ثمّ فصل الخبريّة عنها، ووصل بينها، ثمّ فصل الاسميّة عنها، ووصل بينها، ثمّ فصل بالطلبيّة ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين، وأولياؤكم في الدين، فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي، ويا أخي، ويا مولاي، يريد: الأخوّة في الدين، والولاية فيه ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهي، ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكن الإثم فيما تعمّدتموه بعد النهي، أو لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم: يا بنيّ! على سبيل الخطأ، وسبق اللسان، ولكن إذا قلتموه متعمّدين. و﴿ما﴾ في موضع الجرّ عطف على ﴿ما﴾ الأولى. ويجوز أن يُراد العفو عن الخطأ دون العمد على سبيل العموم، ثمّ تناول لعمومه خطأ التبنّي وعمده. وإذا وجد التبنّي، فإن كان المتبنَّى مجهول النسب، وأصغر سنّاً منه، ثبت نسبه منه، وعتق إن كان عبداً له. وإن كان أكبر سنّاً منه لم يثبت النسب، وعتق عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ. وأمّا المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبنّي، وعتق إن كان عبداً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لا يؤاخذكم بالخطأ، ويقبل التوبة من المتعمِّد.

٦ ـ ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أحقّ بهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، فعليهم أن يبذلوها دونه، ويجعلوها فداءه. أو: هو أولى بهم، أي: أرأف بهم، وأعطف عليهم، وأنفع

وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾

لهم، كقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وفي قراءة ابن مسعود: (النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم) وقال مجاهد: كلّ نبيّ أبو أمّته. ولذلك صار المؤمنون إخوة؛ لأنّ النبيَّ ﷺ أبوهم في الدين ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ في تحريم نكاحهنّ، ووجوب تعظيمهنّ، وهنّ فيما وراء ذلك كالإرث وغيره كالأجنبيّات، ولهذا لم يتعدّ التحريم إلى بناتهنّ ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ وذوو القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث. وكان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة، لا بالقرابة، ثمّ نسخ ذلك، وجعل التوارث بحقّ القرابة ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكمه وقضائه، أو: في اللوح المحفوظ، أو: فيما فرض الله ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ يجوز أن يكون بياناً لأولي الأرحام، أي: الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، وأن يكون لابتداء الغاية، أي: أولو الأرحام بحقّ القرابة أولى بالميراث من المؤمنين أي: الأنصار بحقّ الولاية في الدين، ومن المهاجرين بحقّ الهجرة ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ الاستثناء من خلاف الجنس، أي: لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً جائز، وهو: أن توصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشيء، فيكون ذلك بالوصية لا بالميراث. وعدّي ﴿تفعلوا﴾ بإلى لأنّه في معنى: تُسْدوا. والمراد بالأولياء: المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدّين ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي: التوارث بالأرحام كان مسطوراً في اللوح.

٧ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ واذكر حين ﴿أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾ بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدِّين القيّم ﴿وَمِنكَ﴾ خصوصاً. وقدّم رسول الله على نوح ومَن بعده؛ لأنّ هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء؛ لأنّهم أولو العزم، وأصحاب الشرائع. فلمّا كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء قدّم عليهم، ولولا ذلك لقدّ مَن قدّمه زمانه ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾

وثيقاً ـ وأعاد ذكر الميثاق لانضمام الوصف إليه ـ وإنّما فعلنا ذلك:

٨ ـ ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ الله ﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ أي: الأنبياء ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ عمّا قالوه لقومهم. أو: ﴿ليسأل﴾ المصدّقين للأنبياء عن تصديقهم؛ لأنّ من قال للصادق: صدقت، كان صادقاً في قوله. أو: ﴿ليسأل﴾ الأنبياء ما الذي أجابتهم به أممهم. وهو كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ بالرسل ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وهو عطف على ﴿أخذنا﴾ لأنّ المعنى أنّ الله أكّد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين ﴿وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً﴾. أو: على ما دلّ عليه: ﴿ليسأل الصادقين﴾ كأنّه قال: فأثاب المؤمنين ﴿وأعدّ للكافرين﴾.

٩ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب، وهو يوم الخندق، وكان بعد حرب أُحُد بِسَنَةٍ ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي: الأحزاب. وهم: قريش، وغطفان، وقريظة، وبني النضير ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي: الصبا. قال ﷺ: «نُصِرت بالصبا، وأُهْلِكَت عادٌ بالدبور»[١] ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، وكانوا ألفاً، بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاطئة فأخصرتهم، وسَفَتِ التراب في وجوههم. وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وماجت الخيل بعضها في بعض، وقذف في قلوبهم الرعب، وكبّرت الملائكة في جوانب عسكرهم، فانهزموا من غير قتال. وحين سمع رسولُ الله ﷺ بإقبالهم، ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان، ثمّ خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذّراري والنسوان فَرُفِعوا في الآطام[٢]، واشتدّ الخوفُ. وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من

(١) رواه أحمد (١/٢٢٨و٣٢٤) والبخاري (٤١٠٥) ومسلم (٩٠٠).

(٢) «الآطام»: الحصون.

وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾

الأحابيش، وبني كنانة، وأهل تهامة، وقائدهم أبو سفيان. وخرج غطفان في ألف ومَن تابعهم من أهل نجد، وقائدهم عيينة بن حصن، وعامر بن الطفيل في هوازن، وضامّتهم اليهود من قريظة والنضير ومضى على الفريقين قريبٌ من شهر، لا حرب بينهم إلاّ الترامي بالنبل والحجارة، حتى أنزل الله النصر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بعملكم أيها المؤمنون من التحصن بالخندق، والثبات على معاونة النبيّ ﷺ ﴿بَصِيرًا﴾. وبالياء: أبو عمرو، أي: بما يعمل الكفّار من البغي، والسعي في إطفاء نور الله.

١٠ ـ ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ بدل من ﴿إذ جاءتكم﴾ ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: من أعلى الوادي من قبل المشرق، بنو غطفان ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب، قريش ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة، أو: عدلت عن كلّ شيء، فلم تلتفت إلاّ إلى عدوّها لشدّة الروع ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ الحنجرة: رأس الغلصمة، وهي: منتهى الحلقوم. والحلقوم: مدخل الطعام والشراب. قالوا: إذا انتفخت الرئةُ من شدّة الفزع أو الغضب ربت، وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة. وقيل: هو مثلٌ في اضطراب القلوب وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة. رُوي: أنّ المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ: هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: «نعم. قولوا: اللهم استرْ عوراتنا، وآمِنْ روعاتنا»[1] ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ خطاب للذين آمنوا، ومنهم: ثُبَّتُ القلوب والأقدام، والضعاف القلوب، والمنافقون. فظنّ الأوّلون بالله أنّه يبتليهم فخافوا الزلل، وضعف الاحتمال. وأمّا الآخرون فظنّوا بالله ما حُكي عنهم. قرأ أبو عمرو وحمزة: ﴿الظنون﴾ بغير ألف في الوصل والوقف، وهو القياس. وبالألف فيهما: مدنيّ، وشاميّ، وأبو بكر إجراء للوصل مجرى الوقف. وبالألف في الوقف: مكيّ، وعليّ، وحفص،

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٥) وأبو داود (٥٠٧٤) وابن ماجه (٣٨٧١) والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٠).

هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ

ومثله: ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦] و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] زادوها في الفاصلة، كما زادها في القافية من قال:

أقلِّي اللومَ عاذِلَ والعِتابا[١] ... ...

وهنّ كلّهنّ في الإمام بألفٍ.

١١ ـ ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ امتُحِنوا بالصبر على الإيمان ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ وحرّكوا بالخوف تحريكاً بليغاً.

١٢ ـ ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عطف على الأولى ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قيل: هو وصف المنافقين بالواو، كقوله:

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمام ولَيْثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ

وقيل: هم قوم لا بصيرةَ لهم في الدين، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ رُوي: أنّ مُعتِّب بن قُشَير حين رأى الأحزاب قال: يعدنا محمد فتح فارس والروم، وأحدنا لا يقدرُ أن يتبرّز فرقاً[٢]! ما هذا إلاّ وعد غرور.

١٣ ـ ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين، وهم: عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ هو اسم المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾[٣] وبضمّ الميم: حفص، أي: لا قرار لكم ـ هاهنا ـ ولا مكان تقومون فيه، أو: تقيمون ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى الكفر. أو: من عسكر رسول الله إلى المدينة ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ أي:

---

(١) صدر بيت لجرير، وعجزه: وقولي إن أصبت لقد أصابا.

(٢) «فرقاً»: خوفاً.

(٣) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿مَقَام﴾ وهي قراءة: ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وآخرين. معجم القراءات القرآنية (٥/ ١١٤).

يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

بنو حارثة ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: ذات عورة ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ العورة: الخلل. والعوِرة: ذات العورة. وهي قراءةُ ابن عباس: يقال: عوِر المكان عَوَراً؛ إذا بدا منه خلل يُخافُ منه العدوّ، والسارق. ويجوز أن يكون ﴿عورة﴾ تخفيف عوِرة. اعتذروا أنّ بيوتهم عرضة للعدوّ والسُّرّاق، لأنّها غير محصّنة، فاستأذنوه ليحصّنوها، ثمّ يرجعوا إليه، فأكذبهم الله بأنّهم لا يخافون ذلك، وإنّما يريدون الفرارَ من القتال.

١٤ ـ ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ المدينة، أو: بيوتهم، من قولك: دخلت على فلان داره ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها، أي: ولو دخلت هذه العساكر المتحزّبة التي يفرّون خوفاً منها مدينتهم، أو: بيوتهم من نواحيها كلّها، وانثالت[١] على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابين ﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ عند ذلك الفزع ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أي: الردّة والرجعة إلى الكفر، ومقاتلة المسلمين ﴿لَآتَوْهَا﴾ لأعطوها ﴿لأتوها﴾ بلا مدّ: حجازيّ، أي: لجاؤوها، وفعلوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ بإجابتها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقّف. أو: ما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم ﴿إلاّ يسيراً﴾ فإنّ الله يهلكهم. والمعنى: أنهم يتعلّلون بإعوار بيوتهم ليفرّوا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين، وعن مصافّة الأحزاب الذين ملؤوهم هولاً ورعباً. وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا[٢] عليهم أرضهم وديارهم، وعُرِضَ عليهم الكفر، وقيل لهم: كونوا على المسلمين لسارعوا إليه، وما تعلّلوا بشيء. وما ذاك إلاّ لمقتهم الإسلام، وحبّهم الكفر.

١٥ ـ ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: بنو حارثة من قبل الخندق، أو: من قبل نظرهم إلى الأحزاب ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ منهزمين ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ مطلوباً مُقْتَضىً، حتّى يوفى به.

---

(١) «انثالت»: انصبّت.

(٢) «كبسوا»: أغاروا فجأة.

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ

١٦ ـ ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إن كان حضر أجلكم لم ينفعكم الفرار، وإن لم يحضر وفررتم لم تمتّعوا في الدنيا إلاّ قليلاً، وهو مدّةُ أعماركم وذلك قليل. وعن بعض المروانيّة: أنّه مرّ بحائط مائل فأسرع، فتليت له هذه الآية، فقال: ذلك القليل نطلب.

١٧ ـ ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ممّا أراد الله إنزاله بكم ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ في أنفسكم من قتل، أو: غيره ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: إطالة عمر في عافية وسلامة. أي: من يمنع الله من أن يرحمكم إن أراد بكم رحمة؛ لما في العصمة من معنى المنع ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ناصراً.

١٨ ـ ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: من يعوّق عن نصرة رسول الله ﷺ، أي: يمنع، وهم المنافقون ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ في الظاهر من المسلمين ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: قرّبوا أنفسكم إلينا، ودعوا محمداً. وهي لغة أهل الحجاز، فإنهم يسوّون فيه بين الواحد والجماعة. وأمّا تميم فيقولون: هلمّ يا رجل، وهلمّوا يا رجال. وهو صوت سمّي به فعل متعدّ، نحو: أحضِرْ، وقرّب ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا إتياناً قليلاً، أي: يحضرون ساعة رياء، ويقفون قليلاً مقدار ما يرى شهودُهم، ثمّ ينصرفون.

١٩ ـ ﴿أَشِحَّةً﴾ جمع شحيح، وهو: البخيل. نصبت على الحال من الضمير في ﴿يأتون﴾، أي: يأتون الحرب بخلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالظفر والغنيمة ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ من قبل العدوّ، أو منه عليه الصلاة والسلام ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في تلك الحالة ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ يميناً وشمالاً ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ كما ينظر المغشيّ عليه من معالجة سكرات الموت حذراً، وخِوَراً، ولواذاً بك ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ زال ذلك الخوف، وأمنوا، وحيزت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ
ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟
فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن
يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ
كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن
كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ

خاطبوكم مخاطبة شديدة، وآذوكم بالكلام. خطيب مِسْلَق: فصيح، ورجل مِسْلَاق: مبالغ في الكلام، أي: يقولون: وفّروا قسمتنا، فإنّا قد شاهدناكم، وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوّكم ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: خاطبوكم أشحّة على المال، والغنيمة. و﴿أشحّة﴾ حال من فاعل ﴿سلقوكم﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ في الحقيقة، بل بالألسنة ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أبطل بإضمارهم الكفر ما أظهروه من الأعمال ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ إحباط أعمالهم ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيناً.

٢٠ ـ ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي: لجبنهم يظنّون أنّ الأحزاب لم ينهزموا، ولم ينصرفوا، مع أنّهم قد انصرفوا ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرّة ثانية ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ البادون: جمع البادي، أي: يتمنّى المنافقون لجبنهم أنّهم خارجون من المدينة إلى البادية، حاصلون بين الأعراب ليأمنوا على أنفسهم، ويعتزلوا ممّا فيه المؤمنون من القتال ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كلّ قادم منهم من جانب المدينة ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ عن أخباركم، وعمّا جرى عليكم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ ولم يرجعوا إلى المدينة، وكان قتال ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء، وسمعة.

٢١ ـ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ﴾ بالضمّ حيث كان؛ عاصم ـ أي: قدوة. وهو: المؤتَسَى به، أي: المُقْتَدَى به ـ كما تقول: في البيضة عشرون مَناحديدٍ، أي: هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد، أو: فيه خصلة من حقّها أن يُؤْتَسى بها حيث قاتل بنفسه ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي: يخاف الله، ويخاف اليوم الآخر. أو: يأمل ثواب الله، ونعيم اليوم الآخر. قالوا: ﴿لمن﴾ بدل من ﴿لكم﴾. وفيه ضعف؛ لأنّه لا يجوزُ البدل من ضمير المخاطب. وقيل: ﴿لمن﴾ يتعلّق بحسنة، أي: ﴿أسوة حسنة﴾ كائنة ﴿لمن كان﴾

وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: في الخوف والرجاء، والشدّة والرخاء.

٢٢ ـ ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ وعدهم الله أن يُزَلْزَلوا حتّى يستغيثوه، ويستنصروه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ إلى قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. فلمّا جاء الأحزاب، واضطربوا، ورعبوا الرعب الشديد ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وعلموا أنّ الجنة والنصرة قد وجبا لهم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّ النبيّ ﷺ قال لأصحابه: «إنّ الأحزاب سائرون إليكم في آخر تسع ليال أو عشر». فلمّا رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك[1]. و﴿هذا﴾ إشارة إلى الخطب، أو: البلاء ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ما رأوا من اجتماع الأحزاب عليهم، ومجيئهم ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله، وبمواعيده ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضاياه وأقداره.

٢٣ ـ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: فيما عاهدوه عليه. فحذف الجار كما في المثل: «صَدَقني سنَّ بَكْرِه»[2] أي: صدقني في سنّ بكره بطرح الجارّ، وإيصال الفعل إليه. نَذَرَ رجالٌ من الصحابة أنّهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا، وقاتلوا حتى يُستشهدوا، وهم: عثمان بن عفان، وطلحة، وسعد بن زيد، وحمزة، ومصعب، وغيرهم ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: مات شهيداً كحمزة، ومصعب ـ رضي الله عنهما ـ. وقضاء النحب: صار عبارة عن الموت؛ لأن كلّ حيّ من المحدثات لابدّ له أن يموت، فأكنه نذرٌ لازم في رقبته، فإذا مات فقد قضى نحبه، أي: نذره ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾

(١) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشاف ٣/ ٥٣١).

(٢) وأصله: أنّ رجلاً ساوم رجلاً ببعير، وسأله عن سنّه، فزعم أنه بازل ـ أي: عمره تسع سنين ـ فبينما هما كذلك نَفَر، فدعاه: هِرَع هِرَع! فسكن. وهي كلمة تسكن بها الصغار، فقال المشتري ذلك، يريد: أنه صدق في سنّه الآن لمّا دعاه بتلك الكلمة، وقد كان كاذباً. (المستقصى ٢/ ١٤٠).

وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ
أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟
خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم
مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ

الموت، كعثمان، وطلحة ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ العهد ﴿تَبْدِيلًا﴾ ولا غيّروه، لا المُسْتَشْهَد، ولا من ينتظر الشهادة. وفيه تعريضٌ لمن بدّ لوا من أهل النفاق ومرض القلوب، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ [الأحزاب: ١٥].

٢٤ ـ ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ بوفائهم العهد ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ غذا لم يتوبوا ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ بقبول التوبة ﴿رَّحِيمًا﴾ بعفو الحوبة. جُعِل المنافقون كأنّهم قصدوا عاقبة السوء، وأرادوها بتبديلهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم؛ لأنّ كلا الفريقين مسوقٌ إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنّهما استويا في طلبهما، والسَّعي في تحصيلها.

٢٥ ـ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الأحزاب ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ حال. أي: مغيظين، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ ظفراً، أي: لم يظفروا بالمسلمين. وسمّاه خيراً بزعمهم. وهو حال، أي: غير ظافرين ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالريح، والملائكة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ قادراً، غالباً.

٢٦ ـ ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم﴾ عاونوا الأحزاب ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعني: بني قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم. والصيصة: ما تُحصّن به. رُوي: أنّ جبريل ـ عليه السلام ـ أتي رسول الله ﷺ، صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعوا سلاحهم، على فرسه الحيزوم، والغبار على وجه الفرس وعلى السّرج. فقال: «ما هذا يا جبريل؟» قال: مِن متابعة قريش. [فجعل رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجه الفرس

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ

وعن سرجه][١]. فقال يا رسول الله! [إن الملائكة لم تضع السلاح][٢]. إنّ الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، وأنا عامدٌ غليهم؛ فإنّ الله داقّهم دقّ البيض على الصّفا، وإنّهم لكم طعمة. فأذّن في الناس: أنْ مَن كان سامعاً مطيعاً فلا يصلّي العصر إلاّ في بني قريظة. فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة. فقال لهم رسول الله ﷺ: «تنزلون على حكمي»؟! فأبوا. فقال: «على حكم سعد بن معاذ»؟! فرضوا به. فقال سعد: حكمتُ فيهم: أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم ونساؤهم. فكبّر النبيُّ ﷺ وقال: «لقد حكمتَ بحكم الله من فوق سبعة أرقعة». ثمّ استنزلهم، وخندق في سوق المدينة خندقاً، وقدّمهم فضرب أعناقهم، وهم من ثمانمئة إلى تسعمئة. وقيل: كانوا ستمئة مقاتل وسبعمئة أسير[٣] ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوف. وبضم العين: شاميّ، وعليّ ﴿فَرِيقًا﴾ ونصب بقوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ وهم رالجال ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء، والذّراري.

٢٧ ـ ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ اي: المواشي، والنقود، والأمتعة. رُوي: أنّ رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، وقال لهم: «إنّكم في منازلكم»[٤] ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ بقصد القتال، وهي مكّة، أو: فارس والروم، أو: خبير، أو: كلّ أرضٍ تُفتح إلى يوم القيامة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ قادراً.

٢٨ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: السعادة، وكثرة الأموال ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أصل تعال: أن يقوله مَن في المكان

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.
(٢) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٤٤ وما بعدها).
(٤) أخرجه الواقدي. (حاشية الكشاف ٣/ ٥٣٤).

أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ
ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ
بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ

المرتفع لمن في المكان المستوطىء، ثمّ كثر حتّى استوت في استعماله الأمكنة. ومعنى ﴿تعالين﴾: أقبلن بإرادتكنّ واختياركنّ لأحد الأمرين، ولم يردْ نهوضهنّ إلإيه بأنفسهنّ، كقوله: قام يُهدِّدني ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أعطكنّ متعة الطلاق. وتستحب المتعة لكلّ مطلقة إلا المفوّضعة قبل الوطء ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ وأطلقكنّ ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ لا ضرار فيه.

أردن شيئاً من الدنيا من ثياب، وزيادة نفقة، وتغايرن، فغَمّ ذلك رسول الله ﷺ فنزلت. فبدأ بعائشة ـ رضي الله عنها ـ وكانت أحبّهنّ إليه، فخيّرها، وقرأ عليها القرآن، فاختارت الله، ورسوله، والدار الآخرة، فرؤي الفرحُ في وجه رسول الله ﷺ، ثمّ اختارت جميعهنّ اختيارها. ورُوي: أنّه قال لِعائشة: «إنّي ذاكرٌ لك امراً، عليك ألاّ تعجلي فيه حتّى تستأمري أبويك». ثم قرأ عليها القرآن. فقال: «أفي هذا أستأمر أبويّ! فإنّي اريدُ الله ورسوله والدار الآخرة»[١].

وحكم التخيير في الطلاق: أنّه إذا قال لها: اختاري، فقالت: اخترتُ نفسي، أن تقع تطليقة بائنة. وإذا اختارت زوجَها لم يقعْ شيء. وعن عليّ ـرضي الله عنهـ: إذا اختارتْ زوجها فواحدة رجعيّة، وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة.

٢٩ ـ ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ مِنْ: للبيان، لا للتبعيض ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٣٠ ـ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ سيئة بليغة في القبح ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ ظاهر فحشها. مِن: بيّن، بمعنى: تبيّن. وبفتح الياء: مكيّ، وأبو بكر. قيل: هي عصيانهنّ رسول الله ﷺ، ونشوزهنّ. وقيل: الزنى، والله عاصمٌ رسولهَ من ذلك ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ ﴿يُضَعَّفْ لها العذابَ﴾ مكيّ، وشاميّ،

(١) رواه البخاري (٤٧٨٥) ومسلم (١٤٧٥).

ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ
صَٰلِحًا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ
كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ
قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ

﴿يُضعَّف﴾: أبو عمرو، ويزيد، ويعقوب ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ ضعفي عذاب غيرهنّ من النساء؛ لأنّ ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهنّ، فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل، وليس لأحدٍ من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ؛ ولذا كان الذمّ للعاصي العالم أشدّ من العاصي الجاهل؛ لإنّ المعصية من العالم أقبح؛ ولذا فضل حدّ الأحرار على العبيد، ولا يُرجم الكافر ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: تضعيف العذاب عليهنّ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيناً.

٣١ ـ ﴿۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الأقنوت: الطاعة ﴿وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحًا نُّؤۡتِهَآ﴾ وبالياء فيهما: حمزة، وعليّ ﴿أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ مثلي ثواب غيرهما ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقًا كَرِيمًا﴾ جليل القدر، وهو: الجنّة.

٣٢ ـ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، إذا تُقُصِّيَتْ أمّة النساء جماعة جماعة لم توجد منهنّ جماعة واحدة تساويكنّ في الفضل. وأحدٌ في الأصل بمعنى وَحَدٍ، وهو: الواحد. ثمّ وضع في النفي العامّ مستوياً فيه المذكّر والمؤنّث، والواحد وما وراءه ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ إن أردتنّ التقوى، أو: إن كنتنّ متّقيات ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: إذا كلمتنّ الرجال من وراء الحجاب، فلا تجئنّ بقولكنّ خاضعاً، أي: ليّناً خنثاً مثل كلام المربيات ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ بالنصب، على جواب النهي ﴿ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ ريبة، وفجور ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ حسناً مع كونه خشناً.

٣٣ ـ ﴿وَقَرۡنَ﴾ مدني، وعاصم غير هبيرة، وأصله: إقرَرن، فحذفت الراء تخفيفاً، وألقيت فتحتها على ما قبلها، أو: من: قار يقار، إذا اجتمع. والباقون ﴿قِرْن﴾ من: وقر، وقاراً، أو: من قرّ، يقرّ، حذفت الأولى من را، أي: اِقْرِرن فراراً من التكرار، ونقلت كسرتها إلى القاف ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بضمّ الباء، بصريّ، ومدنيّ، وحفص ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: القديمة.

وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى
بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ
ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ

والتبرّج: التبختر في المشي، أو: إظهار الزينة. والتقدير: ﴿لا تبرّجن﴾ تبرّجاً مثل تبرّج النساء في الجاهليّة الأولى، وهي الزّمن الذي ولد فيه إبراهيم، أو: ما بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ أو: زمن داود وسليمان ـ عليهم السلام ـ. والجاهليّة الأخرى ما بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ أو: الجاهليّة الأولى الكفر قبل الإسلام، والجاهليّة الأخرى جاهليّة الفسوق والفجور في الإسلام ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ خصّ الصلاة والزكاة بالأمر، ثمّ عمّ بجميع الطاعات تفضيلاً لهما؛ لأنّ مَن واظب عليهما جرّتاه إلى ما وراءهما ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الإثم ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نصب على النداء، أو: على المدح. وفيه دليلٌ على أنّ نساءه من أهل بيته. وقال: ﴿عنكم﴾ لأنّه أريد الرِّجال والنساء من آله ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ من نجاسة الآثام. بيّن أنّه إنّما نهاهنّ، وأمرهنّ، ووعظهنّ؛ لئلا يقارف أهل بيت رسول الله ﷺ المآثم، وليتصوّنوا عنها بالتقوى. واستعار للذنوب الرجس، وللتقوى الطهر؛ لأنّ عِرْض المقترف للمقبحات يتلوث بها كما يتلوّث بدنه بالأرجاس. وأمّا المحسنات فالعرض منها نقي كالثوب الطاهر. وفيه تنفيرٌ لأولي الألباب عن المناهي، وترغيب لهم في الأوامر.

٣٤ ـ ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: السنّة، أو: بيان معاني القرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ عالماً بغوامض الأشياء ﴿خَبِيرًا﴾ عالماً بحقائقها، أي: هو عالم بأفعالكنّ، وأقوالكنّ، وأحوالكنّ، فاحذرن مخالفة أمره، ونهيه، ومعصية رسوله.

٣٥ ـ ولمّا نزل في نساء النبيّ ﷺ ما نزل قال نساء المسلمين: فما نزل فينا شيء؟! فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ المسلم: الداخل في السلم بعد الحرب، المنقاد الذي لا يعاند، أو: المفوّض أمره إلى الله، المتوكّل عليه، مَن

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

أسلم وجهه إلى الله ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدّقين بالله ورسوله، وبما يجب أن يصدّق به ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ﴾ القائمين بالطاعة ﴿وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ﴾ في النيّات، والأقوال، والأعمال ﴿وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على الطاعات، وعن السيّئات ﴿وَالْخَاشِعِينَ﴾ المتواضعين لله بالقلوب والجوارح، أو: الخائفين ﴿وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ فرضاً ونفلاً ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ فرضاً ونفلاً. وقيل: من تصدّق في كلّ أسبوع بدرهم فهو من المتصدّقين، ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عمّا لا يحلّ ﴿وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ بالتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، وقراءة القرآن، والاشتغال بالعلم من الذكر. والمعنى: ﴿والحافظات﴾ فروجهنّ ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾ الله فحذف لدلالة ما تقدّم عليه. والفرق بين عطف الإناث على الذكور وعطف الزوجين على الزوجين: أنّ الأوّل نظير قوله: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] في أنّهما جنسان مختلفان، واشتركا في حكم واحد، فلم يكن بدّ من توسّط العاطف بينهما. وأمّا الثاني فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع. ومعناه: أنّ الجامعين والجامعات لهذه الطاعات ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعاتهم.

٣٦ ـ خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بنت عمّته أميمة على مولاه زيد بن حارثة فأبت، وأبى أخوها عبد الله. فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: وما صحّ لرجل مؤمن ولا امرأة مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي: رسول الله ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور، ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1] أن يختاروا من أمرهم

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿تكون﴾ بالتاء، وهي قراءة: ابن =

وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ

ما شاؤوا. بل من حقّهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه، واختيارهم تلواً لاختياره، فقالا: رضينا يا رسول الله! فأنكحها إيّاه، وساق عنه إليها مهرها. وإنّما جمع الضمير في ﴿لهم﴾ وإن كان من حقّه أن يوحّد؛ لأنّ المذكورين وقعا تحت النفي، فعمّا كلّ مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير على المعنى لا على اللفظ. و﴿يكون﴾ بالياء: كوفيّ. والخيرة: ما يتخيّر. ودلّ ذلك على أنّ الأمرَ للوجوب ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ فإن كان العصيان عصيان رَدٍّ، وامتناعٍ عن القبول، فهو ضلال كفر، وإن كان عصيان فِعْلٍ مع قبول الأمر، واعتقادِ الوجوب، فهو ضلال خطأ وفسق.

٣٧ ـ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام الذي هو أجلّ النعم ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق والتبنّي ـ فهو متقلّب في نعمة الله ونعمة رسوله. وهو زيد بن حارثة: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني: زينب بنت جحش، وذلك: أنّ رسول الله ﷺ أبصرها بعد ما أنكحها إيّاه، فوقعت في نفسه[1]، فقال: «سبحان الله مقلّب القلوب». وذلك أنّ نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها، وسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرتها لزيد، ففطن، وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله، فقال لرسول الله ﷺ: إنّي أريدُ أن أفارق صاحبتي، فقال: «مالك؟ أرابك منها شيء؟» قال: لا والله ما رأيت منها إلاّ خيراً! ولكنّها تتعظّم عليّ لشرفها، وتؤذيني، فقال له: أمسك عليك زوجك ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فلا تطلقها ـ وهو نهي تنزيهٍ إذ الأولى ألاّ يطلّق، أو: ﴿واتّق الله﴾ فلا تذمّها بالنسبة إلى الكبر، وأذى الزوج ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: تخفي في نفسك نكاحها إن طلقها زيد، وهو الذي أبداه الله تعالى. وقيل: الذي أخفى في نفسه

= كثير، ونافع، وابن عامر، وأبي عمرو، وأبي جعفر، وآخرين. معجم القراءات القرآنية (٥/ ١٢٥).

(١) هذا كلام باطل، ولا أصل له، ويتنافى مع منصب النبوة، فهي ابنة عمته يعرفها ﷺ من قدم، وكان بإمكانه أن يتزوجها قبل تزويجه إياها من زيد.

وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ

تعلّق قلبه بها، ومودّة مفارقة زيد إيّاها. والواو في ﴿وتخفي في نفسك﴾، ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: قالة الناس بأنّه نكح امرأة ابنه ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ واو الحال، أي: تقول لزيد: أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك إرادة ألاّ يمسكها؛ وتخفي خاشياً قالة الناس، وتخشى الناس حقيقاً في ذلك بأن تخشى الله. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لو كتم رسول الله ﷺ شيئا ممّا أوحي إليه لكتم هذه الآية ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ الوطر: الحاجة، فإذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همّة، قيل: قضى منه وطره. والمعنى: ﴿فلمّا﴾ لم يبقَ فيها حاجة وتقاصرت عنها همّته، وطلّقها، وانقضت عدّتها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾. رُوي: أنّها لمّا اعتدت قال رسول الله ﷺ لزيد: «ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك، اخطب عليّ زينب». قال زيد: فانطلقت، وقلت: يا زينب! أبشري، إنّ رسول الله ﷺ يخطبك، ففرحت، وتزوّجها رسولُ الله ﷺ، ودخل بها، وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها: ذبح شاة، وأطعم الناس الخبز واللحم حتّى امتدّ النهار[1] ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ قيل: قضاء الوطر: إدراك الحاجة، وبلوغ المراد منه ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الذي يريد أن يكوّنه ﴿مَفْعُولًا﴾ مكوّناً لا محالة. وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله ﷺ زينب.

٣٨ ـ ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أحلّ له، وأمره، وهو نكاح زينب امرأة زيد. أو قدّر له من عدد النساء ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ اسم موضوع موضع المصدر ـ كقولهم: تُرْباً، وجندلاً ـ مؤكّد لقوله: ﴿ما كان على النبيّ من حرج﴾، كأنّه قيل: سنّ الله ذلك سنّة في الأنبياء الماضين، وهو: ألاّ يُحرِّجَ عليهم في الإقدام على ما أباح لهم، ووسّع عليهم في باب النكاح وغيره. وقد

(١) ذكره الثعلبي بغير سند. (حاشية الكشاف ٣ / ٥٤١).

فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ
وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن
رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾

كانت تحتهم المهائر[1] والسراري، وكانت لداود مئة امرأة، وثلاثمئة سُرِّيّة، ولسليمان ثلاثمئة حرّة وسبعمئة سرّية! ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ﴾ في الأنبياء الذين مضوا من قبله ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ قضاء مقضياً، وحكماً مبتوتاً. ولا وقف عليه إن جعلت:

٣٩ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلاً من ﴿الذين﴾ الأوّل. وقِفْ إن جعلته في محلّ الرفع، أو: النصب على المدح، أي: هم ﴿الذين يبلّغون﴾ أو: أعني: ﴿الذين يبلغون﴾ ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وصف الأنبياء بأنّهم لا يخشون إلاّ الله، تعريض بعد التصريح في قوله: ﴿وتخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه﴾ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ كافياً للمخاوف. أو: محاسباً على الصغيرة والكبيرة، فكان جديراً بأن يُخْشَى منه.

٤٠ ـ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ أي: لم يكن أبا رجل منكم حقيقة حتّى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر، والنكاح. والمراد: من رجالكم البالغين. والحسن والحسين: لم يكونا بالغين حينئذ. والطاهر والطيّب والقاسم وإبراهيم: توفّوا صبياناً ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾. وكلّ رسول أبو أمّته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم، ووجوب الشفقة، والنصيحة لهم عليه، لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء. وزيد واحِدٌ من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة، فكان حكمه حكمكم. والتبنّي من باب الاختصاص والتقريب لا غير ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بفتح التاء: عاصم بمعنى الطابع، أي: آخرهم، يعني: لا ينبأ أحد بعده. وعيسى ممن نبّىء قبله، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمد ﷺ، كأنّه بعض أمته. وغيره بكسر التاء بمعنى الطابع، وفاعل الختم. وتقوّيه قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (ولكن نبيّاً ختم النبيين) ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾.

---

(١) المَهائِر: جمع المَهِيْرة، وهي الحرائر، ضد السَّراري.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ

٤١، ٤٢ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أثنوا عليه بضروب الثناء، وأكثروا ذلك ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً﴾ أوّل النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ آخر النهار، وخصّا بالذكر؛ لأنّ ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما. وعن قتادة: قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم. والفعلان ـ أي: اذكروا الله، وسبّحوه ـ موجّهان إلى البكرة والأصيل، كقولك: صم، وصلّ يوم الجمعة. والتسبيح من جملة الذكر. وإنّما اختصّ من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة إبانةً لفضله على سائر الأذكار؛ لأنّ معناه: تنزيه ذاته عمّا لا يجوز عليه من الصفات. وجاز أن يُراد بالذكر وإكثاره: تكثير الطاعات والعبادات، فإنّها من جملة الذكر. ثمّ خصّ من ذلك التسبيح ﴿بكرة﴾ وهي صلاةُ الفجر ﴿وأصيلاً﴾ وهي صلاة الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، أو: صلاة الفجر، والعشاءين.

٤٣ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ لمّا كان من شأن المصلّي أن ينعطف في ركوعه وسجوده، استعير لمن ينعطف على غيره حنوّاً عليه، وترؤّفاً، كعائد المريض في انعطافه عليه، والمرأة في حنوّها على ولدها. ثمّ كثر حتّى استعمل في الرحمة والترؤّف. ومنه قولهم: صلّى الله عليك، أي: ترحّم عليك، وترأّف. والمراد بصلاة الملائكة: قولهم: اللّهم صلّ على المؤمنين. جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنّهم فاعلون الرحمة والرأفة. والمعنى: هو الذي يترحّم عليكم، ويترأّف حيث يدعوكم إلى الخير، ويأمركم بإكثار الذكر، والتوفّر على الصلاة، والطّاعة ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ هو دليلٌ على أنّ المرادَ بالصلاة: الرحمة. ورُوي: أنّه لمّا نزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] قال أبو بكر: ما خصّك الله يا رسول الله بشرف إلاّ وقد أشركنا فيه، فنزلت:

٤٤ ـ ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: تحيّة الله لهم ﴿يَوْمَ

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝٤٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٤٨﴾

﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يرونه ﴿سَلَٰمٌ﴾ يقول الله تبارك وتعالى: السلام عليكم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ يعني: الجنّة.

٤٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على من بعثت إليهم، وعلى تكذيبهم وتصديقهم، أي: مقبولاً قولك عند الله لهم وعليهم، كما يقبل قول الشاهد العدل في الحكم. وهو حال مقدّرة، كما تقول: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، أي: مقدّراً به الصيد غداً ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين بالنار.

٤٦ ـ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره، أو: تيسيره ـ والكلّ منصوب على الحال ـ ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ جلّى به الله ظلمات الشرك، واهتدى به الضالّون، كما يُجلّى ظلام الليل بالسراج المنير، ويهتدى به. والجمهور على أنّه القرآن. فيكون التقدير: وذا سراج منير، أو: وتالياً سراجاً منيراً. ووصف بالإنارة؛ لأنّ من السرج مالا يضيء إذا قلّ سليطه، ودقّت فتيلته. أو: ﴿شاهداً﴾ بوحدانيتنا ﴿ومبشراً﴾ برحمتنا، ﴿ونذيراً﴾ بنقمتنا، ﴿وداعياً إلى﴾ عبادتنا، ﴿وسراجاً﴾ وحجّة ظاهرة لحضرتنا.

٤٧ ـ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ثواباً عظيماً.

٤٨ ـ ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ المراد به: التهييج، والدوام والثبات على ما كان عليه ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ هو بمعنى: الإيذاء. فيحتمل أن يكون مضافاً إلى الفاعل، أي: اجعل إيذائهم إيّاك في جانب، ولا تبال بهم، ولا تخفْ من إيذائهم. أو: إلى المفعول، أي: دع إيذاءك إيّاهم مكافأة لهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنّه يكفيكهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ وكفى به مفوّضاً إليه.

وقيل: إنّ الله تعالى وصفه بخمسة أوصاف، وقابل كلاًّ منها بخطاب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾

مناسب له. قابل الشاهد بقوله: ﴿وبشّر المؤمنين﴾ لأنّه يكون شاهداً على أمّته، وهم يكونون شهداء على سائر الأمم، وهو الفضلُ الكبير؛ والمبَشِّرَ بالإعراض عن الكافرين والمنافقين؛ لأنّه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين، وهو مناسبٌ للبشارة؛ والنَّذيرَ بـ﴿دع أذاهم﴾ لأنّه إذا ترك أذاهم في الحاضر، والأذى لا بدّ له من عقاب عاجل، أو: آجل، كانوا منذرين به في المستقبل؛ والدَّاعِيَ إلى الله بتيسيره بقوله: ﴿وتوكّل على الله﴾ لأنَّ من توكّل على الله يسّر عليه كلّ عسير، والسِّراجَ المنير بالاكتفاء به وكيلاً؛ لأنّ من أناره الله برهاناً على جميع خلقه كان جديراً بأن يكتفى به عن جميع خلقه.

٤٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي: تزوجتم. والنكاح هو: الوطء في الأصل. وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له من حيث إنّه طريق إليه، كتسمية الخمر إثماً لأنّها سببه وكقول الراجز:

أَسْنمةُ الآبالِ[1] في سَحَابِهِ

سَمَّى الماء بأسنمة الآبال؛ لأنّه سبب سمن الآبال، وارتفاع أسنمته. ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله تعالى إلاّ في معنى العقد؛ لأنّه في معنى الوطء من باب التصريح به. ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة، والمماسّة، والقربان، والتغشّي، والإتيان. وفي تخصيص المؤمنات ـ مع أنّ الكتابيّات تساوي المؤمنات في هذا الحكم ـ إشارة إلى أنّ الأولى بالمؤمن أن ينكح مؤمنة ﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ والخلوة الصحيحة كالمسّ ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ فيه دليلٌ على أنّ العدة تجبُ على النساء للرجال. ومعنى ﴿تعتدّونها﴾ تستوفون عددها، تفتعلون، من: العدّ ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ والمتعة تجبُ للتي طلّقها قبل الدخول بها، ولم يُسمِّ لها مَهْراً دون غيرها ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ أي: لا تمسكوهنّ ضراراً، وأخرجوهنّ من منازلكم؛ إذ لا عدّة لكم عليهنّ.

---

(١) «الآبال»: جمع الإبل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً﴾

---

٥٠ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن؛ إذ المهر أجر على البضع. ولهذا قال الكرخيّ: إنّ النكاح بلفظ الإجارة جائز. وقلنا: التأبيد من شرط النكاح، والتأقيت من شرط الإجارة، وبينهما منافاة. وإيتاؤها: إعطاؤها عاجلاً، أو: فرضها وتسميتها في العقد ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ وهي صفيّة، وجويرية، فأعتقهما، وتزوّجهما ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ و﴿مع﴾ ليس للقران، بل لوجودهما فحسب، كقوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٤٤] وعن أمّ هانىء بنت أبي طالب: خطبني رسولُ الله ﷺ فاعتذرتُ، فعذرني، فأنزل الله هذه الآية فلم أحلّ له لأني لم أهاجرْ معه[1] ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وأحللنا لك من وقع لها أن تَهَب لك نفسها، ولا تطلب مهراً من النساء المؤمنات إن اتّفق ذلك؛ ولذلك نكّرها. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو بيانُ حكم في المستقبل، ولم يكن عنده أحدٌ منهنّ بالهبة. وقيل: الواهبة نفسها: ميمونة بنت الحارث، أو: زينب بنت خزيمة، أو: أمّ شريك بنت جابر، أو: خولة بنت حكيم. وقرأ الحسن: ﴿أن﴾ بالفتح على التعليل بتقدير حذف اللام. وقرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بغير ﴿إن﴾ ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ استنكاحها: طلب نكاحها، والرغبة فيه. وقيل: نكح واستنكح بمعنى. والشرط الثاني تقييد للشرط الأوّل. شرط في الإحلال هبتها نفسها. وفي الهبة: إرادة استنكاح رسول الله ﷺ، كأنّه قال: أحللناها لك إن وهبت لك نفسها، وأنت تريد أن تستنكحها؛ أو إرادته هي: قبول الهبة، وما به تتمّ. وفيه دليلُ جواز النكاح بلفظ الهبة؛ لأنّ رسولَ الله ﷺ وأمّته سواء في الأحكام، إلاّ فيما خصّه الدليل ﴿خَالِصَةً﴾ بلا مهر ـ حال من الضمير في

---

(١) رواه الترمذي (٣٢١٤).

لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ

﴿وهبت﴾ أو: مصدر مؤكّد ـ أي: خلص لك إحلال ما أحللنا لك ﴿خالصة﴾ بمعنى خلوصاً. والفاعلة في المصادر غير عزيز، كالعافية، والكاذبة ﴿لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يجبُ المهر لغيرك، وإن لم يسمّه، أو: نفاه. عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله لِلنَّبِيِّ: ﴿إن أراد النبيّ﴾. ثمّ رجع إلى الخطاب ليؤذن أنّ الاختصاصَ تكرمةٌ له لأجل النبوّة. وتكريره تفخيمٌ له ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي: ما أوجبنا من المهور على أمّتك في زوجاتهم، أو: ما أوجبنا عليهم في أزواجهم من الحقوق ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ بالشراء وغيره من وجوه الملك. وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ضيق. متصل بـ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ وقوله: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾ جملة اعتراضيّة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بالتوسعة على عباده.

٥١ ـ ﴿۞ تُرْجِى﴾ بلا همز. مدنيّ، وحمزة، وعليّ، وخلف، وحفص. وبهمز. غيرهم: تؤخّر ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ تضمّ، يعني: تترك مضاجعة من تشاء منهنّ، وتضاجع من تشاء، أو: تطلّق من تشاء، وتمسك من تشاء، أو: لا تقسم لأيتهنّ شئت، وتقسم لمن شئت، أو: تترك تزوّج من شئت من نساء أمّتك، وتزوَّج من شئت. وهذه قسمةٌ جامعةٌ لما هو الغرض؛ لأنّه إمّا أن يطلّق وإمّا أن يمسك، فإذا أمسك ضاجع أو ترك، وقسم أو لم يقسم. وإذا طلّق وعزل فإمّا أن يُخَلِّي المعزولة لا يبتغيها أو: يبتغيها، ورُوي: أنّه أرجى منهنّ: جويرية، وسودة، وصفيّة، وميمونة، وأمّ حبيبة ـ رضي الله عنهنَّ ـ. فكان يقسمُ لهنّ ما شاء كما شاء. وكانت ممن آوى إليه: عائشة، وحفصة، وأمّ سلمة، وزينب ـ رضي الله عنهنَّ ـ، أرجى خمساً، وآوى أربعاً[1]. ورُوي: أنه

(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن جرير، وعبد الرزاق عن معمر، كلاهما عن منصور، عن أبي رزين، وهذا مرسل. (حاشية الكشاف ٣ / ٥٥٢).

وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ

كان يسوّي مع ما أطلق له، وخيّر فيه إلاّ سودة، فإنّها وهبت ليلتها لعائشة، وقالت: لا تطلّقني حتّى أُحْشَرَ في زمرة نسائك ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: ومن دعوت إلى فراشك، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالإرجاء، فلا ضيق عليك في ذلك، أي: ليس إذا عزلتها لم يجز لك ردّها إلى نفسك. و﴿من﴾: رفع بالابتداء، وخبره: ﴿فلا جناح﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ التفويض إلى مشيئتك ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: أقرب إلى قرّة عيونهنّ، وقلّة حزنهنّ، ورضاهنّ جميعاً؛ لأنّهنّ إذا علمن أنّ هذا التفويض من عند الله اطمأنّت نفوسهنّ، وذهب التغاير، وحصل الرضا، وقرّت العيون. ﴿كلّهنّ﴾ بالرفع تأكيد لنون ﴿يرضين﴾ وقرىء (ويرضَيْن كلّهنّ بما آتيتهنّ) على التقديم. وقرىء شاذّاً ﴿كلَّهنّ﴾ بالنصب تأكيداً لهنّ في ﴿آتيتهنّ﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فيه وعيدٌ لمن لم ترض منهنّ بما دبّر الله من ذلك، وفوّض إلى مشيئة رسوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصدور ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة، فهو حقيق بأن يُتّقى ويُحْذَر.

٥٢ ـ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ وبالتاء: أبو عمرو، ويعقوب، وغيرهما بالتذكير؛ لأنّ تأنيث الجمع غير حقيقيّ، وإذا جاز بغير فصل: في ﴿ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ [يوسف: ٣٠] فمع الفصل أجوز ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ من بعد التسع؛ لأنّ التسع نصاب رسول الله ﷺ من الأزواج، كما أنّ الأربع نصاب أمّته ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ بالطلاق. والمعنى: ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجاً أخر بكلّهن، أو بعضهنّ، كرامة لهنّ، وجزاءً على ما اخترن، ورضين، وقصر رسول الله ﷺ عليهن، وهنّ التسع التي مات عنهنّ: عائشة، حفصة، أمّ حبيبة، سودة، أمّ سلمة، صفيّة، ميمونة، زينب بنت جحش، جويرية. و﴿من﴾ في ﴿من أزواج﴾ لتأكيد النّفي، وفائدته: استغراق جنس الأزواج بالتحريم ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ في موضع

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾

الحال من الفاعل، وهو الضمير في ﴿تبدّل﴾ أي: تتبدّل، لا من المفعول الذي هو ﴿من أزواج﴾ لتوغّله في التنكير، وتقديره: مفروضاً إعجابك بهنّ. وقيل: هي أسماء بنت عُميس امرأة جعفر بن أبي طالب، فإنّها ممن أعجبه حسنهنّ. وعن عائشة، وأمّ سلمة ـ رضي الله عنهما ـ: ما مات رسول الله ﷺ حتّى أحلّ له أن يتزوّج من النساء ما شاء. يعني: أنّ الآية نسخت، ونسخها إمّا بالسنة، أو: بقوله: ﴿إنّا أحللنا لك أزواجك﴾ وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ استثنى ممن حرم عليه الإماء، ومحلّ ﴿ما﴾ رفع بدل من ﴿النساء﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ حافظاً. وهو تحذير عن مجاوزة الحدود.

٥٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ ﴿أن يؤذن لكم﴾: في موضع الحال، أي: ﴿لا تدخلوا﴾ إلاّ مأذوناً لكم. أو: في معنى الظَّرف، تقديره: وقت أن يؤذن لكم. و﴿غير ناظرين﴾: حال من ﴿لا تدخلوا﴾. وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً. كأنّه قيل: ﴿لا تدخلوا بيوت النبي﴾ إلا وقت الإذن، ولا تدخلوها إلا ﴿غير ناظرين﴾، أي: غير منتظرين. وهؤلاء قوم كانوا يتحيّنون طعام رسول الله ﷺ، فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه. ومعناه: ﴿لا تدخلوا﴾ يا هؤلاء المتحيّنون للطعام ﴿إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾. وإنى الطعام: إدراكه. يقال: أنيَ الطعام إنى، كقولك: قلاه قلىً. وقيل: إناه: وقته، أي: ﴿غير ناظرين﴾ وقت الطعام، وساعة أكله. ورُوي: أنّ النّبيّ ﷺ أولم على زينب بتمر وسويق وشاة، وأمر أنساً أن يدعوَ بالناس، فترادفوا أفواجاً، يأكل فوج فيخرج، ثمّ يدخل فوج، إلى أن قال: يا رسول الله! دعوتُ حتّى ما أجد أحداً أدعوه. فقال: «ارفعوا طعامكم» وتفرّق الناس، وبقي ثلاثة نفر يتحدّثون، فأطالوا، فقام رسولُ الله ﷺ ليخرجوا، فطاف رسولُ الله ﷺ بالحجرات، وسلّم عليهنّ، ودعون له، ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدّثون.

وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا

وكان رسولُ الله ﷺ شديدَ الحياء فتولّى، فلما رأوه متولياً خرجوا، فرجع، ونزلت[1] ﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ فتفرقوا ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ هو مجرور معطوف على ﴿ناظرين﴾ أو: منصوب، أي: ﴿ولا﴾ تدخلوها ﴿مستأنسين﴾. نهوا عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدّثه به ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ من إخراجكم ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ يعني: أنّ إخراجكم حقٌّ ما ينبغي أن يُستحيا منه. ولمّا كان الحياءُ ممّا يمنع الحييّ من بعض الأفعال قيل: ﴿لا يستحيي من الحقّ﴾ أي: لا يمتنع منه، ولا يتركه ترك الحييّ منكم. وهذا أدبٌ أدّب اللهُ به الثقلاء. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: حسبك في الثقلاء أنّ الله تعالى لم يحتملهم، وقال: ﴿فإذا طعمتم فانتشروا﴾ ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ ﴾ الضمير لنساء رسول الله ﷺ لدلالة بيوت النبيّ؛ لأنّ فيها نساءه ﴿ مَتَٰعًا ﴾ عارية، أو: حاجة ﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ ﴾ المتاع ﴿ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ من خواطرالشيطان، وعوارض الفتن. وكانت النساءُ قبل نزول هذه الآية يبرزن للرجال، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يحبّ ضَرْبَ الحجاب عليهنّ، ويودّ أن ينزلَ فيه، وقال: يا رسول الله! يدخل عليك البرّ والفاجر، فلو أمرتَ أمّهات المؤمنين بالحجاب، فنزلت[2]. وذكر: أنّ بعضهم قال: أَنُنْهى أن نكلّم بنات عمّنا إلاّ مِن وراء حجاب؟! لئن مات محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأتزوجنّ فلانة، فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾. أي: وما صحّ لكم إيذاء رسول الله ﷺ، ولا نكاح أزواجه من

(١) رواه أحمد (٣ / ٩٨و١٠٥و٢٠٠) والبخاري (٤٧٩٤) ومسلم (١٤٢٨) (٨٧ و٨٩ و٩٠).
(٢) رواه البخاري (٤٧٩٠).

إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ
وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ

بعد موته[1] ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: ذنباً عظيماً.

٥٤ ـ ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا﴾ من أذى النبي ﷺ، أو: من نكاحهنّ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في أنفسكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعاقبكم به.

٥٥ ـ ولمّا نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله! أو نحن أيضاً نكلمهنّ من وراء حجاب؟ فنزلت: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: نساء المؤمنات ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: لا إثم عليهنّ في ألا يحتجبن من هؤلاء. ولم يذكر العمّ والخال لأنّهما يجريان مجرى الوالدين. وقد جاءت تسمية العمّ أباً، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وإسماعيل عمّ يعقوب ـ عليهم السلام ـ. وعبيدهنّ عند الجمهور كالأجانب. ثمّ نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب، وفي هذا النقل فضل تشديد، كأنّه قيل: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيما أمرتنّ به من الاحتجاب، وأنزل فيه الوحي من الاستتار، واحتطن فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ عالماً. قال ابنُ عطاء: الشهيد: الذي يعلم خطرات القلوب، كما يعلم حركات الجوارح.

٥٦ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي:

(١) قال الحافظ: أخرجه ابن سعد عن الواقدي. (حاشية الكشاف ٣ / ٥٥٦).

وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ

قولوا: اللّهم صلِّ على محمد، أو: صلّى الله على محمد ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي: قولوا: اللّهم سلّم على محمد، أو: انقادوا لأمره وحكمه انقياداً. وسُئِل عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية، فقال: «إنّ الله وكّل بي ملكين فلا أُذْكَر عند عبد مسلم فيصلّي عليّ إلا قال ذانك الملكان: غفر الله لك، وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: آمين. ولا أُذْكَر عند عبد مسلم فلا يصلّي عليّ إلا وقال ذانك الملكان: لا غفر الله لك، وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: آمين»[١]. ثمّ هي واجبة مرّة عند الكرخي ـ رحمه الله ـ، وكلّما ذكر اسمه عند الطحاوي ـ رحمه الله ـ، وهو الاحتياط، وعليه الجمهور. وإن صلّى على غيره على سبيل التبع كقولك: صلّى الله على النبّي وآله، فلا كلام فيها، وأمّا إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة فمكروه، وهو من شعائر الروافض.

٥٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يؤذون رسول الله. وذكر اسم الله للتشريف، أو عبّر بإيذاء الله ورسوله عن فعل ما لا يرضى به الله ورسوله كالكفر، وإنكار النبوّة، مجازاً. وإنّما جعل مجازاً فيهما، وحقيقة الإيذاء يتصوّر في رسول الله لئلا يجتمع المجاز والحقيقة تحت لفظ واحد ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ طردهم الله عن رحمته في الدارين ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ في الآخرة.

٥٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾ أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأنّ ذا يكون غير حقّ أبداً. وأمّا هذا فمنه حقّ ـ كالحدّ، والتعزير ـ ومنه باطل. قيل: نزلتْ في ناسٍ من المنافقين يؤذون عليّاً ـ رضي الله عنه ـ ويسمعونه، وقيل: في زناة كانوا يتبعون النساء وهنّ كارهات. وعن الفضيل: لا يحلّ لك أن تؤذي كلباً، أو: خنزيراً

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٩٣).

فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ

بغير حقّ، فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات؟! ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟﴾ تحمّلوا ﴿بُهْتَٰنًا﴾ عظيماً ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ظاهراً.

٥٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ الجلباب: ما يستر الكلّ مثل الملحفة، عن المبرّد. ومعنى: ﴿يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ﴾ يرخينها عليهنّ، ويغطين بها وجوههنّ وأعطافهنّ، يقال: إذا زلّ الثوب عن وجه المرأة أدني ثوبك على وجهك. و﴿من﴾ للتبعيض، أي: ترخي بعض جلبابها وفضله على وجهها، تتقنّع، حتّى تتميّز من الأمَة. أو: المراد أن يتجلببن ببعض ما لهنّ من الجلابيب، أي: لا تكون متبذلةً في درع وخمار كالأمة، ولها جلبابان فصاعداً في بيتها. وذلك أنَّ النساء كُنّ في أوّل الإسلام على هجّيراهنّ[1] في الجاهليّة، متبذّلات، تبرز المرأةُ في درع وخمار لا فَصْل بين الحرة والأمَة. وكان الفتيان يتعرّضون إذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهنّ في النخيل والغيطان للإماء، وربمّا تعرّضوا للحرّة بحسبان الأمَة، فأمرن أن يخالفن بزيهنّ عن زيّ الإماء بلبس الملاحف، وستر الرؤوس والوجوه، فلا يطمع فيهنّ طامع. وذلك قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي: أولى وأجدر بأن يعرفن، فلا يتعرّض لهنّ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهنّ من التفريط ﴿رَّحِيمًا﴾ بتعليمهنّ آداب المكارم.

٦٠ ـ ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فجور، وهم: الزناة. من قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هُم ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله ﷺ، فيقولون: هُزِموا، وقُتِلوا، وجَرَى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوبَ

---

(١) أي عادتهنّ.

لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾

المؤمنين. يقال: أرجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقة، لكونه خبراً متزلزلاً، غير ثابت، من الرجفة، وهي: الزلزلة ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنأمرنّك بقتالهم، أو: لنسلطنّك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ في المدينة. وهو عطفٌ على ﴿لنغرينّك﴾ لأنّه يجوز أن يُجابَ به القسم لصحة قولك: لئن لم ينتهوا لا يجاورونك. ولمّا كان الجلاءُ عن الوطن أعظمَ من جميع ما أُصيبوا به عطف بثمّ لبعد حاله عن حال المعطوف عليه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً. والمعنى: ﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم ﴿والمرجفون﴾ عمّا يؤلّفون من أخبار السّوْء، لنأمرنّك بأن تفعل بهم الأفعال التي تسوؤهم، ثمّ بأن تضطرّهم إلى طلب إخلاء عن المدينة، وإلى ألا يساكنوك فيها إلا زماناً قليلاً ريثما يرتحلون. فسمّى ذلك إغراء ـ وهو التحريشُ ـ على سبيل المجاز.

٦١ ـ ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم، أو: الحال، أي: ﴿لا يجاورونك﴾ إلا ﴿ملعونين﴾. فالاستثناء دخل على الظرف والحال معاً كما مرّ. ولا ينتصب عن ﴿أخذوا﴾ لأنّ ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلهما ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ وجدوا ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ التشديد يدلّ على التكثير.

٦٢ ـ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في موضع مصدر مؤكّد، أي: سنّ الله في الذين ينافقون الأنبياء أن يقتّلوا أينما وجدوا ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا يبدّل الله سنّته، بل يجريها مجرىً واحداً في الأمم.

٦٣ ـ ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة استعجالاً على سبيل الهزء، واليهود يسألونه امتحاناً، لأنّ الله تعالى عمّى وقتها في التوراة، وفي كلّ كتاب، فأمر رسوله بأن يجيبهم بأنه عِلْمٌ قد استأثر الله به، ثمّ بيّن لرسوله أنّها قريبة الوقوع، تهديداً للمستعجلين، وإسكاتاً للممتحنين بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾
وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ
ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

شيئاً قريباً. أو: لأنّ الساعة في معنى الزمان.

٦٤، ٦٥ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة الإيقاد ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ هذا يردّ مذهب الجهميّة لأنّهم يزعمون أن الجنّة والنار تفنيان. ولا تقف على ﴿سعيراً﴾ لأنّ قوله ﴿خالدين﴾ حال عن الضمير في ﴿لهم﴾ ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ناصراً يمنعهم.

٦٦ ـ اذكر ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ تُصَرَّف في الجهات، كما ترى البضعة[1] تدور في القدر إذا غلت. وخصّصت الوجوه؛ لأنّ الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده. أو يكون الوجه عبارة عن الجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فنتخلّص من هذا العذاب. فتمنّوا حين لا ينفعهم التمنّي.

٦٧ ـ ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ جمع سيد. (ساداتنا): شاميّ، وسهل، ويعقوب، جمع الجمع. والمراد: رؤساء الكفرة الذين لقّنوهم الكفر، وزيّنوه لهم ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ ذوي الأسنان منّا، أو: علماءنا ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ يقال: ضلّ السبيل، وأضلّه إيّاه. وزيادة الألف لإطلاق الصوت، جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر، وفائدتها: الوقف والدلالة على أنّ الكلام قد انقطع، وأنّ ما بعده مستأنف.

٦٨ ـ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ للضلال، والإضلال ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ بالباء: عاصم؛ ليدلّ على أشدّ اللعن، وأعظمه. وغيره: بالثاء، تكثيراً لأعداد اللعائن.

٦٩ ـ ونزل في شأن زيد وزينب، وما سمع فيه من قالة بعض الناس

(١) «البضعة»: من اللحم وغيره: القطعة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ
وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا
ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ﴾ «ما» مصدريّة، أو: موصولة. وأيّهما كان، فالمراد: البراءة عن مضمون القول ومؤدّاه، وهو الأمرُ المعيب. وأذى موسى ـ عليه السلام ـ هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها، أو: اتّهامهم إيّاه بقتل هارون، فأحياه الله تعالى، فأخبرهم ببراءة موسى ـ عليه السلام ـ كما برّأ نبينا ﷺ بقوله ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ ذا جاه، ومنزلة، ومستجاب الدعوة. وقرأ ابن مسعود والأعمش: (وكان عبداً لله وجيهاً).

٧٠ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ صدقاً وصواباً، أو: قاصداً إلى الحقّ. والسداد: القصد إلى الحقّ، والقول بالعدل. والمراد: نهيهم عمّا خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول، والبعث على أن يسدّدوا قولهم في كلّ باب؛ لأنّ حفظ اللسان، وسداد القول رأس كلّ خير. ولا تقف على ﴿سديداً﴾ لأنّ جواب الأمر قوله:

٧١ ـ ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ يقبل طاعتكم، أو: يوفّقكم لصالح الأعمال ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أي: يمحها. والمعنى: راقبوا الله في حفظ ألسنتكم، وتسديد قولكم، فإنّكم إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية الطلبة من تقبّل حسناتكم، والإثابة عليها، ومن مغفرة سيّئاتكم، وتكفيرها. وهذه الآية مقرّرة للتي قبلها، بنيت تلك على النهي عمّا يؤذي رسول الله ﷺ، وهذه على الأمر باتّقاء الله في حفظ اللسان؛ ليترادف عليهم النهي والأمر، مع إتباع النهي ما يتضمّن الوعيد من قصّة موسى ـ عليه السلام ـ وإتباع الأمر الوعد البليغ، فيقوى الصارف عن الأذى، والداعي إلى تركه. ولما علق بالطاعة الفوز العظيم بقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أتبعه قوله:

٧٢ ـ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ وهو يريدُ بالأمانة:

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾

الطاعة لله، وبحمل الأمانة: الخيانة. يقال: فلان حامل الأمانة، ومحتمل لها، أي: لا يؤدّيها إلى صاحبها حتّى تزول عن ذمّته، إذ الأمانة كأنّها راكبة للمؤتمن عليها، وهو حاملها؛ ولهذا يقال: ركبته الديون، ولي عليه حقّ، فإذا أدّاها لم تبق راكبة له، ولا هو حاملاً لها، يعني: أنّ هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت بأمر الله انقياد مثلها، وهو ما يتأتّى من الجمادات، وأطاعت له الطاعة التي تليقُ بها، حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاداً، وتكويناً، وتسوية على هيئات مختلفة، وأشكال متنوّعة، كما قال ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. وأخبر أنّ الشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب يسجدون لله، وإنّ من الحجارة لما يهبط من خشية الله. وأمّا الإنسان فلم تكن حاله فيما يصحّ منه من الطاعة، ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه، وهو حيوان عاقل، صالح للتكليف، مثل حال تلك الجمادات فيما يصحّ منها، ويليق بها من الانقياد، وعدم الامتناع، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: أبين الخيانة فيها، وألا يؤدّينها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وَخِفْنَ من الخيانة فيها ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: خان فيها، وأبى إلا أن يكون محتملاً لها، لا يؤدّيها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لكونه تاركاً لأداء الأمانة ﴿جَهُولًا﴾ لإخطائه ما يُسْعِدُه مع تمكّنه منه، وهو أداؤها. قال الزّجاج: الكافر والمنافق حملا الأمانة، أي: خانا، ولم يُطيعا. ومَن أطاع من الأنبياء والمؤمنين فلا يقال: كان ظلوماً جهولاً.

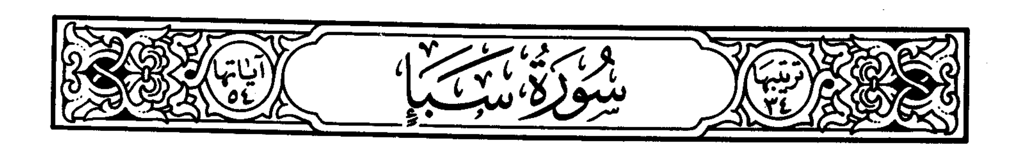
وقيل: معنى الآية: أنّ ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه أنه عُرِضَ على أعظم ما خلق الله من الإجرام، وأقواه، فأبى حمله، وأشفق منه ﴿وحملها الإنسان﴾ على ضعفه ﴿إنّه كان ظلوماً جهولاً﴾ حيث حمل الأمانة، ثمّ لم يف بها، وضمنها، ثمّ خان بضمانه فيها. ونحو هذا من الكلام كثيرٌ في لسان العرب، وما جاء القرآن إلا على أساليبهم. من ذلك قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب؟ لقال: أسوّي العوج.

٧٣ ـ واللام في: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٣﴾

للتعليل؛ لأنّ التعذيبَ هنا نظير التأديب في قولك: ضربته للتأديب. فلا تقف على ﴿جهولاً﴾، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وقرأ الأعمش: ﴿ويتوبُ الله﴾ بالرفع ليجعل العلّة قاصرة على فعل الحامل، ويبتدىء ﴿ويتوبُ الله﴾. ومعنى المشهورة: ليعذّب الله حامل الأمانة، ويتوب على غيره ممن لم يحملها؛ لأنّه إذا تيب على الوافي كان نوعاً من عذاب الغادر. أو: للعاقبة، أي: حملها الإنسان، فآل الأمر إلى تعذيب الأشقياء، وقبول توبة السعداء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ للتائبين ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده المؤمنين.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾

١ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ إن أجري على المعهود، فهو بما حمد به نفسه محمود. وإن أجري على الاستغراق، فله لِجُلِّ المحامد الاستحقاق ﴿لِلَّهِ﴾ بلام التمليك؛ لأنه خالق ناطق الحمد أصلاً، فكان بملكه مالك الحمد، للتحميد أهلاً ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً، وقهراً، فكان حقيقاً بأن يُحمد سرّاً، وجهراً ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كما هو له في الدنيا؛ إذ النعم في الدارين من المولى، غير أنّ الحمد هنا واجبٌ؛ لأنَّ الدنيا دار تكليف؛ وثمَّ لا ؛ لعدم التكليف. وإنّما يحمد أهل الجنّة سروراً بالنعيم، وتلذّذاً بما نالوا من الأجر العظيم، بقولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[فاطر: ٣٤] ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ بتدبير ما في السماء والأرض، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بضمير من يحمده ليوم الجزاء، والعَرْض.

٢ ـ ﴿يَعْلَمُ﴾ مستأنف ﴿مَا يَلِجُ﴾ ما يدخل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الأموات، والدفائن، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات، وجوهر المعادن، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار، وأنواع البركات، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعد إليها من

وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

الملائكة، والدعوات ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بإنزال ما يحتاجون إليه، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لما يجترئون عليه.

٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: منكرو البعث ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ نفي للبعث، وإنكار لمجيء الساعة ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ أوجب ما بعد النفي بـ ﴿بلى﴾ على معنى: أن ليس الأمر إلا إتيانها، ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ثمّ أعيد إيجابهم مؤكّداً بما هو الغاية في التوكيد، والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله ـ عزّ وجلّ ـ ثمّ أُمِدّ التوكيد القسميّ بما أُتبع المقسم به من الوصف بقوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ لأنّ عظمة حال المقسم به تؤذن بقوّة حال المقسم عليه، وبشدّة ثباته، واستقامته؛ لأنّه بمنزلة الاستشهاد على الأمر. وكلّما كان المستشهد به أرفع منزلة، كانت الشهادة أقوى، وآكد، والمستشهد عليه أثبت، وأرسخ. ولمّا كان قيام الساعة من مشاهير الغيوب، وأدخلها في الخفية، كان الوصف بما يرفع إلى علم الغيب أولى، وأحقّ. ﴿عالمُ الغيب﴾: مدنيّ، وشاميّ، أي: هو ﴿عالم الغيب﴾. (علاّم الغيب): حمزة، وعليّ، على المبالغة ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ وبكسر الزاي: عليّ. يقال: عزب، ويعزب إذا غاب، وبعد ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ من مثقال ذرّة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ من مثقال ذرّة ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ إلا في اللوح المحفوظ ﴿ولا أصغر، ولا أكبر﴾ بالرفع عطف على ﴿مثقال ذرّة﴾. ويكون ﴿إلا﴾ بمعنى لكن. أو: رفعاً بالابتداء، والخبر ﴿في كتاب﴾.

٤ ـ واللام في: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما قصروا فيه من مدارج الإيمان ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لما صبروا عليه من مناهج الإحسان. متعلّق بلتأتينّكم، تعليلاً له.

وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ جاهدوا في ردّ القرآن ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقين، ظانّين أنّهم يفوتوننا. ﴿مُعجّزين﴾: مكي، وأبو عمرو، أي: مُثْبطين الناس عن اتّباعها، وتأمّلها، أو: ناسبين الله إلى العجز ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برفع الميم: مكّيّ، وحفص، ويعقوب، صفة لعذاب، أي: عذاب أليم من بين العذاب. قال قتادة: الرجز: سوء العذاب. وغيرهم: بالجرّ، صفة. لـ﴿رجزٍ﴾

٦ ـ ﴿وَيَرَى﴾ في موضع الرفع بالاستئناف، أي: ويعلم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ ـ يعني: أصحاب رسول الله ﷺ، ومن يطأ أعقابهم من أمّته، أو: علماء أهل الكتاب الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار ـ ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ـ يعني: القرآن ـ ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: الصدق. و﴿هو﴾ فصل، و﴿الحقّ﴾ مفعول ثان. أو: في موضع النصب معطوف على ﴿ليجزي﴾، أي: وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنّه الحقّ، علماً لا يزاد عليه في الإيقان. ﴿وَيَهْدِيٓ﴾ الله، أو: الذي أنزل إليك ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهو دينُ الله.

٧ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال(١) قريش بعضُهم لبعض ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ. وإنّما نكّروه ـ مع أنّه كان مشهوراً علماً في قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم ـ تجاهلاً به، وبأمره. وباب التجاهل في البلاغة وَالي سِحْرِها. ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب أنّكم تُبعثون، وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً، ويمزّق أجسادكم البلى ﴿كلّ ممزق﴾ أي: يفرّقكم كلّ تفريق. فالممزق مصدر بمعنى التمزيق، والعامل في ﴿إذا﴾ ما دلّ عليه ﴿إنّكم لفي خلق

(١) أي: قال رجال قريش، أو سادة قريش وزعماؤها.

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ
ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ
نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

جديد﴾ أي: تبعثون. والجديد: فعيل بمعنى فاعل عند البصريين، تقول: جَدَّ فهو جديد، لـ«قلَّ» فهو قليل، ولا يجوز أنّكم بالفتح للاّم في خبره.

٨ ـ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أهو مفترٍ على الله كذباً فيما نُسبَ إليه من ذلك؟ والهمزة للاستفهام، وهمزة الوصل حذفت استغناء عنها ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ جنون يوهمه ذلك، ويلقيه على لسانه ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ ثُمَّ قال سبحانه وتعالى: ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء، وهو مبرأ منهما، بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار، وفيما يؤدّيهم إليه من الضلال عن الحقّ، وهم غافلون عن ذلك، وذلك أجنّ الجنون. جُعِل وقوعهم في العذاب رسيلاً لوقوعهم في الضلال، كأنّهما كائنان في وقتٍ واحد، لأنّ الضلال لمّا كان العذاب من لوازمه جعلا كأنّهما مقترنان. ووصف الضلال بالبعيد من الإسناد المجازي؛ لأنَّ البعيدَ صفة الضالّ إذا بَعُدَ عن الجادّة.

٩ ـ ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ﴾ وبالإدغام: عليّ، للتقارب بين الفاء والباء. وضعّفه البعض لزيادة صوت الفاء على الباء ﴿ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ﴾ الثلاثة بالياء: كوفيّ غير عاصم، لقوله: ﴿أفترى على الله كذباً﴾ ﴿عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾[1] كسفاً: حفص ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أعَمُوا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنّهما حيثما كانوا، وأينما ساروا أمامهم وخلفهم، محيطتان بهم، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما، وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله، ولم يخافوا أن يخسفَ الله بهم، أو: يسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم الآيات، وكفرهم بالرسول، وبما جاء به، كما فعل بقارون، وأصحاب الأيكة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النظر إلى السماء والأرض، والفكر فيهما،

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة ﴿كِسْفاً﴾: وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، ويعقوب، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٥/ ١٤٥).

لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ

وما تدلّان عليه من قدرة الله تعالى ﴿لَآيَةً﴾ لدلالة ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له؛ إذ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله على أنّه قادر على كلّ شيء من البعث، ومن عقاب من يكفر به.

١٠ ـ ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ﴾ بدل من ﴿فضلاً﴾ أو: من ﴿آتينا﴾ بتقدير قولنا ﴿يا جبال﴾ أو: قلنا ﴿يا جبال﴾ ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ من التأويب. أي: رجّعي معه التسبيح. ومعنى تسبيح الجبال: أنّ الله يخلقُ فيها تسبيحاً فيسمع منها كما يسمع من المسبّح، معجزة لداود ـ عليه السلام ـ ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطف على محلّ الجبال، ﴿والطيرُ﴾ زيد، عطف على لفظ الجبال.

وفي هذا النظم من الفخامة التي لا تخفى، حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء؛ الذين إذا أمرهم أطاعوا، وإذا دعاهم أجابوا، إشعاراً بأنّه ما من حيوان وجماد إلّا وهو منقادٌ لمشيئة الله تعالى. ولو قال: آتينا داود منّا فضلاً تأويب الجبال معه، والطير، لم تكن فيه هذه الفخامة.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وجعلناه له ليناً كالطين والعجين يصرفه بيده كيف شاء، من غير نار، ولا ضرب بمطرقة. وقيل: لان الحديد في يده لما أوتي من شدّة القوّة.

١١ ـ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ «أن» بمعنى: أي، أي: أمرناه: ﴿أن اعمل﴾ ﴿سَـٰبِغَـٰتٍ﴾ دروعاً واسعة تامّة، من: السبوغ، وهو: أوّل من اتّخذها. وكان يبيعُ الدرع بأربعة آلاف، فينفق منها على نفسه وعياله، ويتصدّق على الفقراء. وقيل: كان يخرجُ متنكّراً، فيسأل الناس عن نفسه، ويقول لهم: ما تقولون في داود؟ فيثنون عليه. فقيّض الله له ملكاً في صورة آدميّ، فسأله على عادته، فقال: نِعْم الرجلُ لولا خصلة فيه، وهو: أنّه يطعم عياله من بيت المال. فسأل عند ذلك ربّه أن يسبّب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلّمه صنعةَ الدُّروع ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ لا تجعل المسامير دقاقاً فيقلق، ولا غلاظاً فيفصم الحلق. والسرد: نسج الدروع

وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٞ وَرَوَاحُهَا شَهْرٞۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ

﴿وَٱعْمَلُواْ﴾ الضمير لداود، وأهله ﴿صَٰلِحًا﴾ خالصاً يصلح للقبول ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فأجازيكم عليه.

١٢ ـ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: سخّرنا ﴿لسليمان الريح﴾ وهي الصبا. ورفع ﴿الريح﴾ أبو بكر، وحمّاد، والفضل، أي: ﴿لسليمان الرِّيحُ﴾ مُسَخَّرةٌ ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٞ وَرَوَاحُهَا شَهْرٞ﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشيّ كذلك. وكان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر فارس، وبينهما مسيرة شهر، ويروح من إصطخر فيبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع. وقيل: كان يتغدّى بالريّ، ويتعشّى بسمرقند ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: معدن النحاس. فالقطر: النحاس، وهو: الصُّفر، ولكنّه أساله، فكان يسيلُ في الشهر ثلاثة أيّام، كما يسيل الماء، وكان قبل سليمان ـ عليه السلام ـ لا يذوب. وسمّاه: عين القطر باسم ما آل إليه ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ «من»: في وضع نصب، أي: ﴿و﴾ سخّرنا له من الجنّ من يعمل ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ ومن يعدل ﴿مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ عذاب الآخرة. وقيل: كان معه ملك بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان ـ عليه السلام ـ ضربه ضربةً أحرقته.

١٣ ـ ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أي: مساجد، أو: مساكن ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي: صور السباع، والطيور. رُوي: أنّهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيّه، ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعَدَ بَسَط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظلّه النسران بأجنحتهما. وكان التصويرُ مباحاً حينئذ ﴿وَجِفَانٖ﴾ جمع جفنة ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ جمع جابية، وهي: الحياض الكبار. قيل: كان يقعدُ على الجفنة ألف رجل. (كالجوابي) في الوصل والوقف: مكّيّ، ويعقوب، وسهل. وافق أبو عمرو في الوصل. الباقون بغير ياء اكتفاءً بالكسرة ﴿وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتات

﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

على الأثافيّ لا تنزل عنها لعظمها، وقيل: إنّها باقية باليمن. وقلنا لهم: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي: ارحموا أهل البلاد، واسألوا ربّكم العافية، عن الفضيل. و﴿شكراً﴾ مفعول له، أو: حال، أي: شاكرين. أو: اشكروا شكراً؛ لأنّ ﴿اعملوا﴾ فيه معنى اشكروا، من حيث إنّ العمل للمنعم شكر له. أو: مفعول به، يعني: إنّا سخّرنا لكم الجنّ يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكراً. وسُئِل الجنيدُ ـ رحمه الله ـ عن الشكر فقال: بذل المجهود بين يدي المعبود ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ﴾[1] بسكون الياء: حمزة، وغيره بفتحها ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ المتوفّر على أداء الشكر، الباذل وسعه فيه، قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقاداً، واعترافاً، وكدحاً. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من يشكر على أحواله كلّها. وقيل: من يشكر على الشكر. وقيل: من يرى عجزه عن الشكر. وعن داود ـ عليه السلام ـ أنّه جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلاّ وإنسان من آل داود ـ عليه السلام ـ قائم يصلّي.

١٤ ـ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: على سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي: الجنّ، أو آل داود ـ عليه السلام ـ ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأَرَضَة، وهي: دويبة يقال لها: سُرْفَةٌ، والأرض فعلها، فأضيفت إليه. يقال: أَرَضَتِ الخشبة أرَضاً؛ إذا أكلتها الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ والمِنْسَأةُ العصا؛ لأنّهُ ينسأ بها، أي: يطرد. ﴿ومنساته﴾ بغير همز: مدنيّ، وأبو عمرو ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ سقط سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ علمت الجنُّ علماً بيّناً بعد التباس الأمر على عامّتهم وضعفتهم ﴿أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ﴾ بعد موت سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾. ورُوي: أنّ داود ـ عليه السلام ـ أسّس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى ـ عليه السلام ـ فمات قبل أن

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿عباديْ﴾ بسكون الياء.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

يتمه، فوصّى به إلى سليمان ـ عليه السلام ـ، فأمر الشياطين بإتمامه. فلمّا بقي من عمره سنة سأل ربّه أن يعمّي عليهم موته حتّى يفرغوا منه، ولتبطل دعواهم علم الغيب. وكان عمر سليمان ـ عليه السلام ـ ثلاثاً وخمسين سنة. ملك وهو ابنُ ثلاث عشرة سنة، فبقي في ملكه أربعين سنة. وابتدأ بناء بيت المقدس لأربعٍ مضين من ملكه. ورُوي: أنّ أفريدون جاء ليصعد كرسيّه، فلما دنا ضربَ الأسدان ساقه فكسراها، فلم يجسر أحدٌ بعده أن يدنو منه.

١٥ ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بالصرف بتأويل الحيّ، وبعدمه أبو عمرو بتأويل القبيلة ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾: حمزة، وحفص ﴿مَسْكِنِهم﴾: عليّ، وخلف. وهو موضعُ سكناهم. وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها باليمن، أو مسكن كلّ واحد منهم. غيرهم: (مساكنهم) ﴿ءَايَةٌ﴾ اسم كان ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من ﴿آية﴾. أو: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الآية ﴿جنّتان﴾. ومعنى كونهما آية: أنّ أهلهما لمّا أعرضوا عن شكر الله تعالى سلبهم الله النعمة ليعتبروا، ويتّعظوا، فلا يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، وغمط النعم. أو: جعلهما آية، أي: علامة دالّة على قدرة الله، و إحسانه، ووجوب شكره ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أراد: جماعةً من البساتين عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها. وكلّ واحدة من الجماعتين في تقاربها، وتضامّها كأنّها جنّة واحدة، كما تكون بساتين البلاد العامرة. أو: أراد: بستاني كلّ رجل منهم عن يمين مسكنه، وشماله ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم، أو: لما قال لهم لسان المقال، أو هم أحقّاء بأن يقال لهم ذلك. ولما أمرهم بذلك أتبعه قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: هذه البلدة التي فيها رزقكم ﴿بلدة طيّبة﴾ وربّكم الذي رزقكم، وطلب شكركم ﴿ربّ غفور﴾ لمن شكره. قال ابن عباس ـرضي الله عنهما ـ: كانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء، وكانت أخصب البلاد، تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل، فتعمل بيديها، وتسير بين تلك الشجر، فيمتلىء المكتل بما يتساقط فيه من الثمر، وأطيبها، ليس فيها

فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾

بعوض، ولا ذباب، ولا برغوث، ولا عقرب، ولا حيّة، ومن يمرّ بها من الغرباء يموت قمله لطيب هواها.

١٦ ـ ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ عن دعوة أنبيائهم ـ عليهم السلام ـ وكذّبوهم، وقالوا: ما نعرف لله علينا نعمة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي: المطر الشديد، أو: العرم: اسم الوادي، أو: الجرذ الذي نقب عليهم السِّكر. قالوا: لما طغوا سلّط الله عليهم الجرذ، فنقبه من أسفله، فغرّقهم ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المذكورتين ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ وتسمية البدل ﴿جنّتين﴾ للمشاكلة، وازدواج الكلام، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ الأكل: الثمر يثقّل ويخفّف. وهو قراءة نافع، ومكّيّ. والخمط: شجر الأراك. أو: كلّ شجر ذي شوك ﴿وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ الأثل: شجر يشبه الطرفاء، أعظم منه، وأجود عوداً. ووجه من نوّن الأُكُلَ ـ وهو غير أبي عمرو ـ أن: أصله: ذواتي أكلٍ أكل خمطٍ فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. أو: وصف الأكل بالخمط، كأنه قيل: ذواتي أكل بشع. ووجه أبي عمرو: أنّ أكل الخمط في معنى البَرير[1] فكأنه قيل: ذواتي برير. والأثل والسدر معطوفان على ﴿أكلٍ﴾ لا على خمط؛ لأن الأثل لا أكل له. وعن الحسن: قلّل السدر لأنّه أكرم ما بُدِّلوا؛ لأنّه يكون في الجنان.

١٧ ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ أي: جزيناهم ذلك بكفرهم، فهو مفعول ثانٍ مقدّم ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ كوفيّ غير أبي بكر. ﴿وهل يُجازَى إلاّ الكفور﴾، غيرهم. يعني: ﴿وهل يجَازَى﴾ مثل هذا الجزاء إلاّ من كفر النعمة ولم يشكرها، أو: كفر بالله. أو: هل يعاقب؛ لأنّ الجزاء وإن كان عامّاً على يُستعمل في معنى المعاقبة، وفي معنى الإثابة، لكن المراد الخاصّ، وهو: العقاب.

وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ.

---

(١) البرير: ثمر الأراك، واحدها: بريرة.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ

١٨ ـ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بين سبأ ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعة على أهلها في النعم والمياه ـ وهي: قرى الشام ـ ﴿قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾ متواصلة يُرى بعضها من بعض لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين الناظرين. و﴿ظاهرة﴾ للسَّابلة لم تبعد عن مسالكهم حتّى لا تخفى عليهم. وهي أربعة آلاف وسبعمئة قرية متّصلة من سبأ إلى الشام ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم، يقيل المسافر في قرية، ويروح في أخرى، إلى أن يبلغ الشام ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ وقلنا لهم: ﴿سيروا﴾. ولا قول ثمَّ، ولكنهم لمّا مكّنوا من السير، وسوّيت لهم أسبابه، فكأنهم أمروا بذلك ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي: ﴿سيروا فيها﴾ إن شئتم بالليل، وإن شئتم بالنهار، فإنّ الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات. أو: سيروا فيها ﴿آمنين﴾ لا تخافون عدوّاً، ولا جوعاً، ولا عطشاً، وإن تطاولت مدّة سفركم، وامتدت أيّاماً وليالي.

١٩ ـ ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قالوا: يا ليتها كانت بعيدة، فنسير على نجائبنا، ونربح في التجارات، ونفاخر في الدوابّ والأسباب. بطروا النعمة، وملّوا العافية، وطلبوا الكدّ والتعب ﴿بَعِّدْ﴾: مكّيّ، وأبو عمرو ﴿وَظَلَمُوٓا۟﴾ بما قالوا ﴿أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدّث الناس بهم، ويتعجّبون من أحوالهم ﴿وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ وفرّقناهم تفريقاً، اتّخذه الناس مثلاً مضروباً، يقولون: ذهبوا أيدي سبأ، وتفرّقوا أيادي سبأ. فلحق غسّان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعمان ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي ﴿شَكُورٍ﴾ للنعم. أو: لكلّ مؤمن؛ لأنّ الإيمان نصفان: نصفه شكر، ونصفه صبر.

٢٠ ـ ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ بالتشديد: كوفيّ، أي: حقّق عليهم ظنّه، أو: وجده صادقاً. وبالتخفيف: غيرهم، أي: صدق في ظنه ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾

إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ
بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ
زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا
لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ
أَذِنَ لَهُۥ

الضمير في ﴿عليهم﴾، و﴿اتّبعوه﴾ لأهل سبأ، أو: لبني آدم. وقلّل المؤمنين بقوله: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لقلّتهم بالإضافة إلى الكفّار ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

٢١ ـ ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم﴾ لإبليس على الذين صار ظنّه فيهم صدقاً﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ من تسليط، واستيلاء بالوسوسة، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ موجوداً ما علمناه معدوماً. والتغيّر على المعلوم لا على العلم ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ محافظ عليه. وفعيل ومفاعل: متآخيان.

٢٢ ـ ﴿قُلِ﴾ لمشركي قومك: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: زعمتموهم آلهة من دون الله. فالمفعول الأوّل: الضمير الراجع إلى الموصول، وحذف كما حذف في قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ﴾ [الفرقان: ٤١] استخفافاً لطول الموصول بصلته. والمفعول الثاني: آلهة، وحذف؛ لأنّه موصوف صفته ﴿من دون الله﴾ والموصوف يجوزُ حذفه، وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً. فإذاً مفعولا زعم محذوفان بسببين مختلفين. والمعنى: ﴿ادعوا الذين﴾ عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة، وسمّيتموهم باسمه، والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجئون إليه، وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته. ثمّ أجاب عنهم بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شرّ، أو نفع أو ضرّ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ ومالهم في هذين الجنسين من شركة في الخلق، ولا في الملك ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ تعالى ﴿مِنْهُم﴾ من آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ من عَوين يعينه على تدبير خلقه. يريد: أنهم على هذه الصفة من العجز، فكيف يصحُّ أن يُدْعَوا كما يدعى، ويُرْجَوا كما يرجى؟

٢٣ ـ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الله، يعني: إلاّ لمن وقع الإذن

حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

للشفيع لأجله، وهي: اللام الثانية في قولك: أُذِنَ لِزَيدٍ لِعَمروٍ، أي: لأجله. وهذا تكذيبٌ لقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ﴿أُذن له﴾: كوفيّ غير عاصم، إلاّ الأعشى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها ربّ العزّة في إطلاق الإذن. و﴿فَزّع﴾: شاميّ، أي: الله تعالى. والتفزيع: إزالة الفزع. و﴿حتّى﴾ غاية لما فهم من أنّ ثمّ، انتظاراً للإذن، وتوقّفاً، وفزعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم، أولا يؤذن لهم؟! كأنه قيل: يتربصون، ويتوقّعون مليّاً فزعين ﴿حتى غذا فزع عن قلوبهم﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ سأل بعضهم بعضاً ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟﴾ قال: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي: قول الحق. وهو الإذنُ بالشفاعة لمن ارتضى ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ذو العلوّ والكبرياء، ليس لملك ولا نبيّ أن يتكلم ذلك اليوم إلاّ بإذنه، وأن يشفع إلاّ لمن ارتضى.

٢٤ ـ ﴿۞ قُلْ﴾ أمره بأن يقرّرهم بقوله: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾. ثمّ أمره بأن يتولى الإجابة، والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم ﴿الله﴾، وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم، إلاّ أنهم ربّما أبوا أن يتكلّموا به؛ لأنهم إن تفوّهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فمالكم لا تعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق؟ وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. ومعناه: وإنّ أحد الفريقين من الموحّدين ومن المشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال. وهذا من الكلام المنصف الذي كلّ من سمعه من مُوَال، أو مناف قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك. وفي دَرْجِة بعد تَقَدُّمه ما قُدِّم من التقدير: دلالة غير خفيّة على مَن هو من الفريقين على الهدى، ومَن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض. ونحوه قولك للكاذب: إن أحدنا لكاذب. وخُولِف بين

قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ
يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ
كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾

حرفي الجرّ الداخلين على الهدى والضلال؛ لأنّ صاحبَ الهدى كأنّه مستعلٍ على فرس جواد يَرْكُضُه حيث شاء، والضال كأنّه منغمس في الظلام لا يدري أين يتوجّه.

٢٥ ـ ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا أدخلُ في الإنصاف من الأوّل، حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين، وهو مأمورٌ به مشكورٌ، والعملَ إلى المخاطَبين. وهو مزجورٌ عنه محظور.

٢٦ ـ ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ يحكم ﴿بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ بلا جور، ولا ميل ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ الحاكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالحكم.

٢٧ ـ ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم﴾ أي: ألحقتموهم ﴿بِهِۦ﴾ بالله ﴿شُرَكَآءَ﴾ في العبادة معه. ومعنى قوله: ﴿أروني﴾ ـ وكان يراهم ـ أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله، وأن يطلعهم على حالة الإشرك به ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه أي: ارتدعوا عن هذا القول، وتنبهوا عن ضلالكم ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب، فلا يشاركه أحد ـ و﴿هو﴾ ضمير الشأن ـ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره.

٢٨ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ إلا إرسالة عامّة لهم، محيطة بهم؛ لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم. وقال الزجّاج: معنى الكافّة في اللغة: الإحاطة؛ والمعنى: أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ، فجعله حالاً من الكاف. والتاء على هذا للمبالغة، كتاء الراوية، والعلاّمة ﴿بَشِيرًا﴾ بالفضل لمن أقرّ ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعدل لمن أصرّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

٢٩ ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: القيامة المشار إليها في قوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ [سبأ: ٢٦] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

٣٠ ـ ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ الميعاد: ظرف الوعد من مكان، أو زمان. وهو ـ هنا ـ الزمان، ويدلّ عليه قراءة من قرأ: ﴿ميعادٌ يومٌ﴾[1] فأبدل منه اليوم. وأما الإضافة فإضافة تبيين، كما تقول: بعير سانية ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يمكنكم التأخّر عنه بالاستمهال، ولا التقدّم إليه بالاستعجال. ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم: أنّهم سألوا عن ذلك، وهم منكرون له، تعنتاً لا استرشاداً، فجاء الجوابُ على طريق التهديد مطابقاً للسؤال على سبيل الإنكار والتعنّت، وأنّهم مُرْصَدون ليوم يفاجئهم، فلا يستطيعون تأخّراً عنه، ولا تقدماً عليه.

٣١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أبو جهل، وذووه ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ما نزل قبل القرآن من كتب الله، أو: القيامة، والجنّة، والنار. يعني: أنّهم جحدوا أن يكون القرآنُ من الله، وأن يكون لما دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ﴾، يردّ ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ في الجدال. أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة، فقال لرسول الله ﷺ، أو: للمخاطب: ولو ترى في الآخرة موقفهم، وهم يتجاذبون أطراف المحاورة، ويتراجعونها بينهم، لرأيت العجب، فحذف الجواب ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أي: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: للرؤوس، والمقدّمين ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ لولا دعاؤكم إيّانا إلى الكفر لكنا مؤمنين بالله، ورسوله.

---

(١) انظر هذه القراءة في التفسير الكبير للفخر الرازي (٢٥/ ٢٥٨)، والبحر المحيط (٧/ ٢٨٢).

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ

٣٢ ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ أُولِيَ الاسم، أي: ﴿نحن﴾ حرف الإنكار؛ لأن المرادَ إنكارُ أن يكونوا هم الصادّين لهم عن الإيمان، وإثباتُ أنّهم هم الذين صدّوا بأنفسهم عنه، وأنّهم أوتوا من قبل اختيارهم ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ إنّما وقعت ﴿إذ﴾ مضافاً إليها، وإن كانت إذ، وإذا من الظروف اللازمة للظرفية؛ لأنّه قد اتّسع في الزمان مالم يتّسع في غيره، فأضيف إليها الزمان ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين لاختياركم، وإيثاركم الضلال على الهدى، لا لقولنا، وتسويلنا.

٣٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ لم يأت بالعاطف في: ﴿قال الذين استكبروا﴾ وأُتِيَ في ﴿وقال الذين استضعفوا﴾ لأنّ الذين استضعفوا مرّ أوّلاً كلامهم، فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثمّ جيء بكلام آخر للمستضعفين، فعطف على كلامهم الأوّل ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بل مكركم بنا في الليل والنهار، فاتّسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، وإضافة المكر إليه، أو: جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازيّ، أي: الليل والنهار مكراً بطول السلامة فيهما حتّى ظننّا أنّكم على حقٍّ ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أشباهاً. والمعنى: أنّ المستكبرين لمّا أنكروا بقولهم: ﴿أنحن صددناكم﴾ أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين، وأثبتوا بقولهم: ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أنّ ذلك بكسبهم، واختيارهم، كرّ عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم، كأنّهم قالوا: ما كان الإجرامُ من جهتنا، بل من جهة مكركم لنا دائباً ليلاً ونهاراً، وحملكم إيّانا على الشرك، واتّخاذ الأنداد ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أضمروا، أو: أظهروا، وهو من الأضداد. وهم الظالمون في قوله: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [سبأ: ٣١] يندم المستكبرون على ضلالهم، وإضلالهم. والمستضعفون على ضلالهم، واتّباعهم المضلّين ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الجحيم

وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في أعناقهم، فجاء بالصريح للدلالة على ما استحقّوا به الأغلال ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

٣٤ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ نبيّ ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ متنعّموها، ورؤساؤها: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾. هذه تسليةٌ للنبيّ ﷺ ممّا مُني به من قومه من التكذيب، والكفر بما جاء به، وأنّه لم يرسل قطّ إلى أهل قرية من نذير إلاّ قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ أهلُ مكّة، وافتخروا بكثرة الأموال والأولاد، كما قال:

٣٥ـ ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، أرادوا: أنّهم أكرم على الله من أن يعذّبهم، نظراً إلى أحوالهم في الدنيا، فظنّوا أنّهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله، ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم، فأبطل الله ظنهم بأنّ الرزقَ فضلٌ من الله يقسمه كيف يشاء. فربما وسّع على العاصي، وضيّق على المطيع، وربّما عكس، وربّما وسّع عليهما، وضيّق عليهما، فلا ينقاسُ عليه أمر الثواب بقوله:

٣٦ـ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ـ قَدْرُ الرزق: تضييقه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] ـ ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٣٧ـ ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي: وما جماعة أموالكم، ولا جماعة أولادكم ﴿بالتي تقرّبكم﴾ وذلك: أن الجمع المكسّر؛ عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث. والزلفى والزلفة، كالقربى والقربة. ومحلّها النصب، أي: تقرّبكم قربة، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ الاستثناء من «كُمْ» في ﴿تقرّبكم﴾ يعني: أنّ الأموال

فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ
ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

لا تقرّب أحداً إلاّ المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، والأولاد لا تقرّب أحداً إلاّ من علّمهم الخير، وفقههم في الدين، ورسّخهم للصلاح والطاعة. وعن ابن عيسى[1]: ﴿إلاّ﴾ بمعنى لكن، و﴿مَن﴾ شرط جوابه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أصله: ﴿فأولئك لهم﴾ أن يجازَوا الضعفَ، ثمّ جزاءٌ الضعفَ، ثمّ جزاءُ الضعف. ومعنى جزاء الضعف: أن تضاعفَ لهم حسناتُهم الواحدة عشراً. وقرأ يعقوب: ﴿جزاءٌ الضعفُ﴾ على ﴿فأولئك لهم﴾ الضعف جزاءً ﴿بما عملوا﴾ بأعمالهم ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي: غرف منازل الجنّة. (في الغرفة): حمزة ﴿ءَامِنُونَ﴾ من كلّ هائل، وشاغل.

٣٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ في إبطالها. ﴿مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

٣٩ ـ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يوسّع ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ «ما» شرطيّة، في موضع النصب ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بيانه ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ يعوّضه. لا معوّض سواه إمّا عاجلاً بالمال، أو آجلاً بالثواب. جواب الشرط ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ المطعمين، لأنّ كلّ ما رزق غيره من سلطان، أو: سيّد، أو: غيرهما، فهو من رزق الله، أجراه على أيدي هؤلاء، وهو خالقُ الرزق، وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوقُ بالرزق. وعن بعضهم: الحمد لله الذي أوجدني، وجعلني ممن يشتهي، فكم من مشتهٍ لا يجد، وواجد لا يشتهي!

(١) في المطبوع: عباس.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ
أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا
يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾

٤٠ ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾[(١)] وبالياء فيهما: حفص، ويعقوب. هذا خطابٌ للملائكة، وتقريع للكفّار، وارد على المثل السائر: إيّاك أعني، واسمعي يا جارة[(٢)]. ونحو قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى﴾ الآية [المائدة: ١١٦].

٤١ ـ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الملائكة. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لك أن يعبد معك غيرك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ الموالاة: خلاف المعاداة، وهي: مفاعلة، من الولي، وهو: القرب. والوليّ يقع على الموالي والموالَى جميعاً. والمعنى: أنت الذي نواليه ﴿مِن دُونِهِم﴾ إذ لا موالاة بيننا وبينهم. فبيّنوا بإثبات موالاة الله، ومعاداة الكفّار: براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم؛ لأنّ مَن كان على هذه الصفة كانت حالُه منافيةً لذلك ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، حيث أطاعوهم في عبادة غير الله، أو: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عُبِدَتْ، فيُعْبَدون بعبادتها، أو: صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجنّ، وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها ﴿أَكْثَرُهُم﴾ أكثر الإنس، أو: الكفّار ﴿بِهِم﴾ بالجنّ ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾.

٤٢ ـ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لأنّ الأمر في ذلك اليوم لله وحده لا يملك فيه أحد منفعة، ولا مضرّة لأحد؛ لأنّ الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو: الله، فكانت حالُها خلاف حال الدنيا التي هي دار التكليف، والنّاس فيها مخلًّى بينهم يتضارّون، ويتنافعون. والمراد: أنّه

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿نحشرهم، نقول﴾ وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، وخلف. معجم القراءات القرآنية (٥/ ١٦٥).

(٢) هذا المثل في: مجمع الأمثال (١/ ٨٠). يُضرب لمن يتكلّم بكلامٍ ويريد به شيئاً غيره.

وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا
بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ
إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ
ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

لا ضارّ ولا نافع يومئذ إلاّ هو. ثمّ ذكر عاقبة الظالمين بقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بوضع العبادة في غير موضعها ـ معطوف على ﴿لا يملك﴾ ـ: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

٤٣ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا﴾ أي: إذا قُرِيء عليهم القرآن ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ واضحات ﴿قَالُوا۟﴾ أي: المشركون ﴿مَا هَـٰذَآ﴾ أي: محمد ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وقالوا ـ والعدولُ عنه دليلٌ على إنكار عظيم، وغضب شديد ـ ﴿لِلْحَقِّ﴾ للقرآن، أو: لأمر النبوّة كلّه ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وعجزوا عن الإتيان بمثله: ﴿إِنْ هَـٰذَآ﴾ أي: الحق ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. بتُوه على أنّه سحر، ثمّ بتوه على أنه بيّن ظاهر؛ كلّ عاقل تأمّله سمّاه سحراً.

٤٤ ـ ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: ما أعطينا مشركي مكّة كتباً يدرسونها، فيها برهان على صحّة الشرك ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا.

٤٥ ـ ثم توعّدهم على تكذيبهم بقوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: وكذّب الذين تقدّموهم من الأمم والقرون الخالية الرسل، كما كذّبوا ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ أي: وما بلغ أهلُ مكّة عشر ما أوتي الأوّلون من طول الأعمار، وقوّة الأجرام، وكثرة الأموال، ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ للمكذّبين الأوّلين. فليحذروا من مثله ـ وبالياء في الوصل والوقف: يعقوب ـ أي: فحين كذّبوا رسلهم جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، ولم يغنِ عنهم استظهارهم بما هم مستظهرون، فما بال هؤلاء؟ وإنّما قال: ﴿فكذّبوا رسلي﴾ وهو مستغنى عنه بقوله: ﴿وكذّب الذين من قبلهم﴾؛ لأنّه لمّا كان معنى قوله: ﴿وكذّب

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

الذين من قبلهم﴾ وفعل الذين من قبلهم التكذيب، وأقدموا عليه، جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه. وهو كقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمّد ﷺ.

٤٦ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ بخصلة واحدة. وقد فسّرها بقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ﴾ على أنّه عطف بيان لها، وقيل: هو بدل. وعلى هذين الوجهين هو في محلّ الجرّ. وقيل: هو في محلّ الرفع على تقدير: هي ﴿أن تقوموا﴾، أو: النصب على تقدير: أعني. فأراد بقيامهم القيام عن مجلس رسول الله ﷺ، وتفرّقهم عن مجتمعهم عنده، أو: قيام القصد إلى الشيء دون النهوض والانتصاب. والمعنى: إنّما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحقّ، وتخلصتم، وهي: ﴿أن تقوموا﴾ ﴿لِلَّهِ﴾ أي: لوجه الله خالصاً ـ لا لحميّة، ولا عصبيّة، بل لطلب الحقّ ـ ﴿مَثْنَىٰ﴾ اثنين اثنين ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ وفرداً فرداً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمر محمّد ﷺ، وما جاء به، أمّا الاثنان فيتفكّران، ويعرض كلّ واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف حتّى يؤدّيهما النظر الصحيح إلى الحقّ. وكذلك الفرد يتفكّر في نفسه بعدل، ونصفة، ويعرض فكره على عقله. ومعنى تفرّقهم مثنى وفرادى: أنّ الاجتماعَ مما يشوّشِ الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الرويّة، ويقلّ الإنصاف فيه، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصب، ولا يسمع إلاّ نصرة المذهب. و﴿تتفكّروا﴾ معطوف على ﴿تقوموا﴾ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ يعني: محمّداً ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون. والمعنى: ﴿ثمّ تتفكّروا﴾ فتعلموا ﴿ما بصاحبكم من جنّة﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قدّام ﴿عذاب شديد﴾ وهو عذاب الآخرة. وهو كقوله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة»[1].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣١٠) ومسلم (٨٦٧) (٤٤و٤٥) والنسائي (٣/ ١٨٨) وابن ماجه (٤٥).

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾

٤٧ ـ ثمَّ بيّن أنّه لا يطلب أجراً على الإنذار بقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على إنذاري، وتبليغي الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ جزاء الشرط، تقديره: أيّ: شيء سألتكم من أجر كقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢] ومعناه: نفي مسألة الأجر رأساً، نحو: مالي في هذا فهو لك، أي: ليس لي فيه شيء ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ مدنيّ، وشاميّ، وأبو عمرو، وحفص. وبسكون الياء: غيرهم ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيعلم أنّي لا أطلبُ الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلاّ منه.

٤٨ ـ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ بالوحي. والقذف: توجيه السهم ونحوه بدفع واعتماد، ويُستعار لمعنى الإلقاء. ومنه: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦] ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ [طه: ٣٩]. ومعنى ﴿يقذف بالحقّ﴾ يلقيه، وينزله إلى أنبيائه، أو: يرمي به الباطل فيدمغه، ويزْهقه ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ مرفوع على البدل من الضمير في ﴿يقذف﴾، أو: على أنّه خبر مبتدأ محذوف.

٤٩ ـ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ الإسلام، والقرآن ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: زال الباطل، وهلك؛ لأنّ الإبداء والإعادة من صفات الحيّ، فعدمهما عبارة عن الهلاك. والمعنى: جاء الحق، وزهق الباطل، كقوله: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: دخل النبيّ ﷺ مكّة، وحول الكعبة أصنام، فجعل يطعنها بعود نَبْعَةٍ[1] يقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إنّ الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد»[2].

وقيل: الباطل: الأصنام. وقيل: إبليس؛ لأنّه صاحب الباطل، أو: لأنه هالك. كما قيل له الشيطان، من شاط: إذا هلك، أي: لا يخلق الشيطان ولا الصنم أحداً ولا يبعثه، فالمنشىء والباعث هو الله.

(١) النَّبْع: شجر تتخذ منه السهام والقِسِيُّ.
(٢) رواه أحمد (١/ ٣٧٧) والبخاري (٢٤٧٨) ومسلم (١٧٨١).

قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

٥٠ ـ ولمّا قالوا: قد ضللت بترك دين آبائك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي: إن ضللت فمنّي وعليّ، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فبتسديده بالوحي إليّ. وكان قياس التقابل أن يقال: ﴿وإن اهتديت﴾ فإنّما أهتدي لها، كقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١]. ولكن هما متقابلان معنىً؛ لأنّ النفس كلّ ما عليها وضارّ لها فهو بها، وبسببها؛ لأنّها الأمّارة بالسوء، ومالها ممّا ينفعها فبهداية ربّها وتوفيقه، وهذا حكم عامّ لكلّ مكلّف. وإنّما أمر رسولَه أن يسنده إلى نفسه؛ لأنّ الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محلّه، وسداد طريقته، كان غيره أولى به ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لما أقوله لكم ﴿قَرِيبٌ﴾ منّي ومنكم، يجازيني ويجازيكم.

٥١ ـ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ جوابه محذوف، أي: لو رأيت أمراً عظيماً، وحالاً هائلة ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ عند البعث، أو: عند الموت، أو: يوم بدر ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا مهرب، أو: فلا يفوتون الله، ولا يسبقونه ﴿وَأُخِذُوا۟﴾ عطف على ﴿فزعوا﴾ أي: فزعوا، وأخذوا، فلا فوت لهم. أو: على ﴿لا فوت﴾ على معنى ﴿إذ فزعوا﴾ فلم يفوتوا وأخذوا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الموقف إلى النار إذا بعثوا، أو: ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا. أو: من صحراء بدر إلى القليب.

٥٢ ـ ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ حين عاينوا العذاب: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بمحمّد ﷺ لمرور ذكره في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، أو: بالله ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ التناوش: التناول، أي: كيف يتناولون التوبة وقد بعدت عنهم، يريد: أنّ التوبة كانت تُقبل منهم في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا وبعدت عن الآخرة. وقيل: هذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو: أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت كما نفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا. مثّلت حالهم بحال من يريد أن يتناولَ الشيء من غلوة، كما يتناول الآخر من قِيس ذراع. ﴿التناؤش﴾ بالهمزة: أبو عمرو، وكوفيّ غير حفص. همزت الواو؛ لأنّ كلّ واو مضمومة ضمتها

وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ

لازمة إن شئت أبدلتها همزة، وإن شئت لم تبدل، نحو قولك: أَدْوُرٌ، وتَقَاوُمٌ، وإن شئت قلت: أدؤر، وتقاؤم. وعن ثعلب: التناؤش ـ بالهمز ـ: التناول من بُعْدٍ، وبغير همز: التناول من قرب.

٥٣ ـ ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ من قبل العذاب، أو: في الدنيا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ معطوف على ﴿قد كفروا﴾ على حكاية الحال الماضية، يعني: وكانوا يتكلّمون بالغيب، أو: بالشيء الغائب، يقولون: لابعث، ولاحساب، ولا جنّة، ولا نار ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الصدق، أو: عن الحقّ، والصواب. أو: هو قولهم في رسول الله ﷺ: شاعر، ساحر، كذّاب. وهذا تكلّم بالغيب، والأمر الخفيّ؛ لأنّهم لم يشاهدوا منه سحراً، ولا شعراً، ولا كذباً. وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله؛ لأنّ أبعد شيء ممّا جاء به السحر والشعر، وأبعد شيء من عادته التي عرفت بينهم، وجربت الكذب. ﴿ويُقْذَفون﴾ محبوب عن أبي عمرو على البناء للمفعول، أي: تأتيهم به شياطينهم، ويلقنونهم إيّاه. وإن شئت فعلّقه بقوله: ﴿وقالوا آمنّا به﴾ على أنّه مثّلهم في طلبهم تحصيل ما عطّلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم: ﴿آمنا﴾ في الآخرة، وذلك مطلبٌ مستبعد، بمن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظنّ في لحوقه، حيث يريد أن يقعَ فيه لكونه غائباً عنه بعيداً. ويجوز أن يكونَ الضميرُ في ﴿آمنّا به﴾ للعذاب الشديد في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]. وكانوا يقولون: وما نحن بمعذّبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة، والعقاب، والثواب، ونحن أكرمُ على الله من أن يعذّبنا، قائسين أمر الآخرة على أمر الدنيا. فهذا كان قذفهم بالغيب. وهو غيبٌ ومقذوف به من جهة بعيدة؛ لأن دارَ الجزاء لا ينقاسُ على دار التكليف.

٥٤ ـ ﴿وَحِيلَ﴾ وحجز ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنّة، أو: من الردّ إلى الدنيا كما حُكِيَ عنهم بقوله: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢]. والأفعال التي هي فزعوا، وأخذوا،

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾

وحيل؛ كلّها للمعنى، والمراد بها: الاستقبال؛ لتحقّق وقوعه ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ بأشباههم من الكفرة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ﴾ من أمر الرسل، والبعث ﴿مُّرِيبٍۭ﴾ موقع للريبة، من أرابه؛ إذا أوقعه في الريبة. هذا ردّ على مَن زعم: أنّ الله لا يعذّب على الشكّ.

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

١ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمد ذاته تعليماً، وتعظيماً ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدئها، ومبتدعها. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما كنت أدري معنى الفاطر حتّى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: ابتدأتها ﴿وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إلى عباده ﴿أُو۟لِىٓ﴾ ذوي. اسم جمع لـ«ذو». وهو بدل من ﴿رسلاً﴾ أو: نعت له ﴿أَجْنِحَةٍ﴾ جمع جناح ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ صفات لـ﴿أجنحةٍ﴾، وإنّما لم تنصرف لتكرّر العدل فيها، وذلك أنّها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر، كما عدل عمر عن عامر، وعن تكريرٍ إلى غير تكريرٍ. وقيل: للعدل والوصف. والتعويل عليه. والمعنى: أنّ مِنَ الملائكة طائفة أجنحتهم اثنان اثنان، أي: لكلّ واحد منهم جناحان، وطائفة أجنحتهم ثلاثة ثلاثة، ولعلّ الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوّة، وطائفة أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي: يزيد في خَلْق الأجنحة وغيره ﴿مَا يَشَآءُ﴾ وقيل: هو الوجه الحسن، والصوت الحسن، والشعر الحسن، والخطّ الحسن، والملاحة في العينين. والآية مطلقة تتناول كلّ زيادة في الخلق من: طول قامة، واعتدال صورة، وجزالة في الرأي، وذلاقة[1] في اللسان، ومحبّة في قلوب المؤمنين، وما أشبه ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

---

(١) «الذلاقة»: الحدّة والطلاقة.

مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

٢ ـ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ نكّر الرحمة للإشاعة والإبهام. كأنّه قال: مِنْ أيّة ﴿رحمة﴾ رزق، أو: مطر، أو: صحّة، أو: غير ذلك ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فلا أحد يقدرُ على إمساكها وحبسها. واستعير الفتح للإطلاق والإرسال. ألَا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ يمنع، ويحبس ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ مُطْلِقَ له ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد إمساكه. وأنّث الضمير الراجع إلى الاسم المتضمِّن معنى الشرط على معنى الرحمة. ثمّ ذكّره حملاً على اللفظ المرجوع إليه، إذ لا تأنيثَ فيه؛ لأنّ الأوّل فسّر بالرحمة، فحسن إتباع الضمير التفسير، ولم يفسّر الثاني فترك على أصل التذكير. وعن معاذ مرفوعاً: «لا تزالُ يدُ الله مبسوطة على هذه الأمّة ما لم يرفقْ خيارهم بشرارهم، ويعظّمْ برّهم فاجرهم، وتعنْ قرّاؤهم أمراءهم على معصية الله. فإذا فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم»[1] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب، القادر علىً الإرسال والإمساك ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمةُ إرساله وإمساكه.

٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟﴾ باللسان، والقلب ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وهي التي تقدّمت من بسط الأرض كالمهاد، ورفع السماء بلا عماد؛ وإرسال الرسل لبيان السُّبُلَ دعوة إليه، وزلفة لديه؛ والزيادة في الخلق، وفتح أبواب الرزق. ثمّ نبّه على رأس النعم، وهو اتّحاد المنعم، بقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ برفع ﴿غير﴾ على الوصف محلاً لأنّ ﴿خالق﴾ مبتدأ خبره محذوف أي: لكم. وبالجر: عليّ، وحمزة، على الوصف لفظاً ﴿يَرْزُقُكُم﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً، ويجوز أن يكون صفة لخالق ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بأنواع النبات ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مفصولة، لا محلّ لها ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فبأيّ وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٢/ ١٥٠).

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

---

٤ ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ نعى به على قريش سوء تلقّيهم لآيات الله، وتكذيبهم بها، وسلّى رسولَه بأنّ له في الأنبياء قبله أسوة. ولهذا نكّر ﴿رسل﴾ أي: رسل ذوو عدد كثير، وأولو آيات ونذر، وأهل أعمار طوال، وأصحاب صبر وعزم؛ لأنّه أسلى له. وتقدير الكلام: ﴿وإن يكذّبوك﴾ فتأسّ بتكذيب الرسل من قبلك؛ لأنّ الجزاء يتعقّب الشرط. ولو أجرى على الظاهر يكون سابقاً عليه. فوَضَع: ﴿فقد كذّبت رسل من قبلك﴾ موضع فتأسّ، استغناءً بالسبب عن المسبب، أي: بالتكذيب عن التأسّي ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ كلامٌ يشملُ على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه، ومجازاة المكذِّب والمكذَّب[1]. ﴿تَرْجِعُ﴾ بفتح التاء: شاميّ، وحمزة، وعليّ، وخلف، ويعقوب، وسهل.

٥ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ كائن ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا تخدعنّكم الدنيا، ولا يذهلنّكم التّمتع بها، والتلذّذ بمنافعها عن العمل للآخرة، وطلب ما عند الله ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان، فإنّه يمنّيكم الأمانيّ الكاذبة، ويقول: إنّ الله غنيّ عن عبادتك، وعن تعذيبك.

٦، ٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ظاهر العداوة. فعل بأبيكم ما فعل، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عقائدكم وأفعالكم، ولا يوجدَنّ منكم إلاّ ما يدلّ على معاداته في سرّكم وجهركم. ثمّ لخّص سرّ أمره، وخطأ من اتّبعه بأنّ غرضه الذي يؤمّه في دعوة شيعته هو أن يوردَهم موردَ الهلاك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: فمن أجابه حين دعى فله عذاب شديد؛ لأنّه صار من حزبه،

---

(١) زاد في المطبوع: بما يستحقّانه.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ
فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ
فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾

أي: أتباعه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يجيبوه، ولم يصيروا من حزبه، بل عادوه ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لكبر جهادهم.

٨ ـ ولمّا ذكر الفريقين قال لنبيّه ﷺ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ بتزيين الشيطان، كمن لم يزيّن له. فكأنّ رسول الله ﷺ قال: لا، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾. وذكر الزّجاج أنّ المعنى: ﴿أفمن زيّن له سوء عمله﴾ ذهبت نفسك عليه حسرة. فحذف الجواب لدلالة: ﴿فلا تذهب نَفْسَكَ﴾ عليه. أو: أفمن زيّن له سوء عمله كمن هداه الله، فحذف لدلالة ﴿فإنّ الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾ عليه. ﴿فلا تُذهب نفسك﴾: يزيد، أي: لا تهلكها ﴿حسرات﴾ مفعول له، يعني: فلا تهلك نفسك للحسرات. و﴿عليهم﴾ صلة ﴿تذهب﴾ كما تقول: هلك عليه حبّاً، ومات عليه حزناً. ولا يجوزُ أن يتعلّق بحسرات؛ لأنّ المصدَر لا تتقدَّمُ عليه صلته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وعيدٌ لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

٩ ـ ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ﴿الرّيح﴾ مكّيّ، وحمزة، وعليّ ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ بالتشديد: مدنيّ، وحمزة، وعليّ، وحفص. وبالتخفيف: غيرهم ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بالمطر ـ لتقدّم ذكره ضمناً ـ ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: يبسها. وإنّما قيل ﴿فتثير﴾ لتحكي الحال التي تقعُ فيها إثارة الرياح السحاب، وتُسْتَحضر تلك الصورة الدالّة على القدرة الرّبانيّة. وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصيّة بحال تستغرب. وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميّت، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها لِمَا كانا من الدلائل على القدرة الباهرة، قيل: فسقنا، وأحيينا، معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص، وأدلّ عليه ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ الكاف في محلّ الرفع، أي: مثل إحياء الموات، نشور

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

الأموات. قيل: يحيي الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش تنبت منه أجسادُ الخلق.

١٠ ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: العزّة كلّها مختصّة بالله؛ عزة الدنيا، وعزّة الآخرة. وكان الكافرون يتعزّزون بالأصنام، كما قال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]. والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعزّزون بالمشركين، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. فبيّن أن لا عزّة إلاّ لله. والمعنى: فليطلبها عند الله، فوضع قوله: ﴿لله العزة جميعاً﴾ موضعه، استغناءً به عنه، لدلالته عليه؛ لأنّ الشيءَ لا يُطلب إلاّ عند صاحبه، ومالكه. ونظيره قولك: مَنْ أراد النصيحة؛ فهي عند الأبرار، تريدُ: فليطلبها عندهم، إلاّ أنّك أقمت ما يدلّ عليه مقامه. وفي الحديث: «إنّ ربّكم يقول كلّ يوم: أنا العزيز، فمن أراد عزّ الدارين فليطع العزيز»[1]. ثمّ عرّف أنّ ما يطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ ومعنى قوله: ﴿إليه﴾ إلى محلّ القبول والرضا، وكلّ ما اتّصف بالقبول وصف بالرفعة والصعود. وإلى حيث لا ينفذ فيه إلاّ حكمه. و﴿الكلم الطيّب﴾ كلمات التوحيد، أي: لا إله إلا الله. وكان القياس: الطيبّة، ولكن كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلا التاء يذكّر، ويؤنّث. و﴿العمل الصالح﴾ العبادة الخالصة. يعني: ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ الكلم الطيّب. فالرافع: الكلم. والمرفوع: العمل؛ لأنّه لا يقبل عمل إلاّ من موحّد. وقيل: الرافع: الله، والمرفوع: العمل، أي: ﴿العمل الصالح يرفعه﴾ الله. وفيه إشارةٌ إلى أنّ العملَ يتوقّف على الرفع، والكلم الطيّب يصعد بنفسه. وقيل: العمل الصالح يرفعُ العامل، ويشرّفه، أي: من أراد العزّ فليعمل عملاً صالحاً، فإنّه هو الذي يرفعُ العبد ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هي صفة لمصدر محذوف، أي:

---

(١) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٢١).

لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

المكرات ﴿السيئات﴾ لأنّ مكر فعل غير متعدّ. لا يقال: مكر فلان عمله. والمراد مكر قريش بهﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠] ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُوَ﴾ فصل ﴿يَبُورُ﴾ خبر، أي: ﴿ومكر أولئك﴾ الذين مكروا ﴿هو﴾ خاصّة ﴿يبور﴾ أي: يفسد، ويبطل دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكّة، وقتَلَهُم، وأثبتهم في قليب بدر. فجمع عليهم مكراتهم جميعاً، وحقّق فيهم قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

١١ ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ أي: أباكم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ﴾ أنشأكم ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً، أو: ذكراناً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ هو في موضع الحال، أي: إلاّ معلومة له ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: ﴿وما يعمّر من﴾ أحد ـ وإنّما سمّاه معمّراً بما هو صائر إليه ـ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ يعني: اللوح، أو: صحيفة الإنسان ﴿ولا يَنْقُص﴾ زيد. فإن قلت: الإنسان إمّا معمّر، أي: طويل العمر، أو: منقوص العمر، أي: قصيره. فإمّا أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال، فكيف صحّ قوله: ﴿وما يعمّر من معمّر ولا ينقص من عمره﴾؟ قلت: هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتّكالاً على تسديدهم معناه بعقولهم، وأنّه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد. وعليه كلامُ الناس. يقولون: لا يثيب الله عبداً، ولا يعاقبه إلاّ بحقّ. أو: تأويل الآية: أنّه يكتب في الصحيفة عمره كذا كذا سنة، ثمّ يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم، ذهب يومان، حتّى يأتي على آخره، فذلك نقصان عمره. وعن قتادة: المعمّر: من بلغ ستين سنة. والمنقوص من عمره: من يموت قبل ستين سنة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إحصاءه، أو: زيادة العمر ونقصانه ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ

---

١٢ ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا﴾ أي: أحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة ـ وقيل: هو الذي يكسر العطش ـ ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ مريء، سهل الانحدار لعذوبته، وبه يرتفع شرابه ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة. وقيل: هو الذي يحرق بملوحته ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ ومن كلّ واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي اللؤلؤ، والمرجان ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾ في كلٍّ ﴿مَوَاخِرَ﴾ شواقّ للماء بجريها ـ يقال: مخرت السفينة الماء، أي: شقّته. وهي جمع ماخرة ـ ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ من فضل الله ـ ولم يجر له ذكرٌ في الآية، ولكن فيما قبلها. ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه ـ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما آتاكم من فضله. ضرب البحرين ـ العذب والملح ـ مثلين للمؤمن والكافر. ثمّ قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه: ويحتملُ غير طريقة الاستطراد، وهو أن يشبّه الجنسين بالبحرين، ثمّ يفضّل البحر الأجاج على الكافر، بأنّه قد شارك العذب في منافع من السمك، واللؤلؤ، وجري الفلك فيه، والكافر خلوّ من النفع، فهو في طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

١٣ ـ ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يُدخل من ساعات أحدهما في الآخر، حتّى يصير الزائدُ منهما خمس عشرة ساعة، والناقص تسعاً ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذلّل أضوءَ صورةٍ، لأسنوأ سيرة ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يوم القيامة ينقطع جريهما ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أخبار مترادفة. أو: ﴿الله ربّكم﴾ خبر إنّ. و﴿له الملك﴾ جملة مبتدأة

وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا
يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ
وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ
ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾

واقعة في قران قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام التي تعبدونهم من دون الله ـ ﴿يَدْعُون﴾ قتيبة ـ ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ وهي القشرة الرقيقة الملتفّة على النواة.

١٤ ـ ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ أي: الأصنام ﴿لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ لأنّهم جماد ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾ على سبيل الفرض ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾ لأنّهم لا يدّعون ما تدّعون لهم من الإلّهية، ويتبرّؤون منها ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ بإشراككم لهم، وعبادتكم إيّاهم، ويقولون: ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾ ولا ينبّئك ـ أيها المفتون بأسباب الغرور ـ كما ينبّئك الله الخبير بخبايا الأمور. وتحقيقه: ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به، يريد: أنّ الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به. والمعنى: أنّ هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحقّ؛ لأنّي خبيرٌ بما أخبرت به.

١٥ ـ ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال ذو النون ـ رحمه الله ـ: الخلقُ محتاجون إليه في كلّ نَفَسٍ، وخطوة، ولحظة، وكيف لا؟ ووجودهم به، وبقاؤهم به ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن الأشياء أجمع، ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المحمود بكلّ لسان.

ولم يسمّهم بالفقراء للتحقير، بل للتعريض على الاستغناء؛ ولهذا وصف نفسه بالغنيّ الذي هو مُطْعِمُ الأغنياء. وذكر ﴿الحميد﴾ ليدلّ به على أنّه الغنيّ النافع بغناه خَلْقه، الجواد المنعم عليهم، إذ ليس كلّ غنيّ نافعاً بغناه إلاّ إذا كان الغنيُّ جواداً منعماً. فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم. قال سهل: لمّا خلق اللهُ الخلقَ حكم لنفسه بالغِنى، ولهم بالفقر، فمن ادّعى الغنى حُجب عن الله، ومن أظهر فقره أوصله فقْرُه إليه. فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسّر إليه، ومنقطعاً عن الغير إليه، حتّى تكون عبوديّته محضة، فالعبوديّة هي: الذلّ

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾

والخضوع، وعلامته: ألاّ يسأل من أحد. وقال الواسطيّ: مَن استغنى بالله لا يفتقر، ومن تعزّز بالله لا يذلّ. وقال الحسين: على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غناه بالله، وكلّما ازداد افتقاراً ازداد غِنى. وقال يحيى ـ رحمه الله ـ: الفقرُ خيرٌ للعبد من الغِنى؛ لأنّ الذلّة في الفقر، والكبر في الغِنى. والرجوع إلى الله بالتواضع والذلّة، خير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال. وقيل: صفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله في كلّ شيء، والفقر إليه في كلّ شيء، والرجوع إليه من كلّ شيء. وقال الشبلي ـ رحمه الله ـ: الفقر يجرّ البلاء، وبلاؤه كلّه عزّ.

١٦، ١٧ ـ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ كلّكم إلى العدم، فإنّ غناه [بذاته][1] لا بكم في القدم؛ ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو بدون حمدكم حميد ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ الإنشاء والإفناء ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بممتنع. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئاً.

١٨ ـ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى. والوزر والوقر أخوان. ووزَر الشيء: إذا حمله. والوازرة: صفة للنفس. والمعنى: أنّ كلّ نفس يوم القيامة لا تحملُ إلاّ وزرها؛ الذي اقترفته، لا تؤخذ نفس بذنب نفس، كما تأخذ جبابرةُ الدنيا الوليّ بالوليّ، والجار بالجار. وإنّما قيل: ﴿وازرة﴾ ولم يقل ﴿ولا تزر﴾ نفس ﴿وزر أخرى﴾ لأنّ المعنى: أنّ النفوس الوازرات لا ترى منهنّ واحدة إلاّ حاملة وزرها لا وزر غيرها. وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] وارد في الضالّين المضلّين. وإنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم، وذلك كلّه أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم. ألَا ترى كيف كذّبهم الله تعالى في قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] بقوله: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة بالذنوب أحداً ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ ثِقْلها، أي: ذنوبها ليتحمّل عنها بعض ذلك

(١) من المطبوع.

لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى
ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا
يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المدعوّ ـ وهو مفهومٌ من قوله ﴿وإن تدع﴾ ـ ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ذا قرابة قريبة كأب، أو: ولد، أو: أخ. والفرق بين معنى قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، ومعنى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء﴾، أنّ الأوّل دالّ على عدل الله في حكمه، وألاّ يؤاخذ نفساً بغير ذنبها، والثاني: في بيان أَنْ لا غياث يومئذ لمن استغاث، حتّى إنّ نفساً قد أثقلتها الأوزار لو دعت إلى أن يخفّف بعض وقرها لم تجب، ولم تُغَثْ، وإن كان المدعوّ بعض قرابتها ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك هؤلاء ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل، أو: المفعول، أي: يخشون ربّهم غائبين عن عذابه. أو: يخشون عذابه غائباً عنهم. وقيل: ﴿بالغيب﴾ في السّر حيث لا اطلاع للغير عليه، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في مواقيتها ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهّر بفعل الطاعات، وترك المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾. وهو اعتراضٌ مؤكّد لخشيتهم، وإقامتهم الصلاة؛ لأنّهما من جملة التزكّي ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع. وهو وعدٌ للمتزكّين بالثواب.

١٩ ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مثل للكافر والمؤمن، أو: للجاهل والعالم.

٢٠ ـ ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ مثل للكفر ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾ الإيمان.

٢١ ـ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ الحقّ والباطل، أو: الجنّة والنار. والحرور: الريح الحارّ كالسموم، إلاّ أنّ السموم تكون بالنهار، والحرور بالليل والنهار؛ عن الفرّاء.

٢٢ ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ مثل للذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه. وزيادة «لا» لتأكيد معنى النّفي. والفرق بين هذه الواوات: أنّ بعضها ضمّت شفعاً إلى شفع، وبعضها وتراً إلى وتر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ يعني: أنّه قد علم من يدخل في الإسلام ممّن لا يدخل

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

فيه، فيهدي من يشاء هدايته، وأمّا أنت فخفيّ عليك أمرهم؛ فلذلك تحرصُ على إسلام قوم مخذولين. شبّه الكفّار بالموتى؛ حيث لا ينتفعون بمسموعهم.

٢٣ ـ ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما عليك إلاّ أن تبلغ وتنذر، فإن كان المُنْذَرُ ممّن يسمعُ الإنذارَ نفع، وإن كان من المصرِّين فلا عليك.

٢٤ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ حال من أحد الضميرين، يعني: محقّاً، أو: محقّين، أو: صفة للمصدر، أي: إرسالاً مصحوباً ﴿بالحقّ﴾ ﴿بَشِيرًا﴾ بالوعد ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالوعيد ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ وما ﴿من أمّة﴾ قبل أمّتك ـ والأمّة: الجماعة الكثيرة ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [القصص: ٢٣] ويقال لأهل كلّ عصر: أمّة. والمراد هنا: أهل العصر. وقد كانت آثارُ النّذارة باقية فيما بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ فلم تخلُ تلك الأمم من نذير. وحين اندرست آثارُ نذارة عيسى عليه السلام بعث محمد ﷺ ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يخوفهم وخامة الطغيان، وسوء عاقبة الكفران. واكتفى بالنذير عن البشير في آخر الآية بعد ذكرهما؛ لأنّ النذارةَ مشفوعةٌ بالبشارة، فدلّ ذِكْر النذارة على ذِكْر البشارة.

٢٥ ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ حال، و«قد» مضمرة ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ وبالصحف ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: التوراة، والإنجيل، والزبور. ولمّا كانت هذه الأشياءُ في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً، وإن كان بعضُها في جميعهم، وهي: البيّنات، وبعضها في بعضهم، وهي: الزبر، والكتاب. وفيه مسلاةٌ لرسول الله ﷺ.

٢٦ ـ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ﴾ عاقبت ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأنواع العقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم، وتعذيبي لهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ

٢٧ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ بالماء ﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أجناسها من: الرمّان، والتفّاح، والتين، والعنب، وغيرها ممّا لا يحصر. أو: هيئاتها من: الحمرة، والصّفرة، والخضرة، ونحوها ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ طرق مختلفة اللون، جمع جُدَّةٍ، كمُدَّةٍ ومُدَدٍ ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ جمع غربيب. وهو تأكيدٌ للأسود. يقال: أسود غربيب، وهو الذي أبعد في السواد، وأغرب فيه. ومنه: الغراب. وكان من حقّ التأكيد أن يتبع المؤكّد، كقولك: أصفر فاقع، إلاّ أنّه أضمر المؤكّد قبله. والذي بعده تفسير للمضمر. وإنّما يفعلُ ذلك لزيادة التوكيد، حيث يدلّ على المعنى الواحد من طريقي الإظهار والإضمار جميعاً. ولا بدّ من تقدير حذف المضاف، أي: في قوله: ﴿ومن الجبال﴾ ذو جدد بيض، وحمر، وسود، حتّى يؤول إلى قولك: ومن الجبال مختلف ألوانه، كما قال: ﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

٢٨ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ يعني: ومنهم بعضٌ مختلف ألوانه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كاختلاف الثمرات، والجبال. ولمّا قال: ﴿ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء﴾ وعدّد آيات الله، وأعلام قدرته، وآثار صنعته، وما خلق من الفِطر المختلفة الأجناس، وما يستدلّ به عليه وعلى صفاته، أتبع ذلك: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي: العلماء به؛ الذين علموه بصفاته، فعظّموه. ومن ازداد١٣٦ علماً به ازداد منه خوفاً، ومَن كان علمه به أقلّ كان آمن. وفي الحديث: «أعلمُكم بالله أشدّكم له خشية»[1]. وتقديم اسم الله تعالى وتأخير العلماء يُؤذِن أنّ معناه: أنّ الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم. ولو عكس لكان المعنى: أنّهم لا يخشون إلاّ الله، كقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا. وفي الصحيح: «أنا أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية». (حاشية الكشاف ٣ / ٦١١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ﴾

﴿ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]. وبينهما تغاير، ففي الأوّل بيان أنّ الخاشين[1] هم العلماء، وفي الثاني بيان أنّ المخشيّ منه هو الله تعالى. وقرأ أبو حنيفة، وعمر بن عبد العزيز، وابن سيرين ـ رحمهم الله ـ: ﴿إنّما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ﴾. والخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: إنّما يعظم الله من عباده العلماء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية بدلالته على عقوبة العصاة، وقهرهم، وإثابة أهل الطاعة، والعفو عنهم، والمعاقِب المثيب حقّه أن يُخْشَى.

٢٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يداومون على تلاوة القرآن ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: مسرّين النفل، ومعلنين الفرض. يعني: لا يقنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر إنّ ﴿تِجَٰرَةً﴾ هي: طلب الثواب بالطاعة ﴿لَّن تَبُورَ﴾ لن تكسد، يعني: تجارة ينتفي عنها الكساد، وتنفُق عند الله.

٣٠ ـ ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ متعلّق بـ: لن تبور، أي: ﴿ليوفّيهم﴾ بنفاقها عنده ﴿أُجُورَهُمْ﴾ ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ بتفسيح القبور أو بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم، أو بتضعيف حسناتهم، أو: بتحقيق وعد لقائه. أو: يرجون في موضع الحال، أي: راجين. واللام تتعلّق بيتلون وما بعده، أي: فعلوا جميع ذلك من التلاوة، وإقامة الصلاة، والإنفاق لهذا الغرض. وخبر ﴿إنّ﴾: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: ﴿غفور﴾ لهم ﴿شكور﴾ لأعمالهم، أي: يعطي الجزيل على العمل القليل.

٣١ ـ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن. و﴿من﴾ للتبيين ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكّدة؛ لأنّ الحقّ لا ينفكّ عن هذا التصديق ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

---

(١) في الأصل المخطوط: الخاشعين. والمثبت هو الصواب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾

لما تقدّمه من الكتب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ فَعَلِمَكَ، وأبصر أحوالك، ورآك أهلاً لأن يُوحي إليك مثل هذا الكتاب المعجز؛ الذي هو عِيار على سائر الكتب.

٣٢ ـ ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: أوحينا إليك القرآن، ثمّ أورثناه من بعدك ـ أي: حكمنا بتوريثه ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ وهم أمّته من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، ومَن بعدهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ إلى يوم القيامة؛ لأنّ الله اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أمّة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، واختصّهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله. ثمّ رتّبهم على مراتب، فقال: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ وهو المرجأ لأمر الله ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾. وهذا التأويل يوافق التنزيل، فإنّه تعالى قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] وقال بعده: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ الآية [التوبة: ١٠٢]، وقال بعده: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ١٠٦] والحديث: فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنّه قال على المنبر بعد قراءة هذه الآية: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»(١) وعنه ﷺ: «السابق يدخل الجنّة بغير حساب، والمقتصد يحاسب حساباً يسيراً ثمّ يدخل الجنّة، وأمّا الظالم لنفسه فيحبس حتّى يظنّ أنّه لن ينجو، ثمّ تناله الرحمة فيدخل الجنّة»(٢). رواه أبو الدرداء.

والأثر: فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ السابق: المخلص، والمقتصد: المرائي، والظالم: الكافر بالنعمة غير الجاحد له؛ لأنّه حكم للثلاثة بدخول الجنة.

---

(١) رواه ابن مردويه كما في (الدر المنثور ٧ / ٢٥) وذكره القرطبي في تفسيره (١٤/٣٤٦) ورواه العقيلي في (الضعفاء الكبير ٣ / ٤٤٣) في ترجمة الفضل بن عميرة.

(٢) رواه أحمد (٥/١٩٨) وانظره في مجمع الزوائد (٧/ ٩٥) وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٣) وطريق الهجرتين (ص٣٦٦).

﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

وقول السلف: فقد قال الربيع بن أنس: الظالم: صاحب الكبائر، والمقتصد: صاحب الصغائر، والسابق: المجتنب لهما. وقال الحسن البصري: الظالم: من رجحت سيئاته، والسابق: من رجحت حسناته، والمقتصد: من استوت حسناته وسيئاته. وسئل أبو يوسف ـ رحمه الله ـ عن هذه الآية، فقال: كلّهم مؤمنون، وأمّا صفة الكفّار فبعد هذا، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر: ٣٦] وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده، فإنّه قال: فمنهم، ومنهم، ومنهم، والكلّ راجع إلى قوله: ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم أهلُ الإيمان، وعليه الجمهور. وإنّما قدّم الظالم للإيذان بكثرتهم، فإنَّ المقتصدين قليلٌ بالإضافة إليهم. والسابقون أقلّ من القليل. وقال ابنُ عطاء ـ رحمه الله ـ: إنّما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله. وقيل: إنّما قدّمه ليعرّفه أنّ ذنبه لا يبعده مِن ربّه. وقيل: لأنَّ أوّلَ الأحوال معصية، ثمّ توبة، ثمّ استقامة. وقال سهل: السابق العالم، والمقتصد: المتعلّم، والظالم: الجاهل. وقال أيضاً: السابق: الذي اشتغل بمعاده، والمقتصد: الذي اشتغل بمعاشه ومعاده، والظالم: الذي اشتغل بمعاشه عن معاده. وقيل: الظالم: الذي يعبده على الغفلة والعادة، والمقتصد: الذي يعبده على الرغبة والرهبة، والسابق: الذي يعبده على الهيبة والاستحقاق. وقيل: الظالم مَن أخذ الدنيا حلالاً كانت أو حراماً، والمقتصد: من يجتهد ألاّ يأخذها إلاّ من حلال، والسابق: مَن أعرض عنها جملة. وقيل: الظالم: طالب الدنيا، والمقتصد: طالب العقبى، والسابق: طالب المولى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره، أو: بعلمه، أو: بتوفيقه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيراث الكتاب ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

٣٣ ـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبر ثان لـ«ذلك»، أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: مبتدأ، والخبر: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: الفرق الثلاث ﴿يُدخَلونها﴾ أبو عمرو ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة، جمع سوار ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: من ذهب مرصّع باللؤلؤ. ﴿ولؤلؤاً﴾ بالنصب والهمز: نافع، وحفص، عطفاه على محلّ ﴿من أساور﴾ أي: يحلّون أساور ولؤلؤاً ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لما فيه من اللذّة، والزينة.

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا
دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى
كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ

٣٤ ـ ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ خوف النار، أو: خوف الموت، أو: هموم الدنيا ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ يغفر الجنايات وإن كثرت ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل الطاعات وإن قلّت.

٣٥ ـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي: الإقامة لا نبرح منها ولا نفارقها، يقال: أقمت، إقامة، ومقاماً، ومقامة ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ من عطائه وإفضاله، لا باستحقاقنا ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب، ومشقّة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب وفترة، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿لَغوب﴾ بفتح اللام، وهو شيء يلغب منه، أي: لا نتكلّف عملاً يُلْغبنا.

٣٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ جواب النفي، ونصبه بإضمار أن، أي: ﴿لا يُقْضَى عليهم﴾ بموت ثان فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ من عذاب نار جهنّم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ ﴿يُجزى كلُّ﴾: أبو عمرو.

٣٧ ـ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون، فهو يفتعلون من الصراخ، وهو: الصياح بجهد وشدّةٍ. واستعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صَوْتَه ﴿رَبَّنَآ﴾ يقولون ربنا ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: أخرجنا من النار، وردّنا إلى الدنيا نؤمن بدل الكفر، ونطع بعد المعصية. فيجابون بعد قدر عمر الدنيا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ يجوز أن يكون ﴿ما﴾ نكرة موصوفة، أي: تعميراً ﴿يتذكر فيه من تذكر﴾. وهو متناول لكلّ عمر تمكّن فيه المكلّف من إصلاح شأنه وإن قصر، إلاّ أنّ التوبيخ في المتطاول أعظم. ثمّ قيل: هو ثماني عشرة سنة. وقيل: أربعون، وقيل: ستّون ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾

فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ

الرسول ﷺ، أو: المشيب. وهو عطف على معنى ﴿أولم نعمركم﴾ لأنّ لفظه استخبار، ومعناه: إخبار، كأنّه قيل: قد عمّرناكم ﴿وجاءكم النذير﴾ ﴿فَذُوقُواْ﴾ العذاب ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ناصر يعينهم.

٣٨ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ما غاب فيهما عنكم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كالتعليل؛ لأنّه إذا علم ما في الصدور ـ وهو أخفى ما يكون ـ فقد علم كلّ غيب في العالم. وذات الصدور: مضمراتها. وهي تأنيث ذو، في نحو قول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: «ذو بطنِ خارجةَ جاريةٌ»[1] أي: مافي بطنها من الحبَل لأنّ الحبَل يصحب البطن. وكذا المضمرات تصحب الصدور. و«ذو» موضوع لمعنى الصحبة.

٣٩ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يقال للمستخلَف: خليفة، ويُجمع على: خلائف. والمعنى: أنّه جعلكم خلفاء في أرضه، قد ملّككم مقاليد التصرّف فيها، وسلّطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم، وغمط مثل هذه النعمة السنيّة ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ فوبالُ كفره راجعٌ عليه. وهو مقتُ الله، وخسار الآخرة، كما قال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗا﴾، وهو أشدّ البغض ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾: هلاكاً، وخسراناً.

٤٠ ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ﴾ آلهتكم التي أشركتموهم في العبادة ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ بدل من ﴿أرأيتم﴾ لأنّ معنى ﴿أرأيتم﴾: أخبروني، كأنّه قيل: أخبروني عن هؤلاء الشركاء، وعمّا استحقّوا به الشركة،

(١) رواه مالك في الموطأ (٢ / ٧٥٢).

أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾

﴿أروني﴾ أيّ جزء من أجزاء الأرض استبدّوا بخلقه دون الله ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أم لهم مع الله شركة في خَلْق السموات ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: معهم كتاب من عند الله ينطقُ بأنّهم شركاؤه، فهم على حجّة وبرهان من ذلك الكتاب. ﴿بيّنات﴾: عليّ، وابن عامر، ونافع، وأبو بكر ﴿بَلْ إِن يَعِدُ﴾ ما يَعِدُ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم﴾ ـ بدل من ﴿الظالمون﴾ وهم الرؤساء ـ ﴿بَعْضًا﴾ أي: الأتباع ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ هو قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

٤١ ـ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ يمنعهما من أن تزولا؛ لأنّ الإمساك منع ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ على سبيل الفرض ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ من بعد إمساكه. و﴿من﴾ الأولى مزيدة لتأكيد النفي، والثانية للابتداء ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكهما، وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدّاً لعظم كلمة الشرك، كما قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ الآية [مريم: ٩٠].

٤٢ ـ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ نصب على المصدر، أي: إقساماً بليغاً، أو: على الحال، أي: جاهدين في أيمانهم. ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ بلغ قريشاً قبل مبعث النبيّ ﷺ أنّ أهل الكتاب كذّبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذّبوهم، فوالله لئن أتانا رسول ﴿لنكوننّ أهدى من إحدى الأمم﴾ أي: من الأمّة التي يقال فيها: هي إحدى الأمم، تفضيلاً لها على غيرها في الهدى، والاستقامة، كما يقال للداهية العظيمة: هي إحدى الدواهي ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ فلمّا بعث رسول الله ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: ما زادهم مجيء الرسول ﷺ إلاّ تباعداً عن الحقّ ـ وهو إسنادٌ مجازيّ ـ.

ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا

٤٣ ـ ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مفعول له. وكذا ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾. والمعنى: و﴿ما زادهم إلاّ نفوراً﴾ للاستكبار ﴿ومكر السيىء﴾. أو: حال، يعني: مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ. وأصل قوله: ﴿ومكر السيىء﴾ وأن مكروا السيىء، أي: المكر السيىء، ثمّ ومكراً السيىء، ثم ومكر السيىء. والدليل عليه قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ يحيط وينزل ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ولقد حاق بهم يوم بدر. وفي المثل: «من حفر لأخيه جبّاً، وقع فيه مُنْكباً»[1] ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهو إنزال العذاب على الذين كذّبوا برسلهم من الأمم قبلهم. والمعنى: ﴿فهل ينظرون﴾ بعد تكذيبك إلاّ أن ينزل بهم العذاب مثل الذي نزل بمن قبلهم من مكذّبي الرسل. جعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بيّن أن سنّته التي هي الانتقام من مكذّبي الرسل سنّة لا يبدّلها في ذاتها، ولا يحوّلها عن أوقاتها، وأنّ ذلك مفعول لا محالة.

٤٤ ـ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم إلى الشام، واليمن، والعراق من آثار الماضين، وعلامات هلاكهم، ودمارهم ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل مكة ﴿قُوَّةً﴾ اقتداراً، فلم يتمكّنوا من الفرار ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ ليسبقه ويفوته ﴿مِن شَىْءٍ﴾ أيّ شيء ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بهم ﴿قَدِيرًا﴾ قادراً عليهم.

٤٥ ـ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ بما اقترفوا من المعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ على ظهر الأرض؛ لأنّه جرى ذكر الأرض في قوله:

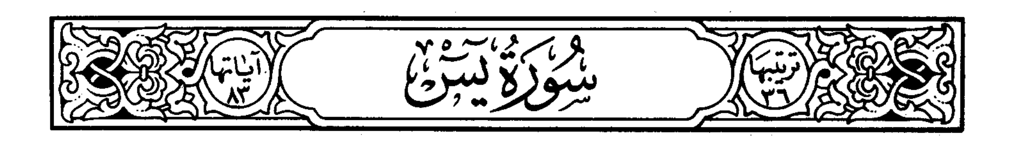
---

(١) ذكره الزمخشري في: «المستقصى في أمثال العرب» رقم (١٣٠٢).

مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

﴿ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض﴾ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من نسمةٍ تدبُّ عليها ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ أي: لم تخف عليه حقيقةُ أمرهم، وحكمة حكمهم.

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾

١ ـ ﴿يسٓ﴾ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: معناه: يا إنسان في لغة طيّىء. وعن ابن الحنفيّة: يا محمّد. وفي الحديث: «إنّ الله تعالى سمّاني في القرآن بسبعة أسماء: محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمزّمّل، والمدّثّر، وعبد الله»[(١)]. وقيل: يا سيّد ﴿يس﴾ بالإمالة: عليّ، وحمزة، وخلف، وحمّاد، ويحيى.

٢ ـ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ قسم ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ ذي الحكمة، أو: لأنّه دليل ناطق بالحكمة، أو: لأنّه كلام حكيم، فوصف بصفة المتكلّم به.

٣ ـ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جواب القسم. وهو ردّ على الكفّار حين قالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

٤ ـ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبر بعد خبر، أو: صلة للمرسلين، أي: الذين أرسلوا ﴿على صراط مستقيم﴾ أي: طريقة مستقيمة، وهو: الإسلام.

(١) رواه بنحوه ابن عدي وابن عساكر. (كنز العمال ٣٢١٦٩).

تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾

٥ ـ ﴿تَنزِيلَ﴾ بنصب اللام: شاميّ، وكوفيّ غير أبي بكر، على: اقرأ ﴿تنزيل﴾ أو: على أنّه مصدر، أي: نزّل ﴿تنزيل﴾. وغيرهم بالرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿تنزيل﴾. والمصدر بمعنى المفعول ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب بفصاحة نظم كتابه أوهام ذوي العناد ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام أولي الرشاد.

٦ ـ واللام في: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متّصل بمعنى ﴿المرسلين﴾ أي: أرسلت ﴿لتنذر قوماً﴾ ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ ﴿ما﴾ نافية عند الجمهور، أي: ﴿قوماً﴾ غير منذر آباؤهم على الوصف، بدليل قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤]. أو: موصولة منصوبة على المفعول الثاني، أي: العذاب الذي أُنذِرَه آباءهم، كقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠] أو: مصدريّة، أي: لتنذر قوماً إنذار آبائهم، أي: مثل إنذار آبائهم ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ إن جعلت ﴿ما﴾ نافية، فهو متعلّق بالنفي، أي: لم ينذروا ﴿فهم غافلون﴾. وإلاّ فهو متعلّق بقوله: ﴿إنك لمن المرسلين.. لتنذر﴾ كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنّه غافل، أو: فهو غافل.

٧ ـ ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] أي: تعلّق بهم هذا القول، وثبت عليهم، ووجب؛ لأنّهم ممّن علم أنّهم يموتون على الكفر.

٨ ـ ثم مثّل تصميمهم على الكفر، وأنّه لا سبيل إلى ارعوائهم؛ بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنّهم لا يلتفتون إلى الحقّ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له، وكالحاصلين بين سدّين لا يبصرون ما قدّامهم ولا ما خلفهم، في ألاّ تأمّل لهم، ولا تبصّر، وأنّهم متعامون عن النظر في آيات الله بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾، معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان ، ملزوزة إليها ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ مرفوعة رؤوسهم، يقال: قمح

وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ
ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ
وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟

البعير فهو قامح؛ إذا روي فرفع رأسه، وهذا لأنّ طوق الغلّ الذي في عُنُق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن، حلقة فيها رأس العمود خارجاً من الحلقة إلى الذقن، فلا يخلّيه يطأطىء رأسه، فلا يزال مقحماً.

٩ ـ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ بفتح السين: حمزة، وعليّ، وحفص. وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح، وماكان من خلق الله كالجبل، ونحوه، فبالضمّ ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ فأغشينا أبصارهم، اي: غطّيناها، وجعلنا عليها غشاوة ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الحقّ، والرشاد.

وقيل: نزلت في بني مخزوم؛ وذلك أنّ أبا جهل حلف: لئن رأى محمّداً يصلّي ليرضخَن رأسه، فأتاه وهو يصلّي، ومعه حجر ليدمغه به، فلمّا رفع يده انثنت إلى عنقه، ولزق الحجرُ بيده، حتّى فكّوه عنها بجَهد، فرجع إلى قومه، فأخبرهم، فقال مخزوميّ آخر: أنا أقتله بهذا الحجر، فذهب، فأعمى الله بصره.

١٠ ـ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: سواء عليه الإنذار وتركه، والمعنى: من أضلّه الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار. رُوي: أنّ عمر بن عبد العزيز قرأ الآية على غيلان القدريّ، فقال: كأني لم أقرأها، أشهدك أنّي تائب عن قولي في القدر. فقال عمر: اللّهم إن صدق فتبْ عليه، وإن كذب فسلّط عليه مَن لا يرحمه. فأخذه هشام ابن عبد الملك من عنده فقطع يديه ورجليه، وصلبه على باب دمشق.

١١ ـ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: إنّما ينتفع بإنذارك من اتّبع القرآن ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ وخاف عقاب الله، ولم يره ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ وهي العفو عن ذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: الجنّة.

١٢ ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ نبعثهم بعد مماتهم، أو: نخرجهم من الشرك إلى الإيمان ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ ما أسلفوا من الأعمال الصالحات، وغيرها

وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ ما هلكوا عنه من أثر حسن: كعلم علّموه، أو: كتاب صنّفوه، أو: حبيس، أو: رباط، أو: مسجد صنعوه، أو سيّىء: كوظيفة وظّفها بعض الظلمة، وكذلك كلّ سنّة حسنة، أو: سيّئة يستنّ بها، ونحوه قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] أي: قدّم من أعماله، وأخّر من آثاره. وقيل: هي خطاهم إلى الجمعة، أو: إلى الجماعة ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ عددناه، وبيّنّاه ﴿فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: اللوح المحفوظ؛ لأنّه أصلُ الكتب، ومقتداها.

١٣ ـ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ ومثّل لهم. من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا، أي: من هذا المثل، و: هذه الأشياء على ضرب واحد، أي: على مثال واحد. والمعنى: ﴿واضرب لهم مثلاً﴾ مثل أصحاب القرية، أي: أنطاكية، أي: اذكر لهم قصّة عجيبة، قصّة أصحاب القرية. والمثل الثاني بيان للأول. وانتصاب ﴿إِذْ﴾ بدل من أصحاب القرية ﴿جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ رسل عيسى ـ عليه السلام ـ، بعثهم دعاةً إلى الحقّ، وكانوا عبدة أوثان.

١٤ ـ ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿إذ﴾ الأولى. ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾ أي: أرسل عيسى ـ عليه السلام ـ بأمرنا ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ صادقاً وصدوقاً، فلمّا قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب النّجار، فسأل عن حالهما، فقالا: نحن رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن. فقال: أمعكما آية؟ فقالا: نشفي المريض، ونبرىء الأكمه والأبرص، وكان له ابنٌ مريض من سنين، فمسحاه، فقام، وآمن حبيب. وفشا الخبر، فَشُفِي على أيديهما خلق كثير، فدعاهما الملك، وقال لهما: ألنا إلهٌ سوى آلهتنا؟ قالا: نعم. مَن أوجدك وآلهتك. فقال: حتّى أنظر في أمركما. فتبعهما الناسُ، وضربوهما. وقيل: حبسا. ثمّ بعث عيسى ـ عليه السلام ـ شمعون، فدخل متنكّراً، وعاشر حاشية الملك، حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك، فأنس به. فقال له ذات يوم: بلغني أنّك حبستَ رجلين، فهل سمعت قولهما؟ قال: لا. فدعاهما.

فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾

فقال شمعون: مَن أرسلكما؟ قالا: الله الذي خَلَق كلّ شيء، ورزق كلّ حيّ، وليس له شريك. فقال: صِفاه وأوجزاه. قالا: يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنّى الملك. فدعا بغلام أكمه، فدعوا الله، فأبصر الغلام. فقال له شمعون: أرأيت لو سألت إلهك حتّى يصنع مثل هذا، فيكون لك وله الشرف؟ قال الملك: ليس لي عنك سرّ، إنّ إلهنا لا يبصر ولا يسمع، ولا يضرّ، ولا ينفع. ثمّ قال: إنْ قدر إلهكما على إحياء ميّت آمنا به. فدعوا بغلام مات من سبعة أيّام، فقام، وقال: إني دخلت في سبعة أودية من النار لما متّ عليه من الشرك، وأنا أحذّركم ما أنتم فيه! فآمنوا. وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة. قال الملك: ومن هم؟ قال: شمعون وهذان؟ فتعجّب الملك. فلمّا رأى شمعون أنّ قوله قد أثّر فيه نصحه فآمن، وآمن قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل فهلكوا ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فكذّب أصحابُ القرية الرسولين ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ فقوّيناهما ـ ﴿فعزَزنا﴾: أبو بكر، من: عزّه يعزّه؛ إذا غلبه، أي: فغلبنا وقهرنا ـ ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو شمعون. وترك ذكر المفعول به، لأنّ المراد ذكر المعزّز به و[هو][1] شمعون، وما لطف فيه من التدبير حتّى عزّ الحق، وذلّ الباطل. وإذا كان الكلامُ منصباً إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له، وتوجّهه إليه كأنّ ما سواه مرفوض ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي: قال الثلاثةُ لأهل القرية.

١٥ ـ ﴿قَالُواْ﴾ أي: أصحاب القرية ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ رفع ﴿بشر﴾ هنا، ونصب في قوله: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] لانتقاض النفي بإلاّ، فلم يبق لـ«ما» شبه بليس وهو الموجب بعمله ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ أي: وحياً ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ما أنتم إلاّ كذبة.

١٦ ـ ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ أكّد الثاني باللام دون الأوّل؛ لأنّ الأوّل ابتداء إخبار، والثاني جواب عن إنكار، فيحتاج إلى زيادة تأكيد. و﴿ربّنا

(١) من المطبوع.

وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾

يعلم﴾ جارٍ مجرى القسم في التوكيد، وكذلك قولهم: شهد الله، وعلم الله.

١٧ ـ ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: التبليغ الظاهر، المكشوف بالآية الشاهدة لصحته.

١٨ ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم. وعادة الجهال أن يتيمّنوا بكلّ شيء مالوا إليه، وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه، وكرهوه، فإن أصابهم بلاء أو نعمة قالوا: بشؤم هذا، وبركة ذلك. وقيل: حبس عنهم المطر، فقالوا ذلك ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ عن مقالتكم هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ لنقتلنكم، أو لنطردنـكم، أو: لنشتمنكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وليصيبنّكم عذاب الحريق، وهو أشدّ عذاب.

١٩ ـ ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم﴾ أي: سبب شؤمكم ﴿مَّعَكُمْ﴾ وهو: الكفر ﴿أَئِن﴾ بهمزة الاستفهام وحرف الشرط: كوفيّ، وشاميّ ﴿ذُكِّرْتُم﴾ وعظتم، ودعيتم إلى الإسلام، وجواب الشرط مضمر. وتقديره: تطيّرتم. ﴿آين﴾ بهمزة ممدودة، بعدها ياء مكسورة: أبو عمرو. و﴿أين﴾ بهمزة مقصورة بعدها ياء مكسورة: مكيّ، ونافع ﴿ذكرتم﴾ بالتخفيف: يزيد ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ مجاوزون الحدّ في العصيان. فمن ثمّ أتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله، وتذكيرهم. أو: بل أنتم مسرفون في ضلالكم وغيّكم، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرّك به من رسل الله.

٢٠ ـ ٢٢ ـ ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو حبيب النجّار، وكان في غارٍ من الجبل يعبد الله، فلمّا بلغه خبر الرسل أتاهم، وأظهر دينه، فقال: أتسألون على ما جئتم به أجراً؟ قالوا: لا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: الرسل. فقالوا: أوَ أنت على دين هؤلاء؟ فقال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ خلقني ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه مرجعكم. ﴿ومالِي﴾: حمزة.

ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ
ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾
۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا
صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾

٢٣ ـ ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ بهمزتين: كوفيّ ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يعني: الأصنام ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ شرط جوابه ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ من مكروه. ﴿ولا ينقذوني﴾ ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥] في الحالين: يعقوب.

٢٤ ـ ﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ أي: إذا اتّخذت. ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر بيِّن.

٢٥ ـ ولمّا نصح قومه أخذوا يرجمونه، فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل، فقال لهم: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ أي: اسمعوا إيماني لتشهدوا لي به. ولمّا قتل:

٢٦، ٢٧ ـ ﴿قِيلَ﴾ له ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقبره في سوق أنطاكية. ولم يقل: قيل له؛ لأنّ الكلام سيق لبيان المقول لا لبيان المقول له مع كونه معلوماً. وفيه دلالةٌ أنّ الجنّة مخلوقة. وقال الحسن: لمّا أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إليه، وهو في الجنّة، ولا يموت إلاّ بفناء السموات والأرض! فلمّا دخل الجنّة، ورأى نعيمها: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ أي: بمغفرة ربِّي لي، أو: بالذي غفر لي ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ بالجنّة.

٢٨ ـ ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ «ما»: نافية ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ قوم حبيب ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد قتله، أو: رفعه ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لتعذيبهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ وما كان يصحّ في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء؛ وذلك لأنّ الله تعالى أجرى هلاكَ كلّ قومٍ على بعض الوجوه دون بعض لحكمةٍ اقتضت ذلك.

٢٩ ـ ﴿إِن كَانَتْ﴾ الأخذة، أو: العقوبة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاح جبريل ـ عليه السلام ـ صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ ميّتون، كما تخمد النار.

يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ
أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا
مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا

والمعنى: أنّ الله كفى أمرهم بصيحة ملك، ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء، كما فعل يوم بدر، والخندق.

٣٠ ـ ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ الحسرة: شدّة الندم. وهذا نداء للحسرة عليهم، كأنّما قيل لها: تعالي يا حسرة، فهذه من أحوالك التي حقّك أن تحضري فيها، وهي حال استهزائهم بالرسل. والمعنى: أنهم أحقّاء بأن يتحسَّر عليهم المتحسِّرون ويتلهّف على حالهم المتلهِّفون. أو هم مُتَحَسَّر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين.

٣١ ـ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ألم يعلموا ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ «كم» نصب بأهلكنا، و﴿يروا﴾ معلّق عن العمل في ﴿كم﴾ لأنّ ﴿كم﴾ لا يعمل فيها عامل قبلها، كانت للاستفهام، أو: للخبر؛ لأنّ أصلها الاستفهام، إلاّ أنّ معناه نافذ في الجملة. وقوله: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ بدل من ﴿كم أهلكنا﴾ على المعنى، لا على اللفظ، تقديره: ﴿ألم يروا﴾ كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم أنهم غير راجعين إليهم.

٣٢ ـ ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ «لمّا» بالتشديد: شاميّ، وعاصم، وحمزة، بمعنى إلاّ، ﴿وإن﴾ نافية. وغيرهم بالتخفيف، على أنّ ﴿ما﴾ صلة للتأكيد ﴿وإن﴾ مخفّفة من الثقيلة. وهي متلقّاة باللام لا محالة. والتنوين في ﴿كلّ﴾ عوض من المضاف إليه. والمعنى: إنّ كلّهم محشورون، مجموعون، محضرون للحساب، أو: معذَّبون، وإنّما أخبر عن كلّ بجميع لأنّ «كلاًّ» يفيد الإحاطة. والجميع: فعيل، بمعنى مفعول، ومعناه: الاجتماع، يعني: أنّ المحشر يجمعهم.

٣٣ ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ مبتدأ وخبر، أي: وعلامة تدلُّ على أنَّ اللهَ يبعثُ الموتى إحياء الأرض الميتة، ويجوز أن يرتفع ﴿آية﴾ بالابتداء، و﴿لهم﴾ صفتها، وخبرها ﴿ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ اليابسة. وبالتشديد: مدنيّ ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ بالمطر. وهو استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية، وكذلك ﴿نسلخ﴾. ويجوز أن تُوصف

وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ
وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿الأرض﴾ و﴿الليل﴾ بالفعل؛ لأنّه أُريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض وليل بأعيانهما، فعوملا معاملة النكرات في وصفها بالأفعال، ونحوه:

ولقـد أَمُـرُّ على اللئيـمِ يَسُبُّنـي[1] ... ...

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أريد به الجنس ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدّم الظرف ليدلّ على أنّ الحبّ هو الشيء الذي يتعلّق به معظم العيش، ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنسان. وإذا قلّ جاء القحط، ووقع الضرّ، وإذا فقد حضر الهلاك، ونزل البلاء.

٣٤ ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ زائدة عند الأخفش. وعند غيره: المفعول محذوف، تقديره: ما ينتفعون به.

٣٥ ـ ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ الضمير لله تعالى، أي: ﴿ليأكلوا﴾ ممّا خلقه الله من الثمر ﴿من ثُمُره﴾: حمزة، وعليّ ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وممّا عملته أيديهم من الغرس، والسقي، والتلقيح، وغير ذلك من الأعمال، إلى أن يبلغ الثمر منتهاه. يعني: أنّ الثمر في نفسه فعل الله وخلقه، وفيه آثارٌ من كدّ بني آدم. وأصله: من ثمرنا، كما قال: ﴿وجعلنا﴾. ﴿وفجّرنا﴾ فنقل الكلام من التكلّم إلى الغيبة على طريق الالتفات. ويجوز أن يرجع الضميرُ إلى النخيل، وتترك الأعناب غير مرجوع إليها؛ لأنّه علم أنّها في حكم النخيل مما علّق به من أكل ثمره. ويجوز أن يُرادَ من ثمر المذكور، وهو الجنّات، كما قال رؤبة:

فيها خطوط من بياض وبُلَق كـأنـه في الجَلْـدِ تَـوْليـعُ البَهَـق

فقيل له، فقال: أردت كأنّ ذلك. (وما عَمِلتْ) كوفيّ غير حفص. وهي في مصاحف أهل الكوفة كذلك، وفي مصاحف أهل الحرمين، والبصرة، والشام، مع الضمير. وقيل: ﴿ما﴾ نافية، على أنّ الثمر خلق الله، ولم تعمله أيدي الناس، ولا يقدرون عليه ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استبطاء، وحثّ على شُكْر النِّعمة.

(١) صدر بيتٍ لرجل من بني سلول، وعجزه: فمضيتُ ثمة قلتُ: لا يعنيني.

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ

٣٦ ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ الأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من النخل، والشجر، والزرع، والثمر ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الأولاد ذكوراً وإناثاً ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها، ولا توصَّلوا إلى معرفتها، ففي الأودية والبحار أشياء لا يعلمها الناس.

٣٧ ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ نخرج منه النهار إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوء النهار، أو: ننزع عنه الضوء نزع القميص الأبيض، فيعرى نفس الزمان كشخص زنجيّ أسود؛ لأنّ أصل ما بين السماء والأرض من الهواء الظلمة، فاكتسى بعضه ضوء الشمس كبيت مظلم أسرج فيه، فإذا غاب السراج أظلم ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام.

٣٨ ـ ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾ وآية لهم الشمس تجري ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ لحدّ لها مؤقّت مقدّر، تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة. شبّه بمستقرّ المسافر إذا قطع مسيره. أو: لحدّ لها من مسيرها كلّ يوم في مرائي عيوننا، وهو المغرب. أو: لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري على ذلك التقدير، والحساب الدقيق ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كلّ مقدور ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بكلّ معلوم.

٣٩ ـ ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ نصب بفعل يفسِّره ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾. وبالرفع: مكّيّ، ونافع، وأبو عمرو، وسهل، على الابتداء، والخبر: ﴿قدّرناه﴾ أو على: وآية لهم القمر ﴿مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمرُ كلَّ ليلةٍ في واحدٍ منها لا يتخطاه، ولا يتقاصر عنه، على تقدير مستو يسيرُ فيها من ليلة المستهلّ إلى الثامنة والعشرين، ثمّ يستسرُّ ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر. ولا بدّ في ﴿قدّرناه منازل﴾ من تقدير مضاف؛ لأنّه لا معنى لتقدير نفس القمر منازل، أي: قدّرنا نوره يزيد وينقص، أو: قدّرنا مسيره ﴿منازل﴾ فيكون ظرفاً. فإذا كان في آخر منازله دق، واستقوس ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ﴾ ـ هو عودُ الشّمراخ إذا يبس

ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

واعوج. ووزنه فعلون، من الانعراج، وهو: الانعطاف ـ ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ العتيق المُحْوِل، وإذا قدم دقّ، وانحنى، واصفرّ. فشبّه القمر به من ثلاثة أوجه.

٤٠ ـ ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾ أي: لا يتسهَّل لها، ولا يصحُّ، ولا يستقيم ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ فتجتمع معه في وقتٍ واحد، وتداخله في سلطانه فتطمس نوره؛ لأنّ لكلِّ واحد من النيّرين سلطاناً على حياله. فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ ولا يسبق الليل النهار، أي: آيةَ الليل آيةَ النهار، وهما النيّران، ولا يزال الأمرُ على هذا الترتيب إلى أن تقومَ القيامةُ، فيجمع الله بين الشمس والقمر، وتطلع الشمس من مغربها ﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين فيه عوضٌ من المضاف إليه، أي: وكلّهم. والضمير للشموس والأقمار ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون.

٤١ ـ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (ذُرِّياتهم): مدنيّ، وشاميّ. ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء. والمراد بالذرّيّة: الأولاد، ومن يهمّهم حمله. وكانوا يبعثونهم إلى التجارات براً أو بحراً. أو: الآباء لأنها من الأضداد. والفلك على هذا: سفينة نوح ـ عليه السلام ـ. وقيل: معنى حمل الله ذريّاتهم فيها: أنّه حمل آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم هم وذريّاتهم. وإنّما ذكر ذريّاتهم دونهم لأنّه أبلغ في الامتنان عليهم.

٤٢ ـ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ من مثل الفلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل. وهي سفائن البرّ.

٤٣ ـ ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ في البحر ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ فلا مغيث، أو: فلا إغاثة ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ لا يُنْجون.

٤٤ ـ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: ولا ينقذون إلا لرحمة منّا، ولتمتيع بالحياة إلى انقضاء الأجل. فهما منصوبان على المفعول له.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

٤٥ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: ما تقدّم من ذنوبكم وما تأخّر مما أنتم تعملونه من بعد، أو: من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذّبة بأنبيائها، وما خلفكم من أمر الساعة، أو: فتنة الدنيا وعقوبة الآخرة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكونوا على رجاء رحمة الله. وجواب ﴿إذا﴾ مضمر، أي: أعرضوا. وجاز حذفه لأن قوله:

٤٦ ـ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يدلّ عليه. و﴿من﴾ الأولى لتأكيد النفي، والثانية للتبعيض، أي: ودأبهم الإعراض عند كل آية، وموعظة.

٤٧ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لمشركي مكّة ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: تصدّقوا على الفقراء ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان بمكّة زنادقة، فإذا أُمِروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله! أيفقره الله، ونطعمه نحن؟! ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قول الله لهم، أو: حكاية قول المؤمنين لهم، أو: هو من جملة جوابهم للمؤمنين.

٤٨ ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: وعد البعث، والقيامة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون. خطاب للنبيّ ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

٤٩ ـ ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي: النفخة الأولى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد، من: خصمه: إذا غلبه في الخصومة. وشدّد الباقون الصاد، أي: يخصّمون بإدغام التاء في الصاد، لكنه مع فتح الخاء مكّي بنقل حركة التاء المدغمة إليها، وبسكون الخاء: مدنيّ، وبكسر الياء والخاء: يحيي، فأتبع الياء الخاء في الكسر، وبفتح الياء وكسر الخاء غيرهم. والمعنى: تأخذهم وبعضهم يخصم بعضاً في معاملاتهم.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ
ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ
ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ
لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾

٥٠ ـ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ فلا يستطيعون أن يوصوا في شيء من أمورهم توصية ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم، بل يموتون حيث يسمعون الصَّيحة.

٥١ ـ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية. والصور: القرن، أو: جمع صورة ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يَعْدُون.

٥٢ ـ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الكفّار ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا﴾ من أنشرنا ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ مضجعنا. وقف لازم: عن حفص. وعن مجاهد: للكفّار هجعة يجدون فيها طعم النوم. فإذا صيح بأهل القبور قالوا: ﴿من بعثنا؟﴾ ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ كلام الملائكة، أو: المتّقين، أو: الكافرين يتذكّرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم، أو: بعضهم بعضاً. أو ﴿ما﴾ مصدريّة. ومعناه: هذا وَعْدُ الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدْق. أو: موصولة، وتقديره: هذا الذي وعده الرحمن، والذي صدقه المرسلون، أي: والذي صدق فيه المرسلون.

٥٣ ـ ﴿إِن كَانَتْ﴾ النفخة الأخيرة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ للحساب.

٥٤ ـ ثم ذكر ما يقال لهم في ذلك اليوم: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٥٥ ـ ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾ بضمتين: كوفيّ، وشاميّ، وبضمة وسكون: مكّيّ، ونافع، وأبو عمرو. والمعنى: في أيّ شغل، وفي شغل لا يوصف، وهو: افتضاض الأبكار، على شطّ الأنهار، تحت الأشجار، أو: ضرب الأوتار، أو: ضيافة الجبّار ﴿فَٰكِهُونَ﴾ خبر ثان ﴿فكهون﴾: يزيد.

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا﴾

والفاكه والفكه: المتنعم المتلذّذ. ومنه الفكاهة؛ لأنه مّما يتلذّذ به. وكذلك الفكاهة.

٥٦ ـ ﴿هُمْ﴾ مبتدأ. ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ عطف عليه ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ حال، جمع ظلّ، وهو الموضع الذي لا تقعُ عليه الشمس. كذئب وذئاب. أو: جمع ظُلّة، كبرمة وبرام، دليله قراءة: حمزة، وعليّ. ﴿ظُلَل﴾ جمع ظُلّة، وهي: ما سترك عن الشمس ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمع: أريكة، وهي: السرير في الحَجَلة، أو: الفراش فيها ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ خبر، أو: ﴿في ظلال﴾ خبر، و﴿على الأرائك﴾ مستأنف.

٥٧ ـ ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ يفتعلون، من: الدعاء، أي: كلّ ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم، أو: يتمنّون، من قولهم: ادَّع عليّ ما شئت، أي: تمنّه عليّ. الفراء: هو من الدعوى، ولا يدّعون: ما لا يستحقون.

٥٨ ـ ﴿سَلَٰمٌ﴾ بدل من: ﴿مّا يدَّعون﴾. كأنّه قال لهم: سلام، يقال ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾. والمعنى: أنّ الله يسلّم عليهم بواسطة الملائكة، أو: بغير واسطة تعظيماً لهم، وذلك متمنّاهم، ولهم ذلك لا يُمْنَعونه. قال ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: والملائكة يدخلون عليهم بالتحيّة من ربِّ العالمين.

٥٩ ـ ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وانفردوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة. وذلك حين يحشر المؤمنون، ويُسار بهم إلى الجنّة. وعن الضحاك: لكلّ كافرٍ بيتٌ من النار، يكون فيه، لا يَرى، ولا يُرى أبداً. ويقول لهم يوم القيامة:

٦٠ ـ ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ العهد: الوصيّة. وعهِد إليه: إذا وصّاه. وعهد الله إليهم ما ركزه فيهم من أدلّة العقل، وأنزل عليهم من دلائل السّمع. وعبادة الشيطان: طاعته فيما يوسوس به إليهم، ويُزيّنه لهم.

٦١ ـ ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ وحّدوني، وأطيعوني ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما عهد

صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ
جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ
عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ
لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾

إليهم من معصية الشيطان، وطاعة الرحمن ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: صراط بليغ في استقامته، ولا صراط أقوم منه.

٦٢ ـ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم والباء والتشديد: مكيٌّ، وعاصم، وسهل ﴿جُبُلًّا﴾ بضم الجيم والباء والتشديد: يعقوب ﴿جُبْلًا﴾ مخففاً: شاميّ، وأبو عمرو ﴿جُبُلًا﴾ بضم الجيم والباء وتخفيف اللام: غيرهم. وهذه لغات في معنى الخلق ﴿كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ استفهام تقريع على تركهم الانتفاع بالعقل.

٦٣ ـ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها.

٦٤ ـ ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ادخلوها بكفركم، وإنكاركم لها.

٦٥ ـ ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: نمنعهم من الكلام. ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يُروى: أنّهم يجحدون، ويخاصمون. فيشهد عليهم جيرانهم، وأهاليهم، وعشائرهم، فيحلفون ما كانوا مشركين، فحينئذ يختم على أفواههم، وتكلّم أيديهم وأرجلهم. وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إنّي لا أجيزُ عليّ إلا شاهداً من نفسي، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثمّ يخلّى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لَكُنَّ وسحقاً، فعنكنّ كنت أناضل»(١).

٦٦ ـ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لأعميناهم، وأذهبنا أبصارهم. والطمس: تعفية شقّ العين حتّى تعود ممسوحة ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ على حذف الجارّ، وإيصال الفعل. والأصل: فاستبقوا إلى الصراط ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾

(١) رواه مسلم (٢٩٦٩) والنسائي في الكبرى (١١٦٥٣).
«أناضل»: أجادل.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ۝٦٧ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾

فكيف ﴿يبصرون﴾ حينئذ، وقد طمسنا أعينهم؟!

٦٧ ـ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ قردة، وخنازير، أو: حجارة ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ (على مكاناتهم): أبو بكر، وحمّاد. والمكانة والمكان واحد، كالمقامة والمقام، أي: ﴿لمسخناهم﴾ في منازلهم حيث يجترحون المآثم ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ فلم يقدروا على ذهاب ولا مجيء، أو: ﴿مُضِيًّا﴾ أمامهم ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ خلفهم.

٦٨ ـ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ﴾: عاصم، وحمزة. والتنكيس: جعل الشيء أعلاه أسفله. الباقون ﴿نَنْكُسْه في الخلق﴾ أي: نقلبه فيه، يعني: من أطلنا عمره نكَسنا خلقه، فصار بدل القوّة ضعفاً، وبدل الشباب هرماً، وذلك أنّا خلقناه على ضعفٍ في جسده، وخلق من عقل وعلم، ثمّ جعلناه يتزايدُ إلى أن يبلغ أشده، ويستكمل قوّته، ويعقل، ويعلم ماله وما عليه، فإذا انتهى نكّسناه ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾ فجعلناه يتناقصُ حتّى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبيّ في ضعف جسده، وقلّة عقله، وخلوّه من العلم، كما ينكّس السهم فيجعل أعلاه أسفله. قال عزّ وجلّ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠] ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنّ مَن قدر على أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم، ومن القوّة إلى الضعف، ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلّة التمييز، قادرٌ على أن يطمسَ على أعينهم، ويمسخهم على مكانتهم، ويبعثهم بعد الموت. وبالتاء: مدنيّ، ويعقوب، وسهل.

٦٩ ـ وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: شاعر، فنزل ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾. أي: وما علّمنا النبيّ عليه الصلاة والسلام قول الشعراء. أو: ﴿وما علّمناه﴾ بتعليم القرآن ﴿الشعر﴾ على معنى: أنّ القرآن ليس بشعر، فهو كلامٌ موزونٌ مقفّى، يدلّ على معنى، فأين الوزن؟ وأين التقفية؟ فلا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حقّقت ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥ﴾ وما يصحّ له، ولا يليق بحاله، ولا يتطلّب لو طلبه،

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١﴾

أي: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأتّ له، ولم يتسهّل، كما جعلناه أمّيّاً لا يتهدّى للخطّ لتكون الحجّة أثبت، والشبهة أدحض. وأمّا قوله:

أنـــا النبـــيُّ لا كَـــذِبْ أنـــا ابـــنُ عبـــدِ المطَّلـــبْ

وقوله:

هـــل أنـــتِ إلا أصبـــعٌ دَمِيـــتِ وفي سبيـــلِ اللهِ مـــا لَقِيـــتِ

فما هو إلا من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السَّليقة، من غير صنعة فيه، ولا تكلّف، إلا أنّه اتّفق من غير قصد إلى ذلك، ولا التفات منه أن جاء موزوناً، كما يتّفق في خطب الناس، ورسائلهم، ومحاورتهم أشياء موزونة، ولا يُسمِّيها أحد شعراً؛ لأنّ صاحبه لم يقصد الوزن. ولا بدّ منه. على أنّه عليه الصلاة والسلام قال: لقيت بالسكون، وفتح الباء في: كذب، وخفض الباء في: المطلب. ولمّا نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر، قال: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: المعلّم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هو إلاّ ذكر من الله يوعظ به الإنس والجنّ، وما هو إلا قرآن كتاب سماويّ يقرأ في المحاريب، ويتلى في المتعبّدات، وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين!

٧٠ ـ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ القرآن، أو: الرسول. ﴿لتنذر﴾: مدنيّ، وشاميّ، وسهل، ويعقوب ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ عاقلاً، متأمّلاً؛ لأنّ الغافل كالميّت، أو: حيّاً بالقلب ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين لا يتأمّلون، وهم في حكم الأموات.

٧١ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ أي: ممّا تولّينا نحن إحداثه، ولم يقدر على تولّيه غيرنا ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ أي: خلقناها لأجلهم فملّكناها إيّاهم، فهم متصرِّفون فيها تصرّف الملاّك، مختصُّون بالانتفاع بها، أو: فهم لها ضابطون، قاهرون.

وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

٧٢ ـ ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ وصيّرناها منقادة لهم، وإلاّ فمن كان يقدر عليها لولا تذليله تعالى، وتسخيره لها؛ ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبّح بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ وهو ما يركب ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: سخّرناها لهم ليركبوا ظهرها، ويأكلوا لحمها.

٧٣ ـ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ من الجلود، والأوبار، وغير ذلك ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من اللبن، وهو: جمع مشرب، وهو: موضع الشُّربِ، أو: الشِّربُ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على إنعام الأنعام؟!

٧٤ ـ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لعلّ أصنامهم تنصرهم إذا حزبهم أَمْرٌ.

٧٥ ـ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: آلهتهم. ﴿نَصْرَهُمْ﴾ نصر عابديهم ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: الكفّار للأصنام أعوان وشيعة يخدمونهم، ويذبّون عنهم. أو: اتّخذوهم لينصروهم عند الله، ويشفعوا لهم، والأمر على خلاف ما توهّموا حيث هم يوم القيامة جند معدّون لهم، محضرون لعذابهم؛ لأنّهم يجعلون وقوداً للنار.

٧٦ ـ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ وبضم الياء، وكسر الزاي: نافع، من: حزنه، وأحزنه، يعني: فلا يُهمنّك تكذيبهم، وأذاهم، وجفاؤهم ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من عداوتهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وإنّا مجازوهم عليه. فحقّ مثلك أن يتسلّى بهذا الوعيد، ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتّى ينقشع عنه الهمّ، ولا يرهقه الحزن. ومَن زعم أنّ مَن قرأ ﴿أنّا نعلم﴾ بالفتح فسدت صلاته، وإن اعتقد معناه كفر، فقد أخطأ؛ لأنّه يمكن حمله على حذف لام التعليل، وهو كثيرٌ في القرآن، والشعر، وفي كلّ كلام. وعليه تلبيةُ رسول الله ﷺ: «أنّ الحمد

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾

والنعمة لك»[1]. كسر أبو حنيفة، وفتح الشافعيّ ـ رحمة الله عليهما ـ وكلاهما تعليل. فإن قلت: إن كان المفتوح بدلاً من ﴿قولهم﴾ كأنّه قيل: ﴿فلا يحزنك﴾ أنّا نعلم ما يسرُّون وما يعلنون، ففساده ظاهر. قلت: هذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول، فقد تبيَّن أنَّ تعلُّق الحزن بكون الله عالماً، وعدم تعلّقه، لا يدوران على كسر إنّ وفتحها، وإنّما يدوران على تقديرك، فيفضّل إن فتحت؛ بأن تقدّر معنى التعليل، ولا تقدر معنى البدل، كما أنّك تفضّل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت، ولا تقدر معنى المفعوليّة. ثمّ إن قدّرته كاسراً، أو فاتحاً على ما عظّم فيه الخطب ذلك القائل، فما فيه إلاّ نهي رسول الله ﷺ عن الحزن على علمه تعالى بسرّهم وعلانيتهم، والنهي عن حزنه ليس إثباتاً لحزنه بذلك، كما في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨].

٧٧ـ ونزل في أبيّ بن خلف حين أخذ عظماً بالياً، وجعل يفتّه بيده، ويقول: يا محمد! أترى الله يحيي هذا بعد ما رمَّ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «نعم، ويبعثك ويدخلك جهنّم»[2] ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مذرة، خارجة من الإحليل؛ الذي هو قناة النجاسة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن الخصومة، أي: فهو على مهانة أصله، ودناءة أوّله، يتصدّى لمخاصمة ربّه، وينكر قدرته على إحياء الميّت بعد ما رمّت عظامه، ثمّ يكون خصامه في ألزم وصف له، وألصقه به، وهو كونه منشأ من موات، وهو ينكر إنشاءه من موات. وهو غاية المكابرة.

٧٨ـ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ بفتّه العظم ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ من المنيّ، فهو أغرب من إحياء العظم. المصدر مضاف إلى المفعول، أي: خلقنا إيّاه ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ هو اسمٌ لما بلي من العظام، غير صفة، كالرِّمّة والرفات،

---

(١) رواه البخاري (١٥٤٩) ومسلم (١١٨٤).
(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٢٤٦).

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾

فلهذا لم يؤنّث، وقد وقع خبراً لمؤنّث. ومن يثبت الحياة في العظام، ويقول: إنّ عظام الميّت نجسة؛ لأنّ الموت يؤثّر فيها من قبَل أنّ الحياة تحلّها، يتشبّث بهذه الآية. وهي عندنا طاهرة، وكذا الشعر، والعصب؛ لأنّ الحياة لا تحلّها، فلا يؤثّر فيها الموت. والمراد بإحياء العظام في الآية: ردّها إلى ما كانت عليه غضّة رطبة في بدن حيّ حسّاس.

٧٩ ـ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ خلقها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ابتداء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه أجزاؤه وإن تفرّقت في البرّ والبحر، فيجمعه، ويعيده كما كان.

٨٠ ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ تقدحون. ثمّ ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادّة النار الماء، وانطفائها به، وهي الزناد التي تُوري بها الأعراب، وأكثرها من المَرْخ والعَفار. وفي أمثالهم: «في كلّ شجر نار، واستمجد المرخُ والعفار»[1] يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ ـ وهو ذكر ـ على العفار ـ وهي أنثى ـ فتنقدح النار بإذن الله. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس من شجرة إلاّ وفيها النار إلاّ العنّاب؛ لمصلحة الدقّ للثياب. فمن قدر على جمع الماء والنار في الشجر، قدر على المعاقبة بين الموت والحيَاة في البشر. وإجراء أحد الضدّين على الآخر بالتعقيب أسهل في العقل من الجمع معاً بلا ترتيب. و: «الأخضر» على اللفظ، وقرىء: «الخضراء» على المعنى. ثمّ بيّن أنّ مَن قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خَلْق الأناسيّ أقدر بقوله:

٨١ ـ ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصِّغر بالإضافة إلى السموات والأرض، أو: أن يعيدَهم؛ لأنَّ المعاد مثل للمبتدأ،

(١) انظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (ص٢٠٢).

﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾

وليس به ﴿بَلَىٰ﴾ أي: قل: ﴿بلى﴾ هو قادرٌ على ذلك ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الكثير المخلوقات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الكثير المعلومات.

٨٢ ـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ شأنه ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ أن يكونه ﴿فَيَكُونُ﴾ فيحدث، أي: فهو كائن موجود لا محالة، فالحاصل: أن المكوّنات بتخليقه وتكوينه، ولكن عبّر عن إيجاده بقوله: ﴿كن﴾ من غير أن كان منه كاف ونون، وإنّما هو بيان لسرعة الإيجاد، كأنّه يقول كما لا يثقل قول ﴿كن﴾ عليكم، فكذا لا يثقل على الله ابتداء الخلق، وإعادتهم ﴿فيكونَ﴾: شاميّ وعليّ، عطف على ﴿يقول﴾. وأما الرفع فلأنّها جملة من مبتدأ وخبر؛ لأنّ تقديرها: فهو يكون، معطوفة على مثلها، وهي: ﴿أمره أن يقول له كن﴾.

٨٣ ـ ﴿فَسُبْحَٰنَ﴾ تنزيه مما وصفه به المشركون، وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: ملك كلّ شيء، وزيادة الواو والتاء للمبالغة، يعني: هو مالك كلّ شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تعادون بعد الموت بلا فوت ﴿تَرْجِعُون﴾ يعقوب.

قال عليه الصلاة والسلام: «إن لكلّ شيء قلباً، وإنّ قلب القرآن يس. من قرأ يس يريدُ بها وجه الله غفر الله له، وأعطي من الأجر كأنّما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرّة»(١). وقال عليه الصلاة والسلام: «من قرأ يس أمام حاجته قضيت له»(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «من قرأها إن كان جائعاً أشبعه الله، وإن كان ظمآن أرواه الله، وإن كان عُرْياناً ألبسه الله، وإن كان خائفاً أمّنه الله، وإن كان مستوحشاً آنسه الله، وإن كان فقيراً أغناه الله، وإن كان في السجن أخرجه الله، وإن كان أسيراً خلّصه الله، وإن كان ضالاً هداه الله، وإن كان مديوناً قضى الله دينه من خزائنه». وتُدعى: الدافعة، والقاضية تدفع عنه كلّ سوء، وتقضي له كلّ حاجة.

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٨٨٧).
(٢) رواه الدارمي عن عطاء بن أبي رباح بلاغاً. (الدر المنثور ٧ / ٣٨).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾

١ ـ ٣ ـ ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ أقسم سبحانه وتعالى بطوائف الملائكة، أو: بنفوسهم الصافّات أقدامها في الصلاة، فالزاجرات السحاب سوقاً، وعن المعاصي بالإلهام، فالتاليات لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها. وهو قولُ ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد ـ رضي الله عنهم ـ أو: بنفوس العلماء العمّال ﴿الصافّات﴾ أقدامها في التهجّد، وسائر الصلوات: ﴿فالزاجرات﴾ بالمواعظ والنصائح ﴿فالتاليات﴾ آيات الله، والدارسات شرائعه. أو: بنفوس الغزاة في سبيل الله التي تصفّ الصفوف، وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر مع ذلك. و﴿صفّاً﴾ مصدر مؤكّد. وكذلك ﴿زجراً﴾ والفاء تدلُّ على ترتيب الصفات في التفاضل، فتقيد الفضل للصفّ، ثمّ للزجر، ثمّ للتلاوة، أو: على العكس.

٤ ـ وجواب القسم: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ قيل: هو جواب قولهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥].

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ

٥ ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ﴿رب﴾ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ أي: مطالع الشمس، وهي ثلاثمئة وستّون مشرقاً. وكذلك المغارب. تشرق الشمس كلّ يوم في مشرق منها، وتغرب في مغرب. ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين. وأمّا ﴿ربّ المشرقين وربّ المغربين﴾ فإنّه أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما، وأمّا ﴿ربّ المشرق والمغرب﴾ فإنّه أراد به الجهة. فالمشرق جهة والمغرب جهة.

٦ ـ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ القربى منكم. تأنيث الأدنى ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ حمزة وحفص، على البدل من ﴿زينة﴾. والمعنى: ﴿إنّا زيّنا السماء الدنيا﴾ بالكواكب ﴿بزينةٍ الكواكبَ﴾ أبو بكر، على البدل من محلّ ﴿بزينة﴾ أو: على إضمار: أعني، أو: على إعمال المصدر منوّناً في المفعول ﴿بزينةِ الكواكبِ﴾ غيرهم بإضافة المصدر إلى الفاعل، أي: بأن زانتها الكواكب. وأصله: بزينةٍ الكواكبُ. أو: على إضافته إلى المفعول، أي: بأن زان الله الكواكب وحسّنها؛ لأنّها إنّما زيّنت السماء لحسنها في أنفسها، وأصله: بزينةٍ الكواكبَ؛ لقراءة أبي بكر.

٧ ـ ﴿وَحِفْظًا﴾ محمول على المعنى؛ لأنّ المعنى: إنّا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً من الشياطين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] أو: الفعل المعلّل مقدّر كأنّه قيل: ﴿وحفظاً من كلّ شيطان﴾ زيّناها بالكواكب، أو: معناه حفظناها حفظاً ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ خارج من الطاعة.

٨ ـ والضمير في: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ لـ ﴿كلّ شيطان﴾ لأنّه في معنى الشياطين. ﴿يسمّعون﴾ كوفيّ غير أبي بكر. وأصله: يتسمّعون. والتسمّع: تطلّب السماع، يقال: تسمّع فسمع، وينبغي أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأ، اقتصاصاً لما عليه حال المسترقة للسمع، وأنّهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة، أو: يتسمّعوا. وقيل: أصله لئلا يسمعوا، فحذفت اللام كما حذفت في جئتك أن تكرمني، فبقي ألاّ يسمعوا فحذفت أن، وأهدر عملها، كما في قوله:

﴿إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَّنْ خَلَقْنَا﴾

أَلاَ أيُّهذا الزَّاجري أَحْضُرُ الوغى[1] ... ...

وفيه تعسُّف يجبُ صَوْن القرآن عن مثله، فإنَّ كلَّ واحد من الحذفين غير مردود على انفراده، ولكن اجتماعهما منكر. والفرق بين سمعت فلاناً يتحدّث، وسمعت إليه يتحدّث، وسمعت حديثه وإلى حديثه: أنّ المعدّى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدّى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك ﴿إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الملائكة؛ لأنّهم يسكنون السموات. والإنس والجنّ هم الملأ الأسفل؛ لأنّهم سكان الأرض ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ يرمَون بالشهب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جميع جوانب السماء من أيّ جهة صعدوا للاستراق.

٩ ـ ﴿دُحُورًا﴾ مفعول له، أي: ﴿ويقذفون﴾ للدحور، وهو الطرد. أو: مدحورين على الحال، أو: لأنّ القذف والطرد متقاربان في المعنى، فكأنّه قيل: يدحرون، أو: قذفاً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ دائم، من: الوصوب، أي: أنّهم في الدنيا مرجومون بالشهب. وقد أعدّ لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم، غير منقطع.

١٠ ـ و«مَنْ» في: ﴿إِلَّا مَنْ﴾ في محلّ الرفع بدل من الواو في ﴿لا يسمعون﴾ أي: لا يسمع الشياطين إلاّ الشيطان الذي ﴿خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي: سلب السلبة. يعني: أخذ شيئاً من كلامهم بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ لحقه ﴿شِهَابٌ﴾ أي: نجم رجم ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضيء.

١١ ـ ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ فاستخبر كفّار مكّة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: أقوى خلقاً، من قولهم: شديد الخلق، وفي خلقه شدّة، أو: أصعب خلقاً وأشقّه، على معنى الردّ لإنكارهم البعث، وأنّ من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة، ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ يريد ما ذكر من خلائقه من الملائكة والسموات والأرض وما بينهما. وجيء بـ«مَنْ» تغليباً

(١) صدر بيت لطرفة بن العبد، وعجزه: وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾
وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

للعقلاء على غيرهم. ويدلّ عليه قراءة من قرأ (أم من عددنا) بالتخفيف والتشديد ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ لاصق، أو: لازم. وقرىء به. وهذا شهادةٌ عليهم بالضعف؛ لأنّ ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوّة. أو: احتجاج عليهم بأنّ الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب، فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ [الرعد: ٥]؟ وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث.

١٢ ـ ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من تكذيبهم إيّاك ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ هم منك ومن تعجّبك. أو: ﴿عجبت﴾ من إنكارهم البعث ﴿و﴾ هم ﴿يسخرون﴾ من أمر البعث ﴿بل عجبتُ﴾: حمزة، وعليّ، أي: استعظمت. والعجب روعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء، فَجُرِّدَ لمعنى الاستعظام في حقه تعالى؛ لأنّه لا يجوز عليه الروعة. أو: معناه: قل يا محمّد ﴿بل عجبتُ﴾.

١٣ ـ ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ ودأبهم أنّهم إذا وعظوا بشيء لا يتّعظون به.

١٤ ـ ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ معجزة كانشقاق القمر، ونحوه ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يستدعي بعضهم بعضاً أن يسخر منها، أو: يبالغون في السخرية.

١٥ ـ ﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا﴾ ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر.

١٦ ـ ﴿أَإِذَا﴾ استفهام إنكار ﴿مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: أنبعث إذا كنّا تراباً، وعظاماً.

١٧ ـ ﴿أَوَآبَاؤُنَا﴾ معطوف على محلّ إنّ واسمها، أو: على الضمير في ﴿مبعوثون﴾ والمعنى: أيبعث أيضاً آباؤنا؛ على زيادة الاستبعاد، يعنون: أنّهم أقدم. فبعثهم أبعد وأبطل ﴿أو آباؤنا﴾ بسكون الواو: مدنيّ، وشاميّ، أي: أيبعث واحد منّا على المبالغة في الإنكار ﴿الْأَوَّلُونَ﴾ الأقدمون.

١٨ ـ ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون. ﴿نِعَمْ﴾: عليّ. وهما لغتان ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون.

فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾

---

١٩ ـ ﴿فَإِنَّمَا﴾ جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان كذلك فما ﴿هِىَ﴾ إلاّ ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾. و﴿هي﴾: لا ترجع إلى شيء إنّما هي مبهمة موضّحها خبرها. ويجوز فإنّما البعثة ﴿زجرة واحدة﴾ وهي النفخة الثانية. والزجرة: الصيحة. من قولك: زجر الراعي الإبل أو الغنم: إذا صاح عليهم ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أحياء بصراء ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى سوء أعمالهم، أو: ينتظرون ما يحلُّ بهم.

٢٠ ـ ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا﴾ الويل: كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: اليوم الذي نُدان فيه، أي: نُجازى بأعمالنا.

٢١ ـ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلال ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾. ثمّ يحتمل أن يكون ﴿هذا يوم الدين﴾ إلى قوله: ﴿احشروا﴾ من كلام الكفرة بعضهم مع بعض، وأن يكون من كلام الملائكة لهم، وأن يكون ﴿يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ من كلام الكفرة و﴿هذا يوم الفصل﴾ من كلام الملائكة جواباً لهم.

٢٢، ٢٣ ـ ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟﴾ خطاب الله للملائكة ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كفروا ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: وأشباههم أو قرناءهم من الشياطين، أو: نساءهم الكافرات. والواو: بمعنى مع. وقيل: للعطف. وقُرِىء بالرفع عطفاً على الضمير في ﴿ظلموا﴾ ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأصنام ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ دلّوهم، عن الأصمعي. هديته في الدين هدى، وفي الطريق هداية ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ طريق النار.

٢٤ ـ ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم. ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ عن أقوالهم، وأفعالهم.

٢٥ ـ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر بعضكم بعضاً، وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا متناصرين في الدنيا. وقيل: هو جواب لأبي جهل حيث قال يوم بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، وهو في موضع النصب على الحال، أي: ﴿مالكم﴾ غير متناصرين.

بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾

٢٦ ـ ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون. أو: قد أسلم بعضهم بعضاً، وخذله عن عجز، فكلّهم مستسلم غير منتصر.

٢٧ ـ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: التابع على المتبوع ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يتخاصمون.

٢٨ ـ ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: الأتباع للمتبوعين ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ عن القوّة، والقهر؛ إذ اليمين موصوفة بالقوّة، وبها يقع البطش، أي: أنّكم كنتم تحملوننا على الضلال، وتقسروننا عليه.

٢٩ ـ ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الرؤساء ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بل أبيتم أنتم الإيمان، وأعرضتم عنه مع تمكّنكم منه، مختارين له على الكفر، غير ملجئين.

٣٠ ـ ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ﴾ تسلط نسلبكم به تمكّنكم، واختياركم ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ﴾ بل كنتم قوماً مختارين الطغيان.

٣١ ـ ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ فلزمنا جميعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ يعني: وعيد الله بأنّا ذائقون لعذابه لا محالة؛ لعلمه بحالنا. ولو حكى الوعيد كما هو لقال: إنكم لذائقون، ولكنّه عدل به إلى لفظ المتكلّم لأنّهم متكلّمون بذلك عن أنفسهم. ونحوه قوله:

فقد زَعَمَتْ هوازنُ قَلَّ مالي[1] ... ...

ولو حكى قولها لقال: قلَّ مالك.

٣٢ ـ ﴿فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ﴾ فدعوناكم إلى الغي ﴿إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ﴾، فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا.

٣٣ ـ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ فإنّ الأتباع والمتبوعين جميعاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية.

(١) صدر بيت، وعجزه: وهل لي غير ما أنفقت مال.

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾
وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ
لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾

٣٤ ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: بالمشركين ﴿إنّا﴾ مثل ذلك الفعل ﴿نفعل﴾ بكلّ مجرم.

٣٥ ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إنهم كانوا إذا سمعوا بكلمة التوحيد استكبروا عنها، وأبوا إلاَّ الشرك.

٣٦ ـ ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا﴾ بهمزتين: شاميّ، وكوفيّ ﴿لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ يعنون: محمّداً ﷺ.

٣٧ ـ ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ ردّ على المشركين ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣].

٣٨، ٣٩ ـ ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بلا زيادة.

٤٠ ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام: كوفيّ، ومدنيّ. وكذا ما بعده. أي: لكن عباد الله ـ على الاستثناء المنقطع.

٤١، ٤٢ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَٰكِهُ﴾ فسّر الرزق المعلوم بالفواكه، وهي: كلّ ما يتلّذذ به، ولا يتقوّت لحفظ الصحّة، يعني: أنّ رزقهم كلّه فواكه؛ لأنّهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات؛ لأنّ أجسادهم محكمة مخلوقة للأبد، فما يأكلونه للتلُّذذ. ويجوز أن يُراد: ﴿رزق معلوم﴾ منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم، ورائحة، ولذّة، وحسن منظر. وقيل: معلوم الوقت، كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]. والنفس إليه أسكن ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ معظّمون.

٤٣ ـ ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً، وأن يكون حالاً، وأن يكون خبراً بعد خبر. وكذا:

عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾

٤٤ ـ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ التقابل أتمّ للسرور، وآنس.

٤٥ ـ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾(١) بغير همز: أبو عمرو، وحمزة في الوقف، وغيرهما: بالهمزة. يقال للزجاجة فيها الخمر كأس. وتسمّى الخمر نفسها كأساً. وعن الأخفش: كلّ كأس في القرآن فهي الخمر. وكذا في تفسير ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ من شراب معين، أو: من نهر معين، وهو: الجاري على وجه الأرض الظاهر للعيون. وصف بما وصف به الماء؛ لأنه يجري في الجنّة في أنهار كما يجري الماء. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥].

٤٦ ـ ﴿بَيْضَآءَ﴾ صفة للكأس ﴿لَذَّةٍ﴾ وصفت باللذة، كأنّها نفس اللذة وعينها، أو: ذات لذّة ﴿لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾.

٤٧ ـ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم كخمور الدنيا. وهو من: غاله، يغوله، غولاً: إذا أهلكه، وأفسده ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ يسكرون، من: نُزِف الشارب: إذا ذهب عقله. ويقال للسكران: نزيف، ومنزوف ﴿يُنْزِفون﴾: عليّ، وحمزة، أي: لا يسكرون، أو: لا يَنْفَد شرابهم، من: أنزف الشارب؛ إذا ذهب عقله، أو: شرابه.

٤٨ ـ ﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء، أي: نجلاء، واسعة العين.

٤٩ ـ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ مصون. شبههنّ ببيض النعام المكنون في الصفاء. وبها تشبه العرب النساء، وتسميهنّ بيضات الخدور.

٥٠ ـ وعُطِف ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ يعني: أهل الجنّة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ على

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: (بكاس) بغير همز. وهي قراءة: أبي عمرو، وأبي جعفر، والسوسي. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٢٣٥).

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ
تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ
بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾

﴿يطاف عليهم﴾ والمعنى: يشربون، فيتحادثون على الشراب كعادة الشَّرْب[١]. قال:

وما بَقِيَتْ مِنَ اللذَّاتِ إلاّ أحاديثُ الكرامِ على المُدَام[٢]

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عمّا جرى لهم وعليهم في الدنيا، إلاّ أنّه جيء به ماضياً على ما عُرف في أخباره.

٥١، ٥٢ ـ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ﴾ بهمزتين: شاميّ، وكوفيّ ﴿لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بيوم الدين.

٥٣ ـ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ لمجزيون. من الدين، وهو: الجزاء.

٥٤ ـ ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين؟ قيل: إنّ في الجنّة كوىً ينظر أهلُها منها إلى أهل النار. أو: قال الله تعالى لأهل الجنّة: ﴿هل أنتم مطّلعون﴾ إلى النار فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار.

٥٥ ـ ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ المسلم ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي: قرينه ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ في وسطها.

٥٦ ـ ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة. وهي تدخلُ على كاد كما تدخل على كان، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. والإرداء: الإهلاك. وبالياء في الحالين: يعقوب.

٥٧ ـ ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ وهي: العصمة، والتوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ من الذين أحضروا العذاب، كما أُحْضِرْتَهُ أنت وأمثالك.

٥٨، ٥٩ ـ ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ الفاء للعطف على محذوف تقديره: ﴿أ﴾ نحن مخلّدون منعّمون ﴿فما نحن بميتين﴾

---

(١) «الشرب»: جمع شارب.
(٢) البيت للفرزدق.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ
شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا
ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾

ولا معذّبين. والمعنى: أنّ هذه حال المؤمنين، وهو: ألا يذوقوا إلاّ الموتة الأولى، بخلاف الكفّار فإنهم فيما يتمنّون فيه الموت كلّ ساعة. وقيل لحكيم: ما شرٌّ من الموت؟ قال: الذي يُتمنّى فيه الموت. وهذا قولٌ يقوله المؤمن تحدّثاً بنعمة الله بمسمع من قرينه ليكون توبيخاً له، وزيادة تعذيب. و﴿موتتنا﴾: نصب على المصدر. والاستثناء متّصل، تقديره: لا نموت إلاّ مرّة، أو: منقطع، وتقديره: لكن الموتة الأولى قد كانت في الدنيا. ثمّ قال لقرينه تقريعاً له:

٦٠ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الأمر الذي نحن فيه ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. ثمّ قال الله عز وجل.

٦١ ـ ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ وقيل هو أيضاً من كلامه.

٦٢ ـ ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ تمييز، أي: نعيم الجنة وما فيها من اللذات والطعام والشراب خير نزلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ خير نزلاً؟ والنزل: ما يقام للنازل بالمكان من الرزق. والزقّوم: شجر مرّ يكون بتهامة.

٦٣ ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة، أو: ابتلاء لهم في الدنيا، وذلك أنّهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر؟ فكُذّبوا.

٦٤ ـ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قيل: منبتها في قعر جهنّم وأغصانها ترتفعُ إلى دركاتها.

٦٥ ـ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الطلع للنخلة، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها. وشبه برؤوس الشياطين للدلالة على تناهيه في الكراهة، وقبح المنظر؛ لأنّ الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنّه شرّ محض. وقيل: الشيطان: حيّة عرفاء، قبيحة المنظر، هائلة جداً.

٦٦ ـ ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا﴾ من الشجرة، أو: من طلعها ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا
ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

فمالئو بطونهم لما يغلبهم من الجوع الشديد.

٦٧ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ على أكلها ﴿لَشَوْبًا﴾ لخلْطاً ولمزاجاً ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حارّ، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، كما قال في صفة شراب أهل الجنة: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧]. والمعنى: ثمّ إنّهم يملؤون البطون من شجرة الزقّوم، وهو حارّ، يحرق بطونهم، ويعطشهم، فلا يسقون إلاّ بعد مليٍّ تعذيباً لهم ذلك العطش، ثمّ يسقون ما هو أحرّ، وهو: الشراب المشوب بالحميم.

٦٨ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي: أنّهم يذهب بهم عن مقارّهم ومنازلهم في الجحيم ـ وهي: الدركاتُ التي أسكنوها ـ إلى شجرة الزقوم، فيأكلون إلى أن يتملّوا، ويسقون بعد ذلك، ثمّ يرجعون إلى دركاتهم. ومعنى التراخي في ذلك ظاهر.

٦٩، ٧٠ ـ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ علّل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد بتقليد الآباء في الدين، واتّباعهم إيّاهم في الضلال، وترك اتّباع الدليل. والإهراع: الإسراع الشديد، كأنّهم يحُثّون حثّاً.

٧١ ـ ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قوم قريش ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: الأمم الخالية بالتقليد، وترك النظر والتأمل.

٧٢ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أنبياء ـ عليهم السلام ـ حذّروهم العواقب.

٧٣ ـ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: الذين أنذروا، وحذّروا. أي: أهلكوا جميعاً.

٧٤ ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: إلاّ الذين آمنوا منهم، وأخلصوا لله دينهم، أو: أخلصهم الله لدينه، على القراءتين.

٧٥ ـ ولمّا ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية، وسوء عاقبة المنذَرين، أتبع

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

ذلك ذكر نوح، ودعاءه إيّاه حين أيس من قومه بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ دعانا لننجيه من الغرق. وقيل: أريد به قوله: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ اللام الداخلة على «نِعْمَ»: جواب قسم محذوف. والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره: ﴿ولقد نادانا نوح﴾ فو الله لنعم المجيبون نحن. والجمع دليلُ العظمة والكبرياء. والمعنى: أنّا أجبناه أحسن الإجابة، ونصرناه على أعدائه، وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون.

٧٦ ـ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ ومَن آمن به، وأولاده ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ غمّ الغرق.

٧٧ ـ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ وقد فني غيرهم. قال قتادة: الناسُ كلّهم من ذرّيّة نوح. وكان لنوح ـ عليه السلام ـ ثلاثة أولاد: سام: وهو أبو العرب وفارس والروم، وحام: وهو أبو السودان من المشرق إلى المغرب، ويافث: وهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج.

٧٨ ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ من الأمم هذه الكلمة وهي:

٧٩ ـ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ يعني: يسلّمون عليه تسليماً، ويدعون له. وهو من الكلام المحكيّ، كقولك: قرأت سورة أنزلناها ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ثبت هذه التحية فيهم جميعاً، ولا يخلو أحد منهم منها، كأنّه قيل: ثبّت الله التسليم على نوح، وأدامه في الملائكة والثقلين، يسلّمون عليه عن آخرهم.

٨٠ ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ علّل مجازاته بتلك التكرمة السنيّة بأنّه كان محسناً.

٨١ ـ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثمّ علّل كونه محسناً بأنّه كان عبداً مؤمناً؛ ليريك جلالة محلّ الإيمان، وأنّه القصارى من صفات المدح، والتعظيم.

٨٢ ـ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي: الكافرين.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ۝٨٩﴾

٨٣ ـ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: من شيعة نوح، أي: ممّن شايعه على أصول الدين، أو: شايعه على التصلّب في دين الله، ومصابرة المكذّبين. وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمئة وأربعون سنة، وما كان بينهما إلاّ نبيّان: هود، وصالح.

٨٤ ـ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ «إذ» تعلّق بما في الشيعة من معنى المشايعة. يعني: ﴿وإنّ﴾ ممّن شايعه على دينه وتقواه حين ﴿جاء ربّه بقلب سليم﴾ من الشرك، أو: من آفات القلوب، ﴿لإبراهيم﴾. أو: بمحذوف، وهو: اذكر. ومعنى المجيء بقلبه ربّه: أنّه أخلص لله قلبه، وعلم الله ذلك منه، فضرب المجيء مثلاً لذلك.

٨٥، ٨٦ ـ ﴿إِذْ﴾ بدل من الأولى ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ «إفكاً» مفعول له، تقديره: أتريدون آلهة من دون الله إفكاً. وإنما قدّم المفعول به على الفعل للعناية، وقدم المفعول له على المفعول به؛ لأنّه كان الأهمّ عنده أن يكافحهم بأنّهم على إفك وباطل في شركهم. ويجوز أن يكونَ ﴿إفكاً﴾ مفعولاً به، أي: أتريدون إفكاً. ثمّ فسّر الإفك بقوله: آلهة من دون الله، على أنها إفك في نفسها؛ أو: حالاً، أي: أتريدون آلهة من دون الله آفكين.

٨٧ ـ ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ أيّ شيءٍ ظنكّم ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأنتم تعبدون غيره. و﴿ما﴾ رفع بالابتداء. والخبر: ﴿ظنّكم﴾. أو: فما ظنّكم به ماذا يفعل بكم، وكيف يعاقبكم، وقد عبدتم غيره، وعلمتم أنّه المنعم على الحقيقة، فكان حقيقاً بالعبادة؟

٨٨ ـ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ أي: نظر في النجوم رامياً ببصره إلى السماء، متفكّراً في نفسه كيف يحتال. أو: أراهم أنّه ينظر في النجوم لاعتقادهم علم النجوم، فأوهمهم أنّه استدلّ بأمارة على أنّه يسقم.

٨٩ ـ ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أي: مشارف للسقم ـ وهو: الطاعون، وكان أغلب

فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾

الأسقام عليهم. وكانوا يخافون العدوى ـ ليتفرّقوا عنه. فهربوا منه إلى عيدهم، وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد. ففعل بالأصنام ما فعل. وقالوا: علم النجوم كان حقاً، ثمّ نسخ الاشتغال بمعرفته. والكذب حرام إلاّ إذا عرّض. والذي قاله إبراهيم ـ عليه السلام ـ مِعْراض من الكلام، أي: سأسقم. أو: مَنْ في عنقه الموت سقيم. ومنه المثل: كفى بالسلامة داءً. ومات رجل فجأة، فقالوا: مات، وهو صحيح. فقال أعرابيّ: أصحيح مَن الموت في عنقه؟ أو: أراد ﴿إنّي سقيم﴾ النفس لكفركم، كما يقال: أنا مريض القلب من كذا.

٩٠ ـ ﴿فَتَوَلَّوْاْ﴾ فأعرضوا ﴿عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ مولّين الأدبار.

٩١ ـ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ فمال إليهم سرّاً ﴿فَقَالَ﴾ استهزاء: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟ وكان عندها طعام.

٩٢ ـ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ والجمع بالواو والنون لما أنّه خاطبها خطاب من يعقل.

٩٣ ـ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا﴾ فأقبل عليهم مستخفياً، كأنّه قال: فضربهم ﴿ضرباً﴾ لأنّ ﴿راغ عليهم﴾ بمعنى: ضربهم. أو: ﴿فراغ عليهم﴾ يضربهم ﴿ضرباً﴾ أي: ضارباً ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: ضرباً شديداً قويّاً؛ لأنّ اليمين أقوى الجارحتين، وأشدّهما، أو: بالقوّة والمتانة، أو: بسبب الحلف الذي سبق منه، وهو قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

٩٤ ـ ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ إلى إبراهيم ﴿يَزِفُّونَ﴾ يسرعون. من الزفيف، وهو: الإسراع ﴿يُزِفّون﴾: حمزة، من: أزفّ، إذا دخل في الزفيف، إزفافاً، وكأنّه قد رآه بعضهم يكسرها، وبعضهم لم يره، فأقبل مَن رآه مسرعاً نحوه، ثمّ جاء من لم يره يكسرها، فقال لمن رآه: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩] فأجابوه على سبيل التعريض بقولهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] ثمّ قالوا بأجمعهم: نحن نعبدها وأنت تكسرها؟! فأجابهم بقوله:

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي
ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي
سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ

٩٥ ـ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ بأيديكم.

٩٦ ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وخلق ما تعملونه من الأصنام؟ أو: ﴿ما﴾ مصدريّة، أي: وخلق أعمالكم. وهو دليلُنا في خلق الأفعال، أي: الله خالقكم وخالق أعمالكم، فلم تعبدون غيره؟

٩٧ ـ ﴿قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ﴾ أي: لأجله ﴿بُنْيَٰنًا﴾ من الحجر، طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً ﴿فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ﴾ في النار الشديدة. وقيل: كلّ نار بعضها فوق بعض فهي جحيم.

٩٨ ـ ﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا﴾ بإلقائه في النار ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ المقهورين عند الإلقاء.

٩٩ ـ فخرج من النار ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ إلى موضع أمرني بالذهاب إليه ﴿سَيَهْدِينِ﴾ سيرشدني إلى ما فيه صلاحي في ديني، ويعصمني، ويوفّقني. ﴿سيهديني﴾ فيهما: يعقوب.

١٠٠ ـ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بعض الصالحين، يريد الولد؛ لأنّ لفظ الهبة غلب في الولد.

١٠١ ـ ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ انطوت البشارة على ثلاث: على أنّ الولد غلام ذكر، وأنّه يبلغ أوانَ الحلم؛ لأنّ الصبيَّ لا يُوصف بالحلم، وأنّه يكون حليماً؛ وأيّ حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] ثمّ استسلم لذلك؟!.

١٠٢ ـ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾ بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله، وحوائجه. و﴿معه﴾ لا يتعلّق بـ «بلغ» لاقتضائه بلوغهما معاً حدّ السعي، ولا بالسعي؛ لأنّ صلة المصدر لا تتقدّم عليه، فبقي أن يكون بياناً، كأنّه لمّا قال «فلمّا بلغ السعي» أي: الحدّ الذي يقدر فيه على السعي، قيل: مع من؟ قال: مع أبيه.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾

وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ حفص. والباقون بكسر الياء ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ وبفتح الياء فيهما: حجازيّ، وأبو عمرو، قيل له في المنام: اذبح ابنك. ورؤيا الأنبياء وحي، كالوحي في اليقظة. وإنّما لم يقل: رأيت؛ لأنّه رأى مرّة بعد مرّة. فقد قيل: رأى ليلة التروية كأنّ قائلاً يقول له: إنّ الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلمّا أصبح روّى في ذلك من الصباح إلى الرواح: أمن الله هذا الحلم، أم من الشيطان؟ فمن ثَمّ سمّى يوم التروية، فلمّا أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنّه من الله، فمن ثمّ سمّى يوم عرفة، ثمّ رأى مثل ذلك في الليلة الثالثة، فهمّ بنحره، فسمّي يوم النحر ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ من الرأي على وجه المشاورة، لا من رؤية العين. ولم يشاوره ليرجعَ إلى رأيه ومشورته، ولكن ليعلم أيجزع أم يصبر؟ ﴿تُرِي﴾: عليّ، وحمزة، أي: ماذا تبصر من رأيك، وتبديه ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: ﴿ما تؤمر﴾ به. وقرىء به ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبح. رُوي: أنّ الذبيح قال لأبيه: يا أبت! خُذْ بناصيتي، واجلس بين كتفي، حتّى لا أوذيك إذا أصابتني الشفرة، ولا تذبحني وأنت تنظر في وجهي، عسى أن ترحمني، واجعل وجهي إلى الأرض. ويُروى: اذبحني وأنا ساجد، واقرأ على أمّي سلامي، وإن رأيت أن تردّ قميصي على أمّي فافعل، وإنّه عسى أن يكون أسهلَ لها.

١٠٣ ـ ١٠٥ ـ ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ انقادا لأمر الله، وخضعا ـ وعن قتادة ـ رحمه الله ـ: أسلم هذا ابنه، وهذا نفسه ـ ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ وصرعه على جبينه، ووضع السكين على حلقه فلم يعمل، ثمّ وضع السكين على قفاه فانقلب السكين، ونودي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا. رُوي أنَّ ذلك المكان عند الصخرة التي بمنى. وجواب ﴿لمّا﴾ محذوف، تقديره: ﴿فلمّا أسلما وتلّه للجبين﴾ ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ ـ أي: حقّقت ما أمرناك به في المنام من تسليم الولد للذبح ـ كان ما كان بما ينطق به الحال، ولا يحيط به الوصف من

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾

استبشارهما، وحمدهما لله، وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله. أو: الجواب: قبلنا منه، و: ﴿ناديناه﴾ معطوف عليه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لتخويل ما خوّلهما من الفرج بعد الشدّة.

١٠٦ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ الاختبار البيّن الذي يتميّز فيه المخلصون من غيرهم، أو: المحنة البيّنة.

١٠٧ ـ ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾ هو ما يذبح. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الكبشُ الذي قرّبه هابيل فقبل منه، وكان يرعى في الجنّة حتّى فُدِي به إسماعيل. وعنه: لو تمّت تلك الذبيحة لصارت سنّة، وذبح الناس أبناءهم ﴿عَظِيمٍ﴾ ضخم الجثّة، سمين. وهي السُّنَّة في الأضاحي. ورُوي: أنه هرب من إبراهيم عند الجمرة، فرماه بسبع حصيات حتّى أخذه، فبقيت سنّة في الرمي. ورُوي: أنّه لمّا ذبحه قال جبريل: الله أكبر، الله أكبر. وقال: الذبيح ـ عليه السلام ـ: لا إله إلاّ الله، والله أكبر. فقال إبراهيم: الله أكبر، ولله الحمد، فبقي سُنَّة. وقد استشهد أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ بهذه الآية فيمن نذر ذَبح ولده: أنّه يلزمه ذبح شاة.

والأظهر: أنّ الذبيح إسماعيل، وهو قول أبي بكر، وابن عباس، وابن عمر، وجماعة من التابعين ـ رضي الله عنهم ـ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنا ابن الذبيحين»[1] فأحدهما جدّه إسماعيل والآخر أبوه عبد الله. وذلك: أنَّ عبد المطلب نذر إن بلغ بنوه عشرة أن يذبح آخر ولده تقرّباً، وكان عبد الله آخراً ففداه بمئة من الإبل، ولأنّ قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت في زمن الحجاج وابن الزبير. وعن الأصمعيّ أنّه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال: يا أصمعيّ! أين عزَب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكّة؟ وإنما كان إسماعيل بمكّة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكّة. وعن عليّ، وابن مسعود، والعبّاس، وجماعة من التابعين ـ رضي الله عنهم ـ أنّه إسحاق. ويدلُّ عليه كتاب يعقوب إلى يوسف

(١) انظر مستدرك الحاكم (٢/ ٥٥٤).

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾

ـ عليهما السلام ـ: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله.

وإنما قال: ﴿وفديناه﴾ وإن كان الفادي إبراهيم ـ عليه السلام ـ والله تعالى هو المُفْتَدَى منه؛ لأنّه الآمر بالذبح؛ لأنّه تعالى وهب له الكبش ليفتدي به. وهاهنا إشكال: وهو أنّه لا يخلو إمّا أن يكون ما أتى به إبراهيم ـ عليه السلام ـ من بطحه على شقّه، وإمرار الشفرة على حلقه في حُكْم الذبح أم لا؟ فإن كان في حُكْم الذبحِ، فما معنى الفداء، والفداء هو: التخليص من الذبح ببدل؟ وإن لم يكن، فما معنى قوله: ﴿قد صدّقت الرؤيا﴾؟ وإنّما كان يصدّقها لو صحّ منه الذبح أصلاً أو بدلاً. ولم يصحّ. والجواب: أنّه ـ عليه السلام ـ قد بذل وسعه، وفعل مايفعل الذابح، ولكنّ الله تعالى جاء بما منع الشفرة أن تمضي فيه. وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ ووهب الله له الكبش ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة في نفس إسماعيل ـ عليه السلام ـ بدلاً منه. وليس هذا بنسخ للحكم، كما قال البعض، بل ذلك الحكم كان ثابتاً، إلاّ أنّ المحلّ الذي أضيف إليه لم يحلّه الحكم على طريق الفداء دون النسخ، وكان ذلك ابتلاء ليستقرّ حكم الأمر عند المخاطب في آخر الحال، على أنّ المبتغى منه في حقّ الولد أن يصير قرباناً بنسبة الحكم إليه، مكرماً بالفداء الحاصل لمعرّة الذبح، مبتلى بالصبر والمجاهدة إلى حال المكاشفة، وإنّما النسخ بعد استقرار المراد بالأمر لا قبله. وقد سمّي فداء في الكتاب لا نسخاً.

١٠٨، ١٠٩ ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ لا وقف عليه لأنّ: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ مفعول ﴿وتركنا﴾.

١١٠ ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل إنّا هنا كما في غيره؛ لأنّه قد سبق في هذه القصّة، فاستخفّ بطرحه اكتفاءً بذكره مرّة عن ذكره ثانية.

١١١، ١١٢ ـ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ حال مقدّرة من إسحاق. ولا بدّ من تقدير مضاف محذوف، أي: ﴿وبشّرناه بـ﴾ وجود

مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ
مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ
ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾
وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾

﴿إسحاق نبيّاً﴾، أي: بأن يوجد مقدّرة نبوّته، فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حال ثانية. وورودها على سبيل الثناء؛ لأنّ كلّ نبيّ لا بدّ أن يكون من الصالحين.

١١٣ ـ ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾ أي: أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا. وقيل: باركنا على إبراهيم في أولاده وعلى إسحاق بأن أخرجنا من صلبه ألف نبيّ، أوّلهم يعقوب، وآخرهم عيسى ـ عليهم السلام ـ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ﴾ مؤمن ﴿وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ كافر ﴿مُبِينٞ﴾ ظاهر. أو: محسن إلى الناس، وظالم على نفسه بتعدّيه عن حدود الشرع. وفيه تنبيهٌ على أنّ الخبث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر، فقد يلد البرّ الفاجر، والفاجر البرّ، وهذا ممّا يهدم أمر الطبائع والعناصر، وعلى أنّ الظلم في أعقابهما لم يعدْ عليهما بعيب ولا نقيصة، وأنّ المرء يعاب بسوء فعله، ويُعاقب على ما اجترحتْ يداه لا على ما وجد من أصله، أو فرعه.

١١٤ ـ ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا﴾ أنعمنا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ بالنبوّة.

١١٥ ـ ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ من الغرق، أو: من سلطان فرعون، وقومه، وغشمهم.

١١٦ ـ ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ أي: موسى وهارون، وقومهما ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ على فرعون، وقومه.

١١٧ ـ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾ البليغ في بيانه، وهو: التوراة.

١١٨ ـ ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ صراط أهل الإسلام، وهي صراط الذين أنعم الله عليهم ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾

---

١١٩ ـ ١٢٣ ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هو إلياس بن ياسين، من ولد هارون أخي موسى. وقيل: هو إدريس النبيّ ـ عليه السلام ـ. وقرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (وإنّ إدريس) في موضع ﴿إلياس﴾.

١٢٤ ـ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ألا تخافون الله!.

١٢٥ ـ ﴿أَتَدْعُونَ﴾ أتعبدون ﴿بَعْلًا﴾ ـ هو علم لصنم كان من ذهب. وكان طوله عشرين ذراعاً، وله أربعة أوجه. فتنوا به، وعظّموه حتى أخدموه أربعمئة سادن، وجعلوهم أنبياءه. وكان بموضعهم يقال له بك، فركّب وصار بعلبكّ، وهو من بلاد الشام ـ وقيل: إلياس مُوَكَّلٌ بالفيافي، كما وكّل الخضر بالبحار. والحسن يقول: قد هلك إلياس والخضر، ولا نقول كما يقول الناس: إنهما حيّان ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ وتتركون عبادة الله الذي هو أحسن المقدّرين؟!.

١٢٦ ـ ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ بنصب الكلّ: عراقيّ غير أبي بكر، وأبي عمرو، على البدل من ﴿أحسن﴾. وغيرهم بالرفع على الابتداء.

١٢٧، ١٢٨ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ من قومه.

١٢٩، ١٣٠ ـ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ أي: إلياس وقومه المؤمنين، كقولهم: الخبيبون، يعني: أبا خبيب عبد الله بن الزبير، وقومه ﴿آل ياسين﴾: شاميّ، ونافع؛ لأن ياسين اسم أبي الياس، فأضيف إليه الآل.

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾
إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ
لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ
أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ
مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾

---

١٣١ ـ ١٣٥ ـ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ في الباقين.

١٣٦ ـ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ أهلكنا ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾.

١٣٧ ـ ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح.

١٣٨ ـ ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ والوقف عليه مطلق ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني: تمرّون على منازلهم في متاجركم إلى الشام ليلاً ونهاراً، فما فيكم عقول تعتبرون بها؟! وإنّما لم يختم قصّة لوط ويونس بالسلام، كما ختم قصّة من قبلهما؛ لأنّ الله تعالى قد سلّم على جميع المرسلين في آخر السورة، فاكتفى بذلك عن ذكر كلّ واحد منفرداً بالسلام.

١٣٩، ١٤٠ ـ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ﴾ الإباق: الهرب إلى حيث لا يُهْتَدى إليه الطلب، فَسُمِّيَ هربه من قومه بغير إذن ربه إباقاً مجازاً ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء. وكان يونس ـ عليه السلام ـ وعد قومه العذاب. فلمّا تأخّر العذاب عنهم خرج كالمستور منهم. فقصد البحر، وركب السفينة، فوقفت، فقالوا: هاهنا عبد آبق من سيّده. وفيما يزعم البحّارون أنّ السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر، فاقترعوا، فخرجت القرعة على يونس ـ عليه السلام ـ فقال: أنا الآبق، وزجّ بنفسه في الماء. فذلك قوله:

١٤١ ـ ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارعهم مرّة أو: ثلاثاً بالسهام. والمساهمة: إلقاء السهام على جهة القرعة ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين بالقرعة.

١٤٢ ـ ﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾ فابتلعه ﴿ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخلٌ في الملامة.

١٤٣ ـ ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح، أو:

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ
شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ
حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾

من القائلين: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أو: من المصلّين قبل ذلك. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كلّ تسبيح في القرآن فهو صلاة. ويقال: إنّ العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر.

١٤٤ ـ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الظاهر لبثه حيّاً إلى يوم البعث. وعن قتادة: لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة. وقد لبث في بطنه ثلاثة أيّام، أو: سبعة، أو: أربعين يوماً. وعن الشعبيّ ـ رحمه الله ـ: التقمه ضحوة، ولَفَظَه عشيّة.

١٤٥ ـ ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ فألقيناه بالمكان الخالي الذي لا شجر فيه ولا بناء ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ عليل مما ناله من التقام الحوت. ورُوي: أنّه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد.

١٤٦ ـ ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً﴾ أنبتناها فوقه مظلّة له، كما كان يطنّب البيت على الإنسان ﴿مِّن يَقْطِينٍ﴾ الجمهور على أنّه القرع. وفائدته: أنّ الذباب لا يجتمعُ عنده، وأنّه أسرع الأشجار نباتاً، وامتداداً، وارتفاعاً. وقيل لرسول الله ﷺ: إنّك لتحبّ القرع. قال: «أجل، هي شجرة أخي يونس»(١).

١٤٧ ـ ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ﴾ المراد به: القوم الذين بعث إليهم قبل الالتقام. فيكون قد مضمراً ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ في مرأى الناظر، إذا رآها الرائي قال هي: مئة ألف أو أكثر. وقال الزجّاج: قال غير واحد: معناها: بل يزيدون. قال ذلك الفرّاء وأبو عبيدة. ونقل عن ابن عباس كذلك.

١٤٨ ـ ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ به، وبما أرسل به ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى منتهى آجالهم.

١٤٩ ـ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ معطوف على مثله في أوّل السورة، أي: على ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ [الصافات: ١١] وإن تباعدت

---

(١) قال الحافظ: لم أجده. (حاشية الكشاف ٤/ ٦٢).

أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ
لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾

بينهما المسافة. أَمَرَ رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أوّلاً، ثمّ ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض، ثمّ أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضّيزى التي قسموها، حيث جعلوا لله تعالى الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراهتهم الشديدة لهنّ، ووأدهم، واستنكافهم من ذكرهنّ.

١٥٠ ـ ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ حاضرون. تخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم، وتجهيل؛ لأنه كما لم يعلموا ذلك مشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم، ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر. أو: معناه أنّهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس؛ لإفراط جهلهم، كأنّهم شاهدوا خلقهم.

١٥١، ١٥٢ ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم.

١٥٣ ـ ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ بفتح الهمزة للاستفهام. وهو استفهام توبيخ. وحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام.

١٥٤ ـ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الفاسد.

١٥٥ ـ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف: حمزة، وعليّ، وحفص.

١٥٦ ـ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ حجّة نزلت عليكم من السماء بأنّ الملائكة بنات الله.

١٥٧ ـ ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم.

١٥٨ ـ ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ﴾ بين الله ﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ الملائكة لاستتارهم ﴿نَسَبًا﴾ وهو زعمهم أنّهم بناته. وقالوا: إنّ الله تزوّج من الجنّ، فولدت له الملائكة ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ ولقد علمت الملائكة إنّ الذين قالوا هذا القول ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار.

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

---

١٥٩ ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نزّه نفسه عن الولد، والصَّاحبة.

١٦٠ ـ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من المحضرين، معناه: ولكن المخلصين ناجون من النار. و﴿سبحان الله﴾ اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه. ويجوز أن يقعَ الاستثناءُ من واو ﴿يصفون﴾ أي: يصفه هؤلاء بذلك. ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه به.

١٦١ ـ ١٦٣ ـ ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ومعبوديكم ﴿مَآ أَنتُمْ﴾ وهم جميعاً ﴿عَلَيْهِ﴾ على الله ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ بمضلّين ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ بكسر اللام، أي: لستم تضلّون أحداً إلاّ أصحاب النار الذين سبق في علمه أنّهم بسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها. يقال: فتن فلان على فلان امرأته، كما تقول: أفسدها عليه. وقال الحسن: فإنّكم أيها القائلون بهذا القول والذي تعبدونه من الأصنام، ما أنتم على عبادة الأوثان بمضلّين أحداً إلاّ من قدّر عليه أن يصلى الجحيم، أي: يدخل النار. وقيل: ما أنتم بمضلّين إلا من أوجبت عليه الضلال في السَّابقة. و: ﴿ما﴾ في ﴿ما أنتم﴾ نافية. و﴿من﴾ في موضع النصب بـ﴿فاتنين﴾. وقرأ الحسن: ﴿صَالُ الجحيم﴾ بضم اللام، ووجهه أن يكون جمعاً فحذفت النون للإضافة، وحذف الواو لالتقاء الساكنين، هي واللام في: ﴿الجحيم﴾ و﴿من﴾ موحَّد اللفظ مجموع المعنى، فحمل ﴿هو﴾ على لفظه، والصالون على معناه.

١٦٤ ـ ﴿وَمَا مِنَّآ﴾ أحد ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ في العبادة لا يتجاوزه، فحذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه.

١٦٥ ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ نصفّ أقدامنا في الصلاة، أو: نصفّ حول العرش داعين للمؤمنين.

١٦٦ ـ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزّهون، أو: المصلّون. والوجه: أن يكون هذا

وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾
فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ
ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾

وما قبله من قوله: ﴿سبحان الله عمّا يصفون﴾ من كلام الملائكة حتّى يتّصل بذكرهم في قوله: ﴿ولقد علمت الجنّة﴾ كأنّه قيل: ولقد علم الملائكة، وشهدوا: أنّ المشركين مفترون عليهم في مناسبة ربّ العزّة، وقالوا ﴿سبحان الله﴾ فنزّهوه عن ذلك، واستثنوا عباد الله المخلصين، وبرّؤوهم منه، وقالوا للكفرة: وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه، وتضلّوه إلاّ مَن كان مِن أهل النار، وكيف نكون مناسبين لربّ العزّة، وما نحن إلاّ عبيد أذلاّء بين يديه، لكلّ منّا مقامٌ معلومٌ من الطاعة، لا يستطيع أن يزلّ عنه ظفراً خشوعاً لعظمته، ونحن الصافّون أقدامنا لعبادته، مسبِّحين، ممجّدين، كما يجب على العباد لربّهم. وقيل: هو مِن قول رسول الله ﷺ، يعني: وما منَ المسلمين أحد إلاّ له المقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله، من قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. ثمّ ذكر أعمالهم، وأنّهم الذين يصطفّون في الصلاة، ويسبّحون الله، وينزّهونه عمّا لا يجوز عليه.

١٦٧ ـ ١٧٠ ـ ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ أي: مشركو قريش قبل مبعثه ﷺ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: كتاباً من كتب الأوّلين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ لأخلصنا العبادة لله، ولما كذّبنا كما كذّبوا، ولا خالفنا كما خالفوا. فجاءهم الذكر الذي هو سيّد الأذكار، والكتاب الذي هو معجزٌ من بين الكتب ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ مغبّة تكذيبهم، وما يحلّ بهم من الانتقام. ﴿وإن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، وفي ذلك أنّهم كانوا يقولونه مؤكّدين للقول، جادّين فيه، فكم بين أوّل أمرهم وآخره!

١٧١ ـ ١٧٣ ـ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الكلمة قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. وإنّما سمّاها كلمة، وهي كلمات؛ لأنّها لمّا انتظمت في معنى واحد، كانت في حكم كلمة مفردة. والمراد: الموعد بعلوّهم على عدوّهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوّهم عليهم في

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ۝١٧٧ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾

الآخرة. وعن الحسن: ما غلب نبيّ في حرب. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في العقبى. والحاصل: أنّ قاعدة أمرهم، وأساسه، والغالب منه: الظفر، والنصرة، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء، والمحنة. والعبرة للغالب.

١٧٤ ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى مدّة يسيرة، وهي المدّة التي أمهلوا فيها، أو: إلى يوم بدر، أو: إلى فتح مكّة.

١٧٥ ـ ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أي: أبصر ما ينالهم يومئذ ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ذلك. وهو للوعيد لا للتبعيد. أو: انظر إليهم إذا عذّبوا ﴿فسوف يبصرون﴾ ما أنكروا، أو: أعلمهم فسوف يعلمون.

١٧٦ ـ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قبل حينه؟

١٧٧ ـ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ بفنائهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ صباحهم. واللام في: ﴿المنذرين﴾ مبهم في جنس ما أنذروا؛ لأنّ ساء وبئس يقتضيان ذلك. وقيل: هو نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة. مثّل العذاب النازل بهم ـ بعد ما أنذروه فأنكروه ـ بجيش أنذر بهجومه قومَه بعضُ نصّاحهم، فلم يلتفتوا إلى إنذاره حتى أناخ بفنائهم بغتة، فشنّ عليهم الغارة. وكانت عادة مغاويرهم أن يغيزوا صباحاً، فسمّيت الغارة صباحاً، وإن وقعت في وقت آخر.

١٧٨، ١٧٩ ـ ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ وإنّما ثنّى ليكون تسلية على تسلية، وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد. وفيه فائدة زائدة، وهي: إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول، وأنّه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف المسرّة وأنواع المساءة. وقيل: أريد بأحدهما: عذاب الدنيا، وبالآخر: عذاب الآخرة.

١٨٠ ـ ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أضيف الربّ إلى العزّة لاختصاصه بها؛ كأنّه

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

قيل: ذو العزّة، كما نقول: صاحب صدق؛ لاختصاصه بالصدق. ويجوز أن يُرَاد أنّه ما من عزّة لأحد إلاّ وهو ربّها ومالكها، كقوله: ﴿ تُعِزُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦] ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد، والصّاحبة، والشّريك.

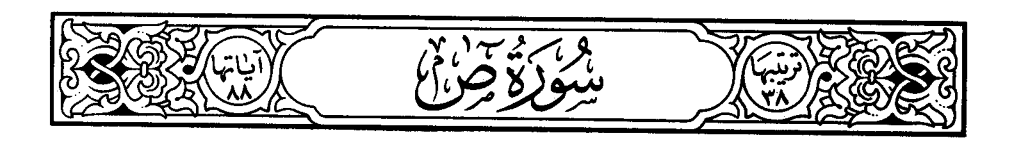
١٨١ ـ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ عمّ الرسل بالسلام بعد ما خصّ البعض في السورة؛ لأنّ في تخصيص كلّ بالذكر تطويلاً.

١٨٢ ـ ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على هلاك الأعداء، ونصرة الأنبياء.

اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله، ونسبوه إليه ممّا هو منزّه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خوّلوه في العاقبة من النصرة عليهم، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عمّا وصفه به المشركون، والتسليم على المرسلين، والحمد لربِّ العالمين على ما قيّض لهم من حسن العواقب. والمراد: تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك، ولا يخلّوا به، ولا يغفلوا عن مضمّنات كتابه الكريم، ومودعات قرآنه المجيد.

وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه: ﴿سبحان ربّك...﴾ إلى آخر السورة.

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ

---

١ ـ ﴿صٓ﴾ ذكر هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدّي، والتنبيه على الإعجاز. ثمّ أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدّي عليه، كأنّه قال: ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ أي: ذي الشرف إنّه لكلام معجز. ويجوز أن يكون ﴿ص﴾ خبر مبتدأ محذوف، على أنّه اسم للسورة، كأنّه قال: هذه ﴿ص﴾ أي: هذه السورة التي أعجزت العرب ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ كما تقول: هذا حاتم والله. تريد: هذا هو المشهور بالسخاء والله. وكذلك إذا أقسم بها، كأنّه قال: أقسمت بص والقرآن ذي الذكر إنّه لمعجز. ثمّ قال:

٢ ـ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ﴾ تكبّر عن الإذعان لذلك، والاعتراف بالحقّ ﴿وَشِقَاقٖ﴾ خلاف لله ولرسوله. والتنكير في: ﴿عزّة وشقاق﴾ للدلالة على شدّتهما، وتفاقمهما. وقرىء ﴿في غِرَّةٍ﴾ أي: في غفلة عمّا يجب عليهم من النظر، واتّباع الحقّ.

٣ ـ ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ وعيد لذوي العزّة، والشقاق ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾ من قبل قومك ﴿مِّن قَرۡنٖ﴾ أمّة ﴿فَنَادَواْ﴾ فدعوا، واستغاثوا حين رأوا العذاب ﴿وَّلَاتَ﴾ هي

﴿حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾

«لا» المشبّهة بـ«ليس» زيدت عليها تاء التأنيث، كما زيدت على «ربّ» و«ثمّ» للتوكيد. وتغيّر بذلك حكمها، حيث لم تدخل إلاّ على الأحيان، ولم يبرز إلاّ أحد مقتضييها، إمّا الاسم أو الخبر، وامتنع بروزهما جميعاً. وهذا مذهبُ الخليل وسيبويه، وعند الأخفش أنها «لا» النافية للجنس، زيدت عليها التاء، وخصّت بنفي الأحيان. وقوله: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ مَنْجى منصوب بها، كأنّك قلت: ولا حين مناص لهم. وعندهما أنّ النصب على: ولات الحين حين مناص، أي: وليس الحين حين مناص.

٤ ـ ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم﴾ من أن جاءهم ﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ رسول من أنفسهم يعني: استبعدوا أن يكون النبيّ من البشر ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

٥ ـ ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ ولم يقل: وقالوا؛ إظهاراً للغضب عليهم، ودلالة على أنّ هذا القول لا يجسر عليه إلاّ الكافرون المتوغّلون في الكفر، المنهمكون في الغيّ، إذ لا كفر أبلغ من أن يسمّوا مَنْ صدّقه الله: كاذباً ساحراً، ويتعجّبوا من التوحيد، وهو الحقُّ الأبلج، ولا يتعجّبوا من الشرك، وهو باطلٌ لجلج. رُوي: أنّ عمر ـ رضي الله عنه ـ لمّا أسلم فرح به المؤمنون، وشقّ على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم، ومشوا إلى أبي طالب، وقالوا: أنت كبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ـ يريدون الذين دخلوا في الإسلام ـ وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر أبو طالب رسولَ الله ﷺ وقال: يا بن أخي! هؤلاء قومك يسألونك سؤالاً فلا تمل كلّ الميل على قومك. فقال عليه الصلاة والسلام: «ماذا تسألوني؟» فقالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا، وندعك وإلهك. فقال ﷺ: «أعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟» قالوا: نعم، وعشراً. أي: نعطيكها وعشر كلمات معها. فقال: «قولوا: لا إله إلاّ الله». فقاموا، وقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾؟ ـ أي: أصيّر ـ ﴿إنّ هذا لشيء عجاب﴾[1] أي:

(١) رواه أحمد (١/ ٣٦٢) والترمذي (٣٢٣٢) والحاكم (٢/ ٤٣٢) وابن حبان (٦٦٨٦).

وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى
ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ
بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ

بليغ في العجب. وقيل: العجيب ماله مثل، والعجاب ما لا مثل له.

٦ - ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ وانطلق أشراف قريش عن مجلس أبي طالب، بعد ما بكّتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد، قائلين بعضهم لبعض: ﴿أمشوا﴾ و«أن» بمعنى أي؛ لأنّ المنطلقين عن مجلس التقاول لا بدّ لهم من أن يتكلّموا، ويتفاوضوا فيما جرى لهم، فكان انطلاقهم متضمّناً معنى القول ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا﴾ الأمر ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يريده الله تعالى، ويحكم بإمضائه، فلا مردّ له، ولا ينفع فيه إلاّ الصبر. أو: إنّ هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا، فلا انفكاكَ لنا منه.

٧ - ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ بالتوحيد ﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في ملّة عيسى؛ التي هي آخر الملل؛ لأنّ النصارى مثلّثة غير موحّدة، أو: في ملّة قريش التي أدركنا عليها آباءنا ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ كذب اختلقه محمّد ﷺ من تلقاء نفسه.

٨ - ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ القرآن ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟! أنكروا أن يختصّ بالشرف من بين أشرافهم، وينزل عليه الكتاب من بينهم حسداً ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ من القرآن ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ بل لم يذوقوا عذابي بعد، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشكّ، والحسد حينئذ ، أي: إنّهم لا يصدّقون به إلاّ أن يمسّهم العذاب فيصدّقون حينئذ.

٩ - ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ يعني: ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتّى يصيبوا بها من شاؤوا، أو يصرفوها عمّن شاؤوا، ويتخيّروا للنبوّة بعض صناديدهم، ويترفّعوا بها عن محمّد. وإنّما الذي يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه، الوهّاب الكثير المواهب، المصيب بها مواقعها، الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته. ثمّ رشّح هذا المعنى فقال:

١٠ - ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ حتّى يتكلّموا في الأمور الرّبانيّة،

فَلْيَرْتَقُواْ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ

والتدابير الإلهيّة التي يختصّ بها ربّ العزّة والكبرياء. ثمّ تهكّم بهم غاية التهكّم فقال: فإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق، والتصرّف في قسمة الرحمة ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصّل بها إلى السماء، حتّى يدبّروا أمر العالم، وملكوت الله، وينزلوا الوحي إلى من يختارون. ثم وعد نبيه ﷺ النصرة عليهم بقوله:

١١ ـ ﴿جُندٌ﴾ مبتدأ. ﴿مَّا﴾ صلة مقوّية للنكرة المبتدأة ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى بدر، ومصارعهم، أو: إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله: لست هنالك. خبر المبتدأ ﴿مَهْزُومٌ﴾ مكسور ﴿مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ متعلّق بجند، أو: بمهزوم. يريد: ما هم إلّا جند من الكفّار المتحزّبين على رسول الله مهزوم عمّا قريب، فلا تبال بما يقولون، ولا تكترث لما به يهذون.

١٢ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل أهل مكّة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿وَعَادٌ﴾ هوداً ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ موسى ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾. قيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه، وقيل: يوتّد من يعذب بأربعة أوتاد في يديه ورجليه.

١٣ ـ ﴿وَثَمُودُ﴾ ـ وهم قوم صالح ـ صالحاً ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطاً ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾: الغيضة شعيباً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أراد بهذه الإشارة: الإعلام بأنّ الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم، وأنّهم الذين وجد منهم التكذيب.

١٤ ـ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ ذكر تكذيبهم أوّلاً في الجملة الخبريّة على وجه الإبهام، حيث لم يبيّن المكذَّب، ثمّ جاء بالجملة الاستثنائيّة، فأوضحه فيها، وبين المكذَّب وهم الرسل، وذكر أنّ كلّ واحد من الأحزاب كذّب جميع

فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل
لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ
أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ

الرسل؛ لأنّ في تكذيب الواحد منهم تكذيب الجميع لاتّحاد دعوتهم. وفي تكرير التكذيب، وإيضاحه بعد إبهامه، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أوّلاً، وبالاستثنائية ثانياً، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد أنواع من المبالغة المسجّلة عليهم باستحقاق أشدّ العقاب، وأبلغه. ثم قال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فوجب لذلك أن أعاقبهم حقّ عقابهم. (عذابي) (عقابي) في الحالين: يعقوب.

١٥ ـ ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وما ينتظر أهل مكة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: النفخة الأولى، وهي: الفزع الأكبر ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ وبالضمّ: حمزة وعليّ، أي: ما لها من توقّف مقدار فُواق، وهو ما بين حلبتي الحالب، أي: إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما لها من رجوع وترداد، من: أفاق المريض: إذا رجع إلى الصحّة. وفواق الناقة: ساعة يرجع الدرّ إلى ضرعها، يريد: أنّها نفخة واحدة فحسب، لا تثنّى، ولا تردّد.

١٦ ـ ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ حظّنا من الجنّة؛ لأنّه عليه الصلاة والسلام ذكر وعد الله المؤمنين الجنّة، فقالوا على سبيل الهزء: ﴿عجّل لنا﴾ نصيبنا منها، أو: نصيبنا من العذاب الذي وعدته، كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وأصل القطّ: القسط من الشيء؛ لأنّه قطعة منه، من: قطّه: إذا قطعه. ويقال لصحيفة الجائزة: قطّ؛ لأنها قطعة من القرطاس ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

١٧ ـ ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيك، وصنْ نفسك أن تزلّ فيما كلّفت من مصابرتهم، وتحمّل أذاهم ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ وكرامته على الله كيف زلّ تلك الزلّة اليسيرة، فلقي من عتاب الله ما لقي ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ ذا القوّة في الدين ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رجّاع إلى مرضاة الله تعالى. وهو تعليلٌ لذي الأيد. رُوي: أنّه كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، وهو أشدُّ الصوم، ويقومُ نصفَ الليل.

١٨ ـ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا﴾ ذلّلنا ﴿ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾. قيل: كان تسخيرها أنّها تسير معه

يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

ـ إذا أراد سيرها ـ إلى حيث يريد ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في معنى: مسبّحات، على الحال. واختار ﴿يسبحن﴾ على مسبّحات؛ ليدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي: في طرفي النهار. والعشيّ: وقت العصر إلى الليل، والإشراق: وقت الإشراق، وهو حين تُشرق الشمس، أي: تضيء، وهو وقت الضحى. وأمّا شروقها: فطلوعها، تقول: شرقت الشمس ولمّا تُشرق. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما عرفت صلاة الضحى إلاّ بهذه الآية.

١٩ ـ ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ وسخّرنا ﴿الطير﴾ مجموعة من كلّ ناحية. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان إذا سبَّح جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبّحت؛ فذلك حشرها ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ كلّ واحد من الجبال والطير لأجل داود، أي: لأجل تسبيحه مسبّح؛ لأنّها كانت تُسبِّح لتسبيحه ووضع الأوّاب موضع المسبّح؛ لأنّ الأوّاب، وهو التوّاب، الكثير الرجوع إلى الله، وطلب مرضاته من عادته أن يكثر ذكر الله، ويديم تسبيحه، وتقديسه. وقيل: الضمير للهِ، أي: كلّ من داود والجبال والطير لله أوّاب، أي: مسبّح، مرجّع للتسبيح.

٢٠ ـ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قوّيناه. قيل: كان يبيتُ حول محرابه ثلاثة وثلاثون ألف رجل يحرسونه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ الزبور، وعلم الشرائع. وقيل: كلّ كلام وافق الحقّ فهو حكمة ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ علم القضاء، وقطع الخصام، والفصل بين الحقّ والباطل. والفصل هو: التمييز بين الشيئين. وقيل للكلام البيّن: فصل؛ بمعنى المفصول؛ كضرب الأمير. وفصل الخطاب: البيّن من الكلام الملخّص الذي يتبيّنه من يخاطب به لا يلتبس عليه. وجاز أن يكون الفصل بمعنى الفاصل؛ كالصَّوْم والزَّوْر. والمراد بفصل الخطاب: الفاصل من الخطاب؛ الذي يفصلُ بين الصحيح والفاسد، والحقّ والباطل. وهو كلامُه في القضايا، والحكومات، وتدابير الملك، والمشورات. وعن عليّ ـ رضي الله

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾

عنه ـ: هو الحكم بالبيّنة على المدّعي واليمين على المدّعى عليه، وهو من الفصل بين الحق والباطل. وعن الشعبيّ: هو قوله أمّا بعد، وهو أوّلُ من قال أمّا بعد، فإنّ من تكلّم في الأمر الذي له شأن يفتتح بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له فصل بينه وبين ذكر الله بقوله: أمّا بعد.

٢١ ـ ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ ظاهره الاستفهام، ومعناه: الدلالة على أنّه من الأنباء العجيبة. والخصم: الخصماء. وهو يقعُ على الواحد والجمع؛ لأنّه مصدر في الجمع(١) تقول: خصمه خصماً. وانتصاب ﴿إِذْ﴾ بمحذوف، تقديره: ﴿وهل أتاك نبأ﴾ تحاكم ﴿الخصم﴾، أو: بالخصم لما فيه من معنى الفعل ﴿تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ تصعّدوا سوره، ونزلوا إليه. والسور: الحائط المرتفع. والمحراب: الغرفة، أو: المسجد، أو: صدر المسجد.

٢٢ ـ ﴿إِذْ﴾ بدل من الأولى. ﴿دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ رُوي: أنَّ الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين، فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته. فمنعهما الحرس، فتسوّرا عليه المحراب، فلم يشعر إلاّ وهما بين يديه جالسان ﴿ففزع منهم﴾ لأنّهم دخلوا عليه المحراب في غير يوم القضاء، ولأنّهم نزلوا عليه من فوق، وفي يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون مَن يدخل عليه ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: نحن ﴿خصمان﴾ ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تعدّى، وظلم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ولا تجر، مِن: الشطط، وهو: مجاوزةُ الحد، وتخطي الحقِّ ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وأرشدنا إلى وسط الطريق، ومحجّته، والمراد: عين الحقّ، ومحضه. رُوي: أنّ أهل زمان داود ـ عليه السلام ـ كان يسألُ بعضُهم بعضاً أن ينزلَ له عن امرأته، فيتزوّجها إذا أعجبته، وكان لهم عادةٌ في المواساة بذلك، وكان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك، فاتّفق أنّ عين داود ـ عليه السلام ـ وقعت على امرأة

(١) في المطبوع: الأصل.

أوريا فأحبّها، فسأله النزولَ له عنها، فاستحى أن يردّه، ففعل، فتزوّجها، وهي أمّ سليمان، فقيل له: إنّك مع عظم منزلتك، وكثرة نسائك لم يكن ينبغي لك أن تسألَ رجلاً ليس له إلاّ امرأة واحدة النزول [عنها لك][1] بل كان الواجبَ عليك مغالبةُ هواك، وقهر نفسك، والصبر على ما امتحنت به. وقيل: خطبها أوريا، ثمّ خطبها داود، فآثره أهلها، فكانت زلّته أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه. وما يُحكى أنّه بعث مرّة بعد مرّة أوريا إلى غزاة البلقاء[2]، وأحبّ أن يُقْتَل ليتزوّجها فلا يليقُ من المتّسمين بالصلاح من أفناء المسلمين[3] فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء.

وقال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: من حدّثكم بحديث داود ـ عليه السلام ـ على ما يرويه القصّاص جلدته مئة وستّين، وهو حدّ الفرية على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

ورُوي: أنّه حُدِّثَ بذلك عمر بن عبد العزيز، وعنده رجلٌ من أهل الحقّ، فكذّب المحدّث به، وقال: إن كانت القصّة على مافي كتاب الله فما ينبغي أن يلتمسَ خلافها، وأعظم بأن يقال غير ذلك! وإن كانت على ما ذكرتَ، وكفّ الله عنها ستراً على نبيّه، فما ينبغي إظهارها عليه. فقال عمر: لسماعي هذا الكلام أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس.

والذي يدلُّ عليه المثل الذي ضربه الله لقصّته ـ عليه السلام ـ ليس إلاّ طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب. وإنّما جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التّصريح؛ لكونها أبلغ في التّوبيخ من قِبَل أنّ التأمّل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرّض به كان أوقع في نفسه، وأشدّ تمكّناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة.

٢٣ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ هو بدل من هذا، أو: خبر لإنّ. والمراد: أخوّة الدين، أو: أخوّة الصداقة والألفة، أو: أخوّة الشركة والخلطة؛ لقوله: ﴿وإنّ كثيراً من

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) «البلقاء»: مدينة بالشام.

(٣) «أفناء المسلمين»: يُقال: هو من أفناء الناس؛ إذا لم يعلم ممن هو.

لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ

الخلطاء﴾ ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾[1]: ﴿وَلِيَ﴾ حفص. والنعجة: كناية عن المرأة[2]. ولمّا كان هذا تصويراً للمسألة، وفرضاً لها لا يمتنع أن يفرض الملائكة في أنفسهم، كما تقول: لي أربعون شاة ولك أربعون، فخلطناها، ومالكما من الأربعين أربعة ولا ربعها ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ ملّكنيها، وحقيقته: اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: اجعلها كفلي، أي: نصيبي ﴿وَعَزَّنِى﴾ وغلبني ـ يقال: عزّه، يعزُّه ـ ﴿فِى ٱلْخِطَابِ﴾ في الخصومة، أي: أنّه كان أقدر على الاحتجاج منّي. وأراد بالخطاب: مخاطبة المحاجّ المجادل، أو: أراد خطبت المرأة، وخطبها هو، فخاطبني خطاباً، أي: غالبني في الخطبة، فغلبني حيث زُوّجها دوني. ووجهُ التمثيل: أنْ مثّلت قصّة أوريا مع داود بقصّة رجل له نعجة واحدة، ولخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمّة المئة، فطمع في نعجة خليطه، وأراده على الخروج من ملكها إليه، وحاجّه في ذلك محاجّة حريص على بلوغ مراده. وإنّما كان ذلك على وجه التحاكم إليه، ليحكم بما حكم به من قوله:

٢٤ ـ ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ حتّى يكون محجوباً بحكمه. وهذا جوابُ قسم محذوف. وفي ذلك استنكارٌ لفعل خليطه. والسؤال مصدر مضاف إلى المفعول. وقد ضمّن معنى الإضافة، فعدّي تعديتها، كأنّه قيل: بإضافة ﴿نعجتك إلى نعاجه﴾ على وجه السؤال والطلب. وإنّما ظَلَّم الآخر بعد ما اعترف به خصمه، ولكنّه لم يُحْكَ في القرآن لأنّه معلوم. ويروى: أنّه قال: أنا أريد أن آخذها منه، وأكمل نعاجي مئة. فقال داود: إن رمتَ ذلك ضربنا

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة ﴿وَلِيْ﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٢٦١).

(٢) الصواب أن يبقى التفسير على ظاهر القرآن، وحقيقة ما ورد فيه من أن الخصمين بشران، وأن النعاج شياه. انظر: تفسير الرازي (٢٦/ ١٨٩) والبحر المحيط (٧/ ٣٩١).

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

منك هذا وهذا، وأشار إلى طرف الأنف والجبهة، فقال: ياداود! أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا؛ وأنت فعلت كيت وكيت. ثمّ نظر داود فلم ير أحداً، فعرف ما وقع فيه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ الشركاء، والأصحاب ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المستثنى منصوب، وهو من الجنس. والمستثنى منه ﴿بعضهم﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ «ما» للإبهام، و﴿هم﴾ مبتدأ. و﴿قليل﴾ خبره ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أي: علم، وأيقن. وإنّما استعير له؛ لأنّ الظنّ الغالب يداني العلم ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ابتليناه ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لزلّته ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: سقط على وجهه ساجداً لله. وفيه دليلٌ على أنّ الركوع يقوم مقام السجود في الصلاة إذا نوى؛ لأنّ المراد مجرّد ما يصلح تواضعاً عند هذه التلاوة. والركوع في الصلاة يعملُ هذا العمل، بخلاف الركوع في غير الصلاة ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجع إلى الله بالتوبة. ورُوي: أنه بقي ساجداً أربعين يوماً وليلة، لا يرفع رأسه إلاّ لصلاة مكتوبة، أو: مالا بدّ منه، ولا يرقأ دمعه حتّى نبت العشب من دمعه، ولم يشرب ماءً إلاّ وثلثاه دمع.

٢٥ ـ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: زلّته ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قُرْبَة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجع، وهو: الجنّة.

٢٦ ـ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استخلفناك على الملك في الأرض، أو: جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحقّ. وفيه دليلٌ على أنّ حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغيّر ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بحكم الله إذ كنت خليفةً، أو: بالعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: هوى النفس في قضائك ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: بنسيانهم يوم العذاب.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ

٢٧ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق. ﴿بَٰطِلًا﴾ خلقاً باطلاً، لا لحكمة بالغة، أو: مبطلين عابثين. كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦] وتقديره: ذوي باطل، أو: عبثاً، فوضع باطلاً موضعه، أي: ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب، ولكن للحقّ المتين، وهو: أنّا خلقنا نفوساً أودعناها العقل، ومنحناها التمكين، وأزحنا عللها، ثمّ عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف، وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى خلقها باطلاً ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الظنّ بمعنى المظنون، أي: خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا، وإنّما جعلوا ظانّين أنّه خلقها للعبث لا للحكمة مع إقرارهم بأنّه خالق السموات والأرض وما بينهما؛ بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] لأنّه لمّا كان إنكارهم للبعث، والحساب، والثواب، والعقاب مؤدّياً إلى أنّ خلقها عبث وباطل، جُعِلوا كأنّهم يظنّون ذلك، ويقولونه؛ لأنّ الجزاء هو الذي سيقت إليه الحكمة في خلق العالم، فمن جحده فقد جحد الحكمة في خَلْق العالم ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

٢٨ ـ ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ «أم» منقطعة. ومعنى الاستفهام فيها الإنكار. والمراد: أنّه لو بطل الجزاء كما يقول الكفّار لاستوت أحوال من أصلح، وأفسد، واتّقى، وفجر. ومن سوّى بينهم كان سفيهاً، ولم يكن حكيماً.

٢٩ ـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ صفة أخرى ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وأصله: ﴿ليتدبّروا﴾. وقرىء به، ومعناه: ليتفكّروا فيها، فيقفوا على ما فيه، ويعملوا به. عن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان، لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه، وضيّعوا حدوده. ﴿لتدبّروا﴾

وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ
عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى

على الخطاب بحذف إحدى التاءين: يزيد ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وليتّعظ بالقرآن أولو العقول.

٣٠ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي: سليمان. وقيل: داود، وليس بالوجه، فالمخصوص بالمدح محذوف ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وعلّل كونه ممدوحاً بكونه أوّاباً، أي: كثير الرجوع إلى الله تعالى.

٣١ ـ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ على سليمان. ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ بعد الظهر ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ الخيول القائمة على ثلاث قوائم، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ السراع جمع جواد؛ لأنّه يجودُ بالركض، وصفها بالصفون لأنّه لا يكون في الهُجْنِ، وإنّما هو في العراب. وقيل: وصفها بالصفون وبالجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية، يعني: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها. وقيل: الجياد، الطوال الأعناق، من الجيد. رُوي: أنّ سليمان ـ عليه السلام ـ غزا أهل دمشق ونصيبين، فأصاب ألف فرس. وقيل: ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة. وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة، فقعد يوماً بعد ما صلّى الظهر على كرسيه، واستعرضها، فلم تزل تعرض عليه حتّى غربت الشمس، وغفل عن العصر. وكانت فرضاً عليه، فاغتمّ لما فاته فاستردّها، وعقرها تقرّباً لله وبقي مئة، فما في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها. وقيل: لمّا عقرها أبدله خيراً منها، وهي الريح تجري بأمره.

٣٢ ـ ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ أي: آثرت حبّ الخيل عن ذكر ربّي، كذا عن الزجّاج. فأحببت بمعنى: آثرت، كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] و ﴿عن﴾ بمعنى على. وسمّى الخيل خيراً كأنّها نفس الخير؛ لتعلّق الخير بها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «الخيلُ معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»[١]. وقال أبو عليّ ـ رحمه الله ـ: ﴿أحببت﴾ بمعنى

(١) رواه البخاري (٢٨٤٩) ومسلم (١٨٧١).

حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

جلست، من: إحباب البعير، وهو بروكه ﴿حبّ الخير﴾ مفعول له مضاف إلى المفعول ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ الشمس ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾. والذي دلّ على أنّ الضمير للشمس مرور ذكر العشيّ ولابدّ للمضمر من جَرْي ذكر، أو: دليل ذكر. أو: الضمير لـ «الصافنات»، أي: حتّى توارت بحجاب الليل، يعني: الظلام.

٣٣ ـ ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي: قال للملائكة: ردّوا الشمس عليّ لأصلّي العصر. فَرُدَّتِ الشمس له، وصلّى العصر. أو: ردّوا الصافنات ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ فجعل يمسح ﴿مسحاً﴾ أي: يمسح السيف بسوقها ـ وهي جمع ساق، كدار ودور ـ وأعناقها. يعني: يقطّعها؛ لأنّها منعته عن الصلاة. تقول: مسح عِلاوَتَهُ: إذا ضرب عنقه. ومسح المسفِّر الكتاب[1]: إذا قطع أطرافه بسيفه، وقيل: إنّما فعل ذلك كفّارة لها، أو: شكراً لردّ الشمس. وكانت الخيلُ مأكولةً في شريعته، فلم يكن إتلافاً. وقيل: مسحها بيده استحساناً لها، وإعجاباً بها.

٣٤ ـ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ ابتليناه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ سرير ملكه ﴿جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى الله. قيل: فتن سليمان ـ عليه السلام ـ بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة. وكان من فتنته: أنّه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفكّ من السخرة، فسبيلنا أن نقتله، أو: نُخَبِّلَه. فعلم ذلك سليمان ـ عليه السلام ـ فكان يغذوه[2] في السحابة خوفاً من مضرّة الشياطين، فألفى ولده ميتاً على كرسيّه، فتنبّه على زلّته في أن لم يتوكّل فيه على ربّه. ورُوي عن النبي ﷺ: «قال سليمان: لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة، كلّ واحدة منهنّ تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله. فطاف عليهنّ، فلم تحمل إلاّ امرأة واحدة، جاءت بشقّ رجل، فجيء به على كرسيّه،

(١) في الصحاح: سفرت الكتاب أسفره سفراً. وسفرت المرأة: كشفت عن وجهها. وأسفر الصبح: أي: أضاء. وأسفر وجهه حسناً، أي: أشرق.

(٢) «يغذوه»: غذوت الصبي باللبن؛ أي: ربيته به فاغتذى.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾

فوضع في حجره. فوالذي نفس محمد بيده! لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[1]. وأمّا ما يُروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان ـ عليه السلام ـ فمن أباطيل اليهود.

٣٥ ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ قدّم الاستغفار على استيهاب الملك، جرياً على عادة الأنبياء عليهم السلام والصالحين في تقديم الاستغفار على السؤال ﴿لَّا يَنۢبَغِي﴾ لا يتسهّل، ولا يكون ﴿لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ أي: دوني. وبفتح الياء: مدنيّ، وأبو عمرو. وإنّما سأل بهذه الصفة ليكون معجزة له لا حسداً. وكان قبل ذلك لم يُسَخَّر له الريح والشياطين، فلمّا دعا بذلك سُخِّرَتْ له الريح والشياطين. وأن يكون معجزة حتّى يخرق العادات ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

٣٦ ـ ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ (الرياح): أبو جعفر ﴿تَجْرِي﴾ حال من الريح ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بأمر سليمان. ﴿رُخَآءً﴾ ليّنة طيّبة، لا تزعزع. وهو حال من ضمير ﴿تجري﴾ ﴿حَيْثُ﴾ ظرف تجري ﴿أَصَابَ﴾ قصد، وأراد. والعرب تقول: أصاب الصواب، وأخطأ الجواب.

٣٧ ـ ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطف على الريح، أي: وسخّرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ بدل من ﴿الشياطين﴾ كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ أي: ويغوصون له في البحر لإخراج اللؤلؤ، وهو أوّل من استخرج اللؤلؤ من البحر. والمعنى: سخرنا له ﴿كلّ بناء وغوّاص﴾ من الشياطين.

٣٨ ـ ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ عطف على ﴿كل بناء﴾ داخل في حكم البدل ﴿مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ وكان يقرن مردة الشياطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب، والكفّ عن الفساد. والصَفَد: القيد. وسمّي به العطاء لأنّه ارتباط للمنعم عليه. ومنه قول عليّ ـ رضي الله عنه ـ: من برّك فقد أسرك، ومن جفاك فقد أطلقك.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٢٤).

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ
عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾

٣٩ ـ ﴿هَٰذَا﴾ الذي أعطيناك من الملك، والمال، والبسطة ﴿عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ﴾ فأعط منه ما شئت، من: المنّة، وهي: العطاء ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عن الإعطاء ـ وكان إذا أعطى أُجِرَ، وإن منع لم يأثم بخلاف غيره ـ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ متعلّق بـ ﴿عطاؤنا﴾ وقيل: هو حال منه، أي: ﴿هذا عطاؤنا﴾ جمّاً كثيراً، لا يكاد يقدر على حصره. أو: ﴿هذا﴾ التسخير ﴿عطاؤنا فامنن﴾ على من شئت من الشياطين بالإطلاق ﴿أو أمسك﴾ من شئت منهم في الوثاق ﴿بغير حساب﴾ أي: لا حساب عليك في ذلك.

٤٠ ـ ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ﴿لزلفى﴾: اسم ﴿إنّ﴾ والخبر ﴿له﴾ والعامل في ﴿عند﴾ الخبر.

٤١ ـ ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ هو بدل من ﴿عبدنا﴾ أو: عطف بيان ﴿إِذْ﴾ بدل اشتمال منه ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ دعاه ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ﴾ بأنّي مسّني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه، ولو لم يحك لقال: بأنه مسّه؛ لأنّه غائب ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ﴾ قراءة العامة: ﴿بِنُصُب﴾ يزيد: بتثقيل نُصْب ﴿بِنَصَبٍ﴾ كرشد ورشد: يعقوب ﴿بِنَصْب﴾ على أصل المصدر: هبيرة، والمعنى واحد، وهو: التعب، والمشقّة ﴿وَعَذَابٍ﴾ ألم. يريد: مرضه، وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب[1]، وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو: بالتوفيق في دفعه، وردّه بالصبر الجميل. ورُوي: أنّه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين، فارتدّ أحدهم، فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان أنّ الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين. وذكر في سبب بلائه: أنّه ذبح شاة فأكلها، وجاره جائع، أو: رأى منكراً فسكت عنه، أو: ابتلاه الله لرفع الدرجات بلا زلّة سبقت منه.

٤٢ ـ ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ حكاية ما أجيب به أيوب ـ عليه السلام ـ أي: أرسلنا

---

(١) «الوصب»: المرض.

هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

إليه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال له: ﴿اركض برجلك﴾ أي: اضرب برجلك الأرض، وهي أرض الجابية[1]، فضربها، فنبعت عين، فقيل: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: هذا ماء تغتسل به، وتشرب منه، فيبرأ باطنك وظاهرك. وقيل: نبعت له عينان فاغتسل من إحداهما، وشرب من الأخرى، فذهب الداءُ من ظاهره وباطنه بإذن الله.

٤٣ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قيل: أحياهم الله بأعيانهم، وزاده مثلهم ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مفعول لهما، أي: الهبة كانت للرحمة له، ولتذكير أولي الألباب؛ لأنّهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره، رغّبهم في الصبر على البلاء.

٤٤ ـ ﴿وَخُذْ﴾ ـ معطوف على ﴿اركض﴾ ـ ﴿بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ حُزمة صغيرة من حشيش، أو: رَيحان، أو: غير ذلك. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قبضة من الشجر ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ وكان حلف في مرضه ليضربنّ امرأته مئة إذا برأ، فحلّل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها؛ لحسن خدمتها إيّاه. وهذه الرخصة باقية. ويجبُ أن يصيبَ المضروب كلّ واحدة من المئة. والسبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة، فحرج صدره، وقيل: باعت ذؤابتيها برغيفين، وكانتا متعلّق أيّوب ـ عليه السلام ـ إذا قام! ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ﴾ علمناه ﴿صَابِرًا﴾ على البلاء. نعم قد شكا إليه ما به، واسترحمه، لكن الشكوى إلى الله لا تسمّى جزعاً، فقد قال يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] على أنه ـ عليه السلام ـ كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة، حيث كان الشيطان يوسوس إليهم: أنّه لو كان نبيّاً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به، وإرادة القوّة على الطاعة، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلاّ القلب واللسان ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيوب ـ عليه السلام ـ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

---

(١) «الجابية»: مدينة بالشام.

وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾

٤٥ ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾ ﴿عبدنا﴾: مكّيّ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ فمن جمع فإبراهيم ومَن بعده عطف بيان لـ: ﴿عبادنا﴾، ومن وحّد فإبراهيم ـ عليه السلام ـ وحده عطف بيان له، ثمّ عطف ذرّيّته على ﴿عبدنا﴾. ولما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غُلِّبَتْ، فقيل في كلّ عمل: هذا ممّا عملت أيديهم، وإن كان عملاً لا تتأتّى فيه المباشرة بالأيدي، أو: كان العمّال جُذْماً لا أيدي لهم، وعلى هذا ورد قوله: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: أولي الأعمال، والفكر؛ كأنّ الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا يتفكّرون أفكار ذوي الديانات في حكم الزّمنى، الذين لا يقدرون على إعمال جوارحهم، والمسلوبي العقول الذين لا استبصار لهم. أو فيه تعريضٌ بكلّ من لم يكن من عمّال الله، ولا من المستبصرين في دِيْن الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمّل، مع كونهم متمكّنين منهما.

٤٦ ـ ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ جعلناهم لنا خالصين ﴿بِخَالِصَةٖ﴾ بخصلة خالصة، لا شوب فيها ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ ﴿ذكرى﴾: في محلّ النصب، أو: الرفع بإضمار: أعني، أو: هي، أو الجر على البدل من ﴿خالصة﴾ والمعنى: ﴿إنّا أخلصناهم﴾ بـ ﴿ذكرى الدار﴾ و﴿الدار﴾ هنا: الدار الآخرة، يعني: جعلناهم لنا خالصين بأن جعلناهم يذكّرون الناس الدار الآخرة، ويزهّدونهم في الدنيا، كما هو ديدن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ. أو: معناه: أنّهم يكثرون ذكر الآخرة، والرجوع إلى الله، وينسون ذكر الدنيا. ﴿بخالصةِ ذكرى﴾ على الإضافة: مدني وهي من إضافة الشيء إلى ما يبيّنه؛ لأنّ الخالصة تكون ذكرى، وغير ذكرى. و﴿ذكرى﴾ مصدر ومضاف إلى المفعول، أي: بأن خلص ذكرى الدار. وقيل: ﴿خالصة﴾ بمعنى خلوص، فهي مضافة إلى الفاعل، أي: بأن خلصت لهم ذكرى الدار، على أنّهم لا يشوبون ذكرى الدار بهمّ آخر، إنّما همّهم ذكرى الدار لا غير. وقيل: ﴿ذكرى الدار﴾ الثناء الجميل في الدنيا، وهذا شيء قد أخلصهم به، فليس يذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يذكرون به، يقويه قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥٠].

وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾

٤٧ ـ ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ المختارين من بين أبناء جنسهم ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع خيّر، أو: خيْر على التخفيف، كأموات في جمع ميّت، أو: ميْت.

٤٨ ـ ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ كأنّ حرف التعريف دخل على يسع ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ﴾ التنوين عوض من المضاف إليه، أي: وكلهم ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

٤٩ ـ ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: ﴿هذا﴾ شرف، وذكر جميل، يذكرون به أبداً. ﴿وإنّ﴾ لهم مع ذلك لحسن مرجع، يعني: يذكرون في الدنيا بالجميل، ويرجعون في الآخرة إلى مغفرة ربّ جليل. ثمّ بيّن كيفية حسن ذلك المرجع، فقال:

٥٠ ـ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدل من ﴿حسن مآب﴾ ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ حال من ﴿جنّات﴾ لأنّها معرفة لإضافتها إلى ﴿عدن﴾ وهو علم، والعامل فيها ما في ﴿للمتّقين﴾ من معنى الفعل ﴿لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ ارتفاع الأبواب بأنّها فاعل ﴿مفتّحة﴾ والعائد محذوف، أي: ﴿مفتّحة لهم الأبواب﴾ منها، فحذف كما حذف في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٩] أي: لهم. أو: أبوابها، إلاّ أنّ الأوّل أجود. أو: هي بدل من الضمير في ﴿مفتّحة﴾ وهو ضمير الجنّات، تقديره: مفتّحة هي ﴿الأبواب﴾ وهو من بدل الاشتمال.

٥١ ـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من المجرور في ﴿لهم﴾ والعامل ﴿مفتّحة﴾ ﴿فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أي: ﴿وشراب﴾ كثير، فحذف اكتفاء بالأوّل.

٥٢ ـ ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قصرن طرفهنّ على أزواجهنّ ﴿أَتْرَابٌ﴾ لِدَاتٌ أسنانهنّ كأسنانهم؛ لأنّ التحابّ بين الأقران أثبت؛ وكأنّ اللدات سمّين أتراباً؛ لأنّ التراب مسّهن في وقت واحد.

٥٣ ـ ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ وبالياء: مكيّ، وأبو عمرو ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: ليوم تجزى كلّ نفس بما عملت.

إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ

٥٤ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ من انقطاع. والجملة حال من الرزق، والعامل الإشارة.

٥٥ ـ ﴿هَٰذَا﴾ خبر، والمبتدأ محذوف، أي: الأمر هذا، أو: هذا كما ذكر ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ مرجع.

٥٦ ـ ﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل منه ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ شبّه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم.

٥٧ ـ ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي: هذا حميم وغَسَّاق فيلذوقوه. فهذا: مبتدأ، و﴿حميم﴾ خبره، ﴿وغَسَّاق﴾ عطف على الخبر، ﴿فليذوقوه﴾ اعتراض. أو: العذب ﴿هذا فليذوقوه﴾ ثمّ ابتدأ فقال: هو ﴿حميم﴾ ﴿وغسّاق﴾ بالتشديد: حمزة، عليّ، وحفص. والغساق بالتشديد والتخفيف: ما يَغْسَق من صديد أهل النار. يقال: غَسَقت العين؛ إذا سال دمعها. وقيل: الحميم يحرق بحرّه، والغساق يحرق ببرده.

٥٨ ـ ﴿وَءَاخَرُ﴾ أي: ﴿و﴾ عذاب ﴿آخر﴾ أو: مذوق آخر ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ من مثل العذاب المذكور ﴿وأُخَرُ﴾ بصريّ، أي: ﴿و﴾ مذوقات ﴿أُخَرُ﴾ من شكل هذا المذوق في الشدّة، والفظاعة ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ صفة لآخر؛ لأنّه يجوز أن يكون ضروباً.

٥٩ ـ ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار، أي: دخل النار في صحبتكم. والاقتحام: الدخول في الشيء بشدّة، والقُحْمة: الشدّة. وهذه حكايةُ كلام الطاغين بعضهم مع بعض، أي: يقولون هذا. والمراد بالفوج: أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة، فيقتحمون معهم العذاب ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ دعاء منهم على أتباعهم. تقول لمن تدعو له: مرحباً، أي: أتيت رَحْباً من البلاد لا ضيقاً. أو: رَحُبت بلادك رحباً. ثم تدخل عليه «لا» في

إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ
رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم
مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾

دعاء السوء و﴿بهم﴾ بيان للمدعو عليهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ داخلوها، وهو تعليلٌ على لاستجابهم الدعاء عليهم. وقيل: ﴿هذا فوج مقتحم﴾ كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم، و﴿لا مرحباً بهم إنّهم صالو النار﴾ كلام الرؤساء، وقيل: هذا كلّه كلام الخزنة.

٦٠ ـ ﴿قَالُواْ﴾ أي: الأتباع؛ ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ أي: الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحقّ به. وعلّلوا ذلك بقوله: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ والضمير للعذاب، أو: لصليهم، أي: إنّكم دعوتمونا إليه، فكفرنا باتّباعكم ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي: النار.

٦١ ـ ﴿قَالُواْ﴾ أي: الأتباع ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي: مضاعفاً ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ ومعناه: ذا ضعف. ونحوه قوله: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: ٣٨] وهو أن يزيد على عذابه مثله.

٦٢ ـ ﴿وَقَالُواْ﴾ الضمير لرؤساء الكفرة ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ يعنون: فقراء المسلمين ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ في الدنيا ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ من الأرذال؛ الذين لا خير فيهم، ولا جدوى.

٦٣ ـ ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾(١) بلفظ الإخبار: عراقيّ غير عاصم، على أنّه صفة لرجالاً، مثل ﴿كنّا نعدّهم من الأشرار﴾ وبهمزة الاستفهام: غيرهم، على أنّه إنكار على أنفسهم في الاستسخار منهم. ﴿سُخرياً﴾: مدنيّ، وحمزة، وعليّ، وخلف، والمفضّل ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. هو متصل بقوله: ﴿مالنا﴾ أي: مالنا لا نراهم في النار، كأنّهم ليسوا فيها؟ بل أزاغت عنهم

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿اتخذناهم﴾ موصولة الألف، وهي قراءة: أبي عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن كثير، ويعقوب، وخلف، والأعمش، واليزيدي، وعبد الله. معجم القراءات القرآنية (٥/ ٢٧٣).

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ
مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

أبصارنا، فلا نراهم وهم فيها؟ قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنّة، وبين أن يكونوا من أهل النار، إلاّ أنّه خفي عليهم مكانهم.

٦٤ ـ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لصدق كائن لا محالة، لابدّ أن يتكلّموا به. ثمّ بيّن ماهو، فقال: هو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾. ولمّا شبّه تقاولهم، وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين سمّاه تخاصماً، ولأنّ قول الرؤساء: ﴿لا مرحباً بهم﴾ وقول أتباعهم: ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ من باب الخصومة، فسمّى التقاول كلّه تخاصماً؛ لاشتماله على ذلك.

٦٥ ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكّة: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ ما أنا إلاّ رسول منذر، أنذركم عذاب الله ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وأقول لكم: إنّ دين الحقّ توحيد الله، وأن تعتقدوا أن لا إله إلاّ الله ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ بلا ندّ، ولا شريك ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكلّ شيء.

٦٦ ـ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ له الملك والربوبيّة في العالم كلّه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لذنوب مَن التجأ إليه.

٦٧ ـ ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً، وأنّ الله واحد لا شريك له ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ لا يعرض عن مثله إلاّ غافل شديد الغفلة، ثمّ:

٦٨ ـ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ غافلون.

٦٩ ـ ﴿مَا كَانَ لِىَ﴾ : ـ حفص ـ ﴿مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ احتجّ بصحّة نبوّته بأنّ ما ينبىء به عن الملأ الأعلى، واختصامهم، أمر ما كان له به من علم قطّ. ثمّ علمه، ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا، وهو: الأخذ من أهل العلم، وقراءة الكتب، فعلم أنّ ذلك لم يحصل له إلاّ بالوحي من الله.

٧٠ ـ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: لـ ﴿إنّما أنا نذير مبين﴾ ومعناه:

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ

ما يوحى إليّ إلاّ للإنذار، فحذف اللام، وانتصب بإفضاء الفعل إليه. ويجوز أن يرتفع على معنى: ما يوحى إليّ إلاّ هذا، وهو أن أنذر، وأبلّغ، ولا أفرّط في ذلك، أي: ما أومر إلاّ بهذا الأمر وحده، وليس إليَّ غير ذلك. ويكسر ﴿إنّما﴾ يزيد على الحكاية، أي: إلاّ هذا القول، وهو أن أقول لكم: ﴿إنّما أنا نذير مبين﴾ ولا أدّعي شيئاً آخر. وقيل: النبأ العظيم: قصص آدم، والإنباء به من غير سماع من أحد. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: القرآن. وعن الحسن: يوم القيامة. والمراد بالملأ الأعلى: أصحاب القصّة، الملائكة، وآدم، وإبليس؛ لأنّهم كانوا في السماء، وكان التقاول بينهم. و﴿إذ يختصمون﴾ متعلّق بمحذوف، إذ المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقت اختصامهم.

٧١ ـ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ ـ بدل من ﴿إذ يختصمون﴾ في شأن آدم ـ حين قال تعالى على لسان ملك ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ وقال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠].

٧٢ ـ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ فإذا أتممت خلقته، وعدّلته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ الذي خلقته ـ وأضافه إليه تخصيصاً، كـ: بيت الله، وناقة الله. والمعنى: أحييته، وجعلته حسّاساً، متنفّساً ـ ﴿فَقَعُوا۟﴾ أمر من: وقع يقع، أي: اسقطوا على الأرض. والمعنى: اسجدوا ﴿لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾. قيل: كان انحناء يدلّ على التواضع، وقيل: كان سجدة لله، أو: كان سجدة التحيّة.

٧٣ ـ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ كلّ للإحاطة. و﴿أجمعون﴾ للاجتماع، فأفاد أنّهم سجدوا عن آخرهم جميعهم في وقت واحد غير متفرّقين في أوقات.

٧٤ ـ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ تعظّم عن السجود ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وصار من الكافرين بإباء الأمر.

٧٥ ـ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ ما منعك عن السجود ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾

أي: بلا واسطة، امتثالاً لأمري، وإعظاماً لخطابي. وقد مرّ: أنّ ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيده، فغلّب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما، حتّى قيل: في عمل القلب: هو ما عملت يداك، وحتّى قيل لمن لا يدي له: «يداك أوكتا وفوك نفخ»[1] وحتّى لم يبق فرق بين قولك: هذا ممّا عملتَه، وهذا مما عملَتْه يداك. ومنه قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١] و ﴿لما خلقت بيديّ﴾ ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ استفهام إنكار ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ ممّن علوت وفُقْتَ. وقيل: ﴿أستكبرت﴾ الآن، أم لم تزل مذ كنت من المستكبرين.

٧٦ ـ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ يعني: لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له؛ لأنّه مخلوق مثلي، فكيف أسجد لمن هو دوني؟ لأنّه من طين، والنار تغلب الطين، وتأكله. وقد جرت الجملة الثانية من الأولى ـ وهي ﴿خلقتني من نار﴾ ـ مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

٧٧ ـ ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنّة، أو: من السموات، أو: من الخلقة التي أنت فيها؛ لأنّه كان يفتخر بخلقته، فغيّر الله خلقته، واسودّ بعد ما كان أبيض، وقبح بعد ما كان حسناً، وأظلم بعد ما كان نورانياً ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مرجوم، أي: مطرود. تكبّر إبليس أن يسجد لمن خلق من طين، وزلّ عنه: أن الله أمر به ملائكته، واتّبعوا أمره إجلالاً لخطابه، وتعظيماً لأمره، فصار مرجوماً ملعوناً بترك أمره.

٧٨ ـ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ﴾ وبفتح الياء: مدنيّ، أي: إبعادي من كلّ الخير ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء. ولا يُظَنُّ أنّ لعنته غايتها يوم الدين، ثمّ تنقطع؛ لأنّ معناه: أنّ عليه اللعنة في الدنيا وحدها، فإذا كان يوم الدين اقترن بها العذاب فينقطع الانفراد. أو: لمّا كان عليه اللعنة في أوان الرحمة، فأولى أن تكون عليه في غير أوانها. وكيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن

---

(١) هذا مثل، انظره في: جمهرة الأمثال (٢/ ٢٤٣ و٤٣٠) ومجمع الأمثال(١/ ٥٥ و٢/ ٤١٤).

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ
ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾
قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾

لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]؟!.

٧٩ ـ ٨١ ـ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ فامهلني ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ الوقت المعلوم: الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى، ويومه اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه. ومعنى المعلوم: أنّه معلوم عند الله معين، لا يتقدّم، ولا يتأخّر.

٨٢، ٨٣ ـ ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أقسم بعزّة الله، وهي: سلطانه، وقهره ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وبكسر اللام: مكّيّ، وبصريّ، وشاميّ.

٨٤ ـ ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ بالرفع: كوفيّ غير عليّ، على الابتداء، أي: الحقّ قسمي، أو: على الخبر، أي: أنا الحقّ. وبالنصب وغيرهم على أنّه مقسم به، كقوله: اللهَ لأفعلن كذا، يعني: حذف عنه الباء فانتصب، وجوابه: ﴿لأملأنّ﴾ ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه، وهو منصوب بأقول، ومعناه: ولا أقول إلاّ الحقّ. والمراد بالحقّ إمّا اسمه عزّوجلّ الذي في قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦٢] أو: الحقّ الذي هو نقيضُ الباطل، عظّمه الله بإقسامه به.

٨٥ ـ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ من جنسك. وهم: الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من ذرّية آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي: لأملأن جهنّم من المتبوعين والتابعين ﴿أجمعين﴾ لا أترك منهم أحداً.

٨٦، ٨٧ ـ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الضمير للقرآن، أو: للوحي ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ من الذين يتصنّعون ويتحلّون بما ليسوا من أهله، وما عرفتموني قطّ متصنّعاً، ولا مدّعياً بما ليس عندي، حتّى أنتحل النبوّة، وأتقوّل القرآن ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ للثقلين أوحَى إليّ فأنا أبلّغه.

وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

وعن رسول الله ﷺ: «للمتكلّف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم»[1].

٨٨ ـ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ نبأ القرآن وما فيه من الوعد والوعيد، وذكر البعث والنشور ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ بعد الموت، أو: يوم بدر، أو: يوم القيامة.

ختم السورة بالذكر كما افتتحها بالذكر.

* * *

(١) أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ٤/ ١٠٩).



بسم الله الرحمن الرحيم

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ

---

١ ـ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن، مبتدأ خبره: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: نزل من عند الله، أو: خبر مبتدأ محذوف، والجارّ صلة التنزيل، أو: غير صلة، بل هو خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا ﴿تنزيل الكتاب﴾ هذا من الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في سلطانه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في تدبيره.

٢ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ هذا ليس بتكرار؛ لأنّ الأوّل كالعنوان للكتاب، والثاني لبيان ما في الكتاب ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا﴾ حال ﴿لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: ممحضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السرّ، فالدين منصوب بـ ﴿مخلصاً﴾.

٣ ـ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي: هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلصَ له الطاعة من كلّ شائبة كَدَرٍ لاطّلاعه على الغيوب والأسرار. وعن قتادة: الدين الخالص: شهادة أن لا إله إلاّ الله. وعن الحسن: الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: آلهة. وهو مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: ﴿والذين﴾

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا
لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ

عبدوا الأصنام يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ مصدر، أي: تقريباً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين المسلمين والمشركين ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ﴿وما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى﴾ والمعنى: إن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يهدي مَن هو في علمه أنّه يختار الكفر، يعني: لا يوفّقه للهدى، ولا يعينه وقت اختياره الكفر، ولكنّه يخذله. وكَذِبُهم: قولهم في بعض من اتّخذوا من دون الله أولياء: بنات الله. ولذا عقّبه محتجّاً عليهم بقوله:

٤ ـ ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: لو جاز اتّخاذ الولد على ما تظنّون، لاختار مما يخلق ما يشاء، لا ما تختارون أنتم، وتشاؤون ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نزّه ذاته عن أن يكون له أحدُ ما نسبوا إليه من الأولياء والأولاد، ودلّ على ذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ يعني: أنّه واحد، متبرّىء عن انضمام الأعداد، متعالٍ عن التجزّؤ والولاد، قهّار غلّاب لكلّ شيء، ومن الأشياء آلهتهم، فأنّى يكون له أولياء وشركاء؟

٥ ـ ثمّ دلّ بخلق السموات والأرض وتكوير كلّ واحد من الْمَلَوَيْنِ[1] على الآخر، وتسخير النيّرين، وجريهما لأجل مسمّى، وبثّ الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة، وخلق الأنعام، على أنّه واحد لا يشارك، قهار لا يغالب بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾. والتكوير: اللّف واللّيّ، يقال: كار العمامة على رأسه، وكوّرها،

(١) «الملوان»: الليل والنهار.

وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ

والمعنى: إنّ كلّ واحد منهما يغيّب الآخر إذا طرأ عليه. فشبّه في تغييبه إيّاه بشيء ظاهر لفّ عليه ما غيّبه عن مطامح الأبصار، أو: أنّ هذا يكرّ على هذا كروراً متتابعاً، فشبّه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عقاب من لم يعتبر بتسخير الشمس والقمر، فلم يؤمن بمسخّرهما ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لمن فكّر واعتبر، فآمن بمدبّرهما.

٦ ـ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي: آدم ـ عليه السلام ـ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حوّاء من قُصَيْراه[1]. قيل: أخرج ذرّيّة آدم من ظهره كالذرّ، ثمّ خلق بعد ذلك حوّاء ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: جعل، عن الحسن. أو: خلقها في الجنّة مع آدم ـ عليه السلام ـ ثمّ أنزلها. أو: لأنّها لا تعيش إلاّ بالنبات، والنبات لا يقوم إلاّ بالماء، وقد أنزل الماء، فكأنّه أنزلها ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ذكراً وأنثى، من: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، كما بيّن في سورة الأنعام. والزوج اسم لواحد معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد، ووتر ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ نطفة، ثمّ علقة، ثمّ مضغة، ثمّ إلى تمام الخَلْق ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمة البطن، والرحم، والمشيمة. أو: ظلمة الصلب، والبطن، والرحم ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذه مفعولاته هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ فكيف يُعْدَلُ بكم عن عبادته إلى عبادة غيره؟ ثمّ بيّن أنّه غنيّ عنهم بقوله:

٧ ـ ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ عن إيمانكم، وأنتم محتاجون إليه

(١) «قصيراه»: مثنى القُصَيْرى، وهي أعلى الأضلاع وأسفلها. وهما قُصَيْران.

وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ

لتضرّركم بالكفر، وانتفاعكم بالإيمان ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ لأنّ الكفر ليس برضا الله تعالى وإن كان بإرادته ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ فتؤمنوا ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرض الشكر لكم؛ لأنّه سبب فوزكم، فيثيبكم عليه الجنّة. ﴿يرضهُ﴾ بضمّ الهاء والإشباع: مكّيّ، وعليّ ﴿يرضه﴾ بضمّ الهاء بدون الإشباع نافع، وهشام، وعاصم غير يحيى وحمّاد. وغيرهم: ﴿يرضهْ﴾ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يؤاخذ أحدٌ بذنب آخر ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ إلى جزاء ربّكم رجوعكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيخبركم بأعمالكم، ويجازيكم عليها ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بخفيّات القلوب.

٨ ـ ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هو: أبو جهل، أو: كلّ كافر ﴿ضُرٌّ﴾ بلاء، وشدّة. والمسّ في الأعراض مجاز ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً إلى الله بالدعاء، لا يدعو غيره ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ أعطاه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ من الله عزّ وجلّ ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي ربّه الذي كان يتضرّع إليه. و﴿ما﴾ بمعنى من، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣]. أو: ﴿نسي﴾ الضرّ الذي ﴿كان يدعو﴾ الله إلى كشفه ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالاً ﴿لِّيُضِلَّ﴾: ﴿لِيَضِلَّ﴾: مكّيّ، وأبو عمرو، ويعقوب ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: الإسلام ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿تَمَتَّعْ﴾ أمر تهديد ﴿بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ من أهلها.

٩ ـ ﴿أَمَّنْ﴾ قرأ بالتخفيف: مكّيّ، ونافع، وحمزة، على إدخال همزة الاستفهام على ﴿من﴾ وبالتشديد غيرهم، على إدخال ﴿أم﴾ عليه. و﴿من﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: أمن ﴿هُوَ قَٰنِتٌ﴾ كغيره، أي: أمن هو مطيع كمن هو عاص، والقانت: المطيع لله، وإنّما حذف لدلالة الكلام عليه، وهو جَرْي ذكر الكافر قبله، وقوله بعده ﴿قل هل يستوي الذي يعملون والذين

ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ
وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ
لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ

لايعلمون﴾ ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ ساعاته ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ حالان من الضمير في ﴿قانت﴾ ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي: عذاب الآخرة ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أي: الجنّة. ودلَّت الآية على أنَّ المؤمن يجبُ أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته لا عمله، ويحذر عقابه لتقصيره في عمله. ثمّ الرجاء إذا جاوز حدّه يكون أمناً، والخوف إذا جاوز حدّه يكون إياساً. وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] فيجب ألاّ يجاوز أحدهما حدّه ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: يعلمون ويعملون، كأنّه جعل مَن لا يعمل غير عالم. وفيه ازدراءٌ عظيمٌ بالذين يقتنون العلوم، ثمّ لا يقنُتون، ويفتنّون فيها ثمّ يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء. أو: أريد به التشبيه، أي: كما لا يستوي العالم والجاهل، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ جمع لبّ، أي: إنّما يتّعظ بوعظ الله أولو العقول.

١٠ ـ ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بلا ياء، عند الأكثر. ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ﴾ أي: أطاعوا الله في الدنيا. و﴿في﴾ يتعلّق بأحسنوا لا بـ﴿حسنة﴾، معناه: الذين أحسنوا في هذه الدنيا، فلهم حسنة في الآخرة، وهي: دخول الجنة، أي: حسنة لا توصف. وقد علّقه السدي بـ﴿حسنة﴾ ففسّر الحسنة بالصحّة، والعافية. ومعنى: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ أي: لا عذر للمفرّطين في الإحسان ألبتّة، حتّى إن اعتلّوا بأنّهم لا يتمكّنون في أوطانهم من التوفّر على الإحسان، قيل لهم: فإنّ أرض الله واسعة، وبلاده كثيرة، فتحوّلوا إلى بلاد أخر، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم، وطاعة إلى طاعتهم ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على مفارقة أوطانهم وعشائرهم وعلى غيرها من تجرّع

أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ
دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾

الغصص، واحتمال البلايا في طاعة الله، وازدياد الخير ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا يهتدي إليه حساب الحساب ولا يعرف. وهو حال من الأجر، أي: موفّراً.

١١ ـ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ بأن أعبد الله ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: أمرت بإخلاص الدين.

١٢ ـ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرت بذلك لأجل أن أكون أول المسلمين. أي: مقدّمهم، وسابقهم في الدنيا والآخرة. والمعنى: أنّ الإخلاص له السّبْقَة في الدين، فمن أخلص كان سابقاً. فالأوّل أمر بالعبادة مع الإخلاص، والثاني بالسبق. فلاختلاف جهتيهما نزّلا منزلة المختلفين، فصحّ عطف أحدهما على الآخر.

١٣ ـ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لمن دعاك بالرجوع إلى دين آبائك، وذلك: أنّ كفّار قريش قالوا له عليه الصلاة والسلام: ألا تنظر إلى أبيك، وجدّك، وسادات قومك يعبدون اللات والعزّى؟! فنزلت ردّاً عليهم.

١٤ ـ ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ فهذه الآية إخبارٌ بأنْه يخصّ الله وحده بعبادته، مخلصاً له دينه دون غيره. والأولى إخبار بأنّه مأمورٌ بالعبادة والإخلاص، فالكلام أوّلاً واقع في نفس الفعل وإثباته، وثانياً فيمن يُفْعَل الفعلُ لأجله؛ ولذلك رتّب عليه قوله:

١٥ ـ ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ وهذا أمرُ تهديدٍ. وقيل له: إن خالفت دين آبائك فقد خسرت، فنزلت: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: الكاملين في الخسران، الجامعين لوجوهه، وأسبابه ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بإهلاكها في النار ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ أي: وخسروا أهليهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لأنّهم أضلّوهم، فصاروا إلى النار. ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ حيث صدّر

لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ
فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾
ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ

الجملة بحرف التنبيه، ووسَّط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرّف الخسران، ونعته بالمبين، وذلك لأنّهم استبدلوا بالجنّة ناراً، وبالدرجات دركات.

١٦ ـ ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباق ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباق من النار هي ﴿ظلل﴾ لآخرين، أي: النار محيطة بهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وصف من العذاب، أو: ﴿ذلك﴾ الظلل ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ليؤمنوا به، ويجتنبوا عن مناهيه ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرّضوا لما يوجب سخطي. خوّفهم بالنار، ثمّ حذّرهم نفسه.

١٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الشياطين. فعلوت، من الطغيان، كالملكوت والرحموت؛ إلاّ أنّ فيها قلباً بتقديم اللام على الغين. أطلقت على الشيطان، أو: الشياطين لكون الطاغوت مصدراً، وفيها مبالغات، وهي التسمية بالمصدر، كأنّ عين الشيطان طغيان، وأنّ البناء بناء مبالغة، فإنّ الرحموت: الرحمة الواسعة، والملكوت: الملك المبسوط، والقلب وهو للاختصاص؛ إذ لا تطلق على غير الشيطان، والمراد بها ـ هاهنا ـ الجمع. وقرىء ﴿الطواغيت﴾ ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدل الاشتمال من ﴿الطاغوت﴾ أي: عبادتها ﴿وَأَنَابُوٓا۟﴾ رجعوا ﴿إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ هي البشارة بالثواب، تتلقّاهم الملائكة عند حضور الموت مبشّرين، وحين يحشرون ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

١٨ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ هم الذين اجتنبوا، وأنابوا. وإنّما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، فوضع الظاهر موضع الضمير. أراد أن يكونوا نقّاداً في الدين، يميّزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل. فإذا اعترضهم أمران: واجب وندب اختاروا الواجب، وكذا المباح والندب ـ حراصاً على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثواباً. أو: يستمعون القرآن وغيره فيتّبعون القرآن، أو: يستمعون أوامر الله فيتّبعون أحسنها، نحو: القصاص، والعفو، ونحو ذلك، أو: يستمعون الحديث مع

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ

القوم فيه محاسن ومساوىء، فيحدّث بأحسن ما سمع، ويكفّ عمّا سواه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: المنتفعون بعقولهم.

/ ١٩ ـ ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أصل الكلام: أمن حقّ عليه كلمة العذاب ـ أي: وجب ـ فأنت تنقذه. جملة شرطيّة دخلت عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثمّ دخلت الفاء التي في أوّلها للعطف على محذوف، تقديره: أأنت مالك أمرهم؟ فمن حقّ عليه العذاب فأنت تنقذه؟ والهمزة الثانية هي الأولى، كرّرت لتوكيد معنى الإنكار. ووضع ﴿من في النار﴾ موضع الضمير، أي: تنقذه. فالآية على هذا جملة واحدة، أو: معناه ﴿أفمن حقّ عليه كلمة العذاب﴾ ينجو منه؟ فأنت تنقذه؟! أي: لا يقدر أحد أن ينقذ من أضلّه الله، وسبق في علمه أنّه من أهل النار.

٢٠ ـ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ أي: لهم منازل في الجنّة رفيعة، وفوقها منازل أرفع منها، يعني: للكفّار ظللٌ من النار، وللمتّقين غرف ﴿مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: من تحت منازلها ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ ﴿وَعۡدَ﴾: مصدر مؤكّد؛ لأنّ قوله ﴿لهم غرف﴾ في معنى: وعدهم الله ذلك.

٢١ ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ يعني: المطر. وقيل: كلّ ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة، ثمّ يقسمه الله ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخله ﴿يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عيوناً، ومسالك، ومجاري كالعروق في الأجساد. و﴿ينابيع﴾ نصب على الحال، أو: على الظرف. و﴿في الأرض﴾ صفة لينابيع ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ﴾ بالماء ﴿زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ هيئاته من: خضرة، وحمرة، وصفرة، وبياض. أو: أصنافه من: برّ، وشعير، وسمسم، وغير ذلك ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يجفّ ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ بعد نضارته، وحسنه ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فتاتاً متكسّراً.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ

فالحطام: ما تفتّت وتكسّر من النبت وغيره ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في إنزال الماء، وإخراج الزرع ﴿لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لتذكيراً، وتنبيهاً على أنّه لا بدّ من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير، لا عن إهمال وتعطيل.

٢٢ ـ ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ أي: وسّع صدره ﴿لِلْإِسْلَامِ﴾ فاهتدى. وسُئِل رسول الله ﷺ عن الشرح، فقال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح». فقيل: هل له علامة؟ قال: «نعم: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»(١) ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ بيان وبصيرة. والمعنى: ﴿أفمن شرح الله صدره﴾ فاهتدى، كمن طبع على قلبه فقسا قلبه؟! فحذف؛ لأنّ قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ يدلّ عليه ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: من ترك ذكر الله، أو: من أجل ذكر الله، أي: إذا ذكر الله عندهم، أو: آياته ازدادت قلوبهم قساوة، كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ غواية ظاهرة.

٢٣ ـ ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ في إيقاع اسم الله مبتدأً، وبناءِ ﴿نزّل﴾ عليه، تفخيمٌ لأحسن الحديث ﴿كِتَابًا﴾ بدل من ﴿أحسن الحديث﴾ أو: حال منه ﴿مُّتَشَابِهًا﴾ يشبه بعضه بعضاً في الصدق، والبيان، والوعظ، والحكمة، والإعجاز، وغير ذلك ﴿مَّثَانِيَ﴾ نعت ﴿كتاباً﴾ جمع مثنّىً، بمعنى: مردّد ومكرّر لما ثنّي من قصصه، وأنبائه، وأحكامه، وأوامره، ونواهيه، ووعده، ووعيده، ومواعظه. فهو بيان لكونه متشابهاً؛ لأنّ القصص المكرّرة وغيرها لا تكون إلّا متشابهة. وقيل: لأنّه يثنّى في التلاوة فلا يملّ. وإنّما جاز وصف الواحد بالجمع؛ لأنّ الكتاب جملة ذات تفاصيل، وتفاصيل الشيء هي: جملته. ألا تراك

(١) رواه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول (١٢٧). وانظره في تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٠ـ١٨١) والدر المنثور (٣ / ٣٥٥) وتنبيه الغافلين للسمرقندي (ص٣٧) تحقيق يوسف بديوي.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

تقول: القرآن أسباع، وسور وآيات؟! فكذلك تقول: أقاصيص، وأحكام، ومواعظ مكرّرات. أو: منصوب على التمييز من ﴿متشابهاً﴾ كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شمائل، والمعنى: متشابهة مثانيه ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب، وتتحرّك ﴿مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾. يقال: اقشعرّ الجلد، إذا تقبض تقبّضاً شديداً، والمعنى: أنهم إذا سمعوا بالقرآن، وبآيات وعيده، أصابهم خشية تقشعرّ منها جلودهم. وفي الحديث: «إذا اقشعرّ جلدُ المؤمن من خشية الله تحاتّت عنه ذنوبه كما يتحاتّ عن الشجرة اليابسة ورقها»[1] ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا ذكرت آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم، وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة. وعدّي بـ«إلى» لتضمّنه معنى فعل متعدّ بـ«إلى»، كأنّه قيل: اطمأنّت إلى ذكر الله ليّنة غير منقبضة. واقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة؛ لأنّ رحمته سبقت غضبه، فلأصالة رحمته إذا ذكر الله لم يخطر بالبال إلاّ كونه رؤوفاً رحيماً. وذكرت الجلود وحدها أوّلاً، ثمّ قرنت بها القلوب ثانياً؛ لأنّ محل الخشية: القلب، فكان ذكرها يتضمّن ذكر القلوب ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكتاب. وهو ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، وهم مَن علم منهم اختيار الاهتداء ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ يخلق الضلالة فيه ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ إلى الحقّ.

٢٤ ـ ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كمن أمن من العذاب؟! فحذف الخبر كما حذف في نظائره. وسوء العذاب: شدّته، ومعناه: أنّ الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه؛ لأنّه أعزّ أعضائه عليه. والذي يُلقى في النار يُلقى مغلولة يداه إلى عنقه، فلا يتهيّأ له أن يتّقي النار إلاّ بوجهه الذي كان يتّقي المخاوف بغيره، وقاية له، ومحاماة عليه

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٣١٠).

وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ
شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: تقول لهم خزنة النار: ﴿ذُوقُوا﴾ وبال ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: كسبكم.

٢٥ ـ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قريش ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم أنّ الشرّ يأتيهم منها. بينا هم آمنون إذ فوجئوا من مأمنهم.

٢٦ ـ ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ الذلّ، والصغار، كالمسخ، والخسف، والقتل، والجلاء، ونحو ذلك من عذاب الله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لآمنوا.

٢٧ ـ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليتّعظوا.

٢٨ ـ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكّدة، كما تقول: جاءني زيد رجلاً صالحاً، وإنساناً عاقلاً. فتذكر رجلاً وإنساناً توكيداً. أو: نصب على المدح ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ مستقيماً، بريئاً من التناقض والاختلاف. ولم يقل: مستقيماً؛ للإشعار بألّا يكون فيه عوج قطّ. وقيل: المراد بالعوج: الشكّ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر.

٢٩ ـ ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾ بدل. ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ متنازعون، ومختلفون ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ ـ مصدر: سلم، والمعنى: ذا سلامة ـ ﴿لِّرَجُلٍ﴾ أي: ذا خلوص له من الشركة. (سالماً): مكّيّ، وأبو عمرو، أي: خالصاً له ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ صفة، وهو تمييز، والمعنى: هل تستوي صفتاهما وحالاهما؟! وإنّما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. وقرىء: ﴿مثلين﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي لا إله إلا هو ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غيره. مثّل الكافر

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾
۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ

ومعبوديه بعبد اشترك فيه شركاء بينهم تنازع واختلاف، كلّ واحد منهم يدّعي أنّه عبده، فهم يتجاذبونه، ويتعاورونه في مهن شتّى وهو متحيّر، لا يدري أيّهم يرضي بخدمته، وعلى أيّهم يعتمد في حاجاته، وممن يطلب رزقه، وممّن يلتمس رفقه، فهمّه شعاع[1]، وقلبه أوزاع[2]، والمؤمن: بعبدٍ له سيّد واحد، فهمّه واحد، وقلبه مجتمع.

٣٠ ـ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي: ستموت ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾. وبالتخفيف: مَنْ حلّ به الموت. قال الخليل: أنشد أبو عمرو:

وتسألني تفسيرَ ميْتٍ وميّت فدونك وقد فسّرتُ إن كنت تعقل
فمن كان ذا روحٍ فذلك ميّتٌ وما المَيْتُ إلا مَن إلى القبر يُحمل

كانوا يتربّصون برسول الله ﷺ موته، فأخبر: أنّ الموت يعمّهم، فلا معنى للتربّص وشماتة الفاني بالفاني. وعن قتادة ـ رحمه الله ـ: نعى إلى نبيّه نفسه، ونعى إليكم أنفسكم. أي: إنّك وإيّاهم في عداد الموتى؛ لأنّ ما هو كائن فكأن قد كان.

٣١ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أي: إنّك وإيّاهم ـ فغلّب ضمير المخاطب على ضمير الغيب ـ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتجّ أنت عليهم بأنّك بلّغت فكذّبوا، واجتهدت في الدعوة فلجّوا في العناد، ويعتذرون بما لا طائل تحته. تقول الأتباع: أطعنا ساداتنا وكبراءنا، ويقول السادات: أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون. قالت الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ: ما خصومتنا ونحن إخوان؟ فلمّا قُتِل عثمان ـ رضي الله عنه ـ قالوا: هذه خصومتنا. وعن أبي العالية: نزلت في أهل القبلة، وذلك في الدماء والمظالم التي بينهم. والوجه هو الأوّل؛ ألاَ ترى إلى قوله:

٣٢ ـ ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ

---

(١) أي: متفرق.
(٢) «الأوزاع»: مشتت أو مفرّق.

وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِي جَآءَ
بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ
جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم
بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ

بِهِ ﴾ [الزمر: ٣٣] وما هو إلاّ بيان وتفسير للذين تكون بينهم الخصومة ﴿كذب على الله﴾: افترى عليه بإضافة الولد، والشريك إليه ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ بالأمر الذي هو الصدق بعينه، وهو: ما جاء به محمد ﷺ ﴿ إِذۡ جَآءَهُۥٓ ﴾ فاجأه بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة لإعمال رويّة، أو: اهتمام بتمييز بين حقّ وباطل، كما يفعل أهل النّصفة فيما يسمعون ﴿ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء الذين كذبوا على الله، وكذّبوا بالصدق. واللام في ﴿للكافرين﴾ إشارة إليهم.

٣٣ ـ ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ هو رسول الله ﷺ، جاء بالحقّ، وآمن به. وأراد به: إياه ومَن تبعه، كما أراد بموسى إيّاه وقومه في قوله: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٩] فلذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾. وقال الزجّاج: روي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: ﴿والذي جاء بالصدق﴾ محمّد رسول الله ﷺ، ﴿و﴾ الذي ﴿صدّق به﴾ أبو بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ. وروي: أنّ الذي جاء بالصدق محمّد رسول الله ﷺ، ﴿صدّق به﴾: المؤمنون. والكلّ صحيح. كذا قالوا. والوجه في العربيّة أن يكون ﴿جاء﴾ و﴿صدّق﴾ لفاعل واحد؛ لأنّ التغاير يستدعي إضمارَ الذي وذا غير جائز، أو: إضمار الفاعل من غير تقدّم الذكر، وذا بعيد.

٣٤، ٣٥ ـ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إضافة أسوأ وأحسن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل، كقولك: الأشجّ أعدل بني مروان.

٣٦ ـ ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية، وتقريرها ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ أي: محمّداً ﷺ ﴿عباده﴾: حمزة، وعليّ، أي: الأنبياء والمؤمنين. وهو مثل: ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥]

وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن
يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ
بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ
حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: بالأوثان التي اتّخذوها آلهة من دونه، وذلك: أنّ قريشاً قالت لرسول الله ﷺ: إنّا نخاف أن تخبُلك آلهتنا، وإنّا نخشى عليك مضرّتها لعيبك إيّاها ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

٣٧ ـ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ بغالب، منيع ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه. وفيه وعيدٌ لقريش، ووعد للمؤمنين بأنّه ينتقم لهم منهم، وينصرهم عليهم. ثمّ أعلم بأنّهم مع عبادتهم الأوثان مقرّون بأنّ الله تعالى خلق السموات والأرض بقوله:

٣٨ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ﴾ ـ بفتح الياء سوى حمزة ـ ﴿بِضُرٍّ﴾ مرض، أو: فقر، أو: غير ذلك ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ دافعات شدّته عنّي ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ صحّة، أو: غِنى، أو: نحوهما ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ ﴿كاشفاتٌ ضرّه﴾ ﴿ممسكاتٌ رحمتَه﴾ بالتنوين على الأصل: بصريّ. وفرض المسألة في نفسه دونهم؛ لأنّهم خوّفوه معرّة الأوثان وتخبيلها، فأمر بأن يقرّرهم أوّلاً بأنّ خالق العالم هو الله وحده، ثمّ يقول لهم بعد التقرير: فإن أرادني خالق العالم الذي أقررتم به بضرّ أو برحمة، هل تقدرون على خلاف ذلك؟ فلمّا أفحمهم قال الله: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ كافياً لمعرّة أوثانهم ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

يروى: أنّ النبي ﷺ سألهم فسكتوا، فنزل: ﴿قل حسبي الله﴾ وإنّما قال: ﴿كاشفات﴾ و﴿ممسكات﴾ على التأنيث بعد قوله: ﴿ويخوّفونك بالذين من دونه﴾ لأنهنّ إناث، وهنّ: اللات، والعزّى، ومناة. وفيه تهكّم بهم، وبمعبوديهم.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ
فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا
فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾

٣٩، ٤٠ ـ ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنتم منها، والمكانة بمعنى المكان، فاستعيرت عن العين للمعنى، كما يستعار هنا وحيث للزمان، وهما للمكان ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي: على مكانتي. وحذف للاختصار، ولما فيه من زيادة الوعيد والإيذان بأنّ حالته تزداد كلّ يوم قوّة؛ لأنّ الله تعالى ناصره ومعينه. ألَا ترى إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ كيف توعّدهم بكونه منصوراً عليهم عالياً عليهم في الدنيا والآخرة؛ لأنّهم إذا أتاهم الخزي والعذاب، فذاك عزّه وغلبته من حيث إنّ الغلبة تتمّ له بعزّ عزيز من أوليائه، وبذلّ ذليل من أعدائه. و﴿يخزيه﴾ صفة للعذاب، كمقيم، أي: عذاب مخزٍ له، وهو يوم بدر، وعذاب دائم، وهو عذاب النار ﴿مكاناتكم﴾: أبو بكر، وحمّاد.

٤١ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم، ولأجل حاجتهم إليه؛ ليبشّروا، وينذروا، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ﴿بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ومن اختار الضلالة فقد ضرّها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ. ثمّ أخبر بأنه الحفيظ القدير عليهم بقوله:

٤٢ ـ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الأنفس: الجُمَل كما هي. وتوفّيها: إماتتها، وهو: أن تسلب ما هي به حيّة حسّاسة درّاكة ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها أي: يتوفاها حين تنام، تشبيهاً للنّائمين بالموتى، حيث لا يميّزون ولا يتصرّفون، كما أنّ الموتى كذلك. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. ﴿فَيُمْسِكُ﴾ الأنفس ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ﴾ ﴿قُضِيَ﴾: حمزة، وعليّ ﴿عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ الحقيقيّ، أي:

﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

لا يردّها في وقتها حيّة ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ النائمة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت ضربه لموتها. وقيل: ﴿يتوفّى الأنفس﴾ أي: يستوفيها، ويقبضها، وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ﴿و﴾ يتوفّى الأنفس ﴿التي لم تمت في منامها﴾ وهي أنفس التمييز. قالوا: فالتي تُتوفّى في المنام هي نفس التمييز لا نفس الحياة؛ لأنّ نفس الحياة إذا زالت زال معها النفَس، والنائم يتنفس. ولكلّ إنسان نفْسان: إحداهما: نفس الحياة، وهي: التي تفارقُ عند الموت، والأخرى: نفس التمييز، وهي: التي تفارقه إذا نام.

ورووا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: في ابن آدم نفس وروح [بينهما شعاع][1] مثل شعاع الشمس، فالنفسُ هي التي بها العقل والتمييز، والروح هي التي بها النَّفَس والتحرّك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه.

وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ قال: تخرج الروح عند النوم، ويبقى شعاعه في الجسد، فبذلك يرى الرؤيا، فإذا نُبِّهَ من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة.

وعنه: ما رأت نفس النائم في السماء فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت بعد الإرسال فيلقيها الشيطان فهي كاذبة.

وعن سعيد بن جبير: إنّ أرواح الأحياء وأرواح الأموات تلتقي في المنام، فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى﴾ إلى أجسادها إلى انقضاء مدّة حياتها.

ورُوي: أنّ أرواح المؤمنين تعرجُ عند النوم في السماء، فمن كان منهم طاهراً أذن له في السجود، ومَن لم يكن منهم طاهراً لم يؤذنْ لهم فيه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إنَّ في توفّي الأنفس مائتة ونائمة، وإمساكها وإرسالها إلى أجل ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ على قدرة الله، وعلمه ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يجيلون فيه أفكارهم، ويعتبرون.

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ

٤٣ ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ بل اتّخذ قريش ـ والهمزة للإنكار ـ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من دون إذنه ﴿شُفَعَآءَ﴾ حين قالوا: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾، ولا يشفع عنده أحد إلاّ بإذنه ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ معناه: ﴿أ﴾ يشفعون ﴿ولو كانوا لا يملكون شيئاً﴾ قطّ، ولا عقل لهم.

٤٤ ـ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مالكها، فلا يستطيع أحد شفاعة إلاّ بإذنه. وانتصب ﴿جميعاً﴾ على الحال ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقرير لقوله: ﴿لله الشفاعة جميعاً﴾ لأنّه إذا كان له الملك كلّه، والشفاعة من الملك، كان مالكاً لها ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ متّصل بما يليه. معناه: ﴿له ملك السموات والأرض﴾ اليوم ﴿ثمّ إليه ترجعون﴾ يوم القيامة. فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلاّ له، فله ملك الدنيا والآخرة.

٤٥ ـ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ مدار المعنى على ﴿وحده﴾ أي: إذا أفرد الله بالذكر، ولم تذكر معه آلهتهم ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ نفرت، وانقبضت ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني: آلهتهم ذكر الله معهم، أو: لم يذكر ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لافتتانهم بها. أو: إذا قيل: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، نفروا؛ لأنّ فيها نفياً لآلهتهم. ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز، إذ كلّ واحد منهما غاية في بابه، فالاستبشار: أن يمتلىء قلبه سروراً حتّى تنبسط له بشرة وجهه، ويتهلّل، والاشمئزاز: أن يمتلىء غمّاً وغيظاً حتّى يظهر الانقباض في أديم وجهه. والعامل في ﴿إذا ذكر﴾ هو العامل في ﴿إذا﴾ المفاجأة. تقديره: وقت ذكر الذين من دونه فاجؤوا وقت الاستبشار.

٤٦ ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يا ﴿فاطر﴾ ـ وليس بوصف كما يقوله المبرّد، والفرّاء ـ ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ السرّ، والعلانية ﴿أَنتَ تَحْكُمُ﴾

بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ

تقضي ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الهدى والضلالة، وقيل: هذه محاكمة من النبيّ للمشركين إلى الله. وعن الربيع ابن المسيّب: لا أعرف آية قرئت فدعي عندها إلاّ أجيب، سواها. وعن الربيع بن خثيم ـ وكان قليل الكلام ـ أنّه أخبر بقتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ وقالوا: الآن يتكلّم، فما زاد على أن قال: آه أو قد فعلوا؟ وقرأ هذه الآية. ورُوي: أنّه قال على أثره: قُتِل مَن كان ﷺ يجلسه في حجره، ويضع فاه على فيه.

٤٧ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ الهاء تعود إلى ما ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ﴾ شدّته ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ وظهر لهم من سخط الله وعذابه مالم يكن قطّ في حسبانهم، ولا يحدّثون به نفوسهم. وقيل: عملوا أعمالاً حسبوها حسنات فإذا هي سيّئات. وعن سفيان الثوري: أنه قرأها فقال: ويلٌ لأهل الرياء، ويلٌ لأهل الرياء. وجزع محمد بن المنكدر ـ رحمه الله ـ عند موته فقيل له، فقال: أخشى آيةً من كتاب الله، وتلاها، فأنا أخشى أن يبدوَ لي من الله مالم أحتسبه.

٤٨ ـ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: سيّئات أعمالهم التي كسبوها، أو: سيّئات كسبهم حين تعرض صحائفهم وكانت خافية عليهم، أو: عقاب ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ ونزل بهم، وأحاط ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ جزاء هزئهم.

٤٩ ـ ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ أعطيناه تفضّلاً ـ يقال: خوّلني: إذا أعطاك على غير جزاء ـ ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ ـ ولا تقف عليه؛ لأنّ جواب ﴿إذا﴾ ـ ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منّي أنّي سأعطاه لما فيّ من فضل، واستحقاق. أو: ﴿على علم﴾ منّي بوجوه الكسب، كما قال قارون: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]. وإنّما ذكّر الضمير في ﴿أوتيته﴾ وهو للنعمة، نظراً إلى المعنى؛ لأنّ

بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ

قوله: ﴿نعمة منّا﴾ شيئاً من النعمة، وقسماً منها. وقيل: ﴿ما﴾ في ﴿إنما﴾ موصولة لا كافّة، فيرجع الضمير إليها، أي: إنّ الذي أوتيته على علم ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ ـ إنكار لقوله، كأنّه قال: ما خوّلناك من النعمة لما تقول ﴿بل هي فتنة﴾ أي: ابتلاء وامتحان لك، أتشكر أم تكفر. ولمّا كان الخبر مؤنّثاً، أعني: ﴿فتنة﴾. ساغ تأنيث المبتدأ لأجله. وقرىء: ﴿بل هو فتنة﴾ على وفق ﴿إنّما أوتيته﴾ ـ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنّها فتنة. والسبب في عطف هذه الآية بالفاء، وعطف مثلها في أوّل السورة بالواو: أنّ هذه وقعت مسبّبة عن قوله: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزّت﴾ على معنى: أنّهم يشمئزّون عن ذكر الله، ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسّ أحدهم ضرّ دعا من اشمأزّ عن ذكره دون من استبشر بذكره. وما بينهما من الآي اعتراض. فإن قلت: حقّ الاعتراض أن يؤكّد المعترض بينه وبينه. قلت: ما في الاعتراض من دعاء الرسول ﷺ ربّه بأمر من الله، وقوله: ﴿أنت تحكم بين عبادك﴾ ثمّ ما عقّبه من الوعيد العظيم، تأكيد لإنكار اشمئزازهم، واستبشارهم، ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم، كأنّه قيل: قل يا ربّ لا يحكم بيني وبين هؤلاء، الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة، إلاّ أنت. وقوله: ﴿ولو أنّ للذين ظلموا﴾ متناول لهم ولكلّ ظالم إن جعل عامّاً، أو: إيّاهم خاصّة إن عنيتهم به، كأنّه قيل: ﴿ولو أنّ﴾ لهؤلاء الظالمين ﴿ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به﴾ حين أُحْكِمَ عليهم بسوء العذاب. وأمّا الآية الأولى فلم تقع مسبّبة، وما هي إلاّ جملة ناسبت جملة قبلها، فعطفت عليها بالواو، نحو: قام زيد، وقعد عمرو. وبيان وقوعها مسبّبة أنّك تقول: زيد مؤمن بالله، فإذا مسّه ضرّ التجأ إليه. فهذا تسبيبٌ ظاهر، ثم تقول: زيد كافر بالله، فإذا مسّه ضر التجأ إليه، فتجيء بالفاء مجيئك به ثمّة، كأنّ الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه مقيم كفره مقام الإيمان في جعله سبباً في الالتجاء.

٥٠ ـ ﴿قَدۡ قَالَهَا﴾ هذه المقالة، وهي قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الزمر: ٤٩] ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: قارون وقومه، حيث قال: ﴿إنّما أوتيته على علم عندي﴾ وقومه راضون بها، فكأنّهم قالوها. ويجوز أن يكون في الأمم الخالية

فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ
هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ
يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ
جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

اخرون قائلون مثلها ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا، وما يجمعون منها.

٥١ ـ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أي: جزاء سيّئات كسبهم، أو سمّى جزاء السيّئة سيّئة للازدواج، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كفروا ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مشركي قومك ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أي: سيصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فقتل صناديدهم ببدر، وحبس عنهم الرزق، فقحطوا سبع سنين ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين من عذاب الله. ثمّ بسط لهم، فمطروا سبع سنين، فقيل لهم:

٥٢ ـ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ويضيّق؟ وقيل: يجعله على قدر القوت ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأنه لا قابض ولا باسط إلاّ الله ـ عز وجل ـ.

٥٣ ـ ﴿۞ قُلْ﴾ يا محمد يقول الله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ﴾ ـ وبسكون الياء: بصريّ، وحمزة، وعليّ ـ ﴿أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي، والغلوّ فيها ﴿لَا تَقْنَطُواْ﴾ لا تيأسوا ـ وبكسر النون: عليّ، وبصريّ ـ ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بالعفو عنها إلاّ الشرك. وفي قراءة النبيّ ﷺ: (يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي). ونظير نفي المبالاة: نفي الخوف في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥]. قيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ. وعن رسول الله ﷺ: «ما أحبّ أنّ لي الدنيا وما فيها بهذه الآية»[1] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ بستر عظائم الذنوب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بكشف فظائع الكروب.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ١٠٠).

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

٥٤ ـ ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وتوبوا إليه ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ وأخلصوا له العمل ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ إن لم تتوبوا قبل نزول العذاب.

٥٥ ـ ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]. وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: يفجؤكم وأنتم غافلون، كأنكم لا تخشون شيئاً لفرط غفلتكم.

٥٦ ـ ﴿أَن تَقُولَ﴾ لئلا تقول. ﴿نَفْسٌ﴾ إنّما نكّرت؛ لأنّ المراد بها بعض الأنفس، وهي: نفس الكافر. ويجوز أن يُراد نفس متميّزة من الأنفس إمّا بلجاج في الكفر شديد، أو: بعذاب عظيم. ويجوز أن يُراد التكثير ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ الألف بدل من ياء المتكلّم. وقرىء ﴿يا حسرتي﴾ على الأصل، و(يا حسرتاي) على الجمع بين العوض والمعوّض منه ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ قصّرت. و﴿ما﴾ مصدريّة مثلها في ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]. ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ في أمر الله، أو: في طاعة الله، أو: في ذاته. وفي حرف عبد الله بن مسعود (في ذكر الله). والجنب: الجانب. يقال: أنا في جنب فلان، وجانبه، وناحيته، وفلان ليّن الجانب والجنب. ثمّ قالوا: فرّط في جنبه، وفي جانبه، يريدون: في حقّه. وهذا من باب الكناية؛ لأنّك إذا أثبتّ الأمر في مكان الرجل، وحيّزه، فقد أثبتّه فيه. ومنه الحديث: «مِن الشرك الخفيّ: أن يصلّي الرجل لمكان الرجل»[1] أي: لأجله. وقال الزجّاج: معناه: فرّط في طريق الله، وهو: توحيده، والإقرار بنبوّة محمّد ﷺ ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ المستهزئين. قال قتادة: لم يكفه أن

(١) رواه أحمد (٤/ ١٨١).

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى
ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى
فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ
كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ

ضيّع طاعة الله حتّى سخر من أهلها. ومحلّ ﴿وإن كنت﴾: النصب على الحال، كأنّه قال: فرّطت وأنا ساخر، أي: فرّطت في حال سخريتي.

٥٧ ـ ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ أي: أعطاني الهداية ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من الذين يتّقون الشرك. قال الشيخ الإمام أبو منصور ـ رحمه الله تعالى ـ: هذا الكافر أعرفُ بهداية الله من المعتزلة. وكذا أولئك الكفرة الذين قالوا لأتباعهم: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ يقولون: لو وفّقنا الله للهداية، وأعطانا الهدى لدعوناكم إليه، ولكن علم منّا اختيار الضلالة والغواية، فخذلنا، ولم يوفّقنا، والمعتزلة يقولون: بل هداهم، وأعطاهم التوفيق لكنّهم لم يهتدوا. والحاصل: أنّ عند الله لطفاً؛ من أُعطي ذلك اهتدى، وهو التوفيقُ والعصمة، ومَن لم يعطه ضلّ وغوى، وكان استحبابه العذاب وتضييعه الحقّ بعد ما مُكِّن من تحصيله، لذلك.

٥٨ ـ ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من الموحِّدين.

٥٩ ـ ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ﴿بلى﴾: ردّ من الله عليه، كأنّه يقول: ﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ وبيّنت لك الهداية من الغواية، وسبيل الحقّ من الباطل، ومكّنتك من اختيار الهداية على الغواية، واختيار الحقّ على الباطل. ولكن تركت ذلك، وضيّعته، واستكبرت عن قبوله، وآثرت الضلالة على الهدى، واشتغلت بضدّ ما أمرت به، فإنّما جاء التضييع من قبلك، فلا عذر لك. و﴿بلى﴾ جواب لنفي تقديريّ؛ لأنّ معنى ﴿لو أنّ الله هداني﴾: ما هُدِيتُ. وإنّما لم يقرن الجواب به؛ لأنه لابُدَّ من حكاية أقوال النفس على ترتيبها، ثمّ الجواب من بينها عمّا اقتضى الجواب.

٦٠ ـ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وصفوه بما لا يجوز عليه من

وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ
بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾

إضافة الشريك والولد إليه، ونفي الصفات عنه ﴿وُجُوهُهُم﴾ مبتدأ ﴿مُّسْوَدَّةٌ﴾ خبر. والجملة في محلّ النصب على الحال إن كان ﴿ترى﴾ من رؤية البصر، وإن كان من رؤية القلب فمفعول ثان ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ منزل ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هو إشارة إلى قوله: ﴿واستكبرت﴾.

٦١ ـ ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ﴾ ﴿وينْجي﴾ رَوْحٌ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ من الشرك ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفلاحهم. يقال: فاز بكذا؛ إذا أفلح به، وظفر بمراده منه وتفسير المفازة: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ النار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ كأنّه قيل: وما مفازتهم؟ فقيل: ﴿لا يمسّهم السوء﴾ أي: ينجّيهم بنفي السوء، والحزن عنهم، أي: لا يمسّ أبدانهم أذى، ولا قلوبهم حزن. أو: بسبب منجاتهم من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨] أي: بمنجاة منه؛ لأنّ النجاة من أعظم الفلاح، وسبب نجاتهم: العمل الصالح. ولهذا فسّر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المفازة بالأعمال الحسنة. ويجوز بسبب فلاحهم؛ لأنّ العمل الصالح سبب الفلاح، وهو دخول الجنّة. ويجوز أن يسمّى العمل الصالح في نفسه مفازة؛ لأنه سببها. ولا محلّ لـ ﴿لا يمسّهم﴾ على التفسير الأوّل؛ لأنّه كلام مستأنف، ومحلّه النصب على الحال على الثاني. ﴿بمفازاتهم﴾ كوفيّ، غير حفص.

٦٢ ـ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ردّ على المعتزلة، والثنويّة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ حافظ.

٦٣ ـ ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو مالك أمرها، وحافظها. وهو من باب الكناية؛ لأنّ حافظ الخزائن، ومدبّر أمرها هو الذي يملك مقاليدها. ومنه قولهم: فلان ألقيتْ إليه مقاليد الملك، وهي: المفاتيح، واحدها: مِقْليد. وقيل: لا واحد لها من لفظها. والكلمة أصلها فارسيّة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ هو متّصل بقوله: ﴿وينجّي الله الذين اتّقوا﴾ أي:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥﴾

ينجّي الله المتّقين بمفازاتهم، والذين كفروا هم الخاسرون. واعتُرِض بينهما بأنّه خالق كلّ شيء وهو مهيمن عليه، فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلّفين فيها، وما يجزون عليها. أو: بما يليه على أنّ كلّ شيء في السموات والأرض فالله خالقه، وفاتح بابه ﴿والذين كفروا﴾ وجحدوا أن يكون الأمر كذلك ﴿أولئك هم الخاسرون﴾. وقيل: سأل عثمان ـ رضي الله عنه ـ رسولَ الله ﷺ عن تفسير قوله: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ فقال: «يا عثمان! ما سألني عنها أحد قبلك، تفسيرها لا إله إلاّ الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله. هو الأوّل والآخر، والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كلّ شيء قدير»[1]. وتأويله على هذا: أنّ لله هذه الكلمات يوحَّد بها، ويمجّد، وهي مفاتيحُ خير السموات والأرض، من تكلّم بها من المتّقين أصابه، و﴿الذين كفروا بآيات الله﴾ وكلمات توحيده وتمجيده ﴿أولئك هم الخاسرون﴾.

٦٤ ـ ﴿قُلْ﴾ لمن دعاك إلى دين آبائك: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ﴾ ﴿تأمرونّيَ﴾: مكّيّ. ﴿تأمرونَني﴾ على الأصل: شاميّ. ﴿تأمرونِيَ﴾: مدنيّ. وانتصب ﴿أفغير﴾ بـ﴿أعبد﴾. و﴿تأمرونّي﴾ اعتراض، ومعناه: أفغير الله أعبد بأمركم بعد هذا البيان ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ بتوحيد الله؟

٦٥ ـ ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. وإنّما قال: ﴿لئن أشركت﴾ على التوحيد، والموحى إليهم جماعة؛ لأنّ معناه: (أُوحي إليك لئن أشركت ليحبطنّ عملك)، وإلى الذين من قبلك مثله. واللام الأولى موطّئة للقسم المحذوف، والثانية لام الجواب. وهذا الجواب سادّ مسدّ الجوابين، أعني: جوابي القسم والشرط. وإنّما صحّ هذا الكلام، مع علمه تعالى بأنّ رسله لا يشركون؛ لأنّ

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (١/٤١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١١٥).

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ

الخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد به غيره، ولأنّه على سبيل الفرض. والمحالات يصحّ فرضها. وقيل: لئن طالعت غيري في السرّ ليحبطنّ ما بيني وبينك من السرّ.

٦٦ ـ ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ ردّ لما أمروه به من عبادة آلهتهم، كأنّه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته، بل إن عبدت فاعبد الله، فحذف الشرط، وجعل تقديم المفعول عوضاً عنه ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على ما أنعم به عليك من أن جعلك سيّد ولد آدم.

٦٧ ـ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ وما عظّموه حقّ عظمته؛ إذ دعوك إلى عبادة غيره. ولمّا كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حقّ معرفته وقدّره في نفسه حقّ تقديره، عظّمه حقّ تعظيمه، قيل: ﴿وما قدروا الله حقّ قدره﴾. ثمّ نبّههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ والمراد بهذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه: تصوير عظمته، والتوقيف على كُنه جلاله لاغير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة، أو: جهة مجاز. والمراد بالأرض: الأرضون السبع، يشهد لذلك قوله: ﴿جميعاً﴾ وقوله: ﴿والسموات﴾ ولأنّ الموضع موضع تعظيم فهو مقتضٍ للمبالغة ﴿والأرض﴾: مبتدأ، و﴿قبضته﴾ الخبر، و﴿جميعاً﴾: منصوب على الحال. أي: والأرض إذا كانت مجتمعة قبضته يوم القيامة. والقبضة: المرّة من القبض. والقُبْضة: المقدار المقبوض بالكفّ، ويقال: أعطني قَبضة من كذا، تريد: معنى القُبْضة تسمية بالمصدر، وكلا المعنيين محتمل. والمعنى: والأرضون ﴿جميعاً قبضته﴾ أي: ذوات قبضته، يقبضهنّ قبضة واحدة، يعني: أنّ الأرضين مع عظمهنّ وبسطتهنّ لا يبلغن إلاّ قبضة واحدة من قبضاته، كأنّه يقبضها قبضة بكفّ واحدة، كما تقول: الجزور أكلة لقمان. أي: لا تفي إلاّ بأكلة فذّة من أكلاته. وإذا أريد معنى القُبْضة فظاهر؛ لأنّ المعنى: أنّ الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكفّ واحدة. والمطويّات من الطيّ الذي هو ضدّ النشر، كما قال:

سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا

﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وعادة طاوي السجلّ أن يطويه بيمينه. وقيل: ﴿قبضته﴾: ملكه بلا مدافع ولا منازع. و﴿بيمينه﴾ بقدرته. وقيل: ﴿مطويّات بيمينه﴾ مُفْنَيَات بقَسَمه؛ لأنّه أقسم أن يفنيها ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ما أبعد مِنْ هذه قُدْرَتُه وعظمته! وما أعلاه عمّا يضاف إليه من الشركاء!

٦٨ ـ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ﴾ مات ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ أي: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت ـ عليهم السلام ـ وقيل: هم حملة العرش، أو: الرضوان، والحور، ومالك، والزبانية ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾ هي في محلّ الرفع؛ لأنّ المعنى: ﴿ونفخ في الصور﴾ نفخة واحدة ﴿ثم نفخ فيه﴾ نفخة ﴿أخرى﴾. وإنّما حذفت لدلالة ﴿أخرى﴾ عليها، ولكونها معلومة بذكرها في غير مكان ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ يقلّبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب، أو: ينظرون أمر الله فيهم. ودلّت الآية على أنّ النفخة اثنتان: الأولى للموت، والثانية للبعث، والجمهور على أنّها ثلاث: الأولى للفزع، كما قال: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل: ٨٧] والثانية للموت، والثالثة للإعادة.

٦٩ ـ ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: بعدله بطريق الاستعارة. يقال للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك. كما يقال: أظلمت البلاد بجور فلان. وقال ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[1]. وإضافة اسمه إلى الأرض؛ لأنّه يزيّنها حيث ينشر فيها عدله، وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحقّ بين أهلها. ولا ترى أزين للبقاع من العدل، ولا أعمر لها منه. وقال الإمام أبو منصور ـ رحمه الله ـ: يجوز أن يخلق الله نوراً فينوّر به أرض الموقف. وإضافته إليه تعالى للتخصيص كـ: بيت الله،

(١) رواه البخاري (٢٤٤٧) ومسلم (٢٥٧٩).

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

وناقة الله ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: صحائف الأعمال، ولكنّه اكتفى باسم الجنس، أو: اللوح المحفوظ ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ليسألهم ربّهم عن تبليغ الرسالة، وما أجابهم قومهم ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: الحفظة. وقيل: هم الأبرارُ في كلّ زمان، يشهدون على أهل ذلك الزمان ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين العباد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ختم الآية بنفي الظلم، كما افتتحها بإثبات العدل.

٧٠ ـ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: جزاءه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من غير كتاب، ولا شاهد. وقيل: هذه الآية تفسير قوله: ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي: ﴿ووفّيت كلّ نفس ما عملت﴾ من خير وشرّ، لا يزاد في شرّ، ولا ينقص من خير.

٧١ ـ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ سوقاً عنيفاً كما يُفعل بالأسارى، والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس، أو: قتل ﴿زُمَرًا﴾ حال، أي: أفواجاً متفرّقة بعضها في أثر بعض ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ﴾ بالتخفيف فيهما: كوفيّ ﴿أَبْوَٰبُهَا﴾ وهي سبعة ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ حفظة جهنّم، وهم: الملائكة الموكّلون بتعذيب أهلها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من بني آدم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أتونا، وتلوا علينا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولكن وجبت علينا كلمة الله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: ١٣] بسوء أعمالنا، كما قالوا: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦] فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب، وهو: الكفر، والضلال.

٧٢ ـ ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة، أي: مقدّرين الخلود ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام فيه للجنس؛ لأنّ مثوى المتكبّرين

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ

فاعل ﴿بئس﴾ وبئس فاعلها اسم معرّف بلام الجنس، أو: مضاف إلى مثله. والمخصوص بالذّم محذوف، تقديره: فبئس مثوى المتكبّرين جهنّم.

٧٣ ـ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾ المراد: سوق مراكبهم؛ لأنه لا يذهب بهم إلاّ راكبين إلى دار الكرامة والرضوان، كما يُفعل بمن يكرم، ويشرّف من الوافدين على بعض الملوك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ هي التي تُحكى بعدها الجمل، والجمل المحكيّة بعدها هي الشرطية، إلاّ أنّ جزاءها محذوف، وإنّما حذف؛ لأنّه في صفة ثواب أهل الجنّة، فدلّ بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف. وقال الزجاج: تقديره: حتّى إذا جاؤوها ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ دخلوها. فحذف دخلوها؛ لأنّ في الكلام دليلاً عليه. وقال قوم: ﴿حتّى إذا جاؤوها﴾ جاؤوها ﴿وفتحت أبوابها﴾ فعندهم جاؤوها محذوف، والمعنى: ﴿حتّى إذا جاؤوها﴾ وقع مجيئهم مع فتح أبوابها. وقيل: أبواب جهنّم لا تُفتح إلاّ عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنّة فمتقدّم فتحها؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠]. فلذلك جيء بالواو، كأنّه قال: ﴿حتى إذا جاؤوها و﴾ وقد ﴿فتحت أبوابها﴾. ﴿طبتم﴾ من دنس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا. وقال الزجّاج: أي: كنتم طيّبين في الدنيا، ولم تكونوا خبيثين، أي: لم تكونوا أصحاب خبائث. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: طاب لكم المقام. وجعل دخول الجنّة مسبباً عن الطيب والطهارة؛ لأنها دار الطيّبين، ومثوى الطاهرين. قد طهّرها الله من كلّ دنس، وطيّبها من كلّ قذر، فلا يدخلها إلاّ مناسب لها، موصوف بصفتها.

٧٤ ـ ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ أنجزنا ما وعدنا في الدنيا من نعيم العقبى ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ أرض الجنّة. وقد أورثوها، أي: ملكوها، وجعلوا ملوكها. وأطلق تصرّفهم فيها كما يشاؤون، تشبيهاً بحال الوارث، وتصرّفه فيما يرثه، واتّساعه فيه ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ ـ حال ـ ﴿مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُ﴾

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٧٤ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٧٥﴾

أي: يكون لكلّ واحد منهم جنّة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوّأ أي: فيتّخذ مقرّاً ومتبوّأً من جنّته حيث يشاء ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ في الدنيا: الجنّة.

٧٥ ـ ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ حال من الملائكة ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي: محدقين من حوله و﴿من﴾ لابتداء الغاية، أي: ابتداء حفوفهم من حول العرش إلى حيث شاء الله ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿حافّين﴾ ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يقولون: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر. أو: سُبّوح قُدّوس، ربّ الملائكة والروح؛ وذلك للتلذّذ دون التعبّد؛ لزوال التكليف ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الأنبياء والأمم، أو: بين أهل الجنّة والنار ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: يقول أهل الجنّة: شكراً حين دخولها، وتمّ وعد الله لهم، كما قال: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]

وكان رسول الله ﷺ يقرأ كلّ ليلة بني إسرائيل والزمر[١].

* * *

(١) رواه أحمد (٦ / ٦٨و١٢٢و١٨٩) والترمذي (٣٤٠٢) والحاكم (٢ / ٤٣٤) وأبو يعلى في مسنده (٤٦٤٣) وانظره في مجمع الزوائد (٢ / ٢٧٢).



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ

الحواميم كلها مكيات؛ عن ابن عباسٍ.

١ ـ ﴿حمٓ﴾ وما بعده بالإمالة: حمزة، وعليّ، وخلف، ويحيى، وحمّاد ـ رحمهم الله ـ وبين الفتح والكسر: مدنيّ، وغيرهم: بالتفخيم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّه اسم الله الأعظم.

٢ ـ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذا تنزيل الكتاب ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: المنيع بسلطانه عن أن يتقوّل عليه متقوّل ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بمن صدّق به، وكذّب فهو تهديد للمشركين، وبشارة للمؤمنين.

٣ ـ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ ساترِ ذنب المذنبين ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ قابل توبة الراجعين ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ على المخالفين ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ ذي الفضل على العارفين، أو: ذي الغِنى عن الكلّ. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ لمن قال: لا إله إلاّ الله ﴿شديد العقاب﴾ لمن لا يقول: لا إله إلاّ الله. والتوب، والثوب، والأوب: أخوات، في معنى الرجوع. والطّوْل: الغِنى،

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

والفضل. فإن قلت: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً والموصوف معرفة؟ قلت: أمّا ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ فمعرفتان؛ لأنّه لم يُرِدْ بهما حدوث الفعلين حتّى يكونا في تقدير الانفصال، فتكون إضافتهما غير حقيقيّة، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه. وأمّا ﴿شديد العقاب﴾ فهو في تقدير: شديد عقابه، فتكون نكرة، فقيل: هو بدل، وقيل: لمّا وجدت هذه النكرة بين هذه المعارف آذنت بأنَّ كلَّها أبدال غير أوصاف. وإدخال الواو في: ﴿وقابل التوب﴾ لنكتة، وهي: إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات، وأن يجعلها محّاءة للذنوب كأن لم يذنب، كأنّه قال: جامع المغفرة، والقبول.

ورُوي: أنّ عمر ـ رضي الله عنه ـ افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فقال عمر لكاتبه: اكتب من عمر إلى فلان، سلام عليك، وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم﴾ إلى قوله: ﴿إليه المصير﴾ وختم الكتاب. وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتّى تجده صاحياً، ثمّ أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة، فلمّا أتته الصحيفة جعل يقرؤها، ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذّرني عقابه. فلم يبرح يردّدها حتّى بكى. ثمّ نزع، فأحسن النزوع، وحسنت توبته. فلمّا بلغ عمر ـ رضي الله عنه ـ أمره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم قد زلّ زلّة فسدّدوه[١]، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه[٢] ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ صفة أيضاً كـ: ﴿ذي الطول﴾ ويجوز أن يكون مستأنفاً ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾: المرجع.

٤ ـ ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ما يخاصم فيها بالتكذيب بها،

(١) زاد في المطبوع والكشاف (٤/ ١٥٠): ووقفوه.
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٧).

فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

والإنكار لها. وقد دلّ على ذلك في قوله: ﴿وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]. وأمّا الجدال فيها لإيضاح ملتبسها، وحلّ مشكلها، واستنباط معانيها، وردّ أهل الزيغ بها، فأعظم جهاد في سبيل الله ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ بالتجارات النافقة، والمكاسب المربحة، سالمين غانمين، فإنّ عاقبة أمرهم إلى العذاب. ثمّ بيّن كيف ذلك، فأعلم أنّ الأمم الذين كذّبت قبلهم أهلكت، فقال:

٥ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحاً ﴿وَٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: الذين تحزّبوا على الرسل، وناصبوهم ـ وهم: عاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم ـ ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾ من هذه الأمم التي هي: قوم نوح، والأحزاب ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكّنوا منه فيقتلوه. والأخيذ: الأسير ﴿وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ بالكفر ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ليبطلوا به الإيمان ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ مُظْهَر[1]: مكّيّ، وحفص. يعني: أنّهم قصدوا أخذه، فجعلت جزاءهم على إرادة أخذ الرسل أن أخذتهم، فعاقبتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وبالياء: يعقوب، أي: وإنّكم تمرّون على بلادهم تعاينون أثر ذلك. وهذا تقريرٌ فيه معنى التَّعجُّب.

٦ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ـ ﴿كلمات ربك﴾: مدنيّ، وشاميّ ـ ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في محلّ الرفع بدل من ﴿كلمة ربّك﴾، أي: مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار. ومعناه: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة. أو: في محلّ النصب بحذف لام التعليل، وإيصال الفعل. والذين كفروا: قريش، ومعناه: كما وجب إهلاك أولئك الأمم، كذلك وجب إهلاك

---

(١) أي: لم تدغم الذال مع التاء كما في قراءة نافع وغيره.

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾

هؤلاء؛ لأنّ علّة واحدة تجمعهم ﴿أنّهم﴾ من ﴿أصحاب النار﴾. ويلزم الوقف على النار؛ لأنه لو وصل لصار:

٧ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ ـ يعني: حاملي العرش، والحافّين حوله، وهم الكروبيّون سادة الملائكة ـ صفة لأصحاب النار، وفساده ظاهر.

رُوي: أنّ حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى، ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوعٌ لا يرفعون طرفهم. وفي الحديث: «إنّ الله تعالى أمَر جميع الملائكة أن يغدوا، ويروحوا بالسلام على حملة العرش، تفضيلاً لهم على سائر الملائكة»[1]. وقيل: حول العرش سبعون ألف صف قيام، يطوفون به مهلّلين، مكبّرين، ومن ورائهم سبعون ألف صفّ من الملائكة قيام، يهلّلون ويكبّرون ومن ورائهم مئة ألف صفّ قد وضعوا الأيمان على الشمائل، ما منهم أحدٌ إلا وهو يُسبِّح بما لا يسبّح به الآخر ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خبر المبتدأ، وهو: ﴿الذين﴾، ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: مع حمده، أو: الباء تدلّ على أنّ تسبيحهم بالحمْدِ لَهُ ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ وفائدته ـ مع علمنا بأنّ حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبّحون بحمده مؤمنون ـ: إظهار شرف الإيمان، وفضله، والتّرغيب فيه، كما وصف الأنبياء في غير موضع بالصَّلاح لذلك، وكما عقّب أعمال الخير بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: ١٧] فأبان بذلك فضل الإيمان. وقد روعي التناسب في قوله: ﴿ويؤمنون به﴾ ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كأنّه قيل: ويؤمنون به ويستغفرون لمن في مثل حالهم. وفيه دليلٌ على أنّ الاشتراك في الإيمان يجبُ أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة والشفقة، وإن تباعدت الأماكن ﴿رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: ﴿ربّنا﴾ وهذا المحذوف حال ﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ فالرحمة والعلم هما اللذان وسعا كلّ شيء في المعنى؛ إذ الأصل: وسع كلّ شيء رحمتك، وعلمك، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن

---

(١) قال الحافظ: لم أجده. (الكشاف ٤ / ١٥٢).

﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾

أسند الفعل إلى صاحب الرحمة، والعلم، وأخرجا منصوبين على التمييز، مبالغة في وصفه بالرحمة، والعلم ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ أي: للذين علمت منهم التوبة لتناسب ذكر الرحمة، والعلم ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ أي: طريق الهدى الذي دعوت إليها ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٨ ـ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ «مَنْ»: في موضع نصب عطف على ﴿هم﴾ في ﴿وأدخلهم﴾ أو: في ﴿وعدتهم﴾ والمعنى: ﴿وعدتهم و﴾ وعدت من صلح من آباءهم ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الملك الذي لا يغلب. وأنت مع ملكك وعزّتك لا تفعل شيئاً خالياً عن الحكمة. وموجب حكمتك: أن تفي بوعدك.

٩ ـ ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: جزاء السيّئات، وهو عذاب النار ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ﴾ أي: دفع العذاب ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

١٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ﴾ يوم القيامة إذا دخلوا النار ومقتوا أنفسهم، فتناديهم خزنة النار: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم. فاستغنى بذكرها مرّة، والمقت: أشدّ البغض. وانتصاب: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ بـ«المقت» الأوّل عند الزمخشريّ، والمعنى: أنّه يقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقت أنفسكم الأمّارة بالسوء والكفر ـ حين كان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يدعونكم إلى الإيمان، فتأبون قبوله، وتختارون عليه الكفر ـ أشدّ ممّا تمقتونهنّ اليوم وأنتم في النار، إذ أوقعنكم فيها باتّباعكم هواهنّ. وقيل: معناه: ﴿لمقت الله﴾ إيّاكم الآن ﴿أكبر﴾ من مقت بعضكم لبعض، كقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]. و﴿إذ تدعون﴾ تعليل. وقال

فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾

«جامع العلوم» وغيره: ﴿إذ﴾ منصوب بفعل مضمر دلّ عليه ﴿لمقت الله﴾، أي: يمقتهم الله حين دُعُوا إلى الإيمان فكفروا. ولا ينتصب بالمقت الأوّل؛ لأنّ قوله: ﴿لمقت الله﴾ مبتدأ، وهو: مصدر، وخبره: ﴿أكبر من مقتكم﴾ فلا يعمل في ﴿إذ تدعون﴾؛ لأنّ المصدر إذا أخبر عنه لم يجز أن يتعلّق به شيء يكون في صلته؛ لأنّ الإخبار عنه يؤذن بتمامه، وما يتعلّق به يؤذن بنقصانه، ولا بالثاني لاختلاف الزمانين، وهذا لأنّهم مقتوا أنفسهم في النار، وقد دُعُوا إلى الإيمان في الدنيا ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ فتصرّون على الكفر.

١١ ـ ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: إماتتين وإحياءتين، أو: موتتين وحياتين. وأراد بالإماتتين: خلقهم أمواتاً أوّلاً، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم. وصحّ أن يُسمَّى خلقهم أمواتاً إماتة، كما صحّ أن يقال: سبحان من صغّر جسم البعوضة، وكبّر جسم الفيل. وليس ثمّة نقل من كبر إلى صغر، ولا من صغر إلى كبر. والسبب فيه أنّ الصغر والكبر جائزان على المصنوع الواحد، فإذا اختار الصانعُ أحدَ الجائزين، فقد صرف المصنوع من الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كنقله منه. وبالإحياءتين: الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. ويدلُّ عليه قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وقيل: الموتة الأولى في الدنيا، والثانية في قبره بعد الإحياء للسؤال. والإحياء الأوّل: إحياؤه في قبره بعد موتها للسؤال، والثاني: للبعث ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ لمّا رأوا الإماتة والإحياء قد تكرّرا عليهم، علموا أنّ الله قادر على الإعادة، كما هو قادر على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث، وما تبعه من معاصيهم ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ من النار ـ أي: إلى نوع من الخروج سريع، أو: بطيء لنتخلّص ـ ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ قط، أَم اليأس واقع دون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه؟ وهذا كلامُ مَن غلب عليه اليأس، وإنّما يقولون ذلك تحيّراً، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك، وهو قوله:

ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ

١٢ ـ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ أي: ذلكم الذي أنتم فيه، وأن لا سبيلَ لكم إلى خروج قطّ بسبب كفركم بتوحيد الله، وإيمانكم بالإشراك به ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد ـ ﴿ٱلۡعَلِيِّ﴾ شأنه، فلا يردّ قضاؤه، ﴿ٱلۡكَبِيرِ﴾ العظيم سلطانه، فلا يحدّ جزاؤه. وقيل: كأنّ الحرورية[1] أخذوا قولهم: «لا حكم إلاّ الله» من هذا. وقال قتادة: لما خرج أهلُ حروراء قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: مَن هؤلاء؟ قيل: المحكّمون. أي: يقولون: لا حكم إلاّ لله. فقال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: كلمة حقّ أريد بها باطل.

١٣ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ من الريح، والسحاب، والرعد، والبرق، والصواعق، ونحوها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وبالتخفيف: مكيّ، وبصريّ ﴿رِزۡقٗا﴾ مطراً؛ لأنّه سبب الرزق ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ وما يتعظ، وما يعتبر بآيات الله إلاّ من يتوب من الشرك، ويرجع إلى الله، فالمعاند لا يتذكّر ولا يتّعظ. ثمّ قال للمنيبين:

١٤ ـ ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ فاعبدوه ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وإن عاب ذلك أعداءكم؛ ممن ليس على دينكم.

١٥ ـ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾ ثلاثة أخبار؛ لقوله: ﴿هو﴾ مرتّبة على قوله ﴿الذي يريكم﴾. أو: أخبار مبتدأ محذوف. ومعنى ﴿رفيع الدرجات﴾: رافع السموات بعضها فوق بعض، أو: رافع درجات عباده في الدنيا بالمنزلة، أو: رافع منازلهم في الجنّة. و﴿ذو العرش﴾ مالك عرشه الذي فوق السموات. خلقه مطافاً للملائكة إظهاراً لعظمته مع استغنائه في مملكته.

(١) «الحرورية»: طائفة من الخوارج تُنسب إلى «حرور» اسم قرية.

مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ

و﴿الروح﴾ جبريل ـ عليه السلام ـ أو: الوحي الذي تحيا به القلوب ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ من أجل ﴿أمره﴾ أو: بأمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ﴾ أي: الله، أو الملقى عليه وهو النبيّ عليه الصلاة والسلام، ويدلّ عليه قراءة يعقوب ﴿لتنذر﴾ ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يوم القيامة؛ لأنّه يلتقي فيه أهلُ السماء وأهل الأرض، والأوّلون والآخرون ﴿التلاقي﴾: مكيّ، ويعقوب.

١٦ ـ ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ ظاهرون، لا يسترهم شيء من جبل، أو: أكمة، أو: بناء ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ أي: من أعمالهم، وأحوالهم ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: يقول الله تعالى ذلك حين لا أحد يجيبه، ثمّ يجيب نفسه بقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: الذي قهر الخلق بالموت. وينتصب ﴿اليوم﴾ بمدلول ﴿لمن﴾ أي: ﴿لمن﴾ ثبت ﴿الملك﴾ في هذا اليوم. وقيل: ينادي مناد، فيقول: ﴿لمن الملك اليوم﴾؟ فيجيبه أهلُ المحشر: ﴿لله الواحد القهّار﴾.

١٧ ـ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لمّا قرّر: أنّ الملك لله وحده في ذلك اليوم عدّد نتائج ذلك، وهي: أنّ كل نفس تُجزى ﴿بما كسبت﴾ عملت في الدنيا من خير وشرّ، وأنّ الظلم مأمون منه؛ لأنّه ليس بظلّام للعبيد، وأنّ الحساب لا يبطىء؛ لأنّه لا يشغله حسابٌ عن حساب، فيحاسب الخلقَ كلَّه في وقتٍ واحد، وهو أسرعُ الحاسبين.

١٨ ـ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ القيامة، سمّيت بها لأزوفها، أي: لقربها. ويبدل من يوم **الأزفة**: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ أي: التراقي، يعني: ترتفع قلوبُهم عن مقارّها، فتلصق بحناجرهم، فلا هي تخرج فيموتوا، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفّسوا، ويتروّحوا ﴿كَٰظِمِينَ﴾ ممسكين بحناجرهم. من كظم القربة: شدّ رأسها. وهو مُحالٌ من القلوب محمولٌ على أصحابها. وإنّما جمع الكاظم جمع السلامة؛ لأنّه وصفها بالكظم؛ الذي هو من أفعال العقلاء. ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾

﴿مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

للكافرين ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ محبّ مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: يشفّع. وهو مجازٌ؛ لأنّ الطاعة حقيقة لا تكون إلاّ لمن فوقك. والمراد: نفي الشفاعة والطاعة، كما في قوله:

... ... ولا تَـرَى الضـبَّ بهـا يَنْجَحِـرْ(١)

يريد نفي الضبّ وانجحاره، وإن احتمل اللفظ انتفاء الطاعة دون الشفاعة. فعن الحسن: والله ما يكون لهم شفيع البتّة.

١٩ ـ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ مصدر بمعنى الخيانة، كالعافية بمعنى المعافاة. والمراد: استراق النظر إلى ما لا يحلّ ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ وما تسرّه من أمانة، أو خيانة. وقيل: هو أن ينظر إلى أجنبيّة بشهوة مسارقة، ثمّ يتفكر بقلبه في جمالها، ولا يعلم بنظرته وفكرته مَن بحضرته، والله يعلمُ ذلك كلّه. و﴿يعلم خائنة الأعين﴾: خبر من أخبار ﴿هو﴾ في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [غافر: ١٣] مثل ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ [غافر: ١٥] ولكن ﴿يلقي الروح﴾ قد علّل بقوله: ﴿لينذر يوم التلاق﴾. ثمّ استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: ﴿ولا شفيع يطاع﴾ فبعد لذلك عن أخواته.

٢٠ ـ ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: والذي هذه صفاته لا يحكم إلاّ بالعدل ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ وآلهتهم لا يقضون بشيء. وهذا تهكّم بهم؛ لأنّ ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضي، أو: لا يقضي. ﴿تدعون﴾: نافع ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير لقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] ووعيدٌ لهم بأنّه يسمع ما يقولون، ويُبصر ما يعملون، وأنّه يعاقبهم عليه، وتعريضٌ بما يدعون من دونه، وأنّها لا تسمع، ولا تبصر.

---

(١) عجز بيت لابن أحمر، وصدره: لا تفزع الأرنب أهوالها.

۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ
أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن
وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ
قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ
عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ
ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾

٢١ ـ ﴿ ۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي: آخر أمر الذين كذّبوا الرسل من قبلهم ﴿ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ﴿هم﴾: فصل، وحقّه أن يقعَ بين معرفتين، إلاّ أنّ ﴿أشدّ منهم﴾ ضارع المعرفة في أنه لا تدخله الألف واللام، فأجري مجراه. (منكم): شاميّ ﴿ وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: حصوناً، وقصوراً ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ عاقبهم بسبب ذنوبهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ ولم يكن لهم شيء يقيهم من عذاب الله.

٢٢ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي: الأخذ بسبب أنهم ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ ﴾ قادر على كل شيء ﴿ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ إذا عاقب.

٢٣، ٢٤ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ التسع ﴿ وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ وحجّة ظاهرة ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ ﴾: هو ﴿ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ فسمّوا السلطان المبين: سحراً، وكذباً.

٢٥ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ بالنبوّة ﴿ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ أي: أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أوّلاً ﴿ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾ للخدمة ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾: ضياع. يعني: أنّهم باشروا قتلهم أوّلاً فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يغني هذا القتل الثاني.

وكان فرعون قد كفّ عن قتل الولدان، فلمّا بعث موسى ـ عليه السلام ـ وأحسَّ بأنّه قد وقع، أعاده عليهم غيظاً، وظنّاً منه أنّه يصدّهم بذلك عن مظاهرة موسى ـ عليه السلام ـ وما علم أنّ كيده ضائع في الكرّتين جميعاً.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ٢٦ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ٢٧﴾

٢٦ ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لملئه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾. كان إذا همّ بقتله كفّوه بقولهم: ليس بالذي تخافه، وهو أقلّ من ذلك، وما هو إلاّ ساحر، وإذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس، واعتقدوا أنّك عجزتَ عن معارضته بالحجّة. والظاهر أنّ فرعون قد استيقن أنه نبيّ، وأنّ ما جاء به آياتٌ وما هو بسحر، ولكن كان فيه خبّ، وكان قتّالاً، سفّاكاً للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل مَن أحسّ بأنّه هو الذي يهدمُ ملكه؟ ولكنّه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك. وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ شاهد على فرط خوفه منه، ومن دعوته ربّه. وكان قوله: ﴿ذروني أقتل موسى﴾ تمويهاً على قومه، وإيهاماً أنّهم هم الذين يكفّونه، وما كان يكفّه إلاّ ما في نفسه من هول الفزع ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغيّر ما أنتم عليه. وكانوا يعبدونه، ويعبدون الأصنام ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ﴾ موسى ﴿فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ بضمّ الياء، ونصب الدال: مدنيّ، وبصريّ، وحفص، وغيرهم: بفتح الياء، ورفع الدال، والأوّل أولى لموافقة ﴿يُبدِّل﴾، والفساد في الأرض: التقاتل، والتّهارج الذي يذهب معه الأمن، وتتعطّل المزارع والمكاسب والمعايش، ويهلك الناس قتلاً وضياعاً. كأنّه قال: ﴿إنّي أخاف﴾ أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، أو: يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه. وقرأ غير أهل الكوفة: ﴿وأن﴾. ومعناه: ﴿إنّي أخاف﴾ فساد دينكم ودنياكم معاً.

٢٧ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لمّا سمع بما أجراه فرعون من حديث قتله لقومه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾. وفي قوله: ﴿ربّكم﴾ بعث لهم على أن يقتدوا به، فيعوذوا بالله عياذه، ويعتصموا بالتوكّل عليه اعتصامه. وقال: ﴿من كلّ متكبّر﴾ لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض، فيكون أبلغ. وأراد بالتكبّر: الاستكبار عن الإذعان للحقّ. وهو أقبحُ استكبار، وأدلُّه على دناءة صاحبه، وعلى فرط

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

ظلمه. وقال: ﴿لا يؤمن بيوم الحساب﴾ لأنّه إذا اجتمع في الرجل التجبُّر، والتكذيب بالجزاء، وقلّة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده، ولم يترك عظيمة إلاّ ارتكبها. وعذت، ولذت: أخوان. و(عتّ) بالإدغام: أبو عمرو، وحمزة، وعليّ.

٢٨ ـ ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾ قيل: كان قبطيّاً، ابن عمّ لفرعون، آمن بموسى سرّاً. و﴿من آل فرعون﴾: صفة لرجل. وقيل: كان إسرائيليّاً. و﴿من آل فرعون﴾ صلة ليكتم، أي: يكتم إيمانه من آل فرعون. واسمه: سمعان، أو: حبيب، أو: خربيل، أو: حزبيل. والظاهر الأوّل ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ ﴾ لـ: ﴿أن يقول﴾. وهذا إنكارٌ منه عظيم، كأنّه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرّمة، وما لكم علّة في ارتكابها إلاّ كلمة الحقّ؟ وهي قوله: ﴿ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ وهو ربُّكم أيضاً لا ربّه وحده ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم ﴾ الجملة حال ﴿ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني: أنّه لم يُظْهِر لتصحيح قوله ببيّنة واحدة، ولكن ببيّنات من عند من نُسِبَتْ إليه الربوبيّة. وهو استدراجٌ لهم إلى الاعتراف به ﴿ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ احتجّ عليهم بطريق التقسيم، فإنّه لا يخلو من أن يكون كاذباً، أو: صادقاً. فإن: ﴿يك كاذباً فعليه﴾ وبال ﴿كذبه﴾ ولا يتخطّاه ﴿وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾ من العذاب. ولم يقل: كلّ الذي يعدكم ـ مع أنّه وعد من نبيّ صادق القول ـ مداراة لهم، وسلوكاً لطريق الإنصاف. فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم له. وليس فيه نفي إصابة الكلّ، فكأنّه قال لهم: أقلّ ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض ما يعدكم، وهو العذاب العاجل، وفي ذلك هلاككم. وكان وعدهم عذاب الدنيا والآخرة. وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل أيضاً. وتفسير البعض بالكلّ مزيف ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ مجاوز للحدّ ﴿ كَذَّابٌ ﴾ في ادّعائه. وهذا أيضاً من باب المجاملة،

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ﴾

والمعنى: أنّه إن كان مسرفاً كذّاباً خذله الله، وأهلكه، فتتخلّصون منه. أو: لو كان مسرفاً كذّاباً لما هداه الله بالنبوّة، ولما عضده بالبيّنات. وقيل: أوهم أنّه عنى بالمسرف موسى، وهو يعني به: فرعون.

٢٩ ـ ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾: عالين ـ وهو حال من ﴿كم﴾ في ﴿لكم﴾ ـ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أرض مصر ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾؟ يعني: أنّ لكم ملك مصر، وقد علوتم الناس، وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولا تتعرّضوا لبأس الله، أي: عذابه، فإنّه لا طاقة لكم به إن جاءكم، ولا يمنعكم منه أحد. وقال: ﴿ينصرنا﴾ و﴿جاءنا﴾ لأنّه منهم في القرابة، وليعلمهم بأنّ الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أشير عليكم برأي إلاّ بما أرى من قتله، يعني: لا أستصوب إلاّ قتله، وهذا الذي تقولونه غير صواب ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ طريق الصواب والصلاح. أو: ما أعلمكم إلاّ ما أعلم من الصواب، ولا أدّخر منه شيئاً، ولا أسرّ عنكم خلاف ما أظهر، يعني: أنّ لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول، وقد كذب فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى ـ عليه السلام ـ ولكنّه كان يتجلّد. ولولا استشعاره لم يستشر أحداً، ولم يَقِفِ الأمرَ على الإشارة.

٣٠ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: مثل أيّامهم؛ لأنّه لمّا أضافه إلى الأحزاب، وفسّرهم بقوله:

٣١ ـ ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ولم يُلْبَسْ أنّ كلّ حزب منهم كان لهم يوم دمار، اقتصر على الواحد من الجمع. ودأب هؤلاء: دؤوبهم في عملهم من: الكفر، والتكذيب، وسائر المعاصي، وكون ذلك دائباً منهم لا يفترون عنه. فلا بدّ من حذف مضاف، أي: ﴿مثل﴾ جزاء دأبهم. وانتصاب

وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ

﴿مثل﴾ الثاني بأنّه عطف بيان لمثل الأوّل ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: وما يريد الله أن يظلم عباده فيعذّبهم بغير ذنب، أو: يزيد على قدر ما يستحقّون من العذاب، يعني: أن تدميرَهم كان عدلاً؛ لأنهّم استحقّوه بأعمالهم، وهو أبلغُ من قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] حيث جعل المنفي إرادة ظلم منكّر، وَمَنْ بعد عن إرادة ظلم مّا لعباده كان عن الظلم أبعد وأبعد. وتفسير المعتزلة بأنّه لا يريدُ لهم أن يظلموا، بعيد؛ لأنّ أهل اللغة قالوا: إذا قال الرجل لآخر: لا أريد ظلماً لك، معناه: لا أريد أن أظلمك. وهذا تخويفٌ بعذاب الدنيا. ثمّ خوّفهم من عذاب الآخرة بقوله:

٣٢ ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾[1] ـ أي: يوم القيامة. ﴿التَّنَادِ﴾: مكّيّ، ويعقوب، في الحالين. وإثبات الياء هو الأصل، وحذفها حسن؛ لأنّ الكسرة تدلّ على الياء، وأواخر هذه الآي على الدال. وهو ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف: ٤٨] وقيل: ينادى: ألا إنّ فلاناً سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، ألا إنّ فلاناً شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.

٣٣ ـ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عذاب الله ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ مانع، ودافع ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ مرشد.

٣٤ ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ هو يوسف بن يعقوب ـ عليهما السلام ـ. وقيل: يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب. أقام فيهم نبيّاً عشرين سنة. وقيل: إنّ فرعون موسى هو فرعون يوسف، عمّر إلى زمنه.

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿التنادي﴾ وهي قراءة: ورش، وابن وردان، وعبد الوارث، وقالون. معجم القراءات القرآنية (٦/ ٤٤).

فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾

وقيل: هو فرعون آخر. وبّخهم بأنّ يوسف أتاكم من قبل موسى بالمعجزات ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ فشككتم فيها، ولم تزالوا شاكّين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ حكماً من عند أنفسكم من غير برهان، أي: أقمتم على كفركم، وظننتم أنّه لا يجدّد عليكم إيجاب الحجة ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: مثل هذا الإضلال يضلّ الله كلّ مسرف في عصيانه، مرتاب، شاكّ في دينه.

٣٥ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ ـ بدل من ﴿من هو مسرف﴾ وجاز إبداله منه، وهو جمع؛ لأنّه لا يريد مسرفاً واحداً، بل كلّ مسرف ـ ﴿فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في دفعها، وإبطالها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ حجّة ﴿أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا﴾ أي: عظم بغضاً. وفاعل ﴿كبر﴾ ضمير ﴿من هو مسرف﴾ وهو جمع معنى، وموحّد لفظاً. فحمل البدل على معناه. والضمير الراجع إليه على لفظه، ويجوز أن يرفع ﴿الذين﴾ على الابتداء، ولابد في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في ﴿كبر﴾ تقديره: جدال ﴿الذين يجادلون كبر مقتاً﴾ ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ﴿قلبٍ﴾ بالتنوين: أبو عمرو. وإنّما وصف القلب بالتكبّر والتجبّر لأنّه منبعهما، كما تقول: سَمِعَتِ الأذنُ، وهو كقوله: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] وإن كان الآثم هو الجملة.

٣٦ ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ تمويهاً على قومه، أو: جهلاً منه: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ قصراً ـ وقيل: الصرح: البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، ومنه يقال: صَرِح الشيء: إذا ظهر ـ ﴿لَّعَلِّىٓ﴾ ـ وبفتح الياء: حجازيّ، وشاميّ، وأبو عمرو ـ ﴿أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾، ثمّ أبدل منها تفخيماً لشأنها، وإبانةِ أنّه يقصد أمراً عظيماً:

أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ

٣٧ ـ ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: طرقها، وأبوابها، وما يؤدّي إليها ـ وكل ما أدّاك إلى شيء فهو سبب إليه كالرشاء ونحوه ـ ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالنصب حفص، على جواب الترجّي، تشبيهاً للترجّي بالتمنّي. وغيره بالرفع عطفاً على ﴿أبلغ﴾ ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ والمعنى: فأنظر إليه ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ أي: موسى ﴿كَٰذِبًا﴾ في قوله: له إله غيري ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك التزيين، وذلك الصدّ ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المستقيمة. وبفتح الصاد: غير كوفيّ ويعقوب، أي: غيره صداً، أو: هو بنفسه صدوداً. والمزيّن: الشيطان بوسوسته، كقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤]. أو الله تعالى، ومثله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾[النمل: ٤] ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ خسران، وهلاك.

٣٨ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ ﴿اتبعوني﴾ في الحالين: مكّيّ، ويعقوب، وسهل ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ هو نقيض الغيّ. وفيه تعريضٌ شبيه بالتصريح: أنّ ما عليه فرعون وقومه سبيل الغيّ. أجمل أوّلاً، ثمّ فسّر، فافتتح بذمّ الدنيا، وتصغير شأنها بقوله:

٣٩ ـ ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ تمتّع يسير. فالإخلادُ إليها أصلُ الشرّ، ومنبع الفتن. وثنّى بتعظيم الآخرة، وبيّن أنّها هي الوطن والمستقرّ بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾.

ثمّ ذكر الأعمال سيّئها وحسنها، وعاقبة كلّ منهما ليثبّط عمّا يتلف، وينشّط لما يُزلف، بقوله:

٤٠ ـ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ـ ﴿يُدخلون﴾: مكّيّ، وبصريّ، ويزيد، وأبو بكر.

٤١، ٤٢ ـ ثمّ وازن بين الدعوتين دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتّخاذ الأنداد؛ الذي عاقبته النار، بقوله: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ﴾ ـ وبفتح الياء: حجازيّ، وأبو عمرو ـ ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ أي: الجنّة ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ ـ هو بدل من ﴿تدعونني﴾ الأول. يقال: دعاه إلى كذا، ودعاه له، كما يقال: هداه إلى الطريق، وهداه له ـ ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: بربوبيّته. والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم، كأنّه قال: ﴿وأشرك به ما ليس﴾ بإله، وما ليس بإله كيف يصحّ أن يعلم إلهاً؟ ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ وهو الله سُبحانه وتعالى. وتكرير النداء لزيادة التنبيه لهم، والإيقاظ عن سنة الغفلة، وفيه أنّهم قومه، وأنه من آل فرعون. وجيء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؛ لأنّ الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل، وتفسير له بخلاف الثالث.

٤٣ ـ ﴿لَا جَرَمَ﴾ عند البصريين ﴿لا﴾ ردّ لما دعاه إليه قومه، و﴿جرم﴾ فعل بمعنى حقّ، و﴿أنّ﴾ مع ما في حيزه فاعله، أي: حقّ، ووجب بطلان دعوته ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ معناه: ﴿أنّ ما تدعونني إليه ليس له دعوة﴾ إلى نفسه قطّ، أي: من حقّ المعبود بالحقّ أن يدعو العباد إلى طاعته. وما تدعون إليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك، ولا يدّعي الربوبيّة. أو: معناه ليس له استجابة دعوة ﴿في الدنيا ولا في الآخرة﴾ أو: ﴿دعوة﴾ مستجابة. جعلت الدعوة التي لا استجابة لها، ولا منفعة كلا دعوة. أو: سميّت الاستجابة باسم الدعوة، كما سمّي الفعل المجازى عليه باسم

وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ

بالجزاء، في قولهم: «كما تدين تدان»[١] ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأنّ رجوعنا إليه ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المشركين ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

٤٤ ـ ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: من النصيحة عند نزول العذاب ﴿وَأُفَوِّضُ﴾ وأسلّم ﴿أَمْرِىٓ﴾ ـ وبفتح الياء: مدنيّ، وأبو عمرو ـ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأنّهم توعّدوه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ بأعمالهم، ومآلهم.

٤٥ ـ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ شدائد مكرهم، وما همّوا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم. وقيل: إنّه خرج من عندهم هارباً إلى جبل، فبعث قريباً من ألف في طلبه، فمنهم مَن أكلته السباع، ومَن رجع منهم صَلَبه فرعون ﴿وَحَاقَ﴾ ونزل ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

٤٦ ـ ﴿ٱلنَّارُ﴾ بدل من ﴿سوء العذاب﴾ أو: خبر مبتدأ محذوف، كأنّه قيل: ما سوء العذاب؟ فقيل: هو النار. أو: مبتدأ، خبره: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وعرضهم عليها: إحراقهم بها ـ يقال: عرض الإمامُ الأسارى على السيف؛ إذا قتلهم به ـ ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي: في هذين الوقتين يعذّبون بالنار. وفيما بين ذلك إمّا أن يعذبوا بجنس آخر، أو: ينفّس عنهم. ويجوز أن يكون ﴿غدوّاً وعشيّاً﴾ عبارة عن الدوام. هذا في الدنيا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقال لخزنة جهنّم: ﴿أَدْخِلُوٓا۟﴾ من: الإدخال. مدنيّ، وحمزةُ، وعليٌّ، وحفصٌ، وخلفٌ، ويعقوب. وغيرهم: ﴿ادخُلوا﴾ أي: يُقال لهم: ﴿ادخلوا﴾ يا ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: عذاب جهنّم. وهذه الآيةُ دليلٌ على عذاب القبر.

٤٧ ـ ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ﴾ ﴿و﴾ اذكر وقت تخاصمهم ﴿فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ

(١) انظره في: الأمثال النبوية (٢/ ٥٣) ومجمع الأمثال (٢/ ١٥٥ و١٦٢).

ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا
نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ
بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا
مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟
فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾

﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ يعني: الرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تباعاً، كخدم في جمع خادم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾ جزءاً ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

٤٨ ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾. التنوين عوض من المضاف إليه، أي: ﴿إنّا﴾ كلّنا ﴿فيها﴾ لا يغني أحدٌ عن أحد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ قضى بينهم بأن أدخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النار النار.

٤٩ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ للقوّام بتعذيب أهلها. وإنّما لم يقل لخزنتها؛ لأنّ في ذكر ﴿جهنّم﴾ تهويلاً وتفظيعاً. ويحتمل أنّ جهنّم هي أبعدُ النار قعراً؛ من قولهم: بئر جهنّام؛ بعيدة القعر، وفيها أعتى الكفّار، وأطغاهم، فلعلّ الملائكة الموكّلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله؛ فلهذا تعمّدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم ـ ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قَدْرَ يومٍ من الدنيا ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

٥٠ ـ ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: الخزنة توبيخاً لهم بعد مدّة طويلة: ﴿أَوَلَمْ تَكُ﴾ أي: أولم تكن القصّة. وقوله: ﴿تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ تفسير للقصّة ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الكفّار: ﴿بَلَىٰ قَالُوا۟﴾ أي: الخزنة تهكّماً بهم: ﴿فَٱدْعُوا۟﴾ أنتم، فلا استجابة لدعائكم ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ بطلان. وهو من قول الله تعالى عزَّ وجلَّ. ويحتمل أن يكونَ من كلام الخزنة.

٥١ ـ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، يعني: أنّه يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجّة والظفر على

يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ

مخالفيهم، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحاناً من الله، فالعاقبة لهم، ويتيح الله من يقتصّ مِن أعدائهم ولو بعد حين. ﴿يوم﴾ نصب محمول على موضع الجارّ والمجرور، كما تقول: جئتك في أمس واليوم. و﴿الأشهاد﴾ جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، يريد: الأنبياء والحفظة، فالأنبياء يشهدون عند ربّ العزة على الكفرة بالتكذيب، والحفظة يشهدون على بني آدم بما عملوا من الأعمال. ﴿تقوم﴾: الرازيّ، عن هشام.

٥٢ ـ ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ هذا بدل من ﴿يوم يقوم﴾، أي: لا يقبل عذرهم ﴿لا ينفع﴾: كوفيّ، ونافع ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ البعد من رحمة الله ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: ﴿سوء﴾ دار الآخرة، وهو: عذابها.

٥٣ ـ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ يريد به: جميع ما أتاه في باب الدين من: المعجزات، والتوراة، والشرائع ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، والإنجيل، والزبور، لأنّ الكتاب جنس.

٥٤ ـ ﴿هُدٗى وَذِكۡرَىٰ﴾ إشهاداً وتذكرة. وانتصابهما على المفعول له، أو: على الحال ﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لذوي العقول.

٥٥ ـ ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ على ما يجرّعك قومك من الغصص ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ يعني: أنَّ ما سبق به وعدي من نصرتك، وإعلاء كلمتك ﴿حق﴾ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ أي: لذنب أمّتك ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ أي: دُمْ على عبادة ربّك، والثناء عليه. وقيل: هما صلاتا العصر والفجر. وقيل: قل: سبحان الله، وبحمده.

٥٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ لا وقف

إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا

عليه؛ لأنّ خبر إنّ ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ تعظّم، وهو إرادةُ التقدّم؛ والرياسة، وألا يكون أحدٌ [فوقهم][1] فلذلك عادوك، ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدّمهم، ويكونوا تحت يدك، وأمرك، ونهيك؛ لأنّ النبوّة تحتها كلّ ملك ورياسة. أو: إرادة أن تكون لهم النبوّة دونك حسداً، وبغياً. ويدلّ عليه قوله: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. أو: إرادة دفع الآيات بالجدل ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ ببالغي موجب الكبر ومقتضاه، وهو متعلّق إرادتهم من الرياسة، والنبوّة، أو: دفع الآيات ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فالتجىءْ إليه من كيد مَن يحسدك، ويبغي عليك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بما تقول ويقولون ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بما تعمل ويعملون، فهو ناصرك عليهم، وعاصمك من شرّهم.

٥٧ ـ ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ لمّا كانت مجادلتهم في آيات الله مشتملة على إنكار البعث، وهو أصلُ المجادلة، ومدارها، حجّوا بخلق السموات والأرض؛ لأنهم كانوا مقرّين بأنّ الله خالقها، فإنّ مَن قدر على خَلْقها مع عظمها، كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يتأمّلون؛ لغلبة الغفلة عليهم.

٥٨ ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ «لا» زائدة ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تتّعظون. بتاءين: كوفيّ. وبياء، وتاء: غيرهم. و﴿قليلاً﴾ صفة مصدر محذوف، أي: تذكّراً قليلاً يتذكّرون. و﴿ما﴾ صلة زائدة.

٥٩ ـ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا بدّ من مجيئها، وليس بمرتاب فيها؛

(١) مستدرك من المطبوع.

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

لأنّه لا بدَّ من جزاء؛ لئلا يكون خلق الخلق للفناء خاصّة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدّقون بها.

٦٠ ـ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ اعبدوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أثبكم. فالدعاء بمعنى العبادة كثيرٌ في القرآن؛ ويدلُّ عليه قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾. وقال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»، وقرأ هذه الآية ﷺ[1]. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وحّدوني أغفر لكم. وهذا تفسيرٌ للدعاء بالعبادة. ثمّ للعبادة بالتوحيد. وقيل: سلوني أعطكم ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ ﴿سَيُدْخَلون﴾: مكّيّ، وأبو عمرو ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين.

٦١ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ هو من الإسناد المجازيّ، أي: مبصراً فيه؛ لأنّ الإبصارَ في الحقيقة لأهل النهار. وقرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال، ولم يكونا حالين، أو: مفعولاً لهما، رعاية لحقّ المقابلة؛ لأنّهما متقابلان معنى؛ لأنّ كلّ واحد منهما يؤدّي مؤدّى الآخر، ولأنّه لو قيل: لتبصروا فيه؛ فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازيّ، ولو قيل: ساكناً، لم تتميّز الحقيقة من المجاز إذ الليل يوصف بالسكون على الحقيقة. ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج؟! وساكن لا ريحٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: لَمُفَضِّلٌ، أو: لَمتفضّل؛ لأنّ المرادَ تنكيرُ الفضل، وأن يجعل فضلاً لا يوازيه فضل، وذلك إنّما يكون بالإضافة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ولم يقل: ولكن أكثرهم؛ حتّى لا يتكرر ذكر الناس؛ لأنّ في هذا التكرير تخصيصاً لكفران النعمة بهم، وأنّهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٦٧) وأبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٣٢٤٧) وابن ماجه (٣٨٢٨).

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ
يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ
أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ
لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

---

٦٢ ـ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي خلق لكم الليل والنهار ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة، أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من: الإلهية والربوبيّة، وخلق كلّ شيء، والوحدانيّة ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف، ومن أيّ وجهٍ تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان؟!

٦٣ ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: كلّ من جحد بآيات الله، ولم يتأمّلها، ولم يطلب الحقّ؛ أفك كما أفكوا.

٦٤ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ مستقرّاً ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سقفاً فوقكم ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ قيل: لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان. وقيل: لم يخلقهم منكوسين كالبهائم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ اللذيذات ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٦٥ ـ ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطاعة من الشرك والرياء، قائلين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: مَن قال: لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: والحمد لله ربّ العالمين.

٦٦ ـ ولمّا طلب الكفار منه ﷺ عبادة الأوثان نزل: ﴿ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ هي: القرآن، وقيل: العقل، والوحي ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ أستقيم، وأنقاد ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟
أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ
وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ

٦٧ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ أي: أصلكم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ اقتصر على الواحد؛ لأنّ المرادَ بيانُ الجنس ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ متعلّق بمحذوف، تقديره: ﴿ثمّ﴾ يبقيكم ﴿لتبلغوا﴾. وكذلك ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ وبكسر الشين: مكّيّ، وحمزة، وعليّ، وحمّاد، ويحيى، والأعشى ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بلوغ الأشدّ، أو: من قبل الشّيخوخة ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ معناه: ﴿و﴾ يفعل ذلك ﴿لتبلغوا أجلاً مسمّى﴾ وهو وقت الموت، أو: يوم القيامة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من العبر، والحجج.

٦٨ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: فإنّما يكوّنه سريعاً من غير كلفة.

٦٩ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ ذكر الجدال في هذه السورة في ثلاثة مواضع، فجاز أن يكون في ثلاثة أقوام، أو: ثلاثة أصناف، أو: للتأكيد.

٧٠ ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بالقرآن ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من الكتب ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

٧١، ٧٢ ـ ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ إذ: ظرف زمان ماض، والمراد به الاستقبال هنا؛ لقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾ وهذا لأنّ الأمور المستقبلة لمّا كانت في أخبار الله تعالى مقطوعاً بها، عبّر عنها بلفظ ما كان، ووجد، والمعنى: على الاستقبال ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عطف على ﴿الأغلال﴾. والخبر: ﴿في أعناقهم﴾. والمعنى: ﴿إذ الأغلال﴾ والسلاسل في أعناقهم ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ يجرّون

ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ

في الماء الحارّ ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ من: سجر التنّور: إذا ملأه بالوقود، ومعناه: أنّهم في النار، فهي محيطةٌ بهم، وهم مسجورون بالنار، مملوءة بها أجوافهم.

٧٣، ٧٤ ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: تقول لهم الخزنة: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأصنام التي تعبدونها ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ غابوا عن عيوننا، فلا نراهم، ولا ننتفع بهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: تبيّن لنا أنّهم لم يكونوا شيئاً، وما كنّا نعبد بعبادتهم شيئاً، كما تقول: حسبت أنّ فلاناً شيء، فإذا هو ليس بشيء، إذا خبرته فلم تر عنده خيراً ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلّهم عن آلهتهم، حتّى لو طلبوا الآلهة، أو: طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا، أو: كما أضلّ هؤلاء المجادلين يضلّ سائر الكافرين؛ الذين علم منهم اختيار الضلالة على الدين.

٧٥ ـ ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب الذي نزل بكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحقّ، وهو: الشرك، وعبادة الأوثان. فيقال لهم:

٧٦ ـ ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة المقسومة لكم ـ قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤] ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدّرين الخلود ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحقّ، جهنّمُ.

٧٧ ـ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بإهلاك الكفّار ﴿حَقٌّ﴾ كائن. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله: فإن نُرِكَ، و﴿ما﴾ مزيدة، لتوكيد معنى الشرط؛ ولذلك ألحقت النون بالفعل. ألاَ تراك لا تقول: إن تكرمني أكرمك، ولكن:

بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ
مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ
بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾

إمّا تكرمنّي أكرمك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ هذا الجزاء متعلّق بنتوفينّك، وجزاء ﴿نرينّك﴾ محذوف، وتقديره: ﴿فإمّا نرينّك بعض الذي نعدهم﴾ من العذاب، وهو: القتل يوم بدر، فذاك ﴿أو﴾ إن ﴿نتوفينّك﴾ قبل يوم بدر ﴿فإلينا يرجعون﴾ يوم القيامة، فننتقم منهم أشدّ الانتقام.

٧٨ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ إلى أممهم ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبيّ: أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: إنّ الله تعالى بعث نبيّاً أسود، فهو ممن لم تذكر قصّته في القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هذا جواب اقتراحهم الآيات عناداً، يعني: إنّا قد أرسلنا كثيراً من الرسل، وما كان لواحد منهم أن يأتي بآيةٍ إلا بإذن الله، فمن أين لي بأن آتي بآية ممّا تقترحونه إلاّ أن يشاء الله، ويأذن في الإتيان بها؟ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة. وهو وعيدٌ وردّ عقيب اقتراحهم الآيات ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ المعاندون؛ الذين اقترحوا الآية[1].

٧٩ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ خلق ﴿لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ الإبل ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها.

٨٠ ـ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أي: الألبان، والأوبار ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: لتبلغوا عليها ما تحتاجون إليه من الأمور ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: على الأنعام وحدها لا تحملون، ولكن عليها، وعلى الفلك في البرّ، والبحر.

---

(١) كذا في الأصل المخطوط، وفي المطبوع: الآيات عناداً.

وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾

٨١ ـ ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أنّها[1] من عند الله. و﴿أيّ﴾ نصب بـ﴿تنكرون﴾. وقد جاءت على اللغة المستفيضة. وقولك: فأيّة آيات الله قليل؟ لأن التفرقة بين المذكر والمؤنّث في الأسماء غير الصفات، نحو: حمار وحمارة غريب، وهي في «أيّ» أغرب لإبهامه.

٨٢ ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ بدَلاً[2] ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قصوراً، ومصانع ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ ـ ما نافية ـ ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

٨٣ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ يريد علمهم بأمور الدنيا، ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] فلمّا جاءهم الرسل بعلوم الديانات ـ وهي: أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا، والظلف[3] عن الملاذّ والشهوات ـ لم يلتفتوا إليها وصغّروها، واستهزؤوا بها، واعتقدوا: أنّه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم، ففرحوا به. أو: علم الفلاسفة والدهريّين؛ فإنّهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه، وصغّروا علم الأنبياء إلى علمهم. وعن سقراط: أنه سمع بموسى ـ عليه السلام ـ وقيل له: لو هاجرت إليه! فقال: نحن قوم مهذّبون، فلا حاجةَ بنا إلى مَن يُهذّبنا. أو: المراد: فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه، واستهزاء به، كأنّه قال: استهزؤوا بالبينات، وبما جاؤوا به من علم الوحي فرحين، مرحين. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. أو: الفرح للرسل، أي: الرسل لمّا رأوا جهلهم،

(١) زاد في الأصل المخطوط: ليست، ولم نَرَ إثباتها؛ لأنّ المعنى سيتغيّر.
(٢) كذا في الأصل المخطوط، و«بدل الشيء»: الخَلَفُ منه.
(٣) «الظلف»: الكفُّ.

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

واستهزاءهم بالحقّ، وعلموا سوء عاقبتهم، وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم، واستهزائهم، فرحوا بما أوتوا من العلم، وشكروا الله عليه، وحاق بالكافرين جزاءُ جهلهم، واستهزائهم.

٨٤ ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ شدّة عذابنا ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾.

٨٥ ـ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: فلم يصحّ، ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ ـ بمنزلة وعد الله، ونحوه من المصادر المؤكّدة ـ ﴿ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أنّ الإيمان عند نزول العذاب لا ينفع، وأنّ العذاب نازل بمكذّبي الرسل ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿هنالك﴾: مكان مستعار للزمان. والكافرون خاسرون في كلّ أوان، ولكنه يتبيّن خسرانهم إذا عاينوا العذاب.

وفائدة ترادف الفاءات في هذه الآيات: أنّ ﴿فما أغنى عنهم﴾ نتيجة قوله: ﴿كانوا أكثر منهم﴾؛ و﴿فلمّا جاءتهم﴾ كالبيان والتفسير لقوله: ﴿فما أغنى عنهم﴾ كقوله: رزق زيد المال، فمنع المعروف، فلم يحسن إلى الفقراء؛ و﴿فلمّا رأوا بأسنا﴾ تابع لقوله: ﴿فلمّا جاءتهم﴾ كأنّه قال: فكفروا ﴿فلمّا رأوا بأسنا﴾ آمنوا. وكذلك ﴿فلم يك ينفعهم﴾ تابع لإيمانهم لمّا رأوا بأس الله.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾

١، ٣ـ ﴿حمٓ﴾ إن جعلته اسماً للسورة كان مبتدأ، و: ﴿تَنزِيلٌ﴾: خبره. وإن جعلته تعديداً للحروف كان ﴿تنزيل﴾ خبراً لمبتدأ محذوف. و﴿كتاب﴾ بدل من تنزيل، أو: خبر بعد خبر، أو: خبر مبتدأ محذوف، أو: ﴿تنزيل﴾: مبتدأ ﴿مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ صفته ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ ميزت، وجعلت تفاصيل في معان مختلفة من: أحكام، وأمثال، ومواعظ، ووعد، ووعيد، وغير ذلك ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الاختصاص والمدح، أي: أريد بهذا الكتاب المفصّل ﴿قرآناً﴾ من صفته كيت وكيت، أو: على الحال، أي: ﴿فصّلت آياته﴾ في حال كونه ﴿قرآناً عربياً﴾ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: ﴿لقوم﴾ عرب ﴿يعلمون﴾ ما نزّل عليهم من الآيات المفصّلة، المبيّنة بلسانهم العربيّ. و﴿لقوم﴾ يتعلّق بتنزيل، أو: بفصّلت. أي: ﴿تنزيل﴾ من الله لأجلهم، أو: ﴿فصّلت آياته﴾ لهم. والأظهر أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده. أي: ﴿قرآناً عربياً﴾ كائناً ﴿لقوم﴾ عرب.

٤ ـ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صفتان لقرآناً ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي:

وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ

لا يقبلون، من قولك: تشفّعت إلى فلان، فلم يسمع قولي، ولقد سمعه ولكنّه لمّا لم يقبله، ولم يعمل بمقتضاه، فكأنّه لم يسمعه.

٥ ـ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ أغطية، جمع: كنان، وهو: الغطاء ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ من التوحيد ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ﴾ ثقل يمنع من استماع قولك ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ ستر. وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن تقبّل الحقّ، واعتقاده، كأنّها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها، ومجّ أسماعهم له، كأنّ بها صمماً عنه، ولتباعد المذهبين والدينين، كأنّ بينهم وما هم عليه، وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه حجاباً ساتراً، وحاجزاً منيعاً من جبل، أو: نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ على دينك ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ على ديننا. أو: ﴿فاعمل﴾ في إبطال أمرنا ﴿إنّنا عاملون﴾ في إبطال أمرك. وفائدة زيادة ﴿مِنۢ﴾ أنّ الحجاب ابتدأ منّا، وابتدأ منك، فالمسافة المتوسّطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها. ولو قيل: بيننا وبينك حجاب؛ لكان المعنى: أنّ حجاباً حاصل وسط الجهتين.

٦ ـ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿قلوبنا في أكنّة﴾. ووجهه: أنّه قال لهم: إني لست بملك، وإنّما أنا بشر مثلكم، وقد أوحي إليّ دونكم، فصحّت نبوّتي بالوحي إليّ وأنا بشر، وإذا صحّت نبوّتي وجب عليكم اتّباعي، وفيما يوحى إليّ: أنّ إلهكم إله واحد ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فاستووا إليه بالتوحيد، وإخلاص العبادة غير ذاهبين يميناً ولا شمالاً، ولا ملتفتين إلى ما يسوّل لكم الشيطان من اتّخاذ الأولياء والشفعاء ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ من الشرك ﴿وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

٧ ـ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لا يؤمنون بوجوب الزكاة، ولا يعطونها، أو: لا يفعلون ما يكونون به أزكياء، وهو: الإيمان ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بالبعث،

هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾
۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

والثواب، والعقاب ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وإنّما جمع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة؛ لأنّ أحبّ شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيقُ روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليلٍ على استقامته، وصدق نيّته، ونصوع طويّته. وما خدع[1] المؤلّفة قلوبهم إلاّ بلُمظة[2] من الدنيا، فقرّت عصبيتهم، ولانت شكيمتهم. وما ارتدّت بنو حنيفة إلا بمنع الزكاة. وفيه بعثٌ للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويف شديد من منعها.

٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع. قيل: نزلت في المرضى، والزمنى، والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة، كتب لهم الأجر كما كانوا يعملون[3].

٩ ـ ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الأحد والإثنين، تعليماً للأناة، ولو أراد أن يخلقها في لحظة لفعل ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ شركاء، وأشباهاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلق ما سبق ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالق جميع الموجودات، وسيّدها، ومربّيها.

١٠ ـ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿مِن فَوْقِهَا﴾. وإنّما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون منافع الجبال ظاهرة لطالبيها، وليبصر أنّ الأرض والجبال أثقال على أثقال، كلّها مفتقرة إلى ممسكٍ، وهو: الله عزّ وجلّ ﴿وَبَٰرَكَ﴾ بالماء، والزرع، والشجر، والثمر ﴿فِيهَا﴾ في الأرض. وقيل: ﴿وبارك فيها﴾ وأكثر خيرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أرزاق أهلها، ومعايشهم، وما يصلحهم. وقرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (وقسم فيها أقواتها) ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تتمة أربعة أيّام. يريد بالتتمّة: اليومين، تقول: سرت من البصرة

---

(١) استعمال «خدع» غير لائق؛ لأنه ﷺ إنما تألفهم ممن قبيل الملاطفة ودفع السيئة بالحسنة.
(٢) «اللمظة»: لمظ: إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه.
(٣) أي: في حال صحتهم.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾

إلى بغداد في عشرة، وإلى الكوفة في خمسة عشر، أي: في تتمّة خمسة عشر. ولا بدّ من هذا التقدير؛ لأنّه لو أجري على الظاهر لكانت ثمانية أيّام، لأنه قال: ﴿ خلق الأرض في يومين﴾ ثمّ قال: ﴿وقدر فيها أقواتها في أربعة أيّام﴾ ثم قال: ﴿فقضاهنّ سبع سموات في يومين﴾ فيكون خلاف قوله ﴿في ستّة أيام﴾ في موضع آخر. وفي الحديث: «إنّ الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق يوم الأربعاء الشجر، والماء، والعمران، والخراب، فتلك أربعة أيام. وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم، والشمس، والقمر، والملائكة، وخلق آدم ـ عليه السلام ـ في آخر ساعة من يوم الجمعة»(1). قيل: هي السَّاعة التي تقومُ فيها القيامة ﴿سَوَآءً﴾ ﴿سواءٍ﴾: يعقوب، صفة للأيام، أي: في أربعة أيّام مستويات، تامّات ﴿سَوَآءٌ﴾: يزيد، أي: هي سواء. غيرهما: على المصدر، أي: استوت ﴿سواء﴾ أي: استواء، أو: على الحال ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلّق بـ﴿قدّر﴾، أي: قدّر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها، المحتاجين إليها؛ لأن كلاًّ يطلب القوت، ويسأله، أو: بمحذوف، كأنّه قيل: هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض، وما فيها؟

١١ ـ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ هو مجاز عن إيجاد الله تعالى السماء على ما أراد. تقول العرب: فعل فلان كذا ثمّ استوى إلى عمل كذا، يريدون: أنّه أكمل الأوّل، وابتدأ الثاني. ويفهم منه أنّ خلق السماء كان بعد خلق الأرض. وبه قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وعنه: أنه قال: أوّل ما خلق الله تعالى جوهرة طولها وعرضها مسيرة ألف سنة، في مسيرة عشرة آلاف سنة، فنظر إليها بالهيبة فذابت واضطربت، ثمّ ثار منها دخان بتسليط النار عليها فارتفع، واجتمع زبد، فوق الماء، فجعل الزبد أرضاً، والدخان سماء.

(١) رواه أحمد (٢ / ٣٢٧) ومسلم (٢٧٨٩).

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما: أنّه أراد أن يكوّنهما، فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع. وإنّما ذكر الأرض مع السماء في الأمر بالإتيان والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؛ لأنّه قد خلق جرم الأرض أوّلاً غير مدحوّة، ثمّ دحاها بعد خلق السماء، كما قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] فالمعنى: ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، ائتي يا أرض مدحوّة قراراً ومهاداً لأهلك، وائتي يا سماء مقبيّة سقفاً لهم. ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع، كما تقول: أتى عمله مرضيّاً. وقوله: ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ لبيان تأثير قدرته فيهما، وأنّ امتناعهما من تأثير قدرته محال، كما تقول لمن تحت يدك: لتفعلنّ هذا شئت أو أبيت، ولتفعلنّه طوعاً أو كرهاً. وانتصابهما على الحال بمعنى طائعتين، أو: مكرهتين. وإنّما لم يقل طائعتين على اللفظ، أو: طائعات على المعنى؛ لأنّهما سموات، وأرضون؛ لأنّهنّ لمّا جعلن مخاطبات ومجيبات، ووصفن بالطوع والكره قيل: ﴿طائعين﴾ في موضع طائعات، كقوله: ﴿سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

١٢ - ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ فأحكم خلقهن. قال:

وعَلَيْهِما مَسْرُودَتان قَضَاهُما[1] ... ...

والضمير يرجع إلى السماء؛ لأنّ السماء للجنس، ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسّراً بقوله: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾. والفرق بين النّصبين: أنّ الأوّل: على الحال، والثاني: على التمييز، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ في يوم الخميس، والجمعة ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ ما أمر به فيها، ودبّره من خَلْق الملائكة والنيران، وغير ذلك ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ القريبة من الأرض ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ بكواكب ﴿وَحِفْظًا﴾ وحفظناها من المسترقة بالكواكب حفظاً ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب غير المغلوب ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بمواقع الأمور.

(١) صدر بيت لأبي ذؤيب، وعجزه: داودُ؛ أو صَنَعُ السَّوابغِ تُبَعُ.

فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

١٣ ـ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ خوّفتكم ﴿صَٰعِقَةً﴾ عذاباً شديد الوقع، كأنّه صاعقة، وأصلها: رعد معه نار ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

١٤ ـ ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: أتوهم من كلّ جانب، وأعملوا فيهم كلّ حيلة، فلم يروا منهم إلاّ الإعراض. وعن الحسن: أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم، وعذاب الآخرة. ﴿أن﴾ بمعنى أي، أو: مخففة من الثقيلة، أصله: بأنّه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟﴾ أي: القوم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرسل ـ فمفعول شاء محذوف ـ ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾. معناه: فإذا أنتم بشر، ولستم بملائكة، فإنا لا نؤمن بكم، وبما جئتم به. وقوله: ﴿أرسلتم به﴾ ليس بإقرار بالإرسال، وإنّما هو على كلام الرسل، وفيه تهكّم، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وقوله: ﴿فإنا بما أرسلتم به كافرون﴾ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء؛ الذين دعوا إلى الإيمان بهم.

رُوي: أن قريشاً بعثوا عتبة بن ربيعة ـ وكان أحسنهم حديثاً ـ ليكلِّم رسولَ الله ﷺ وينظر ما يردُّ. فأتاه وهو في الحطيم، فلم يسأل شيئاً إلاّ أجابه، ثم قرأ ﷺ عليه السورةَ إلى قوله: ﴿مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فناشده بالرحم، وأمسك على فيه، ووثب مخافة أن يصبّ عليهم العذاب، فأخبرهم به، وقال: لقد عرفتُ السحر والشعر، فوالله ماهو بساحر ولا بشاعر، فقالوا: لقد صبأت، أما فهمتَ منه كلمة؟ فقال: لا، ولم أهتدِ إلى جوابه، فقال عثمان بن مظعون: ذلك والله لتعلموا أنّه من ربّ العالمين.

ثم بيّن ما ذكر من صاعقة عاد وثمود، فقال:

١٥ ـ ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تعظّموا فيها على أهلها

وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ

بما لا يستحقّون به التعظُّم، وهو القوّة، وعظم الأجرام. أو: استولوا على الأرض بغير استحقاق للولاية ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ كانوا ذوي أجسام طوال، وخَلْق عظيم، وبلغ من قوّتهم أنّ الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أولم يعلموا علماً يقوم مقام العيان ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أوسع منهم قدرة؛ لأنه قادرٌ على كلّ شيء، وهم قادرون على بعض الأشياء بإقداره ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ معطوف على ﴿فاستكبروا﴾، أي: كانوا يعرفون أنّها حقّ، ولكنّهم جحدوها، كما يجحد المودعُ الوديعة.

١٦ ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ عاصفة تصرصر، أي: تصوّت في هبوبها، من: الصرير. أو: باردة، تحرق بشدّة بردها. تكرير لبناء الصرّ، وهو البرد. قيل: إنّها الدّبور ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ مشؤومات عليهم ﴿نحْسات﴾: مكّيّ، وبصريّ، ونافع. نُحِس نَحَساً: نقيض سعد سعداً. وهو نَحِس. وأما نَحْس فإمّا مخفّف نحِس، أو: صفة على فعْل، أو: وصف بمصدر. وكانت من الأربعاء في آخر شوّال إلى الأربعاء. وما عذّب قوم إلاّ في الأربعاء ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أضاف العذابَ إلى الخزي، وهو: الذلّ، على أنّه وصف للعذاب، كأنّه قال: عذاب خزي، كما تقول: فعل السوء، تريد الفعل السّيِّء، ويدلّ عليه قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ وهو من الإسناد المجازيّ. ووصف العذاب بالخزي أبلغ من وصفهم به، فشتّان ما بين قوليك: هو شاعر، وله شعر شاعر ﴿وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ من الأصنام التي عبدوها، على رجاء النصر لهم.

١٧ ـ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بالرفع على الابتداء هو الفصيح لوقوعه بعد حرف الابتداء. والخبر: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾. وبالنصب المفضّل بإضمار فعل يُفسِّره ﴿فهديناهم﴾ أي: بيّنا لهم الرشد ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فاختاروا الكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾ داهية العذاب ﴿الْهُونِ﴾ الهوان، وصف

بِمَا كَانُوا۟ يَكۡسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ
إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم
بِمَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا

به العذاب مبالغة، أو: أبدله منه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكۡسِبُونَ﴾ بكسبهم، وهو شركهم ومعاصيهم. وقال الشيخ أبو منصور: يحتمل ما ذكر من الهداية التبيين كما بيّنا، ويحتمل خلق الاهتداء فيهم ، فصاروا مهتدين، ثمّ كفروا بعد ذلك ، وعقروا الناقة؛ لأنّ الهدى المضاف إلى الخالق يكون بمعنى البيان، والتوفيق، وخَلْق فعل الاهتداء. فأمّا الهدى المضاف إلى الخَلْق يكون بمعنى البيان لا غير. وقال صاحب «الكشّاف» فيه: فإن قلت: أليس معنى قولك هديته حصَّلت فيه الهدى؟ الدليل عليه قولك: هديته فاهتدى، بمعنى تحصيل البغية وحصولها، كما تقول: ردعته فارتدع، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجرّدة؟ قلت: للدلالة على أنّه مكّنهم، فأزاح عللهم، ولم يُبْقِ لهم عُذراً، فكأنّه حصّل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها، ويقتضيها.

وإنّما تمحّل بهذا؛ لأنّه لا يتمكّن من أن يفسّره بخلق الاهتداء؛ لأنّه يخالف مذهبه الفاسد.

١٨ ـ ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: اختاروا الهدى على العمى من تلك الصاعقة ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ اختيار العمى على الهدى.

١٩ ـ ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: الكفّار من الأوّلين والآخرين. ﴿نَحشُرُ أعداءَ﴾: نافع، ويعقوب ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أوّلهم على آخرهم، أي: يستوقف سوابقهم حتّى يلحق بهم تواليهم، وهي عبارةٌ عن كثرة أهل النار. وأصله: من وزَعته، أي: كففته.

٢٠ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ صاروا بحضرتها. و﴿ما﴾ مزيدة للتأكيد: أنّ وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لأن يخلو منها ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ﴾ شهادة الجلود بالملامسة للحرام، وقيل: هي كناية عن الفروج.

٢١ ـ ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾ لما تعاظمهم من شهادتها عليهم

قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا
كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ
ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ
فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم
مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ

﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من الحيوان. والمعنى: أنّ نطقنا ليس بعجب من قدرة الله؛ الذي قدر على إنطاق كلّ حيوان ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وهو قادرٌ على إنشائكم أوّل مرّة، وعلى إعادتكم، ورَجْعِكُم إلى جزائه.

٢٢ ـ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن تشهد عليكم جوارحكم؛ لأنّكم كنتم غير عالمين بشاهدتها عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث، والجزاء أصلاً ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولكنّكم إنّما استترتم لظنّكم: ﴿أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾ وهو الخفيّات من أعمالكم.

٢٣ ـ ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ وذلك الظنّ هو الذي أهلككم ﴿وذلكم﴾ مبتدأ، و﴿ظنّكم﴾ خبر. و﴿الذي ظننتم بربكم﴾ صفته، و﴿أرداكم﴾ خبر ثان. أو: ﴿ظنكم﴾ بدل من ذلكم، و﴿أرداكم﴾ الخبر ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

٢٤ ـ ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر، ولم ينفكّوا به من الثواء في النار ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ وإن يطلبوا الرضا فمالهم من المرضيّين، أو: وإن يسألوا العتبى ـ وهي: الرجوعُ لهم إلى ما يحبّون جزعاً مما هم فيه ـ لمْ يعتبوا: لم يُعطوا العتبى، ولم يُجابوا إليها.

٢٥ ـ ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أي: قدّرنا لمشركي مكّة، يقال: هذان ثوبان قَيْضان أي: مثلان. والمقايضة: المعاوضة. وقيل: سلّطنا عليهم ﴿قُرَنَآءَ﴾ أخداناً من الشياطين؛ جمع قرين، كقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ

فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ

﴿قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما تقدّم من أعمالهم، وما هم عازمون عليها. أو: ﴿ما بين أيديهم﴾ من أمر الدنيا، واتّباع الشهوات ﴿وما خلفهم﴾ من أمر العاقبة، وأن لا بَعْثَ ولا حساب ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ كلمة العذاب ﴿فِي أُمَمٍ﴾ في جملة أمم. ومحلّه النصب على الحال من الضمير في ﴿عليهم﴾، أي: ﴿حقّ عليهم القول﴾ كائنين ﴿في﴾ جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ قبل أهل مكّة ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ هو تعليلٌ لاستحقاقهم العذاب، والضمير لهم، وللأمم.

٢٦ ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ إذا قُرِىء ﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ وعارضوه بكلام غير مفهوم حتّى تشوّشوا عليه، وتغلبوا على قراءته. واللغو: الساقط من الكلام؛ الذي لا طائلَ تحته.

٢٧ ـ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يجوز أن يريدَ بالذين كفروا: هؤلاء اللاغين، والآمرين لهم باللغو خاصّة، وأن يذكر الذين كفروا عامّة لينطوي تحت ذكرهم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ﴿ولنجزينّهم﴾ أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم، وهو الكفر.

٢٨ ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ ﴿ذلك﴾: إشارة إلى الأسوأ. ويجب أن يكون التقدير: ﴿أسوأ﴾ جزاء ﴿الذي كانوا يعملون﴾ حتّى تستقيم هذه الإشارة ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء، أو: خبر مبتدأ محذوف ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: النار في نفسها دار الخلد. كما تقول: لك في هذه الدار دار السرور، وأنت تعني الدار بعينها ﴿جَزَاءً﴾أي: جوزوا بذلك جزاء ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

٢٩ ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا﴾ وبسكون الراء؛ لثقل الكسرة، كما قالوا في فَخِذ فَخْذ: مكّيّ، وشاميّ، وأبو بكر. وبالاختلاس: أبو عمرو ﴿الَّذَيْنِ

أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ

أَضَلَّانَا﴾ أي: الشيطانين الذين أضلانا ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾؛ لأنّ الشيطان على ضربين: جنّي، وإنسيّ. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] ـ ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في النار جزاء إضلالهم إيّانا.

٣٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي: نطقوا بالتوحيد ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ ثمّ ثبتوا على الإقرار ومقتضياته. وعن الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ: استقاموا فعلاً كما استقاموا قولاً. وعنه: أنّه تلاها، ثمّ قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا. قال: حملتم الأمر على أشدّه. قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: «لم يروغوا روغان الثعالب» أي: لم ينافقوا. وعن عثمان ـ رضي الله عنه ـ: أخلصوا العمل. وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: أدّوا الفرائض. وعن الفضيل ـ رحمه الله ـ: زهدوا في الفانية، ورغبوا في الباقية.

وقيل: حقيقة الاستقامة: القرار بعد الإقرار، لا الفرار بعد الإقرار ـ ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ أَنْ بمعنى: أي، أو: مخفّفة من الثقيلة. وأصله: بأنّه ﴿لا تخافوا﴾ والهاء ضمير الشأن، أي: لا تخافوا ما تقدمون عليه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما خلّفتم. فالخوف: غمّ يلحق الإنسان لتوقّع المكروه، والحزن: غمّ يلحق لوقوعه من فوات نافع، أو: حصول ضارّ. والمعنى: أنّ الله كتب لكم الأمن من كلّ غمّ فلن تذوقوه ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا. وقال محمّد بن عليّ الترمذي: ﴿تتنزّل عليهم﴾ ملائكة الرحمن، عند مفارقة الأرواح عن الأبدان، ﴿أن لا تخافوا﴾ سلب الإيمان، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما كان من العصيان، ﴿وأبشروا﴾ بدخول الجنان ﴿التي كنتم توعدون﴾ في سالف الأزمان.

٣١ ـ ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ كما أنّ الشياطين قرناء

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ
رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا
ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

العصاة وإخوانهم، فكذلك الملائكة أولياء المتّقين، وأحبّاؤهم في الدارين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ تتمنّون.

٣٢ ـ ﴿نُزُلًا﴾ هو رزق النزيل، وهو: الضيف. وانتصابه على الحال من الهاء المحذوفة، أو: من ﴿ما﴾ ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ نعت له.

٣٣ ـ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هو رسول الله ـ ﷺ ـ دعاإلى التوحيد ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ خالصاً ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ تفاخراً بالإسلام، ومعتقداً له.، و: أصحابه عليه الصلاة والسلام، أو: المؤذّنون، أو: جميع الهداة، والدعاة إلى الله.

٣٤ ـ ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني: أنّ السيئة والحسنة متفاوتتان في أنفسهما، فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان، فادفع بها السيّئة التي ترد عليك من بعض أعدائك، كما لو أساء إليك رجل إساءة، فالحسنة أن تعفوَ عنه، والتي هي أحسن أن تحسنَ إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمّك فتمدحه، أو: يقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوّه ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فإنّك إذا فعلت ذلك انقلب عدوّك المشاقّ مثل الوليّ الحميم مصافاة لك. ثمّ قال:

٣٥ ـ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: وما يلقّى هذه الخصلة التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ إلاّ أهل الصبر ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ إلاّ رجل خير، وفّق لحظّ عظيم من الخير. وإنّما لم يقل: فادفع بالتي هي أحسن؛ لأنّه على تقدير قائل قال: فكيف أصنع؟ فقيل: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾. وقيل: ﴿لا﴾ مزيدة للتأكيد. والمعنى: لا تستوي الحسنة والسيّئة. وكان القياس على هذا التفسير أن يقال: ادفع بالتي هي حسنة، ولكن وضع «التي هي

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ
ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ
وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ

أحسن» موضع الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة؛ لأنّ مَن دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿بالتي هي أحسن﴾: الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة. وفسّر الحظ بالثواب. وعن الحسن: والله ما عظم حظّ دون الجنّة. وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وكان عدوّاً مؤذياً للنبيّ ﷺ، فصار وليّاً مُصَافياً.

٣٦ ـ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النزغ: شبه النخس، والشيطان ينزغ الإنسان، كأنّه بِنَخْسِه؛ يبعثه على مالا ينبغي. وجعل النزغ نازغاً، كما قيل: جدّ جدّه، أو: أريد ﴿وإمّا ينزغنّك﴾ نازغ، وصفاً للشيطان بالمصدر، أو: لتسويله. والمعنى: وإن صرفك الشيطانُ عمّا وُصِّيْتَ به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شرِّه، وامض على حلمك، ولا تطعه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنزغ الشيطان.

٣٧ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ الدالّة على وحدانيته ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ في تعاقبهما على حدّ معلوم، وتناوبهما على قدر مقسوم ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ في اختصاصهما بسير مقدّر، ونور مقرّر ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنّهما مخلوقان وإن كثرت منافعهما ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. الضمير في ﴿خلقهنّ﴾ للآيات، أو: اللَّيْلِ والنهار والشمس والقمر؛ لأنّ حكم جماعة مالا يعقل حكم الأنثى، أو: الإناث، تقول: الأقلام بريتها، وبريتهنّ. ولعلّ ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصّابئين في عبادتهم الكواكب، ويزعمون أنّهم يقصدون بالسجود لها السجود لله تعالى، فنُهوا عن هذه الواسطة، وأُمِرُوا أن يقصدوا بسجودهم وَجْهَ الله خالصاً إن كانوا إيّاه يعبدون، وكانوا موحِّدين غير مشركين، فإنّ مَن عَبَدَ مع الله غيره لا يكونُ عابداً لله.

٣٨ ـ ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ

وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾

﴿وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ لا يملّون. والمعنى: ﴿فإن استكبروا﴾ ولم يمتثلوا ما أمروا به، وأبوا إلاّ الواسطة فدعهم وشأنهم، فإنّ الله تعالى لا يعدم عابداً وساجداً بالإخلاص، وله العباد المقرَّبون؛ الذين ينزّهونه بالليل والنهار عن الأنداد. و﴿عند ربّك﴾ عبارة عن الزلفى، والمكانة، والكرامة. وموضع السجدة عندنا ﴿لا يسأمون﴾، وعند الشافعيّ ـ رحمه الله ـ عند ﴿تعبدون﴾. والأوّل أحوط.

٣٩ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يابسة مغبرَّة. والخشوع: التذلّل، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لانبات فيها ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحرّكت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيكون قادراً على البعث ضرورة.

٤٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يميلون عن الحقّ في أدلّتنا[1] ـ يقال: ألحد الحافر ولحد؛ إذا مال عن الاستقامة، فحفر في شقّ، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحّة والاستقامة. ﴿يَلحَدون﴾ حمزة ـ ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ وعيد لهم على التحريف ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذا تمثيل للكافر والمؤمن ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ هذا نهاية في التهديد، ومبالغة في الوعيد ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

٤١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ بالقرآن؛ لأنّهم لكفرهم به طعنوا فيه، وحرّفوا تأويله ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ حين جاءهم. وخبر ﴿إنّ﴾ محذوف، أي: يعذبون، أو: هالكون. أو: ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ وما بينهما اعتراض ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع، محميّ بحماية الله.

(١) زاد في المطبوع: بالطعن.

لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ

٤٢ ـ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ التبديل، أو: التناقض ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: بوجهٍ من الوجوه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ مستحقّ للحمد.

٤٣ ـ ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ ما يقول لك كفّار قومك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ إلّا مثل ما قال للرسل كفّار قومهم من الكلمات المؤذية، والمطاعن في الكتب المنزلة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ورحمة لأنبيائه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم. ويجوز أن يكون: ما يقول لك الله إلاّ مثل ما قال للرسل من قبلك، والمقول هو قوله: ﴿إنّ ربّك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾.

٤٤ ـ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الذكر ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: بلغة العجم. كانوا لتعنّتهم يقولون: هلاّ نزل القرآن بلغة العجم! فقيل: لو كان كما يقترحون ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ ـ أي: بيّنت ـ بلسان العرب حتّى نفهمها ـ تعنتاً ـ ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾[1] بهمزتين كوفيّ غير حفص، الهمزة للإنكار، يعني: لأنكروا، وقالوا: ﴿أ﴾ قرآن ﴿أعجميّ﴾ ورسول ﴿عربيّ﴾ أو: مرسل إليه عربيّ. الباقون بهمزة واحدة ممدودة مستفهمة. والأعجميّ: الذي لا يُفْصِح، ولا يفهم كلامه، سواء كان من العجم أو العرب. والعجميّ منسوب إلى أمّة العجم، فصيحاً كان أو غير فصيح. والمعنى: إنّ آيات الله على أيّ طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنّتاً؛ لأنّهم غير طالبين للحقّ، وإنما يتبعون أهواءهم. وفيه إشارةٌ إلى أنّه لو أنزله بلسان العجم لكان قرآناً، فيكون دليلاً لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ في جواز الصلاة إذا قرأ بالفارسيّة ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ إرشاد إلى الحقّ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لما في الصدور من الشكّ؛ إذ

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿أأعجميٌّ﴾. وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وعاصم، وشعبة، وخلف، وروح. معجم القراءات القرآنية (٦/ ٧٥).

وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن
مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن
رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ
أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ
مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ

الشكّ مرض ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ في موضع الجرّ لكونه معطوفاً على ﴿للذين آمنوا﴾، أي: هو ﴿للذين آمنوا هدى وشفاء و﴾ هو لـ ﴿الذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ أي: صمم، إلاّ أنّ فيه عطفاً على عاملين، وهو جائز عند الاخفش. أو: الرفع، وتقديره: ﴿والذين لا يؤمنون﴾ هو ﴿في آذانهم وقر﴾ على حذف المبتدأ، أو: ﴿في آذانهم﴾ منه ﴿وقر﴾ ﴿وَهُوَ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ظلمة وشبهة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يعني: أنهم لعدم قبولهم وانتفاعهم، كأنّهم ينادون إلى الإيمان بالقرآن من حيث لا يسمعون لبعد المسافة. وقيل: ﴿ينادون﴾ في القيامة ﴿من مكان بعيد﴾ بأقبح الأسماء.

٤٥ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ ـ فقال بعضهم: هو حقّ، وقال بعضهم: هو باطل ـ كما اختلف قومك في كتابك ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير العذاب ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ لأهلكهم إهلاك استئصال. وقيل: الكلمة السابقة هي العدة بالقيامة، وأنّ الخصومات تُفصل في ذلك اليوم. ﴿ولولا﴾ ذلك ﴿لقضي بينهم﴾ في الدنيا ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإنّ الكفار ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة.

٤٦ ـ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ فنفسه نفع ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ فنفسه ضرّ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيعذّب غير المسيء.

٤٧ ـ ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: علم قيامها يردّ إليه، يجب على المسؤول أن يقولَ: الله يعلم ذلك ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ ـ: مدنيّ، وشاميّ، وحفص. غيرهم: بغير ألف ـ ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أوعيتها قبل أن تنشقّ ـ جمع كمّ ـ ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ حملها ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: ما يحدث شيء من خروج ثمرة، ولا حمل حامل، ولا وضع واضع إلاّ وهو عالم به يعلم عدد أيّام الحمل،

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى

وساعاته، وأحواله من: الخداج، والتمام، والذكورة، والأنوثة، والحسن، والقبح، وغير ذلك ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أضافهم إلى نفسه على زعمهم، وبيانه في قوله: أين شركائي الذين زعمتم. وفيه تهكّم، وتقريع ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناك، وقيل: أخبرناك، وهو الأظهر؛ إذ الله تعالى كان عالماً بذلك. وإعلام العالم محال، أمّا الإخبار للعالم بالشيء فيتحقّق بما علم به، إلاّ أن يكون المعنى: إنّك علمت من قلوبنا الآن: أنّا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة؛ لأنّه إذا علمه من نفوسهم فكأنّهم أعلموه ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: مامنّا أحد يشهد بأنّ لك شريكاً، وما منّا إلاّ من هو موحِّد لك. أو: ﴿ما منّا من﴾ أحد يشاهدهم؛ لأنّهم ضلّوا عنهم، وضلّت عنهم آلهتهم، لا يبصرونها في ساعة التوبيخ. وقيل: هو كلام الشركاء. أي: ﴿ما منّا من شهيد﴾ يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة.

٤٨ ـ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّوا۟﴾ وأيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهرب.

٤٩ ـ ﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾ لا يملّ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر ـ بدليل قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] ـ ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ من طلب السعة في المال والنعمة، والتقدير: من دعائه الخير، فحذف الفاعل، وأضيف إلى المفعول ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقر ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من الخير ﴿قَنُوطٌ﴾ من الرحمة. بولغ فيه من طريقين: من طريق بناء فعول، ومن طريق التكرير. والقنوط: أن يظهرَ عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر، أي: يقطع الرجاء من فضل الله، وَرَوْحِه. وهذا صفة الكافر؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

٥٠ ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ وإذا فرجنا عنه بصحّة بعد مرض، أو: سعة بعد ضيق، قال: ﴿هذا لي﴾ أي: هذا حقّي وصل

وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

إليّ؛ لأنّي استوجبته بما عندي من خير، وفضل، وأعمال برّ. أو: ﴿هذا لي﴾ لا يزول عنّي ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: ما أظنّها تكون قائمة ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ كما يقول المسلمون: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ﴾ عند الله ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنّة. أو: الحالة الحسنى من الكرامة، والنعمة، قائساً أمر الآخرة على أمر الدنيا ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد، لا يفتر عنهم.

٥١ ـ ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان؛ إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة، فنسي المنعم، وأعرض عن شكره ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وتباعد عن ذكر الله، ودعائه، أو: ذهب بنفسه، وتكبّر، وتعظّم، وتحقيقه: أن يوضع جانبه موضع نفسه؛ لأنّ مكان الشيء وجهته ينزّل منزلة نفسه، ومنه قول الكتّاب: وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز، يريدون: نفسه، وذاته، فكأنّه قال: وناء بنفسه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الضر، والفقر ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير، أي: أقبل على دوام الدعاء، وأخذ في الابتهال، والتضرُّع. وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه، وهو من صفة الأجرام، كما استعير الغلظ لشدّة العذاب. ولا منافاة بين قوله: ﴿فيؤوس قنوط﴾ وبين قوله: ﴿فذو دعاء عريض﴾ لأن الأوّل في قوم، والثاني في قوم. أو: قنوط في البرّ، وذو دعاء في البحر. أو: قنوط بالقلب، ذو دعاء باللسان. أو: قنوط من الصنم، ذو دعاء الله تعالى.

٥٢ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ ثمّ جحدتم أنّه من عند الله ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ منكم؟ إلاّ أنّه وضع قوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ موضع منكم بياناً لحالهم، وصفتهم.

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

٥٣ ـ ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ من فتح البلاد شرقاً وغرباً ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فتح مكّة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن، أو: الإسلام ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ موضع ﴿بربّك﴾ الرفع على أنّه فاعل، والمفعول محذوف. وقوله: ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، تقديره: أو لم يكفهم أنّ ربّك على كلّ شيء شهيد، أي: أولم تكفهم شهادة ربّك على كلّ شيء. ومعناه: أنّ هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه، فيتبيّنون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب؛ الذي هو على كلّ شيء شهيد.

٥٤ ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ شكّ ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ عالم بجمل الأشياء، وتفاصيلها، وظواهرها، وبواطنها، فلا تخفى عليه خافية، فيجازيهم على كفرهم، ومريتهم في لقاء ربّهم.

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾

١، ٢ ـ فصل ﴿حمٓ﴾ من ﴿عٓسٓقٓ﴾ كتابة مخالفاً لـ: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١] تلفيقاً بأخواتها، ولأنّه آيتان و﴿كهيعص﴾ آية واحدة.

٣ ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ أي: مثل ذلك الوحي، أو: مثل ذلك الكتاب ﴿يوحي إليك﴾ ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ وإلى الرسل من قبلك ﴿الله﴾ يعني: أنّ ما تضمّنته هذه السورة من المعاني قد أوحى اللهُ إليك مثله في غيرها من السور، وأوحاه إلى من قبلك، يعني: إلى رسله. والمعنى: أنّ الله كرّر هذه المعاني في القرآن، وفي جميع الكتب السماوية؛ لما فيها من التنبيه البليغ، واللطف العظيم لعباده. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس من نبيّ صاحب كتاب إلاّ أوحي إليه بـ﴿حم ☆ عسق﴾ ﴿يوحَى﴾ بفتح الحاء: مكّيّ، ورافع اسم ﴿الله﴾ على هذه القراءة مادلّ عليه ﴿يوحي﴾ كأنّ قائلاً قال: مَن الموحي؟ فقيل: الله ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب بقهره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المصيب في فعله، وقوله.

٤ ـ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلكاً ومِلْكاً ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ شأنه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ برهانه.

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

٥ ـ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ـ وبالياء: نافع، وعليّ ـ ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ ـ يتشقّقن. ﴿ينفطرن﴾ بصريّ، وأبو بكر. ومعناه: يكدن ينفطرن من علوّ شأن الله وعظمته، يدلّ عليه مجيئه بعد: ﴿العليّ العظيم﴾. وقيل: من دعائهم له ولداً، كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠]. ومعنى ﴿من فوقهنّ﴾ أي: يبتدىء الانفطار من جهتهنّ الفوقانيّة، وكان القياس أن يقال: ينفطرن من تحتهنّ، من الجهة التي جاءت منها كلمة الكفر؛ لأنّها جاءت من الذين تحت السموات، ولكنّه بولغ في ذلك؛ فجعلت مؤثرة في جهة الفوق، كأنّه قيل: يكدن ينفطرن من الجهة التي فوقهنّ، دع الجهة التي تحتهنّ. وقيل: ﴿من فوقهنّ﴾ من فوق الأرض، فالكناية راجعة إلى الأرض؛ لأنه بمعنى الأرضين. وقيل: يتشقّقن لكثرة ما على السموات من الملائكة. قال عليه الصلاة والسلام: «أطّت السماء وحُقّ لها أن تئطّ، ما فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد»[1] ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ خضوعاً لما يرون من عظمته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للمؤمنين منهم ـ كقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] ـ خوفاً عليهم من سطواته، أو: يوحّدون الله، وينزّهونه عمّا لا يجوز عليه من الصفات، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه، متعجّبين ممّا رأوا من تعرّضهم لسخط الله تعالى، ﴿ويستغفرون﴾ لمؤمني أهل الأرض؛ الذين تبرّؤوا من تلك الكلمة، أو: يطلبون إلى ربّهم أن يحلم عن أهل الأرض، ولا يعاجلهم بالعقاب ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لهم.

٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: جعلوا له شركاء، وأنداداً ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيء، فيجازيهم عليها ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بموكّل عليهم، ولا مفوّض إليك أمرهم، إنّما أنت منذر فحسب.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٧٣) والترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠).

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ

٧ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وذلك إشارة إلى معنى الآية التي قبلها من أنّ الله رقيب عليهم لا أنت، بل أنت منذر؛ لأنّ هذا المعنى كرّره الله في كتابه، فالكاف: مفعول به لأوحينا ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من المفعول به، أي: أوحينا إليك، وهو قرآنٌ عربيّ بيّن ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: مكّة؛ لأنّ الأرض دحيت من تحتها، أو: لأنّها أشرف البقاع، والمراد: أهل أمّ القرى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يوم القيامة؛ لأنّ الخلائق تجمع فيه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض لا محل له، يقال: أنذرته كذا، وأنذرته بكذا. وقد عدّي ﴿لتنذر أمّ القرى﴾ إلى المفعول الأوّل ﴿وتنذر يوم الجمع﴾ إلى المفعول الثاني ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: ومنهم ﴿فريق في الجنّة﴾ ومنهم ﴿فريق في السعير﴾ والضمير للمجموعتين؛ لأنّ المعنى: يوم جَمْعِ للخلائق.

٨ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: مؤمنين كلّهم ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: يكرم من يشاء بالإسلام، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ والكافرون ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾ شافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ دافع.

٩ ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الفاء لجواب شرط مقدّر، كأنّه قيل بعد إنكار كلّ وليّ سواه: إن أرادوا وليّاً بحقّ ﴿فالله هو الوليّ﴾ بالحقّ، وهو الذي يجب أن يُتولّى وحده، ولا وليّ سواه ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيقُ بأن يُتّخذ وليّاً دون من لا يقدرُ على شيء.

١٠ ـ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين، أي: ما خالفكم فيه الكفّار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمرٍ من أمور الدين، ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ أي: حكم ذلك المختلف فيه مفوّض ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهو إثابةُ المحقّين فيه من المؤمنين، ومعاقبة المبطلين ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم بينكم

ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

﴿ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فيه ردُّ كيد أعداء الدين ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في كفاية شرّهم. وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم؛ التي لا تتصل بتكليفكم، ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا: الله أعلم، كمعرفة الروح، وغيره.

١١ ـ ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ارتفاعه على أنّه أحد أخبار ﴿ذلكم﴾ أو: خبر مبتدأ محذوف ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ خلق لكم من جنسكم من الناس ﴿أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي: وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثّركم. يقال: ذرأ الله الخلق: بثّهم، وكثّرهم ﴿فِيهِ﴾ ـ في هذا التدبير، وهو: أن جعل الناس والأنعام أزواجاً، حتّى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد، والتناسل. واختير ﴿فيه﴾ على به؛ لأنّه جعل هذا التدبير كالمنبع، والمعدن للبثّ، والتكثير. والضمير في ﴿يذرؤكم﴾ يرجعُ إلى المخاطبين والأنعام، مغلّباً فيه المخاطبون العقلاء على الغُيَّبِ ممّا لا يعقل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ قيل: إنّ كلمةَ التشبيه كرّرت لتأكيد نفي التماثل، وتقديره: ليس مثله شيء، وقيل: المثل زيادة، وتقديره: ليس كهو شيء. كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧] وهذا لأنّ المراد نفي المثليّة، وإذا لم تجعل الكاف أو المثل زيادة كان إثبات المثل. وقيل: المراد ليس كذاته شيء؛ لأنّهم يقولون: مثلك لا يبخل، يريدون به: نفي البخل عن ذاته، ويقصدون المبالغة في ذلك بسلوك طريق الكناية؛ لأنّهم إذا نفوه عمّن يسدّ مسدّه فقد نفوه عنه، فإذا علم أنّه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله: ليس كالله شيء، وبين قوله: ليس كمثله شيء، إلاّ ما تعطيه الكنايةُ من فائدتها. وكأنّهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد، وهو نفيُ المماثلة عن ذاته. ونحوه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] فمعناه: بل هو جوادٌ من غير تصوّر يد، ولا بسط لها؛ لأنّها وقعت عبارة عن الجود، حتّى إنّهم استعملوها فيمن لا يد له، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل، ومَن لا مثل له ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع

﴿ٱلْبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾

المسموعات بلا أذن ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ لجميع المرئيّات بلا حدقة، وكأنّه ذكرهما لئلا يتوهم أنّه لا صفة له، كما لا مثل له.

١٢ ـ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مرّ في «الزمر» ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٣ ـ ﴿۞ شَرَعَ﴾ بيّن، وأظهر ﴿لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ أي: ﴿شرع لكم من الدين﴾ دين نوح ومحمّد ومَن بينهما من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ثمّ فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ والمراد: إقامة دين الإسلام؛ الذي هو توحيدُ الله، وطاعته، والإيمان برسله، وكتبه، وبيوم الجزاء، وسائر ما يكون المرءُ بإقامته مسلماً، ولم يرد به الشرائع فإنّها مختلفة. قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ومحلّ ﴿أن أقيموا﴾ نصب بدل من مفعول ﴿شرع﴾ والمعطوفين عليه. أو: رفع على الاستئناف، كأنّه قيل: وما ذلك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في الدين. قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: لا تتفرّقوا، فالجماعة رحمة، والفرقة عذاب ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عظم عليهم، وشقّ عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من إقامة دين الله، والتوحيد ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ﴾ يجتلب، ويجمع ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الدين بالتوفيق، والتسديد ﴿مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ يقبل على طاعته.

١٤ ـ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ أي: أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ إلاّ من بعد أن علموا أنّ الفرقة ضلال، وأمر متوعّد عليه على ألسنة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً، وطلباً للرئاسة، والاستطالة بغير

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

حقّ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ـ وهي: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] ـ ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ لأهلكوا حين افترقوا لعظم ما اقترفوا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ هم أهلُ الكتاب؛ الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من كتابهم لا يؤمنون به حقّ الإيمان ﴿مُرِيبٍ﴾ مدخل في الريبة. وقيل: وما تفرّق أهلُ الكتاب ﴿إلاّ من بعد ما جاءهم العلم﴾ بمبعث رسول الله ﷺ ـ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] ـ ﴿وإنّ الذين أورثوا الكتاب من بعدهم﴾ هم المشركون أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب: التوراة، والإنجيل.

١٥ ـ ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فلأجل ذلك التفرّق، ولما حدث بسببه من تشعّب الكفر شعباً ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى الاتفاق والائتلاف على الملّة الحنيفيّة القديميّة ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليها، وعلى الدعوة إليها ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ كما أمرك الله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ المختلفة الباطلة ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أيّ كتاب صحّ أنّ الله تعالى أنزله، يعني: الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأنّ المتفرّقين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ـ ١٥١] ـ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: كلّنا عبيده ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ هو كقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. ويجوز أن يكون معناه: إنّا لا نؤاخذ بأعمالكم، وأنتم لا تؤاخذون بأعمالنا ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا خصومة؛ لأنّ الحقّ قد ظهر وصرتم محجوجين به، فلا حاجة إلى المحاجّة، ومعناه: لا إيراد حجّة بيننا؛ لأنّ المتحاجّين يورد هذا حجته وهذا حجته ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع لفصل لقضاء، فيفصل بيننا، وينتقم لنا منكم.

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾

---

١٦ ـ ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ يخاصمون في دينه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ استجاب له الناس، ودخلوا في الإسلام، ليردّوهم إلى دين الجاهليّة ـ كقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩]. كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبيّنا قبل نبيكم، فنحن خيرٌ منكم، وأولى بالحقّ. وقيل: ﴿من بعد ما استجيب﴾ لمحمّد عليه الصلاة والسلام دعاؤه في المشركين يوم بدر ـ ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾: باطلة ـ وسمّاها حجّة ـ وإن كانت شبهة ـ لزعمهم أنها حجّة ـ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة.

١٧ ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ أي: جنس الكتاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق، أي: ملتبساً به ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ والعدل والسَّوِيّة. ومعنى إنزال العدل: أنّه أنزله في كتبه المنزلة. وقيل: هو عين الميزان، أنزله في زمن نوح ـ عليه السلام ـ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي: لعلّ الساعة قريب منك وأنت لا تدري. والمراد: مجيء الساعة. والساعة في تأويل البعث. ووجه مناسبة اقتراب الساعة مع إنزال الكتب والميزان: أنّ الساعة يوم الحساب، ووضع الموازين بالقسط، فكأنّه قيل: أمركم الله بالعدل، والتسوية، والعمل بالشرائع، فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجئكم يوم حسابكم، ووزن أعمالكم.

١٨ ـ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاء ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون، وجلون لهولها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ ـ المماراة: الملاجّة؛ لأنّ كلّ واحد منهما يمري ما عند صاحبه ـ ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحقّ؛ لأنّ قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله تعالى. وقد دلّ الكتاب والسنة على وقوعها، والعقول تشهدُ على أنّه لا بدّ من دار جزاء.

ﭐللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ

١٩ ـ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ في إيصال المنافع، وصرف البلاء من وجهٍ يلطف إداركه. أو: برّ بليغ البرّ بهم، قد توصّل برّه إلى جميعهم. وقيل: من لطف بالغوامض علمه، وعظم عن الجرائم حلمه. أو: من ينشر المناقب، ويستر المثالب. أو: من يعفو عمّن يهفو. أو: يعطي العبد فوق الكفاية، ويكلّفه الطاعة دون الطاقة، وعن الجنيد ـ رحمه الله ـ: لطف بأوليائه فعرفوه، ولو لطف بأعدائه ما جحدوه ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يوسع رزق من يشاء إذا علم مصلحته فيه. في الحديث: «إنّ من عبادي المؤمنين من لا يُصْلِحُ إيمانه إلاّ الغِنى، ولو أفقرتُه لأفسده ذلك. وإنّ من عبادي المؤمنين من لا يُصْلِحُ إيمانه إلاّ الفقر، ولو أغنيتُه لأفسده ذلك»[1] ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة، الغالب على كلّ شيء ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يُغْلَب.

٢٠ ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ سُمِّي ما يعمله العامل ممّا يبتغي به الفائدة حرثاً مجازاً ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾ بالتوفيق في عمله، أو: التضعيف في حسناته، أو: بأن ينال به الدنيا والآخرة ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: مَن كان عمله للدنيا، ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ شيئاً ﴿منها﴾ ـ لأنّ مِن للتبعيض ـ وهو رزقه الذي قُسِم له، لا ما يريده، ويبتغيه ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ وماله نصيب قطّ في الآخرة. ولم يذكر في عوامل الآخرة أنّ رزقه المقسوم يصلُ إليه للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله، وفوزه في المآب.

٢١ ـ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ﴾ قيل: هي «أم» المنقطعة، وتقديره: بل ألهم شركاء، وقيل: هي المعادلة لألف الاستفهام. وفي الكلام إضمار، تقديره: أيقبلون ما شرع الله من الدين ﴿أم لهم﴾ آلهة ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٨٠٩٨).

وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى
ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ
ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ

أي: لم يأمر به ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: القضاء السابق بتأجيل الجزاء أو: ولولا العدة بأنّ الفصلَ يكونُ يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين، أو: لعجلت لهم العقوبة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وأن المشركين لهم عذاب أليم في الآخرة، وإن أخّر عنهم في دار الدنيا.

٢٢ ـ ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ المشركين في الآخرة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من جزاء كفرهم ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ نازلٌ بهم لا محالة، أشفقوا أو لم يشفقوا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ كأنّ روضة جنّة المؤمن أطيب بقعة فيها، وأنزهها ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ نصب بالظرف لا بـ ﴿يشاؤون﴾ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ على العمل القليل.

٢٣ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الفضل الكبير ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ ﴿يَبْشُر﴾: مكّيّ، وأبو عمرو، وحمزة، وعليّ ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: به، فحذف الجارّ، كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ثمّ حذف الراجع إلى الموصول، كقوله: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]. ولمّا قال المشركون: أيبتغي محمّد على تبليغ الرسالة أجراً؟ نزل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ ﴿أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. يجوز أن يكون استثناء متّصلاً، أي: لا أسألكم عليه أجراً إلاّ هذا، وهو: أن تودّوا أهل قرابتي. ويجوز أن يكون منقطعاً، أي: لا أسألكم عليه أجراً قط، ولكنّي أسألُكم أن تودُّوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم. ولم يقل إلا مودّة القربى، أو: المودّة للقربى؛ لأنهم جعلوا مكاناً للمودّة، ومقرّاً لها، كقولك: لي في آل فلان مودّة، ولي فيهم حبّ شديد، تريد: أحبهم، وهم مكان حبّي ومحلّه. وليست ﴿في﴾ بصلة للمودّة كاللام، إذا قلت: إلاّ المودّة للقربى، إنما هي متعلّقة بمحذوف، تعلّق الظرف

وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ

به، في قولك: المال في الكيس. وتقديره: ﴿إلاّ المودّة﴾ ثابتة ﴿في القربى﴾ ومتمكّنة فيها. والقربى مصدر، كالزلفى، والبشرى، بمعنى القرابة. والمراد: ﴿في﴾ أهل ﴿القربى﴾. وروي: أنها لمّا نزلت قيل: يا رسول الله! مَن قرابتك هؤلاء الذين وجبتْ علينا مودّتهم؟ قال: عليّ، وفاطمة، وابناهما ـ رضي الله عنهم ـ وقيل: معناه: إلاّ أن تودّوني لقرابتي فيكم، ولا تؤذوني، ولا تهيجوا عليّ، إذ لم يكن من بطون قريش إلاّ بين رسول الله وبينهم قرابة. وقيل: القربى: التقرّب إلى الله تعالى، أي: إلاّ أن تحبّوا الله ورسوله في تقرّبكم إليه بالطاعة، والعمل الصالح ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ يكتسب طاعة. عن السديّ ـ رحمه الله ـ: أنّها المودة في آل رسول الله ﷺ، نزلت في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ومودّته فيهم. والظاهر: العموم في أيّ حسنة كانت، إلاّ أنّها تتناول المودّة تناولاً أوّلياً لذكرها عقيب ذكر المودّة في القربى ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: نضاعفها، كقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقرىء (حسنى) وهو مصدر كالبشرى، والضمير يعودُ إلى الحسنة، أو: إلى الجنّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أذنب بِطَوْلِهِ ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع بفضله. وقيل: قابلٌ للتوبة، حاملٌ عليها. وقيل: الشكور في صفة الله تعالى عبارة عن الاعتداد بالطاعة، وتوفية ثوبها، والتفضّل على المثاب.

٢٤ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ «أم» منقطعة، ومعنى الهمزة فيه التوبيخ، كأنّه قيل: أيتمالكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثمّ إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى، وأفحشها؟ ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال مجاهد: أي: يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، وعلى قولهم: افترى على الله كذباً؛ لئلا تدخله مشقّة بتكذيبهم ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: الشرك، وهو كلام مبتدأ غير معطوف على ﴿يختم﴾ لأنّ محوَ الباطل غير مُعلّقٍ بالشرط، بل هو وعدٌ مطلق، دليلُه: تكرار اسم الله، ورَفْعُ ﴿ويحق﴾. وإنّما سقطت الواو في الخطّ كما سقطت في ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١] و﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] على أنّها مثبتة في مصحف نافع ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ ويظهر الإسلام، ويثبته ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾

بما أنزل من كتابه على لسان نبيه ﷺ. وقد فعل الله ذلك، فمحا باطلهم، وأظهر الإسلام ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ﴿عليم﴾ بما في صدرك وصدورهم، فيجري الأمر على حسب ذلك.

٢٥ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ يقال: قبلت منه الشيء: إذا أخذته منه، وجعلته مبدأ قبولي. ويقال: قبلته عنه، أي: عزلته عنه، وأبنته عنه. والتوبة: أن يرجعَ عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما، والعزم على ألّا يعودَ، وإن كان لعبدٍ فيه حقّ لم يكن بدّ من التفصّي على طريقه. وقال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: هو اسمٌ يقع على ستّة معان؛ على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، وردّ المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كلّ ضحك ضحكته. وعن السدّيّ: هو صدقُ العزيمة على ترك الذنوب، والإنابة بالقلب إلى علّام الغيوب. وعن غيره: هو ألّا يجدَ حلاوة الذنب في القلب عند ذكره. وعن سهل ـ رحمه الله ـ: هو الانتقالُ من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة. وعن الجنيد ـ رحمه الله ـ: هو الإعراض عمّا دون الله ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هو ما دون الشرك، يعفو لمن يشاء بلا توبة ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء: كوفيّ غير أبي بكر، أي: من التوبة، والمعصية. ولا وقفَ عليه للعطف عليه، واتّصال المعنى.

٢٦ ـ ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: إذا دعوه استجاب دعاءهم، وأعطاهم ما طلبوا، وزادهم على مطلوبهم. واستجاب وأجاب بمعنىً. والسين في مثله لتوكيد الفعل، كقولك: تعظم، واستعظم. والتقدير: ويجيب الله الذين آمنوا، وقيل: معناه: ويستجيب للذين، فحذف اللام. مَنَّ عليهم بأن يقبل توبتهم إذا تابوا، ويعفو عن سيّئاتهم، ويستجيبُ لهم إذا دعوه، ويزيدهم على ما سألوا. وعن إبراهيم بن أدهم: أنّه قيل له:

وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ

ما بالنا ندعوه فلا نجاب؟ قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة.

٢٧ ـ ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ اي: لو أغناهم جميعاً ﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من البغي: الظلم، أي: لبغى هذا على ذاك، وذاك على هذا؛ لأنّ الغنى مبطرة مأشرة[١]. وكفى بحال فرعون عبرة. أو: من البغي، وهو: الكبر، أي: لتكبّروا في الأرض ﴿وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ﴾ وبالتخفيف: مكيّ، وأبو عمرو ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ بتقدير. يقال: قدره، قدْراً، وقدَراً ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعلم أحوالهم فيقدُر لهم ما تقتضيه حكمته، فيفقر ويُغني، ويمنع، ويعطي، ويقبض، ويبسط، ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم لهلكوا. وما ترى من البسط على مَن يبغي، ومن البغي بدون البسط، فهو قليل. ولا شكّ أنّ البغيَ مع الفقر أقلّ ومع البسط أكثر وأغلب.

٢٨ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ بالتشديد: مدنيّ، وشاميّ، وعاصم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ وقرىء ﴿قنِطوا﴾ ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: بركات الغيث، ومنافعه، وما يحصل به من الخصب. وقيل لعمر ـ رضي الله عنه ـ: اشتدّ القحط، وقنط الناس! فقال: مُطِروا إذاً. أراد هذه الآية. أو أراد رحمته في كلّ شيء ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولّى عباده بإحسانه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود على ذلك يحمده أهلُ طاعته.

٢٩ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: من علامات قدرته ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع عظمهما ﴿وَمَا بَثَّ﴾ فرّق و﴿ما﴾ يجوز أن يكون مرفوعاً ومجروراً حملاً على المضاف، أو: المضاف إليه ﴿فِيهِمَا﴾ في السموات والأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ الدوابّ تكون في الأرض وحدها، لكن يجوزُ أن ينسبَ الشيء إلى جميع المذكور وإن كان

(١) «مأشرة»: الأشر: البطر، وهو قلة احتمال النعمة، والطغيان بها، وشدّة المَرَح.

وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ

ملتبساً ببعضه، كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد، وإنّما هو في فخذٍ[1] من أفخاذهم. ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنّما يخرج من الملح. ولا يبعدُ أن يخلق في السموات حيواناً يمشون فيها مشي الأناسيّ على الأرض، أو: يكون للملائكة مشي مع الطيران، فوصفوا بالدَّبيب كما وصف به الأناسيّ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾. إذا تدخل على المضارع كما تدخل على الماضي، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١].

٣٠ ـ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ غمّ، وألم، ومكروه ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بجناية كسبتموها عقوبة عليه (بما كسبت) مدنيّ، وشاميّ، على أن ﴿ما﴾ مبتدأ و﴿بما كسبت﴾ خبره من غير تضمين معنى الشرط، ومَن أثبت الفاء فعلى تضمين معنى الشرط. وتعلّق بهذه الآية من يقول بالتناسخ؛ وقال: لو لم يكن للأطفال حالة كانوا عليها قبل هذه الحالة لما تألّموا. وقلنا: الآية مخصوصة بالمكلّفين بالسباق والسياق، وهو ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: من الذنوب، فلا يُعاقب عليه، أو: عن كثيرٍ من الناس، فلا يعاجلهم بالعقوبة. وقال ابن عطاء ـ رحمه الله ـ: من لم يعلم أنّ ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه، وأنّ ما عفا عنه مولاه أكثر، كان قليل النظر في إحسان ربّه إليه.

وقال محمّد بن حامد: العبدُ ملازِمٌ للجنايات في كلّ أوان، وجناياته في طاعته أكثر من جناياته في معاصيه؛ لأنّ جناية المعصية من وجه، وجناية الطاعة من وجوه، والله يُطهِّر عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفّف عنه أثقاله في القيامة، ولولا عفوه ورحمته لهلك في أوّل خطوة.

وعن عليّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ: هذه أرجى آيةٍ للمؤمنين في القرآن، لأنّ الكريمَ إذا عاقب مرّةً لا يُعاقِب ثانياً، وإذا عفا لا يعود.

٣١ ـ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بفائتين ما قُضيَ عليكم من المصائب

---

(١) «فخذ»: العشائر أقلُّها فخذ، وفوقه البطن، ثم العمارة، ثم الفصيلة، ثم القبيلة، ثم الشعب، وهو أكثرها.

وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ
كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ
ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ متولٍ بالرحمة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر يدفع عنكم العذاب إذا حلّ بكم.

٣٢ ـ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ جمع جارية، وهي: السفينة ﴿الجواري﴾ في الحالين: مكّيّ، وسهل، ويعقوب. وافقهم مدنيّ، وأبو عمرو في الوصل ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ كالجبال.

٣٣ ـ ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ (الرِّياح): مدنيّ ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ﴾ ثوابت لا تجري ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه، أي: لكلّ مؤمن مخلص. فالإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر. أو: ﴿صبّار﴾ على طاعته ﴿شكور﴾ لنعمته.

٣٤ ـ ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهنّ، وهو عطف على ﴿يسكن﴾ والمعنى: ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ فيركدن، أو: يعصفها فيغرقن بعصفها ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ منها فلا يجازي عليها. وإنّما أدخل العفو في حكم الإيباق، حيث جزم جزمه؛ لأنّ المعنى: أو إن يشأ يهلك ناساً، وينج ناساً على طريق العفو عنهم.

٣٥ ـ ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بالنصب، عطف على تعليل محذوف، تقديره: لينتقم منهم ﴿ويعلم﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ أي: في إبطالها ودفعها ﴿ويعلمُ﴾: مدنيّ، وشاميّ على الاستئناف ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهرب من عذابه.

٣٦ ـ ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿ما﴾ الأولى ضمّنت معنى الشرط، فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية. نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين تصدّق بجميع ماله، فلامه الناس.

وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ

٣٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ عطف على الذين آمنوا، وكذا ما بعده ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ أي: الكبائر من هذا الجنس. (كبير الإثم): عليّ، وحمزة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كبير الإثم هو الشرك ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ قيل: ما عظم قبحه فهو فاحشة كالزنى ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ﴾ من أمور دنياهم ﴿هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ أي: هم الأخصّاء بالغفران في حال الغضب. والمجيء بـ ﴿هم﴾ وإيقاعه مبتدأً، وإسناد ﴿يغفرون﴾ إليه: لهذه الفائدة. ومثله: ﴿هم ينتصرون﴾.

٣٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ نزلت في الأنصار دعاهم الله عزّ وجلّ للإيمان به، وطاعته، فاستجابوا له بأن آمنوا به، وأطاعوه ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأتمّوا الصلوات الخمس ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: ذو شورى، يعني: لا ينفردون برأي حتّى يجتمعوا عليه. وعن الحسن: ما تشاور قوم إلاّ هُدوا لأرشد أمورهم. والشورى مصدر، كالفتيا بمعنى التشاور ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ يتصدّقون.

٣٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾ الظلم ﴿هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ ينتقمون ممّن ظلمهم، أي: يقتصرون في الانتصار على ما جعله الله تعالى لهم، ولا يعتدون. وكانوا يكرهون أن يذلّوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفسّاق، وإنّما حمدوا على الانتصار؛ لأنّ من انتصر، وأخذ حقّه، ولم يجاوز في ذلك حدّ الله، فلم يسرف في القتل إن كان وليّ دم، فهو مطيع لله، وكلّ مطيع محمود.

٤٠ ـ ثم بيّن حدّ الانتصار، فقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ فالأولى سيّئة حقيقة، والثانية لا، وإنما سمّيت سيّئة؛ لأنّها مجازاة السوء، أو: لأنّها تسوء من تنزل به، ولأنّه لو لم تكن الأولى لكانت الثانية سيّئة لأنّها إضرار، وإنّما صارت حسنة لغيرها، أو: في تسمية الثانية سيّئة إشارة إلى أنّ العفو مندوب إليه. والمعنى: أنّه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو، والإغضاء ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عِدَةٌ مبهمة لا يقاس

إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا
ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ
مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

أمرها في العظم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يبدؤون بالظلم، أو: الذين يجاوزون حدّ الانتصار. في الحديث: «ينادي منادٍ يوم القيامة من كان له أجر على الله فليقم، فلا يقوم إلّا من عفا»[1].

٤١ ـ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: أخذ حقّه بعد ما ظُلم ـ على إضافة المصدر إلى المفعول ـ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ ـ إشارة إلى معنى ﴿من﴾ دون لفظه ـ ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ للمعاقب ولا للمعاتب والمعايب.

٤٢ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يتكبّرون فيها، ويعلون، ويفسدون ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وفسّر السبيل بالتبعة، والحجة.

٤٣ ـ ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الظلم، والأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصر ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الصبر، والغفران منه ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي ندب إليها، أو: ممّا ينبغي أن يوجبه العاقل على نفسه، ولا يترخّص في تركه. وحذف الراجع ـ أي: منه ـ لأنّه مفهوم، كما حذف من قولهم: السمن مَنَوانِ بدرهم. وقال أبو سعيد القرشيّ: الصبر على المكاره من علامات الانتباه، فمن صبر على مكروه يصيبه، ولم يجزع، أورثه الله تعالى حال الرضا، وهو أجلّ الأحوال، ومن جزع من المصيبات، وشكا وكله الله تعالى إلى نفسه، ثمّ لم تنفعه شكواه.

٤٤ ـ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فما له من أحد يلي هدايته من بعد إضلال الله إيّاه، ويمنعه من عذابه ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يوم القيامة ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ حين يرون العذاب ـ واختير لفظ الماضي للتحقيق ـ ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ يسألون ربهم الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا به.

(١) رواه العقيلي في الضعفاء (٣ / ٤٤٧ ـ ٤٤٨).

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ
ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن
تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ

---

٤٥ ـ ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار؛ إذ العذاب يدلّ عليها ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متضائلين، متقاصرين ممّا يلحقهم من الذلّ ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى النار ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ضعيف بمسارقة، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ «يوم» متعلق بخسروا ـ وقول المؤمنين واقع في الدنيا ـ أو: بـ﴿قال﴾، أي: يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائم.

٤٦ ـ ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من دون عذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى النجاة.

٤٧ ـ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أي: أجيبوه إلى ما دعاكم إليه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿مِنْ﴾ يتّصل بـ﴿لا مردَّ﴾، أي: لا يرده الله بعد ما حكم به، أو: بـ﴿يأتي﴾، أي: ﴿من قبل أن يأتي﴾ من الله يوم لا يقدر أحد على ردّه ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم مخلص من العذاب، ولا تقدرون أن تنكروا شيئاً ممّا اقترفتموه، ودوّن في صحائف أعمالكم. والنكير: الإنكار.

٤٨ ـ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ عن الإيمان ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رقيباً ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ ما عليك إلاّ تبليغ الرسالة، وقد فعلت ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المراد: الجمع ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ نعمة، وسعة، وأمناً، وصحّة ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ بطر لأجلها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ بلاء كالمرض، والفقر، ونحوهما ـ وتوحيد ﴿فرح﴾

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا

باعتبار اللفظ، والجمع في ﴿وإن تصبهم﴾ باعتبار المعنى ـ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب معاصيهم ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾. ولم يقل: فإنّه كفور؛ ليسجّل على أنّ هذا الجنس موسوم بكفران النعم، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. والكفور: البليغ الكفران. والمعنى: أنّه يذكر البلاء، وينسى النعم، ويَغْمُطُها. قيل: أريد به كفران النعمة. وقيل: أريد به الكفر بالله تعالى.

٤٩، ٥٠ ـ ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أي: يقرنهم ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾. لمّا ذكر إذاقة الإنسان الرحمة، وإصابته بضدّها، أتبع ذلك: أنّ له تعالى الملك، وأنّه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد، ويهب لعباده من الأولاد ما يشاء، فيخصّ بعضاً بالإناث، وبعضاً بالذكور، وبعضاً بالصنفين جميعاً، ويجعل البعض عقيماً. والعقيم: التي لا تلد. وكذلك رجل عقيم؛ إذا كان لا يولد له. وقدّم الإناث أوّلاً على الذكور، لأنّ سياقَ الكلام أنّه فاعل لما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهمّ، والأهمّ واجبُ التقديم. وليلي الجنسُ الذي كانت العرب تعدّه بلاءً ذِكْرَ البلاء. ولمّا أخّر الذكور ـ وهم أحقّاء بالتقديم ـ تدارك تأخيرهم لتعريفهم؛ لأنّ التعريف تنويه وتشهير. ثمّ أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقّه من التقديم والتأخير، وعرّف أن تقديمهن لم يكن لتقدّمهنّ ولكن لمقتض آخر، فقال: ﴿ذكراناً وإناثاً﴾. وقيل: نزلت في الأنبياء ـ عليهم السلام ـ حيث وهب للوط وشعيب إناثاً، ولإبراهيم ذكوراً، ولمحمد ﷺ ذكوراً وإناثاً، وجعل يحيى وعيسى عليهما السلام عقيمين ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بكلّ شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر على كلّ شيء.

٥١ ـ ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صحّ لأحد من البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾

أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ

أي: إلهاماً ـ كما روي: «نفث في روعي»[١]، أو: رؤيا في المنام؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «رؤيا الأنبياء وحي»[٢]. وهو كأمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بذبح الولد ـ ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ أي: يسمع كلاماً من الله، كما سمع موسى ـ عليه السلام ـ من غير أن يبصر السامع من يكلّمه. وليس المراد به حجاب الله تعالى؛ لأنّ الله تعالى لا يجوزُ عليه ما يجوز على الأجسام من الحجاب، ولكن المراد به: أنّ السَّامعَ محجوبٌ عن الرؤية في الدنيا ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: يرسل ملكاً ﴿فَيُوحِيَ﴾ الملك إليه. وقيل: ﴿وحياً﴾ كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة ﴿أو يرسل رسولاً﴾ أي: نبيّاً، كما كلّم أمم الأنبياء على ألسنتهم. و﴿وحياً﴾ و«أن يرسل» مصدران واقعان موقع الحال؛ لأنّ أن يرسلَ في معنى إرسالاً. و﴿من وراء حجاب﴾ ظرف واقع موقع الحال؛ كقوله ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]. والتقدير وما صحّ أن يكلّم أحداً إلاّ موحياً، أو مسمعاً من وراء حجاب، أو: مرسلاً. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلاّ﴾ بأن يوحي، أو: أن يُسْمِعَ من وراء حجاب، أو: أن يُرْسِلَ رسولاً، وهو اختيار الخليل. ﴿أو يرسلُ رسولاً فيوحي﴾ بالرفع: نافع، على تقدير ﴿أو﴾ هو ﴿يرسل رسولاً فيوحي﴾ ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ إذن الله ﴿مَا يَشَآءُ﴾ من الوحي ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ قاهر، فلا يمانع ﴿حَكِيمٌ﴾ مصيب في أقواله، وأفعاله، فلا يعارض.

٥٢ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أوحينا إلى الرسل قبلك، أو: كما وصفنا لك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ إيحاءً كذلك ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يريد: ما أوحى إليه؛ لأنّ الخلق يحيون به في دينهم، كما يحيا الجسد بالروح. ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ ـ الجملة حال من الكاف في ﴿إليك﴾ ـ ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ القرآن ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: شرائعه، ﴿ولا الإيمان﴾ بالكتاب؛ لأنّه إذا كان لا يعلم بأنّ الكتاب ينزلُ عليه لم يكن عالماً بذلك الكتاب. وقيل: الإيمان يتناولُ أشياء؛ بعضها الطريق إليه العقل،

(١) رواه أحمد (٣/ ٥٠).
(٢) رواه البخاري (٨٥٩).

وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾
صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل، وذاك ما كان له فيه علم حتّى كسبه بالوحي ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ لتدعو ـ وقرىء به ـ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الإسلام.

٥٣ ـ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ ـ بدل ـ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مَلْكاً ومُلْكاً ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ هو وعيد بالجحيم، ووعد بالنعيم.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ
فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ

١ ـ ٣ ـ ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أقسم بالكتاب المبين، وهو القرآن، وجعل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ صيّرناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ جواباً للقسم. وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه. والمبين: البيّن للذين أنزل عليهم؛ لأنّه بلغتهم وأساليبهم، أو: الواضح للمتدبّرين، أو: الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة، وأبان كلّ ما تحتاجُ إليه الأمّة في أبواب الديانة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه.

٤ ـ ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا﴾ وإنّ القرآن مثبتٌ عند الله في اللوح المحفوظ، دليلُه قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢] وسُمِّي أمّ الكتاب؛ لأنّه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب، منه تنقل وتستنسخ. ﴿أمّ الكتاب﴾ بكسر الألف: عليّ وحمزة ﴿لَعَلِيٌّ﴾ خبر إنّ، أي: في أعلى طبقات البلاغة، أو: رفيع الشأن في الكتب؛ لكونه معجزاً من بينها ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة.

٥ ـ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ﴾ ﴿أ﴾ فننحّي عنكم الذكر، ونذوده عنكم.

صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا
يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ
الْأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ ۝٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا

على سبيل المجاز، من قولهم: ضرب الغرائب[1] عن الحوض. والفاء للعطف على محذوف، تقديره: أنهملكم ﴿فنضرب عنكم الذكر﴾ إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدّم من إنزاله الكتاب، وجعله قرآناً عربيّاً ليعقلوه، وليعملوا بمواجبه ﴿صَفْحًا﴾ مصدر، من: صفح عنه؛ إذا أعرض، منتصب على أنّه مفعول له، على معنى: أفنعزل عنكم إنزال القرآن، وإلزام الحجّة به إعراضاً عنكم. ويجوز أن يكون مصدراً على خلاف الصدر؛ لأنّه يقال: ضربت عنه؛ أي: أعرضت. كذا قاله الفراء ﴿أَن كُنتُمْ﴾ لأن كنتم ﴿إن كنتم﴾: مدنيّ، وحمزة، وعليٌّ. وهو من الشرط الذي يصدرُ عن المدلّ بصحّة الأمر المتحقّق لثبوته، كما يقول الأجير: إن كنت عملتُ لك فوفّني حقّي، وهو عالم بذلك ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ مفرطين في الجهالة، مجاوزين الحدّ في الضلالة.

٦ ـ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ أي: كثيراً من الرسل أرسلنا إلى مَن تقدّمك.

٧ ـ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هي حكاية حال ماضية مستمرّة، أي: كانوا على ذلك. وهذه تسليةٌ لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

٨ ـ ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ تمييز. والضمير للمسرفين؛ لأنّه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبره عنهم ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصّتهم، وحالهم العجيبة التي حقّها أن تسير مسير المثل[2]. وهذا وعدٌ لرسول الله ﷺ، ووعيد لهم.

٩، ١٠ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: المشركين ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ـ : كوفي.

---

(١) «الغرائب»: جمع غريبة، وهي الإبل الغريبة عن إبل صاحب الحوض.
(٢) في الأصل المخطوط: مثل المسير، والمثبت من الكشاف للزمخشري (٣/٤٧٨).

وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ
فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم
مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا
اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ
رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

أي: موضع قرارٍ وغيره ﴿مهاداً﴾ أي: موضع قرار ـ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا في أسفاركم.

١١ ـ ﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ بمقدار يسلم معه العباد، وتحتاج إليه البلاد ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ فأحيينا ـ عدول من المغايبة إلى الإخبار لعلم المراد بالمخاطب بالمراد ﴿بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ يزيد: ﴿مَيِّتاً﴾ ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء. ﴿تَخْرُجون﴾: حمزة، وعليّ. ولا وقف على ﴿العليم﴾ لأنّ ﴿الذي﴾ صفته. وقد وقف عليه أبو حاتم، على تقدير: هو ﴿الذي﴾؛ لأنّ هذه الأوصافَ ليست من مقول الكفّار؛ لأنّهم ينكرون الإخراجَ من القبور، فكيف يقولون: ﴿كذلك تخرجون﴾؟ بل الآيةُ حجّةٌ عليهم في إنكار البعث.

١٢ ـ ﴿وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَٰجَ﴾ الأصناف ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: تركبونه. يقال: ركبوا في الفلك، وركبوا الأنعام، فَغُلِّبَ المتعدّي بغير واسطة لقوّته على المتعدِّي بواسطة، فقيل: تركبونه .

١٣ ـ ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ على ظهور ما تركبونه، وهو: الفلك، والأنعام ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا﴾ بألسنتكم ﴿سُبْحَٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ ذلّل هذا المركوب ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين. يقال: أقرن الشيء: إذا أطاقه. وحقيقة أقرنه: وجده قرينته؛ لأنّ الصعب لا يكون قرينة للضعيف.

١٤ ـ ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ لراجعون قيل: يذكرون عند ركوبهم مركب الدنيا آخر مركبهم منها، وهو: الجنازة. وعن النبيّ ﷺ: «أنّه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: باسم الله، فإذا استوى على الدابّة قال: الحمد لله على كلّ حال ﴿سبحان الذي سخّر لنا هذا﴾ إلى قوله ﴿لمنقلبون﴾ وكبّر ثلاثاً، وهلّل

وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾

ثلاثاً»[(١)]. وقالوا: إذا ركب في السفينة قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

وحكي: أنّ قوماً ركبوا، وقالوا ﴿سبحان الذي سخّر لنا...﴾ الآية، وفيهم رجل على ناقة لا تتحرّك هزالاً، فقال: إنّي مقرن لهذه، فسقط منها لوثبتها، واندقّت عنقه.

وينبغي ألاّ يكون ركوبُ العاقل للتنزّه والتلذّذ، بل للاعتبار، ويتأمّل عنده أنه هالك لا محالة، ومنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه.

١٥ ـ ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ متّصل بقوله: ﴿ولئن سألتهم﴾ أي: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفنّ به ﴿و﴾ قد ﴿جعلوا له﴾ مع ذلك الاعتراف ﴿من عباده جزءاً﴾ أي: قالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له، وبعضاً منه، كما يكون الولد جزءاً لوالده. ﴿جزُؤاً﴾: أبو بكر، وحمّاد ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ لجحود للنعمة، ظاهر جحوده؛ لأنّ نسبة الولد إليه كفر، والكفر أصلُ الكفران كلّه.

١٦ ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي: بل أتّخذ. والهمزة للإنكار تجهيلاً لهم، وتعجيباً من شأنهم، حيث ادّعوا أنّه اختار لنفسه المنزلة الأدنى، ولهم الأعلى.

١٧ ـ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً، أي: شبهاً ـ لأنّه إذا جعل الملائكة جزءاً لله، وبعضاً منه، فقد جعله من جنسه، ومماثلاً له؛ لأنّ الولدَ لا يكونُ إلاّ من جنس الوالد ـ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس، ومن حالهم: أنّ أحدهم إذا قيل له: قد ولدت لك بنت، اغتم، واربدّ وجهه غيظاً[(٢)] وتأسفاً، وهو مملوءٌ من

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٢) والترمذي (٣٤٤٦).

(٢) أي: تغيّر إلى الغبرة من الغضب.

أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم

الكرب. والظلول: بمعنى الصيرورة.

١٨ ـ ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: ﴿أو﴾ يُجعَلُ للرحمن مِن الولد مَن هذه الصفة المذمومة صفته، وهو أنّه ﴿ينشّأ في الحلية﴾ أي: يتربّى في الزينة، والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم[1]، ومجاراة الرجال، كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان؛ وذلك لضعف عقولهنّ[2]. قال مقاتل ـ رحمه الله ـ: لا تتكلّم المرأة إلاّ وتأتي بالحجة عليها. وفيه أنّه جعل النشأ في الزينة من المعايب، فعلى الرجل أن يجتنبَ ذلك، ويتزيّن بلباس التقوى. و﴿من﴾ منصوب المحلّ. والمعنى: ﴿أوَ﴾ جعلوا ﴿من يَنشَأ في الحلية﴾ ـ يعني: البنات ـ لله عزّ وجلّ ﴿يُنشّأ﴾: حمزة، وعليّ، وحفص، أي: يربّى. قد جمعوا في كفرةٍ ثلاث كفرات، وذلك أنّهم نسبوا إلى الله الولد، ونسبوا إليه أخسّ النوعين، وجعلوه من الملائكة المكرّمين، فاستخفّوا بهم.

١٩ ـ ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ أي: سمّوا، وقالوا: إنّهم إناث ﴿عند الرحمن﴾: مكّيّ، ومدنيّ، وشاميّ، أي: عنديّة منزلة ومكانة، لا منزل ومكان، والعباد جمع: عبد. وهو ألزمُ في الحجاج مع أهل العناد، لتضادّ بين العبوديّة والولاد ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ وهذا تهكّم بهم، يعني: أنّهم يقولون ذلك من غير أن يستندَ قولُهم إلى علم، فإنّ الله لم يضطرّهم إلى علم ذلك، ولا تطرّقوا إليه باستدلال، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم، ولم يشاهدوا خلقهم حتّى يخبروا عن المشاهدة ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها. وهذا وعيد.

٢٠ ـ ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أي: الملائكة. تعلّقت المعتزلةُ بظاهر هذه الآية في أنّ الله تعالى لم يشأ الكفر من الكافر، وإنّما شاء الإيمان، فإنّ

(١) «مجاثاة الخصوم»: جثا: برك على ركبتيه.
(٢) في الأصل المخطوط: «عقولهم».

مَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ

الكفّار ادّعوا: أنّ الله شاء منهم الكفر، وما شاء منهم ترك عبادة الأصنام، حيث ﴿قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ أي: لو شاء منا أن نترك عبادة الأصنام لمنعنا عن عبادتها، ولكن شاء منّا عبادة الأصنام. والله تعالى ردّ عليهم قولهم، واعتقادهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ المقول ﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون. ومعنى الآية عندنا: أنهم أرادوا بالمشيئة: الرضا. وقالوا: لو لم يرض بذلك لعجّل عقوبتنا، أو: لمنعنا عن عبادتها منع قهر، واضطرار، وإذ لم يفعل فقد رضي بذلك، فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ما لهم بذلك من علم...﴾ الآية. أو: قالوا هذا القول استهزاء لا جدّاً واعتقاداً، فأكذبهم الله تعالى فيه، وجهّلهم حيث لم يقولوا عن اعتقاد، كما قال مخبراً عنهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧] وهذا حقّ في الأصل، ولكن لمّا قالوا ذلك استهزاء، كذّبهم الله بقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧] وكذلك قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] ثمّ قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] لأنّهم لم يقولوه عن اعتقاد، وجعلوا المشيئة حجّة لهم فيما فعلوا باختيارهم، وظنّوا أنّ الله لا يعاقبهم على شيء فعلوه بمشيئته، وجعلوا أنفسهم معذورين في ذلك، فردّ الله تعالى عليهم.

٢١، ٢٢ ـ ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل القرآن، أو: من قبل قولهم هذا ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ آخذون، عاملون. وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديره: ﴿أشهدوا﴾ خلقهم أم أتيناهم كتاباً، فيه: أنّ الملائكة إناث؟! ﴿بَلْ قَالُوٓا۟﴾ بل لا حجة لهم يتمسّكون بها، لا من حيث العيان، ولا من حيث العقل، ولا من حيث السمع إلاّ قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ على دين، فقلّدناهم، وهي من الأمّ، وهو القصد. فالأمّة: الطريقة التي تؤمّ، أي: تقصد ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ الظرف صلة لمهتدون، أو: هما خبران.

٢٣ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ نبيّ ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي:

إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ

متنعّموها، وهم: الذين أترفتهم النعمة، أي: أبطرتهم، فلا يحبّون إلاّ الشهوات، والملاهي، ويعافون مشاقَّ الدين، وتكاليفه ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وهذه تسليةٌ للنبيّ ﷺ وبيان: أنّ تقليدَ الآباء داءٌ قديم.

٢٤ ـ ﴿۞ قَٰلَ﴾: شاميّ، وحفص، أي: النذير. (قل) غيرهما، أي: قيل للنذير: قل ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي: أتتبعون آباءكم، ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟! ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ ثابتون على دين آبائنا، وإن جئتنا بما هو أهدى، وأهدى.

٢٥ ـ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فعاقبناهم بما استحقّوه على إصرارهم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٢٦ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: اذكر إذ قال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ أي: بريء ـ وهو مصدر يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع، والمذكّر والمؤنّث، كما تقول: رجل عدل، وامرأة عدل، وقوم عدل، والمعنى: ذو عدل، وذات عدل ـ ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

٢٧ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناء منقطع، كأنّه قال: لكن الذي فطرني ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ يثبّتني على الهداية.

٢٨ ـ ﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ كلمة التوحيد التي تكلّم بها ـ وهي قوله: ﴿إنّني براء ممّا تعبدون * إلاّ الذي فطرني﴾ ـ ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ في ذرّيته فلا يزال فيهم من يوحّد الله، ويدعو إلى توحيده ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلّ مَن أشرك منهم يرجع بدعاء من وحّد منهم. والترجّي لإبراهيم ـ عليه السلام ـ.

٢٩ ـ ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ يعني: أهل مكّة، وهم من عقب إبراهيم

حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

ـ عليه السلام ـ بالمدّ في العمر، والنعمة، فاغترّوا بالمهلة، وشغلوا بالتنعّم، واتّباع الشهوات، وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿وَرَسُولٌ﴾ أي: محمّد عليه الصلاة والسلام ﴿مُّبِينٌ﴾ واضح الرسالة بما معه من الآيات البيّنة.

٣٠ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ القرآن ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

٣١ ـ ﴿وَقَالُوا۟﴾ متحكمين بالباطل: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ ـ فيه استهانةٌ به ـ ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: على رجل عظيم من إحدى القريتين، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: من أحدهما. والقريتان: مكّة والطائف. وعنوا بعظيم مكّة: الوليد بن المغيرة، وبعظيم الطائف: عروة بن مسعود الثقفيّ. وأرادوا بالعظيم: مَن كان ذا مال، وجاه، ولم يعرفوا: أنّ العظيم مَن كان عند الله عظيماً.

٣٢ ـ ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: النبوّة. والهمزة للإنكار المستقلّ بالتجهيل والتعجيب من تحكّمهم في اختيار مَن يصلح للنبوّة. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ ما يعيشون به، وهو أرزاقهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: لم نجعل قسمة الأدون إليهم، وهو الرزق، فكيف النبوّة؟ أو: كما فضّلت البعض على البعض في الرزق، فكذا أخصّ بالنبوّة من أشاء ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: جعلنا البعض أقوياء وأغنياء وموالي، والبعض ضعفاء وفقراء وخدماء ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليصرّف بعضهم بعضاً في حوائجهم، ويستخدموهم في مهنهم، ويسخروهم في أشغالهم، حتّى يتعايشوا، ويصلوا إلى منافعهم، هذا بماله، وهذا بأعماله ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: النبوّة، أو: دين الله، وما يتبعه من الفوز في المآب ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مما يجمعُ هؤلاء من حطام الدنيا.

٣٣ ـ ولمّا قلّل أمر الدنيا، وصغّرها أردفه ما يقرّر قلّة الدنيا عنده، فقال:

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ولولا كراهة[1] أن يجتمعوا على الكفر، ويطبقوا عليه ﴿لَّجَعَلْنَا﴾ لحقارة الدنيا عندنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

٣٤، ٣٥ ـ ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۞ وَزُخْرُفًا﴾ أي: لجعلنا للكفّار سقوفاً، ومصاعد، وأبواباً، وسرراً، كلّها من فضة، وجعلنا لهم زخرفاً، أي: زينة من كلّ شيء. والزخرف: الذهب، والزينة. ويجوزُ أن يكونَ الأصلُ: سقفاً من فضّة وزخرف، أي: بعضها من فضّة، وبعضها من ذهب، فنصب عطفاً على محلّ من فضّة. ﴿لبيوتهم﴾ بدل اشتمال من ﴿لمن يكفر﴾. ﴿سَقْفاً﴾ على الجنس: مكّيّ، وأبو عمرو، ويزيد. والمعارج: جمع معرج، وهي: المصاعد إلى العلالي. ﴿عليها يظهرون﴾ على المعارج ﴿يظهرون﴾ السطوح، أي: يعلونها ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿إن﴾ نافية، و﴿لمّا﴾ بمعنى إلاّ، أي: وما﴿كلّ ذلك﴾ إلاّ ﴿متاع الحياة الدنيا﴾. وقد قرىء به. وقرأ ﴿لَمَا﴾ غير عاصم، وحمزة، على أنّ اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية. و﴿ما﴾ صلة، أي: إنّ كلّ ذلك لمتاع الحياة الدنيا ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ أي: ثواب الآخرة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لمن يتّقي الشرك.

٣٦ ـ ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ وقرىء ﴿ومن يعشَ﴾. والفرق بينهما: أنه إذا حصلت الآفة في بصره، قيل: عشي يعشَى. وإذا نظر نظر العُشْي ولا آفة به، قيل: عشا[2]. ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهو القرآن، كقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨] ومعنى القراءة بالضمّ: ومن يتعام عن ذكره، أي: يعرف أنّه الحقّ وهو يتجاهل، كقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ

---

(١) من المطبوع.

(٢) مضارعه: يعشو.

نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نسلّطه عليه، فهو معه في الدنيا والآخرة، يحمله على المعاصي، وفيه إشارةٌ إلى أنّ مَن داوم عليه لم يقرنه الشيطان.

٣٧ ـ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ ليمنعون العاشين ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن سبيل الهدى ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: العاشون ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وإنما جمع ضمير ﴿من﴾ وضمير الشيطان؛ لأنّ ﴿من﴾ مبهم في جنس العاشي، وقد قيّض له شيطان مبهم في جنسه، فجاز أن يرجعَ الضمير إليهما مجموعاً.

٣٨ ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ ـ على الواحد: عراقيّ في غير أبي بكر، أي: العاشي. (جاءانا) غيرهم. أي: العاشي، وقرينه ـ ﴿قَالَ﴾ لشيطانه: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يريد المشرق والمغرب، فغلّب، كما قيل: العُمَران، والقَمَران. والمراد: بعد المشرق من المغرب، والمغرب من المشرق ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت.

٣٩ ـ ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ إذ صحّ ظلمكم، أي: كفركم، وتبيّن، ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنّكم كنتم ظالمين ـ و﴿إذ﴾ بدل من اليوم ـ ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾. ﴿أنّكم﴾ في محلّ الرفع على الفاعليّة، أي: ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب، أو: كونكم مشتركين في العذاب، كما كان عموم البلوى يُطَيِّبُ القلب في الدنيا، كقول الخنساء:

ولولا كثرةُ الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي
ولا يبكون مثلَ أخي ولكن أُعزِّي النفسَ عنه بالتأسّي

أما هؤلاء فلا يؤسّيهم اشتراكهم، ولا يروّحهم لعظم ما هم فيه. وقيل: الفاعل مضمر، أي: ولن ينفعكم هذا التمنّي، أو: الاعتذار لـ ﴿أنّكم في العذاب مشتركون﴾ لاشتراككم في سببه، وهو: الكفر. ويؤيّده قراءة من قرأ: ﴿إنّكم﴾ بالكسر.

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ
بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾
فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ
ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

٤٠ ـ ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾ أي: مَن فقد سمع العقول ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ أي: من فقد البصائر ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ومن كان في علم الله أنه يموت على الضلالة.

٤١ ـ ﴿ فَإِمَّا﴾ ـ دخلت ﴿ما﴾ على ﴿إن﴾ توكيداً للشرط، وكذا النون الثقيلة في ﴿ نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ ـ نتوفيَنَّك قبل أن ننصرك عليهم، ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أشدّ الانتقام في الآخرة.

٤٢ ـ ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ قبل أن نتوفّينك ـ يعني: يوم بدر ـ ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ قادرون. وصفهم بشدّة الشكيمة في الكفر والضلال بقوله: ﴿أفأنت تسمع الصمّ. . .﴾ الآية. ثمّ أوعدهم بعذاب الدنيا والآخرة بقوله: ﴿فإمّا نذهبنّ بك. . .﴾ الآيتين.

٤٣ ـ ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ ﴾ فتمسّك ﴿ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ وهو القرآن، واعمل به ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على الدين الذي لا عوجَ له.

٤٤ ـ ﴿ وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ الذي أُوحي إليك ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ لشرف لك ﴿ وَلِقَوْمِكَ﴾ ولأمّتك ﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عنه يوم القيامة، وعن قيامكم بحقّه، وعن تعظيمكم له، وعن شكركم هذه النعمة.

٤٥ ـ ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ليس المراد بسؤال الرسل: حقيقة السؤال، ولكنّه مجاز عن النظر في أديانهم، والفحص عن مللهم؛ هل جاءت عبادة الأوثان قطّ في ملّة من ملل الأنبياء؟. وكفاه نظراً وفحصاً نظره في كتاب الله المعجز، المصدّق لما بين يديه، وإخبار الله فيه بأنّهم ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الحج: ٧١]. وهذه الآيةُ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ

في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها. وقيل: إنّه ﷺ جمع له الأنبياء ليلة الإسراء فأمّهم، وقيل له: سلهم، فلم يشكك، ولم يسأل. وقيل: معناه سل أمم مَن أرسلنا وهم أهل الكتابين[1]. وإنّما يخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم فكأنّه سأل الأنبياء، ومعنى هذا السؤال التقرير لعبدة الأوثان أنّهم على الباطل. ﴿وسل﴾ بلا همز: مكّيّ، وعليّ. ﴿رُسْلِنا﴾: أبو عمرو.

٤٦ ـ ثمّ سلّى رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ما أجابوه به عند قوله: ﴿إني رسول رب العالمين﴾ محذوف دلّ عليه قوله:

٤٧ ـ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا﴾. وهو مطالبتهم إيّاه بإحضار البيّنة على دعواه، وإبراز الآية. ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ يسخرون منها، ويهزؤون بها، ويسمّونها سحراً. و﴿إذا﴾ للمفاجأة. وهو جواب ﴿فلمّا﴾ لأنّ فعل المفاجأة معها مقدّر، وهو عامل النصب في محلّ ﴿إذا﴾ كأنه قيل: ﴿فلمّا جاءهم بآياتنا﴾ فاجؤوا وقت ضحكهم.

٤٨ ـ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قرينتها، وصاحبتها التي كانت قبلها في نقض العادة. وظاهر النظم يدلّ على أنّ اللاحقة أعظم من السابقة، وليس كذلك، بل: المراد بهذا الكلام: أنهنّ موصوفات بالكبر، ولا يكدن يتفاوتن فيه. وعليه كلامُ الناس، يقال: هما أخوان، كلّ واحد منهما أكرم من الآخر ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ ـ هو ما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] الآية ـ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الكفر إلى الإيمان.

٤٩ ـ ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر، لتعظيمهم

---

(١) أي: التوراة والإنجيل.

ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ
يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ
ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ

علم السحر ﴿ياأيُّهُ الساحر﴾ بضم الهاء بلا ألف: شاميّ، ووجهه أنّها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلمّا سقطت لالتقاء الساكنين أتبعت حركتها حركة ما قبلها ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك من أن دعوتك مستجابة، أو: بعهده عندك، وهو: النبوّة. أو: ﴿بما عهد عندك﴾ من كشف العذاب عمّن اهتدى ﴿إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾ مؤمنون.

٥٠ ـ ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ ينقصون العهد بالإيمان، ولا يفون به.

٥١ ـ ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾ نادى بنفسه عظماء القبط، أو: أمر منادياً فنادى، كقولك: قطع الأمير اللص؛ إذا أمر بقطعه ﴿فِي قَوۡمِهِۦ﴾ جعلهم محلّاً لندائه، وموقعاً له ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: أنهار النيل ـ ومعظمها أربعة ـ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ من تحت قصري، وقيل: بين يديّ في جناني، والواو عاطفة للأنهار على ﴿ملك مصر﴾. و﴿تجري﴾ نصب على الحال منها، أو: الواو للحال، واسم الإشارة مبتدأ، و﴿الأنهار﴾ صفة لاسم الإشارة، و﴿تجري﴾ خبر للمبتدأ. وعن الرشيد: أنّه لمّا قرأها قال: لأولينّها أخسّ عبيدي، فولاها الخصيب، وكان خادمه على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر: أنّه وليها، فخرج إليها، فلمّا شارفها، قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتّى قال: ﴿أليس لي ملك مصر﴾؟ والله لهي أقلّ عندي من أن أدخلها، فثنى عنانه ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ قوّتي وضعف موسى، وغناي وفقره.

٥٢ ـ ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ «أم» منقطعة بمعنى بل والهمزة، كأنّه قال: أثبت عندكم، واستقرّ أنّي ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ ـ وهذه حالي ـ ﴿مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ﴾ ضعيف

وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا

حقير ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلام لما كان به من الرتّة[1].

٥٣ ـ ﴿فَلَوْلَآ﴾ فهلّا ﴿أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾: حفص، ويعقوب، وسهل، جمع: سِوار. غيرهم: (أساورة) جمع إسوار، وهو: السوار، حذف الياء من أساوير، وعوض منها التاء ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ أراد بإلقاء الأسورة عليه إلقاء مقاليد الملك إليه؛ لأنّهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوّروه بسوار، وطوّقوه بطوقٍ من ذهب ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يمشون معه، يقترن بعضهم ببعض؛ ليكونوا أعضاده، وأنصاره.

٥٤ ـ ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ استفزّهم بالقول، واستزلهم، وعمل فيهم كلامه. وقيل: طلب منهم الخفّة في الطاعة، وهي الإسراع إليها ﴿فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن دين الله.

٥٥ ـ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ آسف: منقول من أسف أسفاً: إذا اشتدّ غضبه. ومعناه: أنّهم أفرطوا في المعاصي، فاستوجبوا أن نعجّل لهم عذابنا، وانتقامنا، وألّا نحلم عنهم.

٥٦ ـ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ جمع سالف، كخادم وخدم ﴿سُلُفًا﴾: حمزة، وعليّ، جمع سليف، أي: فريق قد سلف ﴿وَمَثَلًا﴾ وحديثاً عجيب الشأن، سائراً مسير المثل، يضرب بهم الأمثال، ويقال: مثلكم مثل قوم فرعون ﴿لِّلْءَاخِرِينَ﴾ لمن يجيء بعدهم، ومعناه: فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفّار، يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم؛ لإتيانهم بمثل أفعالهم، ومثلاً يحدثون به.

٥٧ ـ ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ لمّا قرأ رسول الله ﷺ على قريش:

(١) «الرتة»: العجمة في الكلام.

﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] غضبوا. فقال ابن الزِّبَعْرى: يا محمّد! أخاصّة لنا ولآلهتنا، أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم». فقال: ألست تزعم أنّ عيسى ابن مريم نبيّ، وتثني عليه خيراً وعلى أمّه، وقد علمت أنّ النصارى يعبدونهما؟ وعزير يعبد. والملائكة يعبدون. فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم. ففرحوا، وضحكوا، وسكت النبيّ ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ...﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١] فنزلت هذه الآية[1].

والمعنى: ﴿ولمّا﴾ ضرب ابن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً لآلهتهم، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إيّاه ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قريش ﴿مِنْهُ﴾ من هذا المثل ﴿يَصِدُّونَ﴾ يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً، وضحكاً بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ بجدله. ﴿يصُدّون﴾: مدنيّ، وشاميّ، وعليّ، والأعشى، من الصدود، أي: من أجل هذا المثل يصدّون عن الحقّ، ويعرضون عنه. وقيل: من الصديد، وهو الجلبة، وأنّهما لغتان، نحو: يعكِف، ويعكُف.

٥٨ ـ ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون: أنّ آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هيناً ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أي: ما ضربوا هذا المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ إلاّ لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لطلب الميْز بين الحقّ والباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ لدّ، شداد الخصومة، دأبهم اللجاج، وذلك: أنّ قوله تعالى: ﴿إنّكم وما تعبدون﴾ لم يرد به إلاّ الأصنام؛ لأنّ ما لغير العقلاء، إلاّ أنّ ابن الزبعرى بخداعه لمّا رأى كلام الله محتملاً لفظه وجه العموم، مع علمه بأنّ المراد به أصنامهم لا غير، وجد للحيلة مساغاً، فصرف اللفظ إلى الشمول والإحاطة بكلّ معبود غير الله على طريق اللجاج، والجدال، وحبّ المغالبة، والمكابرة، وتوقّح في ذلك، فتوقّر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربّه.

(١) قال الحافظ: رواه الثعلبي والبغوي. (حاشية الكشاف ٢ / ١٣٦).

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم
مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا
صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾

٥٩ ـ ﴿إِنْ هُوَ﴾ وما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ كسائر العباد ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوّة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وصيّرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل.

٦٠ ـ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بدلاً منكم. كذا قاله الزجاج. وقال في «جامع العلوم»: لجعلنا بدلكم. و﴿من﴾ بمعنى البدل ﴿يَخْلُفُونَ﴾ يخلفونكم في الأرض، أو: يخلف الملائكة بعضهم بعضاً. وقيل: ﴿ولو نشاء﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور ﴿لجعلنا منكم﴾ لولّدنا منكم يا رجال ﴿ملائكة﴾ يخلفونكم في ﴿الأرض﴾ كما يخلفكم أولادكم، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل، لتعرفوا تميّزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أنّ الملائكة أجسام لا تتولّد إلاّ من أجسام، والقديم متعال عن ذلك.

٦١ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ وإنّ عيسى ممّا يعلم به مجيء الساعة. وقرأ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿لَعَلَمٌ﴾ وهو العلامة، أي: وإنّ نزوله علم للساعة ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكنّ فيها، من المرية، وهو: الشكّ ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ وبالياء فيهما: سهل، ويعقوب، أي: واتّبعوا هداي وشرعي، أو: رسولي. أو: هو أمر لرسول الله ﷺ أن يقوله ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: ﴿هذا﴾ الذي يدعوكم إليه.

٦٢ ـ ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عن الإيمان بالساعة، أو: عن الاتّباع ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة إذ أخرج أباكم من الجنّة، ونزع عنه لباس النور.

٦٣ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات، أو: بآيات الإنجيل، والشرائع البيّنات الواضحات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل، والشرائع ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو أمر الدين، لا أمر الدنيا ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾

٦٤ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ هذا تمام كلام عيسى ـ عليه السلام ـ.

٦٥ ـ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزّبة بعد عيسى ـ عليه السلام ـ، وهم: اليعقوبيّة، والنسطوريّة، والملكانيّة، والشمعونيّة ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ حيث قالوا في عيسى ما كفروا به ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة.

٦٦ ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ الضمير لقوم عيسى، أو: للكفّار ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل من الساعة، أي: ﴿هل ينظرون إلاّ﴾ إتيان الساعة ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم، كقوله: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩].

٦٧ ـ ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ جمع خليل ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾ يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: المؤمنين. وانتصاب ﴿يومئذ﴾ بـ﴿عدو﴾، أي: تنقطع في ذلك اليوم كلّ خلّة بين المتخالّين في غير ذات الله، وتنقلب عداوة ومقتاً إلاّ خلة المتصادقين في الله، فإنّها الخلّة الباقية.

٦٨ ـ ﴿يَٰعِبَادِ﴾(١) بالياء في الوصل والوقف: مدنيّ، وشاميّ، وأبو عمرو. وبفتح الياء: أبو بكر. الباقون: بحذف الياء ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ هو حكاية لما يُنادَى به المتّقون المتحابّون في الله يومئذ.

٦٩ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ منصوب المحلّ صفة لعبادي؛ لأنّه منادىً مضاف ﴿ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ صدّقوا بآياتنا ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ لله، منقادين له.

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة (ياعبادي).

ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ
وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾
وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا
تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ

٧٠ ـ ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ المؤمنات في الدنيا ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ تسرّون سروراً يظهر حباره، أي: أثره على وجوهكم.

٧١ ـ ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ﴾ جمع: صحيفة ﴿مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖ﴾ أي: من ذهب أيضاً، والكوب: الكوز لا عروة له ﴿وَفِيهَا﴾ وفي الجنّة ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾ ـ: مدنيّ، وشاميّ، وحفص بإثبات الهاء العائدة إلى الموصول، وحذفها غيرهم لطول الموصول بالفعل، والفاعل، والمفعول ـ ﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ وهذا حصر لأنواع النعم؛ لأنّها إمّا مشتهيات في القلوب، أو: مستلذّة في العيون ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٧٢ ـ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿تلك﴾ إشارة إلى الجنّة المذكورة، وهي مبتدأ، و﴿الجنة﴾ خبر، و﴿التي أورثتموها﴾ صفة ﴿الجنّة﴾ أو: الجنّة صفة للمبتدأ الذي هو اسم الإشارة، و﴿التي أورثتموها﴾ خبر المبتدأ، أو: التي أورثتموها صفة، و﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ الخبر، والباء تتعلّق بمحذوف، أي: حاصلة، أو كائنة، كما في الظروف التي تقع أخباراً، وفي الوجه الأوّل تتعلّق بـ﴿أورثتموها﴾، وشبّهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة.

٧٣ ـ ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ ﴿من﴾ للتبعيض، أي: لا تأكلون إلا بعضها، وأعقابها باقية في شجرها، فهي مزيّنة بالثمار أبداً. وفي الحديث: «لا ينزع رجلٌ في الجنّة من ثمرها إلاّ نبت مكانها مثلاها»[١].

٧٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ خبر بعد خبر.

٧٥ ـ ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ خبر آخر، أي: لا يخفّف، ولا ينقص ﴿وَهُمۡ فِيهِ﴾ في

---

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٣٥٣٠).

مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ
إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا
مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من الفرج، متحيّرون.

٧٦ ـ ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ «هم»: فصل.

٧٧ ـ ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ لمّا أيسوا من فتور العذاب ﴿نادوا يا مالك﴾ وهو خازن النار ـ وقيل لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنّ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قرأ ﴿يا مال﴾ فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم ـ ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ليمتنا، من: قضى عليه: إذا أماته ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] والمعنى: سل ربك أن يقضي علينا ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ لابثون في العذاب، لا تتخلّصون عنه بموت ولا فتور.

٧٨ ـ ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ كلام الله تعالى. ويجبُ أن يكون في ﴿قال﴾ ضمير الله. لمّا سألوا مالكاً أن يسأل الله القضاء عليهم أجابهم الله بذلك، وقيل: هو متّصل بكلام مالك[1] والمراد بقوله: ﴿جئناكم﴾ الملائكة، إذ هم رسل الله، وهو منهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لا تقبلونه، وتنفرون منه؛ لأنّ مع الباطل الدعة، ومع الحقّ التعب.

٧٩ ـ ﴿أَمْ أَبْرَمُوا﴾ أم أحكم مشركو مكة ﴿أَمْرًا﴾ من كيدهم، ومكرهم بمحمّد ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدنا، كما أبرموا كيدهم.

٨٠ ـ وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله ﷺ في دار الندوة، فنزل: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ حديث أنفسهم ﴿وَنَجْوَاهُم﴾ ما يتحدّثون فيما بينهم، ويخفونه عن غيرهم ﴿بَلَى﴾ نسمعهما، ونطّلع عليهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أي: الحفظة ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ عندهم يكتبون ذلك. وعن يحيى بن معاذ: مَن ستر من الناس ذنوبه، وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية، فقد جعله أهون الناظرين إليه. وهو من أمارات النفاق.

---

(١) أي: فضمير قال يعود على مالك.

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ

٨١ ـ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ وصحّ ذلك ببرهان ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ فأنا أوّل من يعظّم ذلك الولد، وأسبقكم إلى طاعته، والانقياد إليه، كما يعظّم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه. وهذا كلامٌ واردٌ على سبيل الفرض، والمراد: نفي الولد، وذلك: أنّه علّق العبادة بكينونة الولد، وهي محال في نفسها، فكان المعلّق بها محالاً مثلها. ونظيره: قول سعيد بن جبير للحجّاج ـ حين قال له: والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظّى: لو عرفت أنّ ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك. وقيل: ﴿إن كان للرحمن ولد﴾ في زعمكم ﴿فأنا أوّل العابدين﴾ أي: الموحّدين لله المكذّبين قولكم بإضافة الولد إليه. وقيل: ﴿إن كان للرحمن ولد﴾ في زعمكم فأنا أوّل الآنفين من أن يكون له ولد. من: عبِد يعبَد: إذا اشتدّ أنفه، فهو عبِدٌ وعابدٌ. وقرىء ﴿العبدين﴾. وقيل: هي ﴿إن﴾ النافية، أي: ما ﴿كان للرحمن ولد فأنا أوّل﴾ من قال بذلك، وعبد، ووحّد. ورُوي: أنّ النضر قال: إن الملائكة بنات الله، فنزلت، فقال النضر: ألا ترون أنه قد صدّقني. فقال له الوليد: ما صدّقك، ولكن قال: ما ﴿كان للرحمن ولد فأنا أوّل﴾ الموحّدين من أهل مكّة أن لا ولد له ﴿وُلْد﴾: حمزة، وعليّ. ثم نزّه ذاته عن اتّخاذ الولد، فقال:

٨٢ ـ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: هو ربّ السموات والأرض والعرش، فلا يكون جسماً؛ إذ لو كان جسماً لم يقدر على خلقها، وإذا لم يكن جسماً لا يكون له ولد، لأنّ التولّد من صفة الأجسام.

٨٣ ـ ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي: القيامة. وهذا دليلٌ على أنّ ما يقولونه من باب الجهل، والخوض، واللعب.

٨٤ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ ضمن اسمه تعالى معنى وصف، فلذلك علّق به الظرف في قوله: في السماء، وفي الأرض، كما تقول: هو حاتم

وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ

في طيّ، وحاتم في تغلب، على تضمين معنى الجواد الذي شهر به، كأنّك قلت: هو جواد في طيّ، جواد في تغلب. وقرىء: (وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله). ومثله قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] كأنّه ضمّن معنى المعبود، والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام، كقولهم: ما أنا بالذي قائل لك شيئاً، والتقدير: ﴿وهو الذي﴾ هو ﴿في السماء إله﴾. ﴿إله﴾ يرتفعُ على أنّه خبر مبتدأ مضمر، ولا يرتفع ﴿إله﴾ بالابتداء، و﴿في السماء﴾: خبرٌ لخلو الصلة حينئذ من عائد يعودُ إلى الموصول ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله، وأفعاله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما كان ويكون.

٨٥ ـ ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: علم قيامها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿يُرجعون﴾: مكيّ، وحمزة، وعليّ.

٨٦ ـ ﴿وَلَا يَمْلِكُ﴾ آلهتهم ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يدعونهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زعموا: أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ولكن ﴿من شهد بالحق﴾ بكلمة التوحيد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الله ربهم حقّاً، ويعتقدون ذلك، هو الذي يملك الشفاعة. وهو استثناء منقطع، أو: متّصل؛ لأنّ في جملة الذين يدعون من دون الله الملائكة.

٨٧ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: المشركين ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لا الأصنام والملائكة ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف، أو: من أين يصرفون عن التوحيد مع هذا الإقرار؟

٨٨ ـ ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ بالجرّ: عاصم، وحمزة، أي: وعنده علم الساعة وعلم قيله ﴿يَٰرَبِّ﴾ والهاء يعود إلى محمد ﷺ لتقدّم ذكره في قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] وبالنصب، الباقون عطفاً على محلّ ﴿الساعة﴾ أي: يعلم الساعة، ويعلم ﴿قيله﴾ أي: قِيْلَ محمّدٍ ﴿يا ربّ﴾. والقيل، والقول، والقال، والمقال واحد. ويجوزُ أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٨٨ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٨٩﴾

وحذفه. وجواب القسم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ كأنّه قيل: وأقسم بقيله: ﴿يا ربّ إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾. وإقسام الله بقيله رفع منه، وتعظيم لدعائه، والتجائه إليه.

٨٩ ـ ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ فأعرض عن دعوتهم يائساً عن إيمانهم، وودّعهم، وتاركهم ﴿وَقُلۡ﴾ لهم ﴿سَلَٰمٞ﴾ أي: تَسَلُّمٌ منكم ومتاركة ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ وعيدٌ من الله لهم، وتسلية لرسوله ﷺ. وبالتاء: مدنيّ، وشاميّ.

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ

في الخبر: «من قرأها في ليلة جمعةٍ أصبح مغفوراً له»(١).

١ ـ ٣ ـ ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: القرآن. الواو في ﴿والكتاب﴾ واو القسم إن جعلت ﴿حم﴾ تعديداً للحروف، أو: اسماً للسورة مرفوعاً على خبر الابتداء المحذوف، وواو العطف إن كانت ﴿حم﴾ مقسماً بها. وجواب القسم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: ليلة القدر، أو: ليلة النصف من شعبان. وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة. والجمهور على الأوّل؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان. ثمّ قالوا: أنزله جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثمّ نزل به جبريل في وقت وقوع الحاجة إلى نبيّه محمّد ﷺ، وقيل: ابتداء نزوله في ليلة القدر. والمباركة: الكثيرة الخير؛ لما ينزل فيها من الخير والبركة، ويستجاب من الدعاء، ولو لم يوجد فيها

(١) رواه الترمذي (٢٨٨٩) وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدام يُضَعَّف، ولم يسمع الحسن من أبي هريرة.

إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾

إلاّ إنزال القرآن وحده لكفى به بركة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

٤ ـ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وهما جملتان مستأنفتان ملفوفتان فسّر بهما جواب القسم، كأنّه قيل: أنزلناه لأنّ من شأننا الإنذار، والتحذير من العقاب. وكان إنزالنا إيّاه في هذه الليلة خصوصاً؛ لأنّ إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة مفرق كلّ أمر حكيم. ومعنى ﴿يفرق﴾ يفصل، ويكتب ﴿كلّ أمر﴾ من أرزاق العباد، وآجالهم، وجميع أمرهم من هذه الليلة إلى ليلة القدر التي تجيء في السنة المقبلة ﴿حكيم﴾ ذي حكمة، أي: مفعولٍ على ما تقضيه الحكمة. وهو من الإسناد المجازيّ؛ لأنّ الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة، ووصف الأمر به مجاز.

٥، ٦ ـ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ نصب على الاختصاص، جعل كلّ أمر جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم، ثمّ زاده جزالة وفخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر ﴿أمراً﴾ حاصلاً ﴿من عندنا﴾ كما اقتضاه علمنا، وتدبيرنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بدل من ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]. و﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول له، على معنى: إنّا أنزلنا القرآن؛ لأن من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا؛ لأجل الرحمة عليهم. أو: تعليل لقوله: ﴿أمراً من عندنا﴾. و﴿رحمة﴾ مفعول به. وقد وصف الرحمة بالإرسال، كما وصفها به في قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢] والأصل: ﴿إنّا كنّا مرسلين رحمة﴾ منّا. فوضع الظاهر موضع الضمير إيذاناً بأنّ الربوبيّة تقتضي الرحمة على المربوبين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

٧ ـ ﴿رَبِّ﴾ كوفيّ بدل من ﴿ربّك﴾، وغيرهم بالرفع، أي: هو ربّ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾. ومعنى الشرط: أنّهم كانوا يقرّون بأنّ للسموات والأرض ربّاً وخالقاً، فقيل لهم: إنّ إرسال الرسل، وإنزال الكتب رحمة من الربّ، ثمّ قيل: إنّ هذا الربّ هو السميع العليم؛ الذي

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ
يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

أنتم مقرّون به، ومعترفون بأنّه ربّ السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم، وإيقان، كما تقول: إنّ هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه إن بلغك حديث، وَحُدِّثْتَ بقصته.

٨ ـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هو ربّكم ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عطف عليه. ثمّ ردّ أن يكونوا موقنين بقوله:

٩ ـ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ وإنّ إقرارهم غير صادر عن علم، وتيقّن، بل قول مخلوط بهزؤ، ولعب.

١٠ ـ ١٢ ـ ومفعول: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتظر ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ يأتي من السماء قبل يوم القيامة، يدخل في أسماع الكفرة حتّى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ[١]، ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلّها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص. وقيل: إنّ قريشاً لمّا استعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللّهم اشْدُدْ وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف». فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعِلْهِزَ[٢]. وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان. وكان يحدّث الرجل، فيسمع كلامه، ولا يَرَاه من الدخان[٣] ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر حاله، لا يشكّ أحد في أنّه دخان ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ يشملهم، ويُلْبسُهم، وهو في محلّ الجرّ صفة لـ: «دخان». وقوله: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ـ أي: سنؤمن إن كُشِفَ عنّا العذاب ـ منصوب المحلّ بفعل مضمر، وهو: يقولون. و: يقولون: منصوب المحلّ على الحال، أي: قائلين ذلك.

---

(١) «الحنيذ»: المشوي.
(٢) «العلهز»: طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في زمن المجاعة.
(٣) رواه أحمد (١/ ٤٤١) والبخاري (٤٨٢٤) ومسلم (٢٧٩٨) (٣٩).

أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ

١٣، ١٤ ـ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ كيف يذكرون، ويتّعظون، ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: وقد جاءهم ما هو أعظم، وأدخل في وجوب الاذّكار من كشف الدخان، وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات والبيّنات من الكتاب المعجز وغيره، فلم يذّكّروا، وتولّوا عنه، وبهتوه بأنّ عدّاساً غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علّمه، ونسبوه إلى الجنون.

١٥ ـ ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ زماناً ﴿قليلاً﴾ أو: كشفاً ﴿قليلاً﴾ ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلى الكفر الذي كنتم فيه، أو: إلى العذاب.

١٦ ـ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ هو يوم القيامة، أو: يوم بدر ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أي: ننتقم منهم في ذلك اليوم. وانتصاب ﴿يوم نبطش﴾ بـ«اذكر»، أو: بما دلّ عليه: ﴿إنّا منتقمون﴾ وهو: ننتقم، لا بمنتقمون؛ لأنّ ما بعد إنّ لا يعمل فيما قبلها.

١٧ ـ ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء المشركين ـ أي: فعلنا بهم فعل المختبر؛ ليظهر منهم ما كان باطناً ـ ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين، أو: كريم في نفسه حسيب نسيب؛ لأنّ الله تعالى لم يبعث نبياً إلاّ من سراة قومه، وكرامهم.

١٨ ـ ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ﴾ هي ﴿أن﴾ المفسّرة؛ لأنّ مجيء الرسول إلى مَن بعث إليهم متضمّن لمعنى القول؛ لأنّه لا يجيئهم إلاّ مبشراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله. أو: المخفّفة من الثقيلة. ومعناه: ﴿وجاءهم﴾ بأنّ الشأن والحديث ﴿أدّوا إليّ﴾ سلّموا إليّ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ هو مفعول به، وهم بنو إسرائيل، يقول: أدّوهم إليّ، وأرسلوهم معي، كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧] ويجوز أن يكون نداء لهم، على معنى: ﴿أدّوا إليّ﴾ يا ﴿عباد الله﴾ ما هو واجب لي

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

عليكم من الإيمان لي، وقبول دعوتي، واتّباع سبيلي. وعلّل ذلك بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: على رسالتي، غير متهم.

١٩ ـ ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ﴾ هذه مثل الأولى في وجهيها، أي: لا تستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووحيه، أو: لا تستكبروا على نبيّ الله ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة واضحة تدلّ على أني نبيّ.

٢٠ ـ ﴿وَإِنِّي عُذْتُ﴾ ـ «عتُّ»: مدغم: أبو عمرو، وحمزة، وعليّ ـ ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ أن تقتلوني رجماً، ومعناه: أنه عائذٌ بربّه، متكل على أنه يعصمه منهم ومن كيدهم، فهو غير مبال بما كانوا يتوعّدونه من الرجم، والقتل.

٢١ ـ ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي: إن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمن، فتنحّوا عنّي، أو: فخلوني كفافاً لا لي ولا عليّ، ولا تتعرّضوا لي بشرِّكم وأذاكم، فليس جزاء مَن دعاكم إلى ما فيه فلاحُكم ذلك. ﴿ترجموني﴾ ﴿فاعتزلوني﴾ في الحالين: يعقوب.

٢٢ ـ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ شاكياً قومه ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ بأن هؤلاء، أي: دعا ربّه بذلك. قيل: كان دعاؤه: اللهم عجّل لهم ما يستحقّونه بإجرامهم. وقيل: هو قوله ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]. وقرىء: ﴿إنّ هؤلاء﴾ بالكسر؛ على إضمار القول، أي: ﴿فدعا ربّه﴾ فقال: ﴿إنّ هؤلاء﴾.

٢٣ ـ ﴿فَأَسْرِ﴾ مِن: أسرى ﴿فاسر﴾ بالوصل: حجازيّ، مِن: سرى. والقول مضمر بعد الفاء ﴿فـ﴾ قال: أسر ﴿بِعِبَادِي﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي: دبّر الله أن تتقدّموا، ويتبعكم فرعون وجنوده، فينجّي المتقدّمين، ويغرق التابعين.

وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

٢٤ ـ ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ ساكناً. أراد موسى ـ عليه السلام ـ لمّا جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق، فأُمِر بأن يتركه ساكناً على هيئته قارّاً على حاله؛ من انتصاب الماء، وكون الطريق يبساً، لا يضربه بعصاه، ولا يغيّر منه شيئاً ليدخله القبط، فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم. وقيل: الرهو: الفجوة الواسعة، أي: أتركه مفتوحاً على حاله منفرجاً ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ بعد خروجك من البحر. وقُرِىء بالفتح، أي: لأنّهم.

٢٥، ٢٦ ـ ﴿كَمْ﴾ عبارة عن الكثرة، ومنصوب بقوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ هو ما كان لهم من المنازل الحسنة. وقيل: المنابر.

٢٧ ـ ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ تنعّم ﴿كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ متنعّمين.

٢٨ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك. فالكاف في موضع الرفع على أنّه خبر مبتدأ مضمر ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيء من قرابة، ولا دين، ولا ولاء. وهم: بنو إسرائيل.

٢٩ ـ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ لأنّهم ماتوا كفّاراً. والمؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض، فيبكي على المؤمن من الأرض مُصلاَّه، ومن السماء مَصْعَدُ عمله. وعن الحسن ـ رحمة الله عليه ـ: أهل السماء والأرض ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي: لم يُنظروا إلى وقت آخر، ولم يُمهلوا.

٣٠ ـ ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي: الاستخدام، والاستعباد، وقتل الأولاد.

٣١ ـ ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من ﴿العذاب المهين﴾ بإعادة الجارّ، كأنّه في نفسه كان عذاباً مهيناً لإفراطه في تعذيبهم، وإهانتهم. أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك ﴿من فرعون﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبّراً ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان، أي: كان متكبّراً مسرفاً.

وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ

٣٢ـ ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ حال من ضمير الفاعل، أي: عالمين بمكان الخيرة، وبأنّهم أحقّاء بأن يختاروا ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

٣٣ـ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنّ والسّلوى، وغير ذلك ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ﴾ نعمة ظاهرة، أو: اختبار ظاهر؛ لننظر كيف يعملون.

٣٤، ٣٥ـ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كفّار قريش ﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ﴾ ما الموتة ﴿إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾. والإشكال: أنّ الكلامَ وقع في الحياة الثانية لا في الموت، فهلاّ قيل: إن هي إلاّ حياتنا الأولى؟ وما معنى ذِكْر الأولى؟ كأنّهم وُعِدوا موتة أخرى حتّى جحدوها، وأثبتوا الأولى. والجواب: أنّه قيل لهم: إنّكم تموتون موتة تتعقّبها حياة؛ كما تقدّمتكم موتة قد تعقبتها حياة. وذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨] فقالوا: ﴿إن هي إلاّ موتتنا الأولى﴾ يريدون: ما الموتة التي من شأنها أن يتعقّبها حياة إلاّ الموتة الأولى، فلا فرق إذاً بين هذا وبين قوله: ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] في المعنى. ويحتمل أن يكون هذا إنكاراً لما في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ [غافر: ١١] ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمبعوثين. يقال: أنشر الله الموتى ونشرهم: إذا بعثهم.

٣٦ـ ﴿فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور من رسول الله ﷺ والمؤمنين، ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن صدقتم فيما تقولون، فعجِّلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربّكم ذلك، حتّى يكون دليلاً على أنّ ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حقّ.

٣٧ـ ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ﴾ في القوّة، والمنعة ﴿أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ هو تبّع الحميريّ، كان

وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ أَهْلَكْنَٰهُمْۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ
ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ
ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾

مؤمناً وقومه كافرين. وقيل: كان نبيّاً. وفي الحديث: «ما أدري أكان تبّع نبيّاً أو غير نبيّ»[1] ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مرفوع بالعطف على ﴿قوم تبّع﴾ ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ كافرين، منكرين للبعث.

٣٨ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: وما بين الجنسين ﴿لَٰعِبِينَ﴾ حال. ولو لم يكن بعث ولا حساب ولا ثواب، كان خلق الخلق للفناء خاصّة، فيكون لعباً.

٣٩ ـ ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بالجدّ، ضدّ اللعب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّه خلق لذلك.

٤٠ ـ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ بين المحقّ والمبطل، وهو يوم القيامة ﴿مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقت موعدهم كلّهم.

٤١ ـ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾ أي: وليٌّ؛ أيُّ ولي كان عن أيِّ وليٍّ كان ﴿شَيْـًٔا﴾ من إغناء، أي: قليلاً منه ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير للموالي؛ لأنّهم في المعنى كثير لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كلّ مولىً.

٤٢ ـ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ في محلّ الرفع على البدل من الواو في ﴿ينصرون﴾ أي: لا يمنع من العذاب ﴿إلاّ من﴾ رحمه ﴿الله﴾ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لأوليائه.

٤٣ ـ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ هي على صورة شجر الدنيا لكنّها في النار. والزقّوم: ثمرها، وهو كلّ طعام ثقيل.

---

(١) قال ابن حجر: أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ٤/ ٢٨٠).

طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾

٤٤ ـ ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾ هو: الفاجر الكثير الآثام. وعن أبي الدرداء: أنّه كان يقرىء رجلاً، فكان يقول: طعام اليتيم، فقال: قل طعام الفاجر يا هذا. وبهذا تستدلّ على أنّ إبدال الكلمة مكان الكلمة جائز إذا كانت مؤدّية معناها[١]. ومنه أجاز أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ القراءة بالفارسيّة بشرط أن يؤدّي القارىء المعاني كلّها على كمالها من غير أن يَخْرِمَ منها شيئاً. قالوا: وهذه الشريطة تشهدُ أنّها إجازة كلا إجازة؛ لأنّ في كلامَ العرب ـ خصوصاً في القرآن الذي هو معجز بفصاحته، وغرابة نظمه وأساليبه ـ من لطائف المعاني والدقائق مالا يستقلّ بأدائه لسان من فارسيّة وغيرها. ويُروى رجوعه إلى قولهما، وعليه الاعتماد.

٤٥ ـ ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ هو دُرديّ[٢] الزيت. والكاف رفع خبر بعد خبر ﴿يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ﴾[٣] ـ وبالياء: مكّيّ، وحفص، فالتاء للشجرة، والياء للطعام ـ.

٤٦ ـ ﴿كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ أي: الماء الحارّ الذي انتهى غليانه. ومعناه: غلياً ﴿كغلي الحميم﴾. فالكاف منصوب المحلّ. ثمّ يقال للزبانية:

٤٧ ـ ﴿خُذُوهُ﴾ أي: الأثيم ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ فقودوه بعنف وغلظة ـ ﴿فاعتُلوه﴾ مكّي، ونافع، وشاميّ، وسهل، ويعقوب ـ ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ إلى وسطها ومعظمها.

٤٨ ـ ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ المصبوب هو الحميم

(١) قال أحمد بن المنير الإسكندري في «الانتصاف»: لا دليل فيه لذلك. وقول أبي الدرداء محمولٌ على إيضاح المعنى؛ ليكون وضوحُ المعنى عند المتعلّم عوناً على أن يأتي بالقراءة كما أنزلت. وعلى هذا حمله القاضي أبو بكر في كتاب «الانتصار» وهو الوجه. (حاشية الكشاف٤/ ٢٨١).

(٢) «الدردي»: ما رسب أسفل الزيت ونحوه.

(٣) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿تغلي﴾. بالتاء. وهي قراءة: نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، والكسائي، وعاصم، وخلف، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٦/ ١٤٢).

ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ
فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ
مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ
ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾

لا عذابه، إلاّ أنّه إذا صبّ عليه الحميم، فقد صبّ عليه عذابه، وشدّته. وصب العذاب: استعارة. ويقال له:

٤٩ ـ ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ له على سبيل الهزؤ والتهكّم ﴿أنّك﴾ أي: لأنّك، عليّ.

٥٠ ـ ﴿ إِنَّ هَٰذَا﴾ العذاب، أو: هذا الأمر هو ﴿ مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ تشكّون.

٥١ ـ ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ بالفتح، وهو: موضع القيام. والمراد: المكان. وهو من الخاصّ الذي وقع مستعملاً في معنى العموم. وبالضمّ: مدنيّ، وشاميّ. وهو: موضع الإقامة ﴿أَمِينٖ﴾ مِن: أمن الرجل أمانة، فهو أمين. وهو ضد الخائن. فوصف به المكان استعارة؛ لأنّ المكان المخيف كأنّما يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره.

٥٢ ـ ﴿ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ بدل من ﴿مقام أمين﴾.

٥٣ ـ ﴿ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ﴾ ما رقّ من الديباج ﴿ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ ما غلظ منه. وهو تعريب: استبر. واللفظ إذا عرّب خرج من أن يكون أعجمياً؛ لأنّ معنى التعريب أن يجعلَ عربياً بالتصرّف فيه، وتغييره عن منهاجه، وإجرائه على أوجه الإعراب، فساغ أن يقعَ في القرآن العربّي ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في مجالسهم. وهو أتمُّ للأنس.

٥٤ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف مرفوعة، أي: الأمر ﴿كذلك﴾ ﴿ وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ وقرنّاهم. ولهذا عدّي بالباء ﴿بِحُورٍ﴾ جمع حوراء، وهي: الشديدة سواد العين، والشديدة بياضها ﴿عِينٖ﴾ جمع عيناء، وهي: الواسعة العين.

٥٥ ـ ﴿ يَدۡعُونَ فِيهَا﴾ يطلبون في الجنّة ﴿ بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ من الزوال، والانقطاع، وتولّد الضرر من الإكثار.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾
فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

٥٦ ـ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ في الجنّة ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ البتّة ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا. وقيل: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٥٧ ـ ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: للفضل. فهو مفعول له، أو: مصدر مؤكّد لما قبله؛ لأنّ قوله: ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ تفضّل منه لهم؛ لأنّ العبدَ لا يستحقّ على الله شيئاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: صرف العذاب، ودخول الجنّة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٥٨ ـ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب. وقد جرى ذكره في أوّل السورة ﴿بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتّعظون.

٥٩ ـ ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحلُّ بهم ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون ما يحلُّ بك من الدّوائر.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

---

١ ، ٢ ـ ﴿حمٓ﴾ إنْ جعلتها اسماً للسورة فهي مرفوعة بالابتداء، والخبر: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ صلة للتنزيل. وإن جعلتها تعديداً للحروف كان ﴿تنزيل الكتاب﴾: مبتدأ، والظرف: خبراً ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في انتقامه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في تدبيره.

٣ ، ٤ ـ ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ﴾ لدلالات على وحدانيّته. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿إنّ في﴾ خلق ﴿السموات والأرض لآيات﴾ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. دليلُه قوله: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾. ويعطف ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ على الخلق المضاف؛ لأنَّ المضافَ إليه ضمير مجرور متّصل يقبح العطف عليه ﴿ءَايَٰتٌ﴾ حمزة وعليّ بالنصب، وغيرهما بالرفع، مثل قولك: إنّ زيداً في الدار وعمراً في السوق، أو: وعمرو في السوق ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

٥ ـ ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ ـ أي: مطر. وسُمِّي به لأنّه سببُ الرزق ـ ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ ـ ﴿الريح﴾ حمزة وعليّ ـ ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بالنصب: عليّ وحمزة، وغيرهما بالرفع. وهذا من

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾

العطف على عاملين سواء نصبت أو رفعت. فالعاملان إذا نصبت ﴿إنّ﴾ و﴿في﴾. أقيمت الواو مقامهما فعملت الجرّ في ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ والنصب في ﴿آيات﴾. وإذا رفعت فالعاملان الابتداء وحرف ﴿في﴾. عملت الواو الرفع في آيات، والجرّ في ﴿واختلاف﴾. وهذا مذهب الأخفش؛ لأنّه يجوّز العطفَ على عاملين، وأمّا سيبويه فإنّه لا يجيزه. وتخريج الآية عنده أن يكونَ على إضمار ﴿في﴾. والذي حسّنه تقدُّم ذكر ﴿في﴾ في الآيتين قبل هذه الآية. ويؤيّده قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (وفي اختلاف الليل والنهار). ويجوز أن ينتصب ﴿آيات﴾ على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفاً على ما قبله، أو: على التكرير توكيداً لآيات الأولى. كأنّه قيل: آياتٍ آياتٍ. ورفعها بإضمار ﴿هي﴾ والمعنى في تقديم الإيمان على الإيقان، وتوسيطه، وتأخير الآخر: أنّ المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض نظراً صحيحاً علموا أنّها مصنوعة، وأنّه لابُدَّ لها من صانعٍ فآمنوا بالله، فإذا نظروا في خَلْق أنفسهم، وتنقّلها من حال إلى حال، وفي خلْق ما ظهر على الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً، وأيقنوا، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدَّد في كلّ وقت، كاختلاف الليل والنهار، ونزول الأمطار، وحياة الأرض بها بعد موتها، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً، عقلوا، واستحكم علمهم، وخلص يقينهم.

٦ ـ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الآيات المتقدّمة، أي: تلك الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾. قوله: ﴿نَتْلُوهَا﴾ في محلّ الحال، أي: متلوّة ﴿عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾. والعامل دلّ عليه ﴿تلك﴾ من معنى الإشارة ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: بعد آيات الله. كقولهم: أعجبني زيد وكرمه، ويريدون: أعجبني كرم زيد ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ حجازيّ، وأبو عمرو، وسهل، وحفص. وبالتاء غيرهم، على تقدير: قل يا محمّد.

٧ ـ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذّاب ﴿أَثِيمٍ﴾ متبالغ في اقتراف الآثام.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

٨ ـ ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في موضع جرّ صفة ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ حال من ﴿آيات الله﴾ ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقبل على كفره، ويقيم عليه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحقّ، مزدرياً لها، معجباً بما عنده. قيل: نزلت في النضر بن الحارث وما كان يشتري من أحاديث العجم، ويشغل بها الناسَ عن استماع القرآن. والآية عامّة في كلّ مَن كان مضارّاً لدين الله. وجيء بثمّ؛ لأنّ الإصرارَ على الضلالة والاستكبار عن الإيمان عند سماع آيات القرآن مستبعدٌ في العقول ﴿كَأَن﴾ مخفّفة. والأصل: كأنّه ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾. والضمير ضمير الشأن. ومحلّ الجملة: النصب على الحال، أي: ﴿يصرُّ﴾ مثل غير السامع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأخبره خبراً يظهر أثره على البشرة.

٩ ـ ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ وإذا بلغه شيء من آياتنا، وعلم أنّه منها ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ اتّخذ الآيات ﴿هُزُوًا﴾. ولم يقل: اتّخذه؛ للإشعار بأنه إذا أحسّ بشيء من الكلام أنّه من جملة الآيات؛ خاض في الاستهزاء بجميع الآيات، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه. ويجوزُ أن يرجعَ الضميرُ إلى الشيء؛ لأنّه في معنى الآية، كقول أبي العتاهية:

نَفْسِي بشيءٍ مِنَ الدُّنيا مُعَلَّقة ... اللهُ والقائمُ المهديُّ يَكْفِيها[1]

حيث: أراد عتبة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ ـ إشارة إلى ﴿كلّ أفّاك أثيم﴾ لشموله الأفّاكين ـ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مخز.

١٠ ـ ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾ من قدّامهم ـ الوراء: اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف، أو: قدّام ـ ﴿جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟﴾ من الأموال ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟﴾ ـ ﴿ما﴾ فيهما مصدريّة، أو: موصولة ـ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان ﴿أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في جهنم.

---

(١) كنّى بالشيء عن جارية من حظايا المهدي اسمها: عتبة؛ ولذلك أعاد عليه الضمير مؤنثاً.

هَٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ
ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ
ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا

١١ ـ ﴿ هَٰذَا هُدًى﴾ إشارة إلى القرآن. يدلُّ عليه ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنّ آيات ربّهم هي القرآن، أي: هذا القرآنُ كاملٌ في الهداية، كما تقول: زيد رجل، أي: كامل في الرجوليّة ﴿ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ﴾ ـ هو أشدّ العذاب ـ ﴿ أَلِيمٌ﴾ بالرفع: مكّيّ، ويعقوب، وحفص، صفة لعذاب. وغيرهم: بالجرّ صفة لرجز.

١٢ ـ ﴿ ۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ بإذنه ﴿ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ بالتجارة، أو: بالغوص على اللؤلؤ والمرجان، واستخراج اللحم الطريّ ﴿ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

١٣ ـ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ هو تأكيد ﴿ما في السموات﴾. وهو مفعول ﴿سخّر﴾. وقيل: ﴿جميعاً﴾: نصب على الحال ﴿ مِّنۡهُ﴾ حال، أي: سخر هذه الأشياء كائنة ﴿منه﴾ وحاصلة من عنده، أو: خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه النعم كلّها ﴿منه﴾، أو: صفة للمصدر، أي: تسخيراً ﴿منه﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٤ ـ ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ﴾ أي: ﴿قل﴾ لهم اغفروا ﴿يغفروا﴾ ـ فحذف المقول؛ لأنّ الجواب يدلّ عليه. ومعنى ﴿يغفروا﴾ يعفوا، ويصفحوا. وقيل: إنّه مجزوم بلام مضمرة، تقديره: ليغفروا، فهو أمر مستأنف. وجاز حذف اللام للدلالة على الأمر ـ ﴿ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ لا يتوقّعون وقائع الله بأعدائه. من قولهم لوقائع العرب: «أيّام العرب». وقيل: لا يؤمّلون الأوقات التي وقّتها الله تعالى لثواب المؤمنين، ووعدهم الفوز فيها. قيل: نزلت في عمر ـ رضي الله عنه ـ حين شتمه رجلٌ من المشركين من بني غفار، فهمَّ أن يبطشَ به ﴿ لِيَجۡزِيَ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة، أي: إنما أمروا بأن يغفروا ليوفّيهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. وتنكير ﴿ قَوۡمَۢا﴾ على المدح لهم، كأنّه قيل: ﴿ليجزي﴾ أيّما قوم، وقوماً مخصوصين بصبرهم على أذى أعدائهم ـ ﴿لنجزي﴾: شاميّ، وحمزة، وعليّ.

بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ

﴿لِيُجزي قوماً﴾ يزيد، أي ﴿لِيُجزَى﴾ الخيرُ ﴿قوماً﴾. فأضمر الخير لدلالة الكلام عليه، كما أضمر الشمس في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] لأنّ قوله ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ [ص: ٣١] دليلٌ على تواري الشمس. وليس التقدير: ﴿ليجزَى﴾ الجزاء ﴿قوماً﴾ لأنّ المصدر لا يقوم مقام الفاعل، ومعك مفعول صحيح. أمّا إقامة المفعول الثاني مقام الفاعل فجائز، وأنت تقول: جزاك الله خيراً ـ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الإحسان.

١٥ ـ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: لها الثواب، وعليها العقاب ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: إلى جزائه.

١٦ ـ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة، والفقه، أو: فصل الخصومات بين الناس؛ لأنّ الملك كان فيهم ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ خصّها بالذكر لكثرة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فيهم ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ممّا أحلَّ الله لهم ما طاب من الأرزاق ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على عالمي زمانهم.

١٧ ـ ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ﴾ آيات، ومعجزات ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ من أمر الدين ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ فما وقع الخلافُ بينهم في الدِّين ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: إلاّ من بعد ما جاءهم ما هو موجبٌ لزوال الخلاف، وهو العلم. وإنّما اختلفوا لبغي حدث بينهم، أي: لعداوةٍ وحسدٍ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل: المرادُ: اختلافُهم في أوامر الله ونواهيه في التوراة حسداً، وطلباً للرئاسة، لا عن جهل يكون الإنسانُ به معذوراً.

١٨ ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾ بعد اختلاف أهل الكتاب ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ على طريقة، ومنهاج ﴿مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ فاتّبع شريعتك الثابتة بالحجج والدلائل ﴿وَلَا تَتَّبِعْ

أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ

﴿أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهّال ودينهم المبنيّ على هوى وبدعة. وهم رؤساءُ قريش حين قالوا: ارجعْ إلى دين آبائك.

١٩ ـ ﴿إِنَّهُمْ﴾ إنّ هؤلاء الكافرين ﴿لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهم موالوه. وما أبين الفضل بين الولايتين!

٢٠ ـ ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ جعل ما فيه من معالم الدِّين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب، كما جعل روحاً وحياة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لمن آمن، وأيقن بالبعث.

٢١ ـ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ﴾ «أم»: منقطعة، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان ﴿ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ اكتسبوا المعاصي والكفر. ومنه: الجوارح، وفلان جارحة أهله، أي: كاسبهم ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ أن نصيِّرهم. وهو من «جعل» المتعدّي إلى مفعولين. فأوّلهما الضمير، والثاني الكاف في ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. والجملة التي هي ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدل من الكاف؛ لأنّ الجملة تقع مفعولاً ثانياً، فكانت في حكم المفرد ﴿سواءً﴾: عليّ، وحمزة، وحفص بالنصب على الحال من الضمير في ﴿نجعلهم﴾. ويرتفع محياهم ومماتهم بـ﴿سواءً﴾، وقرأ الأعمش ﴿ومماتهم﴾ بالنصب. جعل ﴿محياهم ومماتهم﴾ ظرفين، كمقدم الحاجّ، أي: سواء في محياهم وفي مماتهم. والمعنى: إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محياً، وأن يستووا مماتاً؛ لافتراق أحوالهم أحياء، حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على اقتراف السيئات، ومماتاً حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والكرامة، وأولئك على اليأس من الرحمة والندامة. وقيل: معناه: إنكار أن يستووا في الممات، كما استووا في الحياة في الرزق والصحّة. وعن تميم الداريّ ـ رضي الله عنه ـ: أنه كان يصلّي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية، فجعل يبكي، ويردّدها إلى الصباح. وعن الفضيل ـ رحمة الله عليه ـ: أنه بلغها،

سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا

فجعل يردّدها[1]، ويقول: يا فضيل! ليت شعري من أيّ الفريقين أنت؟! ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ بئس ما يقضون؛ إذْ حسبوا أنهم كالمؤمنين، فليس من أُقْعِدَ على بساط الموافقة، كمن أقعد في مقام المخالفة، بل نفرّق بينهم فنعلي المؤمنين، ونخزي الكافرين.

٢٢ ـ ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ليدلّ على قدرته ﴿وَلِتُجۡزَىٰ﴾ معطوف على هذا المعلّل المحذوف ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

٢٣ ـ ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: هو مطواع لهوى النفس، يتبع ما يدعوه إليه، فكأنّه يعبده كما يعبد الرجل إلهه ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ منه باختياره الضلال. أو: أنشأ فيه فعل الضلال ﴿على علم﴾ منه بذلك ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ﴾ فلا يقبل وعظاً ﴿وَقَلۡبِهِۦ﴾ فلا يعتقد حقّاً ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ فلا يبصر عبرة ـ ﴿غَشْوَة﴾ حمزة، وعليّ ـ ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ من بعد إضلال الله إيّاه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف: حمزة، وعليّ، وحفص، وغيرهم: بالتشديد، فأصل الشرّ: متابعة الهوى، والخير كلّه في مخالفته، فنعم ما قال:

إذا طلبتكَ النفسُ يوماً بشهوةٍ   وكـان إليهـا للخـلافِ طـريـق
فَدَعْها وخالفْ ما هويتَ فإنّما   هـواكَ عـدوٌّ والخـلافُ صـديـق

٢٤ ـ ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ﴾ أي: ما الحياة ـ لأنّهم وعدوا حياة ثانية ـ ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ التي نحن فيها. ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ نموت نحن ويحيا أولادنا، أو: يموت بعض ويحيا بعض، أو: نكون مواتاً نطفاً في الأصلاب ونحيا بعد ذلك، أو: يصيبنا الأمران الموت والحياة ـ يريدون: الحياة في الدنيا والموت بعدها ـ وليس وراء ذلك حياة. وقيل: هذا كلام من يقول بالتناسخ، أي: يموتُ الرجل، ثمّ

(١) ليست في الأصل المخطوط، واستدركت من المطبوع ليستقيم المعنى.

وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ

تجعل روحُه في مواتٍ فيحيا به ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ كانوا يزعمون أنّ مرور الأيام والليالي هو المؤثِّر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله، وكانوا يضيفون كلَّ حادثة تحدثُ إلى الدهر والزمان، وترى أشعارَهم ناطقةً بشكوى الزمان، ومنه قوله ﷺ: «لاتسبّوا الدهر فإنّ الله هو الدهر»[1]. أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث، لا الدهر ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وما يقولون ذلك من علم ويقين، ولكن عن ظنّ وتخمين.

٢٥ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ ـ أي: القرآن، يعني: ما فيه من ذكر البعث ـ ﴿بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ ـ وسمّى قولهم حجّة وإن لم يكن حجّة؛ لأنه في زعمهم حجّة ـ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾. أي: أحيوهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى البعث. و﴿حجّتهم﴾ خبر كان. واسمها ﴿أن قالوا﴾. والمعنى: ﴿ما كان حجّتهم إلاّ﴾ مقالتهم ﴿ائتوا بآبائنا﴾. وقرىء ﴿حُجَّتُهم﴾ بالرفع على أنّها اسم ﴿كان﴾ و﴿أن قالوا﴾: الخبر.

٢٦ ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فيها عند انتهاء أعماركم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يبعثكم يوم القيامة جميعاً. ومَن كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائكم ضرورة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في الجمع ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قدرة الله على البعث؛ لإعراضهم عن التفكُّر في الدَّلائل.

٢٧ ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ عامل النصب في ﴿يوم تقوم﴾ هو ﴿يخسر﴾. و﴿يومئذ﴾ بدل من ﴿يوم تقوم﴾.

٢٨ ـ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ جالسة على الركب. يقال: جثا فلان يجثو؛ إذا جلس على ركبتيه. وقيل: ﴿جاثية﴾ مجتمعة ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ ـ بالرفع على الابتداء.

(١) رواه البخاري (٦١٨١) ومسلم (٢٢٤٦).

تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا
نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى
رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى
مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾

﴿كلّ﴾: يعقوب، على الإبدال من ﴿كلّ أمّة﴾ ـ ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ إلى صحائف أعمالها ـ فاكتفى باسم الجنس ـ فيقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

٢٩ ـ ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ أضيف الكتاب إليهم لملابسته إيّاهم؛ لأنّ أعمالهم مثبتة فيه، وإلى الله تعالى؛ لأنّه مالكه، والآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمالَ عباده ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ يشهد عليكم لما عملتم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ من غير زيادة، ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ نستكتب الملائكة أعمالكم. وقيل: نسخت، واستنسخت: بمعنىً. وليس ذلك بنقل من كتاب، بل معناه: نثبت.

٣٠ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ جنّته ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

٣١ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فيقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. والمعنى: ﴿أ﴾ لم يأتكم رسلي ﴿فلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ ـ فحذف المعطوف عليه ـ ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين.

٣٢ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالجزاء ﴿حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ﴾ ـ بالرفع عطف على محلّ إنّ واسمها ﴿والساعةَ﴾ حمزة. عطف على ﴿وعد الله﴾ ـ ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أيُّ شيء الساعة ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾. أصله: نظنّ ظنّاً، ومعناه: إثبات الظنّ فحسب، فأدخل حرف النفي والاستثناء ليفاد إثبات الظنّ مع نفي ما سواه. وزيد نفي ما سوى الظنّ توكيداً بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

٣٣ ـ ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ظهر لهؤلاء الكفّار ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ قبائح أعمالهم، أو: عقوبات أعمالهم السيّئات، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ونزل بهم جزاء استهزائهم.

وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

٣٤ ـ ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: نترككم في العذاب كما تركتم عُدّة لقاء يومكم، وهي: الطاعة، وإضافة اللقاء إلى اليوم كإضافة المكر في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي: ﴿نسيتم لقاء﴾ الله تعالى في ﴿يومكم هذا﴾ ولقاء جزائه ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: منزلكم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

٣٥ ـ ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ ﴿لا يَخْرجون﴾: حمزة، وعليّ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربّهم، أي: يرضوه.

٣٦ ـ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فاحمدوا الله الذي هو ربُّكم وربُّ كلِّ شيءٍ من السموات والأرض والعالمين، فإنَّ مثل هذه الربوبيّة العامّة توجبُ الحمدَ والثناء على كلِّ مربوب.

٣٧ ـ ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وكبّروه فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته في السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أحكامه.

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

---

١ ـ ٣ ـ ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ملْتبساً بالحكمة ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يُنتهى إليه، وهو: يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ عما أنذروه من هول ذلك اليوم؛ الذي لا بدّ لكلّ مخلوق من انتهائه إليه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يؤمنون به، ولا يهتمّون بالاستعداد له. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدريّة، أي: عن إنذارهم ذلك اليوم.

٤ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعبدونه من الأصنام: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي شيء خلقوا ممّا في الأرض إن كانوا آلهة؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ شركة مع الله في خلق السموات؟ ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي: من قبل هذا الكتاب، وهو القرآن، يعني: أنّ هذا الكتابَ ناطقٌ بالتوحيد، وإبطال الشرك. وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلاّ وهو ناطقٌ بمثل ذلك، فائتوا بكتاب واحد منزل من قبله، شاهد بصحّة ما أنتم عليه من عبادة غير الله ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو: بقيّة من علم بقيت عليكم من علوم الأوّلين ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنّ الله أمركم بعبادة الأوثان.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ
غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ

٥ ـ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ أي: أبداً.

٦ ـ ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: الأصنام لعبدتها ﴿وَكَانُواْ﴾ أي: الأصنام ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ بعبادة عبدتهم ﴿كَـٰفِرِينَ﴾ تقول: ما دعوناهم إلى عبادتنا. ومعنى الاستفهام في: ﴿من أضلّ﴾ إنكار أن يكون في الضلاّل كلّهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام، حيث يتركون دعاء السَّميع المجيب القادر على كلِّ شيء، ويدعون من دونه جماداً لا يستجيبُ لهم، ولا قدرة به على استجابة أحدٍ منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة ﴿وإذا﴾ قامت القيامة، و﴿حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا﴾ عليهم ضدّاً، فليسوا في الدارين إلاّ على نكد ومضَرة: لا تتولاّهم في الدنيا بالاستجابة، وفي الآخرة تعاديهم، وتجحد عبادتهم. ولمّا أسند إليهم ما يسندُ إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة قيل: ﴿مَن﴾ و﴿هم﴾ ووصْفُهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكّم بها وبعبدتها. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

٧ ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ جمع بيِّنة، وهي: الحجة والشاهد، أو: واضحات مبيّنات ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ المراد بالحقّ: الآيات، وبالذين كفروا: المتلوّ عليهم. فوضع الظاهران موضع الضميرين للتسجيل عليهم بالكفر، وللمتلوّ بالحقّ ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: بادهوه بالجحود ساعة أتاهم، وأوّل ما سمعوه من غير إجالة فكر، ولا إعادة نظر ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر أمره في البطلان، لا شبهة فيه.

٨ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات: سحراً إلى ذكر قولهم: إنّ محمّداً ﷺ ﴿افتراه﴾ أي: اختلقه، وأضافه إلى الله كذباً. والضّمير

قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

للحقّ، والمراد به: الآيات ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: ﴿إن افتريته﴾ على سبيل الفرض عاجلني الله بعقوبة الافتراء عليه، فلا تقدرون على كفّه عن معاجلتي، ولا تطيقون دفع شيء من عقابه، فكيف أفتريه، وأتعرّض لعقابه؟! ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تندفعون فيه من القدح في وحي الله، والطعن في آياته، وتسميته سحراً تارة، وفرية أخرى ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصِّدق والبلاغ، ويشهد عليكم بالجحود والإنكار. ومعنى ذكر العلم والشهادة: وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ موعدة بالغفران والرحمة إن تابوا عن الكفر، وآمنوا.

٩ ـ ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: بديعاً، كالخفّ بمعنى الخفيف. والمعنى: إنِّي لستُ بأوّل مرسل فتنكروا نبوّتي ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أي: ﴿ما﴾ يفعل الله ﴿بي و﴾ بكم فيما يستقبل من الزمان. وعن الكلبيّ: «قال له أصحابه ـ وقد ضجروا من أذى المشركين ـ: حتّى متى نكون على هذا؟ فقال: ﴿ما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ أأترك بمكّة أم أُومر بالخروج إلى أرضٍ قد رفعت لي، ورأيتها ـ يعني: في منامه ـ ذات نخيل وشجر؟»[1] و﴿ما﴾ في ﴿ما يفعل﴾ يجوزُ أن تكون موصولة منصوبة، وأن تكون استفهاميّة مرفوعة. وإنّما دخل ﴿لا﴾ في قوله: ﴿ولا بكم﴾، مع أنّ ﴿يُفْعَلُ﴾ مثبت غير منفي، لتناول النفي في ﴿ما أدري﴾ ما، وما في حيّزه ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٠ ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هو عبد الله بن سلام عند الجمهور. ولهذا قيل: إنّ هذه الآية مدنيّة لأنّ إسلامَ ابنِ سلام بالمدينة. رُوي: أنّه لمّا قدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ نظر إلى

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٥٤).

﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾

وجهه، فعلم أنّه ليس بوجه كذّاب، قال له: إنّي سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنّ إلاّ نبيّ: ما أوّل أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام يأكله أهل الجنّة؟ وما بالُ الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمّه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أوّل أشراط الساعة فنارٌ تحشرهم من المشرق إلى المغرب. وأما أوّل طعام يأكله أهلُ الجنّة فزيادة كبد حوت. وأمّا الولد فإذا سبق ماء الرجلُ نزعه، وإن سبق ماءُ المرأة نزعته». فقال: أشهد أنّك رسول الله حقّاً[1] ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ الضمير للقرآن، أي: مثله في المعنى، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من: التوحيد، والوعد، والوعيد، وغير ذلك. ويجوزُ أن يكون المعنى: إن كان من عند الله، وكفرتم به، وشهد شاهدٌ على نحو ذلك، يعني: كونه من عند الله ﴿فَـَٔامَنَ﴾ الشاهد ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان به. وجواب الشرط محذوف، تقديره: ﴿إن كان﴾ القرآنُ ﴿من عند الله وكفرتم به﴾ ألستم ظالمين؟! ويدلُّ على هذا المحذوف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. والواو الأولى عاطفةٌ لـ: ﴿كفرتم﴾ على فعل الشرط، وكذلك الواو الأخيرة عاطفة لـ: ﴿استكبرتم﴾ على ﴿شهد شاهد﴾. وأمّا الواو في ﴿وشهد﴾ فقد عطفت جملة قوله: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ على جملة قوله: ﴿كان من عند الله وكفرتم به﴾ والمعنى: ﴿قل﴾ أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به، واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله، فإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به، ألستم أضلَّ الناس وأظلمهم؟

١١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: لأجلهم، وهو كلام كفّار مكّة، قالوا: عامّة من يتبع محمداً السقاط، يعنون: الفقراء، مثل: عمّار، وصهيب، وابن مسعود ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ العامل في ﴿إذ﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه،

---

(١) رواه أحمد (٣ /١٠٨) والبخاري (٣٣٢٩) والنسائي في عشرة النساء (١٨٩) والبيهقي في الدلائل (٢ /٥٢٨ـ٥٢٩) وابن حبان (٧١٦١).

فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ
مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا
ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ
فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا

تقديره: ﴿وإذ لم يهتدوا به﴾ ظهر عنادهم. وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ مسبّب عنه. وقولهم: ﴿إفك قديم﴾ أي: كذب متقادم، كقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

١٢ ـ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: التوراة. وهو مبتدأ و﴿من قبله﴾ ظرف واقع خبراً مقدّماً عليه. وهو ناصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال، نحو: في الدار زيد قائماً. ومعنى ﴿إماماً﴾: قدوة يؤتمّ به في دين الله وشرائعه، كما يؤتمّ بالإمام ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به، وعمل بما فيه ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى، ولما بين يديه وتقدمه من جميع الكتب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير الكتاب في ﴿مصدّق﴾. والعامل في ﴿مصدّق﴾ أو: من ﴿كتاب﴾ لتخصّصه بالصفة، ويعمل فيه معنى الإشارة. وجوّز أن يكون مفعولاً لـ: ﴿مصدّق﴾، أي: يصدّق ذا لسان عربيٍّ، وهو الرسول ﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي: الكتاب ﴿لتنذر﴾: حجازيّ، وشاميّ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كفروا ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ في محلّ النصب معطوف على محلّ ﴿لينذر﴾ لأنّه مفعول له ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ للمؤمنين المطيعين.

١٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ على توحيد الله، وشريعة نبيّه محمد ﷺ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عند الموت.

١٤ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من ﴿أصحاب الجنّة﴾ والعامل فيه معنى الإشارة؛ الذي دلّ عليه ﴿أولئك﴾ ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جزاء﴾: مصدر لفعل دلّ عليه الكلام، أي: جوزوا ﴿جزاء﴾.

١٥ ـ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ كوفيّ، أي: وصّيناه بأن يحسن ﴿بوالديه إحساناً﴾ ﴿حَسناً﴾ غيرهم، أي: وصّيناه بوالديه أمراً ذا حسن، أو: بأمر ذي حسن، فهو في موضع البدل من قوله ﴿بوالديه﴾ وهو من بدل الاشتمال

حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ بفتح الكاف: حجازيّ، وأبو عمرو. وهما لغتان في معنى المشقّة. وانتصابه على الحال، أي: ذات كره، أو: على أنّه صفة للمصدر، أي: حملاً ذا كره ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ ومدّة حمله وفطامه ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وفيه دليلٌ على أنّ أقلّ مدّة الحمل ستّة أشهر؛ لأنّ مدّة الرضاع إذا كانت حولين لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] بقيت للحمل ستّة أشهر. وبه قال أبو يوسف ومحمد ـ رحمهما الله ـ. وقال أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: المراد به: الحمل بالأكفّ ﴿وفصله﴾: يعقوب. والفصل والفصال كالفطم والفطام، بناءً ومعنىً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ هو جمع، لا واحد له من لفظه. وكان سيبويه يقول: واحده شِدَّةٌ. وبلوغ الأشدّ: أن يكتهل، ويستوفي السنّ التي تستحكم فيها قوّته وعقله، وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين. وعن قتادة: ثلاث وثلاثون سنة. ووجهه: أن يكون ذلك أوّل الأشدّ، وغايته الأربعين ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ ـ المراد به: نعمة التوحيد والإسلام. وجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه؛ لأنّ النعمة عليهما نعمة عليه ـ ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ ـ قيل: هي الصلوات الخمس ـ ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي: اجعل ذرّيّتي موقعاً للصلاح، ومظنّة له ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من كلّ ذنب ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من المخلصين.

١٦ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: حمزة وعليّ وحفص. ﴿يُتَقَبَّلُ﴾ ﴿ويُتَجاوز﴾ ﴿أحسنُ﴾: غيرهم ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ هو كقولك: أكرمني الأمير في ناس من أصحابه. تريد: أكرمني في جملة من أكرم منهم ونظمني في عدادهم. ومحلّه النصب على الحال على معنى كائنين ﴿في أصحاب الجنّة﴾ ومعدودين فيهم ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكّد لأنّ قوله يتقبّل ويتجاوز وعد من الله لهم بالتقبّل والتجاوز

ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ

قيل: نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وفي أبيه أبي قحافة، وأمّه أمّ الخير، وفي أولاده، واستجابة دعائه فيهم. فإنّه آمن بالنبيّ ﷺ وهو ابن ثمان وثلاثين سنة. ودعا لهما وهو ابن أربعين سنة. ولم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبي بكر ـ رضي الله عنهم ـ ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

١٧ ـ ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ مبتدأ خبره: ﴿أولئك الذين حقّ عليهم القول﴾. والمراد بالذي قال: الجنس القائل ذلك القول؛ ولذلك وقع الخبر مجموعاً. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: هو في الكافر العاقّ لوالديه، المكذّب بالبعث. وقيل: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قبل إسلامه. ويشهد لبطلانه كتاب معاوية إلى مروان ليأمر الناس بالبيعة ليزيد. فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم بها هرقليّة. أتبايعون لأبنائكم؟ فقال مروان: يا أيُّها الناس هذا الذي قال الله تعالى فيه ﴿والذي قال لوالديه أفّ لكما﴾. فسمعت عائشة رضي الله عنها فغضبت وقالت: والله ما هو به، ولو شئت أن أسمّيه لسمّيته، ولكنّ الله تعالى لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فَضَضٌ من لعنة الله(١). أي: قطعة ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ مدنيٌّ وحفص ﴿أفَّ﴾ مكّيٌّ وشاميٌّ ﴿أفِّ﴾ غيرهم. وهو صوت إذا صوّت به الإنسان علم أنّه متضجّر، كما إذا قال: حَسٍّ؛ علم أنّه متوجّع. واللام للبيان. أي: هذا التأفيف لكما خاصّة ولأجلكما دون غيركما ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ أن أُبعَثَ و﴿أخرج﴾ من الأرض ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ ولم يبعث منهم أحد ﴿وَهُمَا﴾ أبواه ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يقولان: الغياث بالله منك ومن قولك، وهو استعظام لقوله، ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ﴾ دعاء عليه بالثبور. والمراد به: الحثّ والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك ﴿ءَامِنْ﴾ بالله وبالبعث ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ صدق ﴿فَيَقُولُ﴾

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (١١٤٩١).

مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ
أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ
ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ
وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

لهما: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ القول ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

١٨ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ في جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

١٩ ـ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الجنسين المذكورين الأبرار والفجّار ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أي: منازل ومراتب ﴿من﴾ جزّاء ﴿ما عملوا﴾ من الخير والشّر. أو ﴿من﴾ أجل ﴿ما عملوا﴾ منهما. وقيل: ﴿درجات﴾، وقد جاء: الجنّة درجات، والنار دركات، على وجه التغليب ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بالياء: مكّيٌّ، وبصريّ، وعاصم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. أي: ﴿وليوفّيهم أعمالهم﴾ ولا يظلمهم حقوقهم، قدَّر جزاءهم على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات، فاللام متعلّقة بمحذوف.

٢٠ ـ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ عرضهم على النار: تعذيبهم بها. من قولهم: عُرِض بنو فلان على السيف إذا قتلوا به وقيل: المراد: عرض النار عليهم، من قولهم: «عرضت الناقة على الحوض» يريدون: عرض الحوض عليها، فقلبوا ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ أي: يقال لهم: ﴿أذهبتم﴾ وهو ناصب الظرف ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾. أي: ما كتب لكم حظّ من الطيّبات إلاّ ما قد أصبتموه في دنياكم. وقد ذهبتم به وأخذتموه. فلم يبق لكم بعد استيفاء حظّكم شيءٌ منها. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً، وأحسنكم لباساً، ولكنّي أستبقي طيّباتي ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ بالطيّبات ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الهوان. وقرىء به ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تتكبرون ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي: باستكباركم وفسقكم.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾

---

٢١ ـ ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي: هوداً ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ جمع حِقْف، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء، من: احقوقف الشيء إذا اعوجَّ. عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو واد بين عمان ومَهْرَة ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ جمع نذير بمعنى المنذر، أو: الإنذار ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من قبل هود ومن خلف هود. وقوله: ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ وقع اعتراضاً بين: ﴿أنذر قومه﴾ وبين: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. والمعنى: ﴿واذكر﴾ إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم، وقد أنذر من تقدّمه من الرسل ومن تأخّر عنه مثل ذلك.

٢٢ ـ ﴿قَالُوا﴾ أي: قوم هود ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصرفنا. فالأفك: الصرف. يقال: أفكه عن رأيه ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ عن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من معاجلة العذاب على الشرك ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في وعْدِك.

٢٣ ـ ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ بوقت مجيء العذاب ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ولا علم لي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وبالتخفيف أبو عمرو. أي: الذي هو شأني أن أبلّغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي: ولكنّكم جاهلون لا تعلمون: أنّ الرسل بعثوا منذرين، لا مقترحين، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه.

٢٤، ٢٥ ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضمير يرجع إلى ﴿ما تعدنا﴾ أو: هو مبهم وضّح أمره بقوله: ﴿عَارِضًا﴾ إمّا تمييزاً أو حالاً. والعارض: السحاب الذي يعرض في أفق من السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾. روي: أنّ المطر قد احتبس عنهم فرأوا سحابةً استقبلت أوديتهم، فقالوا: هذا سحابٌ يأتينا بالمطر،

بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ

وأظهروا من ذلك فرحاً. وإضافة «مستقبل» و«ممطر» مجازيّة غير معرَّفة؛ بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفاً للنكرة ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود ﴿بل هو﴾. ويدلّ عليه قراءة من قرأ: (قال هود بل هو) ﴿مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب. ثمّ فسّره فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجمّ الكثير. فعبّر عن الكثرة بالكلّيّة ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ ربّ الريح ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ عاصم وحمزة وخلف. أي: ﴿لا يرى﴾ شيء ﴿إلاّ مساكنهم﴾. غيرهم: ﴿لا تَرى إلاّ مساكنَهم﴾ والخطاب للرائي من كان ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل ذلك ﴿نجزي﴾ من أجرم مثل جرمهم. وهو تحذير لمشركي العرب. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: اعتزل هود ـ عليه السلام ـ ومن معه في حظيرةٍ، ما يصيبهم من الريح إلاّ ما تلذّه الأنفس، وإنّها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة.

٢٦ ـ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ ﴿إن﴾ نافية. أي: فيما ما مكنّاكم فيه. إلاّ أنّ ﴿إن﴾ أحسن في اللفظ لما في مجامعة ما مثلها من التكرير المستبشع. ألا ترى: أنّ الأصل في مهما ما ما، فلبشاعة التكرير قلبوا الألف هاء. وقد جعلت ﴿إن﴾ صلة وتؤول بأنّا ﴿مكنّاهم في﴾ مثل ما ﴿مكنّاهم فيه﴾. والوجه هو الأوّل. لقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤] ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا﴾ [غافر: ٨٢]. و﴿ما﴾ بمعنى الذي، أو: نكرة موصوفة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ أي: آلات الدرك والفهم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ﴿من شيءٍ﴾ من الإغناء، وهو القليل منه ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ «إذ»: نصب بقوله: ﴿فما أغنى﴾. وجرى مجرى التعليل لاستواء مؤدّى التعليل والظرف في قولك: ضربته لإساءته، وضربته إذ أساء. لأنّك إذا ضربته في وقت إساءته فإنّما ضربته فيه لوجود إساءته فيه، إلاّ

وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ

أنّ إذ، وحيث غلبتا دون سائر الظروف في ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ ونزل بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ جزاء استهزائهم. وهذا تهديد لكفّار مكّة، ثمّ زادهم تهديداً بقوله:

٢٧ ـ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهل مكّة ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ نحو: حجر ثمود، وقرى قوم لوط. والمراد: أهل القرى. ولذلك قال: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: كرّرنا عليهم الحجج وأنواع العبر ﴿لعلهم يرجعون﴾ عن الطغيان إلى الإيمان فلم يرجعوا.

٢٨ ـ ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاّ ﴿نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ القربان ما تقرّب به إلى الله تعالى. أي: اتّخذوهم شفعاء متقرّباً بهم إلى الله تعالى؛ حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وأحد مفعولي اتّخذ الراجع إلى الذين محذوف. أي: اتّخذوهم. والثاني ﴿آلهة﴾. و﴿قرباناً﴾ حال ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ غابوا عن نصرتهم ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ﴿وذلك﴾: إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم، وضلالهم عنهم. أي: ﴿وذلك﴾ أثر ﴿إفكهم﴾ الذي هو اتّخاذهم إيّاها آلهةً، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب.

٢٩ ـ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا﴾ أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك. والنفر دون العشرة ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ جنّ نصيبين ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: الرسول ﷺ أو القرآن. أي: ﴿فلمّا﴾ كانوا منه بحيث يسمعون ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: قال بعضهم لبعض ﴿أَنصِتُوا۟﴾ اسكتوا مستمعين. روي: أنّ الجنّ كانت تسترق السمع، فلمّا حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا: ما هذا إلاّ لنبأٍ حدث، فنهض سبعة نفر، أو تسعة من أشراف جنّ

فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

نصيبين، أو نينوى، منهم: زوبعة. فضربوا حتّى بلغوا تهامة. ثمّ اندفعوا إلى وادي نخلة فوافقوا رسولَ الله ﷺ وهو قائم في جوف الليل يصلّي، أو في صلاة الفجر، فاستمعوا لقراءته[1]. وعن سعيد بن جبير: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ ولا رآهم، وإنّما كان يتلو في صلاته، فمرّوا به، فوقفوا مستمعين، وهو لا يشعر، فأنبأه الله باستماعهم[2]. وقيل: بل أمر الله رسوله أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم، فصرف إليه نفراً منهم، فقال: إني أمرت أن أقرأ على الجنّ الليلة فمن يتبعني؟ قالها ثلاثاً، فأطرقوا إلّا عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لم يحضره ليلة الجنّ أحد غيري، فانطلقنا حتّى إذا كنّا بأعلى مكّة في شعب الحجون، فخطّ لي خطّاً وقال: لا تخرج منه حتّى أعود إليك، ثمّ افتتح القرآن وسمعت لغطاً شديداً. فقال لي رسول الله ﷺ: «هل رأيت شيئاً؟» قلت: نعم، رجالاً سوداً. فقال: «أولئك جنّ نصيبين». وكانوا اثني عشر ألفاً، والسورة التي قرأها عليهم ﴿اقرأ باسم ربّك﴾[3] ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي: فرغ النبيُّ ﷺ من القراءة ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إيّاهم.

٣٠، ٣١ ـ ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ وإنّما قالوا من بعد موسى لأنّهم كانوا على اليهوديّة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّ الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ إلى الله تعالى ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ أي: محمداً ﷺ ﴿وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قال أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ: لا ثواب لهم إلّا النّجاة من النار لهذه الآية. وقال مالك وابن

---

(١) متفق عليه بمعناه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس دون أوله.
(٢) هو في الحديث الذي قبله.
(٣) قال الحافظ: لم أجده بتمامه في سياق واحد (حاشية الكشاف ٤/ ٣١٢).

وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ

أبي ليلى وأبو يوسف ومحمد ـ رحمهم الله ـ: لهم الثواب والعقاب. وعن الضحّاك: أنّهم يدخلون الجنّة، ويأكلون، ويشربون؛ لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦].

٣٢ ـ ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا ينجي منه مهرب ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٣٣ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ هو كقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. ويقال: عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ محلّه الرفع؛ لأنه خبر «أنّ» يدلّ عليه قراءة عبد الله (قادر)، وإنّما دخلت الباء لاشتمال النفي في أوّل الآية على: أنّ وما في حيّزها. وقال الزجّاج: لوقلت: ما ظننت أنّ زيداً بقائم جاز كأنّه قيل: أليس الله بقادر؟ ألا ترى إلى وقوع: «بلى» مقرّرة للقدرة على كلّ شيء من البعث وغيره لا لرؤيتهم ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ﴾ هو جواب للنفي ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

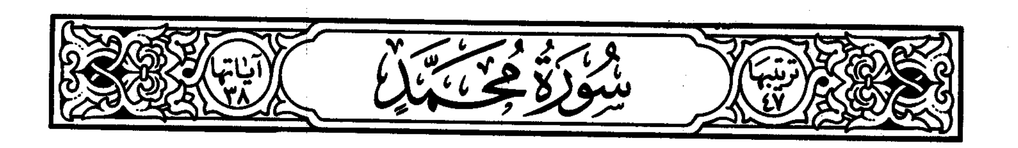
٣٤ ـ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يقال: لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟ فناصب الظرف القول المضمر. و﴿هذا﴾ إشارة إلى العذاب ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفركم في الدنيا.

٣٥ ـ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾ أولو الجدّ والثبات والصبر ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ «من»: للتبعيض. والمراد بأولي العزم: ما ذكر في الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. ويونس ليس منهم؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]. وكذا آدم لقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. أو: للبيان، فيكون أولو العزم صفة

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

الرسل كلّهم ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ لكفّار قريش بالعذاب. أي: لا تدع لهم بتعجيله، فإنّه نازلٌ بهم لا محالة وإن تأخّر ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ أي: أنّهم يستقصرون حينئذ مدّة لبثهم في الدنيا حتّى يحسبوها ساعةً من نهار ﴿بَلَٰغٌ﴾ هذا ﴿بلاغ﴾. أي: هذا الذي وعظتم به كفاية في الموعظة. أو: هذا تبليغ من الرسول ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ هلاك عذاب. والمعنى: فلن يُهْلَكَ بعذاب الله ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: المشركون الخارجون عن الاتّعاظ به والعمل بموجبه.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾

١ ـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أعرضوا، وامتنعوا عن الدخول في الإسلام، أو صدّوا غيرهم عنه. قال الجوهريُّ: صدّ عنه، يصدّ، صدوداً: أعرض. وصدَّه عن الأمر، صدّاً: منعه، وصرفه عنه. وهم المطعمون يوم بدر، أو: أهل الكتاب، أو: عامٌّ في كلّ من كفر وصدّ ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبطلها وأحبطها، وحقيقته: جعلها ضالّة ضائعة ليس لها من يتقبّلها، ويثيب عليها؛ كالضالّة من الإبل. وأعمالهم: ما عملوه في كفرهم من صلة الأرحام، وإطعام الطعام، وعمارة المسجد الحرام. أو ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والصدّ عن سبيل الله.

٢ ـ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هم ناس من قريش، أو: من الأنصار، أو: من أهل الكتاب، أو: عامّ ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وهو القرآن. وتخصيص الإيمان بالمنزل على رسوله من بين ما يجب الإيمان به لتعظيم شأنه. وأكّد ذلك بالجملة الاعتراضية، وهي قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: القرآن. وقيل: إنّ دين محمد ﷺ هو الحقّ؛ إذ لا يرد عليه النسخ، وهو ناسخ لغيره ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي؛ لرجوعهم عنها، وتوبتهم ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾

الدين، وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

٣ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ﴿ذلك﴾: مبتدأ. وما بعده خبره. أي: ﴿ذلك﴾ الأمر، وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيّئات الثاني، والإصلاح كائن بسبب اتّباع هؤلاء ﴿الباطل﴾ وهو الشيطان، وهؤلاء ﴿الحقّ﴾ وهو القرآن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي: يبيّن الله ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾. والضمير راجع إلى الناس. أو: إلى المذكورين من الفريقين على معنى: أنّه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم. وقد جعل اتّباع الباطل مثلاً لعمل الكافرين واتّباع الحقّ مثلاً لعمل المؤمنين. أو: جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفّار، وتكفير السيّئات مثلاً لفوز الأبرار.

٤ ـ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصله: فاضربوا الرقاب ضرباً، فحذف الفعل، وقدّم المصدر، فأنيب منابه مضافاً إلى المفعول. وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد؛ لأنّك تذكر المصدر وتدلّ على الفعل بالنصبة التي فيه. و﴿ضرب الرقاب﴾ عبارةٌ عن القتل، لا أنّ الواجب تضرب الرقاب خاصّة دون غيرها من الأعضاء، ولأنّ قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته، فوقع عبارةً عن القتل وإن ضُرِبَ غيرُ رقبته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ فأسروهم. والوثاق بالفتح والكسر: اسم ما يوثق به. والمعنى: ﴿فشدّوا﴾ وثاق الأسارى حتّى لا يفلتوا منكم ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ﴾ أي: بعد أن تأسروهم ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ ﴿منّاً﴾ و﴿فداء﴾ منصوبان بفعليهما مضمرين أي: ﴿فإمّا﴾ تمنون ﴿منّا﴾ أو تفدون ﴿فداء﴾. والمعنى: التخيير بين الأمرين بعد الأسر: بين أن يمنّوا عليهم، فيطلقوهم، وبين أن يفادوهم. وحكم أسارى المشركين عندنا: القتل أو الاسترقاق. والمنّ والفداء المذكوران في الآية منسوخ بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] لأنّ

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۖ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾

سورة براءة من آخر ما نزل. وعن مجاهد ـ رحمه الله ـ: ليس اليوم منٌّ ولا فداء [إنما هو الإسلام أو ضرب العنق][1] أو المراد بالمنّ: أن يمنّ عليهم بترك القتل، ويسترقّوا. أو يمنّ عليهم، فيخلّوا لقبولهم الجزية. وبالفداء: أن يفادى بأساراهم أسارى المشركين[2]. فقد رواه الطحاويّ مذهباً عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ وهو قولهما. والمشهور: أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره لئلا يعودوا حرباً علينا. وعند الشافعيّ ـ رحمه الله ـ: للإمام أن يختار أحد الأمور الأربعة: القتل، والاسترقاق، والفداء بأسارى المسلمين، والمنّ ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أثقالها، وآلاتها التي لا تقوم إلاّ بها؛ كالسلاح، والكراع. وقيل: ﴿أوزارها﴾ آثامها. يعني: ﴿حتّى﴾ يترك أهل الحرب؛ وهم المشركون شركهم بأن يسلموا. أو: ﴿حتّى﴾ لا يخلو من أن يتعلّق بالضرب والشدّ أو بالمنّ والفداء. فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعيّ ـ رحمه الله ـ: أنّهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى ألاّ يكون حرب مع المشركين. وذلك إذا لم يبق لهم شوكة. وقيل: إذا نزل عيسى ـ عليه السلام ـ. وعند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ: إذا علّق بالضرب والشدّ فالمعنى: أنّهم يقتلون ويؤسرون حتّى تضع جنس الحرب الأوزار، وذلك حين لا تبقى شوكة للمشركين، وإذا علّق بالمنّ والفداء فالمعنى: أنّه يمنّ عليهم، ويفادون حتّى تضع حرب بدر أوزارها، إلاّ أن يتأوّل المنّ والفداء بما ذكرنا من التأويل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ﴿ذلك﴾ فهو مبتدأ وخبر، أو افعلوا بهم ﴿ذلك﴾ فهو في محلّ النصب ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لانتقم منهم بغير قتال ببعض أسباب الهلاك؛ كالخسف، أوالرجفة، أو غير ذلك ﴿وَلَٰكِن﴾ أمركم بالقتال ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: المؤمنين بالكافرين تمحيصاً للمؤمنين، وتمحيقاً للكافرين ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾ بصريٌّ وحفص ﴿قاتلوا﴾ غيرهم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

---

(١) ما بين حاصرتين مستدرك من المطبوع.

(٢) كذا في الأصل المخطوط: المشركين وبذلك نعيد الضمير في: (بأساراهم) إلى المسلمين.

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾

---

٥ ـ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى طريق الجنّة أو إلى الصواب في جواب مُنْكرٍ ونكيرٍ ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ يرضي خصماءهم، ويقبل أعمالهم.

٦ ـ ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ عن مجاهد: عرّفهم مساكنهم فيها حتّى لا يحتاجوا أن يسألوا، أو: طيّبها لهم من: العَرْفِ، وهو طيب الرائحة.

٧ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: دين الله ورسوله ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على عدوّكم، ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب، أو على محجّة الإسلام.

٨ ـ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في موضع رفع بالابتداء. والخبر ﴿فَتَعْسًا لَهُمْ﴾. وعطف قوله ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ على الفعل الذي نصب ﴿تعساً﴾؛ لأنّ المعنى: ﴿فـ﴾ قال: ﴿تعساً لهم﴾. والتعس: العثور. وعن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد: في الدنيا القتل، وفي الآخرة التردّي في النار.

٩ ـ ﴿ذَلِكَ﴾ أي: التعس والضلال ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: القرآن، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

١٠ ـ ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني كفّار أمّتك ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أهلكهم هلاك استئصال ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ مشركي قريش ﴿أَمْثَالُهَا﴾ أمثال تلك الهلكة لأنّ التدمير يدلّ عليها.

١١ ـ ﴿ذَلِكَ﴾ أي: نصر المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وليّهم وناصرهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي: لا ناصر لهم، فالله مولى العبد من جهة الاختراع، وملك التصرف فيه، والنصرة، فهو مولى المؤمنين والكافرين من جهة الاختراع والتصرف فيهم، ومولى المؤمنين خاصة من جهة النُّصْرة.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا

١٢ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ﴾ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أيّاماً قلائل ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ غافلين غير مفكّرين في العاقبة ﴿كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ في معالفها ومسارحها غافلة عمّا هي بصدده من النحر والذبح ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ منزل ومقام.

١٣ ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: وكم ﴿من قرية﴾ ـ للتكثير. وأراد بالقرية أهلها. ولذلك قال: ﴿أهلكناهم﴾ ـ ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: وكم من قرية أشدّ قوّة من قومك الذين أخرجوك؛ أي: كانوا سبب خروجك ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي. فلم يكن لهم من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم.

١٤ ـ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: ﴿أفمن كان على﴾ حجة من عنده وبرهان، وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات. يعني: رسول الله ﷺ ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ هم أهل مكة الذين زيّن لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله. وقال: ﴿سوء عمله﴾ ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ للحمل على لفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه.

١٥ ـ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ صفة الجنّة العجيبة الشأن ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن الشرك ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ داخل في حكم الصلة؛ كالتكرير لها، ألا ترى إلى صحّة قولك: التي فيها أنهار. أو حال: أي: مستقرّة. فيها أنهار ﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ غير متغيّر اللون والريح والطعم ـ يقال: أسن الماء: إذا تغير طعمه وريحه. ﴿أسِن﴾ مكيٌّ ـ ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كما تتغيّر ألبان الدنيا إلى الحموضة وغيرها ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ﴾ تأنيث لذ، وهو اللذيذ ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾. أي: ما هو إلاّ التلذّذ الخالص، ليس معه ذهاب عقل، ولا خمار، ولا صداع، ولا آفة من آفات الخمر ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿وَلَهُمْ فِيهَا

مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ
أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا
قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ
هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ
لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴿١٨﴾ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ

﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ ﴿مثل﴾ مبتدأ خبره ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا﴾ حارّاً في النهاية ﴿فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾. والتقدير: أمثل الجنّة كمثل جزاء من هو خالد في النار؟ وهو كلام في صورة الإثبات، ومعناه: النفي لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار ودخوله في حيّزه. وهو قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [محمد: ١٤] وفائدة حذف حرف الإنكار: زيادة تصوير لمكابرة من يسوّي بين المتمسّك بالبيّنة والتابع لهواه، وأنّه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنّة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يُسْقى أهلها الحميم.

١٦ ـ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ هم المنافقون، كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، فيسمعون كلامه ولا يعونه، ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم. فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة: ماذا قال الساعة؟ على جهة الاستهزاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾.

١٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ بالإيمان واستماع القرآن ﴿زَادَهُمۡ﴾ الله ﴿هُدٗى﴾ علماً وبصيرةً، أو شرح صدورهم ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ أعانهم عليها. أو: آتاهم جزاء تقواهم. أو: بيّن لهم ما يتّقون.

١٨ ـ ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: ينتظرون ﴿أَن تَأۡتِيَهُم﴾ أي: إتيانها. فهو بدل اشتمال من الساعة ﴿بَغۡتَةٗ﴾ فُجاءةً ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا﴾ علاماتها، وهو مبعث محمّد ﷺ، وانشقاق القمر، والدخان. وقيل: قطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللئام ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ قال الأخفش: التقدير: فأنّى لهم ذكراهم إذا جاءتهم.

١٩ ـ ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ﴾ أنّ الشأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ

وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾. والمعنى: فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانيّة الله، وعلى التواضع وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب مَنْ على دينك. وفي شرح التأويلات: جاز أن يكون له ذنب فأمره بالاستغفار له ولكنّا لا نعلمه، غير أنّ ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح، وذنوبنا مباشرة القبائح من الصغائر والكبائر. وقيل: الفاءات في هذه الآيات لعطف جملة على جملة بينهما اتّصال ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾ في معايشكم ومتاجركم ﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ ويعلم حيث تستقرّون من منازلكم. أو: ﴿متقلّبكم﴾ في حياتكم ﴿ومثواكم﴾ في القبور. أو: ﴿متقلّبكم﴾ في أعمالكم ﴿ومثواكم﴾ من الجنّة والنار. ومثله حقيق بأن يتّقى، ويخشى، وأن يستغفر. وسئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فاعلم أنّه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾ فأمر بالعمل بعد العلم.

٢٠ ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ فيها ذكر الجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ في معنى الجهاد ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ مبيّنة غير متشابهة لا تحتمل وجهاً إلاّ وجوب القتال. وعن قتادة ـ رحمه الله ـ كلّ سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة؛ لأنّ النسخ لا يرد عليها من قِبَل: أنّ القتال نسخ ما كان من الصفح والمهادنة وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ أي: أمر فيها بالجهاد ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ نفاق. أي: رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أي: تشخص أبصارهم جبناً وجزعاً؛ كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ وعيد بمعنى: فويل لهم. وهو أفعل من الوَلْي، وهو القرب. ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه.

٢١ ـ ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ كلام مستأنف. أي: ﴿طاعة وقول معروف﴾ خير لهم ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ فإذا جدّ الأمر ولزمهم فرض القتال ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾

في الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ﴾ الصدق ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من كراهة الجهاد.

٢٢ ـ ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب بضرب من التوبيخ والإرهاب فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: فلعلّكم، إن أعرضتم عن دين رسول الله ﷺ وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهليّة من الإفساد في الأرض بالتغاور، والتناهب، وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً، ووأد البنات. وخبر عسى: ﴿أن تفسدوا﴾ والشرط اعتراض بين الاسم والخبر. والتقدير: فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض، وتقطعوا أرحامكم إن تولّيتم.

٢٣ ـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الموعظة ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ عن إبصارهم طريق الهدى.

٢٤ ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ فيعرفوا ما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة حتّى لا يجسروا على المعاصي؟ و﴿أم﴾ في ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ بمعنى بل، وهمزة التقرير؛ للتسجيل عليهم بأنّ قلوبهم مقفلة لا يتوصّل إليها ذكر، ونكّرت القلوب لأنّ المراد: على قلوبٍ قاسيةٍ مبهمٍ أمرها في ذلك. والمراد: بعض القلوب، وهي قلوبَ المنافقين. وأضيفت الأقفال إلى القلوب؛ لأنّ المراد الأقفال المختصّة بها. وهي أقفال الكفر التي استغلقت، فلا تنفتح، نحو: الرين، والختم، والطبع.

٢٥ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: المنافقون، رجعوا إلى الكفر سرّاً بعد وضوح الحقّ لهم ـ ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ﴾ زين ﴿لَهُمْ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبراً لـ: ﴿إنّ﴾، نحو: إنّ زيداً عمرو مرّ به ـ ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدّ لهم في الآمال والأماني. ﴿وأمليَ﴾ أبو عمرو. أي: أمهلوا، ومدّ في عمرهم.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ
أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾
وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ

٢٦ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي: المنافقون قالوا لليهود ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: عداوة محمد ـ ﷺ ـ، والقعود عن نصرته ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ على المصدر من أسرّ، حمزة وعليّ وحفص. ﴿أسرارهم﴾ غيرهم. جمع سرّ.

٢٧ ـ ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: ﴿فكيف﴾ يعملون؟ وما حيلتهم حينئذ؟ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا يتوفّ أحد على معصية إلاّ يضرب من الملائكة في وجهه ودبره.

٢٨ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ ـ إشارة إلى التوفّي الموصوف ـ ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ بسبب أنّهم ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من معاونة الكافرين ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ من نصرة المؤمنين ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

٢٩ ـ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أحقادهم. والمعنى: أظنّ المنافقون: أنّ الله تعالى لا يبرز بغضهم وعداوتهم للمؤمنين؟

٣٠ ـ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ لعرّفناكهم ودللناك عليهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلامتهم، وهو أن يسمهم الله بعلامة يُعْلَمون بها. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: «ما أُخفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية أحدٌ من المنافقين. كان يعرفهم بسيماهم» ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ في نحوه وأسلوبه الحسن في فحوى كلامهم؛ لأنّهم كانوا لا يقدرون على كتمان ما في أنفسهم. واللام في ﴿فلعرفتهم﴾ داخلة في جواب ﴿لو﴾ كالتي في ﴿لأريناكهم﴾ كرّرت في المعطوف. وأمّا اللام في ﴿ولتعرفنّهم﴾ فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف.

وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ
أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ
وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ
وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾

و﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ فيميز خيرها من شرِّها.

٣١ ـ ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ ﴾ بالقتال إعلاماً لا استعلاماً. أو نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ في إظهار العدل ﴿ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على الجهاد. أي: نعلم كائناً ما علمنا أنّه سيكون ﴿ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾ أسراركم. ﴿وليبلونّكم حتّى يعلم... ويبلو﴾ أبو بكر. وعن الفضيل ـ رحمه الله ـ: أنّه كان إذا قرأها بكى وقال: اللهم لا تَبلُنا؛ فإنّك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا، وعذبتنا.

٣٢ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ وعادوه، يعني: المطعمين يوم بدر. وقد مرّ ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنّه الحقّ، وعرفوا الرسول ﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ التي عملوها في مشاقّة الرسول. أي: سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم.

٣٣ ـ ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ بالنفاق أو بالرياء.

٣٤ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾ قيل: هم أصحاب القليب. والظاهر العموم.

٣٥ ـ ﴿ فَلَا تَهِنُواْ ﴾ فلا تضعفوا، ولا تذلّوا للعدوّ ﴿ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ ﴾ وبالكسر حمزة وأبو بكر وأبو عمرو. وهما المسالمة. أي: ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ﴿ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ ﴾ أي: لأغلبون. و﴿تدعوا﴾ مجزوم لدخوله في حكم النهي ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ ﴾ بالنصرة. أي: ناصركم ﴿ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ ولن ينقصكم أجر أعمالكم.

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

٣٦ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تنقطع في أسرع مدّة ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الشرك ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ ثواب إيمانهم وتقواكم ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي: ولا يسألكم جميعها. بل ربع العشر. والفاعل الله أو الرسول. وقال سفيان بن عيينة: غيضاً من فيض.

٣٧ ـ ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يجهدكم ويطلبه كلّه. والإحفاء: المبالغة، وبلوغ الغاية في كلِّ شيء. يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح، وأحفى شاربه: إذا استأصله ﴿تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ﴾ أي: الله، أو: البخل ﴿أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ عند الامتناع، أو عند سؤال الجميع؛ لأنّه عند مسألة المال تظهر العداوة والحقد.

٣٨ ـ ﴿هَـٰٓأَنتُمْ﴾ ﴿ها﴾ للتنبيه ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ موصول بمعنى الذين، صلته ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أي: أنتم الذين تدعون ﴿لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هي النفقة في الغزو أو الزكاة. كأنّه قيل: الدليل على أنّه لو أحفاكم لبخلتم، وكرهتم العطاء: أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ بالرفع لأنّ ﴿مَنْ﴾ هذه ليست للشرط. أي: فمنكم ناس يبخلون به ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: يبخل عن داعي نفسه لا عن داعي ربّه. وقيل: ﴿يبخل﴾ على نفسه، يقال: بخلت عليه، وعنه ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ أي: إنّه لا يأمر بذلك لحاجته إليه؛ لأنّه غنيٌّ عن الحاجات، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ وإن تعرضوا أيّها العرب عن طاعته وطاعة رسوله والإنفاق في سبيله ـ وهو معطوف على ﴿وإن تؤمنوا وتتّقوا﴾ ـ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلق قوماً خيراً منكم، وأطوع، وهم فارس. وسئل رسول الله ﷺ عن القوم ـ وكان سلمان إلى جنبه ـ فضرب على فخذه، وقال:

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾

«هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريّا لتناوله رجالٌ من فارس»[(١)] ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ أي: ﴿ثمّ لا يكونوا﴾ في الطاعة ﴿أمثالكم﴾ بل أطوع منكم.

* * *

(١) رواه أحمد (٢/٤١٧) والبخاري (٤٨٩٨) ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١).



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ

---

١ ـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الفتح: الظفر بالبلد عنوة أو صلحاً بحرب أو بغير حرب؛ لأنّه مُنْغَلِقٌ ما لم يظفر به، فإذا ظفر به فقد فتح. ثمّ قيل: هو فتح مكّة، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكّة عام الحديبية عِدَةً له بالفتح. وجيء به على لفظ الماضي لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علوّ شأن المخبر عنه ما لا يخفى. وقيل: هو فتح الحديبية، ولم يكن فيه قتال شديد، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة، فرموا المشركين حتّى أدخلوهم ديارهم، وسألوا الصلح، فكان فتحاً مبيناً. وقال الزجّاج: كان في فتح الحديبية آيةٌ عظيمة، وذلك: أنّه نزح ماؤها، ولم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسول الله ﷺ، ثمّ مجّه في البئر، فدرّت بالماء حتّى شرب جميع الناس. وقيل: هو فتح خيبر. وقيل: معناه: قضينا لك قضاء بيّناً على أهل مكّة؛ أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل؛ لتطوفوا بالبيت. من: الفتاحة، وهي: الحكومة.

٢ ـ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ قيل: الفتح ليس بسبب للمغفرة. والتقدير: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ فاستغفر ﴿ليغفر لك الله﴾. ومثله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾

مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ
ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ
وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا
عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ
ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ

إلى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ١ ـ ٣]. ويجوز أن يكون فتح مكّة ـ من حيث إنّه جهاد للعدوّ ـ سبباً للغفران. وقيل: الفتح لم يكن ليغفر له، بل لإتمام النعمة، والنصر العزيز. ولكنّه لمّا عدّد عليه هذه النعم وصلها بما هو أعظم النعم. كأنّه قيل: يسّرنا لك فتح مكّة، أو كذا؛ لنجمع لك بين عزّ الدارين، وأغراض الآجل والعاجل ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ يريد: جميع ما فرط منك. أو ﴿ما تقدّم﴾ من حديث مارية ﴿وما تأخّر﴾ من امرأة زيد ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء دينك، وفتح البلاد على يدك ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ويثبّتك على الدين المرضيّ.

٣ ـ ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ قويّاً منيعاً لاذلّ بعده أبداً.

٤ ـ ٦ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ السكينة للسكون كالبهيتة للبهتان. أي: أنزل الله في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب الصلح؛ ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم. وقيل: السكينة: الصبر على ما أمر الله، والثقة بوعد الله، والتعظيم لأمر الله ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ يسلط بعضها على بعض، كما يقتضيه علمه وحكمته. ومن قضيّته: أن سكّن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية، ووعدهم أن يفتح لهم. وإنّما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه، ويشكروها، فيثيبهم، ويعذّب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وقع السَّوء عبارة عن رداءة الشيء وفساده.

عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾
وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا
وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ

يقال: فِعْلُ سَوْءٍ؛ أي: مسخوط فاسد. والمراد: ظنّهم أنّ الله لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكّة ظافرين فاتحيها عنوة وقهراً ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾(١) مكّيّ وأبو عمرو. أي: ما يظنّونه ويتربّصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم. والسُّوء: الهلاك والدمار. غيرهما ﴿دائرة السَّوء﴾ بالفتح. أي: الدائرة التي يذمّونها، ويسخطونها. السَّوء والسُّوء كالكَره والكُره والضَّعف والضُّعف. إلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمّه من كلّ شيء. وأمّا السوء فجار مجرى الشرّ الذي هو نقيض الخير ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنّم.

٧ ـ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيدفع كيد من عادى نبيه ﷺ والمؤمنين بما شاء منها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالباً، فلا يردّ بأسه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبّر.

٨ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ تشهد على أمّتك يوم القيامة، وهذه حال مقدّرة ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنّة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار.

٩ ـ ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ولأمّته ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقوّوه بالنصرة ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظّموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من التسبيح أو من السبحة، والضمائر لله عزّ وجلّ. والمراد بتعزير الله: تعزير دينه ورسوله، ومن فرّق الضمائر فجعل الأوّلَيْنِ للنبيّ ﷺ فقد أبعد. ﴿ليؤمنوا﴾ مكّيّ وأبو عمرو. والضمير للناس وكذا الثلاثة الأخيرة بالياء عندهما ﴿بُكْرَةً﴾ صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلًا﴾ الصلوات الأربع.

١٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أي: بيعة الرضوان. ولما قال ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أكّده تأكيداً على طريقة التخييل فقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. يريد: أنّ يد

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: (السُّوء). وهي قراءة: مكّيّ، وأبي عمرو.

فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ

رسول الله ﷺ التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله، والله منزّه عن الجوارح، وعن صفات الأجسام. وإنّما المعنى: تقرير أنّ عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما؛ كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. و﴿إنّما يبايعون الله﴾ خبر إنّ ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقض العهد ولم يف بالبيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلاّ عليه. قال جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت وعلى ألاّ نفرّ: فما نكث أحد منّا البيعة إلاّ جدّ بن قيس، وكان منافقاً. اختبأ تحت إبْطِ بعيره، ولم يسر مع القوم[(١)] ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ﴾ يقال: وفيت بالعهد، وأوفيت به. ومنه قوله: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ حفص ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ ـ وبالنون حجازيّ وشاميّ ـ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الجنّة.

١١ ـ ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم الذين خلّفوا عن الحديبية. وهم أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، والديل. وذلك أنّه ﷺ حين أراد المسير إلى مكّة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدّوه عن البيت. وأحرم هو ﷺ، وساق معه الهدي لِيُعْلِمَ: أنّه لا يريد حرباً. فتثاقل كثير من الأعراب، وقالوا: يذهب إلى قوم غزوه في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم. وظنّوا: أنّه يهلك، فلا ينقلب إلى المدينة ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ هي جمع أهل. اعتلّوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم، وأنّه ليس لهم من يقوم بأشغالهم ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ليغفر لنا الله تخلّفنا عنك ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم، وأنّ الذي خلّفهم ليس ما يقولون، وإنما هو الشكّ في الله والنفاق،

---

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا. (حاشية الكشاف ٤/ ٣٣٥). وروى بعضه أحمد (٣/ ٣٩٦) ومسلم (١٨٥٦) (٦٨و ٦٩) والترمذي (١٥٩١) والنسائي (٧ / ١٤٠).

قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ
ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن
يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا
ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ

وطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادرٍ عن حقيقةٍ ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يضرّكم من قتلٍ أو هزيمةٍ ﴿ضُرًّا﴾ حمزة وعليّ ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ من غنيمةٍ وظفرٍ ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾.

١٢ ـ ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ زينّه الشيطان ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ من علوّ الكفر وظهور الفساد ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ جمع بائر كعائذ وعوذ. من: بار الشيء: هلك، وفسد. أي: ﴿وكنتم قوما﴾ فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونيّاتكم، لا خير فيكم. أو: هالكين عند الله مستحقّين لسخطه وعقابه.

١٣ ـ ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: لهم، فأقيم الظاهر مقام الضمير للإيذان بأنّ من لم يجمع بين الإيمانين: الإيمان بالله، والإيمان برسوله فهو كافر. ونكّر ﴿سَعِيرًا﴾ لأنّها نار مخصوصة. كما نكّر ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

١٤ ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدبّره تدبير قادر حكيم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ يغفر ويعذّب بمشيئته وحكمته. وحكمته: المغفرة للمؤمنين، والتعذيب للكافرين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سبقت رحمته غضبه.

١٥ ـ ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ إلى غنائم خيبر ﴿لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾. ﴿كَلِمَ الله﴾ حمزة وعليّ. أي: يريدون أن يغيّروا موعد الله لأهل الحديبية.

قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

وذلك: أنّه وعدهم أن يعوّضهم من مغانم مكّة مغانم خيبر إذا قفلوا موادعين، لا يصيبون منهم شيئاً ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ إلى خيبر. وهو إخبار من الله بعدم اتّباعهم، ولا يبدّل القول لديه ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ انصرافهم إلى المدينة: إنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية دون غيرهم ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: لم يأمركم الله به ﴿بل تحسدوننا﴾ أن نشارككم في الغنيمة ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ من كلام الله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلاّ شيئاً قليلاً. يعني مجرّد القول. والفرق بين الإضرابين: أنّ الأوّل: ردّ أن يكون حكم الله ألاّ يتّبعوهم وإثبات الحسد، والثاني: إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أطمّ منه، وهو الجهل وقلّة الفقه.

١٦ ـ ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: بني حنيفة، قوم مسيلمة، وأهل الردّة الذين حاربهم أبو بكر رضي الله عنه؛ لأنّ مشركي العرب والمرتدّين هم الذين لا يقبل منهم إلاّ الإسلام أو السيف. وقيل: هم فارس، وقد دعاهم عمر ـ رضي الله عنه ـ ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: يكون أحد الأمرين؛ إما المقاتلة، أو الإسلام. ومعنى ﴿يسلمون﴾ على هذا التأويل: ينقادون؛ لأنّ فارس مجوس تقبل منهم الجزية. وفي الآية دلالة صحّة خلافة الشيخين حيث وعدهم الثواب على طاعة الداعي عند دعوته بقوله: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ من دعاكم إلى قتاله ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ فوجب أن يكون الداعي مفترض الطاعة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: عن الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

١٧ ـ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ نفى الحرج عن ذوي العاهات في التخلّف عن الغزو ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الجهاد وغير

يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ
ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ
عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾
وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ

ذلك ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿ندخله﴾ و﴿نعذّبه﴾ مدنيّ وشاميّ.

١٨ ـ ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هي بيعة الرضوان. سمّيت بهذه الآية. وقصّتها: أنّ النبيّ ﷺ حين نزل بالحديبية بعث خَوّاس بن أميّة الخزاعيّ رسولاً إلى مكّة، فهمّوا به، فمنعه الأحابيش. فلمّا رجع دعا بعمر ـ رضي الله عنه ـ ليبعثه، فقال: إنّي أخافهم على نفسي لما عُرِفَ من عداوتي إيّاهم. فبعث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فخبّرهم: أنّه لم يأت لحرب، وإنّما جاء زائراً للبيت، فوقّروه، واحتبس عندهم، فأُرْجِفَ بأنهم قتلوه، فقال رسول الله ﷺ: لا نبرح حتّى نناجز القوم. ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه على أن يناجزوا قريشاً ولا يفرّوا. ﴿تحت الشجرة﴾ وكانت سمرة. وكان عدد المبايعين ألفاً وأربعمئة ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾ وجازاهم ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر غبّ انصرافهم من مكّة.

١٩ ـ ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي مغانم خيبر. وكانت أرضاً ذات عقار وأموال، فقسّمها عليهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ منيعاً فلا يغالب ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يحكم فلا يعارض.

٢٠ ـ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي ما أصابوه هم مع النبيّ ﷺ وبعده إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ المغانم. يعني: مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني: أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جاؤوا لنصرتهم. فقذف الله في قلوبهم الرعب فانصرفوا. وقيل: أيدي أهل مكّة

وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ
أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟
ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن
تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم

بالصلح ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفّة ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرةً يعرفون بها أنّهم من الله عز وجل بمكان، وأنّه ضامن نصرهم والفتح عليهم، وفعل ذلك ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرةً، ويقيناً، وثقة بفضل الله.

٢١ ـ ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ معطوفة على ﴿هذه﴾. أي: فعجّل لكم ﴿هذه﴾ المغانم ﴿و﴾ مغانم ﴿أخرى﴾ هي مغانم هوازن في غزوة حنين ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ لما كان فيها من الجولة ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: قدر عليها، واستولى، وأظهركم عليها. ويجوز في ﴿أخرى﴾ النصب بفعل مضمر يفسّره ﴿قد أحاط الله بها﴾ تقديره ﴿و﴾ قضى الله ﴿أخرى﴾ قد أحاط بها. وأمّا ﴿لم تقدروا عليها﴾ فصفة لأخرى. والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بـ ﴿لم تقدروا﴾ و﴿قد أحاط الله بها﴾ خبر المبتدأ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ قادراً.

٢٢ ـ ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكّة ولم يصالحوا ـ أو من حلفاء أهل خيبر ـ ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ لغلبوا وانهزموا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يلي أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

٢٣ ـ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في موضع المصدر المؤكّد. أي: سنّ الله غلبة أنبيائه سنّةً. وهو قوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييراً.

٢٤ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي: أيدي أهل مكّة ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ عن أهل مكّة. يعني: قضى بينهم وبينكم المكافّة والمحاجزة بعدما خوّلكم الظفر عليهم والغلبة. وذلك يوم الفتح. وبه استشهد أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ على أنّ مكّة فتحت عنوةً لا صلحاً. وقيل: كان في غزوة الحديبية؛ لما روي: أنّ عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمئة، فبعث رسول الله ﷺ من هزمه، وأدخله

بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ

حيطان مكّة[1]. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتّى أدخلوهم البيوت ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ أي: بمكّة. أو بالحديبية لأنّ بعضها منسوب إلى الحرم ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أقدركم وسلّطكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وبالياء أبو عمرو.

٢٥ ـ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ﴾ هو ما يُهدى إلى الكعبة. ونصبه عطفاً على ﴿كم﴾ في ﴿صدّوكم﴾ أي: ﴿صدوكم﴾ ﴿و﴾ صدّوا ﴿الهدي﴾ ﴿مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ﴾ محبوساً عن ﴿أن يبلغ﴾. و﴿معكوفاً﴾ حال. وكان ﷺ ساق سبعين بدنة ﴿مَحِلَّهُۥ﴾ مكانه الذي يحلّ فيه نحره. أي: يجب. وهذا دليل على أنّ المحصر محلُّ هديه الحرم. والمراد: المحلُّ المعهود، وهو منىً ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ بمكّة ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ صفة للرجال والنساء جميعاً ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ بدل اشتمال منهم، أو من الضمير المنصوب في ﴿تعلموهم﴾ ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ﴾ إثم وشدّة. وهي مفعلة من: عَرَّهُ، بمعنى عَرَاهُ: إذا دهاه ما يكرهه، ويشقّ عليه. وهو الكفّارة إذا قتله خطأً، وسوء قالة المشركين: أنّهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والإثم إذا قصر ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ متعلّق بـ﴿أن تطؤوهم﴾. يعني: ﴿أن تطؤوهم﴾ غير عالمين بهم. والوطء: عبارة عن الإيقاع والإبادة. والمعنى: أنّه كان بمكّة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميّزين منهم. فقيل: ﴿ولولا﴾ كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين ظهراني المشركين، وأنتم غير عارفين بهم، فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقّة؛ لما كفّ أيديكم عنهم. وقوله: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ تعليل لما دلت عليه الآية وسيقت له من كفّ الأيدي عن أهل مكّة والمنع عن قتلهم صوناً

(١) أخرجه الطبراني. (حاشية الكشاف ٤/ ٣٤١).

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾

لمن بين أظهرهم من المؤمنين. كأنه قال: كان الكفّ ومنع التعذيب ﴿ليدخل الله في رحمته﴾ أي: في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم، أو: ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرّقوا وتميّز المسلمون من الكافرين وجواب ﴿لولا﴾ محذوف أغنى عنه جواب ﴿لو﴾. ويجوز أن يكون ﴿لو تزيّلوا﴾ كالتكرير لـ ﴿لولا رجال مؤمنون﴾ لمرجعهما إلى معنى واحد، ويكون ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هو الجواب. تقديره: ﴿ولولا﴾ أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمناتٍ ولو كانوا متميّزين لعذّبناهم بالسيف ﴿مِنْهُمْ﴾ من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

٢٦ ـ والعامل في: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قريش ﴿لعذّبنا﴾ أي: لعذّبناهم في ذلك الوقت. أو: اذكر ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بحمية الذين كفروا، وهي الأنفة، وسكينة المؤمنين، وهي الوقار: ما يروي: أنّ رسول الله ﷺ لمّا نزل بالحديبية بعثت قريشٌ سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومِكْرَز بن حفص على أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام. ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتاباً. فقال ﷺ لعليّ ـ رضي الله عنه ـ: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا. ولكن اكتب: باسمك اللهم. ثمّ قال: «اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ أهل مكّة». فقالوا: لو نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك. ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة. فقال ﷺ: «اكتب ما يريدون، فأنا أشهد أنّي رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». فهمّ المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزّوا منه، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقّروا وحلُموا[1] ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ الجمهور على أنّها كلمة

(١) رواه البخاري (٢٧٣١و٢٧٣٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ١٠٥).

وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ

الشهادة. وقيل: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. والإضافة إلى التقوى باعتبار أنها سبب التقوى وأساسها. وقيل: ﴿كلمة﴾ أهل ﴿التقوى﴾ ﴿وَكَانُوٓاْ﴾ أي: المؤمنون ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَأَهۡلَهَا﴾ بتأهيل الله إيّاهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ فيجري الأمور على مصالحها.

٢٧ ـ ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا﴾ أي: صدقه في رؤياه ولم يكذبه ـ تعالى الله عن الكذب ـ فحذف الجارّ وأوصل الفعل؛ كقوله: ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] روي: أنّ رسول الله ﷺ رأى قبل خروجه إلى الحديبية كأنّه وأصحابه قد دخلوا مكّة آمنين وقد حلقوا وقصّروا. فقصّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا، وحسبوا أنّهم داخلوها في عامهم. وقالوا: إنّ رؤيا رسول الله ﷺ حقّ. فلمّا تأخّر ذلك قال عبد الله بن أبيّ وغيره: والله! ما حلقنا، ولا قصّرنا، ولا رأينا المسجد الحرام. فنزلت[1] ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلق بـ﴿صدق﴾ أي: صدقه فيما رأى في كونه وحصوله صدقاً ملتبساً ﴿بالحقّ﴾ أي: بالحكمة البالغة. وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن الخالص وبين من في قلبه مرض. ويجوز أن يكون ﴿بالحقّ﴾ قسماً؛ إمّا بالحقّ الذي هو نقيض الباطل، أو بالحقّ الذي هو من أسمائه. وجوابه: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾. وعلى الأوّل هو جواب قسم محذوف ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ حكاية من الله تعالى قول رسوله لأصحابه وقصهم عليه. أو تعليم لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك متأدّبين بأدب الله، ومقتدين بسنته ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال، والشرط معترض ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿آمنين﴾ ﴿رُءُوسَكُمۡ﴾ أي: جميع شعورها ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ بعض شعورها ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكّدة ﴿فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ﴾ من الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾

---

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا. (حاشية الكشاف ٤/ ٣٤٥). وروى ابن جرير بعضه كما في: الدر المنثور (٧ / ٥٣٨).

فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ

أي من دون فتح مكة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

٢٨ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالتوحيد ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على جنس الدين. يريد الأديان المختلفة من أديان المشركين وأهل الكتاب، ولقد حقّق ذلك سبحانه، فإنّك لا ترى ديناً قطّ إلاّ وللإسلام دونه العزّة والغلبة. وقيل: هو عند نزول عيسى عليه السلام؛ حين لا يبقى على وجه الأرض كافر. وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنّ ما وعده كائن. عن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: شهد على نفسه أنّه سيظهر دينه. والتقدير: وكفاه الله شهيداً. و﴿شهيّداً﴾ تمييز، أو حال.

٢٩ ـ ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ خبر مبتدأ. أي: هو ﴿محمّد﴾ لتقدّم قوله: ﴿هو الذي أرسل رسوله﴾. أو مبتدأ خبره ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾. وقف عليه نُصَيْر ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ ـ أي: أصحابه: مبتدأ. والخبر ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾. أو: ﴿محمّد﴾ مبتدأ. و﴿رسول الله﴾ عطف بيان ﴿والذين معه﴾ عطف على المبتدأ. و﴿أشدّاء﴾ خبر عن الجميع. ومعناه: غلاظ ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ متعاطفون. وهو خبر ثان. وهما جمعا شديد، ورحيم، ونحوه ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. وبلغ من تشدّدهم على الكفّار أنّهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزَق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمسّ أبدانهم. وبلغ من تراحُمِهم فيما بينهم: أنّه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلاّ صافحه وعانقه ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا﴾ راكعين ﴿سُجَّدًا﴾ ساجدين ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال، كما أنّ ﴿ركّعاً﴾ و﴿سجّداً﴾ كذلك ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: من التأثير الذي يؤثّره السجود. وعن عطاء ـ رحمه الله ـ: استنارت وجوههم من طول ما صلّوا

ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾

بالليل، لقوله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»[1] ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿مَثَلُهُمۡ﴾ صفتهم ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ وعليه وقف ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾ مبتدأ خبره: ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ فراخه. يقال: أشطأ الزرع: إذا فرّخ ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ قوّاه. ﴿فأزره﴾ شاميّ ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ فصار من الرقّة إلى الغلظ ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقام على قصبه. جمع ساق ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ يتعجّبون من قوّته. وقيل: مكتوب في الإنجيل: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. وعن عكرمة ـ رضي الله عنه ـ ﴿أخرج شطأه﴾ بأبي بكر ﴿فآزره﴾ بعمر ﴿فاستغلظ﴾ بعثمان﴿فاستوى على سوقه﴾ بعليّ ـ رضي الله عنهم ـ. وهذا مثل ضربه الله تعالى لبدء أمر الإسلام وترقّيه في الزيادة إلى أن قوي واستحكم؛ لأنّ النبيَّ ﷺ قام وحده، ثمّ قوّاه الله تعالى بمن آمن معه؛ كما يقوّي الطاقةَ الأولى من الزرع ما يحتفّ بها ممّا يتولّد منها حتّى يعجب الزرّاع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ تعليل لما دلّ عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقّيهم في الزيادة والقوّة. ويجوز أن يعلّل به ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ لأنّ الكفّار إذا سمعوا بما أعدّ لهم في الآخرة مع ما يعزّهم به في الدنيا غاظهم ذلك. و﴿مِنۡ﴾ في ﴿منهم﴾ للبيان كما في قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] أي: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾ الذي هو الأوثان. وقولك: أنفق من الدراهم. أي: اجعل نفقتك هذا الجنس. وهذه الآية تردّ قول الروافض: إنّهم كفروا بعد وفاة النبيِّ ﷺ. إذ الوعد لهم بالمغفرة والأجر العظيم إنّما يكون أن لو ثبتوا على ما كانوا عليه في حياته.

* * *

(١) رواه ابن ماجه (١٣٣٣).



بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ

١ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ قدمه وأقدمه منقولان بتثقيل الحشو والهمزة، من قدَمه؛ إذا تقدّمه في قوله تعالى ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾ [هود: ٩٨]. وحذف المفعول ليتناول كلّ ما يقع في النفس ممّا يقدَّم من القول أو الفعل. وجاز ألاّ يقصد مفعول، والنهي متوجّه إلى نفس التقدمة. كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [المؤمنون: ٨٠] أو هو من قدّم بمعنى تقدّم كوجّه [بمعنى توجّه][١]. ومنه: مقدّمة الجيش. وهي الجماعة المتقدّمة منه. ويؤيّده قراءة يعقوب ﴿لا تَقَدَّموا﴾ بحذف إحدى تاءي تتقدّموا ﴿بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ حقيقة قولهم: جلست بين يدي فلان: أن تجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريباً منه. فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسّعاً؛ كما يسمّى الشيء باسم غيره إذا جاوره. وفي هذه العبارة ضرب من المجاز الذي يسمّى تمثيلاً. وفيه فائدة جليلة وهي: تصوير الهُجْنَةِ والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. ويجوز أن

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل المخطوط، واستدرك من المطبوع.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾

يجري مجرى قولك: سرّني زيد وحُسْنُ حاله. أي: سرّني حسن حال زيد. فكذلك هنا المعنى بين يدي رسول الله ﷺ. وفائدة هذا الأسلوب: الدلالة على قوّة الاختصاص. ولمّا كان رسول الله ﷺ من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به هذا المسلك. وفي هذا تمهيد لما نُقِم منهم من رفع أصواتهم فوق صوته ﷺ؛ لأنّ من فضّله الله بهذه الأَثْرة، واختصّه هذا الاختصاص كان أدنى ما يجب له من التهيّب والإجلال أن يُخْفَضَ بين يديه الصوت. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ أناساً ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة، فنزلت وأمرهم رسول الله ﷺ أن يعيدوا ذبحاً آخر[١]. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنّها نزلت في النهي عن صوم يوم الشكّ[٢] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنّكم إن اتّقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تعملون. وحقّ مثله أن يُتّقى.

٢ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كلّ خطاب وارد، وتحريك منهم لئلا يغفلوا عن تأمّلهم ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي: إذا نطق ونطقتم فعليكم ألاّ تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ الذي يبلغه بصوته، وأن تغضّوا منها بحيث يكون كلامه عالياً لكلامكم، وجهره باهراً لجهركم، حتّى تكون مزيّته عليكم لائحةً، وسابقته لديكم واضحةً ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: إذا كلّمتموه وهو صامت؛ فإيّاكم والعدول عمّا نهيتم عنه من رفع الصوت. بل عليكم ألاّ تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمّدوا في مخاطبته القول اللين المقرب من الهمس الذي يضادّ الجهر. أو لا تقولوا له: يا محمد! يا أحمد! وخاطبوه بالنبوّة والسكينة والتعظيم. ولمّا نزلت هذه الآية ما كلّم النبيَّ ﷺ أبو بكر وعمر إلاّ كأخي السرار[٣]. وعن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: أنّها نزلت في ثابت بن قيس بن

---

(١) رواه عبد الرزاق. (حاشية الكشاف ٤/ ٣٥٠).

(٢) ذكره الثعلبي والدارقطني. المصدر السابق.

(٣) رواه البخاري (٤٨٤٥).

﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾

شماس، وكان في أذنه وقر، وكان جَهْوَرِيَّ الصوت، وكان إذا كلَّم رفع صوته، وربَّما كان يكلّم النبيّ ﷺ فيتأذّى بصوته. وكاف التشبيه في محلّ النصب. أي: ﴿لا تجهروا له﴾ جهراً مثل ﴿جهر بعضكم لبعض﴾. وفي هذا أنّهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتّى لا يسوغ لهم إلاّ أن يكلّموه بالمخافتة. وإنّما نهوا عن جهرٍ مخصوص. أعني: الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم. وهو الخلوّ من مراعاة أبّهة النبوّة، وجلالة مقدارها ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ منصوب الموضع على أنّه مفعول له متعلّق بمعنى النهي. والمعنى: انتهوا عمّا نهيتم عنه لحبوط أعمالكم. أي: لخشية حبوطها، على تقدير حذف المضاف ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾.

٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ تمَّ اسم ﴿إنّ﴾ عند: ﴿رسول الله﴾. والمعنى: يخفضون أصواتهم في مجلسه تعظيماً له ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾. وتمّ صلة ﴿الذين﴾ عند قوله: ﴿للتقوى﴾. و﴿أولئك﴾ مع خبره: خبر ﴿إنّ﴾. والمعنى: أخلصها للتقوى. من قولهم: امتحن الذهب، وفتنه: إذا أذابه، فخلّص إبريزه من خبثه، ونقّاه. وحقيقته: عاملها معاملة المختبر فوجدها مخلصة. وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أذهب الشهوات عنها. والامتحان: افتعال من: محنه. وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ جملة أخرى. قيل: نزلت في الشيخين رضي الله عنهما لِمَا كان منهما من غضّ الصوت. وهذه الآية ـ بنظمها الذي رتّبت عليه من إيقاع الغاضّين أصواتهم اسماً لـ: ﴿إنّ﴾ المؤكّدة، وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معاً، والمبتدأ: اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم، وإيراد الجزاء نكرة مبهماً أمره دالّة على غاية الاعتداد والارتضاء بفعل الخافضين أصواتهم. وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ نزلت في وفد بني تميم أتوا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد، وفيهم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، ونادوا النبيَّ ﷺ من وراء حجراته، وقالوا: اخرجْ إلينا يا محمّد؛ فإنّ مدحنا زين، وذمّنا شين، فاستيقظ وخرج[1]، والوراء: الجهة التي يواريها عنك الشخص بظلّه من خلف أو قدّام. و﴿من﴾ لابتداء الغاية، وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان. والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوّط عليها. وهي فعلة بمعنى مفعولة؛ كالقُبْضَةِ. وجمعها: الحجرات ـ بضمتين ـ والحجرات ـ بفتح الجيم ـ وهي قراءة يزيد. والمراد: حجرات نساء رسول الله ﷺ. وكانت لكلٍّ منهنّ حجرة، ومناداتهم من ورائها ولعلّهم تفرّقوا على الحجرات متطلّبين له أو نادوه من وراء الحجرة التي كان ﷺ فيها. ولكنّها جمعت إجلالاً لرسول الله ﷺ. والفعل وإن كان مسنداً إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاّه بعضهم، وكان الباقون راضين فكأنّهم تولّوه جميعاً ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون فيهم من قُصِدَ استثناؤه. ويحتمل أن يكون المراد: النفي العامّ؛ إذ القلّة تقع موقع النفي.

وورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى من إجلال محلّ رسول الله ﷺ. منها: التسجيل على الصائحين به بالسفه والجهل. ومنها: إيقاع لفظ الحجرات كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه. ومنها: التعريف باللام دون الإضافة. ولو تأمّل متأمّل من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية لوجدها كذلك. فتأمّل كيف ابتدأ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمي إلى الله ورسوله متقدّمة على الأمور كلّها من غير تقييد. ثمّ أردف ذلك النهي عمّا هو من جنسِ التقديم من رفع الصوت والجهر، كأنّ الأوّل بساط للثاني. ثمّ أثنى على الغاضين أصواتهم ليدلّ على عظيم موقعه عند الله. ثمّ عقّبه بما هو أطمُّ، وهجنته أتمُّ من الصياح برسول الله ﷺ في حال خلوته من وراء الجدر، كما

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة وابن مردويه وابن منده والثعلبي. (حاشية الكشاف ٤/٣٥٨).

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟

يصاح بأهون الناس قدراً؛ لينبّه على فظاعة ما جسروا عليه؛ لأنّ من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ في التفاحش مبلغاً.

٥ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟﴾ أي: ﴿ولو﴾ ثبت صبرهم. ومحلّ ﴿أنّهم صبروا﴾: الرفع على الفاعليّة. والصبر: حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف: ٢٨] وقولهم: صبر عن كذا محذوف منه المفعول وهو النفس. وقيل: الصبر مرٌّ، لا يتجرعه إلاّ حرٌّ. وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ يفيد: أنّه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أنّ خروجه إليهم ﴿لَكَانَ﴾ الصبر ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في دينهم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بليغ الغفران والرحمة، واسعهما، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا.

٦ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ أجمعوا أنها نزلت في الوليد بن عقبة، وقد بعثه رسول الله ﷺ مصدّقاً إلى بني المصطلق، وكانت بينه وبينهم إحنة في الجاهليّة، فلمّا شارف ديارهم ركبوا مستقبلين إليه، فحسبهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدّوا ومنعوا الزكاة، فبعث خالد بن الوليد، فوجدهم يصلّون، فسلّموا إليه الصدقات فرجع[1]. وفي تنكير الفاسق والنبأ شياعٌ في الفسّاق والأنباء. كأنّه قال: أيُّ فاسق جاءكم بأيِّ نبأ ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ فتوقّفوا فيه، وتطلّبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق؛ لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه. وفي الآية دلالة قبول خبر الواحد العدل؛ لأنّا لو توقّفنا في خبره لسوّينا بينه وبين الفاسق، ولخلا التخصيص به عن الفائدة. والفسوق: الخروج من الشيء، يقال: فسقت الرطبة عن قشرها. ومن مقلوبه: فقَست البيضة: إذا كسرتها

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦١).

أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً

وأخرجت ما فيها. ومن مقلوبه أيضاً: قفَست الشيء: إذا أخرجته من يد مالكه مغتصباً له عليه. ثمّ استعمل في الخروج عن القصد بركوب الكبائر. حمزة وعليّ: ﴿فتثبتوا﴾. والتثبّت والتبيّن متقاربان، وهما طلب الثبات والبيان والتعرف ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا﴾ لئلاّ تصيبوا ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ حال. يعني: جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصّة ﴿فَتُصْبِحُواْ﴾ فتصيروا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾. الندم: ضرب من الغمّ، وهو أن تغتمّ على ما وقع منك، تتمنّى أنه لم يقع، وهو غمّ يصحب الإنسان صحبة لها دوام.

٧ ـ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فلا تكذبوا؛ فإن الله يخبره، فينهتك ستر الكاذب. أو: فارجعوا إليه، واطلبوا رأيه. ثمّ قال مستأنفاً: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ لوقعتم في الجهد والهلاك. وهذا يدلّ على أنّ بعض المؤمنين زيّنوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد، وأنّ بعضهم كانوا يتصوّنون ويزعهم جدّهم في التقوى عن الجسارة على ذلك، وهم الذين استثناهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ وقيل: هم ﴿الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾. ولمّا كانت صفة الذين حبّب الله إليهم الإيمان غايرت صفة المتقدّم ذكرهم وقعت ﴿لكنّ﴾ في حاقّ موقعها من الاستدراك، وهو مخالفة ما بعدها لما قبلها نفياً وإثباتاً ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ وهو تغطية نعم الله وغمطها بالجحود ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ وهو الخروج عن محجّة الإيمان بركوب الكبائر ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾ وهو ترك الانقياد لما أمر به الشارع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي ﴿أولئك﴾ المستثنون ﴿هم الراشدون﴾ يعني: أصابوا طريق الحقّ، ولم يميلوا عن الاستقامة. والرشد: الاستقامة على طريق الحقّ مع تصلّب فيه. من: الرشادة، وهي: الصخرة.

٨ ـ ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ الفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾

والانتصاب على المفعول له. أي: حبب وكرّه للفضل والنعمة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ حين يُفضل وينعم بالتوفيق على الأفاضل.

٩ ـ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ وقف رسول الله ﷺ على مجلس بعض الأنصار وهو على حمار، فبال الحمار فأمسك ابنُ أبيّ بأنفه، وقال: خلِّ سبيل حمارك فقد آذانا نَتْنه. فقال عبد الله بن رواحة: والله إنّ بول حماره لأطيب من مسكك! ومضى رسول الله ﷺ وطال الخوض بينهما حتّى استبّا، وتجالدا، وجاء قوماهما ـ وهما الأوس والخزرج ـ فتجالدوا بالعصيّ، وقيل: بالأيدي، والنعال، والسَّعَف، فرجع إليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم، ونزلت[1]. وجمع ﴿اقتتلوا﴾ حملاً على المعنى؛ لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس. وثنى في ﴿فأصلحوا بينهما﴾ نظراً إلى اللفظ ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ البغي: الاستطالة، والظلم، وإباء الصلح ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ﴾ أي: ترجع، والفيء: الرجوع. وقد سمّى به الظّل والغنيمة لأنّ الظّل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة ما يرجع من أموال الكفّار إلى المسلمين. وحكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت، فإذا كفّت وقبضت عن الحرب أيديها تركت ﴿إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ المذكور في كتابه من الصلح، وزوال الشحناء ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ عن البغي إلى أمر الله ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ بالإنصاف ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ واعدلوا. وهو أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أُمِرَ به في إصلاح ذات البين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين. والقُسْط: الجور. والقِسْط: العدل. والفعل منه: أقسط. وهمزته للسلب، أي: أزال القسط وهو الجور.

١٠ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ هذا تقرير لما ألزمه من تولّي

(١) رواه البخاري (٢٦٩١) ومسلم (١٧٩٩).

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ

الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقّة من المؤمنين، وبيان: أنّ الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الأخوّة لم ينقص عنها. ثمّ قد جرت العادة على أنه إذا نشب مثل ذلك بين الأخوين ولاداً ألزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته بالصلح بينهما. فالإخْوَةُ في الدين أحقّ بذلك ﴿إخوتكم﴾ يعقوب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: ﴿اتّقوا الله﴾ فالتقوى تحملكم على التواصل والائتلاف، وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم مرجوّاً. والآية تدلّ على أنّ البغي لا يزيل اسم الإيمان؛ لأنه سماهم مؤمنين مع وجود البغي.

١١ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ القوم: الرجال خاصّة؛ لأنّهم القوّام بأمور النساء. قال الله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] هو في الأصل جمع قائم؛ كصوم، وزور في جمع صائم وزائر. واختصاص القوم بالرجال صريح في الآية؛ إذ لو كانت النساء داخلة في ﴿قوم﴾ لم يقل: ﴿ولا نساء﴾ وحقّق ذلك زهير في قوله:

وما أَدْري ولستُ إخال أَدْري   أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ؟

وأمّا قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين. ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنّهن توابع لرجالهنّ. وتنكير القوم والنساء يحتمل معنيين: أن يراد ﴿لا يسخر﴾ بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض، وأن يقصد إفادة الشياع، وأن يصير كلّ جماعة منهم منهيّة عن السخرية. وإنّما لم يقل: رجل من رجل، ولا امرأة من امرأة على التوحيد إعلاماً بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية، واستفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه. وقوله: ﴿عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾ كلام مستأنف ورد مورد جواب المستخبر عن علّة النهي. وإلاّ فقد كان حقّه أن يوصل بما قبله بالفاء. والمعنى: وجوب أن يعتقد كلُّ واحد: أنّ

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ﴾

المسخور منه ربّما كان عند الله خيراً من الساخر؛ إذ لا اطّلاع للناس إلاّ على الظواهر، ولا علم لهم بالسرائر. والذي يزن عند الله خلوص الضمائر. فينبغى ألاّ يجترىء أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رثّ الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبيق في محادثته. فلعلّه أخلص ضميراً، وأتقى قلباً ممن هو على ضدّ صفته. فيظلم نفسه بتحقير من وقّره الله تعالى. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: البلاء موكّل بالقول، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلباً[١] ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ لا تطعنوا أهل دينكم. واللمز: الطعن، والضرب باللسان ﴿ولا تُلَمِّزوا﴾ يعقوب وسهل. والمؤمنون كنفس واحدة. فمتى عاب المؤمن المؤمنَ فكأنّما عاب نفسه. وقيل: معناه: لا تفعلوا ما تلمزون به. لأنّ من فعل ما استحقّ به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ التنابز بالألقاب: التداعي بها. والنبز: لقب السوء. والتلقيب المنهيّ عنه هو ما يتداخل المدعوّ به كراهة لكونه تقصيراً به وذمّاً له، فأمّا ما يحبّه فلا بأس به. وروي: أنّ قوماً من بني تميم استهزؤوا ببلال وخبّاب وعمّار وصهيب ـ رضي الله عنهم ـ فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها: أنّها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة وكانت قصيرة. وعن أنس رضي الله عنه: عيّرت نساء النبيّ ﷺ أمّ سلمة بالقصر[٢]. وروي: أنّها نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر، فكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله ﷺ ليسمع، فأتى يوماً وهو يقول: تفسّحوا حتّى انتهى إلى رسول الله ﷺ. فقال لرجل: تنحّ؛ فلم يفعل. فقال: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان. فقال: بل أنت ابن فلانة. يريد أمّاً كان يعيّر بها في الجاهليّة فخجل الرجل. فنزلت. فقال ثابت: لا أفخر على أحدٍ في الحسب بعدها أبداً[٣] ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ الاسم هاهنا بمعنى الذكر، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم. وحقيقته ما سما من ذكره

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في الأدب المفرد. (حاشية الكشاف ٤/٣٦٨).

(٢) رواه أحمد (٣ / ١٣٥ـ ١٣٦) والترمذي (٣٨٩٤) والنسائي في عشرة النساء (٣٣).

(٣) ذكره الثعلبي ومَن تبعه عن ابن عباس بغير سند. (حاشية الكشاف ٤/ ٣٧٠).

وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا

وارتفع بين الناس. كأنّه قيل: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائر أن يذكروا بالفسق. وقوله: ﴿بعد الإيمان﴾ استقباح للجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يحظره الإيمان كما تقول: بئس الشأن بعد الكِبْرة الصَّبْوة.

وقيل: كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهوديّ! يا فاسق! فنهوا عنه. وقيل لهم: بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهوديّة بعد إيمانه ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عمّا نهى عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وحّد وجمع للفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه.

١٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ يقال: جنبه الشرّ: إذا أبعده عنه. وحقيقته: جعله في جانب. فيعدّى إلى مفعولين. قال الله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ومطاوعه: اجتنب الشرّ، فنقص مفعولاً. والمأمور باجتنابه بعض الظنّ. وذلك البعض موصوف بالكثرة. ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾. قال الزجّاج: هو ظنّك بأهل الخير سوءاً. فأمّا أهل الفسق فلنا أن نظنّ فيهم مثل الذي ظهر منهم. أو معناه: اجتناباً ﴿كثيراً﴾ أو: احترزوا من الكثير ليقع التحرّز عن البعض. والإثم: الذنب الذي يستحقّ صاحبه العقاب. ومنه قيل لعقوبته: الأثام، فعال منه، كالنكال والعذاب ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ أي: لا تتبعوا عورات المسلمين ومعايبهم. يقال: تجسّس الأمر: إذا تطلّبه وبحث عنه. تَفَعُّلٌ من الجسّ. وعن مجاهد: خذوا ما ظهر ودعوا ما ستر الله. وقال سهل: لا تبحثوا عن طلب معايب ما ستره الله على عباده ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغيبة: الذكر بالعيب في ظهر الغيب. وهي من الاغتياب، كالغِيْلَةِ من الاغتيال. وفي الحديث: «هو أن تذكر أخاك بما يكره»[1]. فإن كان فيه فهو غيبة؛ وإلاّ فهو بهتان. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الغيبة: إدام كلاب الناس ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ ﴿ميتاً﴾ مدنيّ. وهذا

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٨٤) ومسلم (٢٥٨٩) وأبو داود (٤٨٧٤) والترمذي (١٩٣٤).

﴿فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ۝١٢ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾

تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه. وفيه مبالغات، منها: الاستفهام الذي معناه التقرير. ومنها: جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبّة. ومنها: إسناد الفعل إلى ﴿أحدكم﴾ والإشعار بأنّ أحداً من الأحدين لا يحبُّ ذلك. ومنها: أن لم يُقْتَصَرْ على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً. ومنها: أن يُقْتَصَرْ على لحم الأخ حتّى جعل ميتاً. وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مدوِّدة أن تأكل منها؛ كذلك فاكره لحم أخيك وهو حيّ. وانتصب ﴿ميتاً﴾ على الحال من اللحم، أو من أخيه. ولمّا قرّرهم بأنّ أحداً منهم لا يحبّ أكل جيفة أخيه عقّب ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: فتحقّقت كراهتكم له باستقامة العقل. فليتحقّق أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة باستقامة الدين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ التوّاب: البليغ في قبول التوبة. والمعنى ﴿واتّقوا الله﴾ بترك ما أمرتم باجتنابه: والندم على ما وجد منكم منه، فإنّكم إن اتّقيتم تقبّل الله توبتكم، وأنعم عليكم بثواب المتّقين التائبين. وروي: أنّ سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوّي لهما طعامهما، فنام عن شأنه يوماً. فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبغى لهما إداماً. وكان أسامة على طعام رسول الله ﷺ. فقال: ما عندي شيء. فأخبرهما سلمان. فقالا: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. فلمّا راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «مالي أرى حمرة اللحم في أفواهكما؟» فقالا: ما تناولنا لحماً. قال: «إنّكما قد اغتبتما، ومن اغتاب مسلماً فقد أكل لحمه» ثم قرأ الآية[1]. وقيل: غيبة الخلق، إنّما تكون من الغيبة عن الحقّ.

١٣ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ من آدم وحوّاء. أو كل واحدٍ منكم من أبٍ وأم. فما منكم من أحد إلا وهو يدلي بمثل ما يدلي به الآخر سواء بسواء. فلا معنى للتفاخر والتفاضل في النسب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشُّعْبُ: الطبقة الأولى من الطبقات الستّ التي عليها العرب. وهي: الشعب،

(١) هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راوٍ (حاشية الكشاف ٤/ ٣٧٤).

لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل

والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل، خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصيّ بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة. وسمّيت الشعوب؛ لأن القبائل تشعّبت منها ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ أي: إنّما رتّبكم على شعوب وقبائل ليعرف بعضكم نسب بعض، فلا يعتزي إلى غير آبائه، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد وتدَّعوا التفاضل في الأنساب. ثمّ بيّن الخصلة التي يفضل بها الإنسان غيره، ويكتسب الشرف والكرم عند الله فقال: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ في الحديث: «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتّق الله»[(١)]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى. وروي: أنّه ﷺ طاف يوم فتح مكة فحمد الله وأثنى عليه. ثمّ قال: «الحمد لله الذي أذهب عنكم عُبيَّة الجاهليّة وتكبّرها، يا أيّها الناس! إنّما الناس رجلان مؤمن تقيّ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقيٌّ هين على الله». ثمّ قرأ الآية[(٢)]. وعن يزيد بن شجرة: مرّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة فرأى غلاماً أسود يقول: من اشتراني فعلى شرط ألاّ يمنعني من الصلوات الخمس خلف رسول الله ﷺ. فاشتراه بعضهم، فمرض، فعاده رسول الله ﷺ، ثم توفّي فحضر دفنه، فقالوا في ذلك شيئاً، فنزلت[(٣)] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكرم القلوب وتقواها ﴿خَبِيرٞ﴾ بهمم النفوس في دعواها.

١٤ ـ ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ أي: بعض الأعراب ـ لأنّ من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ـ وهم أعراب بني أسد، قدموا المدينة في سنةٍ جَدْبة فأظهروا الشهادة يريدون الصدقة ويمنّون عليه ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: ظاهراً وباطناً ﴿قُل﴾ لهم

(١) رواه الحاكم، والبيهقي، وأبو يعلى، وإسحاق، وعبد، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية. (حاشية الكشاف ٤/ ٣٧٥).
(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٦١) وأبو داود (٥١١٦) والترمذي (٣٩٥٠).
(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦٥).

﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

يا محمد: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ لم تصدّقوا بقلوبكم ﴿وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ فالإيمان هو التصديق. والإسلام: الدخول في السلم، والخروج من أن يكون حرباً للمؤمنين، بإظهار الشهادتين. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فأعلم أنّ ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان. وهذا من حيث اللغة. وأمّا في الشرع فالإيمان والإسلام واحد لما عرف. وفي ﴿لمّا﴾ معنى التوقّع. وهو دالّ على أنّ بعض هؤلاء قد آمنوا فيما بعد. والآية تنقض على الكراميّة مذهبَهم: أنّ الإيمان لا يكون بالقلب ولكن باللسان. فإن قلت: مقتضى نظم الكلام أن يقال: ﴿قل﴾ لا تقولوا: آمنّا ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾. أو: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ ولكن أسلمتم. قلت: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أوّلاً فقيل: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ مع أدب حسن فلم يقل: كذبتم ـ تصريحاً ـ ووضع ﴿لم تؤمنوا﴾ الذي هو نفي ما ادّعوا إثباته موضعه واستغنى بقوله: ﴿لم تؤمنوا﴾ عن أن يقال: لا تقولوا آمنّا؛ لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤدّاه النهي عن القول بالإيمان. ولم يقل: ولكن أسلمتم؛ ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوى، كما كان قولهم: ﴿آمنّا﴾ كذلك. ولو قيل: ولكن أسلمتم لكان كالتسليم والاعتداد بقولهم وهو غير معتدّ به. وليس قوله: ﴿ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ تكريراً لمعنى قوله: ﴿لم تؤمنوا﴾ فإنّ فائدة قوله ﴿لم تؤمنوا﴾ تكذيب لدعواهم، وقوله: ﴿ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه. كأنّه قيل لهم: ﴿ولكن قولوا: أسلمنا﴾ حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم؛ لأنّه كلام واقع موقع الحال من الضمير في ﴿قولوا﴾ ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في السرّ بترك النفاق ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ (يألتكم) بصريّ ﴿مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقصكم من ثواب حسناتكم شيئاً. ألت، يألت، وألات، يُليت، ولات، يليت: بمعنى، وهو النقص ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ بستر الذنوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهدايتهم للتوبة عن العيوب.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

١٥، ١٦ ـ وصف المؤمنين المخلصين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ ارتاب: مطاوع رابه: إذا أوقعه في الشكّ مع التهمة. والمعنى: أنّهم آمنوا، ثمّ لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به، ولا اتّهام لما صدّقوه. ولما كان الإيقان وزوال الريب ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدّم الإيمان تنبيهاً على مكانه. وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضّاً جديداً ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يكون المجاهَد منوياً، وهو العدوّ المحارب، أو الشيطان، أو الهوى، وأن يكون جاهد مبالغة في: جهد. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس: الغزو، وأن يتناول العبادات بأجمعها؛ وبالمجاهدة بالمال نحو صنيع عثمان في جيش العسرة، وأن يتناول الزكاة وكلّ ما يتعلّق بالمال من أعمال البرّ. وخبر المبتدأ الذي هو ﴿المؤمنون﴾: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: الذين صدقوا في قولهم: آمنّا، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بني أسد. أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وحقّ. وقوله: ﴿الذين آمنوا﴾ صفة لهم. ولمّا نزلت هذه الآية جاؤوا، وحلفوا: أنّهم مخلصون فنزل: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرونه بتصديق قلوبكم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ من النفاق والإخلاص وغير ذلك.

١٧ ـ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ﴾ أي: بأن ﴿أسلموا﴾ يعني: بإسلامهم. والمنّ: ذكر الأيادي تعريضاً للشكر، ونهينا عنه ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ أي: المنّة لله عليكم ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ﴾ بأن هداكم، أو: لأن. ﴿لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إن صحّ زعمكم، وصدقت دعواكم. إلا أنّكم تزعمون وتدّعون ما الله عليم بخلافه. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه تقديره: ﴿إن

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾

كنتم صادقين﴾ في ادّعائكم الإيمان فللّه المنة عليكم. وقرىء: ﴿إن هداكم﴾.

١٨ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وبالياء مكّيّ. وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم. يعني: أنّه تعالى يعلم كلّ مستترٍ في العالم، ويبصر كلّ عملٍ تعملونه في سرِّكم وعلانيتكم، لا يخفى عليه منه شيء. فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم؟!.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

١ ـ ٣ ـ الكلام في: ﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا﴾ كالكلام في ﴿صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ١ ـ ٢] سواء بسواء؛ لالتقائهما في أسلوب واحد. و﴿المجيد﴾: ذو المجد والشرف على غيره من الكتب، ومن أحاط علماً بمعانيه، وعمل بما فيه، مَجُدَ عند الله وعند الناس. وقوله: ﴿بل عجبوا﴾ أي: كفّار مكّة ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: محمد ﷺ، إنكار لتعجّبهم ممّا ليس بعجب، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته، ومن كان كذلك لم يكن إلاّ ناصحاً لقومه، خائفاً أن ينالهم مكروه. وإذا علم أنّ مخوفاً أظلّهم لزمه أن ينذرهم. فكيف بما هو غاية المخاوف؟ وإنكار لتعجّبهم ممّا أنذرهم به من البعث مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما، وعلى اختراع كلّ شيءٍ، وإقرارهم بالنشأة الأولى مع شهادة العقل بأنّه لا بدّ من الجزاء. ثمّ عوّل على أحد الإنكارين بقوله: ﴿فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، دلالة على أنّ تعجّبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحقّ بالإنكار. ووضع ﴿الكافرون﴾ موضع الضمير للشهادة على أنّهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم. و﴿هذا﴾ إشارة إلى

ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟
بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا
وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ
زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾

الرجع. و﴿إذا﴾ منصوب بمضمر معناه: أحين نموت ونبلى نُرجَع؟ ﴿مِتنا﴾ نافع، وحمزة، وعليّ، وحفص ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾ مستبعد مستنكر؛ كقولك: هذا قولٌ بعيد؛ أي: بعيد من الوهم والعادة. ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع، وهو الجواب، ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث. والوقف على ﴿تراباً﴾ على هذا حسن. وناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع: ما دلّ عليه المنذِر من المنذَر به وهو البعث.

٤ ـ ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ردّ لاستبعادهم الرجع؛ لأنّ من لطف علمه حتّى علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادراً على رجعهم أحياءً كما كانوا ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ محفوظ من الشياطين ومن التغيّر. وهو اللوح المحفوظ. أو حافظ لما أودعه وكتب فيه.

٥ ـ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ إضراب أتبع الإضراب الأوّل للدلالة على أنّهم جاؤوا بما هو أفظع من تعجّبهم، وهو التكذيب بالحقّ الذي هو النبوّة الثابتة بالمعجزات في أوّل وهلة من غير تفكّر ولا تدبّر ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مضطرب. يقال: مرج الخاتم في أصبعه؛ أي: اضطرب من سعته، فيقولون تارة: شاعر، وطوراً: ساحر، ومرّة: كاهن، لا يثبتون على شيءٍ واحد. وقيل: الحق: القرآن. وقيل: الإخبار بالبعث.

٦، ٧ ـ ثُمَّ دلّهم على قدرته على البعث فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ رفعناها بغير عمدٍ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالنيّرات ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ من فتوق وشقوق. أي: أنها سليمة من العيوب، لافتق فيها، ولا صدع، ولا خلل ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ دحوناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت، لولا هي لمالت ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ يُبْتَهَجُ به لحسنه.

تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ
وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً
مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ
وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا

٨ ـ ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ لنبصر به، ونذكّر كلَّ ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجعٍ إلى ربه، مفكّرٍ في بدائع خلقه.

٩ ـ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ كثير المنافع ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي: وحبَّ الزّرع الذي من شأنه أن يحصد؛ كالحنطة، والشعير، وغيرهما.

١٠ ـ ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ طوالاً في السماء ﴿لَّهَا طَلْعٌ﴾ هو كلّ ما يُطْلَعُ من ثمر النخيل ﴿نَّضِيدٌ﴾ منضود بعضه فوق بعض؛ لكثرة الطلع وتراكمه، أو: لكثرة ما فيه من الثمر.

١١ ـ ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: أنبتناها ﴿رزقاً﴾؛ لأنّ الإنبات في معنى الرزق فيكون ﴿رزقاً﴾ مصدراً من غير لفظه. و: هو مفعول له، أي: أنبتناها لنرزقهم ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ قد جفّ نباتها ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ كما حييت هذه البلدة الميتة؛ كذلك تخرجون أحياءً بعد موتكم لأنّ إحياء الموات كإحياء الأموات. والكاف في محلّ الرفع على الابتداء.

١٢ ـ ١٤ ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ هو بئر لم تطو. وهم قوم باليمامة. وقيل: أصحاب الأخدود ﴿وَثَمُودُ ☆ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ أراد بفرعون قومه كقوله: ﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ [يونس: ٨٣] لأنّ المعطوف عليه ﴿قوم نوح﴾ والمعطوفات جماعةٌ ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ سمّاهم إخوانه؛ لأنّ بينهم وبينه نسباً قريباً ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو ملك باليمن أسلم، ودعا قومه إلى الإسلام، فكذّبوه. وسمّي به لكثرة تبَعِه ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحدٍ منهم ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ لأنّ من كذّب رسولاً واحداً فقد كذب جميعهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فوجب وحلّ وعيدي. وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديدٌ لهم.

١٥ ـ ﴿أَفَعَيِينَا﴾ أعيا بالأمر: إذا لم يهتد لوجه عمله. والهمزة للإنكار

﴿بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أنّا لم نعجز عن الخلق الأوّل، فكيف نعجز عن الثاني؟ والاعتراف بذلك اعتراف بالإعادة ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾ في خلط وشبهة وقد لبّس عليهم الشيطان وحيّرهم. وذلك تسويله إليهم: أنّ إحياء الموتى أمر خارج عن العادة. فتركوا لذلك الاستدلال الصحيح. وهو أنّ من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بعد الموت. وإنّما نكّر الخلق الجديد ليدلّ على عظمة شأنه، وأنَّ حقَّ من سمع به أن يخاف، ويهتمّ به.

١٦ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ الوسوسة: الصوت الخفيُّ، ووسوسة النفس: ما يخطر ببال الإنسان ويَهْجُسُ في ضميره من حديث النفس. والباء مثلها في قوله صوّت بكذا ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ المراد قرب علمه منه ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ هو مثل في فرط القرب. والوريد: عرق في باطن العنق. والحبل: العرق. والإضافة للبيان؛ كقولهم: بَعِير سانيَةٍ.

١٧ ـ ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الملكين الحافظين ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ التلقّي: التلقّن بالحفظ والكتابة. والقعيد: المقاعد؛ كالجليس بمعنى المجالس. وتقديره: ﴿عن اليمين﴾ قعيد ﴿وعن الشمال قعيد﴾ من المتلقيين. فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه، كقوله:

رماني بأمرٍ كنت منه ووالدي بـريئـاً ومـن أجـل الطـويِّ رمـاني

أي: رماني بأمر كنت منه بريئاً وكان والدي منه بريئاً. و﴿إذ﴾ منصوب بأقرب لما فيه من معنى يقرب. والمعنى: أنّه لطيف يتوصّل علمه إلى خطرات النفس، وما لا شيء أخفى منه. وهو أقرب من الإنسان من كلّ قريب حين يتلقّى الحفيظان ما يتلفّظ به إيذاناً بأنّ استحفاظ الملكين أمر هو غنيٌّ عنه. وكيف لا يَسْتَغني عنه وهو مطّلع على أخفى الخفيّات؟ وإنّما ذلك لحكمة، وهي ما في كِتْبَةِ الملكين وحفظهما، وعرض صحائف العمل يوم القيامة لطف له في الانتهاء عن السيّئات، والرغبة في الحسنات.

مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ
تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾
لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا

١٨ ـ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يتكلم به وما يَرْمي به من فيه ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ حافظ ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر. ثمّ قيل: يكتبان كلَّ شيءٍ حتّى أنينه في مرضه. وقيل: لا يكتبان إلاّ ما فيه أجر أو وزر. وقيل: إنّ الملكين لا يجتنبانه إلاّ عند الغائط والجماع.

١٩ ـ لمّا ذكر إنكارهم البعث، واحتج عليهم بقدرته وعلمه أعلمهم: أنّ ما أنكروه هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة. ونبّه على اقتراب ذلك بأن عبّر عنه بلفظ الماضي. وهو قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: شدّته الذاهبة بالعقل ملتبسة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بحقيقة الأمر، أو بالحكمة ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ﴾ الإشارة إلى الموت. والخطاب للإنسان في قوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ على طريق الالتفات ﴿تَحِيدُ﴾ تنفر وتهرب.

٢٠ ـ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ يعني: نفخة البعث ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: وقت ذلك الوعيد. على حذف المضاف. والإشارة إلى مصدر ﴿نفخ﴾.

٢١ ـ ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملكان، أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله. ومحل ﴿معها سائق﴾ النصب على الحال من ﴿كلّ﴾ لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة.

٢٢ ـ ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ أي: يقال لها: لقد كنت ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ النازل بك اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ فأزلنا غفلتك بما تشاهده ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. جعلت الغفلة كأنّها غطاء غطّى به جسده كلّه، أو غشاوة غطّى بها عينيه، فهو لا يبصر شيئاً. فإذا كان يوم القيامة تيقّظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحقّ، ورَجَعَ بصرُه الكليلُ عن الإبصار لغفلته حديداً لتيقّظه.

٢٣ ـ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الجمهور على أنّه الملك الكاتب الشهيد عليه ﴿هَٰذَا﴾ أي: ديوان عمله. مجاهد: شيطانه الذي قُيّض له في قوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ

مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾

﴿قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ﴿هذا﴾ أي: الذي وكّلتُ به ﴿مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ ﴿هذا﴾ مبتدأ و﴿ما﴾ نكرة بمعنى شيء. والظرف بعده وصف له. وكذلك ﴿عتيد﴾. و﴿ما﴾ وصفتها خبر ﴿هذا﴾. والتقدير: ﴿هذا﴾ شيء ثابت ﴿لديّ عتيد﴾.

٢٤ ـ ثمّ يقول الله تعالى: ﴿أَلْقِيَا﴾ والخطاب للسائق والشهيد. أو: لمالك. وكأنّ الأصل: ألق، ألق. فناب ﴿ألقيا﴾ عن: ألق، ألق. لأنّ الفاعل كالجزء من الفعل، فكانت تثنية الفاعل نائباً عن تكرار الفعل. وقيل: أصله: أَلْقِيَنْ. والألف بدل من النون إجراء للوصل مجرى الوقف؛ دليله: قراءة الحسن (ألقين) ﴿فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بالنعم والمنعم ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند مجانب للحقّ معادٍ لأهله.

٢٥ ـ ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه. أو: منّاع لجنس الخير أن يصل إلى أهله ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم متخطّ للحقّ ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاكّ في الله وفي دينه.

٢٦ ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ مبتدأ متضمّن معنى الشرط، خبره ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾. أو بدل من ﴿كلّ كفّار﴾ و﴿فألقياه﴾ تكرير للتوكيد. ولا يجوز أن يكون جراً صفة لـ ﴿كفار﴾ لأنّ النكرة لا توصف بالموصولة.

٢٧ ـ ﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: شيطانه الذي قرن به. وهو شاهد لمجاهد ـ رحمه الله ـ. وإنّما أخليت هذه الجملة عن الواو دون الأولى، لأنّ الأولى واجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول. أعني: مجيء كلّ نفس مع الملكين، وقول قرينه ما قال له. وأمّا هذه فهي مستأنفة كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول؛ كما في مقاولة موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون. وكأنّ الكافر قال: ربِّ هو أطغاني، فقال قرينه: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: ما أوقعته في الطغيان، ولكنّه طغى، واختار الضلالة على الهدى.

٢٨ ـ ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ﴾ هو استئناف مثل قوله تعالى: ﴿قال قرينه﴾ كأنّ قائلاً قال: فماذا قال الله؟ فقيل: ﴿قال: لا تختصموا﴾ ﴿لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾

مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾

أي: لا تختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب، فلا فائدة في اختصامكم، ولا طائل تحته، وقد أوعدتكم بعذابي على الطغيان في كتبي، وعلى ألسنة رسلي، فما تركت لكم حجّةً عليَّ. والباء في ﴿بالوعيد﴾ مزيدة؛ كما في قوله ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥] أو مُعَدِّيةٌ على أنّ: قدّم مطاوع بمعنى: تقدّم.

٢٩ ـ ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي: لا تطمعوا أن أبدّل قولي ووعيدي بإدخال الكفّار في النار ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فلا أعذب عبداً بغير ذنب. وقال: ﴿بظلّام﴾ على لفظ المبالغة؛ لأنّه من قولك: هو ظالم لعبده وظلّام لعبيده.

٣٠ ـ ﴿يَوْمَ﴾[1] نصب بظلّام أو بمضمر نحو: اذكر وأنذر ﴿نَقُولُ﴾: نافع وأبو بكر. أي: ﴿يقول﴾ الله ﴿لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ وهو مصدر كالمجيد. أي: أنّها تقول بعد امتلائها: هل من مزيد! أي: هل بقي فيَّ موضع لم يمتلىء؟! يعني: قد امتلأت. أو: أنّها تستزيد. وفيها موضع للمزيد. وهذا على تحقيق القول من جهنّم. وهو غير مستنكر كإنطاق الجوارح. والسؤال لتوبيخ الكفرة؛ لعلمه تعالى بأنّها امتلأت أم لا.

٣١ ـ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ نصب على الظرف أي: مكاناً ﴿غير بعيد﴾. أو على الحال. وتذكيره؛ لأنّه على زنة المصدر كالصليل. والمصادر يستوى في الوصف بها المذكّر والمؤنّث. أو على حذف الموصوف؛ أي: شيئاً ﴿غير بعيد﴾. ومعناه: التوكيد كما تقول: هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل.

٣٢ ـ ﴿هَـٰذَا﴾ مبتدأ، وهو إشارة إلى الثواب. أو إلى مصدر ﴿أزلفت﴾، ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ ـ صفته. وبالياء مكّيّ، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجّاع إلى ذكر الله. خبره: ﴿حَفِيظٍ﴾ حافظ لحدوده. في الحديث: «من حافظ على أربع ركعات في أوّل النهار كان أوّاباً حفيظاً».

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿يقول﴾ وهي قراءة نافع، وأبي بكر، كما نص على ذلك. وما أثبتناه هي قراءة حفص.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾

٣٣ ـ ﴿مَّنْ﴾ مجرور المحلّ بدل من ﴿أوّاب﴾. أو رفع بالابتداء، وخبره: ﴿ادخلوها﴾ على تقدير يقال لهم: ﴿ادخلوها بسلام﴾ لأنّ ﴿مَنْ﴾ في معنى الجمع ﴿خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الخشية: انزعاج القلب عند ذكر الخطيئة. وقرن بالخشية اسمه الدالّ على سعة الرحمة للثناء البليغ على الخاشي. وهو خشيته مع علمه: أنّه الواسع الرحمة؛ كما أثنى عليه بأنّه خاش، مع أنّ المخشيّ منه غائب ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من المفعول. أي: خشيه وهو غائب. أو: صفة لمصدر خشي. أي: خشيه خشيةً ملتبسة بالغيب، حيث خشي عقابه وهو غائب. الحسن: إذا أغلق الباب وأرخى الستر ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى الله. وقيل: بسريرةٍ مرضيّةٍ، وعقيدةٍ صحيحة.

٣٤ ـ ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي: سالمين من زوال النعم وحلول النقم ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي: يوم تقدير الخلود، كقوله: ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] أي: مقدّرين الخلود.

٣٥ ـ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ على ما يشتهون. والجمهور على أنّه رؤية الله تعالى بلا كيف.

٣٦ ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ قبل قومك ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ من القرون الذين كذّبوا رسلهم ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم﴾ من قومك ﴿بَطْشًا﴾ قوّة وسطوة ﴿فَنَقَّبُوا۟﴾ فخرّقوا ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ وطافوا. والتنقيب: التنقير عن الأمر والبحث والطلب. ودخلت الفاء للتسبيب عن قوله: ﴿هم أشدّ منهم بطشاً﴾ أي: شدّة بطشهم أقدرتهم على التنقيب وقوّتهم عليه. ويجوز أن يراد: فنقّب أهل مكة في أسفارهم ومسايرهم في بلاد القرون. فهل رأوا لهم محيصاً حتّى يؤمّلوا مثله لأنفسهم؟ ويدلّ عليه قراءة من قرأ: ﴿فنقِّبوا﴾ على الأمر ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ مهرب من الله، أو من الموت.

٣٧ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ تذكيراً وعظةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾

أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى
سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ
طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ
يُنَادِ ٱلْمُنَادِ

واعٍ؛ لأنّ من لا يعي قلبه فكأنّه لا قلب له ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أصغى إلى المواعظ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر بفطنته؛ لأنّ من لا يحضر ذهنه فكأنّهُ غائب.

٣٨ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ إعياء. قيل: نزلت في اليهود ـ لُعِنَتْ ـ تكذيباً لقولهم: خلق الله السموات والأرض في ستّة أيّام، أوّلها الأحد، وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش. وقالوا: إنّ الذي وقع من التشبيه في هذه الأمّة إنّما وقع من اليهود. ومنهم أخذ. وأنكر اليهود التربيع في الجلوس، وزعموا أنه جلس تلك الجلسة يوم السبت.

٣٩ ـ ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: على ما يقول اليهود، ويأتون به من الكفر والتشبيه. أو: على ما يقول المشركون في أمر البعث؛ فإنّ من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حامداً ربّك. والتسبيح محمول على ظاهره. أو على الصلاة. فالصلاة ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ الظهر والعصر.

٤٠ ـ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ العشاءان، أو: التهجد ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ التسبيح في آثار الصلوات ـ والسجود والركوع يعبّر بهما عن الصلاة ـ وقيل: النوافل بعد المكتوبات. أو: الوتر بعد العشاء. والأدبار جمع دُبْرٍ ﴿وإدبار﴾ حجازيّ، وحمزة، وخلف. مِنْ: أدبرت الصلاة: إذا انقضت وتمّت. ومعناه: وقت انقضاء السجود؛ كقولهم: آتيك خفوق النجم.

٤١ ـ ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ لما أخبرك به من حال يوم القيامه. وفي ذلك تهويل، وتعظيم لشأن المخبر به. وقد وقف يعقوب عليه. وانتصب ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ بما دلّ عليه: ﴿ذلك يوم الخروج﴾ أي: ﴿يوم ينادي المنادي﴾ يخرجون من القبور. وقيل: تقديره: ﴿واستمع﴾ حديث ﴿يوم ينادي المنادي﴾ ﴿المنادي﴾ بالياء في

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

الحالين مكّيّ وسهل ويعقوب، وفي الوصل مدنيّ وأبو عمرو. وغيرهم بغير ياء فيهما. والمنادي إسرافيل، ينفخ في الصور، وينادي: أيّتها العظام البالية! والأوصال المتقطّعة! واللحوم المتمزّقة! والشعور المتفرّقة! إنّ الله يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء. وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل ينادي بالحشر ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من صخرة بيت المقدس، وهي أقرب الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً، وهي وسط الأرض.

٤٢ ـ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾ ـ بدل من ﴿يوم ينادي﴾ ـ ﴿الصَّيْحَةَ﴾ النفخة الثانية ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلّق بالصيحة. والمراد به البعث والحشر للجزاء ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من القبور.

٤٣، ٤٤ ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي﴾ الخلق ﴿وَنُمِيتُ﴾ أي: ونميتهم في الدنيا ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي: مصيرهم ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ خفيف كوفيّ وأبو عمرو. وغيرهم بالتشديد ﴿الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ أي: تتصدّع الأرض، فيخرج الموتى من صدوعها ﴿سِرَاعًا﴾ حال من المجرور. أي: مسرعين ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هيّن. وتقديم الظرف يدلّ على الاختصاص، أي: لا يتيسّر مثل ذلك الأمر العظيم إلاّ على القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن.

٤٥ ـ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيك وفينا. تهديد لهم، وتسلية لرسول الله ﷺ ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ كقوله: ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]. أي: ما أنت بمسلّط عليهم. إنّما أنت داع وباعث. وقيل: هو من: جبره على الأمر، بمعنى: أجبره. أي: ما أنت بوالٍ عليهم تجبرهم على الإيمان ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] لأنّه لا ينفع إلاّ فيه.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

---

١ ـ ٤ ـ ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ الرياح؛ لأنّها تذرو التراب وغيره. وبإدغام التاء في الذال حمزة، وأبو عمرو ﴿ذَرْوًا﴾ مصدر، والعامل فيه اسم الفاعل ﴿فَالْحَامِلَاتِ﴾ السحاب لأنها تحمل المطر ﴿وِقْرًا﴾ مفعول الحاملات ﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ الفلك ﴿يُسْرًا﴾ جرياً ذا يسر؛ أي: ذا سهولة ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة؛ لأنّها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها؛ أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك، أو يتولّى تقسيم أمر العباد: جبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة، وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ. ويجوز أن يراد: الرياح لا غير؛ لأنّها تنشىء السحاب. وتقلّه وتصرّفه، وتجري في الجوّ جرياً سهلاً، وتقسّم الأمطار بتصريف السحاب. ومعنى الفاء على الأوّل: أنّه أقسم بالرياح، فبالسحاب التي تسوقه، فبالفلك التي تجريها بهبوبها، فبالملائكة التي تقسّم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحار ومنافعها. وعلى الثاني: أنّها تبتدىء في الهبوب، فتذروا التراب والحصباء، فتقلّ السحاب، فتجري في الجوّ باسطةً له، فتقسّم المطر.

٥، ٦ـ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ جواب القسم. و﴿ما﴾ موصولة أو مصدريّة. والموعود البعث ﴿لَصَادِقٌ﴾ وَعْدٌ صادق؛ كعيشةٍ راضية؛ أي: ذات رضا ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ الجزاء على الأعمال ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لكائن.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠
الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾

٧ ـ ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ هذا قسم آخر ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ الطرائق الحسنة، مثل ما يظهر على الماء من هبوب الريح، وكذلك حبك الشعر: آثار تثنيه وتكسّره. جمع: حبيكة، كطريقة، وطرق. ويقال: إنّ خلقة السماء كذلك. وعن الحسن: حبكها: نجومها. جمع: حباك.

٨ ـ ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي: قولهم في الرسول: ساحر، وشاعر، ومجنون، وفي القرآن: شعر وسحر، وأساطير الأوّلين.

٩ ـ ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ الضمير للقرآن أو الرسول. أي: يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشدّ منه وأعظم، أو: يصرف عنه من صرف في سابق علم الله؛ أي: علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحقّ لا يرعوي. ويجوز أن يكون الضمير لـ ﴿ما توعدون﴾ أو لـ ﴿الدِّيْن﴾. أقسم بالذاريات على أنّ وقوع أمر القيامة حقّ، ثمّ أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شاكّ، ومنهم جاحد، ثمّ قال: ﴿يؤفك﴾ عن الإقرار بأمر القيامة من: هو المأفوك.

١٠ ـ ﴿قُتِلَ﴾ لعن. وأصله: الدعاء بالقتل والهلاك. ثمّ جرى مجرى لعن ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذّابون المقدّرون ما لا يصحّ. وهم أصحاب القول المختلف. واللام إشارة إليهم كأنّه قيل: ﴿قتل﴾ هؤلاء ﴿الخرّاصون﴾.

١١ ـ ١٣ ـ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ في جهل يغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عمّا أمروا به ﴿يَسْأَلُونَ﴾ فيقولون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي: متى يوم الجزاء. وتقديره: أيّان وقوع يوم الدين؛ لأنّه إنّما تقع الأحيان ظروفاً للحدثان. وانتصب اليوم الواحد في الجواب بفعل مضمر دلّ عليه السؤال، أي: يقع ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ويجوز أن يكون مفتوحاً لإضافته إلى غير متمكن وهو الجملة، ومحلّه نصب بالمضمر الذي هو «يقع» أو رفع على هو ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ أي: يحرقون.

ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ
ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ
هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ

١٤ ـ ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي: يقول لهم خزنة النار: ﴿ذوقوا﴾ عذابكم وإحراقكم بالنار ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ خبره: ﴿ٱلَّذِى﴾؛ أي: ﴿هذا﴾ العذاب هو الذي ﴿ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا بقولكم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠].

١٥، ١٦ ـ ثُمَّ ذكر حال المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي: تكون العيون، وهي الأنهار الجارية بحيث يرونها، وتقع عليها أبصارهم، لا أنهم فيها ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ قابلين لكلّ ما أعطاهم من الثواب، راضين به. و﴿آخذين﴾ حال من الضمير في الظرف. وهو خبر ﴿إنّ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ قبل دخول الجنّة في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم. وتفسير إحسانهم ما بعده:

١٧، ١٨ ـ ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ينامون. و﴿ما﴾ مزيدة للتوكيد ـ و﴿يهجعون﴾ خبر كان. والمعنى: كانوا يهجعون في طائفة قليلةٍ من الليل. أو مصدريّة. والتقدير: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، فيرتفع هجوعهم: لكونه بدلاً من الواو في ﴿كانوا﴾، لا بقليلاً؛ لأنّه لمّا صار موصوفاً بقوله: ﴿من الليل﴾ خرج من شبه الفعل، وعمله باعتبار المشابهة. أي: كان هجوعهم ﴿قليلاً من الليل﴾. ولا يجوز أن تكون ﴿ما﴾ نافية على معنى: أنّهم لا يهجعون من الليل قليلاً ويُحْيُونَهُ كلّه؛ لأنّ ﴿ما﴾ النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، لا تقول: زيداً ما ضربت ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ وصفهم بأنّهم يحيون الليل متهجّدين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنّهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. والسحر: السدس الأخير من الليل.

١٩ ـ ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ ﴾ لمن يسأل لحاجته ﴿ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ أي: الذي يتعرّض ولا يسأل حياء.

٢٠، ٢١ ـ ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ ﴾ تدلّ على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره،

لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

حيث هي مدحوّة كالبساط لما فوقها، وفيها المسالك والفجاج للمتقلّبين فيها، وهي مجزّأة، فمن سهل، ومن جبل، ورخوة، وعَذاة، وسَبَخة، وفيها عيون متفجّرة، ومعادن مفتّنة، ودواب منبثّة مختلفة الصور والأشكال، متباينة الهيئات والأفعال ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ للموحّدين الذين سلكوا الطريق السويّ البرهانيّ الموصّل إلى المعرفة، فهم نظّارون بعيون باصرة، وأفهام نافذة. كلّما رأوا آيةً عرفوا وجه تأمّلها فازدادوا إيقاناً على إيقانهم ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر، وبدائع الخلق، ما تتحيّر فيه الأذهان. وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة، والبيّنات القاطعة على حكمة مدبّرها وصانعها. دع الأسماع، والأبصار، والأطراف، وسائر الجوارح، وتأتّيها لما خلقت له، وما سوّي في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنّي؛ فإنّه إذا جسا[1] شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذلّ ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. وما قيل: إنّ التقدير: أفلا تبصرون في أنفسكم ضعيف؛ لأنّه يفضي إلى تقديم ما في حيّز الاستفهام على حرف الاستفهام ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون نظر من يعتبر.

٢٢ ـ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ المطر؛ لأنّه سبب الأقوات. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: أنّه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه والله رزقكم، ولكنّكم تحرمونه بخطاياكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الجنّة فهي على ظهر السماء السابعة تحت العرش. أو أراد أنّ ما ترزقونه في الدنيا، وما توعدونه في العقبى كلّه مقدور مكتوب في السماء.

٢٣ ـ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ الضمير يعود إلى الرزق، أو إلى ما توعدون ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[2] بالرفع كوفيّ غير حفص صفة للحقّ. أي:

---

(١) «جسا»: يَبِس وصَلُب وغلُظ.

(٢) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿مثلُ﴾. وهي قراءة: حمزة، والكسائي، وعاصم، =

هَلْ أَتَنٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ

حقّ مثل نطقكم. وغيرهم النصب أي: ﴿أنه لحق﴾ حقّاً مثل نطقكم. ويجوز أن يكون فتحاً لإضافته إلى غير متمكن. و﴿ما﴾ مزيدة. وعن الأصمعيّ: أنه قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابيٌّ على قعود. فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن. قال: اتل عليَّ. فتلوت: ﴿والذاريات﴾ فلمّا بلغت قوله: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال: حسبك. فقام إلى ناقته فنحرها، ووزّعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسّرهما وولّى. فلمّا حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفتّ فإذا أنا بالأعرابيِّ قد نحل واصفرّ، فسلّم عليَّ، واستقرأ السورة. فلما بلغت الآية صاح وقال: ﴿قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً﴾ ثمّ قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: ﴿فوربّ السماء والأرض إنّه لحقّ﴾ فصاح وقال: يا سبحان الله! من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يصدّقوه بقوله حتّى حلف. قالها ثلاثاً، وخرجت معها نفسه.

٢٤ ـ ﴿هَلْ أَتَنٰكَ﴾ تفخيم للحديث، وتنبيه على أنّه ليس من علم رسول الله ﷺ، وإنّما عرفه بالوحي. وانتظامها بما قبلها باعتبار أنه قال: ﴿وفي الأرض آيات﴾ وقال في آخر هذه القصّة: ﴿وتركنا فيها آية﴾ ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الضيف: للواحد والجماعة، كالصوم، والزور؛ لأنّه في الأصل مصدر ضافه. وكانوا اثني عشر ملكاً. وقيل: تسعة عاشرهم جبريل. وجعلهم ضيفاً؛ لأنّهم كانوا في صورة الضيف، حيث أضافهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ. أو لأنّهم كانوا في حسبانه كذلك ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ عند الله؛ لقوله: ﴿بل عباد مكرمون﴾. وقيل: لأنّه خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجّل لهم القرى.

٢٥ ـ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ نصب بالمكرمين إذا فسّر بإكرام إبراهيم لهم. وإلا فبإضمار اذكر ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ مصدر سادّ مسدّ الفعل مستغنى به عنه. وأصله: نسلّم عليكم سلاماً ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم ﴿سلام﴾ فهو مرفوع على الابتداء.

= والأعمش، وشعبة، وخلف، وابن أبي إسحاق، والحسن. معجم القراءات القرآنية (٢٤٦/٦).

قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

وخبره محذوف. والعدول إلى الرفع للدلالة على إثبات السلام؛ كأنّه قصد أن يحييهم بأحسن ممّا حيّوه به أخذاً بأدب الله. وهذا أيضاً من إكرامه لهم. حمزة وعليّ ﴿سِلْمٌ﴾. والسلم: السلام ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنتم ﴿قوم منكرون﴾ فعرّفوني من أنتم.

٢٦ ـ ٢٨ ـ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه. ومن أدب المضيف أن يخفي أمره، وأن يباده بالقِرَى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يكفّه. وكان عامّة مال إبراهيم عليه السلام البقر ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ ليأكلوا منه فلم يأكلوا ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ أنكر عليهم ترك الأكل، أو حثّهم عليه، ﴿فَأَوۡجَسَ﴾ فأضمر ﴿مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ خوفاً؛ لأنّ من لم يأكل طعامك، لم يحفظ ذمامك. عن ابن عباس رضي الله عنهما: وقع في نفسه أنّهم ملائكة أرسلوا للعذاب ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ إنّا رسل الله. وقيل: مسح جبريل العجل فقام ولحق بأمّه ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ أي: يبلغ ويعلم. فالمُبَشَّرُ به إسحاق عند الجمهور.

٢٩ ـ ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ في صيحة. من: صرّ القلم والباب. وقال الزجاج: الصرّة: شدّة الصياح هاهنا. ومحلّه النصب على الحال. أي: فجاءت صارّة. وقيل: فأخذت في صياح. وصرّتها: قولها: ﴿يا ويلتا﴾ ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ فلطمت ببسط يديها. وقيل: فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ أي: أنا ﴿عجوز﴾ فكيف ألد؟ كما قال في موضع آخر: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ [هود: ٧٢].

٣٠ ـ ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ أي: إنما نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في فعله ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه شيء. وروي: أنّ جبريل قال لها حين استبعدت:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

انظري إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة.

٣١ـ٣٤ـ ولمّا علم أنهم ملائكة، وأنّهم لا ينزلون إلاّ بإذن الله رسلاً في بعض الأمور ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: فما شأنكم، وما طلبتكم، وفيم أرسلتم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾؟ أرسلتم بالبشارة خاصّة، أو لأمر آخر، أو لهما؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ إلى قوم لوط ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ يريد السجّيل، وهو طينٌ طبخ كما يطبخ الآجر حتّى صار في صلابة الحجارة ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلّمة. من: السّومة وهي: العلامة، على كلٍّ واحدٍ منها اسم من يهلك به ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ في ملكه وسلطانه ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ سمّاهم: مسرفين، كما سمّاهم: عادين؛ لإسرافهم وعدوانهم في عملهم، حيث لم يقتنعوا بما أبيح لهم.

٣٥ـ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في القرية، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: لوطاً ومن آمن به.

٣٦ـ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: غير أهل بيت. وفيه دليل: على أنّ الإيمان والإسلام واحد؛ لأنّ الملائكة سمّوهم مؤمنين ومسلمين هنا.

٣٧ـ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ في قراهم ﴿آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم. قيل: هي ماء أسود منتن.

٣٨ـ ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ معطوف على ﴿وفي الأرض آيات﴾. أو على قوله: ﴿وتركنا فيها آية﴾ على معنى ﴿و﴾ جعلنا ﴿في موسى﴾ آية؛ كقوله.

علفتُهـا تبنـاً ومـاءً بـارداً ... ...[1]

﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة ظاهرة، وهي: اليد والعصا.

---

(١) وتمامه: حتى شتت همالة عيناها.

فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ

٣٩، ٤٠ ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فأعرض عن الإيمان ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ بما كان يتقوّى به من جنوده وملكه. والركن: ما يركن إليه الإنسان من مال وجند ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يلام عليه من كفره وعناده. وإنما وصف يونس عليه السلام به في قوله: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢] لأنّ موجبات اللوم تختلف. وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم. فراكب الكفر ملوم على مقداره، وراكب الكبيرة والصغيرة والزلّةِ كذلك. والجملة مع الواو حال من الضمير في ﴿فأخذناه﴾

٤١ ـ ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ هي: التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر. وهي ريح الهلاك. واختلف فيها. والأظهر: أنّها الدبور لقوله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأهلكتْ عادٌ بالدَّبور»(١).

٤٢ ـ ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ هو: كلّ ما رمّ؛ أي: بلى، وتفتّت من عظم، أو نبات، أو غير ذلك. والمعنى: ما تترك من شيءٍ هبّت عليه من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم إلاّ أهلكته.

٤٣ ـ ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ آية أيضاً ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾. تفسيره قوله: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥].

٤٤ ـ ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ العذاب، وكلُّ عذاب مهلك صاعقة. ﴿الصعقة﴾ عليّ. وهي: المرّة، من مصدر: صعقتهم الصاعقة ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ لأنّها كانت نهاراً يعاينونها.

٤٥ ـ ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ أي: هرب. أو هو من قولهم: ما يقوم به: إذا

(١) رواه أحمد (١/ ٣٢٤) ومسلم (٩٠٠).

وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا
بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا
زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ
إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم

عجز عن دفعه ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ ممتنعين من العذاب. أو: لم يمكنهم مقابلتنا بالعذاب لأنّ معنى الانتصار المقابلة.

٤٦ ـ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: ﴿و﴾ أهلكنا ﴿قوم نوح﴾ لأنّ ما قبله يدلّ عليه. أو: ﴿و﴾ اذكر ﴿قوم نوح﴾. وبالجرّ أبو عمرو، وعليّ، وحمزة. أي ﴿و﴾ في ﴿قوم نوح﴾ آية. ويؤيّده قراءة عبد الله (وفي قوم نوح) ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ كافرين.

٤٧ ـ ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ نصب بفعل يفسّره ﴿بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ بقوّةٍ. والأيد: القوّة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون. من الوسع، وهي: الطاقة. والموسع: القويُّ ع
لى الإنفاق. أو: ﴿لموسعون﴾ ما بين السماء والأرض.

٤٨ ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ بسطناها، ومهّدناها. وهي منصوبة بفعل مضمر. أي: وفرشنا الأرض، فرشناها ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ نحن.

٤٩ ـ ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى. وعن الحسن: السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبرّ والبحر، والموت والحياة. فعدّد أشياء وقال: كلّ اثنين منها زوج. والله تعالى فرد لا مثل له ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فعلنا ذلك كلّه من بناء السماء، وفرش الأرض، وخلق الأزواج؛ لتتذكّروا، فتعرفوا الخالق، وتعبدوه.

٥٠، ٥١ ـ ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: من الشرك إلى الإيمان بالله. أو من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. أو ممّا سواه إليه ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ☆ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ والتكرير للتوكيد. والإطالة في الوعيد أبلغ.

٥٢ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمر مثل ذلك. وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحراً أو مجنوناً. ثمّ فسّر ما أجمل بقوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من قبل قومك

مِن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا﴾ هو ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾. رموهم بالسحر أو الجنون لجهلهم.

٥٣ ـ ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ الضمير للقول. أي: أتواصى الأوّلون والآخرون بهذا القول؛ حتّى قالوه جميعاً متّفقين عليه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لم يتواصوا به؛ لأنّهم لم يتلاقوا في زمانٍ واحدٍ، بل جمعتهم العلّة الواحدة، وهي: الطغيان، والطغيان هو الحامل عليه.

٥٤ ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرِضْ عن الذين كرّرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا عناداً ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ فلا لوم عليك في إعراضك بعدما بلّغت الرسالة، وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة.

٥٥ ـ ﴿وَذَكِّرْ﴾ وعظ بالقرآن ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن تزيد في علمهم.

٥٦ ـ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ العبادة إن حملت على حقيقتها فلا تكون الآية عامّة. بل المراد بها المؤمنون من الفريقين. دليله: السياق، أعني: ﴿وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ وقراءة ابن عباس رضي الله عنهما: (وما خلقت الجنّ والإنس من المؤمنين) وهذا لأنه لا يجوز أن يخلق الذين علم منهم أنّهم لا يؤمنون للعبادة؛ لأنّه إذا خلقهم للعبادة وأراد منهم العبادة فلا بدّ أن توجد منهم، فإذا لم يؤمنوا علم أنّه خلقهم لجهنّم كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقيل: إلاّ لآمرهم بالعبادة، وهو منقول عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ وقيل: إلاّ ليكونوا عباداً لي. والوجه: أن تحمل العبادة على التوحيد، فقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كلّ عبادةٍ في القرآن فهي توحيد. والكلّ يوحّدونه في الآخرة لما عرف: أنّ الكفار كلّهم مؤمنون موحّدون في الآخرة. دليله قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] نعم قد أشرك البعض في الدنيا لكن مدّة الدنيا بالإضافة إلى الأبد أقلّ من يوم. ومن اشترى غلاماً وقال: ما اشتريته إلاّ

مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

للكتابة كان صادقاً في قوله: ما اشتريته إلاّ للكتابة، وإن استعمله في يومٍ من عمره لعملٍ آخر.

٥٧ ـ ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ ما خلقتهم ليرزقوا أنفسهم، أو: واحداً من عبادي ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ قال ثعلب: أنْ يطعموا عبادي. وهو إضافة تخصيص؛ كقوله ﷺ خبراً عن الله تعالى: «من أكرم مؤمناً فقد أكرمني، ومن آذى مؤمناً فقد آذاني»[1].

٥٨ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ الشديد القوّة. و﴿المتين﴾ بالرفع صفة لذو. وقرأ الأعمش بالجرّ صفة للقوّة على تأويل الاقتدار.

٥٩ ـ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ رسول الله بالتكذيب من أهل مكّة ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ نصيباً من عذاب الله مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون المُهْلَكةِ. قال الزجاج: الذنوب في اللغة: النصيب ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ نزول العذاب. وهذا جواب النضر وأصحابه حين استعجلوا العذاب.

٦٠ ـ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي: من يوم القيامة. وقيل: من يوم بدر ﴿ليعبدوني﴾ ﴿أن يطعموني﴾ ﴿فلا يستعجلوني﴾ بالياء في الحالين يعقوب. وافقه سهل في الوصل، الباقون بغير ياء.

* * *

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٥٨٠٦)، وانظره في: فيض القدير (٨٥١٢) وميزان الاعتدال للذهبي (٩٦٢٨).



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾

---

١ ـ ٧ ـ ﴿وَٱلطُّورِ﴾ هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى وهو بمدين ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ هو القرآن. ونكّر لأنّه كتاب مخصوص من بين سائر الكتب. أو اللوح المحفوظ، أو التوراة ﴿فِى رَقٍّ﴾ هو الصحيفة، أو الجلد الذي يكتب فيه ﴿مَّنشُورٍ﴾ مفتوح لاختم عليه، أو: لائح ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ أي: الضُّرَاح. وهو بيت في السماء حيال الكعبة. وعمرانه بكثرة زوّاره من الملائكة. روي: أنه يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ويخرجون ثمّ لا يعودون إليه. وقيل: الكعبة؛ لكونها معمورة بالحجّاج والعمّار ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ أي: السماء، أو العرش ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ المملوء أو الموقد. والواو الأولى للقسم، والبواقي للعطف. وجواب القسم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ أي: الذي أوعد الكفّار به ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لنازل. قال جبير بن مُطْعِم ـ رضي الله عنه ـ: أتيت رسول الله ﷺ أكلّمه في الأسارى، فلقيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور، فلمّا بلغ: ﴿إنّ عذاب ربّك لواقع﴾ أسلمتُ خوفاً من أن ينزل العذاب[1].

---

(١) قال الحافظ: لم أجده هكذا، والذي جاء في الصحيح أن ذلك في صلاة المغرب، وأنه =

﴿مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ۝١٢ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾

٨ ـ ١٤ ـ ﴿مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ لا يمنعه مانع، والجملة صفة ﴿لواقع﴾ أي: واقع غير مدفوع. والعامل في ﴿يوم﴾: ﴿لواقع﴾ أي: يقع في ذلك اليوم. أو: اذكر ﴿يَوۡمَ تَمُورُ﴾ تدور كالرحى مضطربة ﴿ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ في الهواء كالسحاب؛ لأنّها تصير هباءً منثوراً ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾ غلب الخوض في الاندفاع في الباطل والكذب، ومنه قوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥] ويبدل ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ من ﴿يوم تمور﴾. والدعّ: الدفع العنيف. وذلك: أنّ خزنة النار يُغلّون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم، وزخّاً في أقفيتهم، فيقال لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

١٥ ـ ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾ ﴿هذا﴾ مبتدأ ﴿أسحر﴾ خبره. يعني: كنتم تقولون للوحي: هذا سحر ﴿أفسحر هذا﴾؟ يريد: أهذا المصداق أيضاً سحر؟ ودخلت الفاء لهذا المعنى ﴿أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا. يعني: أم أنتم عمي عن المخبر عنه؛ كما كنتم عمياً عن الخبر؟ وهذا تقريع وتهكّم.

١٦ ـ ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ خبر ﴿سواء﴾ محذوف؛ أي: ﴿سواء عليكم﴾ الأمران: الصبر وعدمه. وقيل: على العكس. وعلّل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ لأنّ الصبر إنّما تكون له مزيّة على الجزع لنفعه في العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاءَ الخير. وأمّا الصبر على العذاب الذي هو الجزاء، ولا عاقبة له، ولا منفعة، ولا مزيّة له على الجزع.

= لما سمع: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾: كاد قلبي يطير. (حاشية الكشاف ٤/٤٠٩).

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا

١٧ ـ ٢٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ﴾ في أية جنات ﴿وَنَعِيمٍ﴾ ﴿و﴾ أي ﴿نعيم﴾ بمعنى الكمال في الصفة. أو ﴿في جنّات ونعيم﴾ مخصوصة بالمتّقين، خلقت لهم خاصّة ﴿فَٰكِهِينَ﴾ حال من الضمير في الظرف. والظرف خبر. أي: متلذّذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾. وعطف قوله ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ على ﴿في جنّات﴾ أي: ﴿إنّ المتّقين﴾ استقرّوا ﴿في جنّات. . . ووقاهم ربّهم﴾ أو على ﴿آتاهم ربّهم﴾ على أن تجعل ﴿ما﴾ مصدريّة. والمعنى: ﴿فاكهين﴾ بإيتائهم ربّهم ووقايتهم ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾. أو: الواو للحال «وقد» بعدها مضمرة. يقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أكلاً وشرباً ﴿هنيئاً﴾. أو طعاماً وشراباً ﴿هنيئاً﴾. وهو الذي لا تنغيص فيه ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضمير في ﴿كلوا واشربوا﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ موصول بعضها ببعض ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ وقرنّاهم ﴿بِحُورٍ﴾ جمع حوراء ﴿عِينٍ﴾ عظام الأعين، حسانها.

٢١ ـ ٢٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبتدأ. و﴿ألحقنا بهم﴾ خبره. و﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ ﴿وأتبعناهم﴾: أبو عمرو ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ أولادهم ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حال من الفاعل ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: نلحق الأولاد بإيمانهم وأعمالهم درجات الآباء وإن قصرت أعمال الذّرية عن أعمال الآباء. وقيل: إن الذرّيّة وإن لم يبلغوا مبلغاً يكون منهم الإيمان استدلالاً، وإنّما تلقّنوا منهم تقليداً فهم يلحقون بالآباء. ﴿ذرّيّتُهم. ذرّيّاتهم﴾ مدنيّ ﴿ذرياتِهم. ذرّيّاتِهم﴾ أبو عمرو ﴿ذرّيّاتُهم ذرّيّاتِهم﴾ شاميّ ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ وما نقصناهم ﴿من﴾ ثواب ﴿عملهم من شيءٍ﴾ ﴿ألِتناهم﴾ مكيّ. ألَت، يألِت، وألِت، يألَت لغتان ﴿مِن﴾ الأولى متعلّقة بـ ﴿ألتناهم﴾، والثانية زائدة ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مرهون، فنفس المؤمن مرهونة بعمله ويجازى به ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ وزدناهم في وقت بعد وقت ﴿بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ وإن لم يقترحوا ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ خمراً. أي:

لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾

يتعاطون، ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقربائهم، يتناول هذا الكأس من يد هذا، وهذا من يد هذا ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ في شربها ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: لا يجري بينهم ما يُلغَى. يعني: لا يجري بينهم باطل، ولا مافيه إثم لو فعله فاعل في دار التكليف من الكذب والشتم ونحوهما كشاربي خمر الدنيا؛ لأنّ عقولهم ثابتة فيتكلّمون بالحكم والكلام الحسن. ﴿لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ﴾ مكّيٌّ وبصريٌّ.

٢٤ ـ ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ﴾ مملوكون ﴿لَّهُمْ﴾ مخصوصون بهم ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من بياضهم وصفائهم ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ في الصدف. لأنه رطباً أحسن وأزكى. أو: مخزون؛ لأنّه لا يخزن إلاّ الثمين الغالي القيمة. في الحديث: «إنَّ أدنى أهل الجنّة منزلةً من ينادي الخادم من خدّامه فيجيبه ألف ببابه: لبّيك لبّيك»[1].

٢٥ ـ ٢٨ ـ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله وما استحقّ به نيل ما عند الله ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أرقّاء القلوب من خشية الله. أو: خائفين من نزع الإيمان وفوت الأمان. أو: من ردّ الحسنات، والأخذ بالسيّئات ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالمغفرة والرحمة ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ هي: الريح الحارّة التي تدخل المسامّ، فسمّيت بها نار جهنّم لأنّها بهذه الصفة ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ من قبل لقاء الله والمصير إليه ـ يعنون: في الدنيا ـ ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبده ولا نعبد غيره، ونسأله الوقاية ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن ﴿الرَّحِيمُ﴾ العظيم الرحمة الذي إذا عُبد أثاب، وإذا سئل أجاب. ﴿أنّه﴾ بالفتح مدنيّ وعليّ؛ أي: بأنه، أو لأنّه.

٢٩ ـ ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ برحمة ﴿ربّك﴾ وإنعامه عليك بالنبوّة ورجاحة العقل ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما

(١) أخرجه الثعلبي. (حاشية الكشاف ٤/ ٤١٢).

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ

زعموا. وهو في موضع الحال، والتقدير: لست كاهناً ولا مجنوناً ملتبساً بنعمة ربك.

٣٠ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ هو ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر، أي: ننتظر نوائب الزمان فيهلك؛ كما هلك من قبله من الشعراء: زهير، والنابغة. و﴿أم﴾ في أوائل هذه الآي منقطعة بمعنى: بل، والهمزة.

٣١ - ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربّص هلاككم كما تتربّصون هلاكي.

٣٢ - ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ التناقض في القول، وهو قولهم: كاهن، وشاعر، مع قولهم: مجنون. وكانت قريش يُدعون: أهل الأحلام والنُّهى ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحدّ في العناد مع ظهور الحق لهم. وإسناد الأمر إلى الأحلام مجاز.

٣٣، ٣٤ - ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ اختلقه محمد ﷺ من تلقاء نفسه ﴿بَل﴾ ردّ عليهم. أي: ليس الأمر كما زعموا ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾. فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن مع علمهم ببطلان قولهم، وأنّه ليس بمتقوّل لعجز العرب عنه، وما محمد إلاّ واحد من العرب ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ﴾ مختلق ﴿مِّثْلِهِۦٓ﴾ مثل القرآن ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّ محمّداً تقوّله من تلقاء نفسه؛ لأنه بلسانهم وهم فصحاء.

٣٥، ٣٦ - ﴿أَمْ خُلِقُوا۟﴾ أم أحدثوا وقُدّروا التقدير الذي عليه فطرتهم ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ من غير مقدّر ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أم هم الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق. وقيل: أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب ﴿أم هم الخالقون﴾ فلا يأتمرون ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فلا يعبدون خالقهما

بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يتدبّرون في الآيات فيعلموا خالقهم وخالق السموات والأرض.

٣٧، ٣٨ ـ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ من النبوّة والرزق وغيرهما، فيخصّوا من شاؤوا بما شاؤوا ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ الأرباب الغالبون حتّى يدبّروا أمر الربوبيّة، ويبينوا الأمور على مشيئتهم. وبالسين مكّيٌّ وشاميٌّ ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوب يرتقون به إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتّى يعلموا ما هو كائن من يتقدّم هلاكه على هلاكهم، وظفرهم في العاقبة دونه كما يزعمون. قال الزجاج: ﴿يستمعون فيه﴾ أي: عليه ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجّة واضحة تصدق استماع مستمعهم.

٣٩ ـ ٤١ ـ ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ ثمّ سفّه أحلامهم حيث اختاروا لله ما يكرهون وهم حكماء عند أنفسهم ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ على التبليغ والإنذار ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ المغرم: أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه؛ أي: لزمهم مغرم ثقيل فدحهم[1]، فزهّدهم ذلك في اتّباعك ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه حتّى يقولوا: لا نبعث وإن بعثنا لم نعذّب.

٤٢، ٤٣ ـ ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدهم، في دار الندوة برسول الله وبالمؤمنين ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إشارة إليهم، و أريد بهم كلّ من كفر بالله ﴿هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم، ويحيق بهم مكرهم، وذلك: أنّهم قتلوا يوم بدر. أو: المغلوبون في الكيد. من: كايدته، فكدته ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يمنعهم من عذاب الله ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) أي: أثقلهم وبهظهم.

وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى
فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

٤٤ ـ ٤٦ ـ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ﴾ الكسف: القطعة. وهو جواب قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢]. يريد: أنّهم لشدّة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا: هذا سحاب ﴿مَّرْكُومٌ﴾ قد رُكِم، أي: جمع بعضه على بعض يمطرنا، ولم يصدّقوا أنه كسف ساقط للعذاب ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ بضم الياء: عاصمٌ وشاميٌّ. الباقون بفتح الياء. يقال: صعقه، فصعق. وذلك عند النفخة الأولى؛ نفخة الصعق، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

٤٧ ـ ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وإنَّ لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون يوم القيامة. وهو القتل ببدر، والقحط سبع سنين، وعذاب القبر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

٤٨، ٤٩ ـ ثمّ أمره بالصبر إلى أن يقع بهم العذاب فقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم وبما يلحقك فيه من المشقّة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحيث نراك، ونكلؤك. وجمع العين لأنّ الضمير بلفظ الجماعة. ألا ترى إلى قوله ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ للصلاة، وهو ما يقال بعد التكبير: سبحانك اللّهم وبحمدك. أو من أيّ مكان قمت. أو من منامك ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر اللّيل. ﴿وأدبار﴾ زيد. أي: في أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت. والمراد: الأمر بقول: سبحان الله وبحمده في هذه الأوقات. وقيل: التسبيح: الصلاة إذا قام من نومه ﴿ومن الليل﴾، صلاة العشاءين، ﴿وإدبار النجوم﴾ صلاة الفجر.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾

١، ٢ ـ ﴿وَالنَّجْمِ﴾ أقسم بالثريا، أو بجنس النجوم ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا غرب، أو انتثر يوم القيامة. وجواب القسم ﴿مَا ضَلَّ﴾ عن قصد الحقّ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ أي: محمد ﷺ. والخطاب لقريش ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ في اتّباع الباطل. وقيل: الضلال نقيض الهدى. والغيّ نقيض الرشد. أي: هو مهتد راشد. وليس كما تزعمون من نسبتكم إيّاه إلى الضلال والغيِّ.

٣، ٤ ـ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ☆ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه، إنما هو وحي من عند الله يوحى إليه. ويحتجّ بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام. ويجاب: بأن الله تعالى إذا سوّغ لهم الاجتهاد وقرّرهم عليه كان كالوحي، لا نطقاً عن الهوى.

٥ ـ ﴿عَلَّمَهُ﴾ علّم محمداً ﷺ ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ملكٌ شديد قواه. والإضافة غير حقيقيّة؛ لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها. وهو جبريل عليه السلام عند الجمهور. ومن قوّته: أنّه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثمّ قلبها، وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين.

﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾

٦ ـ ١٠ ـ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ منظرٍ حسن ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ فاستقام على صورة نفسه الحقيقيّة دون الصورة التي كان يتمثّل بها كلّما هبط بالوحي. وكان ينزل في صورة دحية. وذلك: أنّ رسول الله ﷺ أحبّ أن يراه في صورته التي جبل عليها ﴿فاستوى﴾ له في الأفق الأعلى ـ وهو أفق الشمس فملأ الأفق. وقيل: ما رآه أحدٌ من الأنبياء عليهم السلام في صورته الحقيقيّة سوى محمد ﷺ مرّتين، مرّة في الأرض، ومرّة في السماء ﴿وَهُوَ﴾ أي: جبريل عليه السلام ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ مطلع الشمس ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل من رسول الله ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فزاد في القرب ـ والتّدلي: هو النزول بقرب الشيء ـ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدار قوسين عربيّين. وقد جاء التقدير بالقوس، والرمح، والسوط، والذراع، والباع. ومنه: لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين. وفي الحديث: «لقاب قوس أحدكم من الجنّة وموضع قده خير من الدنيا وما فيها»[1]. والقِدُّ: السوط. وتقديره: ﴿فكان﴾ مقدار مسافة قربه مثل ﴿قاب قوسين﴾ فحذفت هذه المضافات. ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: على تقديركم؛ كقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]. وهذا لأنّهم خوطبوا على لغتهم ومقدار فهمهم وهم يقولون هذا قدر رمحين أو أنقص. وقيل: بل أدنى ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ إلى عبد الله، وإن لم يجر لاسمه ذكر لأنّه لا يلتبس. كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ [فاطر: ٤٥] ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ تفخيم للوحي الذي أوحى إليه. قيل: أوحى إليه: «إنّ الجنّة محرّمة على الأنبياء حتّى تدخلها، وعلى الأمم حتّى تدخلها أمّتك»[2].

١١ ـ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ فؤاد محمد ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام. أي: ما قال فؤاده لمّا رآه: لم أعرفك. ولو قال ذلك لكان كاذباً لأنّه عرفه. يعني: أنّه رآه بعينه، وعرفه بقلبه، ولم يشكّ في أنّ ما رآه حقّ.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٩٣).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (٤/ ٤٢٠).

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾

وقيل: المرئيّ هو الله سبحانه. رآه بعين رأسه. وقيل: بقلبه.

١٢ ـ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أفتجادلونه. من المراء وهو المجادلة. واشتقاقه من: مَرْي الناقةِ. كأنّ كلّ واحد من المتجادلين يَمْرِي ما عند صاحبه ﴿أفتَمْرُونه﴾ حمزة، وعليّ، وخلف، ويعقوب. أفتغلبونه في المراء. من: ماريته فمريته. ولما فيه من معنى الغلبة قال: ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ فعدّى بعلى كما تقول: غلبته على كذا. وقيل: ﴿أفتمرونه﴾ أفتجحدونه. يقال: مريته حقّه: إذا جحدته. وتعدّيته بعلى لا تصحّ إلاّ على مذهب التضمين.

١٣، ١٤ ـ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ رأى محمّد جبريل عليهما السلام ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ مرّة أخرى من النزول. نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو «مرّة» لأنّ الفعلة اسم للمرّة من الفعل، فكانت في حكمها. أي: نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها. وذلك ليلة المعراج ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ الجمهور على أنّها شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش. و﴿المنتهى﴾ بمعنى موضع الانتهاء. أو الانتهاء؛ كأنّها في منتهى الجنّة وآخرها. وقيل: لم يجاوزها أحد. وإليها ينتهي علم الملائكة وغيرهم، ولا يعلم أحد ما وراءها. وقيل: تنتهي إليها أرواح الشهداء.

١٥ ـ ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أي: الجنّة التي يصير إليها المتّقون. وقيل: تأوي إليها أرواح الشهداء.

١٦ ـ ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ أي: رآه ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ وهو تعظيم وتكثير لما يغشاها. فقد علم بهذه العبارة أنّ ما يغشاها من الخلائق الدالّة على عظمة الله تعالى وجلاله أشياء لا يحيط بها الوصف. فقد قيل: يغشاها الجمّ الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى عندها. وقيل: يغشاها فراش من ذهبٍ.

١٧ ـ ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ بصر رسول الله ﷺ ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها، ومكن منها ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما جاوز ما أمر برؤيته.

لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

١٨ ـ ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ والله لقد رأى ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ الآيات التي هي كبراها وعظماها. يعني: حين رُقِي به إلى السماء فأُرِي عجائب الملكوت.

١٩، ٢٠ ـ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ﴾ أي: أخبرونا عن هذه الأشياء التي تعبدونها من دون الله عزّ وجلّ؛ هل لها من القدرة والعظمة التي وصف بها ربّ العزة؟ ﴿اللات والعزى ومناة﴾ أصنام لهم. وهي مؤنّثات. فاللات كانت لثقيف بالطائف. وقيل: كانت بنخلة تعبدها قريش. وهي فَعْلَةٌ من: لوى؛ لأنّهم كانوا يلوون عليها، ويعكُفون للعبادة. والعزّى كانت لغطفان، وهي سَمُرة، وأصلها تأنيث الأعزّ. وقطعها خالد بن الوليد. ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة. وقيل: لثقيف. وكأنّها سمّيت: مناة؛ لأنّ دماء النسائك كانت تمنى عندها؛ أي: تراق ﴿ومناءة﴾ مكّيٌّ. مفعلةٌ من النوء. كأنّهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبرّكاً بها ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ هي صفة ذمّ؛ أي: المتأخرة الوضيعة المقدار. كقوله: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٨] أي: وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم. ويجوز أن تكون الأوّلية والتقدّم عندهم لِلاّت والعزّى.

٢١ ـ ٢٣ ـ كانوا يقولون: إنّ الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم، ويزعمون: أنّهم شفعاؤهم عند الله مع وأدهم البنات، وكراهتهم لهنّ، فقيل لهم: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾. أي: جعلكم لله البنات ولكم البنين ﴿قسمةٌ ضيزى﴾ أي: جائرة، من: ضازه، يضيزه: إذا ضامه. و﴿ضيزى﴾ فُعلى؛ إذ لا فِعلى في النعوت. فكسرت الضاد للياء؛ كما قيل: بيض، وهو بوض، مثل: حمر وسود ﴿ضِئزى﴾ بالهمز مكّيٌّ، من: ضأزه، مثل ضازه ﴿إِنْ هِىَ﴾ ما الأصنام ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ ليس تحتها في الحقيقة مسمّيات؛ لأنّكم تدّعون الإلهيّة لما هو أبعد شيءٍ منها، وأشدّ منافاة لها ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي: سمّيتم بها ـ يقال: سمّيته زيداً، وسمّيته بزيد ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ
ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ
بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ
ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٨﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا

﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ حجّة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلاّ توهّم أنّ ما هم عليه حقّ ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾ وما تشتهيه أنفسهم ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ الرسول والكتاب فتركوه ولم يعملوا به.

٢٤، ٢٥ ـ ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ هي أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار؛ أي: ليس ﴿للإنسان﴾ يعني: الكافر ﴿ما تمنى﴾ من شفاعة الأصنام، أو من قوله ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وقيل: هو تمنّي بعضهم أن يكون هو النبيُّ ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: هو مالكهما، وله الحكم فيهما، يعطي النبوّة، والشفاعة من شاء وارتضى، لا من تمنّى.

٢٦ ـ ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ يعني: أنّ أمر الشفاعة ضيق. فإنّ الملائكة مع قربتهم وكثرتهم لو شفعوا بأجمعهم لأحدٍ لم تغن شفاعتهم شيئاً قطّ ولم تنفع ﴿إلاّ﴾ إذا شفعوا ﴿من بعد أن يأذن الله﴾ لهم في الشفاعة ﴿لمن يشاء﴾ الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له، فكيف تشفع الأصنام إليه لعبدتهم؟!

٢٧، ٢٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: ﴿ليسمّون﴾ كلَّ واحدٍ منهم ﴿تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ لأنّهم إذا قالوا للملائكة: بنات الله؛ فقد سمّوا كلّ واحد منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ أي: بما يقولون. وقرىء ﴿بها﴾ أي: بالملائكة أو التسمية ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ هو تقليد الآباء ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ أي: إنّما يعرف الحقّ الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقّن لا بالظنّ والتوهّم.

٢٩، ٣٠ ـ ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ فأعرض عمّن رأيته معرضاً عن ذكر

وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ

الله؛ أي: القرآن ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ذَٰلِكَ﴾ أي: اختيارهم الدنيا، والرضا بها ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ منتهى علمهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: ﴿هو أعلم﴾ بالضالّ والمهتدي ومجازيهما.

٣١ ـ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ بعقاب ما ﴿عملوا﴾ من السوء. أو بسبب ما عملوا من السوء ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ بالمثوبة الحسنى وهي الجنّة. أو بسبب الأعمال الحسنى. والمعنى: أنّ الله عز وجلّ إنّما خلق العالم وسوّى هذه الملكوت ليجزي المحسن من المكلّفين والمسيء منهم. إذ الملك أهل لنصر الأولياء وقهر الأعداء.

٣٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل. أو في موضع رفع على المدح. أي: هم الذين ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: الكبائر من الإثم؛ لأنّ الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر. والكبائر: الذنوب التي يكبر عقابها ﴿كبير﴾ حمزة، وعليّ. أي: النوع الكبير منه ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ما فحش من الكبائر. كأنّه قال: ﴿والفواحش﴾ منها خاصّة. قيل: الكبائر: ما أوعد الله عليه النار. والفواحش ما شرع فيها الحدّ. ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أي: الصغائر. والاستثناء منقطع لأنّه ليس من الكبائر والفواحش. وهو كالنظرة والقبلة واللمسة والغمزة ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فيغفر ما يشاء من الذنوب من غير توبة ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم﴾ أي: أباكم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمع جنين ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فلا تنسبوها إلى زكاء العمل، وزيادة الخير والطاعات، أو إلى الزكاة والطهارة من المعاصي، ولا تثنوا عليها، واهضموها. فقد علم الله الزكيّ منكم، والتقيّ أوّلاً وآخراً قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه السلام، وقبل أن تخرجوا من بطون أمّهاتكم. وقيل: كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ثمّ يقولون: صلاتنا، وصيامنا، وحجّنا فنزلت. وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء لا على سبيل الاعتراف بالنعمة فإنّه جائز. لأنّ المسرّة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ۝٣٢ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ۝٣٤ أَعِندَهُۥ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ۝٣٥ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۝٣٧﴾

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ فاكتفوا بعلمه عن علم الناس وبجزائه عن ثناء الناس.

٣٣ - ٣٧ - ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن الإيمان ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾ قطع عطيّته وأمسك. وأصله: إكداء الحافر. وهو أن تلقاه كُدْية وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر. عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: فيمن كفر بعد الإسلام. وقيل: في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتّبع رسول الله ﷺ فعيّره بعض الكافرين، وقال له: تركت دين الأشياخ وزعمت أنهم في النار. قال: إنّي خشيت عذاب الله، فضمن له، إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه، أن يتحمّل عنه عذاب الله، ففعل وأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له ثمّ بخل به ومنعه ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ فهو يعلم أنّ ما ضمنه من عذاب الله حق؟ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ يخبر ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ أي: التوراة ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: وفي صحف إبراهيم ﴿الَّذِي وَفَّىٰ﴾ أي: وفّر وأتمّ؛ كقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] وإطلاقه ليتناول كلّ وفاء وتوفية. وقرىء مخفّفاً. والتشديد مبالغة في الوفاء. وعن الحسن - رضي الله عنه -: ما أمره الله بشيءٍ إلاّ وفّى به. وعن عطاء بن السائب: عهد ألاّ يسأل مخلوقاً. فلمّا قذف في النار قال له جبريل - عليه السلام - ألك حاجة؟ فقال أمّا إليك فلا. وعن النبيّ ﷺ: «وفّى عمله كلّ يوم بأربع ركعات في صدر النهار»[(١)]. وهي صلاة الضحى. وروي: ألا أخبركم لم سمّى الله خليله ﴿الذي وفّى﴾؟ كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى: ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾ إلى ﴿حين تظهرون﴾[(٢)]. وقيل: وفّى سهام الإسلام، وهي ثلاثون: عشرة في التوبة ﴿التائبون...﴾ وعشرة في الأحزاب ﴿إنّ المسلمين...﴾ وعشرة في المؤمنين ﴿قد أفلح المؤمنون...﴾.

---

(١) قال الحافظ: أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم. (حاشية الكشاف ٤/ ٤٢٧).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٣٩).

أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾

---

٣٨ ـ ٤٢ ـ ثم أَعْلَم بما في صحف موسى وإبراهيم فقال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. ﴿تزر﴾ من وَزَرَ يَزِرُ: إذا اكتسب وزراً، وهو الإثم. و﴿أن﴾ مخفّفة من الثقيلة. والمعنى: أنّه ﴿لا تزر﴾. والضمير ضمير الشأن. ومحلّ ﴿أن﴾ وما بعدها الجرّ بدلاً من ﴿ما في صحف موسى﴾ أو الرفع على هو ﴿ألاّ تزر﴾ كأنّ قائلاً قال: وما في صحف موسى وإبراهيم؟ فقيل: ﴿ألاّ تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي: لا تحمل نفس ذنب نفس ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ إلاّ سعيه. وهذه أيضاً ممّا في صحف إبراهيم وموسى. وأمّا ما صح في الأخبار من الصدقة عن الميّت والحجّ عنه فقد قيل، إنّ سَعْيَ غيره لما لم ينفعه إلاّ مبنيّاً على سعي نفسه ـ وهو أن يكون مؤمناً ـ كان سعيُ غيره كأنه سعي نفسه؛ لكونه تابعاً له وقائماً بقيامه. ولأنّ سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه. ولكن إذا نواه به؛ فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: يرى هو سعيه يوم القيامة في ميزانه ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ ثمّ يجزى العبد سعيه ـ يقال: جزاه الله عمله، وجزاه على عمله ـ بحذف الجارّ وإيصال الفعل ـ ويجوز أن يكون الضمير للجزاء. ثمّ فسّره بقوله: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أو أبدله عنه ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: هذا كلّه في الصحف الأولى. والمنتهى: مصدر بمعنى الانتهاء. أي: ينتهي إليه الخلق ويرجعون إليه كقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

٤٣ ـ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ خلق الضحك والبكاء. وقيل: خلق الفرح والحزن. وقيل: ﴿أضحك﴾ المؤمن في العقبى بالمواهب، وأبكاه في الدنيا بالنوائب.

٤٤ ـ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ قيل: ﴿أمات﴾ الآباء، ﴿وأحيا﴾ الأبناء. أو ﴿أمات﴾ بالكفر ﴿وأحيا﴾ بالإيمان. أو ﴿أمات﴾ هنا ﴿وأحيا﴾ ثمّة.

٤٥ ـ ٤٩ ـ ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ إذا تُدفق في الرحم.

وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

يقال: مني، وأمنى ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ الإحياء بعد الموت ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ وأعطى القُنية. وهي المال الذي تأثّلته، وعزمت ألاّ تخرجه من يدك ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ هو كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدّة الحرّ. وكانت خزاعة تعبدها. فأعلم الله تعالى: أنّه ربّ معبودهم هذا.

٥٠ ـ ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ هم قوم هود. وعاد الأخرى إرم. (عَادَ الُّولى) مدنيّ وبصريّ غير سهل بإدغام التنوين في اللام، وطرح همزة الأولى، ونقل ضمّتها إلى لام التعريف.

٥١ ـ ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ حمزة وعاصم. الباقون ﴿وثموداً﴾. وهو معطوف على ﴿عاداً﴾. ولا ينتصب بـ ﴿فما أبقى﴾ لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبله، لا تقول: زيداً فضربت. وكذا ما بعد النفي لا يعمل فيما قبله. والمعنى: وأهلك ثمود فما أبقاهم.

٥٢ ـ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: ﴿و﴾ أهلك ﴿قوم نوح﴾ ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من قبل عادٍ وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ من عاد وثمود؛ لأنّهم كانوا يضربونه حتّى لا يكون به حراك، وينفّرون عنه حتّى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه.

٥٣ ـ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ والقرى التي ائتفكت بأهلها؛ أي: انقلبت. وهم قوم لوط. يقال: أفكه، فائتفك ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي: رفعها إلى السماء على جناح جبريل ـ عليه السلام ـ، ثمّ أهواها إلى الأرض، أي: أسقطها ﴿والمؤتفكة﴾ منصوب بـ ﴿أهوى﴾.

٥٤ ـ ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ ألبسها ﴿مَا غَشَّىٰ﴾. تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود.

٥٥ ـ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ أيها المخاطب ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ تتشكّك؟ أبما أولاك من النعم؟ أو بما كفاك من النقم؟ أو: بأيّ نِعَم ربّك الدالة على وحدانيّته وربوبيّته تشكّك؟

هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

٥٦ ـ ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ أي: محمد منذر ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ من المنذرين الأوّلين. وقال: ﴿الأولى﴾ على تأويل الجماعة. أو: ﴿هذا﴾ القرآن ﴿نذير من النذر الأولى﴾ أي: إنذار من جنس الإنذارات ﴿الأولى﴾ التي أنذر بها من قبلكم.

٥٧ ـ ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ قربت الموصوفة بالقرب في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١].

٥٨ ـ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ﴿ليس لها﴾ نفس كاشفة، أي: مبينة متى تقوم. كقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أو: ﴿ليس لها﴾ نفس كاشفة؛ أي: قادرة على كشفها إذا وقعت إلاّ الله تعالى، غير أنّه لا يكشفها.

٥٩ ـ ٦٢ ـ ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكاراً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ خشوعاً ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ غافلون، أو لاهون لاعبون. وكانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء ليشغلوا الناس عن استماعه ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾ أي: ﴿فاسجدوا لله﴾ واعبدوه، ولا تعبدوا الآلهة.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾

١ ـ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ قربت القيامة ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ نصفين. وقرىء (وقد انشقَّ). أي: ﴿اقتربت الساعة﴾ وقد حصل من آيات اقترابها: أنّ القمر قد انشقّ؛ كما تقول: أقبل الأمير وقد جاء المبشّر بقدومه. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: رأيت حِرَاء بين فلقتي القمر. وقيل: معناه: ينشقّ يوم القيامة. والجمهور على الأوّل، وهو المرويُّ في الصحيحين. ولا يقال: لو انشقّ لما خفي على أهل الأقطار، ولو ظهر عندهم لنقلوه متواتراً؛ لأنّ الطباع جبلت على نشر العجائب؛ لأنّه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم.

٢ ـ ﴿وَإِن يَرَوْا۟﴾ يعني: أهل مكّة ﴿ءَايَةً﴾ تدلّ على صدق محمّد ﷺ ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ عن الإيمان به ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ محكم قويّ؛ من المرّة: القوّة. أو: دائم مطّرد. أو: مارٌّ ذاهب، يزول، ولا يبقى.

٣ ـ ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ النبيّ ﷺ ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وما زيَّن لهم الشيطان من دفع الحقّ بعد ظهوره ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ وعدهم الله ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ كائن في وقته. وقيل: ﴿كلّ﴾ ما قُدِّرَ واقع. وقيل: ﴿كلّ أمر﴾ من أمرهم واقع ﴿مستقرّ﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾

أي: سيثبت، ويستقرّ عند ظهور العقاب والثواب.

٤ ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ أهل مكّة ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ من القرآن المودع أنباء القرون الخالية، أو: أنباء الآخرة، وما وُصِفَ من عذاب الكفّار ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ ازدجار عن الكفر. تقول: زجرته، وازدجرته، أي: منعته. والأصل: ازتجر، ولكن التاء إذا وقعت بعد زاي ساكنة أبدلت دالاً؛ لأنّ التاء حرف مهموس، والزاي حرف مجهور، فأبدل من التاء حرف مجهور وهو الدال ليتناسبا. وهذا في آخر كتاب سيبويه.

٥ ـ ﴿حِكْمَةٌۢ﴾ بدل من ﴿ما﴾ أو على: هو ﴿حكمة﴾ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ نهاية الصواب أو: ﴿بالغة﴾ من الله إليهم ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ ﴿ما﴾ نفي. والنذر: مصدر بمعنى الإنذار.

٦ ـ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعل مك أنّ الإنذار لا يغني فيهم. نُصِبَ ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ بـ﴿يخرجون﴾؛ أو بإضمار اذكر. ﴿الداعي﴾ ﴿إلى الداعيَ﴾ سهل، ويعقوب، ومكّيّ فيهما. ووافق مدنيّ، وأبو عمرو في الوصل. ومن أسقط الياء اكتفى بالكسرة عنها. وحذف الواو من: ﴿يدع﴾ في الكتابة لمتابعة اللفظ. و﴿الداعي﴾: إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ منكر فظيع، تنكره النفوس؛ لأنّها لم تعهد بمثله. وهو هول يوم القيامة. ﴿نكْر﴾ بالتخفيف مكّيّ.

٧ ـ ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾[1] عراقيّ غير عاصم. وهو حال من الخارجين. وهو فعل للأبصار. وذكّر كما تقول: يخشع أبصارهم. غيرهم ﴿خُشَّعاً﴾ على يخشعن أبصارهم. وهي لغة من يقول: أكلوني البراغيث. ويجوز أن يكون في ﴿خشّعاً﴾ ضميرهم وتقع أبصارهم بدلاً عنه. وخشوع الأبصار كناية عن الذلّة؛ لأنّ ذلّة الذّليل وعزّة العزيز تظهران في عيونهما ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ من

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿خاشعاً﴾. وهي قراءة: عراقي غير عاصم كما نص على ذلك.

كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ
أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾

القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ في كثرتهم، وتفرّقهم في كلِّ جهة. والجراد مثلٌ في الكثرة والتموّج. يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاؤوا كالجراد.

٨ ـ ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ مسرعين مادّي أعناقهم إليه ﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ صعب شديد.

٩ ـ ﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل أهل مكّة ﴿ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ نوحاً ـ عليه السلام ـ ومعنى تكرار التكذيب: أنّهم كذّبوه تكذيباً على عقب تكذيب، كلّما مضى منهم قرن مكذّبٌ تبعه قرنٌ مكذّبٌ، أو: كذّبت ﴿قوم نوح﴾ الرسل ﴿فكذّبوا عبدنا﴾ أي: لمّا كانوا مكذّبين بالرسل جاحدين للنبوّة رأساً كذّبوا نوحاً لأنّه من جملة الرسل ﴿ وَقَالُوا۟: مَجْنُونٌ ﴾ هو ﴿مجنون﴾ ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾ وازدجر عن أداء الرسالة بالشتم وهدّد بالقتل. أو: هو من جملة قيلهم. أي: ﴿قالوا﴾: هو ﴿مجنون﴾ وقد ازدجرته الجنّ، وتخبّطته، وذهبت بلبّه.

١٠ ـ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ ﴾ أي: بأنّي ﴿مغلوب﴾ غلبني قومي فلم يسمعوا منّي، واستحكم اليأس من إجابتهم لي ﴿ فَٱنتَصِرْ ﴾ فانتقم لي منهم بعذابٍ تبعثه عليهم.

١١ ـ ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ﴿ففتّحنا﴾ شاميٌّ، ويزيدُ، وسهلٌ، ويعقوب ﴿ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ منصبٌ في كثرة وتتابع، لم ينقطع أربعين يوماً.

١٢ ـ ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ وجعلنا الأرض كلّها كأنّها عيون تتفجّر. وهو أبلغ من قولك: وفجرنا عيون الأرض ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ أي: مياه السماء والأرض. وقرىء: (الماءان) أي: النوعان من الماء السماويّ والأرضيّ ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ على حالٍ قدرها الله كيف شاء. أو: ﴿على أمر قد قدر﴾ في اللوح المحفوظ: أنّه يكون. وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ

١٣ ـ ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ أراد السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات، فتنوب منابها، وتؤدّي مؤدّاها، بحيث لا يفصل بينها وبينها. ونحوه:

... ... ولـ ـكنّ قميصي مسرودة من حديدِ [(١)]

أراد: ولكنَّ قميصي درع. ألا ترى أنّك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة لم يصحّ. وهذا من فصيح الكلام وبديعه. والدسر: جمع دسار، وهو المسمار. فِعال. من: دسره: إذا دفعه؛ لأنّه يدسر به منفذه.

١٤ ـ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منا، أو بحفظنا. و: ﴿بأعيننا﴾ حال من الضمير في ﴿تجري﴾ أي: محفوظة بنا ﴿جَزَآءً﴾ مفعول له لما قدّم من فتح أبواب السماء وما بعده. أي: فعلنا ذلك جزاءً ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ وهو نوح عليه السلام. وجعله مكفوراً؛ لأنّ النبيَّ نعمة من الله ورحمة. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فكان نوح نعمة مكفورة.

١٥ ـ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي: السفينة أو الفعلة. أي: جعلناها ﴿ءَايَةً﴾ يُعْتَبَرُ بها. وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة. وقيل: على الجوديّ دهراً طويلاً حتّى نظر إليها أوائل هذه الأمّة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متّعظ، يتّعظ، ويعتبر. وأصله: مذتكر ـ بالذال والتاء ـ ولكن التاء أبدلت منها الدال، والدال والذال من موضع، فأدغمت الذال في الدال.

١٦ ـ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ جمع نذير وهو الإنذار ﴿ونذري﴾ يعقوب فيهما. وافقه سهل في الوصل. غيرهما بغير ياء. وعلى هذا الاختلاف ما بعده إلى آخر السورة.

١٧ ـ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ سهّلناه للادّكار والاتّعاظ؛ بأن شحنّاه

---

(١) عجز بيت للمتنبي وصدره: مفرشي صهوةُ الحصان ولـ.

فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا
فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا
مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾

بالمواعظ الشافية، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متّعظ يتّعظ؟ وقيل: ولقد سهّلناه للحفظ، وأعنّا عليه من أراد حفظه، فهل من طالبٍ لحفظه ليعان عليه؟ ويروى: أنّ كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل لا يتلوها أهلها إلاّ نظراً، ولا يحفظونها ظاهراً كالقرآن.

١٨ ـ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: وإنذاراتي لهم بالعذاب قبل نزوله. أو: إنذاراتي في تعذيبهم لمن بعدهم.

١٩ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردةً، أو شديدة الصوت ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ دائم الشَّرِّ. فقد استمرّ عليهم حتّى أهلكهم. وكان في أربعاءَ في آخر الشهر.

٢٠ ـ ٢٢ ـ ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ تقلعهم عن أماكنهم، وكانوا يصطفّون آخذاً بعضهم بأيدي بعض، ويتداخلون في الشعاب، ويحفرون الحفر، فيندسّون فيها، فتنزعهم، وتكبّهم، وتدقّ رقابهم ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أصول نخل منقلع عن مغارسه، وشبّهوا بأعجاز النخل؛ لأنّ الريح كانت تقطع رؤوسهم، فتبقى أجساداً بلا رؤوس، فيتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جثث طوال. وذكّر صفة ﴿نخل﴾ على اللفظ، ولو حملها على المعنى لأنّث؛ كما قال: ﴿أعجاز نخل خاوية﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

٢٣، ٢٦ ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا﴾ انتصب ﴿بشراً﴾ بفعل يفسره ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ تقديره: أنتبع بشراً منّا واحداً ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ كان يقول: إن لم تتّبعوني كنتم في ضلال عن الحقّ ﴿وسعر﴾ ونيران؛ جمع سعير، فعكسوا عليه فقالوا: إن اتّبعناك كنّا إذاً كما تقول. وقيل: الضلال: الخطأ، والبعد عن الصواب، والسعر: الجنون. وقولهم: ﴿أبشراً﴾ إنكار لأن يتّبعوا

أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ
ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ
كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾

مثلهم في الجنسيّة، وطلبوا أن يكون من الملائكة وقالوا: ﴿منّا﴾ لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى. وقالوا ﴿واحداً﴾ إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً. أو أرادوا ﴿واحداً﴾ من أفنائهم ليس بأشرفهم وأفضلهم. ويدلّ عليه قوله: ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أأنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ بطر، متكبّر، حمله بطره وطلبه التعظّم علينا على ادّعاء ذلك ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ عند نزول العذاب بهم، أو يوم القيامة ﴿ مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ أصالح أم من كذّبه؟ ﴿ستعلمون﴾ شاميّ وحمزة على حكاية ما قال لهم صالح مجيباً لهم. أو هو كلام الله على سبيل الالتفات.

٢٧ ـ ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا ﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ امتحاناً لهم وابتلاء. وهو مفعول له، أو حال ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم وتبصّر ما هم صانعون ﴿ وَٱصْطَبِرْ﴾ على أذاهم ولا تعجل حتّى يأتيك أمري.

٢٨ ـ ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم بينهم، لها شرب يوم، ولهم شرب يوم. وقال: ﴿بينهم﴾ تغليباً للعقلاء ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ محضور، يحضر القوم الشرب يوماً، وتحضر الناقة يوماً.

٢٩ ـ ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿ فَتَعَاطَىٰ﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم غير مكترث له ﴿ فَعَقَرَ﴾ الناقة. أو: فتعاطى الناقة فعقرها. أو: فتعاطى السيف. وإنّما قال: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧] في آية أخرى لرضاهم به؛ أو لأنّه عقر بمعونتهم.

٣٠، ٣١ ـ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في اليوم الرابع من عقرها ﴿ صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ صاح بهم جبريل عليه السلام ﴿ فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾. والهشيم: الشجر اليابس المتهشّم المتكسّر. و﴿المحتظر﴾: الذي يعمل الحظيرة. وما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطّؤه البهائم، فيتحطّم ويتهشّم. وقرأ

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ
أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟
عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

الحسن بفتح الظاء، وهو موضع الاحتظار؛ أي: الحظيرة.

٣٢، ٣٤ ـ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تحصبهم بالحجارة، أي: ترميهم ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ ابنتيه ومن آمن معه ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ من الأسحار. ولذا صرفه. ويقال: لقيته بسحر: إذا لقيته في سحر يومه. وقيل: هما سحران. فالسحر الأعلى: قبل انصداع الفجر، والآخر: عند انصداعه.

٣٥ ـ ﴿نِّعْمَةً﴾ مفعول له؛ أي: إنعاماً ﴿مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ نعمة الله بإيمانه، وطاعته.

٣٦ ـ ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوط ـ عليه السلام ـ ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ فكذّبوا بالنذر متشاكّين.

٣٧، ٣٨ ـ ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ طلبوا الفاحشة من أضيافه ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أعميناهم. وقيل: مسحناها، وجعلناها كسائر الوجه، لا يرى لها شقّ. روي: أنّهم لمّا عالجوا باب لوط ـ عليه السلام ـ ليدخلوا قالت الملائكة: خلِّهم يدخلوا. ﴿إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك﴾ فصفقهم جبريل ـ عليه السلام ـ بجناحه صفقة، فتركهم يتردّدون، لا يهتدون إلى الباب حتّى أخرجهم لوط ﴿فَذُوقُوا۟﴾ فقلت لهم ﴿ذوقوا﴾ على ألسنة الملائكة ﴿عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ أوّل النهار ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ ثابت قد استقرّ عليهم إلى أن يفضي بهم عذاب الآخرة.

٣٩، ٤٠ ـ وفائدة تكرير ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أن يجدّدوا عند استماع كلّ نبأ من أنباء الأوّلين ادّكاراً واتّعاظاً، وأن يستأنفوا

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾

تنبّهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحثّ على ذلك والبعث عليه. وهذا حكم التكرير في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] عند كلّ نعمة عدّها، وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] عند كلّ آية أوردها. وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب، مصوّرة للأذهان، مذكورة غير منسيّة في كل أوان.

٤١ ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ موسى، وهارون، وغيرهما من الأنبياء. أو: هو جمع نذير، وهو الإنذار.

٤٢ ـ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ بالآيات التسع ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يغالب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يعجزه شيء.

٤٣ ـ ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ الكفّار المعدودين: قوم نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، وآل فرعون؛ أي: أهم خير قوّة، وآلة ومكانة في الدنيا؟ أو أقلّ كفراً وعناداً؟ يعني: أنّ كفّاركم مثل أولئك، بل شرّ منهم ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أم أنزلت عليكم يا أهل مكّة براءة في الكتب المتقدّمة: أنّ من كفر منكم وكذّب الرسل كان آمناً من عذاب الله، وأمنتم بتلك البراءة؟

٤٤ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ ـ جماعة أمرنا مجتمع ـ ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ ممتنع لا نرام ولا نضام.

٤٥ ـ ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ جمع أهل مكّة ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي: الأدبار، كما قال:

كلُوا في بَعْضِ بطنِكُمْ تَعِفُّوا[1] ... ...

أي: ينصرفون منهزمين. يعني: يوم بدر. وهذه من علامات النبوّة.

٤٦ ـ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ موعد عذابهم بعد بدر ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ أشدّ من

---

(١) صدر بيت، وعجزه: فإنّ زمانكم زمن خميص.

﴿وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾

موقف بدر. والداهية: الأمر المنكر الذي لا يُهْتَدَىٰ لدوائه ﴿وَأَمَرُّ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا أو: أشدّ. من: المِرّة.

٤٧، ٤٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الحقّ في الدنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ ونيران في الآخرة. أو في هلاك ونيران ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ يجرّون فيها ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ كقولك: وجد مسّ الحمّى، وذاق طعم الضرب؛ لأنّ النار إذا أصابتهم بحرّها فكأنّها تمسّهم مسّاً بذلك. و﴿سقر﴾ غير منصرف للتأنيث والتعريف لأنها علم لجهنّم، من سقرته النار: إذا لوّحته.

٤٩ ـ ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ ﴿كلَّ﴾: منصوب بفعل مضمر يفسّره الظاهر. وقرىء بالرفع شاذّاً. والنصب أولى لأنّه لو رفع لأمكن أن يكون ﴿خلقناه﴾ في موضع الجرّ وصفاً لشيء، ويكون الخبر ﴿بقدر﴾ وتقديره: ﴿إنّا كلّ شيء﴾ مخلوق لنا كائن ﴿بقدر﴾. ويحتمل أن يكون ﴿خلقناه﴾ هو الخبر، وتقديره: ﴿إنّا كلّ شيء﴾ مخلوق لنا ﴿بقدر﴾. فلمّا تردّد الأمر في الرفع عدل إلى النصب. وتقديره: إنّا خلقنا كلّ شيء بقدر. فيكون الخلق عامّاً لكلّ شيء. وهو المراد بالآية. ولا يجوز في النصب أن يكون ﴿خلقناه﴾ صفة لشيء؛ لأنه تفسير الناصب، والصفة لا تعمل في الموصوف. والقدْر والقدَر: التقدير. أي: بتقدير سابق. أو خلقنا كلَّ شيءٍ مقدّراً، محكماً، مرتّباً على حسب ما اقتضته الحكمة. أو: مقدّراً، مكتوباً في اللوح، معلوماً قبل كونه، قد علمناه حاله وزمانه. قال أبو هريرة: جاء مشركو قريش إلى النبيّ ﷺ يخاصمونه في القدر. فنزلت الآية[1]. وكان عمر يحلف أنّها نزلت في القدريّة.

٥٠ ـ ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ إلاّ كلمة واحدة. أي: ﴿وما أمرنا﴾ لشيء نريد تكوينه إلاّ أن نقول له: كن؛ فيكون ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ على قدر ما يلمح أحدكم ببصره. وقيل: المراد بأمرنا: القيامة كقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٦).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾

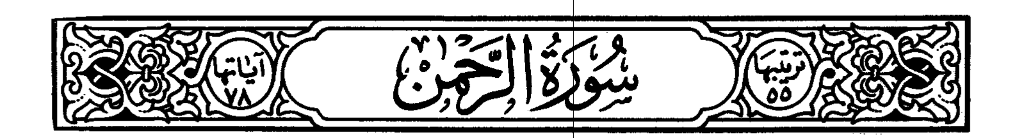
٥١ ـ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم في الكفر من الأمم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متّعظ.

٥٢، ٥٣ ـ ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: أولئك الكفّار. أي: ﴿وكلّ شيء﴾ مفعول لهم ثابت ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ في دواوين الحفظة: فـ﴿فعلوه﴾: في موضع جرّ نعت لشيء. و﴿في الزبر﴾ خبر لكلّ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال ومن كلّ ما هو كائن ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ مسطور في اللوح.

٥٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ وأنهار. اكتفى باسم الجنس. وقيل: هو السعة، والضياء. ومنه: النهار.

٥٥ ـ ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضيّ ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ عنديّة منزلة وكرامة، لا مسافة ومماسّة، ﴿مُّقْتَدِرٍۭ﴾ قادر. وفائدة التنكير فيهما: أن يُعْلَمَ: أن لا شيء إلاّ وهو تحت ملكه وقدرته.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾

---

١ ـ ٤ ـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: الجنس أو آدم أو محمداً عليهما الصلاة والسلام ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ عدّد الله عزّ وجل آلاءه. فأراد أن يقدّم أوّل شيء ما هو أسبق قدماً من ضروب آلائه وصنوف نعمائه وهي نعمة الدين. وقدَّم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها، وأقصى مراقيها، وهو إنعامه بالقرآن، وتنزيله، وتعليمه، لأنّه أعظم وحي الله رتبةً، وأعلاه منزلةً، وأحسنه في أبواب الدين أثراً. وهو سنام الكتب السماويّة ومصداقها، والعيار عليها. وأخّر ذكر خلق الإنسان عن ذكره. ثمّ أتبعه إيّاه ليعلم أنّه إنّما خلقه للدين، وليحيط علماً بوحيه وكتبه. وقدّم ما خلق الإنسان من أجله عليه. ثمّ ذكر ما تميّز به من سائر الحيوان من البيان، وهو المنطق الفصيح المعرب عمّا في الضمير. و﴿الرحمن﴾ مبتدأ. وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة، وإخلاؤها من العاطف؛ لمجيئها على نمط التعديد. كما تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزّك بعد ذلّ، كثّرك بعد قلّة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد. فما تنكر من إحسانه؟

٥، ٦ ـ ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ بحسابٍ معلوم، وتقديرٍ سويٍّ يجريان في

وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾

بروجهما ومنازلهما، وفي ذلك منافع للناس، منها علم السنين والحساب ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾ النبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له؛ كالبقول ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ الذي له ساق ـ وقيل: النجم: نجوم السماء ـ ﴿يَسۡجُدَانِ﴾ ينقادان لله تعالى فيما خلقا له تشبيهاً بالساجد من المكلّفين في انقياده. واتّصلت هاتان الجملتان بالرحمن بالوصل المعنويّ لما علم: أنّ الحسبان حسبانه، والسجود له لا لغيره، كأنّه قيل: ﴿الشمس والقمر﴾ بحسبانه، ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ له. ولم يذكر العاطف في الجمل الأولِ ثمّ جيء به بعد، لأنّ الأولَ وردت على سبيل التعديد تبكيتاً لمن أنكر آلاءه؛ كما يبكَّت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال المذكور. ثمّ ردَّ الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف. وبيان التناسب: أنّ الشمس والقمر سماويّان، والنجم والشجر أرضيّان. فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل، وأنّ السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين. وأنّ جري الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله. فهو مناسب لسجود النجم والشجر.

٧ ـ ٩ ـ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ خلقها مرفوعةً، مسموكةً حيث جعلها منشأ أحكامه، ومصدر قضاياه، ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه. ونبّه بذلك على كبرياء شأنه، وملكه، وسلطانه ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: كلّ ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان، وقَرَسْطون، ومكيال، ومقياس. أي: خلقه موضوعاً على الأرض؛ حيث علّق به أحكام عباده من التسوية، والتعديل في أخذهم وإعطائهم ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ لـ ﴿ألاّ تطغوا﴾. أو هي ﴿أن﴾ المفسّرة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ وقوّموا وزنكم بالعدل ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوه. أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة، وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان. وكرّر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به، وتقوية للأمر باستعماله والحثّ عليه.

وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾

١٠ ـ ١٣ ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ خفضها مدحوّة على الماء ﴿لِلْأَنَامِ﴾ للخلق، وهو كلّ ما على ظهر الأرض من دابّة. وعن الحسن ـ رحمه الله ـ: الإنس والجنّ. فهي كالمهاد لهم، يتصرّفون فوقها ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ ضروب ممّا يتفكّه به ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ هي أوعية الثمر. الواحد: كِمٌّ بكسر الكاف. أو كلّ ما يَكُم. أي: يغطّى من ليفه، وسعفه، وكُفُرّاه. وكلّه منتفع به كما ينتفع بالمكموم من ثمره، وجمّاره، وجذوعه ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ هو ورق الزرع أو التبن ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ الرزق وهو اللبّ. أراد ﴿فيها﴾ ما يتلذّذ به من الفواكه، والجامع بين التلذّذ والتغذّي، وهو ثمر النخل، وما يتغذّى به وهو الحبّ ﴿والريحانِ﴾ بالجرّ حمزة وعليّ. أي: ﴿والحبّ ذو العصف﴾ الذي هو علف الأنعام، ﴿والريحان﴾ الذي هو مطعم الأنام. والرفع على ﴿و﴾ ذو ﴿الريحان﴾ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: معناه: ﴿و﴾ فيها ﴿الريحان﴾ الذي يشمّ ﴿والحبَّ ذا العصف والريحانَ﴾ شاميّ، أي: وخلق الحبّ والريحان. أو: وأخصُّ الحبَّ والريحان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ أي: النعم ممّا عدد من أوّل السورة. جمع: أَلىً، وإلىً ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخطاب للثقلين، بدلالة الأنام عليهما.

١٤ ـ ١٦ ـ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ طين يابس له صلصلة ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي: الطين المطبوخ بالنار، وهو الخزف. ولا اختلاف في هذا وفي قوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] ﴿مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] لاتّفاقها معنى؛ لأنّه يفيد: أنّه خلقه من تراب جعله طيناً، ثمّ حمأً مسنوناً، ثم صلصالاً ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ أبا الجنّ. قيل: هو إبليس ﴿مِن مَّارِجٍ﴾. هو اللهب الصافي الذي لا دخان فيه. وقيل: المختلط بسواد النار. من: مرج الشيء: إذا اضطرب، واختلط ﴿مِّن نَّارٍ﴾ هو بيان لمارج؛ كأنّه قيل: من صاف ﴿من نار﴾ أو مختلط ﴿من نار﴾ أو أراد: ﴿من نار﴾ مخصوصة

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ
ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ
وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ

كقوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

١٧، ١٨ ـ ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أراد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

١٩، ٢٣ ـ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين، لا فصل بين المائين في مرأى العين ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ لا يتجاوزان حدّيهما، ولا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ ﴿يُخرج﴾ مدنيّ وبصريّ ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ وبلا همز، أبو بكر ويزيد. وهو كبار الدرّ ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ صغاره. وإنّما قال: منهما، وهما يخرجان من الملح؛ لأنّهما لمّا التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يقال: يخرجان منهما، كما يقال: يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر، ولكن من بعضه. وتقول: خرجت من البلد، وإنّما خرجت من مَحَلّةٍ من محالّه. وقيل: لا يخرجان إلاّ من ملتقى الملح والعذب ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٢٤، ٢٥ ـ ﴿وَلَهُ﴾ ولله ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السفن. جميع جارية. قال الزجاج: الوقف عليها بالياء. والاختيار وصلها، وإن وقف عليها واقف بغير ياء فذا جائز على بعد. ولكن يروم الكسر في الراء؛ ليدلّ على حذف الياء ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ المرفوعات الشُّرَّع. ﴿المنشِئات﴾ بكسر الشين، حمزة ويحيى، الرافعات الشُّروع. أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ جمع علم. وهو الجبل الطويل ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٢٦ ـ ٢٨ ـ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ على الأرض ﴿فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ذاته ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ﴾

وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾

ذو العظمة والسلطان ـ وهو صفة الوجه ـ ﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ بالتجاوز والإحسان. وهذه الصفة من عظيم صفات الله. وفي الحديث: «أَلِظّوا بياذا الجلال والإكرام»[1] وروي: أنه ﷺ مرّ برجل وهو يصلّي، ويقول: يا ذا الجلال والإكرام. فقال: «قد استجيب لك»[2] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ والنعمة في الفناء باعتبار أنّ المؤمنين به يصلون إلى النعيم السرمد. وقال يحيى بن معاذ: حبذا الموت فهو الذي يقرّب الحبيب إلى الحبيب.

٢٩، ٣٠ ـ ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وقف عليها نافع. كلٌّ من أهل السموات والأرض مفتقرون إليه، فيسأله أهل السموات ما يتعلّق بدينهم، وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم. وينصب ﴿كُلَّ يَوۡمٍ﴾ ظرفاً لما دلّ عليه ﴿هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ أي: كلّ وقت وحين يحدث أموراً ويجدّد أحوالاً. كما روي: أنه ﷺ تلاها، فقيل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين»[3]. وعن ابن عيينة: الدهر عند الله يومان: أحدهما اليوم الذي هو مدّة الدنيا، فشأنه فيه الأمر والنهي، والإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع. والآخر يوم القيامة. فشأنه فيه الجزاء والحساب. وقيل: نزلت في اليهود حين قالوا: إنّ الله لا يقضي يوم السبت شأناً. وسأل بعض الملوك وزيره عن الآية فاستمهله إلى الغد، وذهب كئيباً يفكّر فيها، فقال غلام له أسود: يا مولاي! أخبرني ما أصابك لعلّ الله يسهل لك على يدي. فأخبره. فقال: أنا أفسرّها للملك. فأعلمه. فقال: أيها الملك! شأن الله: أنه يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحيّ من الميّت. ويخرج الميّت من الحيّ، ويشفي سقيماً، ويسقم سليماً، ويبتلي معافى، ويعافي مبتلى، ويعزّ ذليلاً، ويذلّ عزيزاً، ويفقر غنياً، ويغني فقيراً. فقال الأمير: أحسنت.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٥).
(٢) رواه أحمد (٥/ ٢٣٦) والترمذي (٣٥٢٧).
(٣) رواه ابن ماجه (٢٠٢) وابن حبان في صحيحه (٦٨٩).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣﴾

وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة. فقال: يا مولاي! هذا من شأن الله. وقيل: سوق المقادير إلى المواقيت. وقيل: إنّ عبد الله بن طاهر دعا الحسين بن الفضل وقال له: أشكلت عليّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي، قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] وقد صحّ: أنّ الندم توبة، وقوله: ﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ وقد صحّ: أنّ القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] فما بال الأضعاف؟ فقال الحسين: يجوز ألاّ يكون الندم توبة في تلك الأمّة ويكون توبة في هذه الأمة. وقيل: إنّ ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل، ولكن على حمله. وكذا قيل: ﴿وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى﴾ مخصوص بقوم إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ وأما قوله: ﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ فإنّها شؤون يبديها، لا شؤون يبتديها، فقام عبد الله، وقبّل رأسه، وسوّغ خراجه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣١، ٣٢ ـ ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ مستعار من قول الرجل لمن يتهدّده: سأفرغ لك، يريد: سأتجرد للإيقاع بك من كلّ ما يشغلني عنه. والمراد: التوفّر على النكاية فيه، والانتقام منه. ويجوز أن يراد: ستنتهي الدنيا وتبلغ آخرها، وتنتهي عند ذلك شؤون الخلق التي أرادها بقوله: ﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ فلا يبقى إلاّ شأن واحد وهو جزاؤكم، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل. ﴿سيفرغ﴾ حمزة وعليّ. أي: الله تعالى ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ الإنس والجنّ؛ سمّيا بذلك؛ لأنهما ثقلا الأرض ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣٣، ٣٦ ـ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هو كالترجمة لقوله ﴿أيّها الثقلان﴾ ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ أي: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هرباً من قضائي فاخرجوا. ثمّ قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ بقوّة وقهر وغلبة. وأنّى لكم ذلك؟ وقيل: دلّهم على العجز عن قوّتهم للحساب غداً بالعجز عن نفوذ الأقطار اليوم.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ

وقيل: يقال لهم هذا يوم القيامة حين تحدق بهم الملائكة. فإذا رآهم الجنّ والإنس هربوا فلا يأتون وجهاً إلاّ وجدوا الملائكة أحاطت به ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ وبكسر الشين مكّيّ، وكلاهما اللهب الخالص ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي: دخان ﴿ونحاسٍ﴾ مكّيّ وأبو عمرو. فالرفع عطف على ﴿شواظ﴾. والجرّ على ﴿نار﴾. والمعنى: إذا خرجتم من قبوركم يرسل عليكما لهب خالص من النار، ودخان لتسوقكم إلى المحشر ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ فلا تُمنعان منهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣٧، ٤٥ ـ ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ انفكّ بعضها من بعض لقيام الساعة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ فصارت كلون الورد الأحمر. وقيل: أصل لون السماء الحمرة، ولكن من بُعدها ترى زرقاء ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ كدهن الزيت. كما قال: ﴿كالمهل﴾ وهو درديّ الزيت. وهو جمع دهن. وقيل: ﴿الدهان﴾ الأديم الأحمر ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: فيوم تنشق السماء ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: ولا جنّ. فوضع الجانّ الذي هو أبو الجنّ موضع الجنّ؛ كما يقال: هاشم ويراد ولده. والتقدير: لا يسأل إنس ولا جانّ عن ذنبه. والتوفيق بين هذه الآية وبين قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] أنّ ذلك يوم طويل وفيه مواطن، فيسألون في موطن ولا يسألون في آخر. وقال قتادة ـ رحمه الله ـ: قد كانت مسألة، ثمّ ختم على أفواه القوم، وتكلّمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. وقيل: ﴿لا يسأل عن ذنبه﴾ ليعلم من جهته، ولكن يسأل للتوبيخ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي: يؤخذ تارةً بالنواصي، وتارةً بالأقدام ﴿فَبِأَيِّ

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ
عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ ماء حارّ قد انتهى حرّه. أي: يعاقب عليهم بين التصلية بالنار، وبين شرب الحميم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ والنعمة في هذا: نجاة الناجي منه بفضله ورحمته، وما في الإنذار به من التنبيه.

٤٦ ـ ٦١ ـ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة، فيترك المعاصيَ، أو: فأدّي الفرائض. وقيل: هو مقحم كقوله: ونفيت عنه مقام الذئب، أي: ونفيت عنه الذئب ﴿جَنَّتَانِ﴾ جنّة الإنس وجنّة الجنّ؛ لأنّ الخطاب للثقلين، وكأنه قيل: لكلّ خائفين منكما جنّتان، جنّة للخائف الإنسيّ، وجنّة للخائف الجنيّ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أغصان. جمع فنن، وخص الأفنان؛ لأنّها هي التي تورق وتثمر، فمنها تمتدّ الظلال، ومنها تجتنى الثمار. أو: ألوان. جمع فنّ. أي: له فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين. قال:

ومن كلّ أفنانِ اللذاذة والصِّبا لهوتُ به والعيشُ أخضرُ ناضرُ

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا﴾ في الجنّتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيث شاؤوا في الأعالي والأسافل. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: تجريان بالماء الزلال إحداهما: التسنيم والأخرى: السلسبيل ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفان، صنف معروف وصنف غريب ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ﴾ نصب على المدح للخائفين، أو: حال منهم؛ لأنّ ﴿من خاف﴾ في معنى الجمع ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ جمع فراش ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمع: بطانة ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ ديباج ثخين، وهو معرَّب. قيل: ظهائرها من سندس. وقيل: لا يعلمها إلاّ الله ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ وثمرها قريب يناله القائم، والقاعد، والمتكىء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾
هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا
جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ
وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ﴾ في الجنّتين، لاشتمالها على أماكن وقصور ومجالس. أو: في هذه الآلاء المعدودة من الجنّتين، والعينين، والفاكهة، والفرش، والجنْيِ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ نساء قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ، لا ينظرن إلى غيرهم ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ [بكسر الميم: الدوريُّ][(١)] وعليٌّ: بضمّ الميم. والطمث: الجماع بالتدمية، ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾. وهذا دليل: على أنّ الجنّ يطمثون كما يطمث الإنس ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ﴾ صفاءً ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ بياضاً، فهو أبيض من اللؤلؤ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في العمل ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ في الثواب. وقيل: ما جزاء من قال: لا إله إلّا الله إلّا الجنّة. وعن إبراهيم الخوّاص فيه: هل جزاء الإسلام؛ إلّا دار السلام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٦٢، ٧٧ ـ ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ ومن دون تينك الجنّتين الموعودتين للمقرّبين، ﴿جَنَّتَانِ﴾ لمن دونهم من أصحاب اليمين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ﴾ سوداوان من شدّة الخضرة. قال الخليل: الدهمة: السواد ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فوّارتان بالماء لا تنقطعان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ ألوان الفواكه ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾. والرمّان والتمر ليسا من الفواكه عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ للعطف؛ ولأنّ التمر فاكهةٌ وطعام، والرمّان فاكهةٌ ودواء. فلم يخلصا للتفكّه. وهما قالا: إنّما عطفا على الفاكهة لفضلهما؛ كأنّهما جنسان آخران لما لهما من المزيّة، كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي: خيّرات. فخفّفت. وقرىء ﴿خيّرات﴾ على الأصل. والمعنى: فاضلات الأخلاق، حسان

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، واستدرك من المطبوع.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ
وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

الخَلْق ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ أي: مخدَّرات. يقال: امرأة قصيرة، ومقصورة، أي: مخدّرة. وقيل: الخيام من الدرّ المجوّف ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾ قبل أصحاب الجنّتين. ودلّ عليهم ذكر الجنّتين ﴿وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ﴾ نصب على الاختصاص ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ هو كلّ ثوب عريض. وقيل: الوسائد ﴿خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ﴾ ديباج، أو: طنافس ﴿حِسَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وإنّما تقاصرت صفات هاتين الجنّتين عن الأوليين، حتّى قيل: ﴿ومن دونهما﴾، لأنّ ﴿مدهامّتان﴾ دون ﴿ذواتا أفنان﴾، و﴿نضّاختان﴾ دون ﴿تجريان﴾، و﴿فاكهة﴾ دون ﴿كلِّ فاكهة﴾، وكذلك صفة الحور والمتّكأ.

٧٨ ـ ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ ذي العظمة ﴿ذو الجلال﴾ شاميّ صفة للاسم ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ لأوليائه بالإنعام.

روى جابر: أنّ النبيَّ ﷺ قرأ سورة الرحمن فقال: «مالي أراكم سكوتاً؟! الجنّ كانوا أحسن منكم ردّاً، ما أتيت على قول الله ﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ إلاّ قالوا: ولا بشيءٍ من نعمك ربّنا نكذِّب، فلك الحمد، ولك الشكر»[(١)].

وكرّرت هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرّة: ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم؛ ثمّ: سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار، وشدائدها على عدد أبواب جهنّم؛ وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنّتين وأهلهما على عدد أبواب الجنّة، وثمانية أخرى بعدها للجنّتين اللتين دونهما. فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها فتحت له أبواب الجنّة، وغلقت عنه أبواب جهنّم.

* * *

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢ / ٤٧٣) وصححه، ووافقه الذهبي.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾

---

١ ـ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ قامت القيامة. وقيل: وصفت بالوقوع؛ لأنّها تقع لا محالة. فكأنّه قيل: إذا وقعت لا بدّ من وقوعها. ووقوع الأمر: نزوله. يقال: وقع ما كنت أتوقّعه. أي: نزل ما كنت أترقّب نزوله. وانتصاب ﴿إذا﴾ بإضمار اذكر.

٢ ـ ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ نفس ﴿كاذبة﴾. أي: لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله، وتكذب في تكذيب الغيب؛ لأنّ كلّ نفس حينئذٍ مؤمنةٌ صادقةٌ مصدّقة، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذّبات. واللام مثلها في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

٣ ـ ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي: هي ﴿خافضة رافعة﴾ ترفع أقواماً وتضع آخرين.

٤ ـ ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ حرّكت تحريكاً شديداً حتّى يتهدّم كلُّ شيءٍ فوقها من جبلٍ وبناء. وهو بدل من ﴿إذا وقعت﴾. ويجوز أن ينتصب بـ ﴿خافضة رافعة﴾. أي: تخفض وترفع وقت رجّ الأرض، وبسّ الجبال.

وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ
ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ
ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ
ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾

٥ ـ ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ وفتّتت حتّى تعود كالسويق. أو: سيقت. من: بَسَّ الغنم: إذا ساقها كقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: ٢٠].

٦ ـ ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً﴾ غباراً ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ متفرّقاً.

٧ ـ ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً. يقال للأصناف التي بعضها من بعض أو يذكر بعضها مع بعض: أزواج ﴿ثَلَٰثَةً﴾ صنفان في الجنّة، وصنف في النار. ثمّ فسّر الأزواج فقال:

٨ ـ ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ. وهم الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ وخبر. وهما خبر المبتدأ الأوّل. وهو تعجيب من حالهم في السعادة، وتعظيم لشأنهم. كأنّه قال: ما هم؟ وأيّ شيء هم؟

٩ ـ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم. أو: أصحاب المنزلة السنيّة، وأصحاب المنزلة الدنيّة الخسيسة. من قولك: فلان منّي باليمين، وفلان منّي بالشمال: إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعة. وذلك لتيمّنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل. وقيل: يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين، وبأهل النار ذات الشمال ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: أيّ شيء هم؟ وهو تعجيب من حالهم في الشّقاء.

١٠، ١١ ـ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ خبره. تقديره: ﴿السابقون﴾ إلى الخيرات ﴿السابقون﴾ إلى الجنّات. وقيل: الثاني تأكيد للأوّل. والخبر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ والأوّل أوجه.

١٢ ـ ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: هم ﴿في جنّات النعيم﴾.

١٣، ١٤ ـ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ أي: هم ﴿ثلّة﴾. والثلّة: الأمّة من الناس الكثيرة. والمعنى: أنّ السابقين كثير ﴿من الأولين﴾ وهم الأمم

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾
بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

من لدن آدم إلى نبينا محمد عليهما السلام ﴿وقليل من الآخرين﴾ وهم أمّة محمّد ﷺ. وقيل: ﴿من الأوّلين﴾ من متقدّمي هذه الأمّة، و﴿من الآخرين﴾ من متأخّريها. وعن النبي ﷺ: «الثلّتان جميعاً من أمّتي»[1].

١٥ ـ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير؛ ككثيب، وكثب ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ مرمولة، منسوجة بالذهب، مشبّكة بالدرّ والياقوت.

١٦ ـ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضمير في ﴿على﴾ وهو العامل فيها. أي: استقرّوا عليها ﴿متكئين﴾ ﴿عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ ينظر بعضهم في وجوه بعض، ولا ينظر بعضهم في أقفاء بعض. وصفوا بحسن العشرة، وتهذيب الأخلاق، وصفاء المودّة. و﴿متقابلين﴾ حال أيضاً.

١٧ ـ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يخدمهم ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ غلمان. جمع: وليد ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ مُبَقَّوْنَ أبداً على شكل الولدان، لا يتحوّلون عنه. وقيل: مقرَّطون. والخُلَدَةُ: القرط. قيل: هم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيّئات فيعاقبوا عليها. وفي الحديث: «أولاد الكفّار خدّام أهل الجنة»[2].

١٨ ـ ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب. وهي: آنية لا عروة لها، ولا خرطوم ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق. وهو: ما له خرطوم، وعروة ﴿وَكَأْسٍ﴾ وقدح فيه شراب، وإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ من خمرٍ تجري من العيون.

١٩ ـ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: بسببها. وحقيقته: لا يصدر صداعهم عنها. أو: لا يفرّقون عنها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ ولا يسكرون. نُزِفَ الرجل: ذهب عقله بالسكر ﴿ولا ينزِفون﴾ بكسر الزاي: كوفيٌّ. أي: لا ينفد شرابهم. يقال: أنزف القوم: إذا فني شرابهم.

---

(١) رواه الطبري وابن عدي. (حاشية الكشاف ٤/٤٥٨).
(٢) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢١٧٢) وانظر مجمع الزوائد (٧/٢١٩).

وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ
ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا
سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾
وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾

٢٠ ـ ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يأخذون خيره وأفضله.

٢١ ـ ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يتمنّون.

٢٢، ٢٣ ـ ﴿وَحُورٌ﴾ جمع حوراء ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء. أي: ﴿و﴾ فيها ﴿حور عين﴾ أو ﴿و﴾ لهم ﴿حور عين﴾. ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿ولدان﴾. و﴿حورٍ﴾ يزيد، وحمزة، وعليٌّ عطفاً على ﴿جنّات النعيم﴾ كأنّه قال: هم في جنّات وفاكهة ولحم وحور ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ﴾ في الصفاء، والنقاء ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾ المصون. وقال الزجّاج: كأمثال الدرِّ حين يخرج من صدفه، لم يغيّره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال.

٢٤ ـ ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جزاءً﴾: مفعول له. أي: يفعل بهم ذلك كلّه لجزاء أعمالهم. أو: مصدر. أي: يجزون ﴿جزاء﴾.

٢٥، ٢٦ ـ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنات ﴿لَغْوًا﴾ باطلاً ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ هذياناً ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ إلاّ قولاً ذا سلامة. والاستثناء منقطع. و﴿سلاماً﴾ بدل من ﴿قيلاً﴾ أو مفعول به لـ﴿قيلاً﴾. أي: ﴿لا يسمعون فيها﴾ إلاّ أن يقولوا ﴿سلاماً سلاماً﴾. والمعنى: أنّهم يفشون السلام بينهم، فيسلمون سلاماً بعد سلام.

٢٧، ٢٨ ـ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ السدر: شجر النبق. والمخضود: الذي لا شوك له؛ كأنّما خضد شوكه.

٢٩ ـ ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلح: شجر الموز. والمنضود: الذي نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه، فليست له ساق بارزة.

٣٠ ـ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ممتدّ منبسط كظلّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾

٣١ ـ ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ جارٍ بلا حدٍّ ولا خدٍّ. أي: يجري على الأرض في غير أخدود.

٣٢، ٣٣ ـ ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي: كثيرة الأجناس ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ لا تنقطع في بعض الأوقات كفواكه الدنيا، بل هي دائمة ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ لا تمنع عن متناولها بوجه. وقيل: ﴿لا مقطوعة﴾ بالأزمان، ﴿ولا ممنوعة﴾ بالأثمان.

٣٤، ٣٨ ـ ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر. أو: نضدت حتّى ارتفعت. أو: ﴿مرفوعة﴾ على الأسرّة. وقيل: هي النساء؛ لأن المرأة يكنى عنها بالفراش. ﴿مرفوعة﴾ على الأرائك. قال الله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦] ويدلّ عليه قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ ابتدأنا خلقهنّ ابتداء من غير ولادة. فإمّا أن يراد: اللاتي ابتدىء إنشاؤهنّ، أو: اللاتي أعيد إنشاؤهنّ. وعلى غير هذا التأويل أضمر لهنّ؛ لأنّ ذكر الفرش ـ وهي المضاجع ـ دلّ عليهنّ ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ عذارى، كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكاراً ﴿عُرُبًا﴾ حمزة، وخلف، ويحيى، وحماد. جمع: عروب، وهي: المتحبّبة إلى زوجها، الحسنة التبعّل ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات في السنّ، بنات ثلاث وثلاثين، وأزواجهنّ كذلك. واللام في: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ من صلة ﴿أنشأنا﴾

٣٩، ٤٠ ـ ﴿ثُلَّةٌ﴾ أي: أصحاب اليمين ثلّة ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾. فإن قلت: كيف قال قبل هذا: ﴿وقيل من الآخرين﴾ ثمّ قال هنا: ﴿وثلة من الآخرين﴾؟ قلت: ذاك في السابقين، وهذا في أصحاب اليمين، وأنهم يتكاثرون من الأوّلين والآخرين جميعاً. وعن الحسن: سابقو الأمم أكثر من سابقي أمّتنا، وتابعو الأمم مثل تابعي هذه الأمّة.

٤١ ـ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ الشمال والمشأمة واحدة.

فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

٤٢ ـ ﴿فِي سَمُومٍ﴾ في حرّ نار تنفذ في المسامّ ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وماء حارّ متناهي الحرارة.

٤٣ ـ ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ من دخان أسود.

٤٤ ـ ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ نفي لصفتي الظلّ عنه؛ يريد أنّه ظلّ، ولكن لا كسائر الظلال. سمّاه ظلاًّ، ثمّ نفى عنه برد الظلّ ورَوْحَه ونفعه من يأوي إليه من أذى الحرّ ـ وذلك كرمه ـ ليمحق ما في مدلول الظلّ من الاسترواح إليه. والمعنى: أنّه ظِلٌّ حارّ ضارّ.

٤٥، ٤٦ ـ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ منعّمين. فمنعهم ذلك عن الانزجار، وشغلهم عن الاعتبار ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ يداومون ﴿عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ أي: على الذنب العظيم. أو: على الشرك؛ لأنه نقض عهد الميثاق. والحنث: نقض العهد المؤكّد باليمين. أو: الكفر بالبعث. بدليل قوله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

٤٧ ـ ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تقديره: ﴿أ﴾ نبعث ﴿إذا متنا﴾. وهو العامل في الظرف. وجاز حذفه؛ إذ ﴿مبعوثون﴾ يدلّ عليه. ولا يعمل فيه ﴿مبعوثون﴾؛ لأنّ ﴿إنّ﴾ والاستفهام يمنعان أن يعمل ما بعدهما فيما قبلهما.

٤٨ ـ ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف. وحسن العطف على المضمر في: ﴿لمبعوثون﴾ من غير تأكيدٍ بنحن، للفاصل الذي هو الهمزة، كما حسن في قوله: ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ لفصل لا المؤكدة للنفي ﴿أَوْ آباؤنا﴾ مدنيٌّ، وشاميٌّ.

٤٩، ٥٠ ـ ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى ما وُقّت

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾
فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ
فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾

به الدنيا من يوم معلوم. والإضافة بمعنى: مِنْ؛ كخاتم فضّة. والميقات: ما وقّت به الشيء. أي: حدّ. ومنه: مواقيت الإحرام. وهي: الحدود التي لا يجاوزها من يريد دخول مكّة إلاّ محرماً.

٥١ ـ ٥٥ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن الهدى ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث، وهم أهل مكّة ومَنْ في مثل حالهم ﴿لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ﴾، ﴿من﴾: لابتداء الغاية ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾، ﴿من﴾: لبيان الشجر ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ ـ أنّث ضمير الشجر على المعنى، وذكّره على اللفظ في ﴿منها﴾ و﴿عليه﴾ ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ﴾ بضمّ الشين مدنيّ، وعاصم، وحمزة، وسهل. وبفتح الشين غيرهم. وهما مصدران ﴿ٱلْهِيمِ﴾ هي إبل عطاش لا تَروَى. جمع: أهيم وهيماء. والمعنى: أنه يسلّط عليهم من الجوع ما يضطرّهم إلى أكل الزقّوم الذي هو كالمهل. فإذا ملؤوا منه البطون؛ سُلِّطَ عليهم من العطش ما يضطرّهم إلى شرب الحميم الذي يُقَطِّع أمعاءهم، فيشربونه شرب الهيم. وإنّما صحّ عطف الشاربين على الشاربين ـ وهما لذوات متّفقة وصفتين مختلفتين؛ لأنّ كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما يشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً. فكانتا صفتين مختلفتين.

٥٦ ـ ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ هو الرزق الذي يعدّ للنازل تكرمةً له ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء.

٥٧ ـ ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا﴾ فهلاّ ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ تحضيض على التصديق إمّا بالخلق؛ لأنّهم وإن كانوا مصدّقين به إلاّ أنّه لمّا كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنّهم يُكذِّبون به؛ وإمّا بالبعث؛ لأنّ من خلق أوّلاً لم يمتنع عليه أن يخلق ثانياً.

٥٨ ـ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ ما تمنونه؛ أي: تقذفونه في الأرحام من النطف.

ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾

٥٩ ـ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ تقدّرونه، وتصوّرونه، وتجعلونه بشراً سويّاً ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾.

٦٠ ـ ٦٢ ـ ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ تقديراً، وقسمناه عليكم قسمةَ الأرزاق على اختلافٍ وتفاوتٍ؛ كما تقتضيه مشيئتنا. فاختلفت أعماركم من قصير، وطويل، ومتوسّط. ﴿قدرنا﴾ بالتخفيف مكيٌّ. سبقته بالشيء: إذا أعجزته عنه، وغلبته عليه، فمعنى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أنّا قادرون على ذلك لا تغلبونني عليه. و﴿أمثالكم﴾ جمع: مِثْل؛ أي: ﴿على أن نبدّل﴾منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ـ ﴿و﴾ على أن ﴿ننشئكم في﴾ خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها. يعني: أنا نقدر على الأمرين جميعاً على خلق ما يماثلكم، وما لا يماثلكم. فكيف نعجز عن إعادتكم؟ ويجوز أن يكون ﴿أمثالكم﴾ جمع مِثْل؛ أي: ﴿على أن نبدّل﴾ ونغيّر صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم، وننشئكم في صفات لا تعلمونها ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿النشاءة﴾ مكيٌّ، وأبو عمرو ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ من قدر على شيءٍ مرّةً لم يمتنع عليه ثانياً. وفيه دليل صحّة القياس؛ حيث جهّلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى.

٦٣ ـ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ ما تحرثونه من الطعام؛ أي: تثيرون أرضه، وتلقون فيها البَذْرَ.

٦٤ ـ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تنبتونه وتردّونه نباتاً ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبتون. وفي الحديث: «لا يقولنّ أحدكم: زرعت، وليقل: حرثت»[1].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٧٢٣) والبزار كما في كشف الأستار (١٢٨٩) والبيهقي (٦/ ١٣٨) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٦٧).

لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾
أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ
جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

٦٥ ـ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ هشيماً متكسّراً قبل إدراكه ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تَعَجَّبُون، أو تندمون على تعبكم فيه وإنفاقكم عليه، أو على ما اقترفتم من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها.

٦٦، ٦٧ ـ ﴿إِنَّا﴾ أي: تقولون: ﴿إنّا﴾ ـ ﴿أئنا﴾ أبو بكر ـ ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ لملزمون غرامةَ ما أنفقنا. أو مهلكون لهلاك رزقنا. من: الغرام، وهو: الهلاك، ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قومٌ ﴿مَحْرُومُونَ﴾ محارفون، محدودون، لا مجدودون، لا حظّ لنا، ولا بخت لنا. ولو كنّا مجدودين لما جرى علينا هذا.

٦٨، ٦٩ ـ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ أي: الماء العذب الصالح للشرب ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ السحاب الأبيض، وهو أعذب ماء ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ بقدرتنا؟

٧٠ ـ ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا﴾ ملحاً، أو: مرّاً لا يُقْدَر على شربه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فهلّا ﴿تشكرون﴾. ودخلت اللام على جواب ﴿لو﴾ في قوله: ﴿لجعلناه حطاماً﴾ ونزعت منه هنا؛ لأنّ ﴿لو﴾ لمّا كانت داخلة على جملتين معلّقة ثانيتهما بالأولى تعلّق الجزاء بالشرط ولم تكن مُخْلَصَةً للشرط كإن، ولا عاملة مثلها، وإنّما سرى فيها معنى الشرط اتّفاقاً من حيث إفادتها في مضموني جملتيها: أنّ الثاني امتنع لامتناع الأوّل، افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علماً على هذا التعلّق فزيدت هذه اللام لتكون علماً على ذلك، ولمّا شهر موقعه لم يبال بإسقاطه عن اللفظ لعلم كلّ أحد به، وتساوي حالي حذفه وإثباته، على أنّ تقدّم ذكرها والمسافة قصيرةٌ مغنٍ عن ذكرها ثانية، ولأنّ هذه اللام تفيد معنى التأكيد لا محالة، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب؛ للدلالة على أنّ أمر المطعوم مقدّم على أمر المشروب، وأنّ الوعيد بفقده أشدّ وأصعب من قِبَل: أنّ المشروب إنّما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم، ولهذا قدّمت آية المطعوم على آية المشروب.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾

٧١ ـ ٧٣ ـ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ تقدحونها، وتستخرجونها من الزناد ـ والعرب تقدح بعودين تحكّ أحدهما على الآخر، ويسمّون الأعلى: الزند، والأسفل: الزندة، شبّهوهما بالفحل والطروقة ـ ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ التي منها الزناد ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ الخالقون لها ابتداء ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾ أي: النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ تذكيراً لنار جهنّم، حيث علّقنا بها أسباب المعاش، وعمّمنا بالحاجة إليها البلوى؛ لتكون حاضرةً للناس ينظرون إليها، ويذكرون ما أوعدوا به ﴿وَمَتَٰعًا﴾ ومنفعةً ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ للمسافرين النازلين في القَواء، وهي: القفر. أو: للذين خلت بطونهم، أو مزاودهم من الطعام. من قولهم: أقوت الدار إذا خلت من ساكنيها. بدأ بذكر خلق الإنسان فقال: ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ لأنّ النعمة فيه سابقة على جميع النعم. ثمّ بما به قوامه، وهو: الحبّ، فقال: ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ ثمّ بما يعجن به ويشرب عليه، وهو: الماء، ثمّ بما يخبز به، وهو: النار. فحصول الطعام بجموع الثلاثة، ولا يستغني عنه الجسد مادام حيّاً.

٧٤ ـ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فنزّه ربّك عمّا لا يليق به أيّها المستمع المستدلّ. أو أراد بالاسم: الذكر. أي: ﴿فسبّح﴾ بذكر ﴿ربّك العظيم﴾ صفة للمضاف، أو للمضاف إليه. وقيل: قل: سبحان ربّي العظيم. وجاء مرفوعاً: أنّه لمّا نزلت هذه الآية قال: «اجعلوها في ركوعكم»(١).

٧٥ ـ ٧٧ ـ ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي: فأقسم و﴿لا﴾ مزيدة مؤكّدة، مِثْلُها في قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩] وقرىء (فلا قسم) ومعناه: فلأنا أقسم. اللام لام الابتداء أُدخلت على جملة من مبتدأ وخبر، وهي: أنا أقسم ثمّ حذف المبتدأ. ولا يصحّ أن تكوّن اللام لام القسم؛ لأنّ حقّها أن تقرن بها النون المؤكّدة ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ بمساقطها ومغاربها ﴿بموقع﴾ حمزة،

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٥٥) وأبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) والدارمي (١/ ٢٩٩).

وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

وعليٍّ. ولعلّ الله تعالى في آخر الليل إذا انحطّت النجوم إلى المغرب أفعالاً مخصوصة عظيمة، أو: للملائكة عباداتٍ موصوفة، أو: لأنّه وقت قيام المتهجّدين، ونزول الرحمة والرضوان عليهم، فلذلك أقسم بمواقعها، واستعظم ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وهو اعتراض في اعتراض؛ لأنه اعترض به بين القسم والمقسم عليه. وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ حسن مرضيّ، أو نفّاع جمّ المنافع. أو ﴿كريم﴾ على الله، واعترض بـ ﴿لو تعلمون﴾ بين الموصوف وصفته.

٧٨ ـ ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿مَّكْنُونٍ﴾ مصون عن أن يأتيه الباطل. أو من غير المقرّبين من الملائكة لا يطّلع عليه مَنْ سواهم.

٧٩ ـ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ من جميع الأدناس؛ أدناس الذنوب وغيرها إن جعلت الجملة صفة لكتاب مكنون، وهو اللوح. وإن جعلتها صفة للقرآن فالمعنى: لا ينبغي أن يمسّه إلّا من هو على الطهارة من الناس، والمراد: مسّ المكتوب منه.

٨٠ ـ ﴿تَنزِيلٌ﴾ صفة رابعة للقرآن. أي: مُنَزَّلٌ ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. أو: وصف بالمصدر؛ لأنّه نزل نجوماً من بين سائر كتب الله، فكأنّه في نفسه تنزيل. ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه. فقيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل. أو: هو ﴿تنزيل﴾ على حذف المبتدأ.

٨١ ـ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ متهاونون به؛ كمن يدهن في بعض الأمر، أي: يلين جانبه، ولا يتصلّب فيه تهاوناً به.

٨٢ ـ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تجعلون شكر رزقكم التكذيب، أي: وضعتم التكذيب موضع الشكر. وفي قراءة عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ وهي[1]

(١) في الكشاف: وقيل: هي. الكشاف (٤/٥٩).

فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾

قراءة رسول الله ﷺ ـ (وتجعلون شكركم أنّكم تكذّبون) أي: (تجعلون شكركم) لنعمة القرآن ﴿أنكم تكذّبون﴾ به. وقيل: نزلت في الأنواء، ونسبتهم السقيا إليها. والرزق: المطر. أي: ﴿وتجعلون﴾ شكر ما يرزقكم الله من الغيث ﴿أنّكم تكذّبون﴾ بكونه من الله حيث تنسبونه إلى النجوم.

٨٣ ـ ٨٧ ـ ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس، أي: الروح عند الموت ﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾ ممر الطعام والشراب ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ الخطاب لمن حضر الميّت تلك الساعة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ إلى المحتضر ﴿مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ لا تعقلون ولا تعلمون ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ مربوبين. من: دان السلطان الرعيّة: إذا ساسهم ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ تردّون النفس، وهي الروح إلى الجسد بعد بلوغ الحلقوم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنّكم غير مربوبين مقهورين. ﴿فلولا﴾ في الآيتين للتحضيض يستدعي فعلاً، وذا قوله: ﴿ترجعونها﴾ واكتفى بذكره مرّة. وترتيب الآية ﴿فلولا﴾ ترجعونها ﴿إذا بلغت الحلقوم﴾ إن كنتم غير مدينين. و﴿فلولا﴾ الثانية مكرّرة للتأكيد. ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ ياأهل الميّت بقدرتنا وعلمنا، أو بملائكة الموت. والمعنى: أنّكم في جحودكم آيات الله في كلّ شيء: إن أنزل عليكم كتاباً معجزاً قلتم: سحرٌ وافتراءٌ، وإن أرسل إليكم رسولاً صادقاً قلتم: ساحرٌ كذّابٌ، وإن رزقكم مطراً يحييكم به قلتم: صدق نوء كذا؛ على مذهبٍ يؤدّي إلى الإهمال والتعطيل. فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثمّة قابض، وكنتم صادقين في تعطيلكم، وكفركم بالمحيي، المميت، المبدىء، المعيد؟!

٨٨، ٨٩ ـ ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ من السابقين من الأزواج الثلاثة المذكورة في أوّل السورة ﴿فَرَوْحٌ﴾ فله استراحة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ ورزق ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

٩٠، ٩١ ـ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي:

وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿فسلامٌ لك﴾ ياصاحب اليمين ﴿من﴾ إخوانك ﴿أصحاب اليمين﴾ أي: يسلّمون عليك؛ كقوله: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦].

٩٢ ـ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ هم الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، وهم الذين قيل لهم في هذه السورة: ﴿ثمّ إنّكم أيّها الضالّون المكذّبون﴾.

٩٣، ٩٤ ـ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: إدخال فيها. وفي هذه الآيات إشارة إلى أنّ الكفر كلّه ملّةٌ واحدةٌ، وأنّ أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين؛ لأنّهم غير مكذّبين.

٩٥، ٩٦ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي أنزل في هذه السورة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: الحقّ الثابت من اليقين، ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وروي: أنّ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ دخل على ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في مرض موته فقال له: ما تشتكي؟ فقال: ذنوبي. فقال: ما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي. قال: أفلا ندعو الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. فقال: ألا نأمر بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه. قال: ندفعه إلى بناتك. قال: لا حاجة لهنّ فيه. قد أمرتهنّ أن يقرأن سورة الواقعة. فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة في كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبداً»[1]. وليس في هذه السور الثلاث ذكر الله (اقتربت، الرحمن، الواقعة)[2].

* * *

(١) رواه ابن الضريس في فضائل القرآن رقم (٢٢٦) والحارث بن أبي أسامة كما في المطالب العالية (٣/ ٣٨٣).

(٢) أي: لفظ الجلالة (الله) لم يرد في هذه السور الثلاث المذكورة.



بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ

---

١ ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ جاء في بعض الفواتح ﴿سبّح﴾ بلفظ الماضي، وفي بعضها بلفظ المضارع، وفي بني إسرائيل بلفظ المصدر، وفي الأعلى بلفظ الأمر، استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها. وهي أربع: المصدر، والماضي، والمضارع، والأمر. وهذا الفعل قد عدّي باللام تارة، وبنفسه أخرى في قوله: ﴿وتسبّحوه﴾. وأصله: التعدّي بنفسه؛ لأنّ معنى سبحته: بعّدته عن السوء، منقول من سَبَحَ: إذا ذهب وبعد. فاللام إمّا أن تكون مثل اللام في: نصحته، ونصحت له، وإمّا أن يراد بـ ﴿سبّح لله﴾ اكتسب التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصاً ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما يتأتى منه التسبيح ويصح ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنتقم من مكلّف لم يسبّح له عناداً، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في مجازاة من سبّح له انقياداً.

٢ ـ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا لغيره. وموضع ﴿يُحْيِي﴾ رفع. أي: هو ﴿يحيي﴾ الموتى ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء. أو: نصب؛ أي: ﴿له ملك السموات والأرض﴾ محيياً، ومميتاً ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٣ ـ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ هو القديم الذي كان قبل كلّ شيء ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي يبقى

وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ

بعد هلاك كلّ شيءٍ ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بالأدلّة الدالّة عليه ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ لكونه غير مدرك بالحواسّ وإن كان مرئيّاً. والواو الأولى معناها: الدلالة على أنّه الجامع بين الصفتين الأوّليّة والآخريّة، والثالثة على أنّه الجامع بين الظهور والخفاء، وأمّا الوسطى فعلى أنّه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الأخريين. فهو المستمرُّ الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية. وهو في جميعها ظاهر وباطن. وقيل: ﴿الظاهر﴾: العالي على كلّ شيءٍ، الغالب له، من: ظهر عليه: إذا علاه وغلبه ﴿والباطن﴾: الذي بطن كلّ شيءٍ؛ أي: علم باطنه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٤ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عن الحسن: «من أيّام الدنيا». ولو أراد أن يجعلها في طرفة عين لفعل، ولكن جعل الستّة أصلاً؛ ليكون عليها المدار ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ استولى ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما يدخل في الأرض من البذر، والقطر، والكنوز، والموتى ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات وغيره ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الملائكة والأمطار ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الأعمال والدعوات ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ بالعلم والقدرة عموماً، وبالفضل والرحمة خصوصاً ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على حسب أعمالكم.

٥، ٦ ـ ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ * يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ يدخل الليل في النهار، بأن ينقص من الليل، ويزيد في النهار ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

٧ ـ ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟﴾ يحتمل الزكاة، والإنفاق في سبيل الله ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني: أنّ الأموال التي في أيديكم إنّما هي أموال الله

فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

بخلقه وإنشائه لها. وإنما موّلكم إيّاها للاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء في التصرّف فيها. فليست هي بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلاّ بمنزلة الوكلاء والنوّاب، فأنفقوا منها في حقوق الله، ولْيَهُنْ عليكم الإنفاق منها، كما يهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه. أو: ﴿جعلكم مستخلفين﴾ ممن كان قبلكم بتوريثه إيّاكم، وسينتقل منكم إلى من بعدكم، فاعتبروا بحالهم ولا تبخلوا به ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

٨ ـ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ هو حال من معنى الفعل في ﴿مالكم﴾ كما تقول: مالك قائماً؟ بمعنى: ما تصنع قائماً؟ أي: ﴿ومالكم﴾ كافرين بالله. والواو في ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ واو الحال. فهما حالان متداخلتان. والمعنى: وأيّ عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم ﴿لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ ﴿و﴾ قبل ذلك ﴿قد أخذ﴾ الله ﴿ميثاقكم﴾ بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. أو بما ركّب فيكم من العقول، ومكّنكم من النظر في الأدلّة. فإذا لم تبق لكم علّة بعد أدلّة العقول، وتنبيه الرسول، فمالكم لا تؤمنون ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما؟ فإن هذا الموجب لا مزيد عليه. ﴿أُخِذ ميثاقُكم﴾ أبو عمرو.

٩ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ محمد ﷺ ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني: القرآن ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ الله تعالى أو: محمّد بدعوته ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ﴾ بالمدّ والهمزة، حجازيّ، وشاميّ، وحفص ﴿رَّحِيمٌ﴾ الرأفة: أشدّ الرحمة.

١٠ ـ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ﴾ في ألا تنفقوا ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يرث كل شيءٍ فيهما، لا يبقى منه باقٍ لأحدٍ من مالٍ وغيره. يعني: وأيُّ

لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن
بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم

غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله، والجهاد مع رسوله، والله مهلككم، فوارث أموالكم. وهو من أبلغ البعث في الإنفاق في سبيل الله. ثمّ بيّن التفاوت بين المنفقين منهم فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ أي: فتح مكّة قبل عزّ الإسلام وقوّة أهله، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، ومن أنفق من بعد الفتح. فحذف، لأنّ قوله: ﴿من الذين أنفقوا من بعد﴾ يدلّ عليه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح ـ ﴿و﴾ هم ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] الذين قال فيهم النبيّ ﷺ: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»[١] ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا﴾ أي: كلّ واحدٍ من الفريقين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنّة مع تفاوت الدرجات. فـ: ﴿كلاًّ﴾ مفعول أوّل لوعد. و﴿الحسنى﴾ مفعول ثانٍ. ﴿وكلٌّ﴾ شاميّ. أي: ﴿وكل﴾ وعده ﴿الله الحسنى﴾: قيل: نزلت في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لأنّه أوّل من أسلم، وأوّل من أنفق في سبيل الله. وفيه دليل على فضله وتقدّمه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم على قدر أعمالكم.

١١ ـ ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بطيب نفسه. والمراد: الإنفاق في سبيله. واستعير لفظ القرض ليدلّ على التزام الجزاء ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ أي: يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً أضعافاً من فضله ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف ﴿كريم﴾ في نفسه ﴿فيضعّفُهُ﴾ مكّيّ ﴿فيضعّفَهُ﴾ شاميّ ﴿فيضاعفَهُ﴾ عاصم، وسهل ﴿فيضاعفُهُ﴾ غيرهم. فالنصب على جواب الاستفهام، والرفع على: فهو يضاعفه، أو عطف على ﴿يقرض﴾.

١٢ ـ ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظرف لقوله: ﴿وله أجر كريم﴾ أو: منصوب بإضمار «اذكر» تعظيماً لذلك اليوم ﴿يَسْعَىٰ﴾ يمضي ﴿نُورُهُم﴾ نور

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠).

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ
ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ
ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ

التوحيد والطاعات. وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأنّ السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين؛ كما أنّ الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم، فيجعل النور في الجهتين شعاراً لهم، وآية؛ لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا، وبصحائفهم البيض أفلحوا، فإذا ذهب بهم إلى الجنّة ومرّوا على الصراط يسعون، سَعَى بسعيهم ذلك النور، وتقول لهم الملائكة: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ أي: دخول جنّات؛ لأنّ البشارة تقع بالأجداث دون الجثث ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

١٣ ـ ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ هو بدل من ﴿يوم ترى﴾ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ انتظرونا؛ لأنّه يُسْرَع بهم إلى الجنّة كالبروق الخاطفة ﴿أَنظِرونا﴾ حمزة، من: النَّظِرة، وهي الإمهال، جُعِلَتْ اتئادهم في المضيِّ إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ نُصِبْ منه، وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به ﴿قِيلَ: ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ طرد لهم وتهكّم بهم. أي: تقول لهم الملائكة، أو: المؤمنون ﴿ارجعوا﴾ إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور، فالتمسوا هنالك، فمن ثمّ يقتبس. أو: ﴿ارجعوا﴾ إلى الدنيا ﴿فالتمسوا نوراً﴾ بتحصيل سببه، وهو الإيمان ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ بحائط حائل بين شقّ الجنّة وشقّ النار ـ قيل: هو الأعراف ـ ﴿لَّهُۥ﴾ لذلك السور ﴿بَابٌۢ﴾ لأهل الجنّة يدخلون منه ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ باطن السور، أو الباب، وهو الشقّ الذي يلي الجنّة ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ أي: النور، أو الجنّة ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ ما ظهر لأهل النار ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ من عنده، ومن جهته ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ أي: الظلمة، أو: النار.

١٤ ـ ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يريدون مرافقتهم في الظاهر ﴿قَالُوا۟﴾ أي: المؤمنون ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ وشككتم في

وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ

التوحيد ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ طول الآمال، والطمع في امتداد الأعمار ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وغرّكم الشيطان بأنّ الله عفوّ كريم، لا يعذّبكم، أو: بأنه: لا بعث ولا حساب.

١٥ ـ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ﴾ وبالتاء شاميٌّ. ﴿مِنكُمْ﴾ أيّها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾ ما يفتدى به ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ﴾ مرجعكم ﴿ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ هي أولى بكم، وحقيقة ﴿مولاكم﴾ مَحْراكم؛ أي: مكانكم الذي يقال فيه: هو أولى بكم؛ كما يقال: هو مئنّة للكرم؛ أي: مكان؛ لقول القائل: إنه لكريم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار.

١٦ ـ ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ من: أنى الأمر، يأني: إذا جاء إناه. أي: وقته. قيل: كانوا مجدبين بمكة، فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة، ففتروا عما كانوا عليه. فنزلت. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلاّ أربع سنين. وعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: إنّ هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة، فبكوا بكاءً شديداً. فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بالتخفيف: نافع، وحفص. الباقون ﴿نزّل﴾. و﴿ما﴾ بمعنى الذي. والمراد بالذكر ﴿وما نزل من الحقّ﴾: القرآن؛ لأنّه جامع للأمرين للذكر والموعظة، وأنّه حق نازل من السماء ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾[1] القراءة بالياء عطف على ﴿تخشع﴾. وبالتاء: رويسٌ على الالتفات. ويجوز أن يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبّخوا. وذلك: أنّ بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة

---

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: (ولا تكونوا) بالتاء، وهي قراءة: رويس وغيره.

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾

والإنجيل خشعوا لله ورقّت قلوبهم، فلمّا طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة، واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ الأجل أو الزمان ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ باتّباع الشهوات ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم، رافضون لما في الكتابين. أي: وقليل منهم مؤمنون.

١٧ ـ ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قيل: هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب، وأنّه يحييها كما يحيي الغيث الأرض.

١٨ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾[1] بتشديد الدال وحده، مكيٌّ، وأبو عمرو. وهو اسم فاعل من: صدّق، وهم الذين صدّقوا الله ورسوله.. يعني: المؤمنين. الباقون: بتشديد الدّال والصّاد وهو اسم فاعل من: تصدّق، فأدغمت التاء في الصاد، وقرىء على الأصل ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ هو عطف على معنى الفعل في ﴿المصّدّقين﴾ لأن اللام بمعنى الذين، واسم الفاعل بمعنى الفعل، وهو: اصّدّقوا. كأنّه قيل: ﴿إنّ﴾ الذين اصّدّقوا ﴿وأقرضوا﴾. والقرض الحسن: أن يتصدّق من الطيب عن طيبة النفس، وصحّة النّية على المستحق للصدقة ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ ﴿يُضعّف﴾ مكّيّ، وشاميّ ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: الجنة.

١٩ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يريد: أنّ المؤمنين بالله ورسله عند الله بمنزلة الصدّيقين والشهداء، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستُشهدوا في سبيل الله. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: مثل أجر الصدّيقين والشهداء، ومثل نورهم. ويجوز أن يكون ﴿والشهداء﴾ مبتدأ و﴿لهم

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿المصدّقين﴾. وهي قراءة: من ذكر وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨٦/٧ ـ ٨٧).

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

أجرهم﴾: خبره ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٢٠ ـ ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ كلعب الصبيان، ﴿وَلَهْوٌ﴾ كلهو الفتيان، ﴿وَزِينَةٌ﴾ كزينة النسوان، ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ كتفاخر الأقران، ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ كتكاثر الدّهقان ﴿فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي: مباهاة بهما ـ والتكاثر: ادّعاء الاستكثار ـ ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد خضرته ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ متفتتاً. شبه حال الدنيا وسرعة تقضّيها مع قلّة جدواها بنباتٍ أنبته الغيث، فاستوى، وقوي، وأُعجِبَ به الكفّار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات. فبعث عليه العاهة، فهاج، واصفرّ، وصار حطاماً، عقوبةً لهم على جحودهم، كما فعل بأصحاب الجنّة. وقيل: الكفّار: الزرّاع ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكفّار ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ للمؤمنين. يعني: أنّ الدنيا ليست إلاّ من محقّرات الأمور. وهي: اللعب، واللهو، والزينة، والتفاخر، والتكاثر. وأما الآخرة فما هي إلاّ أمور عظام. وهي: العذاب الشديد، والمغفرة والرضوان من الله الحميد. والكاف في ﴿كمثل غيث﴾ في محلّ رفع على أنّه خبر بعد خبر. أي: الحياة الدنيا مثل غيث ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ لمن ركن إليها، واعتمد عليها. قال ذو النون: يا معشر المريدين لا تطلبوا الدنيا، وإن طلبتموها فلا تحبّوها؛ فإنّ الزاد منها، والمقيل في غيرها.

٢١ ـ ولمّا حقر الدنيا وصغّر أمرها، وعظّم أمر الآخرة، بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك، وهي: المغفرة المنجية من العذاب الشديد، والفوز بدخول الجنّة، بقوله: ﴿سَابِقُوٓا﴾ أي: بالأعمال الصالحة ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وقيل: سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال السدّي: كعرض سبع السموات وسبع الأرضين.

أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ

وذكر العرض دون الطول؛ لأنّ كلّ ما له عرض وطول فإنّ عرضه أقلّ من طوله. فإذا وصف عرضه بالبسطة عرف أنّ طوله أبسط. أو أريد بالعرض البسطة. وهذا ينفي قول من يقول: إنّ الجنة في السماء الرابعة لأنّ التي في إحدى السموات لا تكون في عرض السموات والأرض ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ وهذا دليل على أنها مخلوقة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموعود من المغفرة والجنّة ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ وهم المؤمنون. وفيه دليل: على أنه لا يدخل أحد الجنّة إلاّ بفضل الله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

٢٢ ـ ثمّ بيّن: أن كلّ كائن بقضاء الله وقدره بقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ من الجدب، وآفات الزروع والثمار. وقوله: ﴿في الأرض﴾ في موضع الجرّ، أي: ﴿ما أصاب من مصيبة﴾ ثابتة ﴿في الأرض﴾ ـ ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من الأمراض والأوصاب وموت الأولاد ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ في اللوح ـ وهو في موضع الحال ـ أي: إلاّ مكتوباً ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ من قبل أن نخلق الأنفس ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إنّ تقدير ذلك وإثباته في كتاب ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان عسيراً على العباد.

٢٣ ـ ثمّ علّل ذلك وبيّن الحكمة فيه بقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ تحزنوا حزناً يطغيكم ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الدنيا وسعتها، أو من العافية وصحّتها ﴿وَلَا تَفْرَحُوا﴾ فرح المختال الفخور ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أعطاكم. من: الإيتاء. أبو عمرو: ﴿أتاكم﴾ أي: جاءكم. من: الإتيان. يعني: أنكم إذا علمتم: أنّ كلّ شيء مقدّر مكتوب عند الله قلّ أساكم على الفائت، وفرحكم على الآتي؛ لأنّ من علم: أنّ ما عنده مفقود لا محالة لم يتفاقم جزعه عند فقده؛ لأنه وطّن نفسه على ذلك. وكذلك من علم: أنّ بعض الخير واصل إليه، وأنّ وصوله لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نيله. وليس أحد إلاّ وهو يفرح عند منفعة

وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ

تصيبه، ويحزن عند مضرّة تنزل به، ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكراً، والحزن صبراً. وإنّما يذمّ من الحزن الجزع المنافي للصبر، ومن الفرح الأشر المطغي الملهي عن الشكر ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ لأنّ من فرح بحظٍّ من الدنيا، وعظم في نفسه؛ اختال، وافتخر به، وتكبّر على الناس.

٢٤ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من ﴿كلّ مختال فخور﴾. كأنّه قال: ﴿لا يحب﴾ الذين يبخلون. يريد: الذين يفرحون الفرح المطغي إذا رزقوا مالاً وحظّاً من الدنيا، فَلِحُبِّهم له، وعزّته عندهم يَزْوُونَه عن حقوق الله، ويبخلون به ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ ويحضّون غيرهم على البخل، ويرغّبونهم في الإمساك ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن الإنفاق. وعن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عمّا نهي عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن جميع المخلوقات، فكيف عنه؟ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في أفعاله. (فإن الله الغنيّ) بترك ﴿هو﴾ مدنيّ وشاميّ.

٢٥ ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ يعني: أرسلنا الملائكة إلى الأنبياء ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج المعجزات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الوحي. وقيل: الرسل الأنبياء، والأوّل أولى، لقوله: ﴿معهم﴾؛ لأنّ الأنبياء ينزل عليهم الكتاب ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ روي: أنّ جبريل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح، وقال: مُرْ قومك يزنوا به ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾ ليتعاملوا بينهم إيفاءً واستيفاء ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، ولا يظلم أحدٌ أحداً ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ قيل: نزل آدم من الجنّة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان، والكلبتان، والميقعة، والمطرقة، والإبرة، وروي: ومعه المَرّ والمسحاة. وعن الحسن ﴿وأنزلنا الحديد﴾ خلقناه ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وهو القتال به ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ في مصالحهم، ومعايشهم، وصنائعهم؛ فما من صناعة إلاّ ﴿و﴾ الحديد آلة فيها أو ما يعمل بالحديد ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾

بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا

باستعمال السيوف، والرماح، وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين. وقال الزجاج: ﴿ليعلم الله﴾ من يقاتل مع رسوله في سبيله ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ غائباً عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ يدفع بقوّته، بأس من يعرض عن ملّته ﴿عَزِيزٌ﴾ يربط بعزته جأش من يتعرّض لنصرته.

والمناسبة بين هذه الأشياء الثلاثة: أنّ الكتاب قانون الشريعة ودستور الأحكام والحدود الدينية، يبين سبل المراشد والعهود، ويتضمن جوامع الأحكام والحدود، ويأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن البغي والطغيان، واستعمال العدل والاجتناب عن الظلم إنّما يقع بآلة يقع بها التعامل، ويحصل بها التساوي والتعادل. وهي الميزان. ومن المعلوم: أنّ الكتاب الجامع للأوامر الإلهية، والآلة الموضوعة للتعامل بالسَّوية، إنّما تحفظ العام على اتّباعهما بالسيف، الذي هو حجة الله على من جحد وعند، ونزع عن صفقة الجماعة اليد، وهو الحديد، الذي وصف بالبأس الشديد.

٢٦ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ وخصا بالذكر لأنّهما أبوان للأنبياء ـ عليهم السلام ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أولادهما ﴿ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ الوحي. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الخطّ بالقلم. يقال: كتب كتاباً وكتابة ﴿فَمِنْهُم﴾ فمن الذّرّية أو من المرسل إليهم، وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين ﴿مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ هذا تفصيل لحالهم. أي: ﴿فمنهم﴾ من اهتدى باتّباع الرسل و﴿منهم﴾ من فسق؛ أي: خرج عن الطاعة. والغلبة للفساق.

٢٧ ـ ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: نوح، وإبراهيم، ومن مضى من الأنبياء ﴿بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ مودّةً وليناً ﴿وَرَحْمَةً﴾ تعطّفاً على إخوانهم، كما قال في صفة أصحاب النبيّ ﷺ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ هي ترهبهم في

مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ
وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

الجبال فارّين من الفتنة في الدين، مخلّصين أنفسهم للعبادة. وهي الفَعْلَة المنسوبة إلى الرَهْبان. وهو الخائف. فعلان من: رَهَبَ، كخشيان من: خشي. وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره: ﴿و﴾ ابتدعوا رهبانية ﴿ابتدعوها﴾ أي: خرّجوها من عند أنفسهم ونذروها ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ لم نفرضها نحن عليهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع. أي: ولكنّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان ﴿ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ كما يجب على الناذر رعاية نذره؛ لأنّه عهد مع الله لا يحلُّ نكثه ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى ـ عليه السلام ـ والذين آمنوا بمحمد ﷺ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ كافرون.

٢٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الخطاب لأهل الكتاب ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ بمحمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ الله ﴿كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لإيمانكم بمحمد ﷺ وإيمانكم بمن قبله ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ وهو النور المذكور في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ [الحديد: ١٢] الآية ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٩ ـ ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ ليعلم ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذين لم يسلموا، و﴿لا﴾ مزيدة ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ ﴿أن﴾ مخفّفة من الثقيلة أصله: أنه ﴿لا يقدرون﴾. يعني: أنّ الشأن لا يقدرون ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا ينالون شيئاً ممّا ذكر من فضل الله من الكفلين، والنور، والمغفرة؛ لأنّهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ، فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله، ولم يكسبهم فضلاً قط ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ عطف على ﴿أن لا يقدرون﴾ ـ ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أي: في ملكه وتصرفه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا

١ ـ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ تحاورك. وقرىء بها. وهي: خولة بنت ثعلبة، امرأة أوس بن الصامت، أخي عبادة. رآها وهي تصلّي، وكانت حسنة الجسم، فلمّا سلّمت راودها، فأبت فغضب، فظاهر منها. فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: إنّ أوساً تزوّجني وأنا شابّة مرغوب فيَّ. فلما خلا سنِّي، ونَثَرتْ بطني ـ أي: كثر ولدي ـ جعلني عليه كأمّه. وروي: أنّها قالت: إنّ لي صبياناً صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا. فقال ﷺ: «ما عندي من أمرك شيء». وروي: أنّه قال لها: «حرمت عليه». فقالت: يا رسول الله ما ذكر طلاقاً، وإنّما هو أبو ولدي، وأحب الناس إليّ. فقال: «حرمت عليه». فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي، كلّما قال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه»، هتفت، وشكت إلى الله فنزلت[1] ﴿فِي زَوْجِهَا﴾ في شأنه ومعناه ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ تظهر ما بها من المكروه ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٤ / ١ ـ ٢).

إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ

مراجعتكما الكلام. من: حار: إذا رجع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ يسمع شكوى المضطرّ ﴿بَصِيرٌ﴾ بحاله.

٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ عاصم ﴿يُظَّهِّرون﴾ حجازيّ وبصريّ. غيرهم: ﴿يَظَّاهَرون﴾. وفي ﴿مِنكُم﴾ توبيخ للعرب؛ لأنّه كان من أيمان أهل جاهليّتهم خاصّة دون سائر الأمم ﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾ زوجاتهم ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ ﴿أمّهاتُهم﴾ المفضل؛ فالأوّل حجازيّ، والثاني تميميّ ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾ يريد: أنّ الأمّهات على الحقيقة الوالدات، والمرضعات ملحقات بالوالدات بواسطة الرضاع. وكذا أزواج رسول الله ﷺ لزيادة حرمتهنّ. وأمّا الزوجات فأبعد شيء من الأمومة، فلذا قال: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: تنكره الحقيقة والأحكام الشرعيّة ﴿وَزُورٗا﴾ وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحقّ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ لما سلف منهم.

٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ بيّن في الآية الأولى: أنّ ذلك من قائله منكرٌ وزورٌ. وبيّن في الثانية حكم الظهار ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ العود الصيرورة ابتداءً أو بناءً. فمن الأول قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] ومن الثاني: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا﴾ [الإسراء: ٨] ويعدّى بنفسه كقولك: عدته: إذا أتيته وصرت إليه، وبحرف الجرّ بـ: إلى، وعلى، وفي، واللام، كقوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ومنه: ﴿ثمّ يعودون لما قالوا﴾ أي: ﴿يعودون لـ﴾ نقض ﴿ما قالوا﴾ أو لتداركه على حذف المضاف. وعن ثعلب: ﴿يعودون﴾ لتحليل ما حرّموا، على حذف المضاف أيضاً. غير أنّه أراد بما قالوا: ما حرّموه على أنفسهم بلفظ الظهار، تنزيلاً للقول منزلة المقول فيه، كقوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] أراد المقول فيه، وهو المال والولد. ثمّ اختلفوا: أنّ النقض بماذا يحصل؟ فعندنا: بالعزم على الوطء، وهو قول ابن عباس، والحسن، وقتادة. وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ: بمجرد الإمساك؛ وهو ألّا يطلقها عقيب

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن
لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ
مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ

الظهار ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فعليه إعتاق رقبةٍ مؤمنةٍ أو كافرةٍ. ولم يجزِ المدبّر، وأمّ الولد، والمكاتب الذي أدّى شيئاً ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ الضمير يرجع إلى ما دلّ عليه الكلام من المظاهِر والمظاهَر منها. والمماسة: الاستمتاع بها من جماع، أو لمسٍ بشهوةٍ، أو نظرٍ إلى فرجها بشهوةٍ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحكم ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾؛ لأنّ الحكم بالكفّارة دليل على ارتكاب الجناية، فيجب أن تتّعظوا بهذا الحكم، حتى لا تعودوا إلى الظهار، وتخافوا عقاب الله عليه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

والظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمّي. وإذا وضع موضع أنتِ عضواً منها يعبر به عن الجملة، أو مكان الظهر عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأمّ كالبطن والفخذ، أو مكان الأمّ ذات رحم محرم منه بنسبٍ، أو رضاعٍ، أو صهرٍ، أو جماعٍ، نحو أن يقول: أنت عليّ كظهر أختي من الرضاع، أو عمّتي من النسب، أو امرأة ابني، أو أبي، أو أمّ امرأتي، أو ابنتها، فهو مظاهر. وإذا امتنع المظاهر من الكفّارة، للمرأة أن ترافعه، وعلى القاضي أن يجبره على أن يكفّر، وأن يحبسه. ولا شيء من الكفّارات يجبر عليه، ويحبس إلاّ كفّارة الظهار. لأنّه يضرّ بها في ترك التكفير، والامتناع من الاستمتاع. فإن مس قبل أن يكفّر استغفر الله ولا يعود حتّى يكفّر. وإن أعتق بعض الرقبة ثمّ مس، عليه أن يستأنف عند أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ.

٤ ـ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ فعليه صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام ﴿فَإِطْعَامُ﴾ فعليه إطعام ﴿سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ لكلّ مسكين نصف صاع من برّ، أو صاع من غيره. ويجب أن يقدّمه على المسيس، ولكن لا يستأنف إن جامع في خلال الإطعام ﴿ذَٰلِكَ﴾ البيان والتعليم للأحكام ﴿لِتُؤْمِنُوا۟﴾ لتصدّقوا ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره ورفض ما كنتم عليه في جاهليّتكم ﴿وَتِلْكَ﴾ أي: الأحكام التي

﴿حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا
خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾

وصفنا في الظهار، والكفّارة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ التي لا يجوز تعدّيها ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين لا يتّبعونها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعادون ويشاقون ﴿كُبِتُوا۟﴾ أخزوا، وأهلكوا ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من أعداء الرسل ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ تدلّ على صدق الرسول وصحّة ما جاء به ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بهذه الآيات ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يذهب بعزّهم وكبرهم.

٦ ـ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ منصوب بـ﴿مهين﴾، أو بإضمار اذكر، تعظيماً لليوم ﴿ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ كلهم لا يترك منهم أحداً غير مبعوث، أو مجتمعين في حالٍ واحدة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ تخجيلاً لهم، وتوبيخاً، وتشهيراً بحالهم، يتمنّون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أحاط به عدداً، لم يفته منه شيء ﴿وَنَسُوهُ﴾ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه، وإنّما تحفظ معظمات الأمور ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيءٌ.

٧ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ﴾ من: كان التامّة؛ أي: ما يقع ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ النجوى: التناجي. وقد أضيفت إلى ثلاثة، أي: ﴿من نجوى ثلاثة﴾ نفر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله ﴿رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ﴾ ولا أقلّ ﴿مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه. وقد تعالى عن المكان علوّاً كبيراً.

وتخصيص الثلاثة والخمسة: لأنها نزلت في المنافقين. وكانوا يتحلّقون للتناجي مغايظةً للمؤمنين على هذين العددين. فقيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة ﴿ولا أدنى من﴾ عددَيهم ﴿ولا أكثر﴾ إلاّ والله معهم يسمع

﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾

ما يقولون. ولأنّ أهل التناجي في العادة طائفة من أهل الرأي والتجارب. وأوّل عددهم الاثنان فصاعداً إلى خمسة، إلى ستّة، إلى ما اقتضته الحال. فذكر عزّوعلا الثلاثة، والخمسة، وقال: ﴿ولا أدنى من ذلك﴾ فدلّ على الاثنين والأربعة. وقال: ﴿ولا أكثر﴾ فدلّ على ما يقارب هذا العدد ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيجازيهم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

٨ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم، ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، ويريدون أن يغيظوهم، ويوهموهم في نجواهم وتغامزهم: أنّ غزاتهم غُلِبُوا، وأنّ أقاربهم قُتِلوا. فنهاهم رسول الله ﷺ، فعادوا لمثل فعلهم. وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواصٍ بمعصية الرسول ومخالفته. ﴿وَيَنتَجُوْنَ﴾ حمزة، وهو بمعنى الأوّل ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يعني: أنهم يقولون في تحيّتك: السام عليك يا محمد. والسام: الموت. والله تعالى يقول: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يقولون فيما بينهم: لو كان نبياً لعاقبنا الله بما نقوله، فقال الله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال؛ أي: يدخلونها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع؛ جهنّم.

٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بألسنتهم، وهو خطاب للمنافقين. والظاهر: أنه خطاب للمؤمنين ﴿إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: ﴿إذا تناجيتم﴾ فلا تَشبّهوا باليهود والمنافقين في تناجيهم بالشرّ ﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ﴾ بأداء الفرائض، والطاعات ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ وترك المعاصي ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

للحساب، فيجازيكم بما تتناجون به من خير أو شرّ.

١٠ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ بالإثم والعدوان ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ من تزيينه ﴿لِيَحْزُنَ﴾ أي: الشيطان. وبضم الياء نافع ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ﴾ الشيطان، أو الحزن ﴿بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بعلمه وقضائه وقدره ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يكلون أمرهم إلى الله، ويستعيذون به من الشيطان.

١١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ توسّعوا فيه ﴿في المجالس﴾ عاصم. والمراد: مجلس رسول الله ﷺ. وكانوا يتضامّون فيه تنافساً على القرب منه وحرصاً على استماع كلامه. وقيل: هو المجلس من مجالس القتال، وهي مراكز الغزاة. كقوله: ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]. مُقاتِل: في صلاة الجمعة ﴿فَٱفْسَحُوا۟﴾ فوسّعوا ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مطلق في كلّ ما يبتغي الناس الفسحة فيه من المكان، والرزق، والصدر، والقبر، وغير ذلك ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟﴾ انهضوا للتوسعة على المقبلين، أو انهضوا عن مجلس رسول الله ﷺ إذا أمرتم بالنهوض عنه، أو انهضوا إلى الصلاة، والجهاد، وأعمال الخير ﴿فَٱنشُزُوا۟﴾ بالضمّ فيهما: مدنيٌّ، وشاميٌّ، وعاصم غير حمّاد ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ بامتثال أوامره، وأوامر رسوله ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ والعالمين منهم خاصّة ﴿دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. وفي الدرجات قولان: أحدهما: في الدنيا في المرتبة، والشرف، والآخر: في الآخرة. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا قرأها قال: يأيّها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم. وعن النبيّ ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[١]. وعنه ﷺ: «عبادة العالم يوماً واحداً تعدل عبادة العابد أربعين

(١) رواه أحمد (٥/ ١٩٦) وأبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٣) وابن ماجه (٢٢٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

سنة». وعنه ﷺ: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثمّ العلماء، ثمّ الشهداء»[١]. فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوّة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: خيّر سليمان ـ عليه السلام ـ بين العلم والمال والملك، فاختار العلم. فأعطى المال والملك معه. وقال ﷺ: «أوحى الله إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ يا إبراهيم! إنّي عليم أحبّ كلّ عليم»[٢]. وعن بعض الحكماء: ليت شعري أيّ شيءٍ أدرك من فاته العلم؟ وأيّ شيءٍ فات من أدرك العلم؟. وعن الزبيريّ: العلم ذَكَر، فلا يحبّه إلاّ ذكورة الرجال. والعلوم أنواع، فأشرفها أشرفها معلوماً.

١٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ إذا أردتم مناجاته ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ أي: قبل نجواكم. وهي استعارة ممن له يدان. كقول عمر رضي الله عنه: من أفضل ما أوتيت العرب الشعر، يقدّمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم، ويستنزل به اللئيم. يريد: قبل حاجته ﴿ذَٰلِكَ﴾ التقديم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دينكم ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لأنّ الصدقة طُهْرة ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ﴾ ما تتصدّقون به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في ترخيص المناجاة من غير صدقة. قيل: كان ذلك عشر ليال ثمّ نسخ. وقيل: ما كان إلاّ ساعة من نهار ثمّ نسخ. وقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: هذه آية من كتاب الله ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان لي دينار فصرفته، فكنت إذا ناجيته تصدّقت بدرهم، وسألت رسول الله ﷺ عشر مسائل فأجابني عنها: قلت: يا رسول الله! ما الوفاء؟ قال: «التوحيد، وشهادة لا إله إلاّ الله». قلت: وما الفساد؟ قال: «الكفر، والشرك بالله». قلت: وما الحقّ؟ قال: «الإسلام، والقرآن، والولاية إذا انتهت إليك». قلت: وما الحيلة؟ قال: «ترك الحيلة». قلت: وما عَلَيَّ؟ قال: «طاعة الله، وطاعة رسوله». قلت: وكيف أدعو الله تعالى؟ قال: «بالصدق واليقين». قلت: وماذا

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٣١٣).

(٢) رواه ابن عبد البر في العلم. (حاشية الكشاف ٤/ ٤٩٣).

ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً

أسأل الله؟ قال: «العافية» قلت: وما أصنع لنجاة نفسي؟ قال: «كل حلالاً، وقل صدقاً» قلت: وما السرور؟ قال: «الجنّة». قلت: وما الراحة؟ قال: «لقاء الله». فلمّا فرغت منها نزل نسخها[1].

١٣ ـ ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذي تكرهونه؟ ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ﴾ ما أمرتم به، وشقّ عليكم ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفّف عنكم، وأزال عنكم المؤاخذة بترك تقديم الصدقة على المناجاة؛ كما أزال المؤاخذة بالذنب عن التائب عنه ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: فلا تفرّطوا في الصلاة، والزكاة، وسائر الطاعات ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا وعدٌ ووعيدٌ.

١٤ ـ ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ كان المنافقون يتولّون اليهود، وهم الذين غضب الله عليهم في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ يا مسلمون! ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ ولا من اليهود. كقوله ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣] ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ أي: يقولون: والله إنّا لمسلمون لا منافقون! ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم كاذبون منافقون.

١٥ ـ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ كانوا في الزمان الماضي مصرّين على سوء العمل. و هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة.

١٦ ـ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ الكاذبة ﴿جُنَّةً﴾ وقايةً دون دمائهم وأموالهم

---

(١) قال ابن حجر: لم أجده. (حاشية الكشاف ٤/ ٤٩٤).

فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا
يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

﴿فَصَدُّوا۟﴾ الناس في خلال أمنهم وسلامتهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن طاعته والإيمان به ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وعدهم العذاب المخزي لكفرهم وصدّهم، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨].

١٧ ـ ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عذاب الله ﴿شَيْـًٔا﴾ قليلاً من الإغناء، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

١٨ ـ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي: لله في الآخرة: أنهم كانوا مخلصين في الدنيا غير منافقين ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا على ذلك ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ في الدنيا ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من النفع، أو: يحسبون أنهم على شيءٍ من النفع ثَمَّ بأيمانهم الكاذبة كما انتفعوا ها هنا ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ حيث استوت حالهم فيه الدنيا والآخرة.

١٩ ـ ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ استولى عليهم ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾. قال شاه الكرمانيّ: علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والملابس، ويشغل قلبه عن التفكّر في آلاء الله ونعمائه والقيام بشكرها، ويشغل لسانه عن ذكر ربّه بالكذب والغيبة والبهتان، ويشغل قلبه عن التفكّر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ جنده ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

٢٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ في جملة من هو أذلّ خلق الله، لا ترى أحداً أذلّ منهم.

٢١ ـ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللوح ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ بالحجّة والسيف أو بأحدهما ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ لا يمتنع عليه ما يريد ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب غير مغلوب.

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٢٢)

٢٢ - ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ هو مفعول ثان لـ: ﴿تجد﴾، أو حال، أو صفة لـ: ﴿قوماً﴾. و﴿تجد﴾ بمعنى تصادف على هذا ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ خالفه وعاداه ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾. أي: من الممتنع أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين. والمراد: أنّه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقّه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغةً في الزجر عن ملابسته، والتوصية بالتصلّب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم، والاحتراس عن مخالطتهم ومعاشرتهم. وزاد ذلك تأكيداً وتشديداً بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾، وبقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: اثبته فيها، وبمقابلة قوله: ﴿أولئك حزب الشيطان﴾ بقوله: ﴿أولئك حزب الله﴾ ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: بكتابٍ أنزله، فيه حياةٌ لهم. ويجوز أن يكون الضمير للإيمان؛ أي: ﴿بروح﴾ من الإيمان، على أنّه في نفسه روح لحياة القلوب به. وعن الثوريِّ: أنّه قال: كانوا يرون أنّها نزلت فيمن يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي روّاد: أنّه لقيه المنصور فلمّا عرفه هرب منه، وتلاها. وقال سهل: من صحّح إيمانه، وأخلص توحيده فإنّه لا يأنس بمبتدع، ولا يجالسه، ويظهر له من نفسه العداوة. ومن داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن، ومن أجاب مبتدعاً لطلب عزِّ الدنيا، أو عِرَضِها أذلّه الله بذلك العزّ، وأفقره بذلك الغنى، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه، ومن لم يصدّق فليجرب ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بتوحيدهم الخالص، وطاعتهم ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بثوابه الجسيم في الآخرة، أو بما قضى عليهم في الدنيا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ أنصار حقّه، ورعاة خلقه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الباقون في النعيم المقيم، الفائزون بكلّ محبوب، الآمنون من كلّ مرهوب.

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ

---

١ ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ روي: أنّ هذه السورة نزلت بأسرها في بني النضير. وذلك: أنّ النبيَّ ﷺ حين قدم المدينة صالح بنو النضير رسولَ الله ﷺ على ألاّ يكونوا عليه ولا له. فلمّا ظهر يوم بدر، قالوا: هو النبيُّ الذي نعته في التوراة. فلمّا هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكّة، وحالف أبا سفيان عند الكعبة، فأمر ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاريّ فقتل كعباً غِيلةً. ثمّ خرج ﷺ مع الجيش إليهم فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، وأمر بقطع نخيلهم. فلمّا قذف الله الرعب في قلوبهم طلبوا الصلح، فأبى عليهم إلاّ الجلاء، على أن يَحْمِل كلُّ ثلاثة أبياتٍ على بعيرٍ ما شاؤوا من متاعهم، فجلوا إلى الشام إلى أريحاء، وأذرعات.

٢ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: يهود بني النضير ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ بالمدينة. واللام في ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ تتعلّق بـ﴿أخرج﴾. وهي اللام في

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤] وقوله: جئته لوقت كذا. أي: أخرج الذين كفروا عند أوّل الحشر. ومعنى أوّل الحشر: أنّ هذا أوّل حشرهم إلى الشام. وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قطّ. وهم أوّل من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام. أو: هذا أوّل حشرهم، وآخر حشرهم: إجلاءُ عمر إيّاهم من خيبر إلى الشام. أو: آخر حشرهم حشر يوم القيامة. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من شكّ: أنّ المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية، فهم الحشر الأوّل، وسائر الناس الحشر الثاني. وقال لهم رسول الله ﷺ لمّا خرجوا: «امضوا فإنّكم أوّل الحشر، ونحن على الأثر»[١]. قتادة: إذا كان آخر الزمان جاءت نار من قبل المشرق فحشرت الناس إلى أرض الشام وبها تقوم عليهم القيامة. وقيل: معناه: أخرجهم من ديارهم لأوّل ما حُشِرَ لقتالهم؛ لأنّه أوّل قتال قاتلهم رسول الله ﷺ ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ لشدّة بأسهم، ومنعتهم، ووثاقة حصونهم، وكثرة عددهم وعُدَّتهم ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ﴿ظنّوا﴾: أنّ حصونهم تمنعهم من بأس الله. والفرق بين هذا التركيب وبين النظم الذي جاء عليه: أنّ في تقديم الخبر على المبتدأ دليلاً على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إيّاهم، وفي تصيير ضميرهم اسماً لأنّ في إسناد الجملة إليه: دليلاً على اعتقادهم في أنفسهم: أنهم في عزّة ومنعة لا يُبالى معها بأحدٍ يتعرّض لهم، أو يطمع في مُعازَّتهم[٢]. وليس ذلك في قولك: وظنّوا أنّ حصونهم تمنعهم ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمر الله وعقابه. وفي الشواذّ ﴿فآتاهم الله﴾ أي: فآتاهم الهلاك ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ من حيث لم يظنّوا ولم يخطر ببالهم، وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرّةً على يد أخيه رضاعاً ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوف. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يخرّبون﴾ أبو عمرو. والتخريب والإخراب: الإفساد بالنقض والهدم. والخربة: الفساد. كانوا

---

(١) رواه البزار والبيهقي كما في الدر المنثور (٨/ ٨٩).

(٢) أي: مغالبتهم.

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾

يخربون بواطنها، والمسلمون ظواهرها لما أراد الله من استئصال شأفتهم، وألاّ تبقى لهم بالمدينة دار، ولا منهم ديَّار. والذي دعاهم إلى التخريب حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدّوا بها أفواه الأزقّة، وألاّ يتحسروا بعد جلائهم على بقائها مساكن للمسلمين، وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جيّد الخشب والساج. وأمّا المؤمنون فداعيهم إلى التخريب إزالة متحصّنهم، وأن يتّسع لهم مجال الحرب. ومعنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين: أنهم لمّا عرّضوهم بنكث العهد لذلك، وكانوا السبب فيه؛ فكأنّهم أمروهم به، وكلّفوهم إيّاه ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أي: تأمّلوا فيما نزل بهؤلاء، والسبب الذي استحقّوا به ذلك، فاحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم، فتعاقبوا بمثل عقوبتهم. وهو دليل على جواز القياس.

٣ ـ ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ الخروج من الوطن مع الأهل والولد ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل، والسبي؛ كما فعل ببني قريظة ﴿وَلَهُمْ﴾ سواء أُجْلُوا أو قتلوا ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ الذي لا أشدّ منه.

٤ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: إنّما أصابهم ذلك بسبب أنهم: ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ خالفوه ﴿وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

٥ ـ ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ هو بيان لـ: ﴿ما قطعتم﴾. ومحلّ ﴿ما﴾ نصب بقطعتم، كأنّه قيل: أيَّ شيءٍ قطعتم. وأنّث الضمير الراجع إلى ﴿ما﴾ في قوله ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ لأنّه في معنى اللينة. واللينة: النخلة، من: الألوان. وياؤها عن واو قلبت لكسرة ما قبلها. وقيل: اللينة: النخلة الكريمة؛ كأنّهم اشتقّوها من اللِّين ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فقطعها، وتركها بإذن الله ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ وليذل اليهود ويغيظهم أذن في قطعها.

٦ ـ ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ جعله فيئاً له خاصّة ﴿مِنْهُمْ﴾ من بني النضير

فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى
ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ
ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾

﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ فلم يكن ذلك بإيجاف خيلٍ أو ركابٍ منكم على ذلك. والركاب: الإبل. والمعنى: ﴿فما أوجفتم﴾ على تحصيله، وتغنيمه خيلاً، ولا ركاباً، ولا تعبتم في القتال عليه، وإنّما مشيتم إليه على أرجلكم لأنَّه على ميلين من المدينة، وكان ﷺ على حمارٍ فحسب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: أنّ ما خوّل الله رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصّلوه بالقتال والغلبة، ولكن سلّطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم، كما كان يسلّط رسله على أعدائهم، فالأمر فيه مفوّض إليه، يضعه حيث يشاء، ولا يقسمه قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوةً وقهراً، فقسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار إلاّ ثلاثة منهم لفقرهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٧ ـ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وإنّما لم يدخل العاطف على هذه الجملة؛ لأنّها بيان للأولى. فهي منها غير أجنبيّة عنها. بيّن لرسول الله ﷺ ما يصنع بما أفاء الله عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوماً على الأقسام الخمسة. وزيّف هذا القول بعض المفسّرين وقال: الآية الأولى نزلت في أموال بني النضير وقد جعلها الله لرسوله خاصّة؛ وهذه الآية في غنائم كلّ قرية تؤخذ بقوّة الغزاة. وفي الآية بيان مصرف خمسها فهي مبتدأ ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ ـ ﴿تكونُ دولةٌ﴾ يزيد، على كان التامة. والدُولة والدَولة ما يدول للإنسان؛ أي: يدور من الجدّ. ومعنى قوله: كي لا يكون دولةً ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ كي لا يكون الفيء؛ الذي حقّه أن يُعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها، جَدّاً بين الأغنياء يتكاثرون به ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: ما أعطاكم من قسمة غنيمةٍ أو فيءٍ ﴿فَخُذُوهُ﴾ فاقبلوه ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ عن أخذه منها ﴿فَٱنتَهُوا۟﴾ عنه، ولا تطلبوه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أن تخالفوه، وتتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف رسول الله

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ
يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾

ﷺ. والأجود أن يكون عامّاً في كلّ ما آتى رسول الله ﷺ ونهى عنه. وأمر الفيء داخل في عمومه.

٨ ـ ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ ـ بدل من قوله: ﴿ولذى القربى﴾ والمعطوف عليه. والذي منع الإبدال من: ﴿لله وللرسول﴾ وإن كان المعنى لرسول الله: أن الله عزّ وجلّ أخرج رسوله من الفقراء في قوله: ﴿وينصرون الله ورسوله﴾ وأنّه يترفّع برسول الله عن التسمية بالفقير، وأنّ الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عزّ وعلا ﴿الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ بمكّة. وفيه دليل: على أنّ الكفار يملكون بالاستيلاء أموال المسلمين؛ لأنّ الله تعالى سمّى المهاجرين فقراء مع أنّه كانت لهم ديار وأموال ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: يطلبون الجنّة ورضا الله ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ﴿ينصرون﴾ دين الله ﴿و﴾ يعينون ﴿رسوله﴾ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم وجهادهم.

٩ ـ ﴿وَالَّذِينَ﴾ معطوف على المهاجرين. وهم الأنصار ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ توطنوا المدينة ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ وأخلصوا الإيمان كقوله:

علفتهـا تبنـاً ومـاء بـارداً .. ..

أو: وجعلوا الإيمان مستقرّاً ومتوطّناً لهم لتمكّنهم واستقامتهم عليه؛ كما جعلوا المدينة كذلك. أو: أراد دار الهجرة ودار الإيمان، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل المهاجرين؛ لأنّهم سبقوهم في تبوُّء دار الهجرة والإيمان. وقيل: من قبل هجرتهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حتّى شاطروهم أموالهم، وأنزلوهم منازلهم، ونزل من كانت له امرأتان عن إحداهما، حتّى تزوّج بها رجل من المهاجرين ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ ولا يعلمون في أنفسهم طلب محتاج إليه مما أوتي المهاجرون من الفيء وغيره.

وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ

والمحتاج إليه يسمَّى: حاجة. يعني: أنّ نفوسهم لم تتبع ما أعطوا، ولم تطمح إلى شيءٍ منه تحتاج إليه. وقيل: ﴿حاجة﴾ حسداً ممّا أعطي المهاجرون من الفيء، حيث خصهم النبيُّ ﷺ به. وقيل: ﴿لا يجدون في صدورهم﴾ مس ﴿حاجة من﴾ فَقْدِ ﴿ما أوتوا﴾ فحذف المضافان ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ فقر. وأصلها: خصاص البيت، وهي: فروجه. والجملة في موضع الحال. أي: مفروضة خصاصتهم.

روي: أنّه نزل برجل منهم ضيف، فنوّم الصبية، . وقرّب الطعام، وأطفأ السراج ليشبع ضيفه، ولا يأكل هو.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أهدي لبعضهم رأس مشويّ، وهو مجهود، فوجهه إلى جاره، فتداولته تسعة أنفس حتّى عاد إلى الأوّل.

أبو زيد: قال لي شابٌّ من أهل بلخ: ما الزهد عندكم؟ قلت: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا. فقال: هكذا عندنا كلاب بلخ. بل: إذا فقدنا صبرنا، وإذا وجدنا آثرنا.

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الظافرون بما أرادوا. والشحُّ: اللؤم، وأن تكون نفس الرجل كزّةً حريصةً على المنع. وأمّا البخل: فهو المنع نفسه. وقيل: الشحّ: أكل مال أخيك ظلماً. والبخل: منع مالك. وعن كسرى: الشحّ أضرّ من الفقر؛ لأنّ الفقير يتّسع إذا وجد بخلاف الشحيح.

١٠ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ عطف أيضاً على ﴿المهاجرين﴾ وهم الذين هاجروا من بعد. وقيل: التابعون بإحسان. وقيل: من بعدهم إلى يوم القيامة. قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: دخل في هذا الفيء كلُّ من هو مولود إلى يوم القيامة في الإسلام. فجعل الواو للعطف فيهما. وقرىء ﴿للذين﴾ فيهما ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ قيل: هم المهاجرون

وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ
لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ
لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾

والأنصار. عائشة رضي الله عنها: أمروا بأن يستغفروا لهم فسبّوهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ حقداً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني: الصحابة ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقيل لسعيد بن المسيب: ما تقول في عثمان، وطلحة، والزبير؟ قال: أقول ما قوّلنيه الله. وتلا هذه الآية.

١١ ـ ثم عَجَّبَ نَبِيَّهُ فقال: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا؟﴾. أي: ﴿ألم تر﴾ يا محمّد ﴿إلى﴾ عبد الله بن أبيّ وأشياعه ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني النضير. والمراد: أخوّة الكفر ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾. روي: أنّ ابن أبيٍّ وأصحابه دسُّوا إلى بني النضير حين حاصرهم النبي ﷺ: لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لانخذلكم. ولئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ في قتالكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ من رسول الله والمسلمين إن حملنا عليه. أو: في خذلانكم، وإخلاف ما وعدناكم من النصرة ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في مواعيدهم لليهود. وفيه دليل: على صحّة النبوّة؛ لأنّه إخبار بالغيب.

١٢ ـ ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ وإنّما قال: ﴿ولئن نصروهم﴾ بعد الإخبار بأنّهم لا ينصرونهم، على الفرض والتقدير. كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. وكما يعلم ما يكون فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون. والمعنى: ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمنّ المنافقون ﴿ثمّ لا ينصرون﴾ بعد ذلك؛ أي: يهلكهم الله، ولا ينفعهم نفاقهم؛ لظهور كفرهم. أو: لينهزمنّ اليهود، ثمّ لا ينفعهم نصرة المنافقين.

لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا
يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ
تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ
ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ

١٣ ـ ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: أشدّ مرهوبيّة. مصدر رهب المبنيّ للمفعول. وقوله: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ دلالة على نفاقهم. يعني: أنّهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله، وأنتم أهيب في صدورهم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمون الله وعظمته حتّى يخشوه حقّ خشيته.

١٤ ـ ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ لا يقدرون على مقاتلتكم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين: يعني: اليهود والمنافقين ﴿إِلَّا﴾ كائنين ﴿فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالخنادق والدروب ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾. ﴿جدار﴾ مكّيٌّ، وأبو عمرو ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني: أنّ البأس الشديد الذي يوصفون به إنّما هو بينهم إذا اقتتلوا. ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدّة؛ لأنّ الشجاع يجبن عند محاربة الله ورسوله ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ أي: اليهود والمنافقين ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين ذوي ألفة واتّحاد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرّقة، لا ألفة بينها. يعني: أنّ بينهم إحناً وعداواتٍ فلا يتعاضدون حقَّ التعاضد. وهذا تجسير للمؤمنين، وتشجيع لقلوبهم على قتالهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ التفرّق ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ تشتّت القلوب ممّا يوهن قواهم، ويعين على أرواحهم.

١٥ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مثلهم كمثل أهل بدر. فحذف المبتدأ ﴿قَرِيبًا﴾ أي: استقرّوا ﴿من قبلهم﴾ زمناً ﴿قريباً﴾ ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ. من قولهم: كلأٌ وبيلٌ: وخيمٌ سيّىء العاقبة. يعني: ذاقوا عذاب القتل في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولهم مع ذلك في الآخرة عذاب النار.

١٦ ـ ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ

أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ

أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال، ووعدهم إيّاهم النصر، ثمّ متاركتهم لهم وإخلافهم، كمثل الشيطان؛ إذا استغوى الإنسان بكيده، ثمّ تبرّأ منه في العاقبة. وقيل: المراد استغواؤه قريشاً يوم بدر. وقوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

١٧ ـ ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ عاقبة الإنسان الكافر والشيطان ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ ﴿عاقبتهما﴾ خبر ﴿كان﴾ مقدّم. وأنّ مع اسمها وخبرها، أي: ﴿في النار﴾. في موضع الرفع على الاسم و﴿خالدين﴾ حال ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أوامره فلا تخالفوها ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ نكر النفس تقليلاً للأنفس النواظر فيما قدّمن للآخرة ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني: يوم القيامة. سمّاه باليوم الذي يلي يومك تقريباً له. أو: عبّر عن الآخرة بالغد كأنّ الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد. وتنكيره لتعظيم أمره. أي: ﴿لغد﴾ لا يعرف كنهه لعظمه. وعن مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ: مكتوب على باب الجنّة: وجدنا ما عملنا، ربحنا ما قدّمنا، خسرنا ما خلّفنا ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ كرّر الأمر بالتقوى تأكيداً. أو: ﴿اتّقوا الله﴾ في أداء الواجبات؛ لأنّه قرن بما هو عمل ﴿واتقوا الله﴾ في ترك المعاصي؛ لأنّه قرن بما يجري مجرى الوعيد وهو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. وفيه: تحريض على المراقبة؛ لأنّ من علم: أنّ الله مطّلع على ما يرتكب من الذنوب يمتنع عنه.

١٩ ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تركوا ذكر الله عزّ وجلّ وما أمرهم به

فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ
ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ
خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾

﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فتركهم من ذكره بالرحمة والتوفيق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله.

٢٠ ـ ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ هذا تنبيه للناس، وإيذان بأنّهم، لفرط غفلتهم، وقلّة فكرهم في العاقبة، وتهالكهم على إيثار العاجلة، واتّباع الشهوات، كأنّهم لا يعرفون الفرق بين الجنّة والنار، والبون العظيم بين أصحابهما، وأنّ الفوز العظيم مع أصحاب الجنّة والعذاب الأليم مع أصحاب النار، فمن حقهم أن يعلموا ذلك، وينبّهوا عليه، كما تقول لمن يعقّ أباه: هو أبوك. تجعله بمنزلة من لا يعرفه، فتنبّهه بذلك على حقّ الأبوّة الذي يقتضي البرّ والتعطّف. وقد استدلّت الشافعيّة بهذه الآية: على أنّ المسلم لا يقتل بالكافر، وأنّ الكافر لا يملك مال المسلم بالاستيلاء. وقد أجبنا عن مثل هذا في أصول الفقه، والكافي.

٢١ ـ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: من شأن القرآن وعظمته: أنّه لو جعل في الجبل تمييز، وأنزل عليه القرآن؛ لخشع، أي: لخضع، وتطأطأ، وتصدّع. أي: تشقّق ﴿من خشية الله﴾. وجائز أن يكون هذا تمثيلاً؛ كما في قوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وهي إشارة إلى هذا المثل، وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل. والمراد: توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلّة تخشّعه عند تلاوة القرآن، وتدبّر قوارعه وزواجره.

٢٢ ـ ثُمَّ ردَّ على من أشرك وشبّهه بخلقه فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: السرّ والعلانية. أو: الدنيا والآخرة. أو: المعدوم والموجود ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

٢٣ ـ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ الذي لا يزول ملكه ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ المنزّه من القبائح. وفي تسبيح الملائكة: سُبّوح قُدّوس، ربّ الملائكة والروح ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ الذي سلم الخلق من ظلمه. عن الزّجاج ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ واهب الأمن. وعن الزجّاج: الذي أَمِنَ الخلق من ظلمه. أو: المؤمن من عذابه من أطاعه ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيب على كلّ شيء، الحافظ له. مُفَيْعِل، من: الأمن، إلاّ أنّ همزته قلبت هاء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب غير المغلوب ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ العالي العظيم الذي يذلّ له من دونه. أو: العظيم الشأن في القدرة والسلطان. أو: القهّار ذو الجبروت ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغ الكبرياء والعظمة ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزّه ذاته عمّا يصفه به المشركون.

٢٤ ـ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ المقدّر لما يوجده ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجد ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ في الأرحام ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الدالّة على الصفات العلا ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. ختم السورة بما بدأ به.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: سألت حبيبي رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم فقال: «عليك بآخر الحشر فأكثر قراءته». فأعدت عليه فأعاد عليّ، فأعدت عليه فأعاد عليّ»[1].

* * *

(١) رواه الثعلبي كما في حاشية الكشاف (٤/ ٥١٠).



بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ روي: أنّ مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم ـ يقال لها: سارة ـ أتت رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يتجهّز للفتح فقال لها: «أمسلمة جئت؟» قالت: لا. قال: «أفمهاجرة جئت؟» قالت: لا. قال: «فما جاء بك؟» قال: احتجت حاجة شديدة. فحثّ عليها بني عبد المطلب فكسوها، وحملوها، وزوّدوها. فأتاها حاطب بن أبي بلتعة، وأعطاها عشرة دنانير، وكساها برداً، واستحملها كتاباً إلى أهل مكّة. نسخته: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكّة، اعلموا: أنّ رسول الله يريدكم، فخذوا حذركم. فخرجت سارّة، ونزل جبريل ـ عليه السلام ـ بالخبر. فبعث رسول الله ﷺ عليّاً، وعمّاراً، وعمر، وطلحة، والزبير، والمقداد، وأبا مرثد ـ وكانوا فرساناً ـ وقال: «انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكّة، فخذوه منها، وخلّوها، فإن أبت فاضربوا عنقها». فأدركوها، فجحدت، وحلفت. فهمّوا بالرجوع. فقال عليّ ـ رضي الله عنه ـ: والله ما كُذِبْنا، ولا كُذِبَ رسول الله ﷺ، وسلّ سيفه. وقال: أخرجي الكتاب، أو تضعي رأسك. فأخرجته من عِقاص شعرها ـ وروي: أنّ رسول الله ﷺ أمّن جميع الناس يوم الفتح إلّا أربعة؛ هي أحدهم ـ فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً وقال: «ما حملك

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ

عليه؟» فقال: يا رسول الله! ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحت، ولا أحببتهم منذ فارقتهم. ولكنّي كنت امرأً مُلْصَقاً في قريش، ولم أكن من أَنْفُسِهَا، وكلّ من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكّة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري، فخشيت على أهلي فأردت أن أتّحذ عندهم يداً، وقد علمت: أنّ الله ينزل عليهم بأسه، وأنّ كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدّقه، وقبل عذره. فقال: عمر ـ رضي الله عنه ـ: دعني يا رسول الله! أضرب عنق هذا المنافق. فقال ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعلَّ الله قد اطّلع على أهل بدر، فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ففاضت عينا عمر ـ رضي الله عنه ـ فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾(١). عُدِّيَ اتّخذ إلى مفعوليه، وهما: ﴿عدوّي﴾ و﴿أولياء﴾. والعدوّ: فعول من: عدا؛ كعفوّ، من: عفا. ولكنّه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد. وفيه دليل: على أنّ الكبيرة لا تسلب اسم الإيمان ﴿تُلۡقُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿لا تتّخذوا﴾. والتقدير: لا تتّخذوهم أولياء ملقين ﴿إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾. أو مستأنف بعد وقف، على التوبيخ. والإلقاء: عبارة عن إيصال المودّة، والإفضاء بها إليهم. والباء في ﴿بالمودّة﴾ زائدة، مؤكّدة للتعدّي؛ كقوله: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] أو ثابتة على أنّ مفعول ﴿تلقون﴾ محذوف. معناه: ﴿تلقون إليهم﴾ أخبار رسول الله ﷺ ﴿بـ﴾ سبب ﴿المودّة﴾ التي بينكم، وبينهم ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ﴾ حال من ﴿لا تتّخذوا﴾ أو من ﴿تلقون﴾. أي: لا تتولّوهم أو توادّونهم؟ وهذه حالهم ﴿بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ دين الإسلام، والقرآن ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوّهم، أو حال من الذين ﴿كفروا﴾ ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾ تعليل لـ ﴿يخرجون﴾ أي: يخرجونكم من مكّة لإيمانكم ﴿بالله ربّكم﴾ ﴿بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ﴾ متعلّق بـ ﴿لا تتّخذوا﴾. أي: لا تتولّوا أعدائي ﴿إن كنتم﴾

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٨١ ـ ٢٨٣). قال الحافظ: وفيه مخالفة شديدة لما في الصحيحين. (حاشية الكشاف ٤/ ٥١١).

جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ
وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ
إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ

أوليائي. وقول(١) النحويّين في مثله: هو شرط، جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي﴾ مصدر في موضع الحال؛ أي: ﴿إن كنتم خرجتم﴾ مجاهدين في سبيلي ﴿وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِي﴾ ومبتغين مرضاتي ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ أي: تفضون إليهم بمودّتكم سرّاً. أو: ﴿تسرّون إليهم﴾ أسرار رسول الله ﷺ ﴿بـ﴾ سبب ﴿المودة﴾ وهو استئناف ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡ﴾. والمعنى: أيَّ طائل لكم في إسراركم وقد علمتم: أنّ الإخفاء، والإعلان سيّان في علمي، وأنا مطلع رسولي علي ما تسرّون؟ ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ﴾ أي: هذا الإسرار ﴿مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقد أخطأ طريق الحقّ والصواب.

٢ ـ ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ إن يظفروا بكم ويتمكّنوا منكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ خالصي العداوة، ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالقتل والشتم ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ وتمنّوا لو ترتدّون عن دينكم. فإذاً موادّة أمثالهم خطأ عظيم منكم. والماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع ففيه نكتة. كأنّه قيل: وودّوا قبل كلّ شيء كفركم وارتدادكم. يعني: أنّهم يريدون أن يلحقوا بكم مضارّ الدنيا والدين، من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض. وردّكم كفّاراً، أو: ردكم كفاراً أسبق المضارّ عندهم، وأوّلها؛ لعلمهم: أنّ الدِّين أعزّ عليكم من أرواحكم؛ لأنّكم بذّالون لها دونه. والعدوّ أهمّ شيءٍ عنده أن يقصد أهمّ شيءٍ عند صاحبه.

٣ ـ ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ﴾ قراباتكم ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ الذين توالون الكفّار من أجلهم، وتتقرّبون إليهم محاماةً عليهم. ثمّ قال: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ...﴾ الآية [عبس: ٣٤]. فما لكم

(١) القول بمعنى المقول، وهو مبتدأ خبره: هو شرط الخ.

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟
لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ
وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ
مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾

ترفضون حقّ الله مراعاةً لحقّ من يفرّ منكم غداً؟ ﴿يَفْصِلُ﴾ عاصم ﴿يُفَصِّل﴾ حمزة، وعليّ. والفاعل هو الله عزّ وجلّ ﴿يُفَصَّلُ﴾ ابن ذكوان. غيرهم: ﴿يُفْصَل﴾ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

٤ ـ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ قدوةٌ في التبرّي من الأهل ﴿حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: في أقواله. ولهذا استثنى منه ﴿إلاّ قول إبراهيم﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من المؤمنين. وقيل: كانوا أنبياء ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ جمع: بريء، كظريف، وظرفاء ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ﴾ بالأفعال، ﴿وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ بالقلوب ﴿أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ فيحنئذٍ نترك عداوتكم ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾. وذلك لـ﴿مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] أي: اقتدوا به في أقواله، ولا تأتسوا به في الاستغفار لأبيه الكافر ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: من هدايةٍ، ومغفرةٍ، وتوفيقٍ. وهذه الجملة لا تليق بالاستثناء. ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الفتح: ١١] ولكن المراد: استثناء جملة قوله لأبيه. والقصد إلى موعد الاستغفار له وما بعده تابع له. كأنّه قال: أستغفر لك، ومافي طاقتي إلاّ الاستغفار ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ متّصل بما قبل الاستثناء، وهو من جملة الأسوة الحسنة. وقيل: معناه: قولوا ﴿ربنا﴾ فهو ابتداء أمر من الله للمؤمنين بأن يقولوه ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أقبلنا ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع.

٥ ـ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: لا تسلطهم علينا، فيفتنوننا بعذاب ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الغالب الحاكم.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن
تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى
ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ

---

٦ ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ ثُمَّ كرّر الحثّ على الائتساء بإبراهيم ـ عليه السلام ـ وقومه تقريراً وتأكيداً عليهم. ولذا جاء به مصدّراً بالقسم؛ لأنّه الغاية في التأكيد، وأبدل عن قوله ﴿لكم﴾ قوله ﴿لمن كان يرجو الله﴾ أي: ثوابه أو: يخشى الله، وعقّبه بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن أمرنا، ووالى الكفّار ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن الخلق ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد. فلم يترك نوعاً من التأكيد إلاّ جاء به.

٧ ـ ولمّا أنزلت هذه الآيات، وتشدّد المؤمنون في عداوة آبائهم، وأبنائهم، وجميع أقربائهم من المشركين، أطمعهم في تحوّل الحال إلى خلافه فقال: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي: من أهل مكّة من أقربائكم ﴿مودّة﴾ بأن يوفّقهم للإيمان. فلمّا يسّر فتح مكّة أظفر الله بأمنيتهم، فأسلم قومهم، وتمّ بينهم التحابّ. و﴿عسى﴾ وعد من الله على عادات الملوك، حيث يقولون في بعض الحوائج: عسى، أو: لعلّ، فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك، أو: أريد به إطماع المؤمنين ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على تقليب القلوب، وتحويل الأحوال، وتسهيل أسباب المودّة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن أسلم من المشركين.

٨ ـ ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ تكرموهم، وتحسنوا إليهم قولاً وفعلاً. ومحلّ ﴿أن تبرّوهم﴾ جرّ على البدل من ﴿الذين لم يقاتلوكم﴾. وهو بدل اشتمال. والتقدير: ﴿عن﴾ برّ ﴿الذين﴾ ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ وتقضوا إليهم بالقسط، ولا تظلموهم. وإذا نهي عن الظلم في حق المشرك فكيف في حقّ المسلم؟! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

٩ ـ ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ

أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ هو بدل من ﴿الذين قاتلوكم﴾. والمعنى: لا ينهاكم عن مبرّة هؤلاء. وإنّما ينهاكم عن تولّي هؤلاء ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حيث وضعوا التولّي غير موضعه.

١٠ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ سمّاهنّ مؤمنات لنطقهنّ بكلمة الشهادة، أو لأنّهنّ مشارفات لثبات إيمانهنّ بالامتحان ﴿مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ نصب على الحال ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فابتلوهنّ بالنظر في الأمارت، ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهنّ. وعن ابن عباس: امتحانها: أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ منكم، فإنّكم وإن رزتم أحوالهنّ لا تعلمون ذلك حقيقة، وعند الله حقيقة العلم به ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ العلم الذي تبلغه طاقتكم، وهو الظنّ الغالب بظهور الأمارات، وتسمية الظنّ علماً يؤذن بأنّ الظنّ الغالب، وما يفضي إليه القياس جارٍ مجرى العلم، وصاحبه غير داخل في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ فلا تردّوهن إلى أزواجهنّ المشركين ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: لا حلّ بين المؤمنة والمشرك لوقوع الفرقة بينهما بخروجها مسلمة ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ وأعطوا أزواجهنّ مثل ما دفعوا إليهنّ من المهور. ونزلت الآية بعد صلح الحديبية، وكان الصلح قد وقع على أن يردّ على أهل مكّة من جاء مؤمناً منهم. فأنزل الله هذه الآية بياناً؛ إنَّ ذلك في الرجال، لا في النساء؛ لأنّ المسلمة لا تحلّ للكافر. وقيل: نسخت هذه الآية الحكم الأوّل ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ثمَّ نفى عنهم الجناح في تزوّج هؤلاء المهاجرات ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنّ؛ لأنّ المهر أجر البضع. وبه احتجّ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ على أن لا عدّة على المهاجرة ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ﴾ بصريٌّ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.
العصمة: ما يعتصم به من عقدٍ وسبب. والكوافر: جمع كافرة. وهي التي بقيت

وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ

في دار الحرب، أو لحقت بدار الحرب مرتدّةً. أي: لا يكن بينكم وبينهنّ عصمة، ولا علقة زوجيّة. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من كانت له امرأة كافرة بمكّة فلا تَعتدَنَّ بها من نسائه؛ لأنّ اختلاف الدارين قطع عصمتها منه ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفّار ممن تزوّجها ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ من مهور نسائهم المهاجرات ممن تزوّجها منا ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي: جميع ما ذكر في هذه الآية ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كلام مستأنف، أو: حال من حكم الله على حذف الضمير. أي: يحكمه الله. أو: جعل الحكم حاكماً على المبالغة. وهو منسوخ، فلم يبق سؤال المهر؛ لا منّا؛ ولا منهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

١١ ـ ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ وإن انفلت أحدٌ منهنّ إلى الكفّار ـ وهو في قراءة ابن مسعود رضي الله عنه (أحد) ـ ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ فأصبتموهم في القتال بعقوبة حتّى غنمتم ـ عن الزجّاج ـ ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ فأعطوا المسلمين الذين ارتدّت زوجاتهم، ولحقن بدار الحرب مهور زوجاتهم من هذه الغنيمة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ وقيل: هذا الحكم منسوخٌ أيضاً.

١٢ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ هو حال ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ يريد: وأد البنات ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك. كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً؛ لأنّ بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين وفرجها الذي تلده به بين الرجلين

وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ طاعة الله ورسوله ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ عمّا مضى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ بتمحيق ما سلف، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بتوفيق ما ائتنف. وروي: أنّ رسول الله ﷺ لمّا فرغ يوم فتح مكّة من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه يبايعهنّ عنه بأمره، ويبلغهنّ عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متقنّعة متنكّرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها؛ لما صنعت بحمزة. فقال ﷺ: «أبايعكنّ على ألاّ تشركن بالله شيئاً» فبايع عمر النساء على ألاّ يشركن بالله شيئاً. فقال ﷺ: «ولا يسرقن» فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، وإنّي أصبت من ماله هَنَاتٍ. فقال أبو سفيان: ما أصبت فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ، وعرفها فقال لها: «إنّك لهند» قالت: نعم، فاعف عمّا سلف يا نبيّ الله عفا الله عنك! فقال: «ولا يزنين» فقالت: أو تزني الحرّة؟ فقال: «ولا يقتلن أولادهنّ» فقالت: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً. فأنتم وهم أعلم ـ وكان ابنها حنظلة قد قتل يوم بدر ـ فضحك عمر ـ رضي الله عنه ـ حتّى استلقى، وتبسّم رسول الله ﷺ فقال: «ولا يأتين ببهتان» فقالت: والله إنّ البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلاّ بالرشد ومكارم الأخلاق! فقال: «ولا يعصينك في معروف» فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيءٍ ـ وهو يشير: إلى أنّ طاعة الولاة لا تجب في المنكر[1] ـ.

١٣ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ختم السورة بما بدأ به. قيل: هم المشركون ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ من ثوابها؛ لأنّهم ينكرون البعث

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٩ و٥٠ و٢٠٦) وأبو داود (٣٥٣٢) والنسائي (٨/ ٢٤٦).
وانظر القصة في أسد الغابة (٥/ ٥٦٢) والإصابة (٤/ ٤٠٩) والطبقات (٨/ ٢٣٦ ـ٢٣٧).

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ١٣﴾

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ أي: كما يئسوا، إلاّ أنّه وضع الظاهر موضع الضمير ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أن يرجعوا إليهم. أو كما يئس أسلافهم الذين هم في القبور من الآخرة. أي: هؤلاء كسلفهم. وقيل: هم اليهود. أي: ﴿لا تتولّوا قوماً﴾ مغضوباً عليهم ﴿قد يئسوا من﴾ أن يكون لهم حظّ في ﴿الآخرة﴾ لعنادهم رسول الله ﷺ، وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت في التوراة ﴿كما يئس الكفّار من﴾ موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء. وقيل: ﴿من أصحاب القبور﴾ بيان للكفّار؛ أي: ﴿كما يئس الكفّار﴾ الذين قُبِروا من خير الآخرة؛ لأنّهم تبيّنوا قبح حالهم وسوء منقلبهم.

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

١، ٢ ـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ روي: أنهم قالوا قبل أن يؤمروا بالجهاد: لو نعلم أحبّ الأعمال إلى الله لعملناه. فنزلت آية الجهاد، فتباطأ بعضهم، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. ﴿لِمَ﴾ هي: لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية، كما دخل عليها غيرها من حروف الجرّ في قولك: بم، وفيم، ومم، وعم، وإلام، وعلام. وإنّما حذفت الألف؛ لأنّ ما، واللام، أو غيرها كشيءٍ واحد.. وكَثُرَ الاستعمال في كلام المستفهم. وقد جاء استعمال الأصل قليلاً قال:

علام قام يشتمني جرير؟ *

والوقف على زيادة هاء السكت، أو الإسكان. ومن أسكن في الوصل فلإجرائه مجرى الوقف.

٣ ـ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قصد في ﴿كبر﴾ التعجّب من غير لفظه كقوله:

غَلَتْ نابٌ كُلَيْبٌ بَواؤُها

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ﴾

ومعنى التعجب: تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأنّ التعجب لا يكون إلاّ من شيءٍ خارج عن نظائره. وأسند إلى ﴿أن تقولوا﴾ ونصب ﴿مقتاً﴾ على التمييز. وفيه دلالة: على أنّ قولهم مالا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه. والمعنى: ﴿كبر﴾ قولكم مالا تفعلون مقتاً عند الله. واختير لفظ المقت؛ لأنه أشدّ البغض. وعن بعض السلف: أنّه قيل له: حدّثنا. فقال: أتأمرونني أن أقول مالا أفعل، فَأَسْتَعْجِلَ مقت الله؟!

٤ ـ ثُمَّ أعلم الله عزّ وجلّ ما يحبّه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾ أي: صافّين أنفسهم، مصدر وقع موقع الحال ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ لاصق بعضه ببعض. وقيل: أريد به: استواء نيّاتهم في حرب عدوّهم، حتّى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان الذي رصَّ بعضه إلى بعض. وهو حالٌ أيضاً.

٥ ـ ﴿وَإِذۡ﴾ منصوب باذكر ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾ بجحود الآيات، والقذف بما ليس فيَّ ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ﴾ في موضع الحال؛ أي: ﴿لم تؤذونني﴾ عالمين علماً يقيناً ﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ وقضيّة علمكم بذلك توقيري، وتعظيمي، لا أن تؤذوني ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ مالوا عن الحقّ ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ من الهداية. أو: لمّا تركوا أوامره نزع نور الإيمان من قلوبهم. أو: فلمّا اختاروا الزيغ ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ أي: خذلهم وحرمهم توفيق اتّباع الحقّ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا يهدي من سبق في علمه: أنّه فاسق.

٦ ـ ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولم يقل: يا قوم كما قال موسى، لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ

﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾

﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ أي: أرسلت إليكم في حال تصديقي ما تقدّمني من التوراة، وفي حال تبشيري برسول يأتي من بعدي. يعني: أنّ ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدّم وتأخّر. ﴿بَعْدِيَ﴾ حجازيٌّ، وأبو عمرو، وأبو بكر، وهو اختيار الخليل وسيبويه. وانتصب ﴿مصدّقاً﴾ ﴿ومبشّراً﴾ بما في الرسول من معنى الإرسال ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ عيسى، أو محمّد عليهما الصلاة السلام ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. (ساحر) حمزةُ، وعليٌّ.

٧ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وأيّ الناس أشدّ ظلماً ممن يدعوه ربّه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته إليه افتراءَ الكذب على الله بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحقّ: ﴿هذا سحر﴾، والسحر: كذبٌ، وتمويهٌ.

٨ ـ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ هذا تهكّم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: ﴿هذا سحر﴾. مثّلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه. والمفعول محذوف، واللام للتعليل. والتقدير: ﴿يريدون﴾ الكذب ﴿ليطفئوا نورَ الله بأفواههم﴾ أي: بكلامهم ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ مكّيٌّ، وحمزةُ، وعليٌّ، وحفص. ﴿متمٌّ نورَه﴾ غيرهم. أي: متمُّ الحقِّ، ومُبَلِّغُه غايته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

٩ ـ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الملّة الحنيفيّة ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جميع الأديان المخالفة له. ولعمري لقد فعل! فما بقى دين من الأديان إلاّ وهو مغلوبٌ مقهورٌ بدين الإسلام. وعن مجاهد: إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض إلاّ دين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

١٠ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تُنَجِّيكُم: شاميّ.

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾

١١ ـ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ استئناف كأنّهم قالوا: كيف نعمل؟ فقال: ﴿تؤمنون﴾ وهو بمعنى: آمنوا عند سيبويه. ولهذا أجيب بقوله: ﴿يغفر لكم﴾. ويدلّ عليه قراءة ابن مسعود: (آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا). وإنّما جيء به على لفظ الخبر للإيذان بوجوب الامتثال، وكأنّه امتثل، فهو يخبر عن إيمانٍ وجهادٍ موجودين ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنّه خير لكم كان خيراً لكم حينئذ؛ لأنّكم إذا علمتم ذلك، واعتقدتموه أحببتم الإيمان، والجهاد فوق ما تحبّون أموالكم وأنفسكم، فتخلصون وتفلحون.

١٢ ـ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة وخلود. يقال: عدن بالمكان إذ أقام به. كذا قيل ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

١٣ ـ ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمةٌ أخرى عاجلةٌ محبوبةٌ إليكم. ثمّ فسّرها بقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجل. وهو فتح مكّة، والنصر على قريش. أو: فتح فارس، والروم. وفي ﴿تحبّونها﴾ شيء من التوبيخ على محبّة العاجل. وقال صاحب الكشف: «معناه: ﴿هل أدلّكم على تجارةٍ تنجيكم﴾ ﴿و﴾ على تجارة ﴿أخرى تحبّونها﴾. ثمّ قال: ﴿نصرٌ﴾ أي: هي ﴿نصر﴾ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على ﴿تؤمنون﴾ لأنّه في معنى الأمر. كأنّه قيل: آمنوا، وجاهدوا يثبكم الله، وينصركم، ﴿وبشّر﴾ يا رسول الله ﴿المؤمنين﴾ بذلك. وقيل: هو عطف على «قل» مراداً قبل: ﴿يأيّها الذين آمنوا هل أدلّكم﴾.

١٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي: ﴿أنصار﴾ دينه ﴿أنصاراً لله﴾ حجازيٌّ، وأبو عمرو ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ظاهره تشبيه

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ١٤﴾

كونهم أنصاراً بقول عيسى: ﴿من أنصاري إلى الله﴾. ولكنّه محمول على المعنى: أي: ﴿كونوا أنصار الله كما﴾ كان الحواريّون أنصار عيسى حين قال لهم: ﴿من أنصاري إلى الله﴾. ومعناه: ﴿من﴾ مِنْ جندي متوجّهاً ﴿إلى﴾ نصرة ﴿الله﴾ ليطابق جواب الحواريّين، وهو قوله: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: نحن الذين ينصرون الله. ومعنى: ﴿من أنصاري﴾ مَن الأنصار الذين يختصّون بي، ويكونون معي في نصرة الله. و﴿الحواريّون﴾: أصفياؤه. وهم أوّل من آمن به. وكانوا اثني عشر رجلاً. وحواريّ الرجل: صفيّه، وخالصته. من: الحور، وهو البياض الخالص. وقيل: كانوا قصّارين يحوّرون الثياب. أي: يبيّضونها ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بعيسى ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ به ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ فقوّينا مؤمنيهم على كفّارهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾ فغلبوا عليهم.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

---

١ ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ التسبيح إمّا أن يكون تسبيح خلقة. يعني: إذا نظرت إلى كلّ شيء دلتك خلقته على وحدانيّة الله تعالى، وتنزيهه عن الأشباه. أو تسبيح معرفة: بأن يجعل الله بلطفه في كلّ شيءٍ ما يعرف به الله تعالى وينزّهه. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] أو تسبيح ضرورة: بأن يجري الله التسبيح على كلّ جوهر من غير معرفةٍ له بذلك.

٢ ـ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ﴾ أرسل ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي: بعث رجلاً أمّياً في قوم أمّيين. وقيل: ﴿منهم﴾ كقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] يعلمون نسبه وأحواله. والأمّيّ: منسوب إلى أمّة العرب؛ لأنّهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون من بين الأمم. وقيل: بدئت الكتابة بالطائف، وهم أخذوها من أهل الحيرة، وأهل الحيرة من أهل الأنبار ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهّرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن

وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السنّة، أو الفقه في الدين ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ من قبل محمّد ﷺ ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كفر وجهالة ﴿وإن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واللام دليل عليها. أي: كانوا في ضلال، لا ترى ضلالاً أعظم منه.

٣ ـ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ مجرور معطوف على ﴿الأمّيّين﴾ يعني: أنّه بعثه ﴿في الأمّيّين﴾ الذين على عهده ﴿و﴾ في ﴿آخرين﴾ من الأمّيّين ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ أي: لم يلحقوا بهم بعد، وسيلحقون بهم. وهم الذين بعد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أو: هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم الدين. وقيل: هم العجم. أو منصوب معطوف على المنصوب في ﴿ويعلّمهم﴾ أي: يعلّمهم ﴿و﴾ يعلم ﴿آخرين﴾؛ لأنّ التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كلّه مستنداً إلى أوّله، فكأنّه هو الذي تولّى كلّ ما وجد منه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في تمكينه رجلاً أميّاً من ذلك الأمر العظيم، وتأييده عليه، واختياره إيّاه من بين كافّة البشر.

٤ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الفضل الذي أعطاه محمداً، وهو: أن يكون نبيَّ أبناء عصره، ونبيَّ أبناء العصور الغوابر، هو ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ إعطاءه، وتقتضيه حكمته ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

٥ ـ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ كلّفوا علمها، والعمل بما فيها، ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ثمّ لم يعملوا بها فكأنّهم لم يحملوها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ جمع: سفر، وهو: الكتاب الكبير. و﴿يحمل﴾ في محلّ النصب على الحال، أو الجرّ على الوصف؛ لأنّ الحمار كاللئيم في قوله:

ولقد أمرّ على اللئيم يسبّني[1] ... ...

شبّه اليهود في أنّهم حملة التوراة وقرّاؤها، وحفّاظ ما فيها، ثمّ لم يعملوا

(١) صدر بيت، وعجزه: فأعِفُّ ثم أقول لا يعنيني.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ
صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ
ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

بها، ولم ينتفعوا بآياتها ـ وذلك: أنّ فيها نعت رسول الله ﷺ، والبشارة به، ولم يؤمنوا به ـ بالحمار حُمِّلَ كتباً كباراً من كتب العلم، فهو يمشي بها، ولا يدري منها إلاّ ما يمرّ بجنبيه وظهره من الكدّ والتعب. وكلّ من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ﴿بئس﴾ مثلاً ﴿مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله﴾. أو: ﴿بئس مثل القوم﴾ المكذّبين مثلهم. وهم اليهود؛ الذين كذّبوا بآيات الله الدالّة على صحّة نبوّة محمد ﷺ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: وقت اختيارهم الظلم. أو: ﴿لا يهدي﴾ من سبق في علمه: أنّه يكون ظالماً.

٦، ٧ ـ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ هادَ، يهود: إذا تهوّد ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] أي: إن كان قولكم حقّاً، وكنتم على ثقة فتمنّوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدّها لأوليائه. ثمّ قال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما قدموا من الكفر. ولا فرق بين «لا» و«لن» في أنّ كلّ واحدةٍ منهما نفي للمستقبل، إلاّ أنّ في «لن» تأكيداً وتشديداً ليس في «لا» فأتى مرّة بلفظ التأكيد ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥] ومرّةً بغير لفظه ﴿ولا يتمنّونه﴾ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وعيدٌ لهم.

٨ ـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ولا تجسرون أن تتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ لا محالة. والجملة خبر ﴿إنّ﴾ ودخلت الفاء لتضمُّن ﴿الذي﴾ معنى الشرط ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا

٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ النداء: الأذان. و﴿من﴾ بيان لإذا، وتفسير له، ويوم الجمعة: سيد الأيام. وفي الحديث: «من مات يوم الجمعة كَتَب الله له أجر شهيد، ووقي فتنة القبر»[1] ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾ فامضوا. وقرىء بها. وقال الفرّاء: السعي، والمضيّ، والذهاب، واحد. وليس المراد به: السرعة في المشي ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى الخطبة عند الجمهور. وبه استدلّ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ على أنّ الخطيب إذا اقتصر على «الحمد لله» جاز ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا، وإنّما خصّ البيع من بينها؛ لأنّ يوم الجمعة يتكاثر فيه البيع والشراء عند الزوال. فقيل لهم: بادروا تجارة الآخرة، واتركوا تجارة الدنيا، واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح ﴿وذروا البيع﴾ الذي نفعه يسير ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: السعي إلى ذكر الله ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من البيع والشراء ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

١٠ ـ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي: أدّيت ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ـ أمر إباحة ـ ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ الرزق، أو: طلب العلم، أو: عيادة المريض، أو: زيارة أخ في الله ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ واشكروه على ما وفّقكم لأداء فرضه ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

١١ ـ ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ تفرّقوا عنك إليها. وتقديره: ﴿وإذا رأوا تجارةً﴾ انفضوا إليها ﴿أو لهواً﴾ انفضوا إليه، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، وإنّما خصّ التجارة؛ لأنّها كانت أهمّ عندهم.

روي: أنّ أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء، فقدم دحية بن خليفة بتجارة

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٤١١٣) وأبو نعيم في الحلية (٣ / ١٥٥).

﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾

من زيت الشام، والنبيُّ ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقاموا إليه، فما بقي معه إلاّ ثمانية، أو اثنا عشر. فقال ﷺ: «والذي نفس محمّد! بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً»[1]. وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق، فهو المراد باللهو ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ على المنبر ﴿قَآئِمًا﴾ تخطب. وفيه دليل: على أنّ الخطيب ينبغي أن يخطب قائماً ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: لا يفوتهم رزق الله بترك البيع، فهو خير الرازقين.

* * *

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٨٦).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا

---

١ ـ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أرادوا شهادة واطأت قلوبهم فيها ألسنتهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ أي: ﴿والله يعلم﴾ إنّ الأمر كما يدلّ عليه قولهم: ﴿إنّك لرسول الله﴾ ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ في ادّعاء المواطأة. أو: إنّهم ﴿لكاذبون﴾ فيه؛ لأنّه إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة في الحقيقة، فهم كاذبون في تسميته شهادةً. أو: إنّهم ﴿لكاذبون﴾ عند أنفسهم؛ لأنّهم كانوا يعتقدون: أنّ قولهم ﴿إنك لرسول الله﴾ كذب، وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه.

٢ ـ ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ وقايةً من السبي والقتل. وفيه دليل: على أن: «أشهد» يمين ﴿فَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن الإسلام بالتنفير، وإلقاء الشبه ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من نفاقهم، وصدّهم الناس عن سبيل الله. وفي ﴿ساء﴾ معنى التعجّب؛ الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين.

٣ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿ساء ما كانوا يعملون﴾. أي: ﴿ذلك﴾ القول الشاهد عليهم بأنّهم أسوأ الناس أعمالاً ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾. أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾

أي: ذلك كله ﴿بـ﴾ سبب ﴿بأنهم آمنوا﴾ أي: نطقوا بكلمة الشهادة، وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام ﴿ثم كفروا﴾ ثمّ ظهر كفرهم بعد ذلك بقولهم: إن كان ما يقوله محمّد حقّاً فنحن حمير، ونحو ذلك. أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثمّ نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاءً بالإسلام. كقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا...﴾ الآية [البقرة: ١٤] ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فختم عليها حتّى لا يدخلها الإيمان جزاءً على نفاقهم ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يتدبّرون، أو لا يعرفون صحّة الإيمان.

٤ ـ والخطاب في ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لرسول الله، أو: لكلّ من يخاطب ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ كان ابن أبيٍّ رجلاً جسيماً، صبيحاً، فصيحاً، وقوم من المنافقين في مثل صفته. فكانوا يحضرون مجلس النبيّ ﷺ، فيستندون فيه، ولهم جهارة المناظر، وفصاحة الألسن. فكان النبيُّ ﷺ ومن حضر يعجبون بهياكلهم، ويسمعون إلى كلامهم. وموضع ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ رفع على هم ﴿كأنّهم خشب﴾ أو هو كلام مستأنف لا محلّ له ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ إلى الحائط. شبّهوا في استنادهم ـ وما هم إلاّ أجرام خالية عن الإيمان والخير ـ بالخشب المسندة إلى الحائط؛ لأنّ الخشب إذا انتفع به كان في سقفٍ، أو جدارٍ، أو غيرهما من مظانّ الانتفاع، وما دام متروكاً غير منتفع به أسند إلى الحائط. فشبّهوا به في عدم الانتفاع. أو: لأنّهم أشْباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام ﴿خُشْبٌ﴾ أبو عمرو، غير عبّاس وعليّ، جمع: خشبة؛ كبدنة، وبدن. و﴿خُشُب﴾ كثمرة، وثُمُر ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿كلّ صيحة﴾ مفعول أوّل. والمفعول الثاني: ﴿عليهم﴾. وتمّ الكلام. أي: ﴿يحسبون كلَّ صيحةٍ﴾ واقعةً ﴿عليهم﴾ وضارّةً لهم لجبنهم ورعبهم. يعني: إذا نادى منادٍ في العسكر، أو انفلتت دابّة، أو أنشدت ضالّة؛ ظنّوه إيقاعاً بهم. ثمّ قال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي: هم الكاملون في العداوة؛ لأنّ أعدى الأعداء العدوّ المداجي؛ الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء

﴿فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾

الدويُّ ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ ولا تغترر بظاهرهم ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم. أو: تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يعدلون عن الحقّ، تعجُّباً من جهلهم، وضلالتهم.

٥ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ عطفوها، وأمالوها إعراضاً عن ذلك واستكباراً ﴿لَوَوْا﴾ بالتخفيف نافع ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرضون ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتذار والاستغفار.

روي: أنّ رسول الله ﷺ حين لقي بني المصطلق على المريسيع ـ وهو ماءٌ لهم ـ وهزمهم، وقتلهم، ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر، وسنان الجهنيّ حليف لابن أُبيٍّ، واقتتلا. فصرخ جهجاه: يا للمهاجرين! وسنان: يا للأنصار! فأعان جهجاهاً جعالٌ من فقراء المهاجرين، ولطم سناناً. فقال عبد الله لجعال: وأنت هناك! وقال: ما صحبنا محمّداً إلاّ لنُلطَم! والله ما مثلنا ومثلهم إلاّ كما قال: سمّن كلبك يأكلك! أما والله! ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ﴾ عنى بالأعزّ نفسه، وبالأذلّ رسول الله ﷺ. ثمّ قال لقومه: والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمّد. فسمع بذلك زيد بن أرقم ـ وهو حدث ـ فقال: أنت والله الذليل، القليل، المُبَغَّضُ في قومك، ومحمّد في عزٍّ من الرحمن، وقوّةٍ من المسلمين. فقال عبد الله: اسكت! فإنّما كنت ألعب. فأخبر زيدٌ رسول الله ﷺ. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله! فقال: «إذن تُرْعَدُ آنُفٌ كثيرة بيثرب» قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجريّ، فأمر به أنصارياً. قال: «فكيف إذا تحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه؟» وقال ﷺ لعبد الله: «أنت صاحب الكلام الذي بلغني». قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإنّ زيداً لكاذب. فهو قوله: ﴿اتّخذوا أيمانهم جنّة﴾ فقال الحاضرون: «يا رسول الله! شيخنا وكبيرنا، لا تصدّق عليه كلام غلامٍ عسى أن يكون قد وهم. فلمّا نزلت قال

سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

رسول الله ﷺ لزيد: «يا غلام إنّ الله قد صدقك وكذّب المنافقين» فلمّا بان كذب عبد الله؛ قيل له: قد نزلت فيك آيٌ شدادٌ، فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك، فلوى رأسه فنزل: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله﴾ ولم يلبث إلاّ أيّاماً حتّى اشتكى ومات[1].

٦ ـ ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ أي: ما داموا على النفاق. والمعنى: سواء عليهم الاستغفار وعدمه؛ لأنّهم لا يلتفتون إليه، ولا يعتدّون به؛ لكفرهم. أو: لأنّ الله لا يغفر لهم. وقرىء ﴿استغفرت﴾ على حذف حرف الاستفهام؛ لأن ﴿أم﴾ المعادلة تدلّ عليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

٧ ـ ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾ يتفرّقوا ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: وله الأرزاق والقسم، فهو رازقهم منها؛ وإن أبى أهل المدينة أن ينفقوا عليهم ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ولكنّ عبد الله وأضرابه جاهلون لا يفقهون ذلك، فيهذون بما يزيّن لهم الشيطان.

٨ ـ ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ ﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ ﴾ الغلبة والقوّة ﴿ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولمن أعزّه الله وأيّده من رسوله ومن المؤمنين. وهم الأخصّاء بذلك، كما أنّ المذلّة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين. وعن بعض الصالحات وكانت في هيئة رثّة: ألست على الإسلام وهو العزّ الذي لا ذلّ معه والغنى الذي لا فقر معه؟ وعن الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ أنّ رجلاً قال له: إنّ الناس يزعمون

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٢٨٧) وأصل القصة في الصحيحين.

وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

أنّ فيك تيهاً. قال: ليس بتيه، ولكنّه عزّة. وتلا هذه الآية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٩ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ﴾ لا تشغلكم ﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾ والتصرف فيها، والسعي في تدبير أمرها بالنماء وطلب النتاج ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ وسروركم بهم وشفقتكم عليهم والقيام بمؤنهم ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الصلوات الخمس، أو: عن القرآن ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يريد الشغل بالدنيا عن الدين. وقيل: من يشتغل بتثمير أمواله عن تدبير أحواله، وبمرضاة أولاده عن إصلاح معاده، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في تجارتهم؛ حيث باعو الباقي بالفاني.

١٠ ـ ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ ﴿من﴾ للتبعيض. والمراد بالإنفاق: الواجب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: ﴿من قبل أن﴾ يرى دلائل الموت، ويعاين ما ييأس معه من الإمهال، ويتعذّر عليه الإنفاق ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ هلا أخّرت موتي ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلى زمان قليلٍ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فأتصدّق ـ وهو جواب ﴿لولا﴾ ـ ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ المؤمنين. والآية في المؤمنين. وقيل: في المنافقين. (وأكون) أبو عمرو بالنصب عطفاً على اللفظ. والجزم على موضع ﴿فأصّدّق﴾ كأنّه قيل: إن أخّرتني أصّدّقْ وأكنْ.

١١ ـ ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ عن الموت ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ المكتوب في اللوح المحفوظ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١) حمّاد، ويحيى ـ والمعنى: أنّكم إذا علمتم: أنّ تأخير الموت عن وقته ممّا لا سبيل إليه، وأنّه هاجم لا محالة، وأنّ الله عليم

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ قراءة: ﴿يعلمون﴾. وهي قراءة من ذكرهم.

. . . .

بأعمالكم فمجازٍ عليها من منع واجب وغيره، لم يبق إلاّ المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجبات، والاستعداد للقاء الله.

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾

---

١ ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدّم الظرفان ليدلّ بتقديمها على اختصاص الملك والحمد بالله عزّ وجلّ، وذلك لأنّ الملك على الحقيقة له؛ لأنه مبدىء كلّ شيء، والقائم به. وكذا الحمد؛ لأنّ أصول النعم وفروعها منه. وأمّا ملك غيره فتسليط منه واسترعاء، وحمد غيره اعتداد بأنّ نعمة الله جرت على يده.

٢ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أي: فمنكم آتٍ بالكفر، وفاعلٍ له، ومنكم آتٍ بالإيمان، وفاعل له. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: عالم وبصير بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم. والمعنى: ﴿هو الذي﴾ تفضّل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد من العدم. وكان يجب أن تكونوا بأجمعكم شاكرين. فما بالكم تفرّقتم أمماً ﴿فمنكم الكافر ومنكم مؤمن﴾؟ وقدّم الكفر لأنّه الأغلب عليهم والأكثر فيهم. وهو ردّ لقول من يقول بالمنزلة بين المنزلتين. وقيل: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر﴾ بالخلق وهم الدهريّة ﴿ومنكم مؤمن﴾ به.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

---

٣ ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة البالغة. وهو أن جعلها مقارّ المكلّفين، ليعملوا فيجازيهم ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: جعلكم أحسن الحيوان كلّه، وأبهاه بدليل: أنّ الإنسان لا يتمنّى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور. ومن حسن صورته: أنّه خلق منتصباً غير منكبٍّ. ومن كان دميماً، مشوّه الصورة، سمج الخلقة، فلا سماجة ثمّ، ولكن الحسن على طبقات. فلانحطاطها عمّا فوقها لا تستملح، ولكنّها غير خارجة عن حدّ الحسن. وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال، والبيان ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأحسنوا سرائركم، كما أحسن صوركم.

٤ ـ ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ نبّه بعلمه ما في السموات والأرض، ثمّ بعلمه بما يُسِرُّه العباد ويعلنونه، ثمّ بعلمه بذات الصدور؛ أنّ شيئاً من الكلّيات، والجزئيّات غير خافٍ عليه. فحقّه أن يُتّقى ويحذر، ولا يجترأ على شيءٍ ممّا يخالف رضاه. وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد. وكل ما ذكره بعد قوله: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ في معنى الوعيد على الكفر، وإنكار أن يعصى الخالق، ولا تشكر نعمته.

٥ ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الخطاب لكفّار مكّة ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ يعني: قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ذاقوا وبال كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في العقبى.

٦ ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعدّ لهم من العذاب في الآخرة ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بأنّ الشأن والحديث ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أنكروا الرسالة للبشر، ولم ينكروا العبادة للحجر ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ بالرسل ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن الإيمان ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ أطلق ليتناول كلّ شيء، ومن جملته إيمانهم وطاعتهم ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ على صنعه.

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧
فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ
ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ
ٱلۡمَصِيرُ ١٠ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ

٧، ٨ ـ ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: أهل مكّة، والزعم: ادّعاء العلم. ويتعدّى تَعدِّيَ العلم ﴿أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾: ﴿أن﴾ مع ما في حيّزه قائم مقام المفعولين. وتقديره: أنهم ﴿لن يبعثوا﴾ ﴿قُلۡ بَلَىٰ﴾ هو إثبات لما بعد ﴿لن﴾ وهو البعث ﴿وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ أكّد الإخبار باليمين. فإن قلت: ما معنى اليمين على شيء أنكروه؟ قلت: هو جائز؛ لأنّ التهديد به أعظم موقعاً في القلب، فكأنّه قيل لهم: ما تنكرونه كائنٌ لا محالة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ﴾ أي: البعث ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ هيّن ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ يعني: القرآن؛ لأنه يبين حقيقة كلّ شيءٍ، فيهتدىٰ به؛ كما بالنور ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فراقبوا أموركم.

٩ ـ ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ﴾ انتصب الظرف بقوله: ﴿لتنبؤن﴾ أو بإضمار اذكر ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾ يجمع فيه الأوّلون، والآخرون ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ هو مستعار من: تغابن القوم في التجارة، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً؛ لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء، ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء. كما ورد في الحديث. ومعنى: ﴿ذلك يوم التغابن﴾ ـ وقد يتغابن الناس في غير ذلك اليوم ـ: استعظام له، وأنّ تغابنه هو التغابن في الحقيقة، لا التغابن في أمور الدنيا ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ صفة للمصدر؛ أي: عملاً ﴿صالحاً﴾ ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ﴾ وبالنون فيهما: مدنيٌّ، وشاميٌّ ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

١٠، ١١ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ شدّة، ومرض، وموت أهلٍ، أو إلّا

إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

شيء يقتضي همّاً ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بعلمه، وتقديره، ومشيئته. كأنّه أذن للمصيبة أن تصيبه ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ للاسترجاع عند المصيبة حتى يقول: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦] أو بشرحه للازدياد من الطاعة والخير. أو: ﴿يهد قلبه﴾ حتى يعلم: أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وعن مجاهد: إن ابتلي صبر، وإن أعطي شكر، وإن ظُلِم غفر ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٢ - ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عن طاعة الله، وطاعة رسوله ﴿ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: فعليه التبليغ. وقد فعل.

١٣ - ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ بَعْثٌ[1] لرسول الله ﷺ على التوكّل عليه حتّى ينصره على من كذّبه، وتولّى عنه.

١٤ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ أي: إنّ من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهنّ ويخاصمنهم، ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقّونهم ﴿ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ الضمير للعدوّ، أو للأزواج والأولاد جميعاً. أي: لما علمتم أنّ هؤلاء لا يخلون من عدوّ، فكونوا منهم على حذر، ولا تأمنوا غوائلهم، وشرّهم ﴿وَإِن تَعْفُوا۟﴾ عنهم إذا اطّلعتم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها ﴿ وَتَصْفَحُوا۟﴾ تعرضوا عن التوبيخ ﴿ وَتَغْفِرُوا۟﴾ بستر ذنوبهم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لكم ذنوبكم، ويكفّر عنكم. قيل: إنَّ ناساً أرادوا الهجرة عن مكّة فثبّطهم أزواجُهم وأولادُهم، وقالوا: تنطلقون وتضيعوننا. فرقّوا لهم ووقفوا. فلمّا هاجروا بعد ذلك، ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا في الدين،

(١) أي: تحريض.

إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ
وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ

أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم، فزيّن لهم العفو.

١٥ ـ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ بلاءٌ، ومحنةٌ؛ لأنّهم يوقعون في الإثم والعقوبة، ولا بلاء أعظم منهما ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: في الآخرة. وذلك أعظم من منفعتكم بأموالكم وأولادكم. ولم يدخل فيه ﴿مِنْ﴾ كما في العداوة؛ لأنّ الكلّ لا يخلو عن الفتنة وشغل القلب، وقد يخلو بعضهم عن العداوة.

١٦ ـ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ جهدكم ووسعكم. قيل: هو تفسير لقوله: ﴿حقّ تقاته﴾ ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما توعظون به ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ فيما تؤمرون به، وتنهون عنه ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ في الوجوه التي وجبت عليكم النفقة فيها ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي: إنفاقاً خيراً لأنفسكم. وقال الكسائيّ: يكن الإنفاق ﴿خيراً لأنفسكم﴾. والأصح: أنّ تقديره ائتوا ﴿خيراً لأنفسكم﴾ وافعلوا ما هو خير لها. وهو تأكيد للحثّ على امتثال هذه الأوامر، وبيان؛ لأنّ هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد، وما أنتم عاكفون عليه من حبّ الشهوات، وزخارف الدنيا ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ أي: البخل بالزكاة والصدقة الواجبة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

١٧ ـ ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بنيةٍ وإخلاصٍ. وَذِكْرُ القرض تلطّف في الاستدعاء ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ يكتب لكم بالواحدة عشراً، أو سبعمئة إلى ما شاء من الزيادة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يقبل القليل، ويعطي الجزيل ﴿حَلِيمٌ﴾ يقيل الجليل من ذنب البخيل. أو يُضَعِّفُ الصدقة لدافعها، ولا يعجِّلُ العقوبة لمانعها.

١٨ ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: يعلم ما استتر من سرائر القلوب ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾

أي: ما انتشر من ظواهر الخطوب ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المعزّ بإظهار السُّيُوب[1] ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في الإخبار عن الغيوب.

* * *

(١) «السيوب»: جمع السَّيْب، وهو العطاء والمال والمعروف.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ

---

١ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ خُصَّ النبيّ ﷺ بالنداء، وعُمَّ بالخطاب؛ لأنّ النبيَّ إمام أمّته وقدوتهم. كما يقال لرئيس القوم: يا فلان افعلوا كذا؛ إظهاراً لتقدمه، واعتباراً لترؤّسه، وأنّه قدوة قومه. فكان هو وحده في حكم كلّهم، وسادّاً مسدَّ جميعهم. وقيل: التقدير: ﴿ياأيّها النبيّ﴾ والمؤمنون. ومعنى: ﴿إذا طلّقتم النساء﴾ إذا أردتم تطليقهنّ. على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه. كقوله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[١]. ومنه: كان الماشي إلى الصلاة، والمنتظر لها في حكم المصلي ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فطلقوهن مستقبلات ﴿لعدتهن﴾. وفي قراءة رسول الله ﷺ (في قبل عدّتهن). وإذا طلّقت المرأة في الطهر المتقدّم للقرء الأوّل من أقرائها فقد طلّقت مستقبلة لعدّتها. والمراد: أن تطلّق المدخول بهنّ من المعتدّات بالحيض في طهر لم يجامعن فيه، ثمّ يُخلَّيْنَ حتّى تنقضي عدّتهنّ. وهذا أحسن الطلاق ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ واضبطوها بالحفظ، وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبلاتٍ كوامل، لا نقصان فيهنّ. وخوطب

---

(١) رواه أحمد (٣ / ١١٤ و ١٩٠ و ٢٧٩) والبخاري (٣٠٥١) ومسلم (١٨٠٩).

وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ

الأزواج لغفلة النساء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ حتى تنقضي عدتهنّ ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مساكنهنَّ التي يسكنّها قبل العدّة، وهي بيوت الأزواج. وأضيفت إليهنّ لاختصاصها بهنّ من حيث السكنى. وفيه دليل على أنّ السكنى واجبٌ، وأنّ الحنث بدخول دارٍ يسكنها فلان بغير ملك ثابتٌ فيما إذا حلف: لا يدخل داره. ومعنى الإخراج: ألاّ يخرجهنّ البعولة غضباً عليهنَّ، وكراهة لمساكنتهنّ، أو لحاجة لهم إلى المساكن، وألاّ يأذنوا لهنَّ في الخروج إذا طلبن ذلك، إيذاناً بأنّ إذنهم لا أثر له في رفع الحظر ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ بأنفسهنّ إن أردن ذلك ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ قيل: هي الزنى. أي: إلاّ أن يزنين، فيخرجن لإقامة الحدّ عليهنَّ. وقيل: خروجها قبل انقضاء العدّة فاحشة في نفسه ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: الأحكام المذكورة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي﴾ أيها المخاطب ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ بأن يقلب قلبه من بغضها إلى محبّتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه، فيراجعها. والمعنى: ﴿فطلّقوهنّ لعدّتهنّ وأحصوا العدّة﴾ و ﴿لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ﴾ لعلّكم تندمون فتراجعون.

٢، ٣ ـ ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ قاربن آخر العدّة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فأنتم بالخيار: إن شئتم فالرجعة، والإمساك بالمعروف، والإحسان. وإن شئتم فترك الرجعة، والمفارقة، واتّقاء الضرار، وهو: أن يراجعها في آخر عدّتها، ثمّ يطلّقها تطويلاً للعدّة عليها، وتعذيباً لها ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ يعني: عند الرجعة والفرقة جميعاً، وهذا الإشهاد مندوب إليه؛ لئلا يقع بينهما التجاحد ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ من المسلمين ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ لوجهه خالصاً. وذلك: أن يقيموها لا للمشهود له، ولا للمشهود عليه، ولا لغرضٍ من الأغراض سوى إقامة الحقّ، ودفع الظلم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحثّ على إقامة

﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾

الشهادة لوجه الله، ولأجل القيام بالقسط ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: إنّما ينتفع به هؤلاء ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ هذه جملة اعتراضية مؤكّدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة. والمعنى: ﴿ومن يتّق الله﴾ فطلّق للسنة، ولم يضارّ المعتدّة، ولم يخرجها من مسكنها، واحتاط، فأشهد ﴿يجعل﴾ الله ﴿له مخرجاً﴾ ممّا في شأن الأزواج من الغموم، والوقوع في المضايق، ويفرّج عنه، ويعطه الخلاص ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ من وجهٍ لا يخطر بباله ولا يحتسبه. ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله: ﴿ذلكم يوعظ به﴾. أي: ﴿ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً﴾ ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة. وعن النبيّ ﷺ: أنه قرأها، فقال: «مخرجاً من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت، ومن شدائد يوم القيامة»[١] وقال ﷺ: «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم: ﴿ومن يتّق الله...﴾ فما زال يقرؤها ويعيدها[٢].

وروي: أنّ عوف بن مالك أسر المشركون ابناً له فأتى رسول الله ﷺ فقال: أُسِرَ ابني، وشكا إليه الفاقة. فقال: «ما أمسى عند آل محمد إلاّ مدّ. فاتّق الله، واصبر، وأكثر من قول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم». فعاد إلى بيته، وقال لامرأته: إن رسول الله أمرني وإيّاك أن نستكثر من قول: لا حول ولاقوّة إلا بالله العليّ العظيم. فقالت: نِعْمَ ما أمرنا به، فجعلا يقولان ذلك، فبينا هو في بيته؛ إذ قرع ابنه الباب ومعه مئة من الإبل تغفّل عنها العدوّ فاستاقها. فنزلت هذه الآية[٣] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ...﴾ يكل أمره إليه عن طمع غيره وتدبير نفسه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ كافيه في الدارين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ حفص. أي: منفذ أمره. غيره: ﴿بالَغٌ أمرَهُ﴾. أي: يبلغ ما يريد، ولا يفوته مراد،

---

(١) رواه الثعلبي والواحدي. (حاشية الكشاف ٤/ ٥٥٦).
(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٢٠).
(٣) رواه الثعلبي، والبيهقي نحوه. (حاشية الكشاف ٤/ ٥٥٦).

قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم

ولا يعجزه مطلوب ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ تقديراً وتوقيتاً. وهذا بيان لوجوب التوكّل على الله، وتفويض الأمر إليه؛ لأنّه إذا علم أنّ كلّ شيءٍ من الرزق ونحوه لا يكون إلاّ بتقديره، وتوقيته؛ لم يبق إلاّ التسليم للقدر، والتوكّل.

٤ ـ ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ روي: أنّ ناساً قالوا: قد عرفنا عدّة ذوات الأقراء؛ فما عدّة اللائي لم يحضن؟ فنزلت ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ ﴿إن﴾ أشكل عليكم حكمهنّ، وجهلتم كيف يعتددن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي: فهذا حكمهنّ. وقيل: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ في دم البالغات مبلغ اليأس ـ وقد قدّروه بستّين سنة، وبخمس وخمسين ـ أهو دم حيض أو استحاضة؟ ﴿فعدّتهنّ ثلاثة أشهر﴾. وإذا كانت هذه عدّة المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ هنّ الصغائر. وتقديره: ﴿واللائي لم يحضن﴾ فعدّتهنّ ثلاثة أشهر. فحذفت الجملة لدلالة المذكور عليها ﴿وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ عدّتهنّ ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. والنصّ يتناول المطلّقات، والمتوفّى عنهنّ أزواجهن. وعن عليٍّ، وابن عباسٍ ـ رضي الله عنهم ـ: عدّة الحامل المتوفى عنها [زوجها](١) أبعد الأجلين ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ ييسّر له من أمره، ويحلل من عقده بسبب التقوى.

٥ ـ ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما علم من حكم هؤلاء المعتدّات ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ من اللوح المحفوظ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في العمل بما أنزله من هذه الأحكام، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾.

٦ ـ ثمّ بيّن التقوى في قوله: ﴿ومن يتّق الله﴾؛ كأنّه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدّات؟ فقيل: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وكذا وكذا ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾.

(١) ليست في الأصل المخطوط.

مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ

هي ﴿من﴾ التبعيضيّة، مبعّضها محذوف. أي: ﴿أسكنوهنّ﴾ مكاناً ﴿من حيث سكنتم﴾ أي: بعض مكان سكناكم ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ هو عطف بيان لقوله: ﴿من حيث سكنتم﴾ وتفسير له. كأنّه قيل: ﴿أسكنوهنّ﴾ مكاناً من مسكنكم ممّا تطيقونه. والوجد: الوسع والطاقة. وقرىء بالحركات الثلاث. والمشهور الضمّ.

والنفقة والسكنى واجبتان لكلّ مطلّقة. وعند مالكٍ، والشافعيِّ ـ رحمهما الله ـ: لا نفقة للمبتوتة لحديث فاطمة بنت قيس: أنّ زوجها أبتّ طلاقها. فقال رسول الله ﷺ: «لا سكنى لك ولا نفقة»[1]. وعن عمر رضي الله عنه: لا ندع كتاب ربّنا وسنّة نبيّنا لقول امرأة لعلّها نسيت أو شبّه لها. سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «لها السكنى والنفقة»[2] ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ ولا تستعملوا معهنّ الضرار ﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ في المسكن ببعض الأسباب من إنزال من لا يوافقهنّ، أو يشغل مكانهنَّ، أو غير ذلك حتّى تضطرّوهنّ إلى الخروج ﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي: المطلّقات ﴿أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ﴾ ذوات أحمال ﴿فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. وفائدة اشتراط الحمل: أنّ مدّة الحمل ربما تطول، فيظن ظانّ أنَّ النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدّة الحائل. فنفي ذلك الوهم ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يعني: هؤلاء المطلّقات إن أرضعن لكم ولداً من غيرهنّ، أو منهنّ بعد انقطاع عصمة الزوجيّة ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فحكمهنَّ في ذلك حكم الأظآر. ولا يجوز الاستئجار إذا كان الولد منهنّ مالم يبنَّ، خلافاً للشافعيِّ ـ رحمه الله ـ ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُمْ﴾ أي: تشاوروا على التراضي في الأجرة. أو ليأمر بعضكم بعضاً. والخطاب للآباء والأمّهات ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بما يليق بالسنّة، ويحسن في المروءة. فلا يماكس الأب، ولا تعاسر الأمّ؛ لأنّه ولدهما، وهما شريكان فيه، وفي وجوب الإشفاق عليه ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ تضايقتم فلم ترض الأمّ بما ترضع به الأجنبيّة، ولم يزد الأب على ذلك

---

(١) رواه الترمذي (١١٨٠) وابن ماجه (٢٠٣٦).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٤١٢) ومسلم (١٤٨٠/ ٤٤) وأبو داود (٢٢٨٨).

فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ
ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا
وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ
قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ

﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ فستوجد ولا تُعْوِز مرضعةٌ غير الأمّ ترضعه. وفيه طرف من معاتبة الأمّ على المعاسرة. وقوله: ﴿له﴾ أي: للأب. أي: سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمّه.

٧ ـ ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: لينفق كلّ واحد من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه. يريد: ما أمر به من الإنفاق على المطلّقات والمرضعات. ومعنى: ﴿قدر عليه رزقه﴾ ضيّق. أي: رزقه الله على قدر قوته ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أعطاها من الرزق ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ بعد ضيق في المعيشة سعة. وهذا وعد لذي العسر باليسر.

٨، ٩ ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أهل قريةٍ ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أعرضت عنه على وجه العتوّ والعناد ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالاستقصاء والمناقشة ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ ﴿نكُراً﴾ مدنيّ وأبو بكر: منكراً عظيماً ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي: خساراً وهلاكاً. والمراد: حساب الآخرة، وعذابها، وما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر. وجيء به على لفظ الماضي لأنّ المنتظر من وعد الله ووعيده مَلْقِيٌّ في الحقيقة. وما هو كائن فكأن قد كان.

١٠، ١١ ـ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكرير للوعيد، وبيان لكونه مترقباً. كأنّه قال: ﴿أعدّ الله لهم﴾ هذا العذاب ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فليكن لكم ذلك ﴿يا أولي الألباب﴾ من المؤمنين لطفاً في تقوى الله وحذر عقابه. ويجوز أن يراد: إحصاء السيّئات، واستقصاؤها عليهم في الدنيا، وإثباتها في صحائف الحفظة، وما أصيبوا به من العذاب في العاجل، وأن يكون ﴿عتت﴾ وما عطف عليه صفة للقرية، و﴿أعدّ الله لهم﴾ جواباً لـ ﴿كأيّن﴾ ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ

إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي: القرآن. وانتصب ﴿رَّسُولًا﴾ بفعل مضمر، تقديره: أرسل رسولاً. أو: هو بدل من ﴿ذكراً﴾ كأنّه في نفسه ذكر. أو على تقدير حذف المضاف أي: ﴿قد أنزل الله إليكم﴾ ذا ذكر ﴿رسولاً﴾، وأريد بالذكر: الشرف. لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: ذا شرفٍ ومجدٍ عند الله؛ وبالرسول: جبريل، أو: محمد ـ عليهما السلام ـ ﴿يَتْلُوا﴾ أي: الرسول، أو: الله عز وجلّ ﴿عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح. أو: ليخرج الذين علم أنّهم يؤمنون ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الكفر، أو الجهل إلى نور الإيمان، أو العلم ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ﴾ وبالنون مدنيّ وشاميّ ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾. وحّد، وجمع، حملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ فيه معنى التعجُّب والتعظيم لما رزق المؤمنين من الثواب.

١٢ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ مبتدأ وخبر ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أجمع المفسّرون على أن السموات سبع ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿سبع سموات﴾ قيل: ما في القرآن آية تدلّ على أنّ الأرضين سبع إلاّ هذه الآية. وبين كلّ سماءين مسيرة خمسمئة عام. وغلظ كلّ سماءٍ كذلك. والأرضون مثل السموات. وقيل: الأرض واحدة. إلاّ أنّ الأقاليم سبعة ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمر الله وحكمه بينهنّ، وملكه ينفذ فيهنّ ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ اللام يتعلّق بـ ﴿خلق﴾ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ هو تمييز. أو: مصدر من غير لفظ الأوّل. أي: قد علم كلَّ شيء علماً.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ

١ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ روي: أنّ رسول الله ﷺ خلا بمارية في يوم عائشة ـ رضي الله عنها ـ وعلمت بذلك حفصة. فقال لها: «اكتمي عليَّ، وقد حرّمت مارية على نفسي، وأبشرك: أنّ أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي». فأخبرت به عائشة. وكانتا متصادقتين. وقيل: خلا بها في يوم حفصة، فأرضاها بذلك، واستكتمها فلم تكتم، فطلّقها. واعتزل نساءه ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية. فنزل جبريل عليه السلام، وقال: راجعها فإنّها صوّامة قوّامة، وإنها لمن نسائك في الجنّة[١].

وروي: أنّه شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة، فقالتا له: إنّا نشمّ منك ريح المغافير. وكان يكره رسول الله ﷺ التّفل، فحرّم العسل[٢]. فمعناه: ﴿لم تحرّم ما أحلّ الله لك﴾ من ملك اليمين،

(١) قال الحافظ: لم أره هكذا، وهو عند الحاكم وغيره بغير ذكر سببه. (حاشية الكشاف ٤/٥٦٣).

(٢) رواه البخاري (٥٢٦٧) ومسلم (١٤٧٤).

تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ
وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ
عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ

أو: من العسل ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ تفسير لـ: ﴿تحرّم﴾، أو: حال، أو: استئناف. وكان هذا زلّة منه؛ لأنّه ليس لأحد أن يحرّم ما أحل الله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ قد غفر لك ما زللت فيه ﴿رَّحِيمٌ﴾ قد رحمك، فلم يؤاخذك به.

٢ ـ ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ قد قدّر الله لكم ما تحلّلون به أيمانكم. وهي: الكفّارة. أو: قد شرع لكم تحليلها بالكفّارة. أو: شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم. من قولك: حلّل فلان في يمينه: إذا استثنى فيها، وذلك أن يقول: إن شاء الله عقيبها، حتّى لا يحنث. وتحريم الحلال يمينٌ عندنا. وعن مقاتل: أنّ رسول الله ﷺ أعتق رقبة في تحريم مارية. وعن الحسن: أنّه لم يكفر؛ لأنّه كان مغفوراً له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر. وإنّما هو تعليم للمؤمنين ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ سيّدكم، ومتولّي أموركم. وقيل: ﴿مولاكم﴾ أولى بكم من أنفسكم، فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم لأنفسكم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم، فيشرعه لكم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما أحلَّ وحرَّم.

٣ ـ ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ حديث مارية وإمامة الشيخين ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أفشته إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وأطلع النبيَّ ﷺ على إفشائها الحديث على لسان جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ أعلم ببعض الحديث ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ فلم يخبر به تكرّماً. قال سفيان ـ رحمه الله ـ: ما زال التغافل من فعل الكرام. ﴿عرف﴾ بالتخفيف، عليٌّ؛ أي: جازى عليه. من قولك للمسيء: لأعْرِفَنَّ لك ذلك. وقيل: المعرَّف: حديث الإمامة، والمعرض عنه: حديث مارية. وروي أنّه قال لها: «ألم أقل لك: اكتمي عليَّ؟ قالت: والذي بعثك بالحقّ ما ملكت نفسي ـ فرحاً بالكرامة التي خصَّ الله بها أباها[1] ـ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ نبأ النبيّ حفصة بما أفشت من السرّ إلى عائشة ـ رضي

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٤/ ٥٦٦).

قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ
وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ
ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ

الله عنهما ـ ﴿قَالَتْ﴾ حفصة للنبي ﷺ: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بالسرائر ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بالضمائر.

٤ ـ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات، ليكون أبلغ في معاتبتهما. وجواب الشرط محذوف. والتقدير: ﴿إن تتوبا إلى الله﴾ فهو الواجب. ودلّ على المحذوف: ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ مالت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ عن الواجب في مخالصة رسول الله ﷺ من حبّ ما يحبُّه، وكراهة ما يكرهه ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ بالتخفيف كوفيّ. وإن تعاونا عليه بما يسوؤه من الإفراط في الغيرة، وإفشاء سرّه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ وليُّه وناصره. وزيادة ﴿هو﴾ إيذان بأنّه يتولّى ذلك بذاته ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ أيضاً وليّه ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن صلح من المؤمنين. أي: كلّ من آمن وعمل صالحاً. وقيل: من برىء من النفاق. وقيل: الصحابة. وهو واحد أريد به الجمع. كقولك: لا يفعل هذا الصالح من الناس. تريد الجنس. وقيل: أصله: صالحو المؤمنين، فحذفت الواو عن الخط موافقة للفظ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على تكاثر عددهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد نصرة الله، وجبريل، وصالحي المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ فوج مظاهر له. فما يبلغ تظاهر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظهراؤه؟ ولمّا كانت مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله قال: ﴿بعد ذلك﴾ تعظيماً لنصرتهم ومظاهرتهم.

٥ ـ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ ﴿يُبَدِّلَهُ﴾ مدنيّ وأبو عمرو. فالتشديد للكثرة ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾. فإن قلت: كيف تكون المبدّلات خيراً منهنّ، ولم يكن على وجه الأرض نساء خيراً من أمّهات المؤمنين؟ قلت: إذا طلّقهنّ رسول الله ﷺ لإيذائهنّ إياه لم يبقين على تلك الصفة، وكان غيرهنّ من الموصوفات بهذه الأوصاف خيراً منهنّ ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مقرّات مخلصات.

قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ
وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ
أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مطيعاتٍ، فالقنوت: هو القيام بطاعة الله. وطاعة الله في طاعة رسوله ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ من الذنوب، أو راجعات إلى الله، وإلى أمر رسوله ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ لله ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ مهاجرات، أو صائمات. وقيل للصائم: سائح؛ لأنّ السائح لا زاد معه فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد ما يطعمه. فشبّه به الصائم في إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ إنّما وسط العاطف بين الثيّبات والأبكار دون سائر الصفات لأنّهما صفتان متنافيتان بخلاف سائر الصفات.

٦ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ نوعاً من النار لا تتّقد إلاّ بالناس والحجارة كما يتقد غيرها من النيران بالحطب ﴿عَلَيْهَا﴾ يلي أمرها، وتعذيب أهلها ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ يعني: الزبانية التسعة عشر وأعوانهم ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ في أجرامهم غلظة وشدّة، أو غلاظ الأقوال، شداد الأفعال ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ﴾ في موضع الرفع على النعت ﴿مَآ أَمَرَهُمْ﴾ في محلّ النصب على البدل. أي: ﴿لا يعصون﴾ ما أمر الله. أي: أمره. كقوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٣]. أو: لا يعصونه فيما أمرهم ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وليست الجملتان في معنى واحد. إذ معنى الأولى: أنّهم يتقبّلون أوامره ويلتزمونها، ومعنى الثانية: أنّهم يؤدّون ما يؤمرون به، ولا يتثاقلون عنه، ولا يتوانون فيه.

٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، أي: يقال لهم ذلك عند دخولهم النار: ﴿لا تعتذروا﴾ لأنّه لا عذر لكم، أو لأنّه لا ينفعكم الاعتذار.

٨ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ صادقة، عن الأخفش ـ رحمه الله ـ وقيل: خالصة. يقال: عسل ناصح: إذا خلص من الشمع. وقيل: ﴿نصوحاً﴾ من نصاحة الثوب. أي: توبةً ترفو خروقك في دينك، وترمّ

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا
تَحْتَ عَبْدَيْنِ

خللك. ويجوز أن يراد: توبة تنصح الناس؛ أي: تدعوهم إلى مثلها؛ لظهور أثرها في صاحبها، واستعماله الجد والعزيمة في العمل على مقتضياتها. وبضمّ النون حمّاد ويحيى. وهو مصدر، أي: ذات نصوح أو تنصح نصوحاً. وجاء مرفوعاً: «أنّ التوبة النصوح: أن يتوب ثمّ لا يعود إلى الذنب إلى أن يعود اللبن في الضرع»[1]. وعن حذيفة: بحسب الرجل من الشرّ أن يتوب عن الذنب ثمّ يعود فيه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي الاستغفار باللسان، والندم بالجنان، والإقلاع بالأركان ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ هذا على ما جرت به عادة الملوك من الإجابة بعسى، ولعلّ، ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ ونصب ﴿يَوْمَ﴾ بـ﴿يدخلكم﴾ ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ فيه تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر ﴿نُورُهُمْ﴾ مبتدأ. ﴿يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ في موضع الخبر ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ يقولون ذلك إذا انطفأ نور المنافقين ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٩ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ بالقول الغليظ، والوعظ البليغ. وقيل: بإقامة الحدود عليهم ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجّة باللسان ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٠ ـ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ

---

(١) انظره بنحوه في الدر المنثور (٨/ ٢٢٧).

مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ

﴿مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ مثّل الله عزّ وجلّ حال الكفّار في أنّهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين بلا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من النسب والمصاهرة، وإن كان المؤمن الذي يتّصل به الكافر نبيّاً، بحال امرأة نوح، وامرأة لوط لمّا نافقتا وخانتا الرسولين بإفشاء أسرارهما، فلم يغن الرسولان ﴿عنهما﴾ أي: عن المرأتين بحقّ ما بينهما وبينهما من [الزواج][1] إغناءً ما من عذاب الله، ﴿وقيل﴾ لهما عند موتهما، أو يوم القيامة: ﴿ادخلا النار مع﴾ سائر ﴿الداخلين﴾ الذين لا وُصلة بينهم وبين الأنبياء، أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوحٍ، وقوم لوط.

١١ ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ هي: آسية بنت مزاحم. آمنت بموسى فعذبها فرعون بالأوتاد الأربعة ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ وهي تعذّب: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ ـ فكأنّها أرادت الدرجة العالية، لأنه تعالى منزّه عن المكان، فعبّرت عنها بقولها: ﴿عندك﴾ ـ ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي: من عمل فرعون، أو: من نفس فرعون الخبيثة، وخصوصاً من عمله، وهو الكفر، والظلم، والتعذيب بغير جرم ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من القبط كلّهم. وفيه دليل على أنّ الاستعاذة بالله والالتجاء إليه، ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل، من سير الصالحين.

١٢ ـ ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرجال ﴿فَنَفَخْنَا﴾ فنفخ جبريل بأمرنا ﴿فِيهِ﴾ في الفرج ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ المخلوقة لنا ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ

(١) في الأصل المخطوط: أزواجٍ.

رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

رَبِّهَا ﴾ أي: بصحفه التي أنزلها على إدريس وغيره ﴿وَكُتُبِهِۦ ﴾ بصريٌّ، وحفص. يعني: الكتب الأربعة ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾. لمّا كان القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين، غلب ذكوره على إناثه، و﴿من﴾ للتبعيض، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت ﴿من القانتين﴾ لأنّها من أعقاب هارون أخي موسى ـ عليهما السلام ـ.

ومثّل حال المؤمنين في أنّ وُصلة الكافرين لا تضرّهم، ولا تنقص شيئاً من ثوابهم وزلفاهم عند الله، بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله مع كونها زوجة أعدى أعداء الله، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين، مع أنّ قومها كانوا كفّاراً.

وفي طيِّ هذين التمثيلين تعريض بأمّيِّ المؤمنين المذكورتين في أوّل السورة، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه، وتحذير لهما على أغلظ وجه، وإشارة إلى أنّ من حقهما أن تكونا في الإخلاص كهاتين المؤمنتين، وألّا تتّكلا على أنّهما زوجا رسول الله ﷺ.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

وتُسمّى الواقية والمنجية؛ لأنها تقي وتنجي قارئها من عذاب القبر.

وجاء مرفوعاً: «من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب»(١).

١ ـ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: في تصرُّفه الملك، والاستيلاء على كلّ موجود، وهو مالك الملك، يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من المقدورات، أو: من الإنعام والانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر على الكمال.

٢ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من ﴿الذي﴾ قبله ﴿وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي: ما يصحّ بوجوده الإحساس، والموت: ضدّه. ومعنى خلق الموت والحياة: إيجاد ذلك المصحّح وإعدامه. والمعنى: ﴿خلق﴾ موتكم وحياتكم أيها المكلفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليمتحنكم بأمره ونهيه فيما بين الموت الذي يعمّ الأمير والأسير، والحياة التي لا تفي بعليل ولا طبيب، فيظهر منكم ما علم أنّه يكون منكم، فيجازيكم على عملكم، لا على علمه بكم ﴿أَيُّكُمْ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، فالخالص: أن يكون لوجه الله.

---

(١) رواه الطبري وابن مردويه موقوفاً من حديث ابن مسعود. (الدر المنثور ٨/ ٢٣٢).

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ

والصواب: أن يكون على السنّة. والمراد: أنّه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل، وسلّط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح. فما وراءه إلاّ البعث والجزاء الذي لابدّ منه. وقدّم الموت على الحياة؛ لأنّ أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه، فَقُدِّمَ لأنّه فيما يرجع إلى المسوق له الآية أهمُّ. ولمّا قُدّم الموتُ الذي هو أثر صفة القهر، على الحياة التي هي أثر اللطف، قدّم صفة القهر على صفة اللطف بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ الستور الذي لا ييأس منه أهل الإساءة والزلل.

٣ ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ مطابقة بعضها فوق بعض. من: طابق النَّعلَ: إذا خصفها طبقاً على طبق. وهذا وصف بالمصدر. أو: على ذات طباق. أو: على طوبقت ﴿طباقاً﴾. وقيل: جمع: طبق، كجمل وجمال. والخطاب في: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ للرسول، أو: لكل مخاطب ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ ﴿من تفوّت﴾ حمزة، وعلي. ومعنى البناءين واحد، كالتعاهد والتعهّد. أي: من اختلافٍ واضطرابٍ. وعن السدّي: من عيب. وحقيقة التفاوت: عدم التناسب، كأنّ بعض الشيء يفوت بعضاً، ولا يلائمه. وهذه الجملة صفة لـ «طباقاً». وأصلها ﴿ما ترى﴾ فيهنّ ﴿من تفاوت﴾. فوضع ﴿خلق الرحمن﴾ موضع الضمير، تعظيماً لخلقهنّ، وتنبيهاً على سبب سلامتهنّ من التفاوت، وهو: أنه خلق الرحمن، وأنّه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ ردّه إلى السماء، حتّى يصحَّ عندك ما أُخْبِرْتَ به بالمعاينة، ولا تبقى معك شبهة فيه ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ صدوع وشقوق. جمع: فَطَر، وهو: الشقّ.

٤ ـ ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ كرّر النظر مرّتين أي: ﴿كرتين﴾ مع الأولى. وقيل: سوى الأولى. فتكون ثلاث مرات. وقيل: لم يرد به الاقتصار على مرّتين، بل أراد به التكرير بكثرة. أي: كرّر نظرك، ودقّقه؛ هل ترى خللاً أو

يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا
رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ
فِيهَا فَوْجٌ

عيباً. وجواب الأمر ﴿يَنقَلِبْ﴾ يرجع ﴿إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ ذليلاً، أو بعيداً ممّا تريد. وهو حال من البصر ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليلٌ مُعْيٍ، ولم تر فيها خللاً.

٥ ـ ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ القربى. أي: ﴿السماء الدنيا﴾ منكم ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ بكواكب مضيئة كإضاءة الصبح. والمصابيح: السرج. فسمّيت بها الكواكب. والناس يزيّنون مساجدهم ودورهم بإثقاب المصابيح. فقيل: ﴿ولقد زينا﴾ سقف الدار التي اجتمعتم فيها ﴿بمصابيح﴾ أي: بأيّ مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: لأعدائكم الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات. قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاثٍ: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها. فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد تكلّف مالا علم له به. والرجوم: جمع رجم. وهو مصدر سمّي به ما يرجم به. ومعنى كونها: ﴿رجوماً للشياطين﴾ أن ينفصل عنها شهاب كقبسٍ يؤخذ من نار، فيقتل الجنّيَ، أو يخبله؛ لا إنّ الكواكب تزول عن أماكنها؛ لأنّها قارّةٌ في الفلك على حالها ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ للشياطين ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا.

٦ ـ ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ ولكلّ من كفر بالله من الشياطين وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع، جهنّم.

٧ ـ ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ طرحوا في جهنّم، كما يطرح الحطب في النار العظيمة ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾ لجهنّم ﴿شَهِيقًا﴾ صوتاً منكراً، كصوت الحمير. شبّه حسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ تغلي بهم غليان المرجل بما فيه.

٨ ـ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: تتميّز، يعني: تتقطّع، وتتفرّق ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ على الكفّار. فجعلت كالمغتاظة عليهم استعارة لشدّة غليانها بهم ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾

سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾
فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ

جماعة من الكفّار ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ مالك، وأعوانه من الزبانية، توبيخاً لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ رسولٌ يخوّفكم من هذا العذاب.

٩ ـ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ اعتراف منهم بعدل الله، وإقرار بأنّه تعالى أزاح عللهم ببعثة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ أي: فكذّبناهم ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ ممّا يقولون من وعد، ووعيد، وغير ذلك، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ أي: قال الكفّار للمنذرين: ما أنتم إلاّ في خطأ عظيم. فالنذير بمعنى الإنذار. ثمّ وصف به منذروهم لغلوّهم في الإنذار كأنّهم ليسوا إلاّ إنذاراً. وجاز أن يكون هذا كلام الخزنة للكفّار على إرادة القول. ومرادهم بالضلال: الهلاك. أو: سمّوا جزاء الضلال باسمه؛ كما سُمِّيَ جزاء السيّئة والاعتداء سيّئةً واعتداءً. ويسمّى المشاكلة في علم البيان. أو: كلام الرسل لهم حكوه للخزنة؛ أي: قالوا لنا هذا فلم نقبله.

١٠ ـ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ الإنذار سماع طالب الحقّ ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي: نعقله عقل متأمّل ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ في جملة أهل النار. وفيه دليل: على أنّ مدار التكليف على أدلّة السمع والعقل، وأنّهما حجّتان ملزمتان.

١١ ـ ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ بكفرهم في تكذيبهم الرسل ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وبضمّ الحاء يزيد، وعليٌّ. فبعداً لهم عن رحمة الله وكرامته. اعترفوا أو جحدوا؛ فإنّ ذلك لا ينفعهم. وانتصابه على أنّه مصدر وقع موقع الدعاء.

١٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ قبل معاينة العذاب ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ للذنوب ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: الجنّة.

١٣ ـ ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ ظاهره الأمر بأحد الأمرين: الإسرار، والإجهار. ومعناه: ليستوِ عندكم إسراركم وإجهاركم في علم الله بهما. روي:

إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي
ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ
حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾

أنّ مشركي مكّة كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريل بما قالوا فيه، ونالوا منه. فقالوا فيما بينهم: أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمّد، فنزلت. ثمّ علّله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بضمائرها قبل أن تترجم الألسنة عنها، فكيف لا يعلم ما تكلّم به؟

١٤ ـ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ ﴿مَنۡ﴾: في موضع رفع بأنّه فاعل يعلم ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ أنكر ألاّ يحيط علماً بالمضمر، والمسرّ، والمجهر مَنْ خلقها، وصفته أنّه: ﴿اللطيف﴾ أي: العالم بدقائق الأشياء ﴿الخبير﴾ العالم بحقائق الأشياء. وفيه إثبات خلق الأقوال، فيكون دليلاً على خلق أفعال العباد. وقال أبو بكر بن الأصمّ، وجعفر بن حرب: ﴿مَنْ﴾ مفعول، والفاعل مضمر، وهو الله تعالى. فاحتالا بهذا لنفي خلق الأفعال.

١٥ ـ ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ ليّنةً، سهلة، مذلّلة لا تمنع المشي فيها ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ جوانبها استدلالاً، واسترزاقاً، أو: جبالها، أو طرقها ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ أي: من رزق الله فيها ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: وإليه نشوركم فهو سائلكم عن شكر ما أنعم به عليكم.

١٦ ـ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مَنْ ملكوته ﴿في السماء﴾ لأنّها مسكن ملائكته، ومنها تنزل قضاياه، وكتبه، وأوامره، ونواهيه، فكأنّه قال: ﴿أأمنتم﴾ خالق السماء وملكه. ولأنّهم كانوا يعتقدون النِّسبة، وأنّه في السماء، وأنّ الرحمة والعذاب ينزلان منه. فقيل لهم على حسب اعتقادهم: ﴿أأمنتم من﴾ تزعمون أنّه ﴿في السماء﴾ وهو متعال عن المكان ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كما خسف بقارون ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ تضطرب وتتحرّك.

١٧ ـ ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾ حجارة ﴿أن يرسل﴾ بدل من بدل اشتمال. وكذا ﴿أن يخسف﴾ ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ أي: إذا رأيتم

وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ

المنذر به علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم.

١٨ ـ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قومك ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم؛ إذ أهلكتهم.

١٩ ـ ثُمَّ نبّه على قدرته على الخسف وإرسال الحاصب بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ جمع طائر ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الهواء ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطات أجنحتهنّ في الجوّ عند طيرانهنّ ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممن إذا ضربن بها جنوبهنّ. ﴿ويقبضن﴾: معطوف على اسم الفاعل حملاً على المعنى. أي: يصففن ﴿ويقبضن﴾، أو: ﴿صافّاتٍ﴾ وقابضاتٍ. واختيار هذا التركيب باعتبار: أنّ أصل الطيران هو صف الأجنحة؛ لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والهواء للطائر كالماء للسابح. والأصل في السباحة: مدّ الأطراف وبسطها. وأمّا القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرّك. فجيء بما هو طارىء بلفظ الفعل، على معنى أنهنّ صافّاتٍ، ويكون منهنّ القبضِ تارةً بعد تارةٍ؛ كما يكون من السابح ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عن الوقوع عند القبض والبسط ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بقدرته. وإلا فالثقيل يتسفّل طبعاً ولا يعلو. وكذا لو أمسك حفظه وتدبيره عن العالم لتهافتت الأفلاك. و﴿ما يمسكهنّ﴾ مستأنف، وإن جعل حالاً من الضمير في ﴿يقبضن﴾ يجوز ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيف يخلق، وكيف يدبّر العجائب.

٢٠ ـ ﴿أَمَّنْ﴾ مبتدأ خبره: ﴿هَٰذَا﴾. ويبدل من ﴿هذا﴾ ﴿ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾. ومحلّ ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ رفع نعت لـ: ﴿جند﴾ محمول على اللفظ. والمعنى: من المشار إليه بالنصر غير الله تعالى؟ ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: ما هم ﴿إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾.

٢١ ـ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ ﴿أم من﴾ يشار إليه، ويقال: ﴿هذا الذي يرزقكم إن أمسك﴾ الله ﴿رزقه﴾؟ وهذا على التقدير. ويجوز أن

بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً

يكون إشارة إلى جميع الأوثان؛ لاعتقادهم: أنهم يُحفظون من النوائب، ويُرزقون ببركة آلهتهم، فكأنّهم الجند الناصر والرازق. فلمّا لم يتّعظوا أضرب عنهم فقال: ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ تمادوا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ استكبار عن الحقّ ﴿وَنُفُورٍ﴾ وشراد عنه لثقله عليهم فلم يتّبعوه.

٢٢ ـ ثُمَّ ضرب مثلاً للكافرين والمؤمنين فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ أي: ساقطاً على وجهه يعثر كل ساعة ويمشي مُعْتَسِفاً وخبر ﴿مَنْ﴾: ﴿أَهْدَىٰٓ﴾ أرشد ـ فأكبّ مطاوع كبّه، يقال: كببته فأكبّ، مطاوع كبّه ـ ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ مستوياً منتصباً، سالماً من العثور، والخرور ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على طريقٍ مستو. وخبر ﴿مَنْ﴾ محذوف لدلالة ﴿أهدى﴾ عليه. وعن الكلبيّ: عُنِي بالمكبّ: أبو جهل، وبالسويّ: النبي ﷺ.

٢٣ ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ خلقكم ابتداءً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ خصّها؛ لأنّها آلات العلم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم؛ لأنّكم تشركون بالله، ولا تخلصون له العبادة، والمعنى: ﴿تشكرون﴾ شكراً قليلاً. و﴿ما﴾ زائدة. وقيل: القلّة عبارة عن العدم.

٢٤ ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للحساب والجزاء.

٢٥ ـ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الكافرون للمؤمنين استهزاءً: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تعدوننا به؟ يعني: العذاب. ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في كونه، فأعلمونا زمانه.

٢٦ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي: علم وقت العذاب ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ مُخوِّفٌ ﴿مُّبِينٌ﴾ أبيّن لكم الشرائع.

٢٧ ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: الوعد. يعني: العذاب الموعود ﴿زُلْفَةً﴾ قريباً منهم.

سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ
أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ
ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا
فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ﴿٣٠﴾

وانتصابها على الحال ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ساءت رؤية الوعد وجوههم، بأن عَلَتْها الكآبة والمساءة، وغشيتها القتَرة والسواد ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي﴾ القائلون الزبانية ﴿كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ تفتعلون من الدعاء. أي: تسألون تعجيله، وتقولون: ائتنا بما تعدنا. أو: هو من الدعوى، أي: كنتم بسببه تدّعون أنكم لا تبعثون. وقرأ يعقوب ﴿تدْعُونَ﴾.

٢٨ ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: أماتني؛ كقوله: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النساء: ١٧٦] ﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ من الأصحاب ﴿أَوۡ رَحِمَنَا﴾ فأخر في آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ ينجي ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ مؤلم؟ كان كفار مكّة يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فأمر بأن يقول لهم: نحن مؤمنون متربّصون لإحدى الحسنيين: إمّا أن نهلك؛ كما تتمنّون، فننقلب إلى الجنّة، أو نرحم بالنصرة عليكم؛ كما نرجو، فأنتم ما تصنعون؟ من يجيركم وأنتم كافرون من عذاب النار؟ لابدّ لكم منه.

٢٩ ـ ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أي: الذي أدعوكم إليه الرحمن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ صدّقناه، ولم نكفر به كما كفرتم ﴿وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ فوّضنا إليه أمورنا ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ إذا نزل بكم العذاب ـ وبالياء: عليّ ـ ﴿مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ نحن أم أنتم.

٣٠ ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا﴾ غائراً ذاهباً في الأرض، لا تناله الدلاء. وهو وصف بالمصدر، كعدل بمعنى: عادل ﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ جارٍ يصل إليه من أراده. وتليت عند ملحد فقال: يأتي بالمعول والمُعِين، فذهب ماء عينيه في تلك الليلة وعَمِيَ. وقيل: إنّه محمد بن زكريّا المتطبّب. زادنا الله بصيرة.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾

---

١ ـ ﴿نٓ﴾ الظاهر: أنّ المراد به هذا الحرف من حروف المعجم. وأمّا قول الحسن: إنّه الدواة، وقول ابن عباس: إنّه الحوت الذي عليه الأرض، واسمه يهموت، فمشكل؛ لأنّه لا بدّ له من الإعراب سواء كان اسم جنس، أو اسم علم. فالسكون دليل على أنّه من حروف التّهجّي ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ أي: ما كتب به اللوح، أو: قلم الملائكة، أو: الذي يكتب به الناس. أقسم به لما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بها الوصف ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: ما يسطره الحفظة، أو: ما يكتب من الخير من كتب. و﴿ما﴾ موصولة أو مصدريّة. وجواب القسم:

٢ ـ ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: بإنعامه عليك بالنبوّة وغيرها فـ ﴿أنت﴾ اسم ﴿ما﴾. وخبرها ﴿بِمَجْنُونٍ﴾. و﴿بنعمة ربّك﴾: اعتراض بين الاسم والخبر. والباء في ﴿بنعمة﴾ يتعلّق بمحذوف. ومحلّه: النصب على الحال، والعامل فيها ﴿بمجنون﴾. وتقديره: ﴿ما أنت﴾ بمجنون منعماً عليك بذلك. ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله؛ لأنّها زائدة لتأكيد النفي. وهو جواب قولهم:

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾
بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾
فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

٣ ـ ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ على احتمال ذلك والصبر عليه ﴿لَأَجْرًا﴾ لثواباً ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، أو: ﴿غير ممنون﴾ عليك.

٤ ـ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قيل: هو ما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن[1]. أي: ما فيه من مكارم الأخلاق. وإنّما استعظم خلقه لأنّه جَادَ بالكونين، وتوكّل على خالقهما.

٥، ٦ ـ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي: عن قريب ترى ويرون ـ وهذا وعدٌ له ووعيدٌ لهم ـ ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ المجنون لأنّه فتن؛ أي: محن بالجنون. والباء مزيدة. أو: المفتون مصدر كالمعقول؛ أي: ﴿بأيكم﴾ الجنون. وقال الزجّاج: الباء بمعنى: في. تقول: كنت ببلد كذا، أي: في بلد كذا. وتقديره: في ﴿أيّكم المفتون﴾ أي: في أيّ الفريقين منكم المجنون، فريق الإسلام، أو فريق الكفر.

٧ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: هو أعلم بالمجانين على الحقيقة، وهم الذين ضلّوا عن سبيله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم بالعقلاء، وهم المهتدون.

٨ ـ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ تهييج للتصميم على معاصاتهم. وقد أرادوا على أن يعبد الله مدّةً وآلهتهم مدّةً، ويكفوا عنه غوائلهم.

٩ ـ ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ﴾ لو تلين لهم ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ فيلينون لك. ولم ينصب بإضمار أن، وهو جواب التمنّي؛ لأنّه عدل به إلى طريق آخر، وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف، أي: ﴿فـ﴾ هم ﴿يدهنون﴾ يعني: فهم الآن يدهنون لطمعهم في إدهانك.

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦) والنسائي (٣/١٩٩).

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾

١٠ ـ ١٦ ـ ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحقّ والباطل ـ وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ـ ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير في الرأي والتميز، من المهانة، وهي: القلّة، والحقارة. أو: كذّاب؛ لأنه حقير عند الناس ﴿هَمَّازٍ﴾ عيّاب، طعّان، مغتاب ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ نقّال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم. والنميم والنميمة: السعاية ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ بخيل. والخير: المال. أو: منّاع أهله من الخير. وهو الإسلام. والمراد: الوليد بن المغيرة عند الجمهور. وكان يقول لبنيه العشرة: من أسلم منكم منعته رفدي ﴿مُعْتَدٍ﴾ مجاوز في الظلم حدّه ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام ﴿عُتُلٍّۭ﴾ غليظ جاف ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما عدّ له من المثالب ﴿زَنِيمٍ﴾ دعيّ. وكان الوليد دعيّاً في قريش ليس من سِنْخهم[1]، ادّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده. وقيل: بغت أمّه ولم يعرف حتّى نزلت هذه الآية. والنطفة إذا خبثت خبث الناشىء منها.

روي: أنّه دخل على أمّه وقال: إنّ محمّداً وصفني بعشر صفات وجدت تسعاً فيّ، فأمّا الزنيم فلا علم لي به. فإن أخبرتني بحقيقته، وإلاّ ضربت عنقك، فقالت: إنّ أباك عنّين، وخفت أن يموت فيصل ماله إلى غير ولده، فدعوت راعياً إلى نفسي فأنت من ذلك الراعي ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾ متعلّق بقوله: ﴿ولا تطع﴾. أي: ولا تطعه مع هذه المثالب لـ ﴿أن كان ذا مال﴾ أي: ليساره وحظّه من الدنيا. ويجوز أن يتعلّق بما بعده. أي: لـ ﴿أن كان ذا مال وبنين﴾ كذّب بآياتنا. يدلّ عليه ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. ولا يعمل فيه ﴿قال﴾ لأنّ ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله. ﴿أأن﴾ حمزة، وأبو بكر. أي: ألأن كان ذا مالٍ كذّب؟ ﴿آن﴾ شاميّ، ويزيد، ويعقوب، وسهل.

قالوا: لمّا عاب الوليد النبيّ ﷺ ـ كاذباً ـ باسم واحد، وهو: المجنون،

(١) «السنخ»: الأصل.

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾

سمّاه الله تعالى بعشرة أسماء صادقاً. فإن كان من عدله أن يجزي المسيء إلى رسول الله ﷺ بعشر، كان من فضله: أنّ من صلّى عليه واحدةً صلّى الله عليه عشراً ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ سنكويه ﴿عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ على أنفه مهانةً له، وعلماً يعرف به. وتخصيص الأنف بالذكر؛ لأنّ الوسم عليه أبشع. وقيل: خطم بالسيف يوم بدر، فبقيت سمة على خرطومه.

١٧، ١٨ ـ ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾ امتحنّا أهل مكّة بالقحط والجوع حتّى أكلوا الجيف والرِّمَمَ بدعاء النبيّ ﷺ حيث قال: «اللّهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها سنين كسني يوسف»[1] ﴿كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ هم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنّة بقرية يقال لها: ذَرْوان، وكانت على فرسخين من صنعاء، فكان يأخذ منها قوت سنةٍ ويتصدّق بالباقي على الفقراء. فلمّا مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر، ونحن أولو عيال. فحلفوا: ﴿ليصرمنّها مصبحين﴾ في السّدَف[2]، خفيةً عن المساكين. ولم يستثنوا في يمينهم. فأحرق الله جنّتهم. وقال الحسن: كانوا كفّاراً. والجمهور على الأوّل ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ﴾ حلفوا ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾ ليقطعنّ ثمرها ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ داخلين في الصبح قبل انتشار الفقراء ـ حال من فاعل «يَصْرِمُنَّها» ـ ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾ ولا يقولون: إن شاء الله. وسمّي استثناء وإن كان شرطاً صورة؛ لأنّه يؤدّي مؤدّى الاستثناء من حيث: أنّ معنى قولك: لأخرجنّ إن شاء الله، و: لا أخرج إلاّ أن يشاء الله، واحدٌ.

١٩، ٢٠ ـ ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ نزل عليها بلاء، قيل: أنزل الله تعالى عليها ناراً فأحرقتها ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ أي: في حال نومهم ﴿فَأَصۡبَحَتۡ﴾ فصارت الجنّة ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ كالليل المظلم. أي: احترقت فاسودّت. أو: كالصبح. أي:

(١) رواه البخاري (٨٠٤) ومسلم (٦٧٥ / ٢٩٤).
(٢) «السدف»: الظلمة.

﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۝٢٢ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝٢٤ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾

صارت أرضاً بيضاء بلا شجر. وقيل: كالمصرومة، أي: كأنها صرمت لهلاك ثمرها.

٢١، ٢٢ ـ ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾ نادى بعضهم بعضاً عند الصباح ﴿أَنِ ٱغْدُواْ﴾ باكروا ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ ولم يقل إلى حرثكم؛ لأنّ الغدوّ إليه ليصرموه كان غدوّاً عليه. أو: ضُمِّنَ الغدوّ معنى الإقبال. أي: فأقبلوا على حرثكم باكرين ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ مريدين صرامه.

٢٣، ٢٤ ـ ﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ ذهبوا ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يتسارّون فيما بينهم لئلا يسمع المساكين ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ أي: الجنّة. و﴿أن﴾ مفسّرة. وقرىء بطرحها بإضمار القول. أي: ﴿يتخافتون﴾ يقولون: ﴿لا يدخلنّها﴾ ﴿ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾. والنهي عن دخول المسكين نهي عن التمكين. أي: لا تمكّنوه من الدخول.

٢٥ ـ ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على جِدٍّ في المنع ﴿قَٰدِرِينَ﴾ عند أنفسهم على المنع. كذا عن نفطويه. أو الحرد: القصد والسرعة. أي: ﴿وغدوا﴾ قاصدين إلى جنّتهم بسرعتهم ﴿قادرين﴾ عند أنفسهم على صرامها وزيّ منفعتها عن المساكين. أو: هو علم للجنّة، أي ﴿غدوا على﴾ تلك الجنّة ﴿قادرين﴾ على صرامها عند أنفسهم.

٢٦، ٢٧ ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي: جنّتهم محترقةً ﴿قَالُوٓاْ﴾ في بديهة وصولهم: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: ضللنا جنّتنا، وما هي بها؛ لما رأوا من هلاكها. فلمّا تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حرمنا خيرها؛ لجنايتنا على أنفسنا.

٢٨، ٢٩ ـ ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم وخيرهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ هلاّ تستثنون؛ إذ الاستثناء: تسبيح؛ لالتقائهما في معنى التعظيم لله؛ لأنّ الاستثناء تفويض إليه، والتسبيح تنزيه له. وكلّ واحدٍ من التفويض والتنزيه تعظيم. أو: ﴿لولا﴾ تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيّتكم. كأنَّ أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا الله وانتقامه من المجرمين، فتوبوا عن هذه العزيمة

قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا
طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ
أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ
كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

الخبيثة، فعصوه، فعيّرهم. ولهذا ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فتكلّموا بعد خراب البصرة بما كان يدعوهم إلى التكلّم به أوّلاً، وأقرّوا على أنفسهم بالظلم في منع المعروف، وترك الاستثناء، ونزّهوه عن أن يكون ظالماً.

٣٠، ٣١ ـ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ يلوم بعضهم بعضاً بما فعلوا من الهرب من المساكين، ويحيل كلُّ واحدٍ منهم اللائمة على آخر. ثمّ اعترفوا جميعاً بأنّهم تجاوزوا الحدّ بقوله: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ بمنع حقّ الفقراء وترك الاستثناء.

٣٢ ـ ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا﴾ وبالتشديد: مدنيّ وأبو عمرو ﴿خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ من هذه الجنّة. ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ طالبون منه الخير، راجون لعفوه. عن مجاهد: تابوا، فأبدلوا خيراً منها. وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه: بلغني أنّهم أخلصوا فأبدلهم بها جنّة تسمّى الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً.

٣٣ ـ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: مثل ذلك العذاب الذي ذكرنا، عذاب الدنيا لمن سلك سبيلهم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أعظم منه ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ لما فعلوا ما يفضي إلى هذا العذاب.

٣٤ ـ ثمّ ذكر ما عنده للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في الآخرة ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جنّاتٍ ليس فيها إلاّ التنعم الخالص بخلاف جنّات الدنيا.

٣٥، ٣٦ ـ ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ استفهام إنكار على قولهم: لو كان مايقول محمّد حقاً فنحن نُعطى في الآخرة خيراً ممّا يعطى هو ومن معه، كما في الدنيا. فقيل لهم ﴿أ﴾ نحيف في الحكم ﴿فنجعل المسلمين﴾ كالكافرين؟ ثمّ قيل لهم على طريقة الالتفات: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الأعوج ـ وهو:

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن
كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾

التسوية بين المطيع والعاصي ـ كأنّ أمر الجزاء مفوّض إليكم حتّى تحكموا فيه بما شئتم.

٣٧، ٣٨ ـ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ من السماء ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ تقرؤون في ذلك الكتاب ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: أنّ ما تختارونه وتشتهونه لكم. والأصل: تدرسون أنّ لكم ما تخيّرون ـ بفتح أنّ ـ لأنّه مدروس لوقوع الدرس عليه، وإنّما كسرت لمجيء اللام. ويجوز أن يكون حكاية للمدروس، كما هو كقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات: ٧٨ـ ٧٩] وتخيّر الشيء واختاره: أخذ خيره.

٣٩، ٤٠ ـ ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾ عهود مؤكّدة بالأيمان ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ نعت ﴿أيمان﴾. ويتعلّق ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ببالغة. أي: أنها تبلغ ذلك اليوم، وتنتهي إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم. أو بالمقدّر في الظرف. أي: هي ثابتة لكم علينا ﴿إلى يوم القيامة﴾ لا نخرج عن عهدتها إلاّ يومئذ إذا حكّمناكم وأعطيناكم ما تحكمون ـ ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ به لأنفسكم. وهو جواب القسم؛ لأنّ معنى: ﴿أم لكم أيمان علينا﴾ أم أقسمنا لكم بأيمان مغلّظة متناهية في التوكيد ﴿سَلْهُمْ﴾ أي: المشركين ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحكم ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل بأنّه يكون ذلك.

٤١ ـ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ أي: ناس يشاركونهم في هذا القول، ويذهبون مذهبهم فيه؟ ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم؛ يعني: أنّ أحداً لا يسلّم لهم هذا، ولا يساعدهم عليه، كما أنّه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد لهم به عند الله، ولا زعيم لهم يضمن لهم من الله بهذا.

٤٢ ـ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ناصب الظرف ﴿فليأتوا﴾ أو: اذكر مضمراً، والجمهور على أنّ الكشف عن الساق عبارة عن شدّة الأمر وصعوبة الخطب. فمعنى: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ يوم يشتدّ الأمر، ويصعب، ولا كشف ثمّة

وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾

ولا ساق، ولكن كنى به عن الشدّة لأنّهم إذا ابتلوا بشدّة كشفوا عن الساق. وهذا كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة؛ ولا يد ثمّة ولا غلّ، وإنّما هو كناية عن البخل. وأمّا من شبّه فلضيق عطنه، وقلّة نظره في علم البيان. ولو كان الأمر كما زعم المشبّه لكان من حقّ الساق أن يعرَّف؛ لأنّها ساق معهودة عنده ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ أي: الكفّار ثمّة ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ لا تكليفاً، ولكن توبيخاً على تركهم السجود في الدنيا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك؛ لأنّ ظهورهم تصير كصياصي[1] البقر لا تنثني عند الخفض والرفع.

٤٣ ـ ﴿خَٰشِعَةً﴾ ذليلة ـ حال من الضمير في ﴿يُدْعَوْنَ﴾ ـ ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾. أي: ﴿يُدْعَوْنَ﴾ في حال خشوع أبصارهم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يغشاهم صغار ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ﴾ على ألسن الرسل ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي: وهم أصحّاء، فلا يسجدون. فكذلك منعوا عن السجود ثمّة.

٤٤ ـ ﴿فَذَرْنِى﴾ يقال: ذرني وإيّاه أي: كله إليّ فإنّي أكفيكه ﴿وَمَن يُكَذِّبُ﴾ ـ معطوف على المفعول، أو مفعول معه ـ ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ بالقرآن. والمراد: كل أمره إليَّ، وخلِّ بيني وبينه، فإنّي عالم بما ينبغي أن يفعل به، مطيق له. ولا تشغل قلبك بشأنه، وتوكّل عليّ في الانتقام منه. تسلية لرسول الله ﷺ، وتهديداً للمكذّبين ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ سندنيهم من العذاب درجة درجة. يقال: استدرجه إلى كذا؛ أي: استنزله إليه درجة فدرجة حتّى يورّطه فيه. واستدراج الله تعالى العصاة: أن يرزقهم الصحّة والنعمة، فيجعلون رزق الله ذريعةً إلى ازدياد المعاصي ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الجهة التي لا يشعرون أنّه استدراج. قيل: كلّما جدّدوا معصيةً جدّدنا لهم نعمة، وأنسيناهم شكرها. قال ﷺ: «إذا رأيت الله تعالى ينعم على عبد وهو مقيم على معصيته فاعلم أنّه مستدرج»[2] وتلا الآية.

(١) «الصياصي»: جمع الصِّيصة؛ وهي قَرْن البقر.

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس (١٠٧٣).

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن
تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾

٤٥ ـ ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ قويّ شديد. فسمّى إحسانه، وتمكينه كيداً، كما سمّاه استدراجاً، لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للهلاك. والأصل: أنّ معنى الكيد والمكر والاستدراج هو الأخذ من جهة الأمن. ولا يجوز أن يسمَّى الله كائداً وماكراً ومُسْتَدْرِجاً.

٤٦ ـ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ غرامة ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ فلا يؤمنون؟ استفهام بمعنى النفي. أي لست تطمع أجراً على تبليغ الوحي فيثقل عليهم ذلك، فيمتنعوا لذلك.

٤٧ ـ ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ اللوح المحفوظ ـ عند الجمهور ـ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون به.

٤٨ ـ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم، وتأخير نصرتك عليهم؛ لأنّهم وإن أمهلوا لم يهملوا ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ كيونس ـ عليه السلام ـ في العجلة والغضب على القوم حتّى لا تبتلى ببلائه. والوقف على الحوت؛ لأنّ ﴿إذ﴾ ليس بظرف؛ لما تقدّمه؛ إذ النداء طاعة، فلا ينهى عنه. بل مفعولُ محذوفٍ. أي: اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ربّه في بطن الحوت بـ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوء غيظاً. من: كظم السقاء؛ إذا ملأه.

٤٩ ـ ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ﴾ رحمة ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: لولا أنّ الله أنعم عليه بإجابة دعائه، وقبول عذره ﴿لَنُبِذَ﴾ من بطن الحوت ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالفضاء ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ معاتب بزلّته. لكنّه رحم، فنبذ غير مذموم.

٥٠ ـ ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اصطفاه لدعائه وعذره ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من المستكملين لصفات الصلاح، ولم تبق له زلّة. وقيل: من الأنبياء. وقيل: من الأنبياء، وقيل: من المرسلين. والوجه هو الأوّل؛ لأنّه كان مرسلاً ونبيّاً قبله

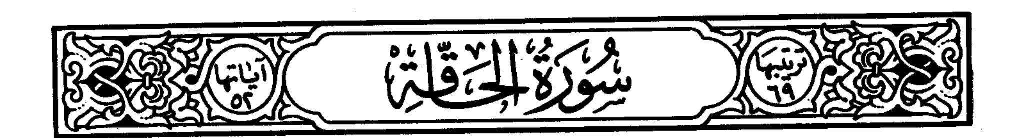
وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ الآية [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٠].

٥١، ٥٢ ـ ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ وبفتح الياء، مدنيّ. ﴿إن﴾ مخفّفة من الثقيلة واللام علمها. زلقه، وأزلقه: أزاله عن مكانه. أي: قارب الكفّار من شدّة نظرهم إليك شزراً بعيون العداوة أن يزيلوك بأبصارهم عن مكانك، أو يهلكوك لشدّة حنقهم عليك. وكانت العين في بني أسد. فكان الرجل منهم يتجوّع ثلاثة أيّام فلا يمرّ به شيءٌ فيقول فيه: لم أر كاليوم مثله؛ إلاّ هلك. فأريد بعض العيّانين على أن يقول في رسول الله مثل ذلك، فقال: لم أر كاليوم مثله رجلاً، فعصمه الله عن ذلك. وفي الحديث: «العين حقّ، وإنّ العين لَتُدْخِلُ الجمل القدر، والرجل القبر»[1]. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: رقية العين هذه الآية ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حسداً على ما أوتيت من النبوة: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ إنّ محمّداً ﴿لمجنون﴾ حَيْرَةً في أمره، وتنفيراً عنه، ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعظ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ للجنِّ والإنس. يعني: أنّهم جنّنوه لأجل القرآن. وما القرآن إلاّ موعظة للعالمين. فكيف يجنّن من جاء بمثله؟ وقيل: ﴿لمّا سمعوا الذكر﴾ أي: ذكره ﷺ ﴿وما هو﴾ أي: محمد ﷺ ﴿إلاّ ذكر﴾ شرف ﴿للعالمين﴾ فكيف ينسب إليه الجنون؟!

* * *

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٤٢١٤) وانظره في فيض القدير (٥٧٤٨) وتذكرة الموضوعات (ص ٢٠٧).



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا

---

١ ـ ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ الساعة الواجبة الوقوع، الثابتة المجيء؛ التي هي آتيةٌ لا ريب فيها. من: حقَّ، يحقُّ ـ بالكسر ـ أي: وجب.

٢ ـ ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ مبتدأ وخبر. وهما خبر الحاقّة. والأصل: ﴿الحاقّة﴾ ما هي؟ أي: أيُّ شيء هي؟ تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لهولها. أي: حقُّها أن يستفهم عنها لعظمها. فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التهويل.

٣ ـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ وأيّ شيءٍ أعلمك ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟ يعني: أنّك لا علم لك بكنهها، ومدى عظمها؛ لأنّه من العظم والشدّة بحيث لا تبلغه دراية المخلوقين. ﴿وما﴾ رفع بالابتداء. و﴿أدراك﴾ الخبر. والجملة بعده في موضع نصب لأنّها مفعول ثان لـ: «أدرى».

٤ ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أي: بالحاقّة. فوضعت القارعة موضعها لأنّهما من أسماء القيامة. وسمّيت بها؛ لأنّها تقرع الناس بالأفزاع، والأهوال.

٥، ٦ ـ ولمّا ذكرها، وفخّمها؛ أتبع ذكر ذلك من كذّب بها، وما حلّ بهم بسبب التكذيب، تذكيراً لأهل مكّة، وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم: ﴿فَأَمَّا

ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾

﴿ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ بالواقعة المجاوزة للحدّ في الشدّة. واختلف فيها. فقيل: الرجفة. وقيل: الصيحة. وقيل: الطاغية ـ مصدر كالعافية ـ أي: بطغيانهم. ولكنّ هذا لا يطابق قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ﴾ أي: بالدبور؛ لقوله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصبا وأُهْلِكتْ عاد بالدبور»[1] ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت. من: الصّرّة: الصيحة. أو: باردة، من: الصِّرّ؛ كأنها التي كرّر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدّة بردها ﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديد العصف. أو: عتت على خزّانها فلم يضبطوها بإذن الله، غضباً على أعداء الله.

٧ ـ ﴿سَخَّرَهَا﴾ سلّطها ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾. وكان ابتداء العذاب يوم الأربعاء آخر الشهر إلى الأربعاء الأخرى ﴿حُسُومًا﴾ متتابعة لا تنقطع. جمع: حاسم؛ كشهود. تمثيلاً لتتابعها بتتابع فعل الحاسم في إعادة الكيّ على الداء كرّة بعد أخرى حتّى ينحسم. وجاز أن يكون مصدراً. أي: تحسم حسوماً؛ بمعنى: تستأصل استئصالاً ﴿فَتَرَى﴾ أيها المخاطب ﴿الْقَوْمَ فِيهَا﴾ في مهابّها، أو: في الليالي والأيام ﴿صَرْعَى﴾ حال، جمع صريع ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال أخرى ﴿أَعْجَازُ﴾ أصول ﴿نَخْلٍ﴾ جمع: نخلة ﴿خَاوِيَةٍ﴾ ساقطة أو بالية.

٨ ـ ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾، ﴿من﴾ نفس ﴿باقية﴾. أو: ﴿من﴾ بقاء؛ كالطاغية بمعنى: الطغيان.

٩ ـ ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ﴾ تقدّمه من الأمم. ﴿ومن قِبَله﴾ بصريٌّ، وعليٌّ. أي: ومن عنده من تُبّاعه ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ قرى قوم لوط، فهي ائتفكت. أي: انقلبت بهم ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ، أو بالفعلة. أو: بالأفعال ذات الخطأ العظيم.

١٠ ـ ﴿فَعَصَوْا﴾ أي: قوم لوط ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ لوطاً ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٢٤) والبخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠).

إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي
ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ
ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ
فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

شديدة زائدة في الشدّة؛ كما زادت قبائحهم في القبح.

١١، ١٢ ـ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ ارتفع وقت الطوفان على أعلى جبل في الدنيا خمسة عشر ذراعاً ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي: آباءكم ﴿فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ في سفينة نوع عليه السلام ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: الفعلة. وهي: إنجاء المؤمنين، وإغراق الكافرين ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عظةً وعبرةً ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ وتحفظها ﴿أُذُنٌ﴾ بضم الذال، غير نافع ﴿وَٰعِيَةٌ﴾ حافظة لما تسمع. قال قتادة: وهي: أذن عقلت عن الله، وانتفعت بما سمعت.

١٣ ـ ١٥ ـ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هي النفخة الأولى. ويموت عندها الناس. والثانية يبعثون عندها ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ رفعتا عن موضعهما ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ دقّتا وكسرتا، أي: ضرب بعضها ببعض حتّى تندقّ، وترجع كثيباً مهيلاً، هباءً منبثاً، ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ فحينئذ ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ نزلت النازلة، وهي: القيامة. وجواب ﴿إذا﴾: ﴿وقعت﴾، و﴿يومئذ﴾ بدل من ﴿إذا﴾.

١٦، ١٧ ـ ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ فتحت أبواباً ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ مسترخية، ساقطة القوّة، بعد ما كانت محكمة ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ للجنس بمعنى الجمع. وهو أعمّ من الملائكة ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ جوانبها. واحدها: رجاً، مقصور؛ لأنّها إذا انشقّت وهي مسكن الملائكة فيلجؤون إلى أطرافها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فوق الملك الذين على أرجائها ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ منهم. واليوم تحمله أربعة. وزيدت أربعة أخرى يوم القيامة. وعن الضحّاك: ثمانية صفوف. وقيل: ثمانية أصناف.

١٨ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ للحساب والسؤال. شبّه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرّف أحواله. ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ سريرةٌ، وحالٌ كانت تخفى في الدنيا. وبالياء: كوفيّ غير عاصم. وفي الحديث: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات. فأمّا عرضتان: فجدال ومعاذير. وأمّا الثالثة: فعندها تطير

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾
فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ
أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

الصحف، فيأخذ الفائز كتابه بيمينه، والهالك كتابه بشماله»[1].

١٩ ـ ﴿فَأَمَّا﴾ تفصيل للعرض. ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ﴾ سروراً به لما يرى فيه من الخيرات، خطاباً لجماعته[2]: ﴿هَآؤُمُ﴾ اسم للفعل. أي: خذوا ﴿ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ تقديره: ﴿هاؤم﴾ كتابي ﴿اقرؤوا كتابيه﴾ فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. والعامل في: ﴿كتابيه﴾ اقرؤوا عند البصريّين؛ لأنّهم يعملون الأقرب. والهاء في ﴿كتابيه﴾ و﴿حسابيه﴾ و﴿ماليه﴾ و﴿سلطانيه﴾ للسكت. وحقّها أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل. وقد استحبّ إيثار الوقف إيثاراً لثباتها؛ لثبوتها في المصحف.

٢٠ ـ ﴿إِنِّى ظَنَنتُ﴾ علمت. وإنّما أُجْرِيَ الظنّ مجرى العلم؛ لأنّ الظنّ الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام، ولأنّ ما يدرك بالاجتهاد قلّما يخلو عن الوساوس والخواطر، وهي تفضي إلى الظنون، فجاز إطلاق لفظ الظنّ عليها لما لا يخلو عنه ﴿أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ معاينٌ حسابي.

٢١ ـ ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ذات رضا يرضى بها صاحبها، كـ: لابن.

٢٢ ـ ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ رفيعة المكان. أو رفيعة الدرجات. أو رفيعة المباني والقصور. وهو خبر بعد خبر.

٢٣ ـ ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ثمارها قريبة من يُريدها ينالها، القاعد كالقائم.

٢٤ ـ يقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ أكلاً وشرباً هنيئاً، لا مكروه فيهما، ولا أذى. أو: هنئتم هنيئاً ـ على المصدر ـ ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ فما قدّمتم من الأعمال الصالحة ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ الماضية من أيّام الدنيا. وعن ابن عباس: هي في الصائمين. أي: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤١٤) والترمذي (٢٤٢٥) وابن ماجه (٤٢٧٧).
(٢) في الأصل المخطوط: لجماعة.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾

٢٥ ـ ٢٩ ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ لما يرى فيه من الفضائح ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي: ياليتني لم أعلم ما حسابي ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ ياليت الموتة التي متُّها ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ أي: القاطعة لأمري. فلم أبعث بعدها، ولم ألق ما ألقى ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ أي: لم ينفعني ما جمعته في الدنيا. فـ ﴿ما﴾ نفي، والمفعول محذوف. أي: شيئاً ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ ملكي، وتسلّطي على الناس، وبقيت فقيراً ذليلاً. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ضلّت عنّي حجتي؛ أي: بطلت حجتي التي كنت أحتجّ بها في الدنيا.

٣٠ ـ ٣٢ ـ فيقول الله تعالى لخزنة جهنّم: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي: اجمعوا يديه إلى عنقه ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أدخلوه ـ يعني: ثمّ لا تصلّوه إلاّ الجحيم، وهي: النار العظمى. أو نصب الجحيم بفعل يفسّره ﴿صلّوه﴾ ـ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ طولها ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ ـ بذراع الملك، عن ابن جريج. وقيل: لا يعرف قدرها إلاّ الله ـ ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ فأدخلوه. والمعنى في تقديم السلسلة على السلك مثله في تقديم الجحيم على التصلية.

٣٣، ٣٤ ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعليل. كأنّه قيل: ماله يعذّب هذا العذاب الشديد؟ فأجيب بأنّه ﴿كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ على بذل طعام المسكين. وفيه إشارة إلى أنّه كان لا يؤمن بالبعث، لأنّ الناس لا يطلبون من المساكين الجزاء فيما يطعمونهم، وإنّما يطعمونهم لوجه الله، ورجاء الثواب في الآخرة، فإذا لم يؤمن بالبعث لم يكن له ما يحمله على إطعامهم. أي: أنّه مع كفره لا يحرّض غيره على إطعام المحتاجين. وفيه دليل قويّ على عظم جرم حرمان المسكين؛ لأنّه عطفه على الكفر، وجعله دليلاً عليه، وقرينةً له، ولأنّه ذكر الحضّ دون الفعل ليعلم: أنّ تارك الحضّ إذا كان بهذه المنزلة فتارك الفعل أحقّ. وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: أنّه كان يحضّ امرأته على تكثير المرق

فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ
بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا
تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾

لأجل المساكين، ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فلنخلع نصفها بهذا. وهذه الآيات ناطقة على أنّ المؤمنين يرحمون جميعاً، والكافرون لا يرحمون؛ لأنه قسم الخلق صنفين، فجعل صنفاً منهم أهل اليمين، ووصفهم بالإيمان فحسب بقوله: ﴿إنّي ظننت أنّي ملاق حسابيه﴾، وصنفاً منهم أهل الشمال، ووصفهم بالكفر بقوله: ﴿إنّه كان لا يؤمن بالله العظيم﴾. وجاز أنّ الذي يعاقب من المؤمنين إنّما يعاقب قبل أن يؤتى كتابه بيمينه.

٣٥ ـ ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ قريب يدفع عنه، ويحترق له قلبه.

٣٦ ـ ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ غسالة أهل النار. فِعْلين من: الغسل. والنون زائدة. وأريد هنا: ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم.

٣٧ ـ ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ الكافرون أصحاب الخطايا. وخَطِىء الرجل: إذا تعمّد الذنب.

٣٨، ٣٩ ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ من الأجسام والأرض والسماء ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ من الملائكة والأرواح. فالحاصل: أنه أقسم بجميع الأشياء.

٤٠ ـ ٤٢ ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إنّ القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي: محمّد ﷺ، أو: جبريل عليه السلام. أي: يقوله ويتكلّم به على وجه الرسالة من عند الله ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تدّعون ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما تقولون ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. وبالياء فيهما: مكّيٌّ، وشاميٌّ، ويعقوب، وسهل. وبتخفيف الذال: كوفيّ غير أبي بكر. والقلّة في معنى العدم. يقال: هذه أرض قلّما تنبت؛ أي: لا تنبت أصلاً. والمعنى: لا تؤمنون، ولا تذكّرون البتّة.

٤٣ ـ ﴿تَنزِيلٌ﴾ هو ﴿تنزيل﴾. بياناً؛ لأنّه قول رسول نزل عليه ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم
مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ
لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

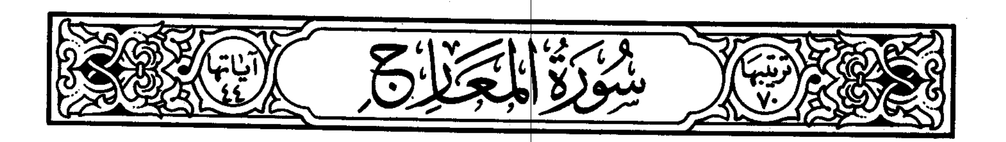
٤٤ ـ ٤٦ ـ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ ولو ادّعى علينا شيئاً لم نقله ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ لقتلناه صبراً، كما يفعل الملوك بمن يتكذّب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام. فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول. وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته. وخصّ اليمين لأنّ القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره. وإذا أراد أن يوقعه في جيده، وأن يكفحه بالسيف ـ وهو أشدّ على المصبور لنظره إلى السيف ـ أخذ بيمينه. ومعنى ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ لأخذنا بيمينه. وكذا ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ لقطعنا وتينه، وهو نياط القلب إذا قطع مات صاحبه.

٤٧ ـ ﴿فَمَا مِنكُم﴾ الخطاب للناس، أو: للمسلمين ﴿مِّنْ﴾ ﴿من﴾ زائدة ﴿عَنْهُ﴾ عن قتل محمد ﷺ. وجمع ﴿حَٰجِزِينَ﴾ وإن كان وصف ﴿أَحَدٍ﴾؛ لأنه في معنى الجماعة. ومنه قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٤٨ ـ ٥١ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾ لعظة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ به، المكذّبين له إذا رأوا ثواب المصدّقين به ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ القرآن ﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ لعين اليقين، ومحض اليقين.

٥٢ ـ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فسبح الله بذكر اسمه العظيم وهو قوله: سبحان الله.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِى الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾

---

١ ـ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ هو النضر بن الحارث. قال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] أو: هو النبيّ ﷺ، دعا بنزول العذاب. ولمّا ضمّن سأل معنى دعا عُدّي تعديته كأنّه قيل: دعا داع ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ من قولك: دعا بكذا: إذا استدعاه، وطلبه. ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ [الدخان: ٥٥]. و﴿سال﴾ بغير همز، مدنيٌّ وشاميٌّ. وهو من السؤال أيضاً إلاّ أنّه خفّف بالتليين. و﴿سائل﴾ مهموز إجماعاً.

٢، ٣ ـ ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ صفة لعذاب. أي ﴿بعذاب واقع﴾ كائنٍ ﴿للكافرين﴾ ﴿لَيْسَ لَهُۥ﴾ لذلك العذاب ﴿دَافِعٌ﴾ رادّ ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ متّصل بواقع. أي: واقع من عنده. أو: بدافع. أي: ليس له دافع من جهته تعالى إذا جاء وقته ﴿ذِى الْمَعَارِجِ﴾ أي: مصاعد السماء للملائكة. جمع: مَعْرَج، وهو: موضع العروج.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾

٤ ـ ثمَّ وصف المصاعد، وبعد مداها في العلوّ والارتفاع، فقال: ﴿تَعْرُجُ﴾ تصعد، وبالياء عليٌّ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي: جبريل عليه السلام. خصّه بالذكر بعد العموم لفضله وشرفه. أو: خلقٌ هم حفظةٌ على الملائكة، كما أنّ الملائكة حفظةٌ علينا. أو: أرواح المؤمنين عند الموت ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه ومهبط أمره ﴿فِى يَوْمٍ﴾ من: صلة ﴿تعرج﴾ ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من سني الدنيا لو صعد فيه غير الملك. أو: من: صلة ﴿واقع﴾. أي: يقع ﴿في يوم﴾ طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنيكم. وهو يوم القيامة. فإمّا أن يكون استطالة له لشدّته على الكفّار، أو لأنّه على الحقيقة كذلك. فقد قيل: فيه خمسون موطناً كلّ موطن ألف سنة. وما قدر ذلك على المؤمنين إلاّ كما بين الظهر والعصر.

٥ ـ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ متعلّق بـ ﴿سأل سائل﴾ لأنّ استعجال النضر بالعذاب إنّما كان على وجه الاستهزاء برسول الله ﷺ والتكذيب بالوحي. وكان ذلك ممّا يضجر رسول الله ﷺ فأمر بالصبر عليه ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ بلا جزعٍ، ولا شكوى.

٦، ٧ ـ ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ أي: العذاب، أو يوم القيامة ﴿بَعِيدًا﴾ مستحيلاً ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ كائناً لا محالة. فالمراد بالبعيدِ: البعيدُ من الإمكان، وبالقريبِ: القريبُ منه.

٨ ـ نُصِبَ ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ بـ ﴿قريباً﴾. أي: يمكن في ذلك اليوم. أو: هو بدل عن ﴿في يوم﴾ فيمن علّقه بـ ﴿واقع﴾ ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ كدرديّ الزيت، أو: كالفضّة المذابة في تلوّنها.

٩ ـ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ كالصوف المصبوغ ألواناً، لأنّ الجبال ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ، وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا، وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧] فإذا بسّت وطيّرت في الجوّ أشبهت العهن المنفوش إذا طيّرته الريح.

وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟

١٠ ـ ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ قريب عن قريب لاشتغاله بنفسه. وعن البزي، والبرجمي: بضمّ الياء. أي: ﴿لا يُسأل﴾ قريب عن قريب. أي: لا يطالب به، ولا يؤخذ بذنبه.

١١ ـ ١٤ ـ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ صفة. أي: ﴿حميماً﴾ مبصَّرين معرَّفين إيّاهم. أو: مستأنف. كأنّه لمّا قال: ﴿ولا يسأل حميمٌ حميماً﴾ قيل: لعلّه لا يبصره. فقيل: ﴿يبصّرونهم﴾ ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكّنوا [من تساؤلهم][(١)]. والواو ضمير الحميم الأوّل. و﴿هم﴾ ضمير الحميم الثاني. أي: يبصّر الأحماءُ الأحماءَ، فلا يخفون عليهم. وإنّما جمع الضميران، وهما للحميمين؛ لأنّ فعيلاً يقع موقع الجمع ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ يتمنّى المشرك. وهو مستأنف. أو: حال من الضمير المرفوع، أو المنصوب من: ﴿يبصّرونهم﴾ ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ﴾ وبالفتح مدنيّ، وعليّ على البناء، للإضافة إلى غير متمكّن ﴿بِبَنِيهِ وَصَـٰحِبَتِهِۦ﴾ وزوجته ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ وعشيرته الأدنين ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ تضمّه انتهاءً إليها. وبغير همز يزيد ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الناس ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ الافتداء. عطف على ﴿يفتدى﴾.

١٥ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع للمجرم عن الودادة، وتنبيه على أنّه لا ينفعه الافتداء، ولا ينجيه من العذاب ﴿إِنَّهَا﴾ إنّ النار. ودلّ ذكر العذاب عليها. أو: هو ضمير مبهم ترجم عنه الخبر. أو: ضمير القصّة ﴿لَظَىٰ﴾ علم للنار.

١٦ ـ ﴿نَزَّاعَةً﴾ حفص، والمفضّل، على الحال المؤكدة. أو: على الاختصاص، للتهويل. وغيرهما بالرفع؛ خبر بعد خبر لـ: «إنّ». أو على: هي نزّاعةٌ ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ لأطراف الإنسان كاليدين والرجلين. أو: جمع: شواة. وهي: جلدة الرأس، تنزعها نزعاً فتفرّقها، ثمّ تعود إلى ما كانت.

١٧، ١٨ ـ ﴿تَدْعُوا۟﴾ بأسمائهم يا كافر! يا منافق! إليّ إليّ، أو: تهلك. من

(١) في الأصل المخطوط: لتساؤلهم.

مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾

قولهم: دعاك الله؛ أي: أهلكك. أو: لمّا كان مصيره إليها جعلت كأنّها دعته ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحقّ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة ﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ فجعله في وعاءٍ ولم يؤدِّ حقّ الله منه.

١٩ ـ ٢١ ـ ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أريد به الجنس، ليصحّ استثناء المصلّين منه. ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾. عن ابن عباس رضي الله عنهما: تفسيره ما بعده: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾. والهلع: سرعة الجزع عند مسّ المكروه، وسرعة المنع عند مسّ الخير. وسأل محمد بن عبد الله بن طاهر ثعلباً عن الهلع، فقال: قد فسّره الله تعالى. ولا يكون تفسير أبين من تفسيره. وهو الذي إذا ناله شرٌّ أظهر شدّة الجزع، وإذا ناله خيرٌ بخل به ومنعه الناس. وهذا طبعه. وهو مأمور بمخالفة طبعه، وموافقة شرعه. والشرُّ: الضرُّ، والفقر، والخير: السعة، والغنى، أو: المرض، والصحّة.

٢٢، ٢٣ ـ ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ أي: صلواتهم الخمس ﴿دَآئِمُونَ﴾ أي: يحافظون عليها في مواقيتها. عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

٢٤، ٢٥ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ يعني: الزكاة؛ لأنّها مقدّرةٌ معلومةٌ. أو: صدقةٌ[1] يوظّفها الرجل على نفسه، يؤدّيها في أوقات معلومة ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الذي يسأل ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الذي يتعفّف عن السؤال، فيحسب غنيّاً، فيحرم.

٢٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء والحساب، وهو يوم القيامة.

٢٧، ٢٨ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون. واعترض بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ بالهمز سوى أبي عمرو. أي: لا ينبغي لأحدٍ وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد أن يأمنه، وينبغي أن يكون مترجّحاً بين الخوف والرجاء.

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾
فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾

٢٩، ٣٠ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ نسائهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: إمائهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ على ترك الحفظ.

٣١ ـ ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾ طلب منكحاً ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الزوجات، والمملوكات ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ المتجاوزون عن الحلال إلى الحرام. وهذه الآية تدلّ على حرمة المتعة، ووطء الذكر، والبهائم، والاستمناء بالكفّ.

٣٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ ﴿لأمانتهم﴾: مكّيٌّ. وهي تتناول أمانات الشرع، وأمانات العباد ـ ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ أي: عهودهم. ويدخل فيها: عهود الخلق، والنذور، والأيمان ﴿رَٰعُونَ﴾ حافظون، غير خائنين، ولا ناقضين. وقيل: الأمانات ما تدلّ عليه العقول، والعهد: ما أتى به الرسول.

٣٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾: حفص وسهل ويعقوب ﴿قَآئِمُونَ﴾ يقيمونها عند الحكّام بلا ميل إلى قريب وشريف، وترجيح للقويّ على الضعيف، إظهاراً للصلابة في الدين، ورغبةً في إحياء حقوق المسلمين.

٣٤ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ كرّر ذكر الصلاة لبيان أنّها أهمّ. أو: لأنّ إحداهما للفرائض، والأخرى للنوافل. وقيل: الدوام عليها: الاستكثار منها. والمحافظة عليها: ألاّ تضيع عن مواقيتها. أو: الدوام عليها: أداؤها في أوقاتها. والمحافظة عليها: حفظ أركانها، وواجباتها، وسننها، وآدابها.

٣٥ ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أصحاب هذه الصفات ﴿فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾. هما خبران.

٣٦، ٣٧ ـ ﴿فَمَالِ﴾ كتب مفصولاً اتّباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ﴾ نحوك. معمول ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين. حال من ﴿الذين كفروا﴾. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ عن يمين النبيّ ﷺ، وعن شماله ﴿عِزِينَ﴾ حال. أي: فرقاً شتّى. جمع: عزة. وأصلها: عزوة، كأنّ كلّ فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الأخرى، فهم مفترقون.

أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ
أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَٰرِقِ وَالْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ
يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ
يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

---

٣٨ ـ كان المشركون يحتفّون حول النبيّ ﷺ حلقاً حلقاً، وفرقاً فرقاً، يستمعون ويستهزئون بكلامه، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنّة كما يقول محمد فلندخلنّها قبلهم. فنزلت: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء سوى المفضّل ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ كالمؤمنين.

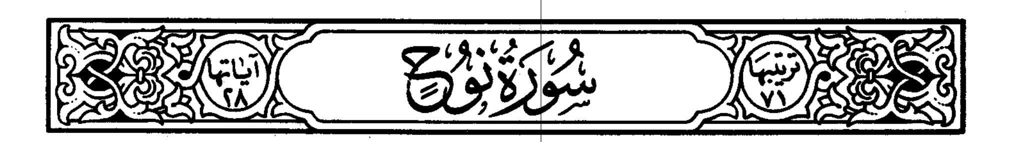
٣٩ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن طمعهم في دخول الجنة ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من النطفة المذرة، ولذلك أبهم إشعاراً بأنّه منصب يستحيا من ذكره. فمن أين يتشرّفون، ويدّعون التقدّم، ويقولون: لندخلنّ الجنّة قبلهم؟ أو معناه: ﴿إنّا خلقناهم﴾ من نطفةٍ، كما خلقنا بني آدم كلّهم. ومِنْ حُكْمِنا: ألاّ يدخل أحدٌ الجنّة إلا بالإيمان. فَلِمَ يطمع أن يدخلها من لا إيمان له؟.

٤٠، ٤١ ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَٰرِقِ وَالْمَغَٰرِبِ﴾ مطالع الشمس ومغاربها ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ على أن نهلكهم ونأتي بخلقٍ أمثل منهم وأطوع لله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بعاجزين.

٤٢، ٤٣ ـ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ فدع المكذّبين ﴿يَخُوضُوا۟﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ﴾ فيه العذاب ﴿يَوْمَ﴾ بدل من ﴿يومهم﴾ ﴿يَخْرُجُونَ﴾ بفتح الياء، وضم الراء سوى الأعشى ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ القبور ﴿سِرَاعًا﴾ جمع: سريع. حال. أي: إلى الداعي ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ شاميٌّ، وحفص، وسهل. ﴿نُصْبٍ﴾ المفضّل. ﴿نَصْبٍ﴾ غيرهم. وهو: كلّ ما نصب وعبد من دون الله ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون.

٤٤ ـ ﴿خَٰشِعَةً﴾ حال من ضمير ﴿يخرجون﴾. أي: ذليلة ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ يعني: لا يرفعونها لذلّتهم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يغشاهم هوان ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، وهم يكذّبون به.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

١ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ قيل: معناه بالسريانيّة: الساكن ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ﴾ خوّف. أصله: بأن أنذر. فحذف الجارّ وأوصل الفعل. ومحلّه عند الخليل جرٌّ، وعند غيره نصبٌ. أو ﴿أن﴾ مفسّرة بمعنى: أي؛ لأنّ في الإرسال معنى القول ﴿قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب الآخرة، أو: الطوفان.

٢ ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه إظهاراً للشفقة ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ مخوّف ﴿مُّبِينٌ﴾ أبيّن لكم رسالة الله بلغةٍ تعرفونها.

٣ ـ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحّدوه. و﴿أن﴾ هذه نحو ﴿أن أنذر﴾ في الوجهين ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ واحذروا عصيانه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به، وأنهاكم عنه. وإنّما أضافه إلى نفسه؛ لأنّ الطاعة قد تكون لغير الله تعالى بخلاف العبادة.

٤ ـ ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ جواب الأمر. ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ للبيان كقوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ أو: للتبعيض؛ لأنّ ما يكون بينه وبين الخلق يؤاخذ به بعد الإسلام؛ كالقصاص وغيره. كذا في شرح التأويلات ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا
وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ
فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ
جِهَارًا ﴿٨﴾

﴿مُّسَمًّىۚ﴾ وهو وقت موتكم ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الموت ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أي: ﴿لو كنتم تعلمون﴾ ما يحلّ بكم من الندامة عند انقضاء أجلكم، لآمنتم. قيل: إنّ الله تعالى قضى مثلاً: أنّ قوم نوح إن آمنوا عمّرهم ألف سنة، وإن لم يؤمنوا أهلكهم على رأس تسعمائة. فقيل لهم: آمنوا يؤخّركم ﴿إلى أجل مسمّى﴾. أي: تبلغوا ألف سنة. ثمّ أخبر: أنّ الألف إذا جاء لا يؤخّر كما يؤخّر هذا الوقت. وقيل: إنّهم كانوا يخافون على أنفسهم الإهلاك من قومهم بإيمانهم وإجابتهم لنوح عليه السلام. فكأنّه عليه السلام أمّنهم عن ذلك، ووعدهم: أنّهم بإيمانهم يبقون إلى الأجل الذي ضرب لهم لو لم يؤمنوا. أي: أنّكم إن أسلمتم بقيتم إلى أجل مسمّى آمنين من عدوّكم.

٥، ٦ ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ دائباً بلا فتور ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ عن طاعتك. ونسب ذلك إلى دعائه لحصوله عنده، وإن لم يكن الدعاء سبباً للفرار في الحقيقة. وهو كقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٥] والقرآن لا يكون سبباً لزيادة الرجس. وكان الرجل يذهب بابنه إلى نوح عليه السلام فيقول: احذر هذا، فلا يغرّنّك، فإنّ أبي قد أوصاني به.

٧ ـ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان بك ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: ليؤمنوا فتغفر لهم، فاكتفى بذكر المسبّب ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ سدّوا مسامعهم لئلا يسمعوا كلامي ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ وتغطّوا بثيابهم لئلا يبصروني كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ وأقاموا على كفرهم ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ وتعظّموا عن إجابتي. وذكر المصدر دليل على فرط استكبارهم

٨ ـ ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ مصدر في موضع الحال. أي: مجاهراً. أو: مصدر ﴿دعوتهم﴾ كقعد القرفصاء؛ لأنّ الجهار أحد نوعي الدعاء. يعني: أظهرت لهم الدعوة في المحافل.

ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾

٩ ـ ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ أي: خلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السرّ. فالحاصل: أنّه دعاهم ليلاً ونهاراً في السرّ، ثمّ دعاهم جهاراً، ثمّ دعاهم في السرّ والعلن، وهكذا يفعل الآمر بالمعروف: يبتدىء بالأهون، ثمّ بالأشدّ فالأشدّ. فافتتح بالمناصحة في السرّ. فلمّا لم يقبلوا ثنّى بالمجاهرة. فلمّا لم تؤثّر ثلّث بالجمع بين الإسرار والإعلان. و﴿ثمّ﴾ تدلّ على تباعد الأحوال؛ لأنّ الجهار أغلظ من الإسرار. والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما.

١٠ ـ ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ من الشرك؛ لأنّ الاستغفار طلب المغفرة. فإن كان المستغفر كافراً فهو من الكفر، وإن كان عاصياً مؤمناً فهو من الذنوب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ لم يزل غفّاراً لذنوب من ينيب إليه.

١١، ١٢ ـ ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ المطر ﴿عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ كثيرة الدرور ـ ومفعال يستوي فيه المذكّر والمؤنّث ـ ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ يزدكم أموالاً وبنين ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ بساتين ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ جارية لمزارعكم وبساتينكم، وكانوا يحبّون الأموال والأولاد، فحرّكوا بهذا على الإيمان. وقيل: لمّا كذّبوه بعد طول تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة أو سبعين. فوعدهم أنّهم إن آمنوا رزقهم الله الخصب، ورفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر رضي الله عنه: أنّه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار. فقيل له: ما رأيناك استسقيت! فقال لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر ـ شبّه عمر الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطىء ـ وقرأ الآيات. وعن الحسن: أنّ رجلاً شكا إليه الجدب، فقال: استغفر الله. وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلّة النسل، وآخر قلّة ريع أرضه، فأمرهم كلّهم بالاستغفار. فقال له الربيع[1]:

(١) هو الربيع بن صبيح، أبو بكر: أول من صنّف بالبصرة. كان عابداً ورعاً. خرج غازياً إلى السند فمات في البحر، ودفن في إحدى الجزر سنة (١٦٠ هـ).

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾

أتاك رجال يشكون أبواباً، فأمرتهم كلّهم بالاستغفار. فتلا الآيات.

١٣، ١٤ ـ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ لا تخافون لله عظمةً، عن الأخفش. قال: والرجاء هنا: الخوف؛ لأنّ مع الرجاء طرفاً من الخوف ومن اليأس. والوقار: العظمة. أو: لا تأملون له توقيراً. أي: تعظيماً. والمعنى: مالكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إيّاكم في دار الثواب ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ في موضع الحال. أي: مالكم لا تؤمنون بالله والحال هذه، وهي حال موجبة للإيمان به؛ لأنّه ﴿خلقكم أطواراً﴾ أي: تارات، وكرات: خلقكم أوّلاً: نطفاً، ثمّ: خلقكم علقاً، ثمّ: خلقكم مضغاً، ثمّ: خلقكم عظاماً ولحماً.

١٥ ـ نبّههم أوّلاً على النظر في أنفسهم لأنّها أقرب، ثمّ على النظر في العالم وما سوّى فيه من العجائب الدالّة على الصانع بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بعضاً على بعض.

١٦ ـ ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: في السموات. وهو في السماء الدنيا؛ لأنّ بين السموات ملابسة من حيث إنّها طباق. وجاز أن يقال: فيهنّ كذا، وإن لم يكن في جميعهنّ، كما يقال: في المدينة كذا، وهو في بعض نواحيها. وعن ابن عباس وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ: إنّ الشمس والقمر وجوههما مما يلي السموات، وظهورهما مما يلي الأرض. فيكون نور القمر محيطاً بجميع السموات لأنّها لطيفة لا تحجب نوره ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ مصباحاً يبصر أهل الدنيا في ضوئها كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره. وضوء الشمس أقوى من نور القمر. وأجمعوا: على أنّ الشمس في السماء الرابعة.

١٧، ١٨ ـ ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أنشأكم. استعير الإنبات للإنشاء ﴿نَبَاتًا﴾ فنبتم نباتاً ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بعد الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِخْرَاجًا﴾ أكّده بالمصدر. أي: أيَّ إخراج.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ
عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا
تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ

١٩، ٢٠ ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ مبسوطةً ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا﴾ لتنقلبوا عليها، كما ينقلب الرجل على بساطه ﴿سُبُلًا﴾ طرقاً ﴿فِجَاجًا﴾ واسعة أو مختلفة.

٢١ ـ ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم به من الإيمان والاستغفار ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ أي: السفلة والفقراء ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ﴾ أي: الرؤساء أصحاب الأموال، والأولاد. ﴿ووُلْده﴾ مكّيٌّ، وعراقيٌّ، غير عاصم. وهو جمع ولد، كأسد وأسد ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ في الآخرة.

٢٢ ـ ﴿وَمَكَرُواْ﴾ معطوف على ﴿لم يزده﴾. وجمع الضمير وهو راجع إلى ﴿مَنْ﴾ لأنّه في معنى الجمع. والماكرون: هم الرؤساء. ومكرهم: احتيالهم في الدين، وكيدهم لنوح، وتحريش الناس على أذاه، وصدّهم عن الميل إليه ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ عظيماً. وهو أكبر من الكِبَار. وقرىء به. وهو أكبر من الكبير.

٢٣ ـ ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: الرؤساء لسفلتهم ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ على العموم أي: عبادتها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ بفتح الواو وضمّها. وهو قراءة نافع. لغتان. صنم على صورة رجل ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾ هو على صورة امرأة ﴿وَلَا يَغُوثَ﴾ هو على صورة أسد ﴿وَيَعُوقَ﴾ هو على صورة فرس. وهما لا ينصرفان للتعرف ووزن الفعل إن كانا عربيّين، وللتعريف والعجمة إن كانا أعجميّين ﴿وَنَسْرًا﴾ هو على صورة نسر. أي: هذه الأصنام الخمسة على الخصوص. وكأنّها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم. فخصّوها بعد العموم. وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب. فكان ودّ لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمَذْحِج، ويعوق لمُراد، ونسر لحمير. وقيل: هي أسماء رجال صالحين كان الناس يقتدون بهم بين آدم ونوح، فلمّا ماتوا صوّروهم ليكون ذلك أدعى لهم إلى العبادة. فلمّا طال الزمان قال لهم إبليس: إنّهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم.

٢٤ ـ ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ﴾ أي: الأصنام، كقوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

كَثِيرًاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ

[إبراهيم: ٣٦]. أو: الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عطف على ﴿ربّ إنّهم عصوني﴾ على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد ﴿قال﴾ وبعد الواو النائبة عنه. ومعناه: ﴿قال نوح ربّ إنّهم عصوني﴾ ﴿و﴾ قال ﴿لا تزد الظالمين﴾ أي: قال هذين القولين. وهما في محلّ النصب لأنهما مفعولا ﴿قال﴾ ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ هلاكاً. كقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

٢٥ ـ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ ﴿خطاياهم﴾ ـ أبو عمرو. أي: ذنوبهم ـ ﴿أُغْرِقُواْ﴾ بالطوفان ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ عظيمة. وتقديم ﴿ممّا خطيئاتهم﴾ لبيان: أن لم يكن إغراقهم بالطوفان، وإدخالهم في النيران، إلاّ من أجل خطيئاتهم. وأكّد هذا المعنى بزيادة ﴿ما﴾. وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا. فإنّ كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم وإن كانت كبراهنّ. والفاء في ﴿فأدخلوا﴾ للإيذان بأنّهم عذّبوا بالإحراق عقيب الإغراق، فيكون دليلاً على إثبات عذاب القبر ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ ينصرونهم، ويمنعونهم من عذاب الله.

٢٦ ـ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي: أحداً يدور في الأرض. وهو: فَيْعَالٌ، من: الدَّوْرِ. وهو من الأسماء المستعملة في النفي العامّ.

٢٧ ـ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ ولا تهلكهم ﴿يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ يدعوهم إلى الضلال ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ إلاّ من إذا بلغ فجر وكفر. وإنّما قال ذلك؛ لأنّ الله تعالى أخبره بقوله: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

٢٨ ـ ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وكانا مسلمين، واسم أبيه: لمك. واسم أمّه: شمخاء. وقيل: هما آدم وحوّاء. وقرىء: ﴿لولديّ﴾ يريد: ساماً وحاماً ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ منزلي أو مسجدي أو سفينتي ﴿مُؤْمِنًا﴾ لأنّه علم: أنّ من دخل بيته مؤمناً لا يعود إلى الكفر ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى يوم القيامة. خصّ

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

أوّلاً من يتّصل به؛ لأنّهم أولى، وأحقّ بدعائه، ثمّ عمّ المؤمنين والمؤمنات ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ هلاكاً، فأهلكوا. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: دعا نوح عليه السلام بدعوتين: إحداهما للمؤمنين بالمغفرة، وأخرى على الكافرين بالتبار. وقد أجيبت دعوته في حقّ الكفار بالتبار. فاستحال ألاّ تستجاب دعوته في حقّ المؤمنين.

واختلف في صبيانهم حين أغرقوا. فقيل: أعقم الله أرحام نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنة، فلم يكن معهم صبيّ حين أغرقوا. وقيل: علم الله براءتهم فأهلكوا بغير عذاب.

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (١)

١ ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأمّتك ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾ أنّ الأمر والشأن. أجمعوا على فتح ﴿أنّه﴾ لأنّه فاعل ﴿أوحى﴾، و﴿أَلَّوِ اسْتَقَامُوا﴾ [الجن: ١٦] و﴿أَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾ [الجن: ١٨] للعطف على ﴿أنّه استمع﴾ فأن مخففة من الثقيلة. و﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا﴾ [الجن: ٢٨] لتعدّي يعلم إليها، وعلى كسر ما بعد فاء الجزاء وبعد القول نحو ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: ٢٣] و﴿قالوا إنّا سمعنا﴾ لأنّه مبتدأ محكيٌّ بعد القول. واختلفوا في فتح الهمزة وكسرها من ﴿أَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ إلى ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ [الجن: ٣ ـ ١٤] ففتحها شاميٌّ، وكوفيٌّ غير أبي بكر، عطفاً على ﴿أنّه استمع﴾ أو على محلّ الجار والمجرور في ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ٢] تقديره: صدّقناه، وصدّقنا: أنّه تعالى جدّ ربّنا ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ [الجن: ٤] إلى آخرها. وكسرها غيرهم عطفاً على ﴿إنّا سمعنا﴾ وهم يقفون على أواخر الآيات ﴿اسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ جماعة من الثلاثة إلى العشرة ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ جنّ نصيبين ﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم حين رجعوا إليهم من استماع قراءة النبيّ ﷺ في صلاة الفجر: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ عجيباً بديعاً مبايناً لسائر الكتب في حسن نظمه،

يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾

وصحّة معانيه. والعجب ما يكون خارجاً عن العادة. وهو مصدر وضع موضع العجيب.

٢ ـ ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ يدعو إلى الصواب، أو إلى التوحيد والإيمان ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ بالقرآن. ولمّا كان الإيمان به إيماناً بالله، وبوحدانيّته، وبراءةً من الشرك، قالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ من خلقه. وجاز أن يكون الضمير في ﴿به﴾ لله تعالى؛ لأنّ قوله: ﴿بربّنا﴾ يفسّره.

٣ ـ ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ عظمته. يقال: جدّ فلان في عيني، أي: عظم. ومنه قول عمر، أو أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا، أي: عظم في عيوننا ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً﴾ زوجة ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ كما يقول كفّار الجنّ والإنس.

٤ ـ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ جاهلنا، أو إبليس ـ إذ ليس فوقه سفيه ـ ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ كفراً لبعده عن الصواب. من: شطّت الدار، أي: بعدت. أو: قولاً يجوز فيه عن الحقّ. وهو نسبة الصاحبة والولد إليه. والشطط: مجاوزة الحدِّ في الظلم وغيره.

٥ ـ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قولاً ﴿كذباً﴾ أو مكذوباً فيه. أو: نصب على المصدر؛ إذ الكذب نوعٌ من القول. أي: كان في ظنّنا: أنّ أحداً لن يكذب على الله بنسبة الصاحبة والولد إليه. وكنّا نصدّقهم فيما أضافوا إليه حتّى تبيّن لنا بالقرآن كذبهم.

٦ ـ كان الرجل من العرب إذا نزل بمخوفٍ من الأرض قال: أعوذ بسيِّد هذا الوادي من سفهاء قومه ـ يريد: كبير الجنّ ـ فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ﴾ أي: زاد الإنسُ الجنَّ باستعاذتهم بهم ﴿رَهَقًا﴾ طغياناً، وسفهاً، وكبراً بأن قالوا: سدنا الجنّ والإنس. أو: فزاد الجنُّ الإنسَ

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ
حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ
شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا
مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ

﴿رهقاً﴾ إثماً لاستعاذتهم بهم. وأصل الرهق: غشيان المحظور.

٧ ـ ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وأنّ الجنّ ﴿ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد الموت. أي: أنّ الجنّ كانوا ينكرون البعث كإنكاركم، ثمّ بسماع القرآن اهتدوا، وأقرّوا بالبعث. فهلاّ أقررتم كما أقرّوا!

٨ ـ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها. واللمس: المسُّ. فاستعير للطلب؛ لأنّ الماسّ طالب متعرّف ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ جَمْعاً أقوياء من الملائكة يحرسون. جمع: حارس. ونُصِبَ على التمييز. وقيل: الحرس اسم مفرد في معنى الحرّاس، كالخدم في معنى الخدّام، ولذا وصف بشديد. ولو نظر إلى معناه لقيل: شداداً ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع: شهاب. أي: كواكب مضيئة.

٩ ـ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ من السماء قبل هذا ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ لاستماع أخبار السماء. يعني: كنّا نجد بعض السماء خالية من الحرس والشهب قبل المبعث ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ﴾ يريد الاستماع ﴿ٱلْـَٔانَ﴾ بعد المبعث ﴿يَجِدْ لَهُۥ﴾ لنفسه ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾ صفة لشهاباً، بمعنى: الراصد. أي: يجد شهاباً راصداً له ولأجله. أو: هو اسم جمع للراصد على معنى: ذوي شهابٍ راصدين بالرجم، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب، ويمنعونهم من الاستماع. والجمهور على أنّ ذلك لم يكن قبل مبعث محمد ﷺ. وقيل: كان الرجم في الجاهليّة. ولكن الشياطين كانت تسترق في بعض الأوقات فمنعوا من الاستراق أصلاً بعد مبعث النبيّ ﷺ.

١٠ ـ ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ﴾ عذابٌ ﴿أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعدم استراق السمع ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ خيراً ورحمةً.

١١ ـ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الأبرار المتّقون ﴿وَمِنَّا﴾ قومٌ ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فحذف

كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

الموصوف. وهم المقتصدون في الصلاح غير الكاملين فيه. أو أرادوا غير الصالحين ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ بيان للقسمة المذكورة. أي: كنّا ذوي مذاهب متفرّقة أو أديان مختلفة. والقدد جمع: قدّة، وهي القطعة. من: قددت السير؛ أي: قطعته.

١٢ ـ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أيقنّا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ لن نفوته ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حال. أي: لن نعجزه كائنين ﴿في الأرض﴾ أينما كنّا فيها ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ مصدر في موضع الحال. أي: ﴿ولن نعجزه﴾ هاربين منها إلى السماء. وهذه صفة الجنّ وما هم عليه من أحوالهم وعقائدهم.

١٣ ـ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بالقرآن أو بالله ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ﴾ ﴿فـ﴾ ـهو ﴿لا يخاف﴾ ـ مبتدأ وخبر ـ ﴿بَخْسًا﴾ نقصاً من ثوابه ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي: ولا ترهقه ذلّة. من قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وفيه دليل: على أنّ العمل ليس من الإيمان.

١٤ ـ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ المؤمنون ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الكافرون الجائرون عن طريق الحقّ قسط: جار. وأقسط: عدل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ طلبوا هدى. والتحرّي: طلب الأحرى. أي: الأولى.

١٥ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟﴾ في علم الله ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وقوداً. وفيه دليل: على أنّ الجنّيَّ الكافر يعذّب في النار. ويتوقّف في كيفية ثوابهم.

١٦ ـ ﴿وَأَلَّوِ﴾ ﴿وأن﴾ مخفّفة من الثقيلة. يعني: وأنّه. وهو من جملة الموحى. أي: أوحى إليّ أنّ الشأن لو ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي: القاسطون ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ طريقة الإسلام ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ كثيراً. والمعنى: لوسّعنا عليهم الرزق. وذكر الماء الغدق؛ لأنّه سبب سعة الرزق.

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾

١٧ ـ ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خُوِّلوا منه ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ القرآن، أو: التوحيد، أو: العبادة ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بالياء: عراقيّ غير أبي عمرو: يدخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقاً. مصدر صعد. يقال: صَعِدَ، صَعَداً، وصعوداً. فوصف به العذاب لأنّه يتصعّد المعذّب أي: يعلوه، ويغلبه، فلا يطيقه. ومنه قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: ما تصعّدني شيءٌ ما تصعّدتني خطبة النكاح. أي: ما شقَّ عليَّ.

١٨ ـ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ من جملة الموحى. أي: أوحي إليّ: ﴿أنّ المساجد﴾ أي: البيوت المبنيّة للصلاة فيها ﴿لله﴾. وقيل: معناه: ﴿و﴾ لـ﴿أنّ المساجد لله فلا تدعوا﴾ على أنّ اللام متعلّقة بلا تدعوا. أي: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ في المساجد؛ لأنّها خالصة لله ولعبادته. وقيل: المساجد أعضاء السجود وهي: الجبهة، واليدان، والركبتان، والقدمان.

١٩ ـ ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ محمد ﷺ إلى الصلاة. وتقديره: فأوحي إليّ أنه لمّا قام عبد الله ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعبده، ويقرأ القرآن. ولم يقل نبيّ الله، أو رسول الله؛ لأنّه من أحبّ الأسماء إلى النبيّ ﷺ، ولأنّه لمّا كان واقعاً في كلامه ﷺ عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع، أو: لأنّ عبادة عبد الله ليست بمستبعد حتّى يكونوا عليه لبداً ﴿كَادُوا۟﴾ كاد الجنّ ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ جماعات. جمع: لبدة. تعجّباً ممّا رأوا من عبادته، واقتداء أصحابه به، وإعجاباً بما تلاه من القرآن؛ لأنّهم رأوا ما لم يروا مثله.

٢٠ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ وحده ـ (قال) غير عاصم وحمزة ـ ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ في العبادة. فلم تتعجّبون وتزدحمون عليَّ؟

٢١ ـ ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ مضرّةً ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ نفعاً. أو: أراد بالضرِّ الغيَّ، بدليل قراءة أبيّ (غيّاً ولا رشداً) يعني: لا أستطيع أن أضرّكم، وأن أنفعكم. لأنّ الضارّ والنافع هو الله.

قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ
وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

٢٢ ـ ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ لن يدفع عنّي عذابه أحدٌ إن عصيته؛ كقول صالح عليه السلام: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ [هود: ٦٣] ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ ملتجأ.

٢٣ ـ ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استثناء من: ﴿لا أملك﴾. أي: ﴿لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً﴾ ﴿إلاّ بلاغاً من الله﴾. و﴿قل: إنّي لن يجيرني﴾ اعتراض لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه. وقيل: ﴿بلاغاً﴾ بدل من: ﴿ملتحداً﴾. أي: ﴿لن أجد من دونه﴾ منجى ﴿إلاّ﴾ أن أبلّغ عنه ما أرسلني به. يعني: لا ينجيني إلاّ أن أبلّغ عن الله ما أرسلت به، فإنّ ذلك ينجيني. وقال الفرّاء: هذا شرط وجزاء وليس باستثناء. وإن منفصلة من لا، وتقديره: إن لا أبلّغ بلاغاً. أي: إن لم أبلّغ لم أجد من دونه ملتجأ ولا مجيراً لي، كقولك: إن لا قياماً فقعوداً. والبلاغ في هذه الوجوه بمعنى التبليغ ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ عطف على ﴿بلاغاً﴾ كأنّه قيل: ﴿لا أملك لكم﴾ إلاّ التبليغ والرسالات. أي: إلاّ أن أبلغ عن الله، فأقول: قال الله. ناسباً لقوله إليه، وأن أبلّغ رسالته التي أرسلني بها بلا زيادة ونقصان. و﴿من﴾ ليست بصلة للتبليغ؛ لأنّه يقال: بلّغ عنه. إنّما هي بمنزلة ﴿من﴾ في ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١] أي: ﴿بلاغاً﴾ كائناً ﴿من الله﴾ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في ترك القبول بما أنزل على الرسول، لأنّه ذكر على أثر تبليغ الرسالة ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وحّد في ﴿له﴾ وجمع في ﴿خالدين﴾ للفظ ﴿مَنْ﴾ ومعناه.

٢٤ ـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ يتعلّق بمحذوف دلّت عليه الحال. كأنّه قيل: لا يزالون على ما هم عليه حتّى ﴿إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند حلول العذاب بهم ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهم أم المؤمنون. أي: الكافر لا ناصر له يؤمئذٍ، والمؤمن ينصره الله وملائكته وأنبياؤه عليهم السلام.

قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

٢٥ ـ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ﴾ ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ﴾ وبفتح الياء حجازيّ وأبو عمرو ﴿أَمَدًا﴾ غايةً بعيدة. يعني: أنّكم تعذّبون قطعاً، ولكن لا أدري أهو حالّ، أم مؤجّل.

٢٦، ٢٧ ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ خبر مبتدأ. أي: هو عالم الغيب ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ فلا يطلع ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ من خلقه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ إلاّ رسولاً قد ارتضاه لعلم بعض الغيب ليكون إخباره عن الغيب معجزة له. فإنّه يطلعه على غيبه ما شاء. و﴿من رسول﴾ بيان لمن ارتضى. والوليُّ إذا أخبر بشيءٍ فظهر فهو غير جازم عليه. ولكنّه أخبره بناءً على رؤياه أو بالفراسة. على أنّ كلّ كرامة للوليّ فهي معجزة للرسول. وذكر في التأويلات: قال بعضهم: في هذه الآية دلالة تكذيب المنجّمة، وليس كذلك فإنّ فيهم من يصدق خبره. وكذلك المتطبّبة يعرفون طبائع النبات، وذا لا يعرف بالتأمّل، فعلم بأنّهم وقفوا على علمه من جهة رسول انقطع أثره، وبقي علمه في الخلق ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ﴾ يدخل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ يدي الرسول ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتّى يبلّغ الوحي.

٢٨ ـ ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ الله ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟﴾ أي: الرسل ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كاملةً، بلا زيادةٍ ولا نقصان إلى المرسل إليهم. أي: ليعلم الله ذلك موجوداً حال وجوده، كما كان يعلم ذلك قبل وجوده أنّه يوجد. وحّد الضمير في ﴿من بين يديه﴾ للفظ ﴿مَنْ﴾، وجمع في ﴿أبلغوا﴾ لمعناه ﴿وَأَحَاطَ﴾ الله ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عند الرسل من العلم ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ من القطر، والرمل، وورق الأشجار، وزبد البحار. فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه؟ و﴿عدداً﴾ حال. أي: وعلم كلّ شيءٍ معدوداً محصوراً. أو مصدر في معنى: إحصاءً.

* * *



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ

---

١ ـ ٤ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ أي: المتزمّل. وهو الذي تزمّل في ثيابه، أي: تلفّف بها. بإدغام التاء في الزاي. وكان النبيّ ﷺ نائماً بالليل متزمّلاً في ثيابه، فأمر بالقيام للصلاة بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدل من ﴿الليل﴾. و﴿إلاّ قليلاً﴾ استثناء من: ﴿نصفه﴾ تقديره: ﴿قم﴾ نصف الليل ﴿إلاّ قليلاً﴾ من نصف الليل ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ من النصف ـ بضم الواو، غير عاصم وحمزة ﴿قَلِيلًا﴾ إلى الثلث ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ على النصف إلى الثلثين. والمراد: التخيير بين أمرين: بين أن يقوم أقلّ من نصف الليل على البتّ، وبين أن يختار أحد الأمرين. وهما: النقصان من النصف والزيادة عليه. وإن جَعْلَتَ ﴿نصفه﴾ بدلاً من ﴿قليلاً﴾ كان تخييراً بين ثلاثة أشياء: بين قيام نصف الليل تامّاً، وبين قيام الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه. وإنّما وصف النصف بالقلّة بالنسبة إلى الكلّ. وإلاّ فإطلاق لفظ القليل ينطلق على ما دون النصف. ولهذا قلنا: إذا أقرّ: أنّ لفلان عليه ألف درهم إلاّ قليلاً: أنّه يلزمه أكثر من نصف الألف ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ بيّن

﴿تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾

وفصّل. من: الثغر المرتّل، أي: المفلّج. أو: اقرأ على تؤدة بتبيين الحروف، وحفظ الوقوف، وإشباع الحركات ﴿تَرْتِيلًا﴾ هو تأكيد في إيجاب الأمر به، وأنّه لا بدّ منه للقارىء.

٥ ـ ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ﴾ سننزل عليك ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي: القرآن؛ لما فيه من الأوامر، والنواهي؛ التي هي تكاليف شاقّة ثقيلة على المكلّفين. أو: ﴿ثقيلاً﴾ على المنافقين. أو: كلاماً له وزن، ورجحان، ليس بالسفساف الخفيف.

٦ ـ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ بالهمز سوى ورش: قيام الليل، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فهي مصدر من: نشأ: إذا قام، ونهض، على «فاعلة» كالعافية. أو: العبادة التي تنشأ بالليل؛ أي: تحدث. أو: ساعات الليل؛ لأنّها تنشأ ساعة فساعة. وكان زين العابدين يصلّي بين العشاءين ويقول: هذه ناشئة الليل ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾[1] وفاقاً، شاميٌّ، وأبو عمرو. أي: يواطىء فيها قلب القائم لسانه. وعن الحسن: أشدّ موافقة بين السرّ والعلانية، لانقطاع رؤية الخلائق. غيرهما ﴿وطئاً﴾ أي: أثقل على المصلّي من صلاة النهار؛ لطرد النوم في وقته، من قوله ﷺ: «اللّهم اشدد وطأتك على مضر»[2] ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ وأسدّ مقالاً، وأثبت قراءةً؛ لهدوّ الأصوات، وانقطاع الحركات.

٧ ـ ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تصرّفاً، وتقلّباً في مهمّاتك، وشواغلك، ففرّغ نفسك بالليل لعبادة ربّك. أو: فراغاً طويلاً لنومك وراحتك.

٨ ـ ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على ذكره في الليل والنهار. وذكر الله يتناول: التسبيح، والتهليل، والتكبير، والصلاة، وتلاوة القرآن، ودراسة العلم ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ انقطع إلى عبادته عن كلّ شيء، والتبتّل: الانقطاع إلى الله تعالى بتأميل الخير منه دون غيره. وقيل: رفض الدنيا وما فيها، والتماس ما عند الله

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: (وِطاءً) وهي قراءة: شامي وأبي عمر؛ كما بَيّنَ.

(٢) رواه البخاري (٦٣٩٣) ومسلم (٦٧٥).

تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴿١٠﴾ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾

﴿تَبۡتِيلٗا﴾ في اختلاف المصدر زيادة تأكيد. أي: بتَّلك الله، فتبتّل. أو جيء به مراعاةً لحقّ الفواصل.

٩ ـ ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بالرفع، أي: هو ﴿ربّ﴾. أو: مبتدأ، خبره: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. وبالجرّ شاميّ، وكوفيّ غير حفص، بدل من ﴿ربّك﴾. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: على القسم بإضمار حرف القسم، نحو: الله لأفعلنّ. وجوابه: ﴿لا إله إلاّ هو﴾ كقولك: والله لا أحد في الدار إلاّ زيد. ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ وليّاً، أو كفيلاً بما وعدك من النصر. أو: إذا علمت أنّه ملك المشرق والمغرب، وأن لا إله إلاّ هو ﴿فاتّخذه﴾ كافياً لأمورك. وفائدة الفاء: ألاّ تلبث بعد أن عرفت في تفويض الأمور إلى الواحد القهّار؛ إذ لا عذر لك في الانتظار بعد الإقرار.

١٠ ـ ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيَّ من الصاحبة والولد، أو فيك من الساحر والشاعر ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ جانبهم بقلبك، وخالفهم مع حسن المخالفة، وترك المكافأة. وقيل: هو منسوخ بآية القتال.

١١ ـ ﴿وَذَرۡنِي﴾ أي: كلهم إليَّ فأنا كافيهم ﴿وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ رؤساء قريش. مفعول معه. أو: عطف على ﴿ذرني﴾ أي: دعني وإيّاهم ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ التنعّم. وبالكسر: الإنعام. وبالضم: المسرّة ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ﴾ إمهالاً ﴿قَلِيلًا﴾ إلى يوم بدر، أو: إلى يوم القيامة،

١٢، ١٣ ـ ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ﴾ للكافرين في الآخرة ﴿أَنكَالٗا﴾ قيوداً ثقالاً. جمع: نِكْل ﴿وَجَحِيمٗا﴾ ناراً محرقة ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ أي: الذي ينشبَّثُ في الحلقوم، فلا يُساغ. يعني: الضريع، والزقّوم ﴿وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ يخلص وجعه إلى القلب. وروي: أنه ﷺ قرأ هذه الآية فصعق[1]. وعن الحسن: أنّه أمسى صائماً فأتي

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٣٥).

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ.

بطعام فعرضت له هذه الآية: فقال: ارفعه. ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له، فقال: ارفعه. وكذا الليلة الثالثة. فأخبر ثابت البناني وغيره فجاؤوا، فلم يزالوا، حتّى شرب شربةً من سويق.

١٤ ـ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بما في ﴿لدينا﴾ من معنى الفعل. أي: استقرّ للكفّار ﴿لدينا﴾ كذا وكذا يوم ﴿تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: تتحرّك حركةً شديدة ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا﴾ رملاً مجتمعاً. من: كثب الشيء إذا جمعه. كأنّه فعيل بمعنى: مفعول ﴿مَّهِيلًا﴾ سائلاً بعد اجتماعه.

١٥، ١٦ ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿رَسُولًا﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعني: موسى ـ عليه السلام ـ ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: ذلك الرسول، إذ النكرة إذا أعيدت معرفة كان الثاني عين الأوّل ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ شديداً غليظاً. وإنّما خصّ موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون ـ عليه اللعنة ـ لأنّ خبرهما كان منتشراً بين أهل مكّة لأنّهم كانوا جيران اليهود.

١٧ ـ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾ مفعول ﴿تتقون﴾. أي: ﴿فكيف تتّقون﴾. عذاب يوم كذا ﴿إن كفرتم﴾ هنا؟ أو: ظرف. أي: ﴿فكيف﴾ لكم التقوى في يوم القيامة ﴿إن كفرتم﴾ في الدنيا؟ أو: منصوب بـ ﴿كفرتم﴾ على تأويل جحدتم. أي: ﴿فكيف﴾ لكم ﴿تتّقون﴾ الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء؟ لأنّ تقوى الله: خوف عقابه ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ ـ صفة لـ ﴿يوماً﴾. والعائد محذوف. أي: فيه ـ ﴿شِيبًا﴾ من هوله وشدّته. وذلك حين يقال لآدم ـ عليه السلام ـ: قم فابعث بعث النار من ذرّيتك. هو جمع: أشيب. وقيل: هو على التمثيل للتهويل. يقال: في الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال.

١٨ ـ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ وصف لليوم بالشدّة أيضاً. أي: ﴿السماء﴾ على

كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ
رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ

عظمها وإحكامها تنفطر فيه، أي: تنشق، فما ظنك بغيرها من الخلائق؟ والتذكير على تأويل السماء بالسقف. أو: ﴿السماء﴾ شيء ﴿منفطر﴾ وقوله: ﴿به﴾ أي: بيوم القيامة. يعني: أنها تنفطر لشدة ذلك اليوم، وهوله؛ كما ينفطر الشيء بما يفطر به ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ المصدر مضاف إلى المفعول، وهو: اليوم؛ أو: إلى الفاعل، وهو: الله عز وجل ﴿مَفْعُولًا﴾ كائناً.

١٩ ـ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ الآيات الناطقة بالوعيد ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظةٌ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فمن شاء اتعظ بها، واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية.

٢٠ ـ ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ أقل. فاستعير الأدنى ـ وهو الأقرب ـ للأقل؛ لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز، وإذا بعدت كثر ذلك ﴿مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ بضم اللام سوى هشام ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ منصوبان. عطف على ﴿أدنى﴾ مكيٌّ وكوفيٌّ. ومن جرّهما عطف على ﴿ثلثي﴾ ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ عطف على الضمير في ﴿تقوم﴾ وجاز بلا توكيد؛ لوجود الفاصل ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾. أي: ويقوم ذلك المقدار جماعةٌ من أصحابك ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: ولا يقدر على تقدير الليل والنهار، ولا يعلم مقادير ساعاتهما إلا الله وحده. وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه لـ ﴿يقدّر﴾ هو الدال على أنه مختص بالتقدير. ثم إنهم قاموا حتى انتفخت أقدامهم. فنزل: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ لن تطيقوا قيامه على هذه المقادير إلا بشدةٍ ومشقةٍ، وفي ذلك حرج ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فخفف عليكم، وأسقط عنكم فرض قيام الليل ﴿فَٱقْرَءُوا۟﴾ ـ في الصلاة، والأمر للوجوب ـ أو في غيرها، والأمر للندب ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ عليكم ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾. روى أبو حنيفة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال: من قرأ مئة آية في ليلةٍ لم يكتب من الغافلين. ومن قرأ مئتي آية كتب من القانتين. وقيل: أراد بالقرآن الصلاة لأنها بعض أركانها. أي: فصلوا ما تيسر عليكم ولم يتعذر من صلاة الليل. وهذا ناسخ للأول. ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس. ثم بين الحكمة في

عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

النسخ، وهي تعذّر القيام على المرضى والمسافرين والمجاهدين فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم﴾ أي: أنه. مخفّفة من الثقيلة. والسين بدل من تخفيفها وحذف اسمها. ﴿مَّرْضَىٰ﴾ فيشقّ عليهم قيام الليل ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يسافرون ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال من ضمير ﴿يضربون﴾ ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ رزقه بالتجارة أو طلب العلم ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. سوّى بين المجاهد والمكتسب؛ لأنّ كسب الحلال جهاد قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أيّما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء. وقال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحبّ إليّ من أن أموت بين شعبتي رحلٍ أضرب في الأرض، أبتغي من فضل الله ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ كرّر الأمر بالتيسير لشدّة احتياطهم ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَءَاتُوا۟﴾ الواجبة ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ـ بالنوافل ـ والقرض لغةً: القطع، فالمقرض يقطع ذلك القدر من ماله فيدفعه إلى غيره، وكذا المتصدّق يقطع ذلك القدر من ماله فيجعله لله تعالى. وإنّما أضافه إلى نفسه لئلاّ يمنّ على الفقير فيما يتصدّق عليه. وهذا لأنّ الفقير معاون له في تلك القربة، فلا يكون له عليه منّة، بل المنّة للفقير عليه ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ من الحلال بالإخلاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾ أي: ثوابه. وهو جزاء الشرط ﴿عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ ممّا خلفتم وتركتم. فالمفعول الثاني لتجدوه ﴿خيراً﴾ و﴿هو﴾ فصل. وجاز وإن لم يقع بين معرفتين؛ لأنّ «أفعل من» أشبه المعرفة لامتناعه من حرف التعريف ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ وأجزل ثواباً ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من السيّئات، والتقصير في الحسنات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر على أهل الذنب والتقصير ﴿رَّحِيمٌ﴾ يخفّف عن أهل الجهد والتوفيق.

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾

١، ٢ ـ روى جابر: أنّ النبيَّ ﷺ قال: «كنت على جبل حراء فنوديت: يا محمد! إنّك رسول الله. فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئاً. فنظرت فوقي، فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض» ـ يعني: الملك الذي ناداه ـ «فرعبت ورجعت إلى خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقلت: دثريني، دثريني». فدثّرته خديجة. فجاء جبريل وقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[1] أي: المتلفّف بثيابه، من: الدثار. وهو: كلُّ ما كان من الثياب فوق الشعار. والشعار: الثوب الذي يلي الجسد. وأصله: المتدثّر. فأدغم ﴿قُمْ﴾ من مضجعك. أو: ﴿قم﴾ قيام عزمٍ وتصميمٍ ﴿فَأَنذِرْ﴾ فحذّر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا. أو: فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد. وقيل: سمع من قريش ما كرهه، فاغتم فتغطّى بثوبه مفكّراً؛ كما يفعل المغموم. فقيل له: ياأيُّها الصارف أذى الكفّار عن نفسك بالدِّثار؛ قم فاشتغل بالإنذار؛ وإن آذاك الفجّار.

(١) رواه البخاري (٤٩٢٣، ٤٩٢٤) ومسلم (١٦١) (٢٥٧، ٢٥٨).

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾

٣ ـ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ واختَصَّ ربك بالتكبير. وهو: التعظيم. أي: لا تُكبر في عينك غيره، وقل: عند ما يعروك من غير الله: الله أكبر. وروي: أنّه لمَّا نزل قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر» فكبّرت خديجة، وفرحت، وأيقنت أنّه الوحي[1]. وقد يحمل على تكبير الصلاة. ودخلت الفاء لمعنى الشرط؛ كأنّه قيل: وما كان فلا تدعْ تكبيره.

٤ ـ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ بالماء عن النجاسة؛ لأنّ الصلاة لا تصحّ إلاّ بها. وهي الأَوْلى في غير الصلاة. أو: فقصّر مخالفةً للعرب في تطويلهم الثياب، وجرّهم الذيول؛ إذ لا يؤمن معه إصابة النجاسة. أو: طهّر نفسك مما يستقذر من الأفعال. يقال: فلان طاهر الثياب: إذا وصفوه بالنقاء من المعايب، وفلانٌ دنس الثياب للغادر؛ ولأنّ من طهّر باطنه يطهِّر ظاهره ظاهراً.

٥ ـ ﴿وَالرُّجْزَ﴾ بضم الراء يعقوب، وسهل، وحفص. وغيرهم بالكسر: العذاب. والمراد: ما يؤدّى إليه ﴿فَاهْجُرْ﴾ أي: اثبت على هجره؛ لأنّه كان بريئاً منه.

٦ ـ ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ بالرفع. وهو منصوب المحلّ على الحال. أي: لا تعط مستكثراً رائياً لما تعطيه كثيراً. أو: طالباً أكثر ممّا أعطيت؛ فإنّك مأمور بأجلِّ الأخلاق، وأشرف الآداب. وهو من: منَّ عليه: إذا أنعم عليه. وقرأ الحسن ﴿تستكثرْ﴾ بالسكون جواباً للنهي.

٧ ـ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ولوجه الله فاستعمل الصبر على أوامره ونواهيه، وكلِّ مصبورٍ عليه، ومصبور عنه.

٨ ـ ١٠ ـ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ نفخ في الصور. وهي: النفخة الأولى. وقيل: الثانية ﴿فَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى وقت النقر. وهو مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مرفوع المحلّ، بدل من «ذلك» ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ خبر. كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير. والفاء في عَلَى

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٤/ ٦٤٥).

عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾

﴿فإذا﴾ للتسبيب، وفي ﴿فذلك﴾ للجزاء؛ كأنّه قيل: اصبر على أذاهم، فبين أيديهم يوم عسير، يلقون في عاقبة أذاهم، وتلقى عاقبة صبرك عليه. والعامل في ﴿فإذا﴾ ما دلّ عليه الجزاء. أي: ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ عسر الأمر ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وأكّد بقوله ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ ليؤذن بأنّه يسير على المؤمنين. أو: ﴿عسير﴾ لا يرجى أن يرجع يسيراً، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا.

١١ ـ ١٤ ـ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي: كله إليّ. يعني: الوليد بن المغيرة. وكان يلقّب في قومه بالوحيد. ﴿ومن خلقت﴾ معطوف، أو مفعول معه ﴿وَحِيدًا﴾ حال من الياء في ﴿ذرني﴾. أي: ذرني وحدي معه، فإنّي أكفيك أمره. أو: من التاء في ﴿خلقت﴾ أي: خلقته وحدي، لم يشركني في خلقه أحدٌ. أو: من الهاء المحذوفة، أو: من ﴿مَنْ﴾ أي: خلقته منفرداً بلا أهل، ولا مال، ثمّ أنعمت عليه ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ مبسوطاً كثيراً. أو: مُمَدّاً بالنماء. وكان له الزَّرع، والضَّرع، والتجارة. وعن مجاهد: كان له مئة ألف دينار. وعنه: أنَّ له أرضاً بالطائف لا ينقطع ثمرها ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضوراً معه بمكّة لغناهم عن السفر. وكانوا عشرةً أسلم منهم خالد، وهشام، وعمارة ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ وبسطت له الجاه والرياسة، فأتممت عليه نعمتي الجاه المال، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا.

١٥ ـ ١٦ ـ ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ استبعادٌ أو استنكارٌ لطمعه وحرصه، أي: يرجو أن أزيد في ماله وولده من غير شكر. وقال الحسن: ﴿أن أزيد﴾ أي: أن أدخله الجنّة، فأعطيه مالاً وولداً، كما قال: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] ﴿كَلَّآ﴾ ردع له، وقطع لرجائه. أي: لا يجمع له بعد اليوم بين الكفر والمزيد من النعم. فلم يزل بعد نزول الآية في نقصان من المال والجاه حتّى هلك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا﴾ للقرآن ﴿عَنِيدًا﴾ معانداً جاحداً. وهو تعليل للردع على وجه الاستئناف كأنَّ قائلاً قال: لم لا يزاد؟ فقيل: إنّه جحد آيات المنعم، وكفر بذلك نعمته. والكافر لا يستحقّ المزيد.

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ﴾

١٧ ـ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ سأغشيه ﴿صَعُودًا﴾ عقبة شاقّة المصعد، وفي الحديث: «الصعود: جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثمّ يهوي فيه كذلك أبداً»(١).

١٨ ـ ٢٠ ـ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ تعليل للوعيد، كأنّه تعالى عاجله بالفقر والذلّ، بعد الغنى والعزّ، لعناده؛ ويعاقبه في الآخرة بأشد العذاب؛ لبلوغه بالعناد غايته، وتسميته القرآن سحراً. يعني: ﴿إنّه فكّر﴾ ماذا يقول في القرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه ما يقوله، وهيّأه ﴿فَقُتِلَ﴾ لعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجيب من تقديره ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كرّر للتأكيد. و﴿ثمّ﴾ يشعر بأنّ الدعاء الثاني أبلغ من الأوّل.

٢١ ـ ٢٣ ـ ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ في وجوه الناس، أو فيما قدّر ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطّب وجهه ﴿وَبَسَرَ﴾ زاد في التقبّض، والكلوح ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحقّ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ عنه أو عن مقامه وفي مقاله. و﴿ثمّ نظر﴾ عطف على ﴿فكّر وقدّر﴾ والدعاء اعتراض بينهما. وإيراد ﴿ثمّ﴾ في المعطوفات لبيان: أنّ بين الأفعال المعطوفة تراخياً.

٢٤ ـ ٢٥ ـ ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يروى عن السحرة. روي: أنّ الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجنّ، إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو وما يعلى. فقالت قريش: صبأ والله الوليد. فقال أبو جهل ـ وهو ابن أخيه ـ: أنا أكفيكموه. فقعد إليه حزيناً، وكلّمه بما أحماه. فأتاهم، فقال: يزعمون: أنّ محمّداً مجنون، فهل رأيتموه يُخْنِقُ؟ ويقولون: إنّه كاهن، فهل رأيتموه قطّ يتكهّن؟ ويزعمون: أنّه شاعر. فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قطّ؟ ويزعمون: أنّه كذّاب، فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟» فقالوا في كلّ ذلك: اللهم لا. ثمّ قالوا: فما هو؟ ففكّر، فقال: ما هو إلاّ ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ وما الذي يقوله إلاّ سحر يؤثر عن مسيلمة، وأهل بابل. فارتجّ النادي فرحاً، وتفرّقوا متعجّبين منه. وذكر الفاء دليل على أنّ هذه الكلمة لمّا خطرت بباله نطق بها من غير تلبّث ﴿إِنْ هَٰذَآ

(١) رواه الترمذي (٣٣٢٦).

إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾
عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟

﴿إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ ولم يذكر العاطف بين هاتين الجملتين؛ لأنّ الثانية جرت مجرى التوكيد للأولى.

٢٦ ـ ٢٨ ـ ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ سأدخله. بدل من ﴿سأرهقه صعوداً﴾ ﴿سَقَرَ﴾ علم لجهنم، ولم ينصرف للتعريف والتأنيث ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ تهويل لشأنها ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ أي: هي ﴿لا تبقي﴾ لحماً ﴿ولا تذر﴾ عظماً. أو: ﴿لا تبقى﴾ شيئاً يُلقى فيها إلاّ أهلكته ﴿ولا تذر﴾ ه هالكاً، بل يعود كما كان.

٢٩ ـ ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف. أي: هي لوّاحةٌ ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ جمع: بشرة، وهي: ظاهر الجلد. أي: مسوّدةٌ للجلود أو محرقةٌ لها.

٣٠ ـ ﴿عَلَيْهَا﴾ على سقر ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: يلي أمرها ﴿تسعة عشر﴾ ملكاً عند الجمهور. وقيل: صنفاً من الملائكة. وقيل: صفاً. وقيل: نقيباً.

٣١ ـ ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ أي: خزنتها ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ لأنهم خلاف جنس المعذّبين، فلا تأخذهم الرأفة والرقّة؛ لأنهم أشدّ الخلق بأساً. فللواحد منهم قوّة الثقلين ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ تسعة عشر ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاءً واختباراً ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، حتّى قال أبو جهل لمّا نزلت ﴿عليها تسعة عشر﴾: ما يستطيع كلّ عشرة منكم أن يأخذوا واحداً منهم وأنتم الدهم؟!. فقال أبو الأشدّ ـ وكان شديد البطش ـ: «أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين». فنزلت: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ أي: وما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون.

وقالوا في تخصيص الخزنة بهذا العدد، مع أنّه لا يطلب في الأعداد العلل: إن ستّة منهم يقودون الكفرة إلى النار، وستّة يسوقونهم، وستّة يضربونهم بمقامع الحديد، والآخر خازن جهنّم. وهو مالك، وهو الأكبر. وقيل: في سقر تسعة عشر دركاً، وقد سلّط على كلّ درك ملك. وقيل: يعذب فيها بتسعة عشر لوناً من العذاب، [وعلى][1] كلّ لون ملك موكّل. وقيل: إنّ جهنّم تحفظ بما تحفظ

---

(١) ساقطة من الأصل المخطوط.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾

به الأرض من الجبال. وهي تسعة عشر. وإن كان أصلها مئة وتسعين إلاّ أنّ غيرها ينشعب عنها ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لأنّ عدّتهم تسعة عشر في الكتابَيْن. فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا: أنّه منزّل من الله ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بمحمّد ـ وهو عطف على ﴿ليستيقن﴾ ـ ﴿إِيمَٰنًا﴾ لتصديقهم بذلك، كما صدّقوا سائر ما أنزل. أو: يزدادون يقيناً لموافقة كتابهم كتاب أولئك ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا عطف أيضاً. وفيه توكيد للاستيقان وزيادة الإيمان؛ إذ الاستيقان وازدياد الإيمان دلاّ على انتفاء الارتياب، ثمّ عطف على ﴿ليستيقن﴾ أيضاً ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المشركون. فإن قلت: النفاق ظهر في المدينة والسورة مكّيّة. قلت: معناه: وليقول ﴿المنافقون﴾ الذين يظهرون في المستقبل بالمدينة بعد الهجرة ﴿والكافرون﴾ بمكّة: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟ وهذا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب. وذا لا يخالف كون السورة مكّيّة. وقيل: المراد بالمرض: الشكّ، والارتياب؛ لأنّ أهل مكّة كان أكثرهم شاكّين. و﴿مثلاً﴾ تمييز لهذا، أو: حال منه، كقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] ولمّا كان ذكر العدد في غاية الغرابة، وأنّ مثله حقيق بأن تسير به الركبان سيرها بالأمثال سمّي مثلاً. والمعنى: أيّ شيء أراد الله بهذا العدد العجيب؟ وأيّ معنى أراد في أن جعل الملائكة تسعة عشر، لا عشرين؟ وغرضهم إنكاره أصلاً، وأنّه ليس من عند الله، وأنّه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ الكاف نصب. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى. أي: مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى ـ يعني: إضلال المنافقين والمشركين حتّى قالوا ما قالوا، وهدي المؤمنين بتصديقه ورؤية الحكمة في ذلك ـ ﴿يضلّ الله من يشاء﴾ من عباده، وهو الذي علم منه اختيار الضلال ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وهو الذي علم منه اختيار الاهتداء. وفيه دليل خلق الأفعال، ووصف الله بالهداية

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾
وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ
يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾

والإضلال. ولمّا قال أبو جهل: أما لربِّ محمد أعوان إلّا تسعة عشر؟! نزل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ لفرط كثرتها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فلا يعزُّ عليه تتميم الخزنة عشرين. ولكن له في هذا العدد الخاصّ حكمة لا تعلمونها ﴿وَمَا هِيَ﴾ متّصل بوصف سقر. و﴿هي﴾ ضميرها أي: ﴿وما﴾ سقر وصفتها ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: تذكرة للبشر. أو: ضمير الآيات التي ذكرت فيها.

٣٢ ـ ٣٧ ـ ﴿كَلَّا﴾ إنكار ـ بعد أن جعلها ذكرى ـ أن تكون لهم ذكرى لأنّهم لا يتذكّرون ﴿وَالْقَمَرِ﴾ أقسم به لعظم منافعه ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ نافع، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف. وغيرُهم: ﴿إذا دَبَر﴾ ودَبَر بمعنى: أدبر. ومعناهما: ولّى وذهب. وقيل: ﴿أدبر﴾ ولّى ومضى. و﴿دَبَر﴾ جاء بعد النهار ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أضاء. وجواب القسم ﴿إِنَّهَا﴾ إنّ سقر ﴿لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ هي جمع: الكبرى. أي: ﴿لإحدى﴾ البلايا، أو الدواهي ﴿الكبر﴾. ومعنى كونها إحداهنّ: أنّها من بينهنّ واحدة في العظم، لا نظيرة لها؛ كما تقول: هو أحد الرجال، وهي إحدى النساء ﴿نَذِيرًا﴾ تمييز من ﴿إحدى﴾. أي: ﴿إنها لإحدى﴾ الدواهي إنذاراً؛ كقولك: هي إحدى النساء عفافاً. وتُبْدَل من ﴿لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾ بإعادة الجارّ ﴿أَنْ يَتَقَدَّمَ﴾ إلى الخير ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنه. وعن الزجّاج: إلى ما أمر أو عمّا نهى.

٣٨ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ هي ليست بتأنيث رهين في قوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] لتأنيث النفس؛ لأنّه لو قصدت الصفة لقيل: رهين. لأنّ فعيلا بمعنى مفعول، يستوى فيه المذكّر والمؤنّث. وإنّما هي: اسم بمعنى: الرهن؛ كالشتيمة بمعنى: الشتم؛ كأنّه قيل: ﴿كلّ نفس بما كسبت﴾ رَهْنٌ. والمعنى: ﴿كلّ نفس﴾ رَهْنٌ بكسبها عند الله غير مفكوك.

٣٩ ـ ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ أي: أطفال المسلمين؛ لأنّهم لا أعمال لهم يرتهنون بها. أو: إلّا المسلمين؛ فإنّهم فكّوا رقابهم بالطاعة؛ كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحقّ.

﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ
ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ
ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ
مُعۡرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠﴾

٤٠ ـ ٤٢ ـ ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ أي: هم ﴿في جنّاتٍ﴾ لا يكتنه وصفها ﴿يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً عنهم. أو: يتساءلون غيرهم عنهم ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ أدخلكم فيها. ولا يقال: لا يطابق قوله: ﴿ما سلككم﴾ ـ وهو سؤال للمجرمين ـ قوله: ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾ وهو سؤال عنهم، وإنما يطابق ذلك لو قيل: يتساءلون المجرمين ما سلككم؟ لانّ ﴿ما سلككم﴾ ليس ببيان للتساؤل عنهم. وإنّما هو حكاية قول المسؤولين عنهم؛ لأنّ المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون: قلنا لهم: ﴿ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلّين﴾. إلاّ أنّه اختصر كما هو نهج القرآن. وقيل: ﴿عن﴾ زيادة.

٤٣ ـ ٤٨ ـ ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ أي: لم نعتقد فرضيّتها ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ كما يطعم المسلمون ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ الخوض: الشروع في الباطل، أي: نقول الباطل والزور في آيات الله ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ الحساب والجزاء ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ الموت ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ من الملائكة، والنبيين، والصالحين؛ لأنّها للمؤمنين دون الكافرين. وفيه دليل ثبوت الشفاعة للمؤمنين. في الحديث: «إنّ من أمّتي من يدخل الجنّة بشفاعته أكثر من ربيعة ومضر»[1].

٤٩ ـ ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾ التذكير، وهو: العظة؛ أي: القرآن ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ مولّين. حال من الضمير. نحو: مالك قائماً؟

٥٠، ٥١ ـ ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ﴾ أي: حمر الوحش. حال من الضمير في ﴿معرضين﴾ ﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ شديدة النفار، كأنّها تطلب النفار من نفوسها. وبفتح

(١) رواه أحمد (٤/٢١٢).

فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴿٥١﴾ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴿٥٢﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا
يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن
يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾

الفاء مدنيٌّ، وشاميٌّ؛ أي: استنفرها غيرها ﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ حال. و«قد» معها مقدّرة. والقسورة: الرماة، أو: الأسد. فعولة من القسر. وهو: القهر والغلبة. شبّهوا في إعراضهم عن القرآن، واستماع الذكر بحمر جدّت في نفارها.

٥٢ ـ ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ قراطيس تنشر وتقرأ. وذلك: أنّهم قالوا لرسول الله ﷺ: لن نتبعك حتّى تأتي كلَّ واحدٍ منا بكتب من السماء، عنوانها: من ربّ العالمين إلى فلان بن فلان، نؤمر فيها باتّباعك ونحوه قوله: ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣] وقيل: قالوا: إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كلّ رجل منّا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار.

٥٣ ـ ﴿كَلَّاۖ﴾ ردع لهم عن تلك الإرادة وزجر عن اقتراح الآيات. ثمّ قال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة، لا لامتناع إيتاء الصحف.

٥٤ ـ ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ رَدَعَهُم عن إعراضهم عن التذكرة. وقال: إنّ القرآن ﴿تذكرةٌ﴾ بليغةٌ كافيةٌ.

٥٥ ـ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: ﴿فمن شاء﴾ أن يذكره ولا ينساه فعل، فإنَّ نَفْع ذلك عائد إليه.

٥٦ ـ ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ﴾ وبالتاء: نافع ويعقوب ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ إلاّ وقت مشيئة الله، أو: إلاّ بمشيئة الله ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ في الحديث: «هو أهلٌ أن يتّقى، وأهلٌ أن يغفر لمن اتّقاه»[1].

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٣٢٨) وابن ماجه (٤٢٩٩).



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾

---

١ ـ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: أقسم، عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ. و﴿لا﴾ صلة؛ كقوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ [الحديد: ٢٩] وقوله:

في بئر لا حُورٍ سَرَى وما شعر ... ...

وقوله:

تـذكَّـرت ليلى فـاعترتـني صبابـةٌ وكـــاد ضميرُ القلـــب لا يتقطَّـــعُ

وعليه الجمهور. وعن الفرّاء ﴿لا﴾ ردّ لإنكار المشركين البعث، كأنّه قيل: ليس المراد كما تزعمون، ثمّ قيل: أقسم بيوم القيامة. وقيل: أصله: ﴿لأقسم﴾ كقراءة ابن كثير، على أنّ اللام للابتداء، و: ﴿أقسم﴾ خبر مبتدأ محذوف. أي: لأنا أقسم. ويقوّيه: أنّه في الإمام بغير ألف، ثمّ أشبع فظهر من الإشباع ألف. وهذا اللام يصحبه نون التأكيد في الأغلب، وقد يفارقه.

٢ ـ ٣ ـ ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ الجمهور على أنّه قسم آخر. وعن الحسن: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوّامة، فهي صفة ذمّ، وعلى القسم صفة

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ
أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ
وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟
ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾

مدح، أي: النفس المتّقية التي تلوم على التقصير في التقوى. وقيل: هي نفس آدم لم تزل تلوم على فعلها التي خرجت به من الجنّة. وجواب القسم محذوف. أي: لتبعثنّ. دليله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: الكافر المنكر للبعث ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بعد تفرّقها ورجوعها رفاتاً مختلطاً بالتراب.

٤ ـ ﴿بَلَىٰ﴾ أوجبت ما بعد النفي. أي: ﴿بلى﴾ نجمعها ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال من الضمير في نجمع. أي: نجمعها ﴿قادرين﴾ على جمعها وإعادتها كما كانت. أو: قادرين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ أصابعه كما كانت في الدنيا بلا نقصان وتفاوت مع صغرها، فكيف بكبار العظام؟

٥ ـ ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عطف على ﴿أيحسب﴾ فيجوز أن يكون مثله استفهاماً ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان.

٦ ـ ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ﴾ متى ﴿يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سؤال متعنّتٍ مستبعدٍ لقيام الساعة.

٧ ـ ١٠ ـ ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ تحيّر فزعاً. وبفتح الراء مدنيٌّ: شَخَصَ ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ ذهب ضوؤه، أو: غاب. من قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾ [القصص: ٨١] وقرأ أبو حيوة بضمّ الخاء ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي: جمع بينهما في الطلوع من المغرب. أو: جمعا في ذهاب الضوء. أو: يجمعان فيقذفان في البحر فيكون نار الله الكبرى ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافر ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ هو مصدر. أي: الفرار من النار. أو: المؤمن أيضاً من الهول. وقرأ الحسن بكسر الفاء. وهو يحتمل المكان والمصدر.

١١، ١٢ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن طلب المفرّ ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خاصّةً ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ مستقرّ العباد. أو: موضع قرارهم من جنّة أو نار، مفوّض ذلك إلى مشيئته، من شاء أدخله الجنّة، ومنْ شاء أدخله النار.

١٣ ـ ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ يخبر ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ من عملٍ عمله ﴿وَأَخَّرَ﴾ مالم يعمله.

﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾

١٤ ـ ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ شاهدٌ. والهاء للمبالغة، كعلّامة. أو: أنّثه لأنّه أراد به جوارحه؛ إذ جوارحه تشهد عليه. أو: هو حجّة على نفسه. والبصيرة: الحجّة. قال الله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٠٤] وتقول لغيرك: أنت حجة على نفسك، وبصيرة. رفعٌ بالابتداء، وخبره ﴿على نفسه﴾ تقدّم عليه. والجملة خبر ﴿الإنسان﴾ كقولك: زيد على رأسه عمامة. والبصيرة على هذا يجوز أن يكون الملك الموكَّل عليه.

١٥ ـ ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ولو أرخى ستوره. والمِعْذار: الستر. وقيل: ولو جاء بكلّ مَعذرة ما قبلت منه، فعليه من يكذب عذره. والمعاذير ليس بجمع معذرة؛ لأنّ جمعها معاذر. بل هي: اسم جمع لها. ونحوه: المناكير في المنكر.

١٦، ١٧ ـ ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ بالقرآن. وكان ﷺ يأخذ في القراءة قبل فراغ جبريل كراهة أن يتفلّت منه. فقيل له: ﴿لا تحرك﴾ لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل يقرأ ﴿لتعجل به﴾ لتأخذه على عجلة؛ ولئلا يتفلّت منك. ثمّ علّلَ النهي عن العجلة بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ﴾ في صدرك ﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ وإثبات قراءته في لسانك. والقرآن: القراءة. ونحوه: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

١٨، ١٩ ـ ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ﴾ أي: قرأه عليك جبريل ـ فجعل قراءة جبريل قراءته ـ ﴿فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ أي: قراءته عليك ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ إذا أشكل عليك شيءٌ من معانيه.

٢٠، ٢١ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع عن إنكار البعث. أو: ردع لرسول الله ﷺ عن العجلة وإنكار لها عليه. وأكّده بقوله: ﴿بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ كأنّه قيل: بل أنتم يا بني آدم لأنّكم خلقتم من عجل، وطبعتم عليه تعجلون في كلّ شيء، ومن ثمّ ﴿تحبّون العاجلة﴾ الدنيا وشهواتها ﴿وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ الدار الآخرة ونعيمها فلا

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾
كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾

تعملون لها. والقراءة بالتاء فيهما مدنيٌّ وكوفيٌّ.

٢٢، ٢٣ ـ ﴿وُجُوهٌ﴾ هي وجوه المؤمنين ﴿يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ حسنةٌ ناعمةٌ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بلا كيفيّة، ولا جهة، ولا ثبوت مسافةٍ، وحمل النظر على الانتظار لأمر ربّها، أو لثوابه، لا يصح؛ لأنّه يقال: نظرت فيه: أي: تفكّرت. ونظرته: انتظرته. ولا يعدّى بإلى إلاّ بمعنى الرؤية. مع أنّه لا يليق الانتظار في دار القرار.

٢٤، ٢٥ ـ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ كالحةٌ شديدةُ العبوس، وهي: وجوه الكفار ﴿تَظُنُّ﴾ تتوقّع ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا﴾ فعلٌ هو في شدّته ﴿فَاقِرَةٌ﴾ داهيةٌ تقصم فقار الظهر.

٢٦ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنّه قيل: ارتدعوا عن ذلك، وتنبّهوا على ما بين أيديكم من الموت؛ الذي عنده تنقطع العاجلة عنكم، وتنتقلون إلى الآجلة؛ التي تبقون فيها مخلّدين ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: الروح. وجاز وإن لم يجرلها ذكر؛ لأنّ الآية تدلّ عليها ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال. جمع: ترقوة.

٢٧ ـ ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ يقف حفص على ﴿من﴾ وقيفة. أي: قال حاضرو المحتضر بعضهم لبعض: أيّكم يرقيه ممّا به؟ من: الرقية، مِنْ حدِّ: «ضَرَبَ» أو: هو من كلام الملائكة: أيّكم يرقَى بروحه: أملائكة الرحمة، أم ملائكة العذاب؟ من الرقيِّ، من حدِّ «علم».

٢٨ ـ ﴿وَظَنَّ﴾ أيقن المحتضر ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أنّ هذا الذي نزل به هو: فراق الدنيا المحبوبة.

٢٩ ـ ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ التوت ساقاه عند موته. وعن سعيد بن المسيِّب: هما ساقاه حين تُلفّان في أكفانه. وقيل: شدّة فراق الدنيا بشدّة إقبال الآخرة، على أنّ الساق مثلٌ في الشدّة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هما همّان: همّ الأهل والولد، وهمُّ القدوم على الواحد الصمد.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾

٣٠ ـ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ هو مصدر: ساقه. أي: مساق العباد إلى حيث أمر الله، إمّا إلى الجنّة، أو إلى النار.

٣١، ٣٢ ـ ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ بالرسول والقرآن ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ الإنسان ـ في قوله: ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه﴾ ـ ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ بالقرآن ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان. أو: ﴿فلا صدّق﴾ ماله. يعني: فلا زكّاه.

٣٣ ـ ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبختر. أصله: يتمطط. أي: يتمدّد؛ لأنّ المتبختر يمدُّ خطاه، فأبدلت الطاء ياء لاجتماع ثلاثة أحرف متماثلة.

٣٤، ٣٥ ـ ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ بمعنى: ويل لك، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره ﴿فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ كرّر للتأكيد. كأنّه قال: ويل لك، فويل، ثمّ ويل لك، فويل. وقيل: ويل لك يوم الموت، وويل لك في القبر، وويل لك حين البعث، وويل لك في النار.

٣٦ ـ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أيحسب الكافر أن يترك مهملاً لا يؤمر، ولا ينهى، ولا يبعث، ولا يجازى؟

٣٧ ـ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ بالياء: ابن عامر، وحفص. أي: يراق المني في الرحم. وبالتاء: يعودُ إلى النطفة.

٣٨ ـ ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: صار المني قطعة دم جامد بعد أربعين يوماً ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فخلق الله منه بشراً سويّاً.

٣٩ ـ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي: من المنيِّ الصنفين.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

٤٠ ـ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أليس الفعّال لهذه الأشياء بقادر على الإعادة؟ وكان ﷺ إذا قرأها يقول: «سبحانك، بلى»[1].

* * *

---

(١) رواه أبو داود (٨٨٧).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ
أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا

١ ـ ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ قد مضى ﴿عَلَى الْإِنسَانِ﴾ آدم ـ عليه السلام ـ ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أربعون سنة مصوَّراً قبل نفخ الروح فيه ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ لم يذكر اسمه، ولم يدر ما يراد به؛ لأنّه كان طيناً يمرّ به الزمان. ولو كان غير موجود لم يوصف بأنَّه قد أتى عليه حين من الدهر. ومحلّ ﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ النصب على الحال من ﴿الإنسان﴾. أي: أتى عليه ﴿حينٌ من الدهر﴾ غير مذكور.

٢ ـ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ أي: ولد آدم ـ وقيل: الأوّل ولد آدم أيضاً. و﴿حين من الدهر﴾ على هذا: مدّة لبثه في بطن أمّه إلى أن صار شيئاً مذكوراً بين الناس ـ ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ نعت، أو: بدل منها. أي: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤] قد امتزج فيها الماءان. ومشجه، ومزجه: بمعنى. و﴿نطفة أمشاج﴾ كبرمة أعشار. فهو لفظ مفرد غير جمع؛ ولذا وقع صفة للمفرد. ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ حال. أي: خلقناه مبتلين. أي: مريدين ابتلاءه بالأمر والنهي ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ذا سمع وبصر.

٣ ـ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ بيّنّا له طريق الهدى بأدلّة العقل والسمع ﴿إِمَّا

شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ
ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ
يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾

شَاكِرًا﴾ مؤمناً ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ كافراً، حالان من الهاء في ﴿هديناه﴾. أي: إن شكر أو كفر فقد هديناه السبيل في الحالين. أو من ﴿السبيل﴾ أي: عرّفناه السبيل ﴿إمّا﴾ سبيلاً ﴿شاكراً وإمّا﴾ سبيلاً ﴿كفوراً﴾. ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز.

٤ ـ ولمّا ذكر الفريقين أتبعهما ما أعدّ لهما فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ﴾ جمع سلسلة. بغير تنوين: حفص، ومكّيٌّ، وأبو عمرو، وحمزة. وبه؛ ليناسب ﴿أغلالاً وسعيراً﴾ إذ يجوز صرف غير المنصرف للتناسب: غيرهم ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ جمع غُلّ ﴿وَسَعِيرًا﴾ ناراً موقدة.

٥، ٦ ـ وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع: برّ، أو: بارّ، كربّ، وأرباب، وشاهد، وأشهاد. وهم الصادقون في الإيمان، أو: الذين لا يؤذون الذرَّ، ولا يضمرون الشرَّ ـ ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ خمر. فنفس الخمر تسمّى: كأساً. وقيل: الكأس: الزجاجة إذا كانت فيها خمر ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ ما تمزج به ﴿كَافُورًا﴾ ماءٌ كافورٌ. وهو اسم عين في الجنّة ماؤها في بياض الكافور، ورائحته، وبرده ﴿عَيْنًا﴾ بدل منه ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي: منها، أو: الباء زائدة، أو: هو محمول على المعنى. أي: يلتذّ بها. أو: يروى بها. وإنّما قال أوّلاً: بحرف ﴿مِنْ﴾ وثانياً بحرف الباء؛ لأنّ الكأس مبتدأ شربهم، وأوّل غايته. وأمّا العين فيها يمزجون شرابهم فكأنّه قيل: يشرب عباد الله بها الخمر ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم ﴿تَفْجِيرًا﴾ سهلاً لا يمتنع عليهم.

٧ ـ ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ بما أوجبوا على أنفسهم. وهو جواب مَنْ عسى يقول: ما لهم يرزقون ذلك؟ والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفّر على أداء الواجبات؛ لأنّ مَنْ وفَّى بما أوجبه على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ شدائده ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ منتشراً، من: استطار الفجر.

وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

٨ ـ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ حبّ الطعام، أي: مع الاشتهاء والحاجة إليه. أو: على حبّ الله ﴿مِسْكِينًا﴾ فقيراً عاجزاً عن الاكتساب ﴿وَيَتِيمًا﴾ صغيراً لا أب له ﴿وَأَسِيرًا﴾ مأسوراً مملوكاً أو غيره.

٩ ـ ثمّ عللوا إطعامهم فقالوا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: لطلب ثوابه. أو: هو بيان من الله عزّ وجلّ عمّا في ضمائرهم؛ لأنّ الله تعالى علمه منهم فأثنى عليهم وإن لم يقولوا شيئاً ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾ هديّةً على ذلك ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ ثناءً. وهو مصدر، كالشكر.

١٠ ـ ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ أي: إنّا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة. أو: ﴿إنّا نخاف من ربّنا﴾ فتصدّقنا لوجهه حتّى نأمن من ذلك الخوف ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ وصف اليوم بصفة أهله من الأشقياء. نحو: نهارك صائم. والقمطرير: الشديد العبوس؛ الذي يجمع ما بين عينيه.

١١ ـ ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ صانهم من شدائده ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أعطاهم بدل عبوس الفجّار ﴿نَضْرَةً﴾ حسناً في الوجوه ﴿وَسُرُورًا﴾ فرحاً في القلوب.

١٢ ـ ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على الإيثار .

نزلت في عليٍّ، وفاطمةَ، وفضّةَ ـ جاريةٍ لهما ـ: لما مرض الحسن والحسين ـ رضي الله عنهم ـ نذروا صوم ثلاثة أيّام. فاستقرض عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ من يهوديٍّ ثلاثة أصوع من الشعير فطحنت فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ كلّ يوم صاعاً وخبزت، فآثروا بذلك ثلاث عشايا على أنفسهم مسكيناً، ويتيماً، وأسيراً، ولم يذوقوا إلاّ الماء في وقت الإفطار[1] ﴿جَنَّةً﴾ بستاناً فيه مأكلٌ هنيءٌ ﴿وَحَرِيرًا﴾ فيه ملبسٌ بهيٌّ.

---

(١) قال الحكيم الترمذي: هذا حديث مزوق، فهذا وأشباهه عامتها مفتعلة. (نوادر الأصول ١ /٢٤٦ ـ ٢٤٧).

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ

١٣ ـ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من هم في ﴿جزاهم﴾ ﴿فِيهَا﴾ في الجنّة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ الأسرّة. جمع: الأريكة ﴿لَا يَرَوْنَ﴾ حال من الضمير المرفوع في ﴿متكئين﴾: غير رائين ﴿فِيهَا﴾ في الجنّة ﴿شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ لأنّه لا شمس فيها ولا زمهرير، فظلّها دائم، وهواؤها معتدل، لا حرّ شمس يحمي، ولا شدّة بردٍ تؤذي. وفي الحديث: «هواء الجنّة سجسج لا حرٌّ ولا قرٌّ»[1]. فالزمهرير: البرد الشديد. وقيل: القمر. أي: الجنّة مضيئةٌ، لا يحتاج فيها إلى شمس وقمر.

١٤ ـ ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ قريبةً منهم ظلال أشجارها. عُطفت على ﴿جنّة﴾. أي: ﴿و﴾ جنّةٍ أخرى ﴿دانية عليهم ظلالها﴾. كأنّهم وعدوا جنّتين؛ لأنّهم وصفوا بالخوف ـ بقوله: ﴿إنّا نخاف من ربّنا﴾ ـ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ سخّرت للقائم والقاعد والمتكىء. وهو حال من ﴿دانية﴾ أي: تدنو ظلالها عليهم في حال تذليل قطوفها عليهم. أو: معطوفة عليها، أي: ﴿ودانيةً عليهم ظلالها﴾ ومذلّلة ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها. جمع: قِطْف ﴿تَذْلِيلًا﴾.

١٥، ١٦ ـ ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: يدير عليهم خدمهم كؤوس الشراب. والآنية: جمع إناء، وهو وعاء الماء ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي: من فضّة ـ جمع: كوب، وهو: إبريق لا عروة له ـ ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ كان تامّة. أي: كوّنت فكانت قوارير بتكوين الله. نصب على الحال ـ ﴿قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: مخلوقة من فضّة، فهي جامعة لبياض الفضّة وحسنها، وصفاء القوارير وشفيفها؛ حيث يرى ما فيها من الشراب من خارجها. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قوارير كلّ أرض من تربتها. وأرض الجنّة فضّة. قرأ نافع، والكسائيُّ، وعاصم، وفي رواية أبي بكرٍ بالتنوين فيهما، وحمزة، وابن عامر، وأبو عمرو، وحفص بغير تنوين فيهما، وابن كثير بتنوين الأوّل. فالتنوين في الأوّل لتناسب الآي

(١) ذكره الزمخشري في تفسيره (٤/ ٦٧٠).

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ﴾

المتقدّمة، والمتأخّرة، وفي الثاني لإتباعه الأوّل. والوقف على الأوّل قد قيل، ولا يوثق به؛ لأنّ الثاني بدل الأوّل ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ صفة لـ ﴿قوارير من فضّة﴾ أي: أهل الجنة قدّروها على أشكال مخصوصة، فجاءت كما قدّروها تكرمةً لهم، أو: السقاة جعلوها على قدر ريّ شاربها، فهي ألذّ لهم، وأخفّ عليهم. وعن مجاهد: لا يُفيض، ولا يَغيض.

١٧، ١٨ ـ ﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ أي: الأبرار ﴿فِيهَا﴾ في الجنة ﴿كَأْسًا﴾ خمراً ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا﴾ ـ بدل من ﴿زنجبيلاً﴾ ـ ﴿فِيهَا﴾ في الجنّة ﴿تُسَمَّىٰ﴾ تلك العين ﴿سَلْسَبِيلًا﴾. سمّيت العين ﴿زنجبيلاً﴾ لطعم الزنجبيل فيها، والعرب تستلذّه وتستطيبه؛ و﴿سلسبيلاً﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها. قال أبو عبيدة: ماء سلسبيل: أي: عذب طيّب.

١٩ ـ ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ﴾ غلمان ينشّئهم الله لخدمة المؤمنين. أو: ولدان الكفرة يجعلهم الله تعالى خدماً لأهل الجنّة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ لا يموتون ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ﴾ لحسْنهم، وصفاء ألوانهم، وانبثاثهم في مجالسهم ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾. وتخصيص المنثور لأنّه أزين في النظر من المنظوم.

٢٠ ـ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ ﴿ثمّ﴾ ظرف. أي: في الجنّة. وليس لـ ﴿رأيت﴾ مفعول ظاهر، ولا مقدّر ليشيع في كلّ مرئيٍّ. تقديره: ﴿وإذا﴾ اكتسبت الرؤية في الجنّة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ كثيراً ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ واسعاً. يروى: «أنّ أدنى أهل الجنّة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه»[(١)]. وقيل: ملك لا يعقبه هُلك. أو: لهم فيها ما يشاؤون، أو يسلّم عليهم الملائكة ويستأذنون في الدخول عليهم.

٢١ ـ ﴿عَالِيَهُمْ﴾ بالنصب على أنّه حال من الضمير في ﴿يطوف عليهم﴾.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٦٤) والترمذي (٢٥٥٦).

ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ

أي: ﴿يطوف عليهم ولدان﴾ عالياً للمطوف عليهم ﴿ثياب﴾. وبالسكون: مدنيّ، وحمزة، على أنّه مبتدأ خبره ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾. أي: ما يعلوهم من ملابسهم ﴿ثياب سندس﴾ رقيق الديباج ﴿خُضْرٌ﴾ جمع: أخضر ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ غليظ. برفعهما؛ حملاً على الثياب، نافع، وحفص. وبجرّهما؛ حمزة، وعليّ، حملاً على ﴿سندس﴾. ويرفع الأوّل، وجرّ الثاني، أو عكسه: غيرهم ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ عطف على ﴿ويطوف عليهم﴾ ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾. وفي سورة الملائكة ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣] قال ابن المسيّب: لا أحد من أهل الجنّة إلا وفي يده ثلاثة أسورة: واحد من فضّة، وآخر من ذهب، وآخر من لؤلؤ. ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أضيف إليه تعالى للتشريف والتخصيص. وقيل: إنّ الملائكة يعرضون عليهم الشراب فيأبون قبوله منهم، ويقولون: لقد طال أخذنا من الوسائط، فإذا هم بكاسات تلاقي أفواههم بغير أكفٍّ من غيب إلى عبد ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ ليس برجْسٍ كخمر الدنيا؛ لأنّ كونها رجساً بالشرع، لا بالعقل، ولا تكليف ثمّ. أو: لأنّه لم يعصر فتمسّه الأيدي الوضرة[1]، وتدوسه الأقدام الدنسة.

٢٢ ـ يقال لأهل الجنّة: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ النعيم ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ لأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ محموداً، مقبولاً، مرضيّاً عندنا؛ حيث قلتم للمسكين، واليتيم، والأسير: ﴿لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾.

٢٣، ٢٤ ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ تكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً لإنّ، تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل ليتقرر في نفس النبيّ ﷺ: أنه إذا كان هو المنزّل لم يكن تنزيله مفرّقاً إلاّ حكمةً وصواباً. ومن الحكمة: الأمر بالمصابرة ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ عليك بتبليغ الرسالة، واحتمال الأذيّة، وتأخير نصرتك على أعدائك من أهل مكّة ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ من الكفار للضجر من تأخر

(١) «الوضر»: الدرن والدسم.

ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾

الظفر ﴿ءَاثِمًا﴾ راكباً لما هو إثم، داعياً لك إليه ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ فاعلاً لما هو كفر داعياً لك إليه؛ لأنّهم إمّا أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم، أو كفر، أو غير إثم، ولا كفر. فنهى أن يساعدهم على الأوَّلَيْنِ دون الثالث. وقيل: الآثم: عتبة؛ لأنّه كان ركّاباً للمآثم والفسوق. والكفور: الوليد، لأنّه كان غالياً في الكفر والجحود. والظاهر: أنّ المراد كلُّ آثم وكافر. أي: لا تطع أحدهما. وإذا نهى عن طاعة أحدهما لا بعينه فقد نهى عن طاعتهما، ومتفرّقاً. ولو كان بالواو لجاز أن يطيع أحدهما؛ لأن الواو للجمع فيكون منهياً عن طاعتهما، لاعن طاعة أحدهما. وقيل: ﴿أو﴾ بمعنى ولا. أي: ولا تطع آثماً ولا كفوراً.

٢٥، ٢٦ ـ ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ صلّ له ﴿بُكْرَةً﴾ صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلًا﴾ صلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ وبعض الليل فصلّ صلاة العشاءين ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ تهجّد له هزيعاً طويلاً من الليل ثلثيه، أو نصفه، أو ثلثه.

٢٧ ـ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفرة ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يؤثرونها على الآخرة ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ قدّامهم، أو خلف ظهورهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شديداً لا يعبؤون به، وهو يوم القيامة؛ لأنّ شدائده تثقل على الكفّار.

٢٨ ـ ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ﴾ أحكمنا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ خلقهم. عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والفرّاء ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: ﴿إذا شئنا﴾ إهلاكهم أهلكناهم و﴿بدّلنا أمثالهم﴾ في الخلقة ممن يطيع.

٢٩ ـ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بالتقرّب إليه بالطاعة له واتّباع رسوله.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾

٣٠، ٣١ ـ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ اتّخاذ السبيل إلى الله ـ وبالياء، مكّيٌّ، وشاميٌّ، وأبو عمرو ـ ومحلُّ ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ النصب على الظرف أي: إلاّ وقت مشيئة الله. وإنّما يشاء الله ذلك ممن علم منه اختياره ذلك. وقيل: هو لعموم المشيئة في الطاعة، والعصيان، والكفر، والإيمان فيكون حجة لنا على المعتزلة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يكون منهم من الأحوال، ﴿حَكِيمًا﴾ مصيباً في الأقوال والأفعال، ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ﴾ هم المؤمنون ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ جنّته؛ لأنّها برحمته تنال. وهو حجّة على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: قد شاء أن يدخل كلاًّ في رحمته؛ لأنّه شاء إيمان الكلّ. والله تعالى أخبر أنّه يدخل من يشاء في رحمته، وهو الذي علم منه أنّه يختار الهدى ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ـ لأنّهم وضعوا العبادة في غير موضعها ـ ونصب بفعل يفسّره ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، نحو: أوعد، وكافأ.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾

---

١ ـ ٧ ـ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهنّ بأوامره، فعصفن في مُضِيهنّ، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهنّ في الجوّ عند انحطاطهنّ بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن نفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين، ففرقَن بين الحقّ والباطل، فألقين ﴿ذكراً﴾ إلى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ﴿عذراً﴾ للمحقّين ﴿أو نُذُراً﴾ للمبطلين. أو: أقسم برياح عَذابٍ أرسلهنّ، فعصفن، وبرياح رحمة نشرن السحاب في الجوّ، ففرقن بينه ـ كقوله: ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ [الروم: ٤٨] ـ فألقين ﴿ذكراً﴾ إمّا ﴿عذراً﴾ للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم، واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها، وإمّا إنذاراً للذين لا يشكرون، وينسبون ذلك إلى الأنواء. وجعلن ملقياتٍ للذكر باعتبار السببية ﴿عرفاً﴾ حال. أي: متتابعة كعرف الفرس، يتلو بعضه بعضاً. أو مفعول له. أي: أرسلن للإحسان والمعروف. و﴿عصفاً﴾ و﴿نشراً﴾ مصدران ﴿أو نُذْراً﴾ أبو عمرو، وكوفيّ، غير أبي بكر، وحمّاد. والعذر والنذر مصدران من: عذر إذا محا الإساءة، ومن: أنذر إذا خوّف، على فُعْل؛ كالكفر والشكر.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾

وانتصابهما على البدل من ﴿ذكراً﴾؛ أو على المفعول له ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ إنّ الذي توعدنه من مجيء يوم القيامة ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لكائن، نازل، لا ريب فيه. وهو جواب القسم. ولا وقف إلى هنا لوصل الجواب بالقسم.

٨ ـ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ محيت، أو ذهب بنورها. وجواب ﴿فإذا﴾ محذوف. والعامل فيها جوابها، وهو وقوع الفصل ونحوه. و﴿النجوم﴾ فاعل فعل يفسّره: ﴿طمست﴾.

٩ ـ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ فُتِحَتْ فكانت أبواباً.

١٠ ـ ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ قلعت من أماكنها.

١١ ـ ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي: (وقّتت) كقراءة أبي عمرو، أبدلت الهمزة من الواو. ومعنى توقيت الرسل: تبيين وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم.

١٢ ـ ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أخّرت وأمهلت. وفيه تعظيم لليوم، وتعجيب من هوله. والتأجيل من الأجل، كالتوقيت من الوقت.

١٣ ـ ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ بيانٌ ليوم التأجيل. وهو اليوم الذي يفصل فيه بين الخلائق.

١٤ ـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ تعجيب آخر وتعظيم لأمره.

١٥ ـ ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ ـ وإن كان نكرة. لأنّه في أصله مصدر منصوب سادّ مسدّ فعله ولكنّه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعوّ عليه، ونحوه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [القصص: ٥٥] ـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفه ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بذلك اليوم، خبره.

١٦ ـ ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الأمم الخالية المكذّبة.

١٧ ـ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ مستأنف بعد وقف. وهو وعيد لأهل مكّة. أي:

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩﴾

﴿ثمّ﴾ نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالأوّلين؛ لأنّهم كذّبوا مثل تكذيبهم.

١٨ ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بكلّ من أجرم.

١٩ ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بما أوعدنا.

٢٠، ٢٢ ـ ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ حقير، وهو النطفة ﴿فَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الماء ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ مقرّ يتمكّن فيه، وهو الرحم. ومحلّ ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ الحال؛ أي: مؤخّراً إلى مقدار من الوقت ﴿معلوم﴾ قد علمه الله وحكم به، وهو تسعة أشهر، أو ما فوقها، أو ما دونها.

٢٣ ـ ﴿فَقَدَّرْنَا﴾ فقدرناه ذلك تقديراً ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ فنعم المقدّرون له نحن. أو ﴿فقدرنا﴾ على ذلك ﴿فنعم القادرون﴾ عليه نحن. والأوّل أحقّ لقراءة نافع، وعليٍّ بالتشديد، ولقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٩].

٢٤ ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بنعمة الفطرة.

٢٥، ٢٦ ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ هو من: كفَت الشيءَ؛ إذا ضمّه وجمعه. وهو اسم ما يَكفت، كقولهم: الضمام لما يَضمّ. وبه انتصب ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ كأنّه قيل: كافتة ﴿أحياءً وأمواتاً﴾. أو: بفعل مضمر يدلّ عليه ﴿كفاتاً﴾ وهو تكفِت. أي: تكفت ﴿أحياء﴾ على ظهرها ﴿وأمواتاً﴾ في بطنها. والتنكير فيهما للتفخيم. أي: تكفت ﴿أحياءً﴾ لا يعدّون ﴿وأمواتاً﴾ لا يحصرون.

٢٧، ٢٨ ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ عالياتٍ ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ عذباً ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه النِّعم.

٢٩ ـ ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال للكافرين يوم القيامة: سيروا إلى النار التي كنتم بها تكذّبون.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ
كَٱلْقَصْرِ ٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ٣٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٣٤ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا
يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٣٧ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾

٣٠ ـ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ تكرير للتوكيد ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ دخان جهنّم ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ يتشعّب لعظمه ثلاث شعب. وهكذا الدخان العظيم يتفرّق ثلاث فرق.

٣١ ـ ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ نعت ﴿ظلّ﴾. أي: لا مُظِلٍّ من حرّ ذلك اليوم وحرّ النار ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ في محلّ الجرّ. أي: وغير مغن عنهم ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ ﴿مِنَ﴾ حرِّ ﴿اللهب﴾ شيئاً.

٣٢ ـ ٣٤ ـ ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾ هو ما تطاير من النار ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ في العظم. وقيل: هو الغليظ من الشجر. الواحدة قَصْرةٌ ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ﴾[1] كوفيٌّ، غير أبي بكر. جمع جَمَلٍ. ﴿جِمالات﴾ غيرهم. جمع الجمع ﴿صُفْرٌ﴾ جمع أصفر. أي: سود تضرب إلى الصفرة. شُبِّه الشرر بالقصور، لعظمه وارتفاعه، وبالجمال للعظم والطول واللون ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأنّ هذه صفتها.

٣٥ ـ ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ وقرىء بنصب اليوم. أي: ﴿هذا﴾ الذي قصّ عليكم واقعٌ يؤمئذ. وسئل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن هذه الآية، وعن قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] فقال: في ذلك اليوم مواقف: في بعضها يختصمون، وفي بعضها لا ينطقون. أو: ﴿لا ينطقون﴾ بما ينفعهم. فجعل نطقهم كلا نطق.

٣٦، ٣٧ ـ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ في الاعتذار ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عطف على ﴿يؤذن﴾ منخرط في سلك النفي، أي: لا يكون لهم إذن واعتذار ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذا اليوم.

٣٨ ـ ٤٠ ـ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بين المحقّ والمبطل، والمحسن والمسيء بالجزاء

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿جِمَالَةٌ﴾. وهي قراءة من ذكرهم.

جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ
فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿جَمَعْنَـٰكُمْ﴾ يا مكذّبي محمّد ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ والمكذّبين قبلكم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ حيلة في دفع العذاب ﴿فَكِيدُونِ﴾ فاحتالوا عليّ بتخليص أنفسكم من العذاب. والكيد متعدّ، تقول: كدت فلاناً: إذا احتلت عليه ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث.

٤١ ـ ٤٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ عن عذاب الله ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ جمع ظلّ ﴿وَعُيُونٍ﴾ جاريةٍ في الجنّة ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: لذيذة مشتهاة ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ ـ في موضع الحال من ضمير ﴿المتّقين﴾ في الظرف الذي هو ﴿في ظلال﴾. أي: هم مستقرّون ﴿في ظلال﴾ مقولاً لهم ذلك ـ ﴿هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأحسنوا تجزوا بهذا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالجنّة.

٤٦، ٤٧ ـ ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾ كلام مستأنف خطاب للمكذّبين في الدنيا على وجه التهديد، كقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿قَلِيلًا﴾ لأنّ متاع الدنيا قليل ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ كافرون. أي: إنّ كلّ مجرم يأكل ويتمتّع أيّاماً قلائل، ثمّ يبقى في الهلاك الدائم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالمنعم.

٤٨، ٤٩ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾ اخشعوا لله، وتواضعوا له بقبول وحيه واتّباع دينه، ودعوا هذا الاستكبار ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا يخشعون، ولا يقبلون ذلك، ويصرّون على استكبارهم. أو: ﴿إذا قيل لهم﴾ صلّوا لا يصلّون ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالأمر والنهي.

٥٠ ـ ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾ بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي: إن لم يؤمنوا بالقرآن مع أنّه آية مبصرة، ومعجزة باهرة من بين الكتب السماويّة، فبأي كتاب بعده يؤمنون؟!.

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

١ ـ ٣ ـ ﴿عَمَّ﴾ أصله ﴿عن ما﴾. وقرىء بها. ثمّ أدغمت النون في الميم فصار ﴿عمّا﴾ وقرىء بها. ثمّ حذفت الألف تخفيفاً لكثرة الاستعمال في الاستفهام. وعليه الاستعمال الكثير. وهذا استفهام تفخيم للمستفهم عنه؛ لأنّه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً. أو: يسألون غيرهم من المؤمنين. والضمير لأهل مكة. كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث، ويسألون المؤمنين عنه على طريق الاستهزاء ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: البعث. وهو بيان للشأن المفخّم. وتقديره: ﴿عمّ يتساءلون﴾؟ يتساءلون ﴿عن النبأ العظيم﴾ ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ فمنهم من يقطع بإنكاره، ومنهم من يشكّ. وقيل: الضمير للمسلمين والكافرين، وكانوا جميعاً يسألون عنه. فالمسلم يسأل ليزداد خشيةً، والكافر يسأل استهزاءً.

٤، ٥ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاختلاف، أو: التساؤل هزؤاً ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بأنّهم سوف يعلمون عياناً: أنّ ما يتساءلون عنه حقّ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كرّر الردع للتشديد. و﴿ثمّ﴾ يشعر بأنّ الثاني أبلغُ من الأوّل، وأشدُّ.

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾

٦ ـ ١٦ ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ﴾ لمّا أنكروا البعث قيل لهم: ألم يخلق من أضيف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة؟ فلم تنكرون قدرته على البعث، وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات؟ أو قيل لهم: لم فعل هذه الأشياء؟ والحكيم لا يفعل عبثاً، وإنكار البعث يؤدّي إلى أنّه عابث في كلّ ما فعل؟ ﴿مِهَٰدًا﴾ فراشاً فرشها لكم حتّى سَكنتموها، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ للأرض لئلا تميد بكم، ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذكراً وأنثى ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ قطعاً لأعمالكم، وراحةً لأبدانكم. والسبت: القطع ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ستراً يستركم عن العيون إذا أردتم إخفاء ما لا تحبّون الاطّلاع عليه، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وقت معاش تتقلّبون في حوائجكم ومكاسبكم، ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ سبع سموات ﴿شِدَادًا﴾ جمع شديدة. أي: محكمة، قويّة، لا يؤثّر فيها مرور الزمان، أو: غلاظاً غلظ كلّ واحدة مسيرة خمسمئة سنة ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ مضيئاً وقّاداً، أي: جامعاً للنور والحرارة. والمراد: الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ أي: السحائب إذا أعصرت، أي: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر. ومنه: أعصرت الجارية: إذا دنت أن تحيض. أو: الرياح؛ لأنّها تنشىء السحاب وتدرّ أخلافه. فيصحّ أن تجعل مبدأً للإنزال. وقد جاء: أنّ الله تعالى يبعث الرياح، فتحمل الماء من السماء إلى السحاب ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ منصباً بكثرة ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ بالماء ﴿حَبًّا﴾ كالبرّ والشعير ﴿وَنَبَاتًا﴾ وكلأً ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿أَلْفَافًا﴾ ملتفّة الأشجار. واحدها: لِفّ، كجذع، وأجذاع، أو: لفيف، كشريف، وأشراف. أو: لا واحد له، كأوزاع. أو: هي جمع الجمع. فهي: جمع لُفّ. ولُفٌّ جمع لَفَّاء، وهي: شجرة مجتمعة. ولا وقف من ﴿ألم نجعل﴾ إلى ﴿ألفافاً﴾. والوقف الضروريّ على ﴿أوتاداً﴾ و﴿معاشاً﴾.

١٧ ـ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ بين المحسن والمسيء، والمحقّ والمبطل ﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾

يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾

وقتاً محدوداً، ومُنْتهىً معلوماً لوقوع الجزاء، أو: ميعاداً للثواب والعقاب.

١٨ ـ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ بدل من ﴿يوم الفصل﴾ أو: عطف بيان ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ في القرن ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ حال. أي: جماعات مختلفة. أو: أمماً، كلّ أمّة مع رسولها.

١٩ ـ ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ خفيف، كوفيّ. أي: شقّت لنزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ فصارت ذات أبواب، وطرق، وفروج، وما لها اليوم من فروج.

٢٠ ـ ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

٢١، ٢٥ ـ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ طريقاً عليه ممرّ الخلق، فالمؤمن يمرّ عليها والكافر يدخلها. وقيل: المرصاد: الحدّ الذي يكون فيه الرصد، أي: هي حدّ الطاغين الذين يرصدون فيه للعذاب، وهي مآبهم. أو: هي مرصاد لأهل الجنّة، ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها؛ لأنّ مجازهم عليها ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ للكافرين مرجعاً ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ ماكثين ـ حال مقدّرة من الضمير في ﴿للطاغين﴾ حمزة: ﴿لَبِثين﴾. واللَّبِث أقوى؛ إذ اللابث من وجد منه اللُّبْث وإن قلّ، واللَّبِث من شأنه اللبث والمقام في المكان ﴿فِيهَآ﴾ في جهنّم ﴿أَحْقَابًا﴾ ظرف جمع: حِقُب. وهو الدهر. ولم يرد به عدد محصور بل الأبد، كلّما مضى حُقُب تبعه آخر إلى غير نهاية. ولا يستعمل الحقب والحُقْبَةُ إلا إذا أريد تتابع الأزمنة وتواليها. وقيل: الحقب ثمانون سنة. وسئل بعض العلماء عن هذه الآية فأجاب بعد عشرين سنة: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾، ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: غير ذائقين. حال من ضمير ﴿لابثين﴾. فإذا انقضت هذه الأحقاب التي عذّبوا فيها بمنع البرد والشراب بدّلوا بأحقاب أخر فيها عذاب آخر. وهي: أحقاب بعد أحقاب لا انقطاع لها. وقيل: هو من: حقب عامنا إذا قلّ مطره وخيره، وحقِب فلان: إذا أخطأه الرزق، فهو حقب، وجمعه:

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ﴾

أحقاب. فينتصب حالاً عنهم. أي: لابثين فيها حَقِبين و﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾ تفسير له. وقوله: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾[1] استثناء منقطع أي: ﴿لا يذوقون﴾ في جهنّم أو: في الأحقاب ﴿برداً﴾ رَوْحاً ينفّس عنهم حرّ النار، أو نوماً. ومنه: منع البرد ﴿ولا شراباً﴾ يسكّن عطشهم، ولكن يذوقون فيها ﴿حميماً﴾ ماءً حارّاً يحرق ما يأتي عليه ﴿وغسّاقاً﴾ ماء يسيل من صديدهم. وبالتشديد كوفيّ غير أبي بكر.

٢٦، ٢٧ ـ ﴿جَزَآءً﴾ جوزوا جزاءً ﴿وِفَاقًا﴾ موافقاً لأعمالهم. مصدر بمعنى الصفة، أو: ذا وفاق. ثمّ استأنف معلّلاً فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ لا يخافون محاسبة الله إيّاهم. أو: لم يؤمنوا بالبعث ليرجوا حساباً.

٢٨ ـ ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ تكذيباً. وفعّال في باب فعّل كلُّه فاش.

٢٩، ٣٠ ـ ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ نصب بمضمر يفسّره ﴿أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾ مكتوباً في اللوح. حال، أو: مصدر في موضع إحصاءً. أو: أحصينا في معنى: كتبنا. لأنّ الإحصاء يكون بالكتابة غالباً. وهذه الآية اعتراض؛ لأنّ قوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ مسبّب عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات. أي: ﴿فذوقوا﴾ جزاءكم. والالتفات شاهد على شدّة الغضب ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾. في الحديث: «هذه الآية أشدُّ ما في القرآن على أهل النار»[2].

٣١ ـ ٣٥ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ مَفْعَلٌ من: الفوز يصلح مصدراً، أي: نجاةً من كلّ مكروه، وظفراً بكلّ محبوب. ويصلح للمكان، وهو الجنّة. ثم أبدل منه بدل البعض من الكلّ فقال: ﴿حَدَآئِقَ﴾: بساتين فيها أنواع الشجر المثمر. جمع:

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿وغَسَاقاً﴾ بالتخفيف. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨/ ٤٨).

(٢) رواه ابن أبي حاتم والثعلبي. (حاشية الكشاف ٤/ ٦٩٠).

وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن
رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ
يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ
الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا

حديقة ﴿وَأَعْنَابًا﴾ كروماً ـ عطف على ﴿حدائق﴾ ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ نواهد ﴿أَتْرَابًا﴾ لَدَاتٍ مستويات في السنّ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ مملوءة ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنّة. حال من ضمير خبر ﴿إنّ﴾ ﴿لَغْوًا﴾ باطلاً ﴿وَلَا كِذَّابًا﴾ الكسائيّ: خفيف بمعنى مكاذبة. أي: لا يكذب بعضهم بعضاً. أو: لا يكاذبه.

٣٦ ـ ﴿جَزَاءً﴾ مصدر. أي: جزاهم جزاء ﴿مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً﴾ مصدر، أو: بدل من ﴿جزاء﴾ ﴿حِسَابًا﴾ صفة. يعني: كافياً. أو على حسب أعمالهم.

٣٧ ـ ﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ﴾ بجرّهما، ابن عامر، وعاصم، بدلاً من ﴿ربّك﴾. ومن رفعهما فـ﴿ربُّ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره ﴿الرحمنُ﴾. أو ﴿الرحمنُ﴾ صفته و﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ خبر. أو: هما خبران. والضمير في ﴿لا يملكون﴾ لأهل السموات والأرض، وفي ﴿مِنْهُ خِطَابًا﴾ لله تعالى. أي: لا يملكون الشفاعة من عذابه تعالى إلاّ بإذنه. أو: لا يقدر أحد أن يخاطبه تعالى خوفاً.

٣٨ ـ ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ إن جعلته ظرفاً لـ﴿لا يملكون﴾ لا تقف على ﴿خطاباً﴾ وإن جعلته ظرفاً لـ﴿لا يتكلّمون﴾ تقف ﴿الرُّوحُ﴾ جبريل، عند الجمهور. وقيل: هو ملك عظيم، ما خلق الله تعالى بعد العرش خلقاً أعظم منه ﴿وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ حال. أي: مصطفين ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أي: الخلائق ثَمَّ خوفاً ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾ في الكلام، أو: الشفاعة ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ حقّاً. بأن قال المشفوع له: لا إله إلاّ الله في الدنيا. أو: لا يؤذن إلاّ لمن يتكلّم بالصواب في أمر الشفاعة.

٣٩ ـ ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ الثابت وقوعه ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ مرجعاً بالعمل الصالح.

٤٠ ـ ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ﴾ أيها الكفّار ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ في الآخرة؛ لأنّ ما هو آتٍ

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

قريبٌ ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ أي: الكافر ـ لقوله: ﴿إنّا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ ـ ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الشرّ ـ كقوله: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨١ـ١٨٢] وتخصيص الأيدي، لأنّ أكثر الأعمال تقع بها، وإن احتمل ألاّ يكون للأيدي مدخل فيما ارتكب من الآثام ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة الذمّ. أو: ﴿المرء﴾ عامّ. وخص منه الكافر. و﴿ما قدّمت يداه﴾ ما عمل من خير وشرّ. أو: هو المؤمن لذكر الكافر بعده، وما قدم من خير. و﴿ما﴾ استفهاميّة منصوبة بـ ﴿قدمت﴾ أي: ﴿ينظر﴾ أيَّ شيءٍ ﴿قدّمت يداه﴾؟ أو: موصولة منصوبة بـ﴿ينظر﴾ يقال: نظرته. يعني: نظرت إليه. والراجع من الصلة محذوف. أي: قدمته ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ في الدنيا، فلم أخلق، ولم أكلّف. أو: ﴿ليتني كنت تراباً﴾ في هذا اليوم، فلم أبعث. وقيل: يحشر الله الحيوان غير المكلّف حتّى يقتصّ للجمّاء من القرناء، ثمّ يردّه تراباً، فيودُّ الكافر حاله. وقيل: الكافر إبليس يتمنّى أن يكون كآدم مخلوقاً من التراب ليثاب ثواب أولاده المؤمنين.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾

---

١ ـ ٥ ـ ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ لا وقف إلى هنا، ولزم هنا؛ لأنه لو وصل لصار ﴿يوم﴾ ظرف ﴿المدبّرات﴾ وقد انقضى تدبير الملائكة في ذلك اليوم. أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد ﴿غرقاً﴾ أي: إغراقاً في النزع، أي: تنزعها من أقاصي الأجساد من أناملها، ومواضع أظفارها. وبالطوائف التي تنشطها، أي: تخرجها. من: نَشط الدلو من البئر: إذا أخرجها. وبالطوائف التي تسبح في مضيها، أي: تسرع، فتسبق إلى ما أمروا به، فتدبّر ﴿أمراً﴾ من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم، أو دنياهم؛ كما رسم لهم. أو: بخيل الغزاة التي تنزع في أعنّتها نزعاً، تغرق فيه الأعنّة لطول أعناقها؛ لأنّها عراب، والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب. من قولك: ثور ناشط: إذا خرج من بلد إلى بلد. والتي تسبح في جريها، فتسبق إلى الغاية، فتدبّر أمر الغلبة والظفر. وإسناد التدبير إليها لأنّها من أسبابه. أو: بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب. وإغراقها في النزع: أن تقطع الفلك كلّه حتّى تنحطّ في أقصى الغرب. والتي تخرج من برج إلى برج، والتي تسبح في الفلك

يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾
يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلۡكَ إِذًا كَرَّةٌ
خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾

من السيّارة، فتسبق، فتدبّر أمراً من علم الحساب. وجواب القسم محذوف، وهو: لتبعثنّ، لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة.

٦ ـ ٩ ـ ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ﴾ تتحرّك ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ حركةً شديدة ـ والرجف: شدّة الحركة ﴿الراجفة﴾ النفخة الأولى، وصفت بما يحدث بحدوثها؛ لأنّها تضطرب بها الأرض؛ حتّى يموت كلُّ من عليها ـ ﴿تَتۡبَعُهَا﴾ حال عن ﴿الراجفة﴾ ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ النفخة الثانية؛ لأنّها تردف الأولى، وبينهما أربعون سنة والأولى تميت الخلق، والثانية تحييهم ﴿قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٍ﴾ قلوب منكري البعث ﴿وَاجِفَةٌ﴾ مضطربة. من: الوجيف، وهو الوجيب. وانتصاب ﴿يوم ترجف﴾ بما دلّ عليه ﴿قلوبٌ يومئذٍ واجفة﴾ أي: ﴿يوم ترجف﴾ وجَفت القلوب. وارتفاع ﴿قلوب﴾ بالابتداء. و﴿واجفة﴾ صفتها ﴿أَبۡصَٰرُهَا﴾، أي: أبصار أصحابها ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ ذليلة لهول ما ترى، خبرها.

١٠، ١١ ـ ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: منكرو البعث في الدنيا، استهزاءً وإنكاراً للبعث: ـ ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار، أي: أنردّ بعد موتنا إلى أوّل الأمر، فنعود أحياءً كما كنّا؟ والحافرة: الحالة الأولى. يقال لمن كان في أمر، فخرج منه، ثمّ عاد إليه: رجع إلى حافرته، أي: إلى حالته الأولى. ويقال: النقد عند الحافرة. أي: عند الحالة الأولى. وهي: الصفقة. أنكروا البعث، ثمّ زادوا استعباداً، فقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ بالية. ﴿ناخرة﴾ كوفيّ غير حفص و«فَعِلٌ» أبلغ من فاعل. يقال: نخر العظم، فهو نخر، وناخر. والمعنى: أنردّ إلى الحياة بعد أن صرنا عظاماً بالية؟ و﴿إذا﴾ منصوب بمحذوف، وهو: نبعث.

١٢ ـ ﴿قَالُواْ﴾ أي: منكرو البعث: ﴿تِلۡكَ﴾ رجعتنا ﴿إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ رجعة ذات خسران، أو: خاسر أصحابها. والمعنى: أنّها إن صحّت وبعثنا فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها. وهذا استهزاءٌ منهم.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ
بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ
رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾

١٣ ـ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ متعلّق بمحذوف. أي: لا تحسبوا تلك الكرّة صعبة على الله عزّ وجلّ؛ فإنّها سهلة هيّنة في قدرته، فما هي إلا صيحة واحدة. يريد: النفخة الثانية. من: زجر البعير: إذا صاح عليه.

١٤ ـ ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض، بعد ما كانوا أمواتاً في جوفها. وقيل: الساهرة: أرض بعينها بالشام إلى جنب بيت المقدس، أو: بيت المقدس، أو: أرض مكّة، أو: جهنّم.

١٥ ـ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ استفهام يتضمّن التنبيه على أنّ هذا ممّا يجب. والتشريف للمخاطب به.

١٦ ـ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ حين ناداه ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المبارك المطهّر ﴿طُوًى﴾ اسمه.

١٧ ـ ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ على إرادة القول. ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ تجاوز الحدّ في الكفر والفساد.

١٨، ١٩ ـ ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ هل لك ميل إلى أن تتطهّر من الشرك والعصيان بالطاعة والإيمان؟ وبتشديد الزاي حجازيّ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وأرشدك إلى معرفة الله بذكر صفاته فتعرفه ﴿فَتَخْشَىٰ﴾؛ لأنّ الخشية لا تكون إلاّ بالمعرفة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] أي: العلماء به. وعن بعض الحكماء: اعرفوا الله، فمن عرف الله، لم يقدر أن يعصيه طرفة عين. فالخشية ملاك الأمر. من خشي الله أتى منه كلّ خير، ومن أَمِنَ اجترأ على كلّ شرّ. ومنه الحديث: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل»[1]. بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض؛ كما يقول الرجل لضيفه: هل لك أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرقيق، ليستدعيه باللطف في القول، ويستنزله بالمداراة من عتوّه؛ كما أمر بذلك في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤٧).

فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾

---

٢٠ ـ ٢٢ ـ ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: فذهب فأرى موسى فرعون العصا. أو: العصا، واليد البيضاء؛ لأنّهما في حكم آية واحدة ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون بموسى والآية الكبرى، وسمّاهما ساحراً وسحراً ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله تعالى ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ تولّى عن موسى ﴿يَسْعَىٰ﴾ يجتهد في مكايدته. أو: لمّا رأى الثعبان أدبر مرعوباً يسرع في مشيته، وكان طيّاشاً خفيفاً.

٢٣، ٢٤ ـ ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع السحرة وجنده ﴿فَنَادَىٰ﴾ في المقام الذي اجتمعوا فيه معه ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لا ربّ فوقي. وكانت لهم أصنام يعبدونها.

٢٥ ـ ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ﴾ عاقبه الله عقوبة الآخرة. والنكال: بمعنى التنكيل، كالسلام: بمعنى التسليم. ونصبه على المصدر؛ لأنّ أخذ بمعنى: نكّل. كأنّه قيل: نكل الله به ﴿نكال الآخرة﴾ أي: الإحراق ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: الإغراق. أو: ﴿نكال﴾ كلمتيه ﴿الآخرة﴾ ـ وهي: ﴿أنا ربّكم الأعلى﴾ ـ ﴿والأولى﴾ وهي: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] وبينهما أربعون سنة، أو: ثلاثون، أو: عشرون.

٢٦ ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ الله.

٢٧ ـ ٢٩ ـ ﴿ءَأَنتُمْ﴾ يا منكري البعث ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أصعب خلقاً، وإنشاء ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؟ مبتدأ محذوف الخبر. أي ﴿أم السماء﴾ أشدّ خلقاً. ثمّ بيّن كيف خلقها فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي الله. ثمّ بيّن البناء فقال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أعلى سقفها. وقيل: جعل مقدار ذهابها في سمت العلوّ رفيعاً مسيرة خمسمئة عام ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فعدّلها مستوية بلا شقوق ولا فطور ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلمه ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أبرز ضوء شمسها. وأضيف الليل والشمس إلى السماء؛ لأنّ الليل ظلها، والشمس سراجها.

٣٠، ٣١ ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ بسطها، وكانت مخلوقةً غير مدحوّةٍ،

أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ
ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن
طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى
ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾

فدحيت من مكّة بعد خلق السماء بألفي عام. ثم فسّر البسط فقال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بتفجير العيون ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ كلأها؛ ولذا لم يدخل العاطف على ﴿أخرج﴾. أو: ﴿أخرج﴾ حال بإضمار قد.

٣٢، ٣٣ ـ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أثبتها. وانتصاب ﴿الأرض﴾ و﴿الجبال﴾ بإضمار: دحا، وأرسى على شريطة التفسير ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ فعل ذلك تمتيعاً ﴿لكم ولأنعامكم﴾.

٣٤ ـ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ الداهية العظمى؛ التي تطمّ على الدواهي، أي: تعلو، وتغلب. وهي: النفخة الثانية، أو: الساعة التي يساق فيها أهل الجنّة إلى الجنّة، وأهل النار إلى النار.

٣٥ ـ ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بدل من ﴿إذا جاءت﴾. أي: إذا رأى أعماله مدوّنة في كتابه يتذكّرها، وكان قد نسيها ﴿مَا سَعَىٰ﴾ «ما»: مصدريّة. أي: سعيه. أو: موصولة.

٣٦ ـ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ وأظهرت ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ لكلِّ راءٍ؛ لظهورها ظهوراً بيّناً.

٣٧ ـ ٣٩ ـ ﴿فَأَمَّا﴾ جواب ﴿فإذا﴾. أي: إذا ﴿جاءت الطامّة﴾، فإنّ الأمر كذلك ﴿مَن طَغَىٰ﴾ جاوز الحدّ فكفر ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على الآخرة باتّباع الشهوات ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ مأواه. والألف واللام بدل الإضافة. وهذا عند الكوفيين. وعند سيبويه والبصريين ﴿هي المأوى﴾ له.

٤٠، ٤١ ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: علم أنّ له مقاماً يوم القيامة لحساب ربّه ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ الأمّارة بالسوء ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ المُرْديّ. أي: زجرها عن اتّباع الشهوات. قيل: هو الرجل يهمّ بالمعصية، فيذكر مقامه للحساب، فيتركها.

فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

والهوى: ميل النفس إلى شهواتها ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي المرجع.

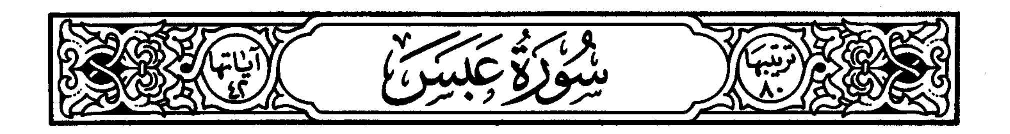
٤٢ ـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى إرساؤها. أي: إقامتها. يعني: متى يقيمها الله تعالى، ويثبتها؟

٤٣، ٤٤ ـ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ في أيّ شيءٍ أنت من أن تذكر وقتها لهم، وتعلّمهم به؟ أي: ما أنت من ذكراها لهم وتبيين وقتها في شيءٍ؛ كقولك: ليس فلان من العلم في شيءٍ. وكان رسول الله ﷺ لم يزل يذكرالساعة، ويسأل عنها حتّى نزلت، فهو على هذا تعجُّبٌ من كثرة ذكره لها. أي: أنّهم يسألونك عنها؛ فلحرصك على جوابهم؛ لا تزال تذكرها، وتسأل عنها ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ منتهى علمها متى تكون، لا يعلمها غيره. أو: ﴿فيم﴾ إنكار لسؤالهم عنها. أي: ﴿فيم﴾ هذا السؤال؟ ثمّ قال: ﴿أنت من ذكراها﴾ أي إرسالك ـ وأنت آخر الأنبياء ـ علامة من علاماتها، فلا معنى لسؤالهم عنها. ولا يبعد أن يوقف على هذا على ﴿فيم﴾. وقيل: ﴿فيم أنت من ذكراها﴾ متّصل بالسؤال. أي: ﴿يسألونك عن الساعة أيّان مرساها﴾ ويقولون: أين أنت من ذكراها؟ ثمّ استأنف، فقال: ﴿إلى ربّك منتهاها﴾.

٤٥ ـ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي: لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة، وإنّما بعثت لتنذر من أهوالها من يخاف شدائدها ﴿منذرٌ﴾ منوّن، يزيد، وعيّاشٌ.

٤٦ ـ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي: الساعة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي: ضحى العشية. استقلّوا مدّة لبثهم في الدنيا لما عاينوا من الهول؛ كقوله: ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥] وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]. وإنّما صحّت إضافة الضحى إلى العشية للملابسة بينهما؛ لاجتماعهما في نهارٍ واحد. والمراد: أنّ مدّة لبثهم لم تبلغ يوماً كاملاً، ولكن أحد طرفي النهار عشيته أو ضحاه.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾

١، ٢ ـ ﴿عَبَسَ﴾ كلح. أي: النبيُّ ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أعرض ﴿أَن جَآءَهُ﴾ لأن جاءه ـ ومحلُّه نصب لأنّه مفعول له. والعامل فيه ﴿عبس﴾ أو ﴿تولّى﴾ على اختلاف المذهبين ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ عبد الله بن أمِّ مكتوم. وأمُّ مكتوم أمُّ أبيه، وأبوه شريح بن مالكٍ. أتى النبيّ ﷺ وهو يدعو أشراف قريش إلى الإسلام. فقال: يا رسول الله علّمني مما علّمك الله! وكرّر ذلك، وهو لا يعلم تشاغله بالقوم. فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه. فنزلت. فكان رسول الله ﷺ يكرمه بعده، ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربّي»[1] واستخلفه على المدينة مرّتين.

٣، ٤ ـ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وأيّ شيءٍ دارياً بحال هذا الأعمى؟ ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ لعلّ الأعمى يتطهّر بما يسمع منك من دنس الجهل. وأصله: يتزكّى، فأدغمت التاء في الزاي. وكذا ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتّعظ ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ نصبه عاصم غير الأعشى، جواباً لـ: «لعلَّ». وغيره رفعه عطفاً على ﴿يذّكّر﴾ ﴿ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ ذكراك. أي:

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٩٧).

أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾

موعظتك. أي: إنّك لا تدري ما هو مترقّب منه؛ من تزكٍّ، أو تذكّر. ولو دريت لما فرط ذلك منك.

٥ ـ ٧ ـ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: من كان غنياً بالمال ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ تتعرّض بالإقبال عليه حرصاً على إيمانه. ﴿تصّدّى﴾ بإدغام التاء في الصاد، حجازيٌّ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ وليس عليك بأس في ألاّ يتزكّى بالإسلام. إن عليك إلاّ البلاغ.

٨ ـ ١٠ ـ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يسرع في طلب الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ الله، أو الكفّار، أو الكبوة؛ كعادة العميان ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تتشاغل. وأصله: تتلهّى. وروي: أنّه ﷺ ما عبس بعدها في وجه فقير قطّ، ولا تصدّى لغنيٍ. وروي: أنّ الفقراء في مجلس الثوريّ كانوا أمراء.

١١ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع. أي: لا تعد إلى مثله ﴿إِنَّهَا﴾ إنّ السورة، أو: الآيات ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة يجب الاتّعاظ بها، والعمل بموجبها.

١٢ ـ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ فمن شاء الله أن يذكره. أو ذكّر الضمير؛ لأنّ التذكرة في معنى الذكر والوعظ. والمعنى: فمن شاء الذكر ألهمه الله تعالى.

١٣ ـ ١٦ ـ ﴿فِى صُحُفٍ﴾ صفة لتذكره. أي: أنها مثبتة في صحف منتسخة من اللوح. أو خبر مبتدأ محذوف. أي: هي في صحف ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ في السماء، أو: مرفوعة القدر والمنزلة ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ عن مس غير الملائكة، أو عمّا ليس من كلام الله ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ كتبة ـ جمع: سافر. أي: الملائكة ينتسخون الكتب من اللوح ـ ﴿كِرَامٍۭ﴾ على الله، أو: عن المعاصي ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء. جمع: بارّ.

١٧ ـ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لعن الكافر، أو: هو أميّة، أو: عتبة ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ استفهام توبيخ، أي: أيّ شيءٍ حمله على الكفر؟ أو: هو تعجّب، أي: ما أشدّ كفره!

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ
إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ
صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾
وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾

١٨، ١٩ ـ ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ من أي حقيرٍ حقيرٍ ﴿خلقه﴾؟ وهو استفهام، ومعناه: التقرير. ثمّ بيّن ذلك الشيء فقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ على ما يشاء من خلقه.

٢٠ ـ ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ نصب السبيل بإضمار يسّر. أي: ثمّ سهّل له سبيل الخروج من بطن أمّه. أو بيّن له سبيل الخير والشرّ.

٢١ ـ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ جعله ذا قبرٍ يوارى فيه، لا كالبهائم، كرامةً له. قبر الميّتَ: دفنه. وأقبره: أمره أن يقبره ومكّنه منه.

٢٢ ـ ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أحياه بعد موته.

٢٣ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن الكفر ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ لم يفعل هذا الكافر ما أمره الله به من الإيمان.

٢٤ ـ ولمّا عدد النعم في نفسه من ابتداء حدوثه إلى أن انتهى أتبعه ذكر النعم فيما يحتاج إليه فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ الذي يأكله ويحيا به كيف دبّرنا أمره!

٢٥ ـ ﴿أَنَّا﴾ بالفتح، كوفيّ، على أنّه بدل اشتمال من الطعام. وبالكسر، على الاستئناف، غيرهم ﴿صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ يعني: المطر من السحاب.

٢٦ - ٣٢ ـ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ بالنبات ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالبرّ والشعير وغيرهما ممّا يتغذّى به ﴿وَعِنَبًا﴾ ثمرة الكرم ـ أي: الطعام والفاكهة ـ ﴿وَقَضْبًا﴾ رطبة ـ سُمّي بمصدر قضبه. أي: قطعه؛ لأنّه يقضب مرّةً بعد مرّةٍ ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ﴾ بساتين ﴿غُلْبًا﴾ غلاظ الأشجار. جمع: غلباء ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ لكم ﴿وَأَبًّا﴾ مرعى لدوابّكم ﴿مَّتَٰعًا﴾ مصدر. أي: منفعة ﴿لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

٣٣، ٣٧ ـ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ صيحة القيامة؛ لأنّها تَصُخ الآذان. أي:

يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا
قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

تصمها. وجوابه محذوفٌ لظهوره ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ لتبعات بينه وبينهم، أو: لاشتغاله بنفسه ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ وزوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ بدأ بالأخ، ثمّ بالأبوين؛ لأنهما أقرب منه، ثمّ بالصاحبة، والبنين، لأنهم أحبُّ. قيل: أوّل من يفرّ من أخيه: هابيل، ومن أبويه: إبراهيم، ومن صاحبته: نوحٌ، ولوطٌ، ومن ابنه: نوح ـ عليهم السلام ـ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾ في نفسه ﴿يُغْنِيهِ﴾ يكفيه في الاهتمام به، ويشغله عن غيره.

٣٨، ٣٩ ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ مضيئة، من قيام الليل، أو من آثار الوضوء ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: أصحاب هذه الوجوه ـ وهم المؤمنون ـ ضاحكون مسرورون.

٤٠، ٤١ ـ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ غبار ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ يعلو الغبرة سواد كالدخان، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه.

٤٢ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الحال ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ في حقوق الله ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ في حقوق العباد. أو: لمّا جمعوا الفجور إلى الكفر، جمع إلى سواد وجوههم الغبرة.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾

---

١ ـ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ذهب ضوؤها. من: كوّرت العمامة: إذا لفّفتها. أي: يلفّ ضوؤها لفّاً، فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق. وارتفاع ﴿الشمس﴾ بالفاعليّة. ورافعها: فعل مضمر يفسّره: ﴿كوّرت﴾ لأنّ «إذا» يطلب الفعل؛ لما فيه من معنى الشرط.

٢ ـ ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ تساقطت.

٣ ـ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عن وجه الأرض وأبعدت. أو: ﴿سيّرت﴾ في الجوّ تسيير السحاب.

٤ ـ ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ جمع عشراء. وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة ﴿عُطِّلَتْ﴾ أهملت، عطّلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم، وكانوا يحبسونها إذا بلغت هذه الحال لعزّتها عندهم، ويعطّلون ما دونها. ﴿عطلت﴾ بالتخفيف، عن البزّيّ.

٥ ـ ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ جمعت من كلّ ناحية. قال قتادة: يحشر كلُّ شيءٍ حتّى الذباب للقصاص، فإذا قضي بينها ردّت تراباً، فلا يبقى منها إلاّ ما فيه

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾

سرور لبني آدم؛ كالطاووس ونحوه. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: حشرها: موتها. يقال: إذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم: حشرتهم السنة.

٦ ـ ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ ﴿سُجِرَت﴾ مكّيٌّ وبصريٌّ. من سجر التنّور: إذا ملأه بالحطب، أي: ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتّى تعود بحراً واحداً. وقيل: ملئت نيراناً لتعذيب أهل النار.

٧ ـ ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قرنت كلّ نفس بشكلها: الصالح مع الصالح في الجنّة، والطالح مع الطالح في النار. أو: قرنت الأرواح بالأجساد. أو: بكتبها وأعمالها. أو: نفوس المؤمنين بالحور العين، ونفوس الكافرين بالشياطين.

٨، ٩ ـ ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ المدفونة حية. وكانت العرب تئد البنات خشية الإملاق، وخوف الاسترقاق ﴿سُئِلَتْ﴾ سؤال تلطّف، لتقول: بلا ذنب قُتِلْتُ. أو: لتدحل على قاتلها. أو: هو توبيخ لقاتلها بصرف الخطاب عنه، كقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ. . .﴾ الآية [المائدة: ١١٦] ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ وبالتشديد يزيد. وفيه دليل: على أنّ أطفال المشركين لا يعذّبون، وعلى أنّ التعذيب لا يكون بلا ذنب.

١٠ ـ ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾(١) فتحت. وبالتخفيف مدنيّ، وشاميٌّ، وعاصم، وسهل، ويعقوب. والمراد صحف الأعمال. تطوى صحيفة الإنسان عند موته ثمّ تنشر إذا حوسب. ويجوز أن يراد ﴿نشرت﴾ بين أصحابها، أي: فرّقت بينهم.

١١ ـ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ قال الزجّاج: قلعت كما يقلع السقف.

١٢ ـ ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾(٢) أوقدت إيقاداً شديداً، وبالتشديد، شاميٌّ،

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿نُشِّرت﴾ وهي قراءة: أبي عمرو، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، ويحيى، والأعمش، وخلف، معجم القراءات القرآنية (٨/ ٨٣).

(٢) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿سُعِرَت﴾ بالتخفيف. وهي قراءة: ابن =

وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾
وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى
ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ

ومدنيٌّ، وعاصم، غير حماد، ويحيى، للمبالغة.

١٣، ١٤ ـ ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أدنيت من المتقين كقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] فهذه اثنتا عشرة خصلة: ستٌّ منها في الدنيا، والباقية في الآخرة، ولا وقف مطلقاً من أوّل السورة إلى ﴿ما أحضرت﴾ لأنّ عامل النصب في ﴿إذا الشمس﴾ وفيما عطف عليه، جوابها وهو ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي: كلّ نفس. ولضرورة انقطاع النفس على كلّ آية جوّز الوقف ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ من خير وشرّ.

١٥ ـ ٢١ ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ لا زائدة ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ بالرواجع، بينا ترى النجم في آخر البرج إذ كرّ راجعاً إلى أوّله ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السيّارة ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ الغيَّب. من: كنس الوحش: إذا دخل كناسه. قيل: هي الدراريّ الخمسة: بهرام، وزحل، وعطارد، والزهرة، والمشتري، تجري مع الشمس والقمر، وترجع حتّى تخفى تحت ضوء الشمس. فخنوسها: رجوعها. وكنوسها: اختفاؤها تحت ضوء الشمس. وقيل: هي جميع الكواكب ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾، أقبل بظلامه، أو: أدبر، فهو من الأضداد ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ امتدّ ضوؤه. ولمّا كان إقبال الصبح يلازمه الرّوح والنسيم، جعل ذلك نفساً له مجازاً. وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ـ أي: جبريل عليه السلام. وإنّما أضيف القرآن إليه؛ لأنّه هو الذي نزل به ـ ﴿كَرِيمٍ﴾ عند ربّه ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ قدرة على ما يكلّف، لا يعجز عنه، ولا يضعف ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ عند الله ﴿مَكِينٍ﴾ ذي جاه ومنزلة ـ ولمّا كانت حال المكانة على حسب حال الممكّن، قال: ﴿عند ذي العرش﴾ ليدلّ على عظم منزلته ومكانته ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في السموات يطيعه من فيها. أو: ﴿عند ذي العرش﴾ أي: عند الله: يطيعه ملائكته المقرّبون يصدرون عن

= كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وعاصم، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨/ ٨٤).

أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ
بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن
شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾

أمره، ويرجعون إلى رأيه ﴿أَمِينٍ﴾ على الوحي.

٢٢ ـ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما تزعم الكفرة. وهو عطف على جواب القسم.

٢٣ ـ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ رأى محمد جبريل عليهما السلام على صورته ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس.

٢٤ ـ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ محمّد على الوحي ﴿بِضَنِينٍ﴾ ببخيل. من الضنِّ، وهو: البخل. أي: لا يبخل بالوحي كما يبخل الكهان رغبة في الحُلْوان، بل يعلِّمه كما عُلِّم، ولا يكتم شيئاً ممّا عُلِّم. ﴿بظنين﴾ مكّيٌّ، وأبوّ عمرو، وعليٌّ. أي: بمتّهم فينقص شيئاً ممّا أوحي إليه، أو يزيد فيه. من: الظنّة. وهي: التُّهْمَة.

٢٥ ـ ﴿وَمَا هُوَ﴾ وما القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ طريد. وهو كقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠] أي: ليس هو بقول بعض المسترقة للسمع، وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة.

٢٦ ـ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ استضلال لهم، كما يقال لتارك الجادّة اعتسافاً أو ذهاباً في بُنَيّات الطريق: أين تذهب؟ مثّلت حالهم بحاله في تركهم الحقّ، وعدولهم عنه إلى الباطل. وقال الزجاج: معناه: فأيُّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بيّنْتُ لكم؟ وقال الجنيد: ﴿فأين تذهبون﴾ عنّا، وإن من شيءٍ إلاّ عندنا؟

٢٧، ٢٨ ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ما القرآن إلاّ عظة للخلق ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ بدل من العالمين ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي: القرآن ذِكْرٌ لمن شاء الاستقامة. يعني: أنّ الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر. فكأنّه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعوظين جميعاً.

وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

٢٩ ـ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستقامة ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مالك الخلق أجمعين.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ

---

١ ـ ٥ ـ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ انشقّت ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ تساقطت ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فتح بعضها إلى بعض، وصارت البحار بحراً واحداً ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ بحثت وأخرج موتاها. وجواب إذا: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي: كلّ نفس برّةٍ وفاجرةٍ ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ ما عملت من طاعة ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ وتركت فلم تعمل، أو: ﴿ما قدّمت﴾ من الصدقات ﴿و﴾ ما ﴿أخّرت﴾ من الميراث.

٦، ٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ قيل: الخطاب لمنكري البعث ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أيّ: شيءٍ خدعك حتّى ضيعت ما وجب عليك مع كرم ربّك؛ حيث أنعم عليك بالخلق، والتسوية، والتعديل؟ وعنه ﷺ حين تلاها: «غرّه جهله»(١). وعن عمر رضي الله عنه: غرّه حمقه. وعن الحسن: غرّه شيطانه. وعن الفضيل: لو خوطبت؛ أقول: غرّتني ستورك المرخاة. وعن يحيى بن معاذ: أقول: غرّني برّك بي سالفاً وآنفاً ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ فجعلك مستوى

---

(١) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (حاشية الكشاف ٤/ ٧١٥).

فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا

الخلق سالم الأعضاء ﴿فَعَدَلَكَ﴾[1] فصيّرك معتدلاً متناسب الخلق، من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، ولا إحدى العينين أوسع، ولا بعض الأعضاء أبيض، وبعضها أسود. أو: جعلك معتدل الخلق، تمشي قائماً، لا كالبهائم. وبالتخفيف كوفيٌّ. وهو بمعنى: المشدّد. أي: عدل بعض أعضائك ببعض؛ حتّى اعتدلت، فكنت معتدل الخلقة متناسباً.

٨ ـ ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ «ما»: مزيد للتوكيد؛ أي: ﴿ركّبك﴾ في أيِّ صورةٍ اقتضتها مشيئته من الصور المختلفة في الحسن، والقبح، والطول، والقصر. ولم تعطف هذه الجملة كما عطف ما قبلها لأنّها بيان لـ ﴿عدلك﴾. والجارّ يتعلّق بـ ﴿ركّبك﴾ على معنى وضعك في بعض الصور ومكّنك فيها. أو بمحذوف. أي: ﴿ركّبك﴾ حاصلاً في بعض الصور.

٩ ـ ١٢ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الغفلة عن الله تعالى ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أصلاً. وهو الجزاء، أو: دين الإسلام، فلا تصدّقون ثواباً، ولا عقاباً ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ أعمالكم وأقوالكم من الملائكة ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾. يعني: أنّكم تكذّبون بالجزاء، والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتجازوا بها ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ لا يخفى عليهم شيءٌ من أعمالكم. وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء وأنه[2] عند الله من جلائل الأمور. وفيه إنذار وتهويل للمجرمين ولطف للمتّقين. وعن الفضيل: أنّه كان إذا قرأها قال: ما أشدّها من آية على الغافلين.

١٣ ـ ١٦ ـ ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾ إن المؤمنين لفي نعيم الجنّة ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ وإن الكفّار لفي النار ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ يدخلونها يوم الجزاء ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا

(١) أثبت المؤلف رحمه الله في الأصل قراءة: ﴿فعدّلك﴾ وهي قراءة: أبي عمرو، وابن عامر، وابن كثير، ونافع، وجعفر، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨/ ٨٩).
(٢) في الأصل المخطوط زيادة لفظ «من» ولا معنى له.

بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

بِغَآئِبِينَ﴾ أي: لا يخرجون منها، كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَا﴾ [المائدة: ٣٧].

١٧ - ١٩ ـ ثمّ عظّم شأن يوم القيامة فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ فكرّر للتأكيد والتهويل. وبيّنه بقوله: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا تستطيع دفعاً عنها، ولا نفعاً لها بوجه. وإنّما تملك الشفاعة بالإذن. ﴿يَوْمُ﴾ بالرفع مكّيٌّ وبصريٌّ. أي: هو ﴿يوم﴾ أو: بدل من ﴿يوم الدين﴾. ومن نصب فبإضمار اذكر. أو: بإضمار يدانون؛ لأنّ الدين يدلّ عليه ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ أي: لا أمر إلاّ لله تعالى وحده، فهو القاضي فيه دون غيره.

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾

---

١ ـ ٣ ـ ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ خبره ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ للذين يبخسون حقوق الناس في الكيل، والوزن ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: إذا أخذوا بالكيل من الناس يأخذون حقوقهم وافيةً تامّة. ولمّا كان اكتيالهم من الناس اكتيالاً يضرّهم ويتحامل فيه عليهم أبدل ﴿على﴾ مكان مِنْ للدلالة على ذلك. ويجوز أن يتعلّق ﴿على﴾ بـ ﴿يستوفون﴾ ويقدّم المفعول على الفعل؛ لإفادة الاختصاص. أي: يستوفون على الناس خاصّة. وقال الفرّاء: مِنْ وعلى يعتقبان في هذا الموضع؛ لأنّه حقّ عليه. فإذا قال: اكتلت عليك؛ فكأنّه قال: أخذت ما عليك. وإذا قال: اكتلت منك؛ فكأنّه قال: استوفيت منك. والضمير المنصوب في ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ راجع إلى الناس، أي: كالوا لهم، أو: وزنوا لهم، فحذف الجار وأوصل الفعل. وإنّما لم يقل: أو اتزنوا، كما قيل: ﴿أو وزنوهم﴾ اكتفاءً. ويحتمل: أنّ المطفّفين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلاّ بالمكاييل لتمكّنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة لأنّهم يزعزعون، ويحتالون في الملء. وإذا أعطوا كالوا، أو وزنوا؛ لتمكّنهم من البخس في النوعين ﴿يُخْسِرُونَ﴾ ينقصون. يقال: خَسر الميزان وأخسره.

أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾

٤ ـ ٦ ـ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يوم القيامة. أدخل همزة الاستفهام على لا النافية توبيخاً. وليست ﴿ألا﴾ هذه للتنبيه. وفيه إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف. كأنَّهم لا يخطرون ببالهم، ولا يخمّنون تخميناً: أنّهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرّة. ولو ظنّوا أنّهم يبعثون ما نقصوا في الكيل والوزن. وعن عبد الملك بن مروان: أنَّ أعرابيّاً قال له: قد سمعت ما قال الله في المطفّفين ـ أراد بذلك: أنّ المُتَطفِّف قد توجّه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به ـ فما ظنّك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن؟! ونصب ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ بـ: ﴿مبعوثون﴾ ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأمره وجزائه. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنّه قرأ هذه السورة. فلمّا بلغ هنا بكى نحيباً، وامتنع من قراءة ما بعده.

٧ ـ ٩ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع وتنبيه. أي: ردَعهم عمّا كانوا عليه من التطفيف، والغفلة عن البعث والحساب، ونبّههم على أنّه ممّا يجب أن يتاب عنه ويندم عليه. ثمّ أتبعه وعيد الفجّار على العموم، فقال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ صحائف أعمالهم ﴿لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾. فإن قلت: قد أخبر الله تعالى عن كتاب الفجّار بأنّه في سجّين، وفسّر سجّيناً بكتاب مرقوم. فكأنّه قيل: إنّ كتابهم في كتاب مرقوم، فما معناه؟ قلت: سجّين: كتاب جامع هو ديوان الشرّ، دوّن الله فيه أعمالَ الشياطين، والكفرة من الجنّ والإنس. وهو كتاب مرقومٌ، مسطورٌ بيِّنُ الكتابة، أو: مُعْلَم، يعلم من رآه: أنّه لا خير فيه، من: رقْم الثياب: علامتها. والمعنى: أنّ ما كتب من أعمال الفجّار مثبت في ذلك الديوان. وسمّي: سجّيناً، فعّيلاً من: السجن، وهو: الحبس والتضييق، لأنّه سبب الحبس والتضييق في جهنّم، أو: لأنه مطروح تحت الأرض السابعة في مكان وحْشٍ مظلمٍ، وهو مسكن إبليس وذرّيّته. وهو: اسم علم منقول من وصف؛ كحاتم، منصرف لوجود سبب واحدٍ، وهو: العلميّة فحسب.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

---

١٠ ـ ١٣ ـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم يخرج المكتوب ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ الجزاء والحساب ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾ بذلك اليوم ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ مجاوز للحدّ، ﴿أَثِيمٍ﴾ مكتسب للإثم ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أحاديث المتقدّمين. وقال الزجّاج: ﴿أساطير﴾ أباطيل، واحدها: أسطورة، مثل: أحدوثة، وأحاديث.

١٤ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع للمعتدي الأثيم عن هذا القول. ﴿بَلْ﴾ نفى لما قالوا. ويقف حفص على ﴿بل﴾ وقيفة ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ غطّاها كسبهم. أي: غلب على قلوبهم حتّى غمرها ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من المعاصي. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: الذنب بعد الذنب حتّى يسودّ القلب. وعن الضحّاك: الرين: موت القلب. وعن أبي سليمان ـ رحمه الله ـ: الرين والقسوة زماما الغفلة، ودواؤهما: إدمان الصوم. فإن وجد بعد ذلك قسوة فليترك الإدام.

١٥ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن الكسب الرائن على القلب ﴿إِنَّهُمْ عَن﴾ أي: رؤية ﴿رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ لممنوعون. والحجب: المنع. قال الزجّاج: في الآية دليل على أنّ المؤمنين يرون ربّهم وإلّا لا يكون التخصيص مفيداً. وقال الحسين بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده، حجبهم في العقبى عن رؤيته. قال مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ: لمّا حجب أعداءه فلم يروه، تجلّى لأوليائه حتّى رأوه. وقيل: ﴿عن﴾ كرامة ﴿ربّهم﴾ لأنّهم في الدنيا لم يشكروا نعمه، فيئسوا في الآخرة عن كرامته مجازاة. والأوّل أصحّ؛ لأنّ الرؤية أقوى الكرامات، فالحجب عنها دليل الحجب عن غيرها.

١٦ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ بعد كونهم محجوبين عن ربّهم لداخلو النار.

١٧ ـ ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: ﴿هذا﴾ العذاب هو ﴿الذي كنتم﴾ تكذّبون به في الدنيا وتنكرون وقوعه.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦﴾

١٨ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع عن التكذيب ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ ما كتب من أعمالهم. والأبرار: المطيعون الذين لا يطفّفون، ويؤمنون بالبعث؛ لأنّه ذكر في مقابلة ﴿الفجّار﴾ وبيّن الفجّار بأنّهم المكذّبون بيوم الدين. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: البرّ: الذي لا يؤذي الذرّ ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ هو علم لديوان الخير؛ الذي دوّن فيه كلّ ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين. منقول من جمع: عِلّيّ، فِعّيلٌ، من العلوّ. سمّي به؛ لأنّه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنّة. أو: لأنّه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيُّون تكريماً له.

١٩ ـ ٢١ ـ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ ما الذي أعلمك يا محمّد ﴿مَا عِلِّيُّونَ﴾ [أيّ شيءٍ][(١)] هو؟ ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ * يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ تحضره الملائكة. قيل: يشهد عمل الأبرار مقرّبو كلّ سماء إذا رفع.

٢٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ تنعّم في الجنان.

٢٣ ـ ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ الأسرّة في الحجال ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى كرامة الله ونعمه وإلى أعدائهم كيف يعذّبون.

٢٤ ـ ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ بهجة التنعّم وطراوته.

٢٥، ٢٦ ـ ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ﴾ شراب خالص ﴿مَّخۡتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ تختم أوانيه بمسك بدل الطين الذي يختم به الشراب في الدنيا. أمر الله تعالى بالختم عليه إكراماً لأصحابه. أو: ﴿ختامه مسك﴾ مقطعه رائحة مسك. أي: توجد رائحة المسك عند خاتمة شربه. (خاتَمه) عليٌّ ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ الرحيق، أو النعيم ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ فليرغب الراغبون. وذا إنّما يكون بالمسارعة إلى الخيرات، والانتهاء عن السيّئات.

(١) في الأصل المخطوط: أيش.

وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾

٢٧ - ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ ومزاج الرحيق ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ هو علم لعين بعينها سمّيت بالتسنيم؛ الذي هو مصدر: سنّمه: إذا رفعه، لأنّها أرفع شراب في الجنّة. أو: لأنها تأتيهم من فوق، وتنصبُّ في أوانيهم.

٢٨ - ﴿عَيْنًا﴾ حال أو نصب على المدح ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: منها ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. عن ابن مسعود رضي الله عنه: يشربها المقرّبون صرفاً، وتمزج لأصحاب اليمين.

٢٩ - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ كفروا ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ في الدنيا استهزاءً بهم.

٣٠ - ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ يشير بعضهم إلى بعض بالعين طعناً فيهم، وعيباً لهم. قيل: جاء عليٌّ - رضي الله عنه - في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون، وضحكوا، وتغامزوا، وقالوا: أترون هذا الأصلع؟ فنزلت قبل أن يصل عليٌّ إلى رسول الله ﷺ.

٣١ - ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ أي: إذا رجع الكفّار إلى منازلهم ﴿ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ متلذّذين بذكرهم، والسخرية منهم. وقرأ غير حفص ﴿فاكهين﴾ أي: فرحين.

٣٢ - ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ رأى الكافرون المؤمنين ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي: خدع محمّد ﷺ هؤلاء، فضلّوا، وتركوا اللّذات، لما يرجونه في الآخرة من الكرامات، فقد تركوا الحقيقة بالخيال، وهذا هو عين الضلال.

٣٣ - ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟﴾ وما أرسل الكفّار ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين ﴿حَٰفِظِينَ﴾ يحفظون عليهم أحوالهم، ويرقبون أعمالهم، بل أمروا بإصلاح أنفسهم، فاشتغالهم بذلك أولى بهم من تتبّع غيرهم وتسفيه أحلامهم.

فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

٣٤ ـ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ ثمَّ، كما ضحكوا منهم هنا مجازاةً.

٣٥ ـ ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ حال من ﴿يضحكون﴾. أي: ﴿يضحكون﴾ منهم ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار، بعد العزّة والاستكبار، وهم ﴿على الأرائك﴾ آمنون. وقيل: يفتح للكفّار باب إلى الجنّة فيقال لهم: هلمّوا إلى الجنّة، فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم فيضحك المؤمنون منهم.

٣٦ ـ ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ هل جوزوا بسخريتهم بالمؤمنين في الدنيا إذا فعل بهم ما ذكر؟!.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾

---

١ ـ ٥ ـ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ تصدّعت، وتشقّقت ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ سمعت وأطاعت وأجابت ربّها إلى الانشقاق، ولم تأب، ولم تمتنع ﴿وَحُقَّتْ﴾ وحقَّ لها أن تسمع وتطيع لأمر الله؛ إذ هي مصنوعة مربوبة لله تعالى ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ بسطت، وسوّيت باندكاك جبالها وكلِّ أمتٍ فيها ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ رمت ما في جوفها من الكنوز والموتى ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ وخلت غاية الخلو، حتى لم يبق شيءٌ في باطنها؛ كأنّها تكلّفت أقصى جهدها في الخلو. يقال: تكرّم الكريم: إذا بلغ جهده في الكرم، وتكلّف فوق ما في طبعه ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في إلقاء ما في بطنها وتخلّيها ﴿وَحُقَّتْ﴾ وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع. وحذف جواب ﴿إذا﴾ ليذهب المقدّر كلَّ مذهب، أو: اكتفاءً بما علم في مثلها من سورتي التكوير والانفطار، أو: جوابه: ما دلّ عليه ﴿فملاقيه﴾. أي: ﴿إذا السماء انشقّت﴾ لاقى الإنسان كدحه.

٦ ـ ٨ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ خطاب للجنس ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ جاهدٌ ﴿إلى﴾ لقاء ربك ﴿كدحاً﴾ وهو الموت، وما بعده من الحال الممثّلة باللقاء ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ الضمير للكدح، وهو: جهد النفس في العمل، والكدّ فيه؛ حتّى يؤثّر فيها.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾

والمراد: جزاء الكدح إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرٌّ. وقيل: لقاء كتاب فيه ذلك الكدح. يدلّ عليه قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: كتاب عمله ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ سهلاً هيّناً، وهو: أن يجازى على الحسنات، ويتجاوز عن السيّئات. وفي الحديث: «من يحاسب يعذّب» فقيل: فأين قوله: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾؟ قال: «ذلكم العرض. من نوقش في الحساب عذّب»(١).

٩ ـ ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين، أو: إلى فريق المؤمنين، أو: ﴿إلى أهله﴾ في الجنّة من الحور العين ﴿مَسْرُورًا﴾ فرحاً.

١٠ ـ ١٢ ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ قيل: تغلّ يمناه إلى عنقه، وتجعل شماله وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ يقول: وا ثبوراه! والثبور: الهلاك ﴿وَيَصْلَىٰ﴾ ـ عراقيٌّ غير عليٍّ ـ ﴿سَعِيرًا﴾ أي: ويدخل جهنّم.

١٣ ـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ في الدنيا ﴿فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ معهم ﴿مَسْرُورًا﴾ بالكفر، يضحك ممن آمن بالبعث. قيل: كان لنفسه متابعاً، وفي مراتع هواه راتعاً.

١٤ ـ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ لن يرجع إلى ربّه تكذيباً بالبعث. قال ابن عباس ـ رضي الله عنها ـ: ما عرفت تفسيره حتّى سمعت أعرابيّة تقول لبنتها: حوري. أي: ارجعي.

١٥ ـ ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد النفي في ﴿لن يحور﴾. أي: ﴿بلى﴾ ليحورنَّ ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ﴾ وبأعماله ﴿بَصِيرًا﴾ لا يخفى عليه، فلا بدّ أن يرجعه فيجازيه عليها.

١٦ ـ ١٩ ـ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ فأقسم بالبياض بعد الحمرة، أو الحمرة

(١) رواه البخاري (١٠٣) ومسلم (٢٨٧٦) (٨٠).

وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ جمع، وضمَّ. والمراد: ما جمعه من الظلمة والنجم. أو: ما عُمِلَ فيه من التهجّد وغيره ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ اجتمع وتمَّ بدراً ـ افتعل من الوسق ـ ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ أيها الإنسان على إرادة الجنس ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حالاً بعد حال، كلّ واحدةٍ مطابقةٌ لأختها في الشدّة والهول. فالطبق: ما طابق غيره. يقال: ما هذا بطبق لذا، أي: لا يطابقه. ومنه قيل للغطاء: الطبق. ويجوز أن يكون جمع: طبقة. وهي: المرتبة، من قولهم: هو على طبقات. أي: ﴿لتركبنَّ﴾ أحوالاً بعد أحوال؛ هي: طبقات في الشدّة، بعضها أرفع من بعض، وهي: الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها. ومحلُّ ﴿عن طبق﴾ نصب على أنّه صفة لـ﴿طبقاً﴾ أي: ﴿طبقاً﴾ مجاوزاً لطبق. أو: حال من الضمير في ﴿لتركبنَّ﴾ أي: ﴿لتركبنّ طبقاً﴾ مجاوزين لطبق. وقال مكحول: في كلّ عشرين عاماً تُحْدِثون أمراً لم تكونوا عليه. وبفتح الباء: مكّيٌّ وعليٌّ، وحمزةُ. والخطاب له ﷺ: أي: ﴿طبقاً﴾ من أطباق السماء بعد ﴿طبق﴾ أي: في المعراج.

٢٠، ٢١ ـ ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فمالهم ألاّ يؤمنوا ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩﴾ لا يخضعون.

٢٢، ٢٣ ـ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث والقرآن ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يجمعون في صدورهم، ويضمرون من الكفر وتكذيب النبيِّ ﷺ. أو: بما يجمعون في صحفهم من أعمال السوء، ويدّخرون لأنفسهم من أنواع العذاب.

٢٤، ٢٥ ـ ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أخبرهم خبراً يظهر أثره على بشرتهم. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناء منقطع ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ غير مقطوع. أو: غير منقوص.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾

١ ـ ٤ ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ هي: البروج الاثنا عشر. وقيل: النجوم. أو: عظام الكواكب ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أي ﴿وشاهد﴾ في ذلك اليوم ﴿ومشهود﴾ فيه. والمراد بالشاهد: من يشهد فيه من الخلائق كلِّهم، وبالمشهود فيه: ما في ذلك اليوم من عجائبه. وطريق تنكيرهما إمّا ما في قوله ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ كأنّه قيل: وما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود. وإمّا للإبهام في الوصف، كأنّه قيل: ﴿وشاهد ومشهود﴾ لا يكتنه وصفهما. وقد كثرت أقاويل المفسّرين فيهما. فقيل: محمد ﷺ ويوم القيامة. أو: عيسى ـ عليه السلام ـ وأمّته؛ لقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] أو: أمّة محمد، وسائر الأمم. أو: الحجر الأسود والحجيج. أو: الأيّام، والليالي، وبنو آدم، للحديث: «ما من يوم إلاّ وينادي: أنا يوم جديد، وعلى ما يفعل فيَّ شهيد. فاغتنمني»(١). أو: الحفظة وبنو آدم. أو: الله تعالى والخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨] أو: الأنبياء ومحمد

---

(١) رواه الديلمي (٦١٦٠) بنحوه.

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ﴾

عليهم السلام. وجوابُ القسم محذوف يدلّ عليه ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ أي: لعن. كأنّه قيل: أقسم بهذه الأشياء أنّهم ملعونون. يعني: كفّار قريش، كما لعن أصحاب الأخدود. وهو: [جمع](١) خدٍّ أي: شقّ عظيم في الأرض. روي عن النبيّ ﷺ: «أنّه كان لبعض الملوك ساحر، فلمّا كبر ضمّ إليه غلاماً ليعلمه السحر. وكان في طريق الغلام راهب فسمع منه. فرأى في طريقه ذات يوم دابّة قد حبست الناس، فأخذ حجراً فقال: اللّهم إن كان الراهب أحبّ إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها. فكان الغلام بعد ذلك يبرىء الأكمه والأبرص. وعمي جليس للملك فأبرأه. فأبصره الملك فسأله: من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربّي. فغضب، فعذّبه، فدلّ على الغلام، فعذّبه، فدلّ على الراهب، فلم يرجع الراهب عن دينه، فقدَّ بالمنشار. وأبى الغلام فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا، فرجف بالقوم، فطاحوا، ونجا. فذهب به إلى قرقور(٢)، فلجَجوا به ليغرقوه، فدعا فانكأفت بهم السفينة، فغرقوا. فقال للملك: لست بقاتلي حتّى تجمع الناس في صعيد، وتصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي، وتقول: باسم الله ربّ الغلام، ثمّ ترميني به. فرماه، فوقع في صدغه، فوضع يده عليه ومات. فقال الناس: آمنّا بربّ الغلام. فقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر. فخدّ أخدوداً، وملأها ناراً، فمن لم يرجع عن دينه طرحه فيها، حتّى جاءت امرأة معها صبيٌّ، فتقاعست أن تقع فيها، فقال الصبيُّ: يا أمّاه! اصبري، فإنّك على الحقّ. فألقي الصبيّ وأمّه فيها»(٣).

٥ ـ ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدلُ اشتمال من ﴿الأخدود﴾ ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ وصفٌ لها بأنّها عظيمة، لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير، وأبدان الناس.

٦ ـ ﴿إِذْ﴾ ظرف لـ ﴿قتل﴾ أي: لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها

---

(١) ما بين حاصرتين سقط من الأصل المخطوط.

(٢) «القُرْقُور»: السفينة العظيمة.

(٣) رواه أحمد (١/٥، ١٣) ومسلم (٣٠٠٥).

هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ
بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

﴿هُمْ عَلَيْهَا﴾ أي: الكفّار على ما يدنو منها من حافات الأخدود ﴿قُعُودٌ﴾ جلوس على الكراسيّ.

٧ ـ ﴿وَهُمْ﴾ أي: الكفّار ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإحراق ﴿شُهُودٌ﴾ يشهد بعضهم لبعض عند الملك: أنّ أحداً منهم لم يفرّط فيما أمر به، وفوّض إليه من التعذيب.

وفيه: حثّ للمؤمنين على الصبر، وتحمّل أذى أهل مكّة.

٨، ٩ ـ ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ﴾ وما عابوا منهم وما أنكروا إلاّ الإيمان كقوله:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم ... ...[1]

وقوله:

ما نقموا من بني أميّة إلـ لا أنّهم يحلمون إن غضبوا

وقرىء ﴿نقِموا﴾ بالكسر. والفصيح هو الفتح.

﴿بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ذكر الأوصاف التي تستحقّ بها أن تؤمن به، وهو كونه: عزيزاً، غالباً، قادراً، يخشى عقابه، حميداً، منعماً، يجب له الحمد على نعمته، ويرجى ثوابه ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكلّ من فيهما يحقُّ عليه عبادته، والخشوع له تقريراً؛ لأنّ ما نقموا منهم هو الحقّ الذي لا ينقمه إلاّ مبطل، وأنّ الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذابٍ عظيم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وعيدٌ لهم. يعني: أنّه علم ما فعلوا، وهو مجازيهم عليه.

١٠ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يجوز أن يريد بالذين فتنوا: أصحاب الأخدود خاصّة، وبالذين آمنوا: المطروحين في الأخدود. ومعنى فتنوهم: عذبوهم بالنار، وأحرقوهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ يرجعوا عن كفرهم ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ في الدنيا؛ لما روي: أنّ النار

(١) صدر بيت، وعجزه: بهن فلولٌ من قراع الكتائبِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

انقلبت عليهم فأحرقتهم. ويجوز أن يريد: الذين فتنوا المؤمنين. أي: بلوهم بالأذى على العموم، والمؤمنين: المفتونين، وأنّ للفاتنين عذابين في الآخرة؛ لكفرهم، ولفتنتهم.

١١ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: الذين صبروا على تعذيب الأخدود. أو هو عامٌّ.

١٢ ـ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ البطش: الأخذ بالعنف. فإذا وصف بالشدّة؛ فقد تضاعف، وتفاقم. والمراد: أخذ الظلمة والجبابرة بالعذاب والانتقام.

١٣ ـ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: يخلقهم ابتداءً، ثمّ يعيدهم بعد أن صيّرهم تراباً. دلّ باقتداره على الإبداء والإعادة على شدّة بطشه. أو: أوعد الكفرة بأنّه يعيدهم؛ كما أبدأهم؛ ليبطش بهم؛ إذ لم يشكروا نعمة الإبداء، وكذّبوا بالإعادة.

١٤ ـ ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ الساتر للعيوب، العافي عن الذنوب ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ المحبّ لأوليائه. وقيل: الفاعل بأهل الطاعة ما يفعله الودود من إعطائهم ما أرادوا.

١٥ ـ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خالقه ومالكه ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾[1] حمزةُ، وعليٌّ على أنّه صفة للعرش. ومجد الله: عظمته. ومجد العرش: علوّه وعظمه.

١٦ ـ ﴿فَعَّالٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿لِّمَا يُرِيدُ﴾ تكوينه، فيكون فيه دلالة خلق أفعال العباد.

١٧ ـ ٢٠ ـ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ خبر الجموع الطاغية في الأمم الخالية ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بدل من الجنود. وأراد بفرعون: إيّاه وآله. والمعنى: قد عرفت تكذيب تلك الجنود للرسل، وما نزل بهم لتكذيبهم ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من قومك

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿المجيدِ﴾ بالكسر، وهي قراءة من ذكرهم.

فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ واستيجاب للعذاب، ولا يعتبرون بالجنود، لا لخفاء حال الجنود عليهم، لكن يكذّبونك عناداً ﴿والله من ورائهم محيط﴾ عالم بأحوالهم، وقادر عليهم، وهم لا يعجزونه. والإحاطة بهم من ورائهم مَثَلٌ؛ لأنّهم لا يفوتونه؛ كمالا يفوت فائت الشيء المحيط به.

٢١، ٢٢ ـ ﴿بَلْ هُوَ﴾ هذا الذي كذّبوا به ﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ شريفٌ، عالي الطبقة في الكتب، وفي نظمه، وإعجازه، ليس كما يزعمون: أنّه مفترى، وأنّه أساطير الأوّلين ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ من وصول الشياطين ﴿محفوظٌ﴾ نافع صفة للقرآن. أي: من التغيير والتبديل. واللوح عند الحسن: شيءٌ يلوح للملائكة فيقرؤونه. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هو: من درّة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، قلمه نور، وكلُّ شيءٍ فيه مسطور. مقاتل: هو: على يمين العرش. وقيل: أعلاه معقود بالعرش، وأسفله في حِجْرِ ملك كريم.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾

---

١ ـ ٤ ـ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ عظّم قدر السّماء في أعين الخلق لكونها معدن رزقهم، ومسكن ملائكته، وفيها خلق الجنّة، فأقسم بها وبالطارق. والمراد: جنس النجوم، أو: جنس الشهب التي يرجم بها لعظم منفعتها. ثمّ فسّره بالنجم الثاقب. أي: المضيء، كأنّه يثقب الظلام فينفذ فيه. ووصف بالطارق؛ لأنّه يبدو بالليل، ما يقال للآتي ليلاً: طارق. أو: لأنه يطرق الجنّيَّ، أي: يصكّه. وجواب القسم ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ لأنَّ ﴿لمّا﴾ إن كانت مشدّدة بمعنى إلاّ، كقراءة عاصم، وحمزة، وابن عامر، فتكون ﴿إن﴾ نافية أي: ما ﴿كلّ نفس﴾ إلاّ ﴿عليها حافظ﴾. وإن كانت مخفّفة كقراءة غيرهم، فتكون ﴿إن﴾ مخفّفة من الثقيلة. أي: ﴿إن كلّ نفس﴾ لعليها ﴿حافظ﴾ يحفظهامن الآفات أو يحفظ عملها ورزقها وأجلها فإذا استوفى ذلك مات. وقيل: هو كاتب الأعمال. فما زائدة. واللام فارقة بين النافية والخفيفة. و﴿حافظ﴾ مبتدأ و﴿عليها﴾ الخبر. والجملة خبر ﴿كلّ﴾ وأيّتهما كانت فهي ممّا يتلقّى به القسم.

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ
رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ
ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾

٥ ـ ٧ ـ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ لمّا ذكر أنّ على كلّ نفس حافظاً أمره بالنظر في أوّل أمره، ليعلم: أنَّ من أنشأه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الجزاء، ولا يُملي على حافظه إلاّ ما يسرّه في عاقبته. و﴿مم خلق﴾ استفهام. أي: من أيّ شيءٍ خلق؟. جوابه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾. الدفق: صبٌّ في دفعٌ. والدفق في الحقيقة لصاحبه، والإسناد إلى الماء مجاز. وعن بعض أهل اللغة: دفقت الماء دفقاً: صببته. ودفق الماء بنفسه؛ أي: انصبَّ. ولم يقل: من ماءين لامتزاجهما في الرحم واتّحادهما حين ابتدىء في خلقه ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرأة. وهي: عظام الصدر؛ حيث تكون القلادة. وقيل: العظم والعصب من الرجل، واللحم والدم من المرأة.

٨، ٩ ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ الخالق، لدلالة ﴿خلق﴾ عليه. ومعناه: إنّ الذي خلق الإنسان ابتداءً من نطفةٍ ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ على إعادته خصوصاً ﴿لَقَادِرٌ﴾ لبيّن القدرة، لا يعجز عنه؛ كقوله: إنّني لفقير. ونصب ﴿يَوْمَ تُبْلَى﴾ ـ أي: تكشف ـ بـ ﴿رجعه﴾، أو: بمضمر دلّ عليه قوله ﴿رجعه﴾. أي: مبعثه ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾ ما أسَرّ في القلوب من العقائد، والنيّات، وما أخفى من الأعمال.

١٠ ـ ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ للإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ في نفسه على دفع ما حلّ به ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يعينه ويدفع عنه.

١١ ـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي: المطر. وسُمّي به لعوده كلّ حين.

١٢ ـ ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ هو ما تتصدّع عنه الأرض من النبات.

١٣، ١٤ ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنّ القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فاصل بين الحقّ والباطل كما قيل له: فرقان ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ باللعب والباطل. يعني: أنّه جدّ كلّه، ومن حقّه وقد وصفه الله بذلك أن يكون مهيباً في الصدور، معظّماً في القلوب، يترفع به قارئه وسامعه أن يلمّ بهزلٍ، أو يتفكّه بمزاحٍ.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

١٥ ـ ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني مشركي مكّة ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يعملون المكايد في إبطال أمر الله، وإطفاء نور الحقّ.

١٦ ـ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وأجازيهم جزاء كيدهم باستدراجي لهم من حيث لا يعلمون، فسمّي جزاء الكيد: كيداً، كما سمّي جزاء الاعتداء والسيّئة: اعتداءً، وسيئة، وإن لم يكن اعتداءً وسيّئةً. ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله تعالى إلاّ على وجه الجزاء كقوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

١٧ ـ ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا تدع بهلاكهم، ولا تستعجل به ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ أنظرهم. فكرّر، وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين والتصبير ﴿رُوَيْدًۢا﴾ إمهالاً يسيراً. ولا يتكلّم بها إلاّ مصغّرة. وهي من: رادت الريح، ترود، رَوْداً: تحرّكت حركةً ضعيفةً.

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤﴾

١ ـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ نزّه ذاته عمّا لا يليق به. والاسم: صلة، وذلك بأن يفسّر ﴿الأعلى﴾ بمعنى العلوّ؛ الذي هو القهر، والاقتدار، لا بمعنى العلوّ في المكان. وقيل: قل: سبحان ربّي الأعلى. وفي الحديث: لمّا نزلت قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»(١).

٢ ـ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: ﴿خلق﴾ كلَّ شيءٍ ﴿فسوى﴾ خلقه تسويةً ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ولكن على إحكام واتّساق، ودلالةٍ على أنّه صادر عن عالمٍ حكيم. أو: سوّاه على ما فيه منفعته، ومصلحته.

٣ ـ ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي: ﴿قدّر﴾ لكلّ حيوانٍ ما يصلحه، فهداه إليه، وعرّفه وجه الانتفاع به. أو: ﴿فهدى﴾ وأضلَّ. ولكن حذف «وأضلّ» اكتفاءً، كقوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣] ﴿قدَر﴾ عليٌّ.

٤ ـ ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ أنبت ما ترعاه الدوابُّ.

(١) رواه أبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧) والدارمي (١/ ٢٩٩).

فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾

٥ ـ ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾ يابساً هشيماً ﴿أَحْوَىٰ﴾ أسود. فـ﴿أحوى﴾ صفة لـ﴿غثاءً﴾.

٦، ٧ ـ ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ سنعلمك القرآن حتّى لا تنساه ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن ينسخه. وهذا بشارة من الله لنبيّه أن يحفظ عليه الوحي؛ حتّى لا ينفلت منه شيءٌ؛ إلاّ ما شاء الله أن ينسخه، فيذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته. وسأل ابن كيسان النحويّ جنيداً عنه فقال: ﴿فلا تنسى﴾ العمل به فقال: مثلك يصدّر. وقيل: قوله: ﴿فلا تنسى﴾ على النهي. والألف مزيدة للفاصلة، كقوله: ﴿ٱلسَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]. أي: فلا تُغْفِل قراءته، وتكريره، فتنساه ﴿إلاّ ما شاء الله﴾ أن ينسيكه برفع تلاوته ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي: إنّك تجهر بالقرآن مع قراءة جبريل ـ عليه السلام ـ مخافة التفلّت، والله يعلم جهرك معه، وما في نفسك ممّا يدعوك إلى الجهر. أو: ما تقرأ في نفسك مخافة النسيان. أو: يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم، وما ظهر وما بطن من أحوالكم.

٨ ـ ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ معطوف على ﴿سنقرئك﴾ وقوله: ﴿إنّه يعلم الجهر وما يخفى﴾ اعتراض. ومعناه: ونوفّقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل. يعني حفظ الوحي. وقيل: للشريعة السمحة التي هي أيسر الشرائع، أو: نوفّقك لعمل الجنّة.

٩ ـ ﴿فَذَكِّرْ﴾ عظ بالقرآن ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ جواب ﴿إن﴾ مدلول قوله: ﴿فذكّر﴾. قيل: ظاهره شرط، ومعناه استبعاد لتأثير الذكرى فيهم. وقيل: هو أمر بالتذكير على الإطلاق كقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] غير مشروط بالنفع.

١٠، ١١ ـ ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ سيتّعظ ويقبل التذكرة ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ الله وسوء العاقبة ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ ويتباعد عن الذكرى فلا يقبلها ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ الكافر، أو: الذي هو أشقى الكفرة؛ لتوغّله في عداوة رسول الله ﷺ. قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة.

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ
رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى
ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

١٢، ١٣ ـ ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ يدخل نار جهنّم. والصغرى: نار الدنيا ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة يتلذّذ بحياته. وقيل بـ﴿ثمّ﴾: لأنّ الترجّح بين الحياة والموت أفظع من الصليّ، فهو متراخٍ عنه في مراتب الشدّة.

١٤ ـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ نال الفوز ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهّر من الشرك، أو: تطهّر للصلاة، أو: أدّى الزكاة. تفعّل من الزكاة، كتصدّق من الصدقة.

١٥ ـ ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ وكبّر للافتتاح ﴿فَصَلَّىٰ﴾ الخمس. وبه يحتجّ على وجوب تكبيرة الافتتاح، وعلى أنّها ليست من الصلاة؛ لأنّ الصلاة عطفت عليها، وهو يقتضي المغايرة؛ وعلى أنّ الافتتاح جائز بكلّ اسم من أسمائه عزّ وجلّ. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ذكر معاده ووقوفه بين يدي ربّه فصلّى له. وعن الضحاك: ﴿وذكر اسم ربّه﴾ في طريق المصلّى ﴿فصلّى﴾ صلاة العيد.

١٦ ـ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على الآخرة، فلا تفعلون ما به تفلحون. والمخاطب به الكافرون. دليله: قراءة أبي عمرو ﴿يؤثرون﴾ بالياء.

١٧ ـ ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أفضل من نفسها وأدوم.

١٨ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ «هذا»: إشارة إلى قوله ﴿قد أفلح﴾ إلى ﴿أبقى﴾. أي: إنّ معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف. أو: إلى ما في السورة كلّها. وهو دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسيّة في الصلاة؛ لأنّه جعله مذكوراً في تلك الصحف مع أنّه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة.

١٩ ـ ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ بدل من ﴿الصحف الأولى﴾. وفي الأثر: وفي صحف إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه، عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا
حَامِيَةً ﴿٤﴾

---

١ ـ ﴿هَلْ﴾ بمعنى: قد ﴿أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها. يعني: القيامة. وقيل: النار. من قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

٢ ـ ٦ ـ ﴿وُجُوهٌ﴾ أي: وجوه الكفّار. وإنّما خصّ الوجه؛ لأنّ الحزن والسرور إذا استحكما في المرء أثّرا في الوجه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ غشيت ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة لما اعترى أصحابها من الخزي والهوان ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ تعمل في النار عملاً تتعب فيه، وهو جرُّها السلاسل، والأغلال، وخوضها في النار؛ كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقاؤها دائبةً في صعودٍ من نار، وهبوطها في حدور منها. وقيل: عملت في الدنيا أعمال السوء، والتذّت بها، وتنعّمت، فهي في نصب منها في الآخرة. وقيل: هم أصحاب الصوامع. ومعناه: أنّها خشعت لله، وعملت، ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب، والتهجّد الواصب ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ تدخل ناراً قد أحميت مدداً طويلة، فلا حرَّ يعدل حرَّها ﴿تُصلى﴾

تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا
عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ

أبو بكر وأبو عمرو ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ من عين ماء قد انتهى حرُّها. والتأنيث في هذه الصفات والأفعال راجع إلى الوجوه. والمراد: أصحابها؛ بدليل قوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وهو نبت يقال لِرَطْبه: الشِّبرق. فإذا يبس فهو ضريع. وهو سمٌّ قاتل. والعذاب ألوان، والمعذّبون طبقات. فمنهم أكلة الزقّوم. ومنهم أكلة الغسلين. ومنهم أكلة الضريع. ولا تناقض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦].

٧ ـ ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ مجرور المحل؛ لأنه وصف ﴿ضريع﴾ ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾. أي: منفعتا الغذاء منتفيتان عنه، وهما: إماطة الجوع، وإفادة السِّمن في البدن.

٨ ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ ثم وصف وجوه المؤمنين. ولم يقل: ووجوه؛ لأنّ الكلام الأوّل قد طال وانقطع ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ متنعّمة في لين العيش.

٩ ـ ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ رضيت بعملها وطاعتها لما رأت ما أدّاهم إليه من الكرامة والثواب.

١٠ ـ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ من علوّ المكان أو المقدار.

١١ ـ ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطب، أو: الوجوه ﴿فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أي: لغواً، أو: كلمة ذات لغو، أو: نفساً تلغو. لا يتكلّم أهل الجنّة إلاّ بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم ﴿لا يُسمع فيها لاغيةٌ﴾ مكّيٌّ، وأبو عمرو. ﴿لا تُسمع فيها لاغيةٌ﴾ نافع.

١٢ ـ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: عيون كثيرة؛ كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤].

١٣ ـ ﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾ جمع سرير ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ من رفعة المقدار، أو: السمك؛ ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوّله ربّه من الملك والنعيم.

١٤ ـ ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب. وهو القدح. وقيل: آنية لا عروة لها

مَّوۡضُوعَةٞ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ
خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ
سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾

﴿مَّوۡضُوعَةٞ﴾ بين أيديهم؛ ليتلذّذوا بها بالنظر إليها. أو: موضوعة على حافات العيون معدّة للشرب.

١٥ ـ ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد ﴿مَصۡفُوفَةٞ﴾ بعضها إلى جنب بعض مساند ومطارح أينما أراد أن يجلس جلس على مِسْوَرة واستند إلى الأخرى.

١٦ ـ ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ وبسط عراض فاخرة. جمع: زِرْبيّة ﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾ مبسوطة، أو: مفرّقة في المجالس.

١٧ ـ ٢٠ ـ ولمّا أنزل الله تعالى هذه الآيات في صفة الجنّة، وفسّر النبيُّ ﷺ: بأنّ ارتفاع السرر يكون مئة فرسخ، والأكواب الموضوعة لا تدخل في حساب الخلق لكثرتها، وطول النمارق كذاً، وعرض الزرابيِّ كذا؛ أنكر الكفّار وقالوا: كيف يصعد على هذا السرير، وكيف تكثر الأكواب هذه الكثرة، وتطول النمارق هذا الطول، وتنبسط الزرابيِّ هذا الانبساط، ولم نشاهد ذلك في الدنيا؟! فقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ طويلة، ثمّ تبرك حتّى تركب، و يحمل عليها، ثمَّ تقوم. فكذا السرير يطأطىء للمؤمن كما يطأطىء الإبل، ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ رفعاً بعيد المدى بلا إمساك وعمد، ثمّ نجومها تكثر هذه الكثرة فلا تدخل في حساب الخلق، فكذلك الأكواب، ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾ نصباً ثابتاً، فهي راسخة لا تميل مع طولها، فكذا النمارق، ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ سطحها بتمهيد وتوطئة، فهي كلّها بساطٌ واحدٌ، ينبسط من الأفق إلى الأفق، فكذا الزرابيُّ. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿أفلا ينظرون إلى﴾ هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق؛ حتّى لا ينكروا اقتداره على البعث، فيسمعوا إنذار الرسول، ويؤمنوا به، ويستعدّوا للقائه. وتخصيص هذه الأربعة باعتبار أنّ هذا خطاب للعرب وحثٌّ لهم على الاستدلال. والمرء إنّما يستدلّ بما تكثر مشاهدته له. والعرب تكون في البوادي، ونظرهم فيها إلى السماء والأرض والجبال، والإبل أعزّ أموالهم، وهم لها أكثر استعمالاً منهم لسائر

فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

الحيوانات؛ لأنّها تجمع جميع المآرب المطلوبة من الحيوان، وهي: النسل، والدرّ، والحمل، والركوب، والأكل بخلاف غيرها، فإنّه سخرها منقادةً لكلّ من اقتادها بأزمّتها، لا تعازّ ضعيفاً، ولا تمانع صغيراً، وبرأها طوال الأعناق؛ لتنوء بالأوقار، وجعلها بحيث تبرك حتّى تحمّل عن قرب ويسرٍ، ثمّ تنهض بما حملت، وتجرّها إلى البلاد الشاحطة[1]. وصبّرها على احتمال العطش؛ حتّى إنَّ ظِمْأها[2] ليرتفع إلى العشر فصاعداً، وجعلها ترعى كلّ نابت في البراري ممّا لا يرعاه سائر البهائم.

٢١ ـ ﴿فَذَكِّرْ﴾ هم بالأدلة ليتفكّروا فيها ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ليس عليك إلاّ التبليغ.

٢٢ ـ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ بمتسلطٍ. كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] ﴿بمصيطر﴾ مدنيٌّ، وبصريٌّ، وعاصم، وعليٌّ.

٢٣، ٢٤ ـ ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ الاستثناء منقطع. أي: لست بمستولٍ عليهم. ولكن من تولىّ منهم، وكفر بالله؛ فإن لله الولاية عليه والقهر، فهو يعذّبه العذاب الأكبر، وهو عذاب جهنّم. وقيل: هو استثناء من قوله: ﴿فذكّر﴾. أي: ﴿فذكّر . . . إلاّ من﴾ انقطع طمعك من إيمانه و ﴿تولىّ﴾ فاستحقّ ﴿العذاب الأكبر﴾. وما بينهما اعتراض.

٢٥ ـ ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم. وفائدة تقديم الظرف: التشديد في الوعيد، وأنَّ إيابهم ليس إلاّ إلى الجبّار المقتدر على الانتقام.

٢٦ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ فيحاسبهم على أعمالهم، ويجازيهم بها جزاء أمثالهم. و﴿على﴾ لتأكيد الوعيد لا للوجوب؛ إذ لا يجب على الله شيءٌ.

* * *

(١) «الشاحطة»: البعيدة.
(٢) «الظِّمء»: حبس الإبل عن الماء إلى غاية الورد.



بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾

١ ـ ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر، وهو الصبح، كقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]. أو: بصلاة الفجر.

٢ ـ ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ عشر ذي الحجة. أو: العشر الأول من المحرّم. أو: من الأواخر من رمضان. وإنّما نكّرت لزيادة فضيلتها.

٣ ـ ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ شفع كلّ الأشياء ووترها. أو: شفع هذه الليالي ووترها. أو: شفع الصلاة ووترها. أو: يوم النحر؛ لأنّه اليوم العاشر، ويوم عرفة؛ لأنّه اليوم التاسع. أو: الخلق والخالق ﴿والوِتر﴾ حمزة وعليٌّ. وبفتح الواو غيرهما، وهما لغتان. فالفتح حجازيٌّ. والكسر تميميٌّ.

٤ ـ بعد ما أقسم بالليالي المخصوصة أقسم بالليل على العموم فقال: ﴿وَاللَّيْلِ﴾. وقيل: أريد به ليلة القدر ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ إذا يمضي. وياء ﴿يسر﴾ تحذف في الدرج اكتفاءً عنها بالكسرة. وسأل واحدٌ الأخفش عن سقوط الياء، فقال: لا، حتّى تخدمني سنة. فسأله بعد سنة فقال: الليل لا يسري، إنّما يُسرى فيه،

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾

فلمّا عدل عن معناه عدل عن لفظه موافقةً. وقيل: معنى ﴿يسري﴾ يُسرى فيه، كما يقال: ليل نائم، أي: ينام فيه.

٥ ـ ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما أقسمت به من هذه الأشياء ﴿قَسَمٌ﴾ أي: مقسم به ﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾ عقل؟ سُمِّي به؛ لأنّه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي، كما سُمِّي عقلاً ونُهْيَةً؛ لأنّه يعقل، وينهى. يريد: هل يحقُّ عنده أن يُعَظِّمَ بالإقسام بها؟ أو: ﴿هل في﴾ إقسامي بها إقسام ﴿لذي حجر﴾؟ أي: هل هو قسم عظيم يؤكّد بمثله المقسم عليه؟ أو: هل في القسم بهذه الأشياء قسم مقنع لذي عقل ولبّ؟ والمقسم عليه محذوف. وهو قوله: ليعذبنّ. يدلّ عليه قوله: ﴿ألم تر﴾ إلى قوله: ﴿فصبّ عليهم ربّك سوط عذاب﴾.

٦، ٧ ـ ثمّ ذكر تعذيب الأمم التي كذّبت الرسل فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: ألم تعلم يا محمّد علماً يوازي العِيانَ في الإيقان؟ وهو استفهام تقرير. قيل لعقب عاد بن عَوْصٍ بن إرم بن سام بن نوح: عاد. كما يقال لبني هاشم: هاشم. ثمّ قيل للأوّلين منهم: عاد الأولى. و«إرم»: تسمية لهم باسم جدّهم. ولمن بعدهم: عاد الأخيرة. فإرم عطف بيان لعاد، وإيذان: أنّهم عاد الأولى القديمة. وقيل: إرم بلدتهم وأرضهم التي كانوا فيها. ويدلّ عليه قراءة ابن الزبير ﴿بعادِ*إرَمَ﴾ على الإضافة. وتقديره: بعاد أهل إرم؛ كقوله: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ولم تنصرف قبيلةً كانت أو أرضاً للتعريف والتأنيث. و﴿ذات العماد﴾ إذا كانت صفة للقبيلة فالمعنى: أنّهم كانوا بدويّين أهل عمد. أو: طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة. وإن كانت صفة للبلدة فالمعنى: أنّها ذات أساطين.

وروي: أنّه كان لعاد ابنان شدّاد وشديد، فملكا وقهرا، ثمّ مات شديد، وخلص الأمر لشدّاد، فملك الدنيا، ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنّة فقال: أبني مثلها، فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلاثمئة سنة. وكان عمره تسعمئة سنة. وهي: مدينةٌ عظيمةٌ، قصورها من الذهب والفضّة، وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار. ولمّا تمّ

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾

بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلمّا كان منها على مسيرة يوم وليلةٍ بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا.

وعن عبد الله بن قلابة: أنّه خرج في طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه ممّا ثمّ. وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقصَّ عليه، فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي إرم ذات العماد. وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر، أشقر، قصير على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبلٍ له. ثمّ التفت فأبصر ابن قلابة [فقال][1]: هذا والله ذلك الرجل[2].

٨ ـ ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: مثل عادٍ في قوّتهم، وطول قامتهم. كان طول الرجل منهم أربعمئة ذراع. أو: لم يخلق مثل مدينة شدّاد في جميع بلاد الدنيا.

٩ ـ ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾ قطعوا صخر الجبال، واتّخذوا فيها بيوتاً. قيل: أوّل من نحت الجبال والصخور ثمود. وبنوا ألفاً وسبعمئة مدينةٍ كلّها من الحجارة ﴿بِٱلْوَادِ﴾ بوادي القرى.

١٠ ـ ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي: ذي الجنود الكثيرة. وكانت لهم مضاربُ كثيرةٌ يضربونها إذا نزلوا. وقيل: كان له أوتاد يعذّب الناس بها؛ كما فعل بآسية.

١١، ١٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلّ النصب على الذمّ. أو: الرفع على: هم ﴿الذين﴾. أو: الجرّ على وصف المذكورين عاد، وثمود، وفرعون ﴿طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ تجاوزوا الحدّ ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ بالكفر، والقتل، والظلم.

---

(١) ساقطة من الأصل المخطوط.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: وهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صحَّ إلى ذلك الأعرابي (ابن قلابة) فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهَوَس والخبل، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك. وهذا مما يُقطع بعدم صحّته. انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠٢).

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا

١٣ ـ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ مجاز عن إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه؛ إذ الصبّ يشعر بالدوام، والسوط بزيادة الإيلام. أي: عذّبوا عذاباً مؤلماً دائماً.

١٤ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ هو المكان الذي يُرْصَد؛ أي يترقّب فيه الرَّصَد. مفعال، من: رصده. وهذا مثلٌ؛ لإرصاده العباد، وأنهم لا يفوتونه، وأنّه عالم بما يصدر منهم، وحافظه، فيجازيهم عليه، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

١٥ ـ ٢٠ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي: ضيّق عليه وجعله بمقدار بلغته ﴿فقدّر﴾ شاميٌّ، ويزيد ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي: الواجب لمن ربّه بالمرصاد أن يسعى للعاقبة ولا تهمّه العاجلة. وهو قد عكس. فإنّه إذا امتحنه ربّه بالنعمة والسعة ليشكر قال: ربّي أكرمني. أي: فضّلني بما أعطاني. فيرى الإكرام في كثرة الحظّ من الدنيا. وإذا امتحنه بالفقر فقدر عليه رزقه ليصبر قال: ربّي أهانني فيرى الهوان في قلّة الحظّ من الدنيا؛ لأنّه لا تهمّه إلاّ العاجلة وما تلذّه وتُنعِّمه فيها. فردّ عليه زعمه بقوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الإكرام والإهانة في كثرة المال وقلّته، بل الإكرام في توفيق الطاعة، والإهانة في الخذلان. وقوله تعالى: ﴿فيقول﴾ خبر المبتدأ الذي هو ﴿الإنسان﴾ ودخول الفاء لما في ﴿أمّا﴾ من معنى الشرط. والظرف المتوسّط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير. كأنّه قيل ﴿فأمّا الإنسان﴾ فقائل ربّي أكرمني وقت الابتلاء. وكذا ﴿فيقول﴾ الثاني خبر المبتدأ وتقديره: ﴿وأمّا﴾ هو ﴿إذا ما ابتلاه﴾ ربّه. وسمّى كلا الأمرين ـ من بسط الرزق وتقديره ـ ابتلاءً؛ لأنّ كلَّ واحدٍ منهما اختبار للعبد. فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر. وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وإنما أنكر قوله: ﴿ربّي أكرمن﴾. مع أنه أثبته بقوله ﴿فأكرمه﴾ لأنّه قال على قصد خلاف

بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ
ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا
دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ
ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾

ما صحّحه الله عليه وأثبته وهو قصده إلى أنّ الله أعطاه ما أعطاه إكراماً له لاستحقاقه كقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] وإنّما أعطاه الله تعالى ابتلاءً من غير استحقاق منه.

﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: بل هناك شرّ من هذا القول. وهو أنّ الله يكرمهم بالغنى فلا يؤدُّون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالمبرّة، وحضّ أهله على طعام المسكين ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ الميراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ ذا لمّ. وهو الجمع بين الحلال والحرام. وكانوا لا يورّثون النساء والصبيان، ويأكلون تراثهم مع تراثهم ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ﴾. يقال: حبّه وأحبّه بمعنى ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ كثيراً شديداً مع الحرص ومنع الحقوق ﴿رَبِّيَ﴾ حجازيٌّ، وأبو عمرو ﴿يكرمون﴾ ﴿ولا يحضّون﴾ ﴿ويأكلون﴾ ﴿ويحبّون﴾ بصريٌّ.

٢١ ـ ٢٤ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم عن ذلك، وإنكارٌ لفعلهم. ثمّ أتى بالوعيد، وذكر تحسّرهم على ما فرّطوا فيه حين لا تنفع الحسرة فقال: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ إذا زلزلت ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ دكّاً بعد دكّ. أي: كرّر عليها الدكّ حتّى عادت هباءً منبثاً ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ـ تمثيلٌ لظهور آيات اقتداره، وتبيين آثار قهره وسلطانه. فإنّ واحداً من الملوك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور عساكره وخواصّه. وعن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ: أمره وقضاؤه ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: ينزل ملائكة كلّ سماء، فيصطفّون صفّاً بعد صفّ، محدقين بالجنّ والإنس ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ قيل: إنّها بُرِّزت لأهلها كقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١] وقيل: هو مُجْرى على حقيقته. ففي الحديث: «يؤتى بجهنّم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يجرّونها»[1] ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يتّعظ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ومن

(١) رواه مسلم (٢٨٤٢) والترمذي (٢٥٨٧).

يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

أين له منفعة الذكرى؟ ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ هذه، وهي حياة الآخرة، أي: يا ليتني قدّمت الأعمال الصالحة في الحياة الفانية لحياتي الباقية.

٢٥، ٢٦ ـ ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ أي: لا يتولّى عذاب الله أحد لأنّ الأمر لله وحده في ذلك اليوم ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بالسلاسل والأغلال ﴿وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾. قال صاحب الكشّاف: لا يعذّب أحدٌ أحداً كعذاب الله، ولا يوثق أحدٌ أحداً كوثاق الله ﴿لا يعذَّب﴾ ﴿ولا يوثَق﴾ عليٌّ. وهي قراءة رسول الله ﷺ. ورجع إليها أبو عمرو في آخر عمره. والضمير يرجع إلى الإنسان الموصوف، وهو الكافر. وقيل: هو أبيّ بن خلف. أي: ﴿لا يعذَّب﴾ أحدٌ مثل عذابه ﴿ولا يوثَق﴾ بالسلاسل مثل وثاقه؛ لتناهيه في كفره وعناده.

ثمّ يقول الله تعالى للمؤمن: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ﴾ إكراماً له، كما كلّم موسى عليه السلام، أو يكون على لسان ملك ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ الآمنة؛ التي لا يستفزُّها خوفٌ ولا حزنٌ. وهي النفس المؤمنة، أو المطمئنّة إلى الحقّ؛ التي سكّنها ثلج اليقين، فلا يخالجها شكّ. ويشهد للتفسير الأوّل قراءة أبيٍّ: (يا أيتُها النفس الآمنة المطمئنّة) ـ وإنّما يقال لها عند الموت، أو عند البعث، أو عند دخول الجنّة: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ﴾ موعد ﴿رَبِّكِ﴾ أو ثواب ربّك ﴿رَاضِيَةٗ﴾ من الله بما أوتيت ﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾ عند الله بما عملت ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ في جملة عبادي الصالحين، وانتظمي في سلكهم ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم. وقال أبو عبيدة: أي: مع عبادي، وبين عبادي. أي: خواصّي؛ كما قال: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وقيل: النفس: الروح. ومعناه: ﴿فادخلي في﴾ أجساد ﴿عبادي﴾ لقراءة عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ (في جسد عبدي). ولمّا مات ابن عباس بالطائف جاء طائر لم يُرَ على خلقته، فدخل في نعشه، فلمّا دُفن تليت هذه الآية على شفير القبر ولم يُدْرَ من تلاها. قيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب. وقيل: في خُبَيْبٍ الذي صلبه أهل مكّة. وقيل: هي عامّة للمؤمنين؛ إذ العبرة لعموم اللفظ، لا لخصوص السبب.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾

١، ٢ ـ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أقسم سبحانه وتعالى بالبلد الحرام، وبما بعده على أنّ الإنسان خلق مغموراً في مكابدة المشاقّ والشدائد. واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي: ومن المكابدة: أنّ مثلك على عظم حرمتك يستحلّ بهذا البلد. يعني: مكّة كما يستحلّ الصيد في غير الحرم. عن شرحبيل: يحرّمون أن يقتلوا بها صيداً، ويستحلّون إخراجك وقتلك. وفيه تثبيت [لرسول][1] الله وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكّة، وتعجيب من حالهم في عداوته. أو سلّى رسول الله ﷺ بالقسم ببلده على أنّ الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد. واعترض بأنّ وعده فتح مكّة تتميماً للتسلية والتنفيس عنه فقال: ﴿وأنت حلّ بهذا البلد﴾ أي: ﴿وأنت حلّ﴾ به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر. وذلك: أنّ الله تعالى فتح عليه مكّة وأحلّها له، وما فتحت على أحدٍ قبله، ولا أحلّت له، فأحلَّ ما شاء وحرَّم ما شاء: قتل ابن خَطَل وهو متعلّق بأستار الكعبة، ومِقْيَس بن صُبَابة وغيرهما. وحرَّم دار

(١) في الأصل المخطوط: من رسول.

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ
أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا
وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ
رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ

أبي سفيان ونظير قوله: ﴿وأنت حلٌّ﴾ في الاستقبال قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وكفاك دليلاً على أنّه للاستقبال: أنّ السورة مكّيّة بالاتّفاق. وأين الهجرة من وقت نزولها؟ فما بال الفتح؟!

٣ ـ ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ هما آدم ـ عليه السلام ـ وولده. أو كلّ والدٍ وولده. أو: إبراهيم ـ عليه السلام ـ وولده ﴿وما﴾ بمعنى مَنْ أو بمعنى الذي.

٤ ـ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ جواب القسم ﴿فِى كَبَدٍ﴾ مشقّة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وعن ذي النون: لم يزل مربوطاً بحبل القضاء، مدعوّاً إلى الائتمار والانتهاء.

٥، ٦ ـ والضمير في ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ لبعض صناديد قريش؛ الذين كان رسول الله ﷺ يكابد منهم ما يكابد. ثمّ قيل: هو أبو الأشدّ. وقيل: الوليد بن المغيرة. والمعنى: أيظنّ هذا الصنديد القويُّ في قومه، المتضعّف للمؤمنين: أن لن تقوم قيامة، ولن يقدر على الانتقام منه. ثمّ ذكر ما يقوله في ذلك اليوم، وإنّه ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: كثيراً. جمع: لُبْدَة. وهو ما تلبّد. أي: كثر واجتمع. يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهليّة يسمُّونها مكارم ومعالي.

٧ ـ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق ما ينفق رياءً وافتخاراً. يعني: أنّ الله تعالى كان يراه، وكان عليه رقيباً.

٨ ـ ١٠ ـ ثمّ ذكر نعمه عليه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما المرئيّات ﴿وَلِسَانًا﴾ يعبر به عمّا في ضميره ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما ثغره، ويستعين بهما على النطق، والأكل، والشرب، والنفخ ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ طريقي الخير والشرّ، المفضيين إلى الجنّة والنار. وقيل: الثديين.

١١ ـ ١٧ ـ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ

ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾

ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني فلم يشكر تلك الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة من فكّ الرقاب، أو إطعام اليتامى، والمساكين، ثمّ بالإيمان الذي هو أصل كلّ طاعة، وأساس كلّ خير، بل غمط النعم وكفر بالمنعم. والمعنى: أنّ الإنفاق على هذا الوجه مرضيٌّ نافع عند الله، لا أن يهلك ماله لبداً في الرياء والفخار. وقلّما تستعمل «لا» مع الماضي إلاّ مكرّرة. وإنّما لم تكرّر في الكلام الأفصح؛ لأنه لمّا فسَّر اقتحام العقبة بثلاثة أشياء صار كأنّهُ أعاد «لا» ثلاث مرات. وتقديره: فلا فكّ رقبة، ولا أطعم مسكيناً، ولا آمن. والاقتحام: الدخول والمجاوزة بشدّة ومشقّة. والقُحْمة: الشدّة. فجعل الصالحة عقبةً، وعملها اقتحاماً لها؛ لما في ذلك من معاناة المشقّة، ومجاهدة النفس. وعن الحسن: عقبةٌ والله شديدةٌ، مجاهدة الإنسان نفسه، وهواه، أوعدوَّه الشيطان. والمراد: بقوله: ﴿ما العقبة﴾: ما اقتحامها؟ ومعناه: أنّك لم تدر كنه صعوبتها على النفس، وكنه ثوابها عند الله. وفكّ الرقبة: تخليصها من الرقّ، أو الإعانة في مال الكتابة ﴿فكَّ رقبةً أو أطْعَمَ﴾ مكّيٌّ، وأبو عمرو، وعليٌّ، على الإبدال من ﴿اقتحم العقبة﴾. وقوله: ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ اعتراض. غيرهم: ﴿فكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ﴾ على: اقتحامها ﴿فكُّ رقبةٍ أو إطعام﴾. والمسغبة: المجاعة. والمقربة: القرابة. والمتربة: الفقر. مفعلات من سَغِب: إذا جاع. وقرب في النسب. يقال: فلان ذو قرابتي، وذو مقربتي. وترِب: إذا افتقر. ومعناه: التصق بالتراب، فيكون مأواه المزابل. ووصف اليوم بذي مسغبةٍ؛ كقولهم: همٌّ ناصب. أي: ذو نصب ومعنى: ﴿ثمّ كان من الذين آمنوا﴾ أي: داوم على الإيمان. وقيل: ﴿ثمّ﴾ بمعنى الواو: وقيل: إنّما جاء بـ«ثمّ» لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الوقت؛ إذ الإيمان هو السابق على غيره، ولا يثبت عملٌ صالحٌ إلاّ به ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعات، والمحن التي يبتلى بها المؤمن ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ بالتراحم فيما بينهم.

﴿أُولَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ۝٢٠﴾

١٨ ـ ٢٠ ـ ﴿أُولَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أي: الموصوفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بالقرآن، أو بدلائلنا ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أصحاب الشمال. والميمنة والمشأمة: اليمين والشمال. أو اليمن، والشؤم. أي: الميامين على أنفسهم، والمشائيم عليهنّ ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾[1] وبالهمز: أبو عمرو، وحمزة، وحفص. أي: مطبقة. من: أوصدت الباب، وآصدته: إذا أطبقته، وأغلقته.

* * *

(١) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿مُوْصَدَة﴾. وهي قراءة: نافع، وابن كثير، وابن عامر، والكسائي، وأبي جعفر. معجم القراءات القرآنية (٨/ ١٥٣).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)

١ ـ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ وضوئها إذا أشرقت وقام سلطانها.

٢ ـ ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ تبعها في الضياء والنور. وذلك في النصف الأوّل من الشهر يخلف القمر الشمس في النور.

٣ ـ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ جلّى الشمس، وأظهرها للرائين. وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه؛ لأنّ الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء. وقيل: الضمير للظلمة، أو للدنيا، أو للأرض وإن لم يجر لها ذكر؛ كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

٤ ـ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يستر الشمس، وتُظْلِمُ الآفاق.

والواو الأولى في نحو هذا للقسم بالاتّفاق. وكذا الثانية عند البعض. وعند الخليل: الثانية للعطف؛ لأنّ إدخال القسم على القسم قبل تمام الأوّل لا يجوز. ألا ترى: أنّك لو جعلت موضعها كلمة الفاء، أو ثمّ لكان المعنى على حاله. وهما حرفا عطف. فكذا الواو. ومن قال: إنّها للقسم احتجّ بأنّها لو كانت

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾

للعطف لكان عطفاً على عاملين؛ لأنّ قوله ﴿والليل﴾ ـ مثلاً ـ مجرور بواو القسم. و﴿إذا يغشى﴾ منصوب بالفعل المقدّر الذي هو أقسم. فلو جعلت الواو في ﴿والنهار إذا تجلّى﴾ للعطف لكان النهار معطوفاً على الليل جرّاً، و﴿إذا تجلّى﴾ معطوفاً على ﴿إذا يغشى﴾ نصباً. فصار كقولك: إنّ في الدار زيداً والحجرة عَمْراً. وأجيب: بأنّ واو القسم تنزّلت منزلة الباء والفعل حتّى لم يجز إبراز الفعل معها. فصار كأنّها العاملة نصباً وجرّاً، وصارت كعاملٍ واحدٍ له عملان. وكلُّ عامل له عملان يجوز أن يعطف على معموليه بعاطف واحدٍ بالاتّفاق. نحو: ضرب زيدٌ عمراً وبكرٌ خالداً فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملها. فكذا هنا.

٥ ـ ٨ ـ و﴿ما﴾ مصدريـة في ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي: وبنائها، وطَحْوها. أي: بسطها، وتسوية خلقها في أحسن صورة ـ عند البعض. وليس بالوجه لقوله: ﴿فألهمها﴾ لما فيه من فساد النظم. والوجه فيه: أن تكون موصولة، وإنّما أوثرت على مَنْ لإرادة معنى الوصفيّة؛ كأنّه قيل: ﴿والسماء﴾ والقادر العظيم الذي بناها ﴿ونفس﴾ والحكيم الباهر الحكمة الذي سوّاها. وإنّما نكّرت النفس؛ لأنّه أراد نفساً خاصّة من بين النفوس وهي نفس آدم؛ كأنّه قيل: وواحدة من النفوس. أو: أراد كلَّ نفس، والتنكير للتكثير كما في: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤] ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ فأعلمها طاعتها ومعصيتها، أي: أفهمها: أنّ أحدهما حسنٌ والآخر قبيحٌ.

٩ ـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ ـ جواب القسم. والتقدير: لقد أفلح. قال الزجّاج: صار طول الكلام عوضاً عن اللام. وقيل: الجواب محذوف، وهو الأظهر. تقديره: لَيُدَمْدِمَنَّ الله عليهم. أي: على أهل مكّة، بتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دمدم على ثمود؛ لأنّهم كذّبوا صالحاً. وأمّا ﴿قد أفلح﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء ـ ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ طهّرها الله، وأصلحها، وجعلها زاكيةً.

وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

١٠ ـ ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أغواها الله. قال عكرمة: أفلحت نفس زكّاها الله. وخابت نفس أغواها الله. ويجوز أن تكون التدسية والتطهير فعل العبد. والتدسية: النقص، والإخفاء بالفجور. وأصل دسّى: دسّس. والياء بدل من السين المكرّرة.

١١ ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ بطغيانها؛ إذا الحامل لهم على التكذيب طغيانهم.

١٢ ـ ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ حين قام لعقر الناقة ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ أشقى ثمود: قُدَار بن سالف، وكان أشقر أزرق قصيراً. و﴿إذ﴾ منصوب بـ ﴿كذّبت﴾ أو بالطغوى.

١٣ ـ ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عليه السلام ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ نصب على التحذير. أي: احذروا عقرها ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾؛ كقوله: الأسد الأسد.

١٤ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذّرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: الناقة. أسند الفعل إليهم وإن كان العاقر واحداً؛ كقوله: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، لرضاهم به ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أهلكهم هلاك استئصال ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ بسبب ذنبهم، وهو تكذيبهم الرسول، وعقرهم الناقة ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فسوّى الدمدمة عليهم، لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم.

١٥ ـ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ ولا يخاف الله عاقبة هذه الفعلة. أي: فعل ذلك غير خائف أن تلحقه تبعةٌ من أحد؛ كما يخاف من يعاقب من الملوك؛ لأنّه فعل في مِلْكِه، ومُلْكِه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] (فلا يخاف) مدنيٌّ، وشاميٌّ.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾

---

١ ـ ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ المغشيُّ إمّا الشمس من قوله: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤]، أو: النهار من قوله: ﴿يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أو: كلّ شيء يواريه بظلامه من قوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣].

٢ ـ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل.

٣ ـ ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ والقادر العظيم القدرة؛ الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماءٍ واحد.

٤ ـ وجواب القسم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ إنّ عملكم لمختلف. وبيان الاختلاف فيما فصّل على أثره.

٥ ـ ٧ ـ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ حقوق ماله ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ ربّه فاجتنب محارمه ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ بالملّة الحسنى، وهي: ملّة الإسلام، أو: بالمثوبة الحسنى، وهي: الجنّة. أو: بالكلمة الحسنى وهي: لا إله إلاّ الله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ فسنهيئه للخلّة اليسرى، وهي: العمل بما يرضاه ربّه.

وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾

٨، ١٠ ـ ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بماله ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ عن ربّه فلم يتّقه، أو: استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالإسلام، أو: الجنّة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ للخلّة المؤدّية إلى النار، فتكون الطاعة أعسر شيءٍ عليه وأشدّه. أو سمّى طريقة الخير باليسرى؛ لأنّ عاقبتها اليسر، وطريقة الشرّ بالعسرى؛ لأن عاقبتها العسر. أو: أراد بهما طريقي الجنّة والنار.

١١ ـ ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ ولم ينفعه ماله إذا هلك. و﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ تفعّل، من الردى، وهو: الهلاك. أو: ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ في القبر، أو: في قعر جهنّم. أي: سقط.

١٢، ١٣ ـ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ إنّ علينا الإرشاد إلى الحقّ بنصب الدلائل، وبيان الشرائع ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ فلا يضرّنا ضلال من ضلّ، ولا ينفعنا اهتداء من اهتدى. أو: إنّهما لنا، فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ الطريق.

١٤، ١٨ ـ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ خوّفتكم ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ تتلهب، ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ لا يدخلها للخلود فيها ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ إلا الكافر الذي كذب الرسول وأعرض عن الإيمان ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ وسيبعد منها ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ المؤمن ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾ للفقراء ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ من الزكاة. أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً، لا يريد به رياءً، ولا سمعةً. أو يتفعّل من الزكاة. و﴿يتزكّى﴾ إن جعلته بدلاً من ﴿يؤتي﴾ فلا محلّ له؛ لأنّه داخل في حكم الصلة. والصلات لا محلّ لها. وإن جعلته حالاً من الضمير في ﴿يؤتي﴾ فمحله النصب. قال أبو عبيدة: ﴿الأشقى﴾ بمعنى: الشقيّ وهو الكافر. و﴿الأتقى﴾ بمعنى: التقيّ. وهو المؤمن؛ لأنّه يختصّ بالصليّ أشقى الأشقياء، ولا بالنجاة أتقى الأتقياء. وإن زعمت أنّه نكّر النار فأراد ناراً مخصوصةً بالأشقى فما تصنع بقوله: ﴿وسيجنّبها الأتقى﴾ لأن المتقي يُجنَّبُ تلك النار المخصوصة، لا الأتقى منهم

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾

خاصّة. وقيل: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما فقيل: الأشقى، وجعل مختصّاً بالصلي، كأنَّ النار لم تخلق إلاّ له، وقيل: الأتقى وجعل مختصّاً بالنجاة، كأنّ الجنّة لم تخلق إلاّ له. وقيل: هما أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وأبو جهل. وفيه بطلان زعم المرجئة؛ لأنّهم يقولون: لا يدخل النار إلاّ كافر.

١٩، ٢٠ ـ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ﴾ أي: ﴿وما لأحدٍ﴾ عند الله نعمة يجازيه بها؛ إلاّ أن يفعل فعلاً يبتغي به وجه ربّه، فيجازى عليه ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ هو الرفيع بسلطانه، المنيع في شأنه وبرهانه. ولم يرد به العلوّ من حيث المكان. فذا آية الحدثان.

٢١ ـ ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ مَوْعِدٌ بالثواب الذي يرضيه ويقرّ عينه. وهو كقوله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾

---

١ ـ ٣ ـ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ المراد به: وقت الضحى، وهو: صدر النهار حين ترتفع الشمس. وإنّما خص وقت الضحى بالقسم لأنّها الساعة التي كلّم الله فيها موسى عليه السلام، وألقي فيها السحرة سجّداً. أو: النهار كلّه لمقابلته بالليل في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: سكن. والمراد سكون الناس والأصوات فيه. وجواب القسم ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: ما تركك منذ اختارك، وما أبغضك منذ أحبّك. والتوديع مبالغةٌ في الودع؛ لأنّ من ودّعك مفارقاً فقد بالغ في تركك. روي: أنّ الوحي تأخّر عن رسول الله ﷺ أيّاماً، فقال المشركون: إنّ محمداً ﷺ ودّعه ربّه، وقلاه. فنزلت[1]. وحذف الضمير من ﴿قلى﴾ كحذفه من الذاكرات في قوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] يريد: والذاكراته. ونحوه ﴿فآوى﴾ ﴿فهدى﴾ ﴿فأغنى﴾. وهو اختصار لفظيّ لظهور المحذوف.

٤ ـ ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي: ما أعدّ الله لك في الآخرة من المقام

---

(١) رواه ابن مردويه. (حاشية الكشاف ٤/ ٧٦٦).

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾

المحمود، والحوض المورود، والخير الموعود، خير ممّا أعجبك في الدنيا. وقيل: وجه اتّصاله بما قبله: أنّه لمّا كان في ضمن نفي التوديع والقلي أنَّ الله مواصلك بالوحي إليك، وأنّك حبيب الله، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك، أخبره: أنّ حاله في الآخرة أعظم من ذلك؛ لتقدّمه على الأنبياء، وشهادة أمّته على الأمم، وغير ذلك.

٥ ـ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ في الآخرة من الثواب، ومقام الشفاعة، وغير ذلك ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾. ولمّا نزلت قال ﷺ: «إذاً لا أرضى قطّ وواحدٌ من أمّتي في النار»[1]. واللام الداخلة على ﴿سوف﴾ لام الابتداء المؤكّدة لمضمون الجملة. والمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك. ونحوه ﴿لأقسم﴾ فيمن قرأ كذلك؛ لأنّ المعنى: لأنا أقسم، وهذا لأنّها إذا كانت لام قسم فلامه لا تدخل على المضارع إلاّ مع نون التوكيد. فتعيَّن أن تكون لام الابتداء، ولامه لا تدخل إلاّ على المبتدأ والخبر. فلا بدّ من تقدير مبتدأ وخبر كما ذكرنا، كذا ذكره صاحب الكشّاف. وقال صاحب الكشف: هي لام القسم، واستغني عن نون التوكيد؛ لأنّ النون إنّما تدخل ليؤذن: أنّ اللام لام القسم لا لام الابتداء. وقد علم: أنّه ليس للابتداء؛ لدخولها على ﴿سوف﴾ لأنّ لام الابتداء لا تدخل على سوف. وذكر: أنّ الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير يؤذن بأن العطاء كائن لا محالة وإن تأخّر.

٦ ـ ثمّ عدّد عليه نعمه من أوّل حاله، ليقيس المترقّب من فضل الله على ما سلف منه، لئلاّ يتوقّع إلاّ الحسنى وزيادة الخير، ولا يضيق صدره، ولا يقلَّ صبره، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ وهو من الوجود الذي بمعنى العلم. والمنصوبان مفعولاه. والمعنى: ألم تكن يتيماً حين مات أبواك ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: فآواك إلى عمّك أبي طالب، وضمّك إليه، حتّى كفلك، وربّاك.

٧ ـ ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي: غير واقفٍ على معالم النبوّة، وأحكام الشريعة،

(١) رواه الخطيب في تلخيص المتشابه. (الدر المنثور ٨/ ٥٤٢).

فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

وما طريقه السمع ﴿فَهَدَىٰ﴾ فعرّفك الشرائع والقرآن. وقيل: ضلَّ في طريق الشَّام حين خرج به أبو طالب فردّه إلى القافلة. ولا يجوز أن يفهم به عدولٌ عن حقٍّ، ووقوعٌ في غيٍّ. فقد كان ﷺ من أوّل حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان، وقاذورات أهل الفسق والعصيان.

٨ ـ ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ فقيراً ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ فأغناك بمال خديجة ـ رضي الله عنها ـ أو: بما أفاء عليك من الغنائم.

٩ ـ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ فلا تغلبه على ماله وحقّه لضعفه.

١٠ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ فلا تزجر، فأبذل قليلاً، أو: ردَّ جميلاً. وعن السدِّيِّ: المراد: طالبُ العلم إذا جاءك فلا تنهره.

١١ ـ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: حدّث بالنبوّة التي آتاك الله. وهي أجلّ النعم. والصحيح أنّها تعمّ جميع نعم الله عليه. ويدخل تحته تعليم القرآن والشرائع.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

---

١ ـ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح، فكأنّه قيل: شرحنا لك صدرك. ولذا عطف عليه ﴿وضعنا﴾ اعتباراً للمعنى. أي: فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم، حتّى وسع هموم النبوّة، ودعوة الثقلين. فأزلنا عنه الضيق، والحرج الذي يكون مع العمى والجهل. وعن الحسن: ملء حكمة وعلماً.

٢ ـ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ وخفّفنا عنك أعباء النبوّة والقيام بأمرها. وقيل: هو زلّة لا نعرفها بعينها. وهي: ترك الأفضل مع إتيان الفاضل. والأنبياء يعاتبون بمثلها. ووضعه عنه: أن غفر له. والوزر: الحمل الثقيل.

٣ ـ ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أثقله حتّى سمع نقيضه، وهو صوت الانتقاض.

٤ ـ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ رفع ذكره أن قرن بذكر الله في كلمة الشهادة، والأذان، والإقامة، والخطب، والتشهّد، وفي غير موضع من القرآن ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]. ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء: ١٣]

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وفي تسميته: رسول الله، ونبيّ الله. ومنه: ذكره في كتب الأوّلين.

وفائدة ﴿لك﴾ ما عرف في طريقة الإبهام والإيضاح؛ لأنّه يفهم بقوله: ﴿ألم نشرح لك﴾ أنّ ثمّ مشروحاً، ثمّ أوضح بقوله: ﴿صدرك﴾ ما علم مبهماً، وكذلك: ﴿لك ذكرك﴾ و﴿عنك وزرك﴾.

٥، ٦ ـ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أي: إنَّ مع الشدّة التي أنت فيها من مقاساة بلاء المشركين ﴿يسراً﴾ بإظهاري إيّاك عليهم حتّى تغلبهم. وقيل: كان المشركون يعيّرون رسول الله والمؤمنين بالفقر حتّى سبق إلى وهمه: أنّهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله. فذكّره ما أنعم به عليه من جلائل النعم. ثمّ قال: ﴿إن مع العسر يسراً﴾ كأنّه قال: خوّلناك ما خوّلناك فلا تيأس من فضل الله ﴿فإنّ مع العسر﴾ الذي أنتم فيه ﴿يسراً﴾. وجيء بلفظ ﴿مع﴾ لغاية مقاربة اليسر العسر زيادةً في التسلية، وتقوية القلوب. وإنّما قال ﷺ عند نزولها: «لن يغلب عسر يسرين»[1] لأنّ العسر أعيد معرّفاً فكان واحداً؛ لأنّ المعرفة إذا أعيدت معرفةً كانت الثانية عين الأولى. واليسر أعيد نكرة، والنكرة إذا أعيدت نكرةً كانت الثانية غير الأولى. فصار المعنى: ﴿إنّ مع العسر﴾ يسرين. قال أبو معاذ: يقال: إنّ مع الأمير غلاماً، إن مع الأمير غلاماً. فالأمير واحد ومعه غلامان. وإذا قيل: إن مع الأمير الغلام، إن مع الأمير الغلام. فالأمير واحد والغلام واحد. وإذا قيل: إنّ مع أميرٍ غلاماً، إن مع أمير غلاماً، فهما أميران وغلامان. كذا في «شرح التأويلات».

٧ ـ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي: إذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الربِّ. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿فإذا فرغت﴾ من صلاتك فاجتهد في الدعاء. واختلف: أنّه قبل السلام أو بعده. ووجه الاتّصال بما قبله: أنّه لمّا عدّد عليه نعمه السالفة، ووعده الآنفة، بعثه على الشكر

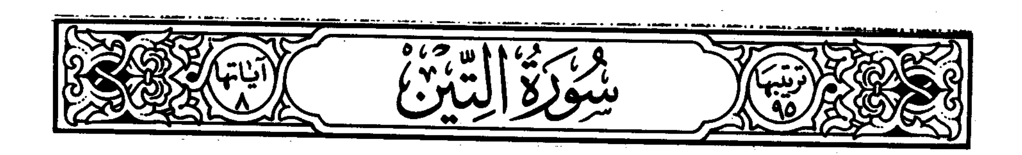
(١) رواه الحاكم (٢ / ٥٢٨).

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

والاجتهاد في العبادة، والنصب فيها، وأن يواصل بين بعضهاوبعضٍ ولا يُخْلي وقتاً من أوقاته منها . فإذا فرغ من عبادة ذنَّبها بأخرى.

٨ - ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ واجعل رغبتكَ إليه خصوصاً، ولا تسأل إلاّ فضله، متوكّلاً عليه.

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾

١ ـ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ أقسم بهما لأنّهما عجيبان من بين الأشجار المثمرة. روي: أنّه أهدي لرسول الله ﷺ طبق من تين، فأكل منه، وقال لأصحابه: «كلوا، فلو قلت: إنّ فاكهة نزلت من الجنّة لقلت هذه، لأنّ فاكهة الجنّة بلا عجم، فكلوها فإنّها تقطع البواسير، وتنفع من النِّقرِس»(١) وقال: «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة، يطيّب الفم، ويذهب بالحفرة»(٢). وقال: «هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي»(٣). وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو تينكم هذا وزيتونكم. وقيل: هما جبلان، بالشام ينبتانهما.

٢ ـ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أضيف الطور وهو: الجبل إلى سينين، وهي: البقعة. ونحو سينون يبرون في جواز الإعراب بالواو والياء، والإقرار على الياء، وتحريك النون بحركات الإعراب.

(١) رواه أبو نعيم في الطب (ص٨٢).
(٢) رواه الطبراني في الأوسط. (مجمع الزوائد ٢ / ١٠٠).
(٣) هو جزء من الحديث السابق.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥
إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾

٣ ـ ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ يعني: مكّة ﴿ٱلْأَمِينِ﴾، من: أمن الرجل أمانة فهو أمين. وأمانته: أنّه يحفظ من دخله، كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه. ومعنى القسم بهذه الأشياء: الإبانة عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والأولياء. فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم، ومولد عيسى ـعليهما السلامـ، ومنشؤه. والطور: المكان الذي نودي منه موسى ـ عليه السلام ـ ومكّة: مكان البيت الذي هو هدى للعالمين، ومولد نبيّنا، ومبعثه ﷺ. أو: الأوّلان قَسَمٌ بمهبط الوحي على عيسى ـ عليه السلام ـ والثالث على موسى ـعليه السلامـ والرابع على محمد ﷺ.

٤ ـ وجواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ـ وهو جنس ـ ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ في أحسن تعديلٍ لشكله وصورته، وتَسْوِيَةٍ لأعضائه.

٥ ـ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: ثمّ كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السويّة أن رددناه أسفل من سفل خلقاً وتركيباً. يعني: أقبح مَنْ قَبُحَ صورةً، وهم أصحاب النار. أو: أسفل من سفل من أهل الدركات. أو: ﴿ثمّ رددناه﴾ بعد ذلك التقويم والتحسين ﴿أسفل﴾ من سفل في حسن الصورة والشكل، حيث نكّسناه في خلقه فقوّس ظهره بعد اعتداله، وابيضّ شعره بعد سواده، وتشنّن جلده[1]، وكلَّ سمعه وبصره، وتغيّر كلّ شيءٍ منه، فمشيه دليف[2]، وصوته خفات، وقوّته ضعف، وشهامته خَرْفٌ.

٦ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ودخل الفاء هنا دون سورة الانشقاق للجمع بين اللغتين. والاستثناء على الأوّل متّصل، وعلى الثاني منقطع. أي: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب غير منقطع على

(١) «تشنّن»: يبس.
(٢) «دليف»: أي: متقارب الخطو.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾

طاعتهم، وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاقّ، والقيام بالعبادة.

٧ ـ والخطاب في: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ للإنسان على طريقة الالتفات. أي: فما سبب تكذيبك بعد هذا البيان القاطع، والبرهان الساطع بالجزاء. والمعنى: إنّ خلق الإنسان من نطفةٍ، وتقويمه بشراً سويّاً، وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي، ثمّ تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر، لا ترى دليلاً أوضح منه على قدرة الخالق، وأنّ من قدر على خلق الإنسان على هذا كلّه لم يعجز عن إعادته. فما سبب تكذيبك بالجزاء؟ أو: لرسول الله ﷺ. أي: فمن ينسبك إلى الكذب بعد هذا الدليل؟ «فما» بمعنى: مَنْ.

٨ ـ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ وعيد للكفّار، وأنّه يحكم عليهم بما هم أهله. وهو من الحكم: القضاءُ.

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومجاهد ـ رحمه الله ـ هي: أوّل سورة نزلت. والجمهور على أنّ الفاتحة أوّل ما نزل، ثمّ سورة القلم.

١، ٢ ـ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ محلّ ﴿باسم ربّك﴾ النصب على الحال. أي: ﴿اقرأ﴾ مفتتحاً ﴿باسم ربّك﴾ قل: باسم الله، ثمّ اقرأ. ﴿الذي خلق﴾ لم يذكر لخلق مفعولاً لأنّ المعنى: ﴿الذي﴾ حصل منه الخلق، واستأثر به، لا خالق سواه. أو: تقديره: خلق كلّ شيء فيتناول كلّ مخلوق، لأنّه مطلق. وليس بعض المخلوقات بتقديره أولى. وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لشرفه، ولأنّ التنزيل إليه. ويجوز أن يراد ﴿الذي خلق﴾ الإنسان، إلاّ أنّه ذكر مبهماً، ثمّ مفسّراً تفخيماً لخلقه، ودلالةً على عجيب فطرته ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ وإنّما جمع ولم يقل: من علقة؛ لأنّ الإنسان في معنى الجمع.

٣ ـ ٥ ـ ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كلّ كريم.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾

ينعم على عباده النعم، ويحلم عنهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه. وكأنّه ليس وراء التكرّم بإفادة الفوائد العلميّة تكرّم حيث قال: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ﴾ الكتابة ﴿بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فدلّ على كمال كرمه بأنّه علّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبّه على فضل علم الكتابة؛ لما فيه من المنافع العظيمة. وما دوّنت العلوم، ولا قيّدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأوّلين، ولا كتب الله المنزلة، إلاّ بالكتابة. ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا. ولو لم يكن على دقيق حكمة الله دليل إلاّ أمر القلم والخطّ لكفى به.

٦ ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه، وإن لم يذكر، لدلالة الكلام عليه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ نزلت في أبي جهل إلى آخر السورة.

٧ ـ ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ أن رأى نفسه. يقال في أفعال القلوب: رأيتني، وعلمتني. ومعنى الرؤية: العلم. ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ هو المفعول الثاني.

٨ ـ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ تهديد للإنسان من عاقبة الطغيان على طريق الالتفات. و﴿الرجعى﴾ مصدر بمعنى: الرجوع. أي: إنّ رجوعك إلى ربّك، فيجازيك على طغيانك.

٩ ـ ١٤ ـ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ أي ﴿أرأيت﴾ أبا جهل ينهى محمداً ﷺ عن الصلاة ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: ﴿إن كان﴾ ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أرأيت إن كان الناهي مكذّباً بالحقّ، متولّياً عنه، كما نقول نحن ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ويطّلع على أحواله من هداه وضلاله، فيجازيه على حسب حاله. وهذا وعيد. وقوله: ﴿الذي ينهى﴾ مع الجملة الشرطيّة مفعولا ﴿أرأيت﴾، وجواب الشرط

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

محذوف، تقديره: ﴿إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى﴾ ﴿ألم يعلم بأنّ الله يرى﴾ وإنّما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني. وهذا كقولك: إن أكرمتك أتكرمني؟ و﴿أرأيت﴾ الثانية مكرّرة زائدة للتوكيد.

١٥ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل عن نهيه عن عبادة الله، وأمره بعبادة الأصنام. ثمَّ قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عمّا هو فيه ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لنأخذن بناصيته ولنسحبنّه بها إلى النار. والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدّة. وَكِتبَتُها في المصحف بالألف على حكم الوقف. واكتفى بلام العهد عن الإضافة للعلم بأنّها ناصية المذكور.

١٦ ـ ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من الناصية. لأنّها وصفت بالكذب والخطأ بقوله: ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ على الإسناد المجازيّ. فهما لصاحبها حقيقة. وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك: ناصية كاذب خاطىء.

١٧، ١٨ ـ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ النادي: المجلس الذي يجتمع فيه القوم. والمراد: أهل النادي. روي: أنّ أبا جهل مرّ بالنبيّ ﷺ وهو يصلّي فقال: ألم أنهك؟! فأغلظ له رسول الله ﷺ. فقال: أتهدّدني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فنزلت[١]. والزبانية لغةً: الشُّرَط. الواحد: زِبْنِيَّة. من: الزبن. وهو: الدفع. والمراد: ملائكة العذاب. وعنه ﷺ: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عياناً»[٢].

١٩ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل. ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: اثبت على ما أنت عليه من عصيانه، كقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨] ﴿وَاسْجُدْ﴾ ودم على سجودك. يريد: الصلاة ﴿وَاقْتَرِب ۩﴾ وتقرّب إلى ربّك بالسجود؛ فـ «إن أقرب ما يكون العبد إلى ربّه إذا سجد»[٣]. كذا الحديث.

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٣٤٩).
(٢) رواه أحمد (٢ / ٣٧٠) ومسلم (٢٧٩٧).
(٣) رواه مسلم (٤٨٢).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾

١ - ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ عظّم القرآن حيث أسند إنزاله إليه دون غيره، وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للاستغناء عن التنبيه عليه. ورفع مقدار الوقت الذي أُنزِل فيه روي: أنّه أنزل جملة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. ثمّ كان ينزله جبريل على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. ومعنى ليلة القدر: ليلة تقدير الأمور وقضائها. والقدر: بمعنى التقدير. أو سمِّيت بذلك لشرفها على سائر الليالي. وهي ليلة السابع والعشرين [من رمضان][١]. كذا روى أبو حنيفة - رحمه الله - عن عاصم، عن زرّ: أنّ أبيّ بن كعب - رضي الله عنه - كان يحلف على ﴿لَيْلَةِ﴾: أنّها ليلة السابع والعشرين من رمضان، وعليه الجمهور. ولعلَّ الداعي إلى إخفائها: أن يحيي من يريدها الليالي الكثيرة طلباً لموافقتها. وهذا كإخفاء الصلاة الوسطى، واسمه الأعظم، وساعة الإجابة في الجمعة، ورضاه في الطاعات، وغضبه في المعاصي. وفي الحديث: «من أدركها يقول: اللهم إنّك عفوّ تحبُّ العفو فاعف عنِّي»[٢].

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل المخطوط.
(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٥٠).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ
فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾

٢، ٣ ـ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ أي: ولم تبلغ درايتك غاية فضلها. ثمّ بيّن له ذلك بقوله: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ ليس فيها ليلة القدر. وسبب ارتفاع فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من تنزّل الملائكة والروح، وفصل كلِّ أمرٍ حكيمٍ. وذكر في تخصيص هذه المدّة: أنَّ النبيَّ ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر. فعجب المؤمنون من ذلك وتقاصرت إليهم أعمالهم، فأعطوا ليلةً هي خيرٌ من مدّة ذلك الغازي.

٤ ـ ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إلى السماء الدنيا، أو إلى الأرض ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ ـ جبريل ـ عليه السلام ـ أو خلق من الملائكة لا يراهم الملائكة إلاّ تلك الليلة. أو: الرحمة ﴿فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ أي تتنزل ﴿من﴾ أجل ﴿كلّ أمر﴾ قضاه الله لتلك السنة إلى قابل. وعليه وقفٌ.

٥ ـ ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ ما هي إلاّ سلامة. خبر ومبتدأ. أي: لا يقدِّر الله فيها إلاّ السلامة والخير. ويقضي في غيرها بلاءً وسلامةً. أو: ما هي إلاّ سلام لكثرة ما يسلِّمون على المؤمنين. قيل: لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنةً إلا سلّموا عليه في تلك الليلة ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ إلى وقت طلوع الفجر. وبكسر اللام عليٌّ، وخلف. وقد حُرِمَ من السلام الذين كفروا.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ
مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا
مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

---

١ ـ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بمحمّد ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: اليهود والنصارى. فأهل الرجل: أخصّ الناس به، وأهل الإسلام: من يدين به ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ عبدة الأصنام ﴿مُنفَكِّينَ﴾ منفصلين عن الكفر. وحذف؛ لأنّ صلة ﴿الذين﴾ تدلّ عليه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الحجّة الواضحة. والمراد: محمّد ﷺ. يقول: لم يتركوا كفرهم حتّى بُعِث محمّد ﷺ. فلمّا بُعِثَ أسلم بعضٌ، وثبت على الكفر بعض.

٢ ـ ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: محمّد ﷺ. وهو بدل من البيّنة ﴿يَتْلُوا﴾ يقرأ عليهم ﴿صُحُفًا﴾ قراطيس ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ من الباطل.

٣ ـ ﴿فِيهَا﴾ في الصحف ﴿كُتُبٌ﴾ مكتوباتٌ ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمةٌ ناطقةٌ بالحقّ والعدل.

٤ ـ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ فمنهم من أنكر

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ
دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ
ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ
عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

نبوّته بغياً وحسداً، ومنهم من آمن. وإنّما أفرد أهل الكتاب بعد ما جمع أوّلاً بينهم وبين المشركين؛ لأنّهم كانوا على علم به؛ لوجوده في كتبهم . فإذا وصفوا بالتفرّق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف.

٥ ـ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي: في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير شرك ونفاق ﴿حُنَفَآءَ﴾ مؤمنين بجميع الرسل، مائلين عن الأديان الباطلة ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: دين الملّة القيّمة.

٦، ٧ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ ونافع يهمزهما. والقرّاء على التخفيف. والنبيّ والبريّة مما استمرّ الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل.

٨ ـ ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ إقامة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ بقبول أعمالهم ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ بثوابها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الرضا ﴿لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

وقوله ﴿خير البريّة﴾ يدلّ على فضل المؤمنين من البشر على الملائكة لأنّ البريّة: الخلق. واشتقاقها من برأ الله الخلق. وقيل: اشتقاقها من البرى، وهو التراب. ولو كان كذلك لما قرؤوا البريئة بالهمز. كذا قاله الزجّاج.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾
يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾

١ ـ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي: حركت زلزالها الشديد الذي ليس بعده. وقرىء بفتح الزاي. فالمكسور: مصدر، والمفتوح: اسم.

٢ ـ ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ كنوزها وموتاها. جمع: ثِقْل، وهو: متاع البيت. جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها.

٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ زلزلت هذه الزلزلة الشديدة، ولفظت ما في بطنها، وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ موتاها أحياءً، فيقولون ذلك، لما يظهرهم من الأمر الفظيع كما يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]. وقيل: هذا قول الكافر؛ لأنّه كان لا يؤمن بالبعث. فأمّا المؤمن فيقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]

٤ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ﴿إذا﴾. وناصبهما ﴿تُحَدِّثُ﴾. أي: ﴿تحدّث﴾ الخلق ﴿أَخْبَارَهَا﴾ فحذف أوّل المفعولين؛ لأنّ المقصود ذكر تحديثها الأخبار،

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

لا ذكر الخلق. قيل: ينطقها الله، وتخبر بما عمل عليها من خير وشرّ. وفي الحديث: «تشهد على كُلِّ واحدٍ بما عمل على ظهرها»[١].

٥ ـ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: ﴿تحدّث أخبارها﴾ بسبب إيحاء ربّك ﴿لها﴾ أي: إليها، وأمره إيّاها بالتحديث.

٦ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف ﴿أَشْتَاتًا﴾ بيض الوجوه آمنين، وسود الوجوه فزعين. أو: يصدرون عن الموقف أشتاتاً يتفرّق بهم طريقا الجنّة والنار ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم.

٧ ـ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ نملة صغيرة ﴿خَيْرًا﴾ تميز ﴿يَرَهُ﴾ أي: ير جزاءه.

٨ ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قيل: هذا في الكفّار، والأوّل في المؤمنين. ويحكىٰ: أنّ أعرابياً أخّر ﴿خيراً يره﴾. فقيل له: قدّمت وأخّرت فقال:

خُذا بَطْنَ هَرْشَى أو قَفَاها فإنّه ... كِلا جانبَيْ هَرْشَى لهنَّ طَرِيقُ

وروي: أنّ جدّ الفرزدق أتاه ﷺ ليستقرئه، فقرأ عليه هذه الآية، فقال: «حسبي حسبي»[٢]. وهي أحكم آية، وسمّيت الجامعة.

* * *

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٧٤) والترمذي (٣٣٥٣) والحاكم (٢/ ٥٣٢) وابن حبان في صحيحه (٧٣٦٠).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٩٦).



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾

١ ـ ٨ ـ ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبَح. والضبح: صوت أنفاسها إذا عدون. عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ أنّه حكاه فقال: أحْ، أحْ. وانتصاب ﴿ضبحاً﴾ على يضبَحن ضبحاً ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾ توري نار الحباحب(١). وهي: ما ينقدح من حوافرها ﴿قَدْحًا﴾ قادحات صاكّات بحوافرها الحجارة. والقدح: الصكّ. والإيراء: إخراج النار. تقول: قدح فأورى. وقدح فأصلد(٢). وانتصب ﴿قدحاً﴾ بما انتصب به ﴿ضبحاً﴾ ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ تغير على العدوّ ﴿صُبْحًا﴾ في وقت الصبح ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ فهيجن بذلك الوقت غباراً ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾ بذلك الوقت ﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء. ووسطه بمعنى: توسّطه. وقيل: الضمير لمكان الغارة، أو: للعدو الذي دل عليه: ﴿والعاديات﴾. وعطف ﴿فأثرن﴾ على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه؛

(١) «الحباحب»: اسم رجل بخيل، كان لايوقد إلا ناراً ضعيفة مخافة الضيفان، فضربوا به المثل حتى قالوا: نار الحباحب؛ لما تقدحه الخيل بحوافرها.
(٢) «أصلد»: صوّت ولم يخرج ناراً.

إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ
لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم
بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

لأنّ المعنى: واللاتي عدون، فأورين، فأغرن، فأثرن. وجواب القسم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ لكفور. أي: أنّه لنعمة ربّه خصوصاً لشديد الكفران ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ الإنسان ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ على كنوده ﴿لَشَهِيدٌ﴾. يشهد على نفسه. أو: إنّ الله على كنوده لشاهد، على سبيل الوعيد ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وإنه لأجل حبّ المال لبخيلٌ ممسك. أو: وإنّه لحبّ المال لقويٌّ، وهو لحبِّ عبادة الله ضعيف.

٩ ـ ١١ ـ ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ الإنسان ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ بعث ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ من الموتى. و﴿ما﴾ بمعنى مَنْ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ميز ما فيها من الخير والشرّ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ لعالم فيجازيهم على أعمالهم من الخير والشر؟ وخصّ ﴿يومئذٍ﴾ بالذكر وهو عالم بهم في جميع الأزمان؛ لأنّ الجزاء يقع ﴿يومئذ﴾.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ
كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾

١، ٢ ـ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ مبتدأ ﴿مَا﴾ مبتدأ ثان ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ خبره. والجملة خبر المبتدأ الأوّل، وكان حقّه: ما هي. وإنّما كرّر تفخيماً لشأنها.

٣ ـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: أيُّ شيءٍ أعلمك ما هي؟ ومن أين علمت ذلك؟

٤ ـ ﴿يَوْمَ﴾ نصب بمضمر دلّت عليه ﴿القارعة﴾ أي: تقرع ﴿يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾. شبّههم بالفراش في الكثرة، والانتشار، والضعف، والذلّة، والتطاير إلى الداعي من كلّ جانب؛ كما يتطاير الفراش إلى النار. وسمّي فراشاً لتفرّشه، وانتشاره.

٥ ـ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ وشبّه الجبال بالعهن ـ وهو الصوف المصبّغ ألواناً ـ لأنّها ألوان ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧] وبالمنفوش منه لتفرّق أجزائها.

فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

٦ ـ ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ باتّباعهم الحقّ، وهي: جمع موزون، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله. أو: جمع ميزان. وثقلها: رجحانها.

٧ ـ ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ذات رضاً، أو: مرضيّة.

٨، ٩ ـ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ باتّباعهم الباطل ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ فمسكنه ومأواه النار. وقيل للمأوى: أمّ على التشبيه؛ لأنّ الأمّ مأوى الولد ومفزعه.

١٠، ١١ ـ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ الضمير يعود إلى هاوية. والهاء للسكت. ثمّ فسرّها فقال: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ بلغت النهاية في الحرارة.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾

---

١ ـ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ شغلكم التباري في الكَثْرِ، والتباهي بها في الأموال والأولاد عن طاعة الله.

٢ ـ ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ حتّى أدرككم الموت على تلك الحال، أو: حتّى زرتم المقابر، وعدّدتم من في المقابر من موتاكم.

٣ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه على أنّه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همّه ولا يهتمّ بدينه ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبر، أو عند النزع سوء عاقبة ما أنتم عليه.

٤، ٥ ـ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا﴾ تكرير الردع للإنذار والتخويف ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جواب ﴿لو﴾ محذوف. أي: ﴿لو تعلمون﴾ ما بين أيديكم ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ علم الأمر اليقين. أي: كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور لما ألهاكم التكاثر، أو لفعلتم ما لا يوصف، ولكنّكم ضلّال جهلة.

لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨

٦ ـ ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ هو جواب قسم محذوف. والقسم لتوكيد الوعيد ﴿لَتُرَوُنَّ﴾ بضم التاء شاميٌّ، وعليٌّ.

٧ ـ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ كرّره معطوفاً بثمّ تغليظاً في التهديد، وزيادةً في التهويل. الأوّل بالقلب، والثاني بالعين ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته.

٨ ـ ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ عن الأمن والصحّة فيم أفنيتموهما، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ. وقيل: عن التنعّم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه. وعن الحسن: ما سوى كنٍّ يؤويه، وثوبٍ يواريه، وكسرةٍ تقوّيه. وقد روي مرفوعاً.

* * *



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

١ ـ ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى: (والصلاة الوسطى صلاة العصر) في مصحف حفصة ـ رضي الله عنها ـ ولأنّ التكليف في أدائها أشقّ؛ لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم. أو: أقسم بالعشيِّ كما أقسم بالضحى؛ لما فيها من دلائل القدرة. أو: أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب.

٢ ـ وجواب القسم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ أي: جنس الإنسان لفي خسران من تجارتهم.

٣ ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنّهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا، وسعدوا ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وهو الخير كلّه من توحيد الله، وطاعته، واتّباع كتبه، ورسله ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي، وعلى الطاعات، وعلى ما يبلو به الله عباده ﴿وتواصوا﴾ في الموضعين فعل ماض معطوف على ماضٍ قبله.

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ③﴾

١ ـ ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ خبره: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ أي: الذي يعيب الناس من خلفهم ﴿لُّمَزَةٍ﴾ أي: من يعيبهم مواجهة. وبناءُ فُعَلَة يدلّ على أنّ ذلك عادةً منه. قيل: نزلت في الأخنس بن شريق، وكانت عادته الغيبة. وقيل: في أميّة بن خلف. وقيل: في الوليد. ويجوز أن يكون السبب خاصّاً، والوعيد عامّاً، ليتناول كلّ من باشر ذلك القبيح.

٢ ـ ﴿ٱلَّذِى﴾ بدل من كلّ. أو نصب على الذم ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ ﴿جمَّع﴾ شاميٌّ، وحمزة، وعليٌّ مبالغةً. وهو مطابق لقوله: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: جعله عُدَّةً لحوادث الدهر.

٣ ـ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي: تركه خالداً في الدنيا لا يموت. أو: هو تعريض بالعمل الصالح، وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم. فأمّا المال فما أخلد أحداً فيه.

﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾

٤ ـ ﴿كَلَّا﴾ ردع له عن حسبانه. ﴿لَيُنبَذَنَّ﴾ الذي جمع ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ في النار التي من شأنها أن تحطّم كلّ ما يلقى فيها.

٥ ـ ٧ ـ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ تعجيب وتعظيم[1] ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف. أي: هي نار الله ﴿الْمُوقَدَةُ﴾ نعتها ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ يعني: أنها تدخل في أجوافهم حتّى تصل إلى صدورهم، وتطلع على أفئدتهم وهي أوساط القلوب. ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشدّ ألماً منه بأدنى أذى يمسّه. فكيف إذا اطّلعت عليه نار جهنّم، واستولت عليه؟ وقيل: خصّ الأفئدة؛ لأنّها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة. ومعنى اطّلاع النار عليها: أنها تشتمل عليها.

٨ ـ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم﴾ أي: النار، أو الحطمة ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ مطبقة.

٩ ـ ﴿فِي عَمَدٍ﴾[2] بضمتين كوفيّ غير حفص. الباقون ﴿في عَمَد﴾ وهما لغتان في جمع: عماد، كإهاب وأهب، وحمار وحمر ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي: تؤصد عليهم الأبواب، وتمدّد على الأبواب العمد استيثاقاً في استيثاق. في الحديث: «المؤمن كيّس فطن، وقّاف متثبّت، لا يعجل، عالم، ورع. والمنافق همزة، لمزة، حطمة، كحاطب الليل، لا يبالي من أين اكتسب، وفيم أنفق»[3].

* * *

(١) في الأصل المخطوط: تعذيب، والمثبت من المطبوع، وهو أنسب.
(٢) أثبت المؤلف ـ رحمه الله ـ في الأصل قراءة: ﴿عُمُدٍ﴾ وهي: حمزة، والكسائي، وعاصم، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨/ ٢٣٥).
(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٦٥٤٤) وانظره في فيض القدير (٩١٥٨).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)

١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ ﴿كيف﴾ في موضع نصب بـ ﴿فعل﴾ لا بـ ﴿ألم تر﴾ لما في ﴿كيف﴾ من معنى الاستفهام. والجملة سدّت مسدّ مفعولي ﴿تر﴾. وفي ﴿ألم تر﴾ تعجيب. أي: عجّب الله نبيّه من كفر العرب، وقد شاهدت هذه العظيمة من آيات الله. والمعنى: إنّك رأيت آثار صنع الله بالحبشة، وسمعت الأخبار به متواترة، فقامت لك مقام المشاهدة ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.

روي: أنّ أَبرهة بن الصَبَّاح ملك اليمن من قبل أصحَمة النجاشيّ، بنى كنيسةً بصنعاء، وسمّاها: القُلَّيس، وأراد أن يصرف إليها الحاجّ. فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلاً، فأغضبه ذلك. وقيل: أجّجت رفقة من العرب ناراً، فحملتها الريح، فأحرقتها، فحلف ليهدمنّ الكعبة. فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه: محمود ـ وكان قوياً عظيماً ـ واثنا عشر فيلاً غيره. فلما جاء مُغَمِّسَ خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع، فأبى وعبأ جيشه، وقدّم الفيل، فكانوا كلّما وجّهوه إلى الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجّهوه إلى اليمن هرول، فأرسل الله طيراً، مع كلّ طائر حجر في منقاره، وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحِمَّصَةِ. فكان الحجر يقع على رأس الرجل،

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

فيخرج من دبره، وعلى كلّ حجر اسم من يقع عليه، ففرّوا، وهلكوا. وما مات أبرهة حتى انصدع صدره عن قلبه. وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتّى بلغ النجاشي، فقصّ عليه القصّة، فلمّا أتمّها وقع عليه الحجر، فخرّ ميّتاً بين يديه.

وروي: أنّ أبرهة أخذ لعبد المطلب مئتي بعير، فخرج إليه فيها. فعظم في عينه، وكان رجلاً جسيماً وسيماً. وقيل: هذا سيّد قريش، وصاحب عير مكّة الذي يطعم الناس في السهل، والوحوش في رؤوس الجبال. فلمّا ذكر حاجته قال: سقطت من عيني، جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين أبائك، وشرفكم في قديم الدهر، فألهاك عنه ذود[1] أخذ لك! فقال: أنا ربّ الإبل، وللبيت ربّ سيمنعه.

٢ ـ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ في تضييع وإبطال. يقال: ضلّل كيده: إذا جعله ضالاً ضائعاً. وقيل لامرىء القيس: الملك الضلّيل؛ لأنّه ضلّل ملك أبيه. أي: ضيّعه. يعني: أنّهم كادوا البيت أوّلاً ببناء القليس، ليصرفوا وجوه الحاجّ إليه فَضُلِّلَ كيدهم بإيقاع الحريق فيه. وكادوه ثانياً بإرادة هدمه، فضلّل [كيدهم][2] بإرسال الطير عليهم.

٣ ـ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ حزائق[3]، الواحدة: إبّالة. قال الزجّاج جماعات من ها هنا، وجماعات من ها هنا.

٤ ـ ﴿تَرْمِيهِم﴾ وقرأ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ ﴿يرميهم﴾ أي: الله، أو: الطير؛ لأنّه اسم جمع مذكّر. وإنّما يؤنّث على المعنى ﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ هو معرّب من: «سَنْك كِلْ» وعليه الجمهور، أي: الآجر.

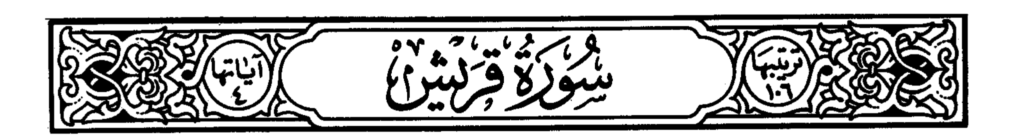
٥ ـ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ زرعٍ أكله الدود.

---

(١) «الذَّوْد»: جماعة الإبل بين الثلاث والعشر.

(٢) ليست في الأصل المخطوط.

(٣) أي: جماعات، وحزائق: جمع حَزيقة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾

١ - ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلّق بقوله ﴿فليعبدوا﴾. أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين. ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط. أي: إنّ نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة. أو بما قبله أي: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥] ﴿لإيلاف قريش﴾ يعني: أنّ ذلك الإتلاف لهذا الإيلاف. وهذا كالتضمين في الشعر، وهو: أن: يتعلّق معنى البيت بالذي قبله تعلّقا لا يصحّ إلاّ به. وهما في مصحف أبيٍّ سورةٌ واحدة بلا فصل. ويروى عن الكسائي ترك التسمية بينهما. والمعنى: أنّه أهلك الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيحترموهم فضل احترام؛ حتّى ينتظم لهم الأمن في رحلتيهم، فلا يجترىء أحد عليهم. وقيل المعنى: اعجبوا ﴿لإيلاف قريش﴾. (لإلاف قريش) شاميٌّ، أي: لمؤالفة قريش. وقيل: يقال: ألفته، إلفا، وإلافا. وقريش: ولد النضر بن كنانة. سمّوه بتصغير القِرْش. وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن فلا تطاق إلا بالنار. والتصغير للتعظيم. فسمّوا بذلك لشدّتهم، ومنعتهم تشبيهاً بها. وقيل:

﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾

من القَرْش، وهو الكسب؛ لأنّهم كانوا كسّابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد.

٢ ـ ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ أطلق الإيلاف، ثمّ أبدل عنه المقيّد بالرحلتين تفخيماً لأمر الإيلاف، وتذكيراً لعظيم النعمة فيه. ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولاً به. وأراد رحلتي الشتاء والصيف. فأفرد لأمن الإلباس.

وكانت لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون، ويتّجرون. وكانوا في رحلتيهم آمنين؛ لأنّهم أهل حرم الله، فلا يُتَعرّضُ لهم، وغيرهم يُغَارُ عليهم.

٣، ٤ ـ ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ * ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ والتنكير في ﴿جوع﴾ و﴿خوف﴾ لشدّتهما. يعني: ﴿أطعمهم﴾ بالرحلتين ﴿من جوع﴾ شديد كانوا فيه قبلهما ﴿وآمنهم من خوف﴾ عظيم، وهو خوف أصحاب الفيل، أو: حوف التخطّف من بلدهم ومسايرهم. وقيل: كانوا قد أصابتهم شدّة حتّى أكلوا الجيف، والعظام المُحْرَقَةَ ﴿وآمنهم من﴾ خوف الجذام، فلا يصيبهم ببلدهم. وقيل: ذلك كلّه بدعاء إبراهيم عليه السلام.

* * *

سُورَةُ المَاعُون

ترتيبها ١٠٧ — آياتها ٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

١، ٧ ـ ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أي: هل ﴿رأيت الذي يكذّب﴾ بالجزاء من هو؟ إن لم تعرفه ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الذي يكذّب بالجزاء هو ﴿الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى، ويردّه ردّاً قبيحاً بزجر وخشونة ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ولا يبعث أهله ﴿على﴾ بذل ﴿طعام المسكين﴾. جعل علم التكذيب بالجزاء، منع المعروف، والإقدام على إيذاء الضعيف. أي: لو آمن بالجزاء، وأيقن بالوعيد لخشي الله وعقابه، ولم يقدم على ذلك. فحين أقدم عليه دلّ أنّه مكذّب بالجزاء. ثمّ وصل به قوله ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يعني بهذا: المنافقين. أي: لا يصلّونها سرّاً؛ لأنّهم لا يعتقدون وجوبها، ويصلّونها علانيةً رياءً. وقيل: ﴿فويل﴾ للمنافقين ﴿الذين﴾ يدخلون أنفسهم في جملة المصلّين صورة، وهم غافلون عن صلاتهم، وأنّهم لا يريدون بها قربة إلى ربّهم، ولا تأدية لفرض. فهم ينخفضون ويرتفعون ولا يدرون ماذا

. . . .

يفعلون، ويظهرون للناس أنّهم يؤدّون الفرائض، ويمنعون الزكاة وما فيه منفعة.

وعن أنس والحسن قالا: الحمد لله الذي قال: ﴿عن صلاتهم﴾ ولم يقل: في صلاتهم؛ لأنّ معنى «عن»: أنّهم ساهون عنها سهو ترك لها، وقلّة التفات إليها، وذلك فعل المنافقين. ومعنى «في»: أنّ السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان، أو حديث نفس. وذلك لا يخلو عنه مسلم، وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره.

والمراءاة مفاعلة من الإراءة لأن المرائي يري الناس عمله، وهم يُرونَه الثناء عليه والإعجاب به. ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار الفرائض. فمن حقّها الإعلان بها، لقوله ﷺ: «ولا غُمَّةَ في فرائض الله»[1]. والإخفاء في التطوّع أولى. فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً. والماعون: الزكاة. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ما يُتَعاوَرُ في العادة بين الناس من القدر، والدلو، والمِقْدَحة، ونحوها. وعن عائشة رضي الله عنها: الماء، والنار، والملح.

* * *

(١) قال في: الكشاف (٤/٨٠٥): لا يكون الرجل مرائياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة، فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها، لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

---

١ ـ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ هو فوعل من الكثرة، وهو المفرط الكثرة. وقيل: هو نهر في الجنّة أحلى من العسل، وأشدّ بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزُّبْدِ. حافتاه الزبرجد، وأوانيه من فضّة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الخير الكثير. فقيل له: فإنَّ ناساً يقولون: هو نهر في الجنة، فقال: هو من الخير الكثير.

٢ ـ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ فاعبد ربّك، الذي عزّك بإعطائه، وشرّفك، وصانك من منن الخلق، مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله ﴿وَٱنْحَرْ﴾ لوجهه وباسمه إذا نحرت مخالفاً لعبدة الأوثان في النحر لها.

٣ ـ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ إنَّ من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن كلّ خير لا أنت؛ لأنّ كلّ من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك. وذكرك مرفوع على المنابر وعلى لسان كلّ عالم وذاكر إلى آخر الدهر. يبدأ بذكر الله، ويُثنّى بذكرك. ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف، فمثلك لا يقال له: أبتر، إنّما الأبتر هو شانئك المنسيّ في الدنيا والآخرة. قيل: نزلت في العاص بن وائل. سمّاه: الأبتر. والأبتر: الذي لا عقب له. وهو خبر إنّ. و﴿هو﴾ فصل.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥

١ ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المخاطبون كفرة مخصوصون، علم الله أنهم لا يؤمنون.

روي: أنّ رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلمّ فاتّبع ديننا ونتّبع دينك، تعبد آلهتنا سنةً، ونعبد إلهك سنة. فقال: «معاذ الله أن أشرك بالله غيره» قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك. فنزلت، فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم، فأيسوا[1].

٢، ٣ ـ ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: لست في حالي هذه عابداً ما تعبدون ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ الساعة ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ يعني: الله.

٤، ٥ ـ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ ولا أعبد فيما أستقبل ما عبدتم ﴿وَلَآ أَنتُمْ﴾ فيما تستقبلون ﴿عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾. وذكر بلفظ ﴿ما﴾ لأنّ المراد به: الصفة. أي: لا أعبد الباطل، ولا تعبدون الحقّ. أو: ذكر بلفظ ﴿ما﴾ ليتقابل

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٤/ ٨٠٨).

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

اللفظان. ولم يصحّ في الأوّل «مَنْ» وصحّ في الثاني ﴿ما﴾ بمعنى الذي.

٦ - ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] لكم شرككم ولي توحيدي. وبفتح الياء نافع وحفص.

روي: أنّ ابن مسعود - رضي الله عنه - دخل المسجد والنبي ﷺ جالس، فقال له: «نابذ يا بن مسعود» فقرأ: ﴿قل يا أيهاالكافرون﴾. ثمّ قال له في الركعة الثانية: «أخلص». فقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾. فلمّا سلّم قال: «يا بن مسعود سل تجب».

* * *

(١) أثبت المؤلف - رحمه الله - في الأصل قراءة: ﴿ولِيْ﴾ وهي قراءة: أبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، وغيرهم. معجم القراءات القرآنية (٨/ ٢٥٧).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ

---

١ ـ ﴿إِذَا﴾ منصوب بسبّح، وهو لما يستقبل. والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوّة وروي: أنها نزلت في أيّام التشريق بِمِنىً في حجّة الوداع ﴿جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ النصر: الإعانة والإظهار على العدوّ. والفتح: فتح البلاد. والمعنى: نصر رسول الله ﷺ على العرب، أو: على قريش وفتح مكّة، أو: جنس نصر الله للمؤمنين، وفتح بلاد الشرك عليهم.

٢ ـ ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ﴾ هو حال من الناس على أنّ ﴿رأيت﴾ بمعنى: أبصرت، أو عرفت، أو مفعول ثانٍ على أنّه بمعنى علمت ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ هو حال من فاعل ﴿يدخلون﴾. وجواب إذا ﴿فسبح﴾. أي: ﴿إذا جاء نصر الله﴾ إيّاك على من ناوأك، وفتح البلاد، ورأيت أهل اليمن يدخلون في ملّة الإسلام جماعاتٍ كثيرة بعد ما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً، واثنين اثنين.

٣ ـ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ فقل: سبحان الله حامداً له، أو: فصلّ له

﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾

﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ تواضعاً وهضماً للنفس، أو: دم على الاستغفار ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ ولم يزل ﴿تَوَّابًا﴾.

ويروى: أنّ عمر ـ رضي الله عنه ـ لمّا سمعها بكى، وقال: الكمال دليل الزوال، وعاش رسول الله ﷺ سنتين بعدها.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾

١ ـ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ التباب: الهلاك. ومنه قولهم: أشابّة أم تابّة؟ أي: هالكة من الهرم. والمعنى: هلكت يداه، لأنّه فيما يروى أخذ حجراً ليرمي به رسول الله ﷺ ﴿وَتَبَّ﴾ وهلك كلّه. أو جعلت يداه هالكتين، والمراد هلاك جملته كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. ومعنى ﴿وتبّ﴾: وكان ذلك وحصل، كقوله:

جَـزَاني جَـزَاهُ اللهُ شَـرَّ جَـزَائِـهِ جَزَاءَ الكلابِ العاوياتِ، وَقَدْ فَعَلْ

وقد دلّ عليه قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ (وقد تبّ). روي: أنّه لمّا نزل ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ رقي الصفا، وقال: يا صباحاه، فاستجمع إليه الناس من كلّ أوب، فقال ﷺ: «يا بني عبد المطلب! يا بني فهر! إن أخبرتكم أنّ بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي الساعة». فقال أبو لهب: تبّاً لك. ألهذا دعوتنا؟ فنزلت[١]. وإنّما كناه

(١) رواه البخاري (٤٩٧١) ومسلم (٢٠٨).

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾

والتكنية تكرمة لاشتهاره بها دون الاسم، ولكراهة اسمه، فاسمه عبد العزّى، ولأنّ مآله إلى نارٍ لهبٍ، فوافقت حاله كنيته، ﴿أبي لهب﴾ مكّيٌّ.

٢ ـ ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ﴾ ﴿ما﴾ للنفي ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مرفوع. وما موصولة، أو مصدريّة. أي: ومكسوبه أو وكسبه. أي: لم ينفعه ماله الذي ورثه من أبيه، والذي كسبه بنفسه. أو: ماله التالد والطارف. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ما كسب﴾، ولده. وروي: أنّه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقّاً؛ فأنا أفتدي منه نفسي بمالي، وولدي.

٣ ـ ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ سيدخل ﴿سَيُصْلَىٰ﴾ البرجميُّ عن أبي بكر. والسين للوعيد. أو: كائن لا محالة؛ وإن تراخى وقته ﴿نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ توقّد.

٤ ـ ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ هي: أمّ جميل، بنت حرب، أخت أبي سفيان ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ كانت تحمل حزمةً من الشوك والحسك، فتنثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ. وقيل: كانت تمشي بالنميمة، فتشعل نار العداوة بين الناس. ونصب عاصم ﴿حمّالة الحطب﴾ على الشتم. وأنا أحبُّ هذه القراءة. وقد توسّل إلى رسول الله ﷺ بجميلٍ من أحبّ شتم أمّ جميل. وعلى هذا يسوغ الوقف على ﴿امرأته﴾ لأنّها عطفت على الضمير في ﴿سيصلى﴾ أي: سيدخل هو وامرأته. والتقدير: أعنى ﴿حمّالةَ الحطب﴾. وغيره رفع ﴿حمالةُ الحطب﴾ على أنّها خبر ﴿وامرأتُه﴾. أو: هي ﴿حمالةُ﴾.

٥ ـ ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ حال، أو خبر آخر. والمسد الذي فتل من الحبال فتلاً شديداً من ليفٍ كان، أو جلد، أو غيرهما. والمعنى: ﴿في جيدها حبل﴾ ممّا مسد من الحبال، وأنّها تحمل تلك الحزمة من الشوك، وتربطها في جيدها؛ كما يفعل الحطّابون، تحقيراً لها، وتصويراً لها بصورة بعض الحطّابات؛ لتجزعِ من ذلك، ويجزع بعلها، وهما في بيت العزّ والشرف، وفي منصب الثروة والجِدةِ.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾

١ ـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿هو﴾ ضمير الشأن. و﴿الله أحد﴾ هو الشأن؛ كقولك: هو زيد منطلق. كأنّه قيل: الشأن هذا، وهو: أنّ الله واحدٌ لا ثاني له. ومحلُّ ﴿هو﴾: الرفع على الابتداء. والخبر هو الجملة، ولا يحتاج إلى الراجع؛ لأنّه في حكم المفرد في قولك: زيد غلامك؛ في أنّه هو المبتدأ في المعنى. وذلك: أنّ قوله: ﴿الله أحد﴾ هو الشأن الذي ﴿هو﴾ عبارة عنه. وليس كذلك: زيد أبوه منطلقٌ، فإنّ زيد والجملة يدلّان على معنيين مختلفين، فلا بدّ ممّا يصل بينهما.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قالت قريش: يا محمد صف لنا ربّك الذي تدعونا إليه. فنزلت. يعني: الذي سألتموني وصفه ﴿هو الله﴾. وعلى هذا ﴿أحد﴾: خبر مبتدأ محذوف. أي: هو ﴿أحد﴾. وهو بمعنى: واحد، وأصله وَحَدْ، فقلبت الواو همزة لوقوعها طرفاً. والدليل على أنّه واحد من جهة العقل: أنّ الواحد إمّا أن يكون كافياً في تدبير العالم وتخليقه أو لا يكون. فإن

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾

كان كافياً؛ كان الآخر ضائعاً، غير محتاج إليه، وذلك نقص، والناقص لا يكون إلهاً. وإن لم يكن كافياً فهو ناقص، ولأنّ العقل يقتضي احتياج المفعول إلى فاعل، والفاعل الواحد كافٍ، وما وراء الواحد فليس عدد أولى من عدد، فيفضي ذلك إلى وجود أعدادٍ لا نهاية لها، وذا محال. فالقول بوجود إلهين محال، ولأنّ أحدهما إمّا أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله عن الآخر، أو لا يقدر. فإن قدر لزم كون المستور عنه جاهلاً، وإن لم يقدر لزم كونه عاجزاً. ولأنّا لو فرضنا معدوماً ممكن الوجود، فإن لم يقدر واحدٌ منهما على إيجاده كان كلٌّ واحدٍ منهما عاجزاً، والعاجز لا يكون إلهاً. وإن قدر أحدهما دون الآخر فالآخر لا يكون إلهاً. وإن قدرا جميعاً فإمّا أن يوجدا بالتعاون، فيكون كلّ واحدٍ منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر، فيكون كلُّ واحدٍ منهما عاجزاً. وإن قدر كلُّ واحدٍ منهما على إيجاده بالاستقلال، فإذا أوجده أحدهما فإمّا أن يبقى الثاني قادراً عليه وهو محال. وإن لم يبق فحينئذٍ يكون الأوّل مزيلاً قدرة الثاني، فيكون عاجزاً ومقهوراً تحت تصرّفه، فلا يكون إلهاً. فإن قلت: الواحد إذا أوجد مقدوراً بنفسه فقد زالت قدرته، فيلزمكم أن يكون هذا الواحد قد جعل نفسه عاجزاً. قلنا: الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد نفذت قدرته، ومن نفذت قدرته لا يكون عاجزاً. وأمّا الشريك فما نفذت قدرته، بل زالت قدرته بسبب قدرة الغير فكان ذلك تعجيزاً.

٢ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ هو فَعَلٌ بمعنى مفعول من: صمد إليه: إذا قصده. وهو السيّد المصمود إليه في الحوائج. والمعنى: ﴿هو الله﴾ الذي تعرفونه، وتقرّون بأنّه خالق السموات والأرض، وخالقكم، وهو واحدٌ لا شريك له، وهو الذي يصمُد إليه كلّ مخلوق، لا يستغنون عنه، وهو: الغنيُّ عنهم.

٣ ـ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأنّه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوألدا. وقد دلّ على هذا المعنى بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن كلّ مولود محدث وجسم. وهو قديم لا أوّل لوجوده؛ إذ لو لم يكن قديماً لكان حادثاً لعدم الواسطة بينهما. ولو

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾

كان حادثاً لافتقر إلى محدث. وكذا الثاني، الثالث. فيؤدّي إلى التسلسل، وهو باطل. وليس بجسم لأنّه اسم للمتركّب. ولا يخلو حينئذٍ من أن يتّصف كلّ جزء منه بصفات الكمال فيكون كلُّ جزء إلهاً فيفسد القول به كما فسد بإلهين. أو غير متّصف بها بل بأضدادها من سمات الحدَثِ، وهو محال.

٤ - ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ولم يكافئه أحد. أي: لم يماثله.

سألوه أن يصفه لهم فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته تعالى. فقوله: ﴿هو الله﴾ إشارة إلى أنّه خالِق الأشياء وفاطرها. وفي طيّ ذلك وصفه بأنّه قادر عالم؛ لأنّ الخلق يستدعي القدرة والعلم، لكونه واقعاً على غاية إحكام واتّساق وانتظام. وفي ذلك وصفه بأنّه حيٌّ؛ لأنّ المتّصف بالقدرة والعلم لابدّ وأن يكون حيّاً. وفي ذلك وصفه بأنّه سميعٌ، بصيرٌ، مريدٌ، متكلّمٌ، إلى غير ذلك من صفات الكمال، إذ لو لم يكن موصوفاً بها لكان موصوفاً بأضدادها، وهو نقائص، وذا من أمارات الحدث، فيستحيل اتّصاف القديم بها. وقوله: ﴿أحد﴾ وصفٌ بالوحدانيّة، ونفي الشريك، وبأنّه المتفرّد بإيجاد المعدومات، والمتوحّد بعلم الخفيّات. وقوله: ﴿الصمد﴾ وصف بأنّه ليس إلاّ محتاجاً إليه. وإذا لم يكن إلاّ محتاجاً إليه فهو غنيٌّ لا يحتاج إلى أحد، ويحتاج إليه كلّ أحد. وقوله: ﴿لم يلد﴾ نفيٌ للشبه والمجانسة. وقوله: ﴿لم يولد﴾ نفيٌ للحدوث، ووصفٌ بالقدم، والأوّلية. وقوله: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ نفيٌ أن يماثله شيءٌ. ومن زعم أنّ نفي الكفء - وهو المثل - في الماضي لا يدلّ على نفيه للحال، والكفّار يدّعونه في الحال؛ فقد تاه في غيّه؛ لأنّه إذا لم يكن فيما مضى لم يكن في الحال ضرورةً؛ إذ الحادث لا يكون كفؤاً للقديم. وحاصل كلام الكفرة يؤول إلى الإشراك، والتشبيه، والتعطيل. والسورة تدفع الكلّ كما قرّرنا.

واستحسن سيبويه تقديم الظرف إذا كان مستقرّاً؛ أي: خبراً؛ لأنّه لمّا كان محتاجاً إليه قُدِّم ليعلم من أوّل الأمر أنّه خبرٌ لا فضلةٌ؛ وتأخيره إذا كان لغواً؛ أي: فضلةً؛ لأنّ التأخير مستحقّ للفضلات. وإنّما قدّم في الكلام الأفصح؛

. . . .

لأنّ الكلام سيق لنفي المكافأة عن ذات الباريء، وهذا المعنى مصبُّه ومركزه هذا الظرف، فكان الأهمّ تقديمه.

وكان أبو عمرو يستحبُّ الوقف على ﴿أحد﴾ ولا يستحبّ الوصل. قال عبد الوارث: على هذا أدركنا القرّاء. وإذا وصل نوّن، وكسر، أو حذف التنوين كقراءة ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿كفؤاً﴾ بسكون الفاء والهمزة: حمزة وخلف ﴿كُفُواً﴾ مثقّلة غير مهموزة، حفص. الباقون: مثقّلة مهموزة. وفي الحديث: «من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن»(١) لأنّ القرآن يشتمل على توحيد الله، وذكر صفاته، وعلى الأوامر والنواهي، وعلى القصص والمواعظ. وهذه السورة تجرّدت للتوحيد والصفات، فقد تضمّنت ثلث القرآن. وفيه دليل شرف علم التوحيد. وكيف لا يكون كذلك والعلم يشرف بشرف المعلوم، ويتضّع بضعته؟! ومعلوم هذا العلم هو الله وصفاته. وما يجوز عليه وما لا يجوز عليه. فما ظنّك بشرف منزلته وجلالة محلّه؟! اللهم احشرنا في زمرة العالمين بك والعاملين لك، الراجين لثوابك، الخائفين من عقابك، المُكَرَّمين بلقائك. وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ فقال: «قد وجبت» فقيل: يا رسول الله ما وجبت؟! قال: «وجبت له الجنّة»(٢).

* * *

---

(١) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (١١٨).
(٢) رواه الترمذي (٢٨٩٧).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣

١ ـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي: الصبح، أو الخلق، أو: هو وادٍ في جهنّم، أو: جبّ فيها.

٢ ـ ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: النار، أو الشيطان. و﴿ما﴾ موصولة، والعائد محذوف. أو: مصدريّة، ويكون الخلق بمعنى المخلوق. وقرأ أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ ﴿من شرٍّ﴾ بالتنوين. و﴿ما﴾ على هذا مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجرّ بدل من ﴿شرٍّ﴾ أي: من شرّ خلقه. أي: من خلق شرٍّ. أو: زائدة.

٣ ـ ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الغاسق: الليل إذا كثف ظلامه. ووقوبه: دخول ظلامه في كلّ شيء. وعن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر فقال: «تعوّذي بالله من شرّ هذا، فإنه الغاسق إذا وقب»[١]. ووقوبه: دخوله في الكسوف واسوداده.

(١) رواه الترمذي (٣٣٦٦).

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾

٤ ـ ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ النفاثات: النساء، أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن عليها، ويرقين. والنفث: النفخ مع ريق. وهو دليل على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقّق السحر، وظهور أثره.

٥ ـ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي: إذا أظهر حسده، وعمل بمقتضاه؛ لأنّه إذا لم يظهر فلا ضرر يعود منه على من حسده، بل هو الضارّ لنفسه لاغتمامه بسرور غيره، وهو الأسف على الخير عند الغير.

والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق إشعار بأنّ شرَّ هؤلاء أشدّ. وختم بالحسد ليعلم أنّه شرُّها. وهو أوّل ذنب عصي الله به في السماء من إبليس، وفي الأرض من قابيل. وإنّما عرّف بعض المستعاذ منه ونكّر بعضه؛ لأنّ كلّ نفّاثة شريرة؛ فلذا عرفت النفاثات؛ ونكّر غاسق؛ لأنّ كلّ غاسق لا يكون فيه الشرّ. إنّما يكون في بعضٍ دون بعض. وكذلك كلّ حاسد لا يضر. وربّ حسدٍ يكون محموداً كالحسد في الخيرات.

* * *



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾

---

١ ـ ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مربّيهم ومصلحهم.

٢ ـ ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ مالكهم ومدبر أمورهم.

٣ ـ ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ معبودهم. ولم يكتف بإظهار المضاف إليه مرّة واحدة؛ لأنّ قوله: ﴿ملك الناس * إله الناس﴾ عطف بيان ﴿لربّ الناس﴾. لأنّه يقال لغيره: رب الناس، وملك الناس، وأما ﴿إله الناس﴾ فخاصٌّ لا شركة فيه. وعطف البيان للبيان، فكان مظنّة للإظهار دون الإضمار. وإنّما أضيف الربّ إلى الناس خاصة، وإن كان ربّ كلّ مخلوق، تشريفاً لهم، ولأنّ الاستعاذة وقعت من شرّ الموسوس في صدور الناس. فكأنّه قيل: أعوذ من شرّ الموسوس إلى الناس بربّهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إلههم ومعبودهم. وقيل: المراد بالناس الأوّل: الأطفال، ومعنى الربوبيّة يدلّ عليه، وبالثاني: الشباب، ولفظ الملك المنبىء عن السياسة يدلّ عليه، وبالثالث: الشيوخ، ولفظ الإله المنبىء عن العبادة يدل عليه، وبالرابع: الصالحين، إذ الشيطان مولع بإغوائهم،

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

وبالخامس: المفسدين؛ لعطفه على المعوذ منه.

٤ ـ ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو اسم بمعنى: الوسوسة، كالزلزال بمعنى: الزلزلة. وأمّا المصدر: فوسواس ـ بالكسر ـ كالزلزال. والمراد به: الشيطان. سمّي بالمصدر: كأنّه وسوسة في نفسه لأنّها شغله الذي هو عاكف عليه. أو أريد ذو الوسواس. والوسوسة: الصوت الخفيُّ ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنِس. منسوب إلى الخنوس وهو: التأخّر، كالعوّاج، والبتات. لما روي عن سعيد بن جبير: إذا ذكر الإنسان ربّه خنس الشيطان وولّى، وإذا غفل رجع ووسوس إليه.

٥ ـ ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ في محلّ الجرّ على الصفة. أو: الرفع، أو: النصب على الشتم. وعلى هذين الوجهين يحسن الوقف على ﴿الخنّاس﴾.

٦ ـ ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، على أنّ الشيطان ضربان: جنّيٌّ، وإنسيٌّ، كما قال: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وعن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال لرجل: هل تعوّذت بالله من شيطان الإنس؟

روي: أنّه ﷺ سحر فمرض. فجاءه ملكان وهو نائم فقال أحدهما لصاحبه: ما باله؟ فقال: طُبّ. قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن أعصم اليهوديّ. قال: وبم طبّه؟ قال: بمشطٍ ومشُاطةٍ في جُفِّ طلعةٍ، تحت راعوفة في بئر ذي أروان. فانتبه ﷺ، فبعث زبيراً، وعليّاً وعمّاراً ـ رضي الله عنهم ـ فنزحوا ماء البئر وأخرجوا الجفّ فإذا فيه مشاطة رأسه، وأسنان من مشطه، وإذا فيه وتر معقّد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر. فنزلت هاتان السورتان، فكلّما قرأ جبريل آية انحلّت عقدة، حتّى قام ﷺ عند انحلال العقدة الأخيرة، كأنّما نشط من عقال. وجعل جبريل يقول: باسم الله أرقيك، والله يشفيك من كلّ داء

. . . .

يؤذيك[1] ولهذا جوّزوا الاسترقاء بما كان من كتاب الله وكلام رسوله ﷺ، لا بما كان بالسريانيّة، والعبرانية، والهنديّة، فإنّه لا يحلُّ اعتقاده والاعتماد عليه.

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا وأقوالنا، ومن شرّ ما عملنا وما لم نعمل، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله ونبيّه وصفيّه أرسله ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله مصابيح الأنام، وأصحابه مفاتيح دار السلام.

والله أعلم بالصواب، وإليه الملجأ والمآب.

* * * *
* * *
* *
*

(١) رواه البخاري (٥٧٦٦) ومسلم (٢١٨٩).

الفهارس العلمية

بداية الحديث | الجزء والصفحة

حرف همزة الوصل

حرف همزة القطع

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الواو

حرف الهاء

حرف «لا»

حرف الياء

فهرس الآيات

(٣٤) سبأ

(٣٥) فاطر

(٤٠) غافر

(٤٣) الزخرف

(٤٤) الدخان

(٤٥) الجاثية

(٤٦) الأحقاف

(٦٠) الممتحنة

(٦١) الصف

(٦٢) الجمعة

(٦٣) المنافقون

(٦٤) التغابن

(٦٥) الطلاق

(٦٦) التحريم

(٦٧) الملك

(٦٨) القلم

(٦٩) القلم

(٧٠) المعارج

(٧١) نوح

(٧٢) الجن

(٧٣) المزمل

(٧٤) المدثر

(٧٨) النبأ

(٧٩) النازعات

(٨٠) عبس

(٨١) التكوير

(٨٢) الانفطار